

كان التاريخية
ISSN: 2090 - 0449
www.kanhistorique.org
Dawriyyat Kān al-Tārīḫiyyat
أول دورية عربية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية
متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩
صدر العدد الأول سبتمبر ٢٠٠٨
السنة الثالثة عشرة
العدد الثامن والأربعون
يونيو ٢٠٢٠ – شوال ١٤٤١
تصدر عن مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر
Historical Kan Periodical
رقمية الموطن عربية الهويـة عالمية الأداء
مسجلة في الدليل العالمي DRJI
مسجلة في الدليل العالمي Citefactor
مسجلة في الفهرس العلمي العالمي ISI
حاصلة على معرّف الوثيقة الرقمي DOI
متوفرة عبر دار ناشري للنشر الإلكتروني - الكويت
حاصلة على معامل التأثير العربي للمجلات العلمية (1.3)
مسجلة في دليل أولريخ الدولي للدوريات تحت رقم (688814)
حاصلة على اعتماد «المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية»
مفهرسة في Root Indexing
مفهرسة في كروسريف Crossref
مفهرسة في دار المنظومة السعودية
مفهرسة في قاعدة البيانات معرفة – الأردن
مفهرسة في قاعدة بيانات المنهل – الإمارات
مفهرسة في قاعدة البيانات العالمية EBSCO
مفهرسة في Eurasian Scientific Journal
مفهرسة في الباحث العلمي Google Scholar
ISSN 0209-004X
9 770209 004499



دورية كان التاريخية.- س١٣، ع٤٨ (يونيو ٢٠٢٠/ شوال ١٤٤١)

Dawriyyaẗ Kān al-Tārīẖiyyaẗ
Iliktrūniyyaẗ, muḥakkamaẗ , rub' sanawiyyaẗ
Vol. 13, no. 48 [June 2020]
Cairo – Arab Republic of Egypt.
http://www.kanhistorique.org
Information on this issue: https://kan.journals.ekb.eg

دورية كان التاريخية

إصدار مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر.- س١، ع١ (سبتمبر ٢٠٠٨).- القاهرة: المؤسسة، ٢٠٠٨ – ٢٠٢٠.

دورية إلكترونية مُحَكَّمة ربع سنوية

متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية

ردمد ٠٤٤٩ – ٢٠٩٠

١- تاريخ ٢- الآثار

٣- التراجم ٤ - التراث

ديوي ٩٠٥

Historical Kan Periodical
Published by Historical Kan Organization.- Vol.1, no.1 [September 2008].- Cairo: Organization, 2008 – 2020.
Peer-reviewed, open-access journal.
Indexed and abstracted in several international databases.
ISSN: 2090 – 0449 (Online)
Keywords: History, Heritage, Archaeology, Biographies.



أول دورية عربية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية
متخصصة في الدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول 1429هـ
صدر العدد الأول منها في سبتمبر 2008م

ISSN: 2090 – 0449 Online



أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:
دار ناشري للنشر الإلكتروني
أول دار نشر إلكترونية عربية مجانية تأسست يوليو ٢٠٠٣ – الكويت
www.nashiri.net



أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:
أرشيف الإنترنت الرقمي العالمي
منظمة غير ربحية – سان فرانسيسكو – الولايات المتحدة
www.archive.org



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة معلومات اللغة والأدب والعلوم الإنسانية
دار المنظومة "الرواد في قواعد المعلومات العربية" – السعودية
www.mandumah.com



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة بيانات المنهل
أول قاعدة بيانات عربية تأسست ٢٠١٠ – الإمارات
www.almanhal.com



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة البيانات العربية الرقمية "معرفة"
شركة عالم المعرفة للمحتوى الرقمي تأسست ٢٠٠٤ - الأردن
www.e-marefa.net



دورية كان التاريخية مدرجة في:
دليل الدوريات العربية المجانية
الدوريات العلمية المُحكّمة الصادرة في الوطن العربي والمتاحة على شبكة الإنترنت مجانًا
www.dfaj.net



موقع دورية كان التاريخية مسجل لدى:
هيئة الإنترنت للأسماء والأرقام المخصصة
الآيكان منظمة غير ربحية تأسست ١٩٩٨ – كاليفورنيا
www.icann.org



معتمدة من مركز مؤشر - برلين:
المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية
عن الالتزام بشروط النشر العلمي المعتمدة عالميًا.
https://indexpolls.de

مسجلة ومفهرسة في قواعد البيانات الببليوجرافية العالمية

- Academic Journals Database
- Access to Mideast and Islamic Resources, AMIR
- CORE: Open Access repositories
- Directory of Abstract Indexing for Journals, DAIJ
- Directory of Open Access Scholarly Resources, ROAD
- Directory of Research Journals Indexing, DRJI
- Eurasian Scientific Journal Index
- Google Scholar
- Host Online Research Databases, EBSCO
- Journal Database – Zurich Open Repository and Archive
- JOURNAL FACTOR – forum for promoting research work
- Journal Guide- Research Square
- ROOT INDEXING – Journal abstracting and indexing
- The researchBib Journal database
- Ulrichsweb
- WorldCat

مدرجة في الأدلة الرقمية لمكتبات الجامعات والمراكز البحثية العالمية

- Birmingham Public Library
- Max Planck Institute for the Physics of Complex Systems
- National Cheng Kung University Library
- National Taiwan Normal University Library
- NYPL (New York Public Library)
- OALib - Open Access Library
- OREGON Health & Science University
- San Francisco Public Library
- SAN JOSÉ STATE UNIVERSITY
- Stanford University Libraries & Academic Information Resources
- State Library of New South Wales
- State Library of Queensland (Australia)
- The J. Paul Getty Trust
- The University of Texas at El Paso Library
- Toronto Public Library
- UCDAVIS University Library
- University of California
- University of Michigan
- University of Rochester
- University of South Australia
- Villanova University

دراسات ومقالات الدورية مفهرسة وذات خلاصات

www.kanhistorique.org

المشرف العام

أ.د. عبد العزيز غوردو
أستاذ التاريخ والحضارة
المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين
وجدة – المملكة المغربية

تعتبر الدوريات شريانًا رئيسًا من شرايين المعلومات في المكتبات ومراكز المعلومات وخاصةً المكتبات الأكاديمية التي تولي اهتمامًا خاصًا للدوريات العلمية في مختلف مجالات المعرفة. ولقد ظلت الدوريات المطبوعة هي السائدة في مقتنيات المكتبات الأكاديمية حتى قبيل نهايات القرن العشرين وقبل التحول الجذري في وسائل نقل المعلومات إلى الوسيط الرقمي الذي يزداد يومًا بعد يوم.

الهيئة الاستشارية

الهيئة العلمية

هيئة التحرير

تحددت مهام أعضاء الهيئة الاستشارية وفق مذكرة تأسيس دورية كان التاريخية في غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية، حيث تتكون الهيئة الاستشارية من خبراء ومتخصصين بهدف التعاون مع طاقم عمل الدورية لخدمة البحث العلمي، وتقديم الدعم الفني من خلال تبادل الآراء والمقترحات. والتواصل مع المؤسسات الأكاديمية العربية والأساتذة والباحثين بما يعزز مكانة الدورية في الأوساط العلمية. وتقديم المشورة والنصح في الموضوعات المطروحة من قبل هيئة التحرير. والتعريف بأهداف الدورية، وتشجيع الباحثين على النشر العلمي الرقمي. وتولي مهمة التوصية فيما يتعلق بتطوير الدورية من حيث الشكل والمضمون.

عملت هيئة التحرير ومنذ اليوم الأول على بناء الأرضية الثقافية الرقمية من أجل المساعدة في استحداث وعي ثقافي تاريخي عند الجيل العربي الشاب، وخصوصًا فيما يتعلق بأهمية التاريخ والتراث وارتباطهما المباشر بالهوية العربية والإنتاج الإبداعي الثقافي المستدام





حاصلة على "**معامل التأثير العالمي**" (UIF) للمجلات العالمية والعلمية

حاصلة على "**معامل التأثير العربي**" (AIF) للدوريات العلمية العربية المّحَكَّمة

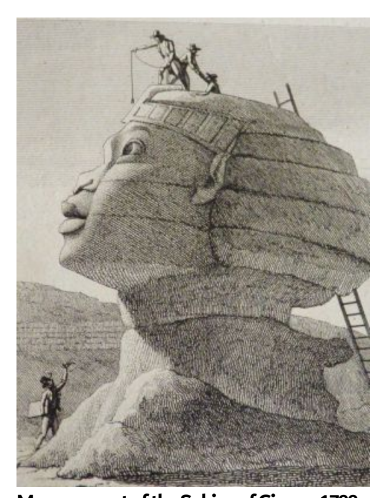
مسجلة في **دليل أولريخ الدولي للدوريات** (UlrichsWeb) تحت رقم ٦٨٨٨١٤

رئيس التحرير

أ.م.د. أشرف صالح محمد

أستاذ مشارك تاريخ وتراث العصور الوسطى

كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة ابن رشد



Measurement of the Sphinx of Giza, ca 1799

Dominique Vivant, Baron Denon (1747-1825). Egypt, 18th century

المراسلات

توجه المراسلات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

mr.ashraf.salih@gmail.com

historicalkan

groups/kanhistorique

kanhistorique

kanhistorique.blogspot.com

goodreads.com/kanhistorique

www.kan.nashiri.net

الإشعار القانوني

دورية كان التاريخية غير مدعومة من أية جهة داخلية أو خارجية أو حزب أو تيار سياسي، إنما هي منبر علمي ثقافي يعتمد على جهود المخلصين من أصحاب الفكر ومحبي الثقافة الذين يؤمنون بأهمية الدراسات التاريخية.

موضوعات الدورية

الدورية متخصصة في المقالات والدراسات العلمية والأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العربية، وأصحاب الدراسات العليا، والباحثين في الدراسات التاريخية، والمهتمين بالقراءات التاريخية، وتعبر الموضوعات المنشورة في الدورية عن وجهة نظر كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية أو هيئة التحرير.

حقوق الملكية الفكرية

حقوق الطبع والنشر والترجمة

رخصة التشارك الإبداعي

إدارة المعرفة

كَان التَّارِيْخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهُويّة الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

علاقات تعاون

ترتبط دورية كان التاريخية بعلاقات تعاون مع عدة مؤسسات عربية ودولية بهدف تعزيز العمل العلمي في المجالات ذات الاختصاص المشترك، وتعظيم الفائدة من البحوث والدراسات التي تنشرها الدورية، وتوسيع حجم المشاركة لتشمل الفائدة كل أنحاء الوطن العربي.



الرجاء مراعاة البيئة قبل الطباعة، لا تطبع صفحات الدورية إلا إذا كنت في حاجة إليها بصورة ورقية.



دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية

علمية. عالمية. مُحَكَّمَة. ربع سنوية

أخلاقيات النشر والنزاهة العلمية

يستند بيان أخلاقيات النشر وسوء الممارسة الخاص بدَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية على مدونة قواعد السلوك والمبادئ التوجيهية لأفضل الممارسات التي تهمّ محرري المجلّات العلمية والتي أصدرتها لجنة أخلاقيات النشر (COPE) (Committee on Publication Ethics) وتتخذ هيئة التحرير جميع الإجراءات اللآزمة ضد أي نوع من الممارسات الخاطئة في مجال النشر، وذلك بحفاظها على مراقبة جميع المراحل والإجراءات المتضمنة في عملية النشر العلمي. وبناءً على هذا يعتبر منع سوء الممارسة في النشر مثل الانتحال أو إعادة الطبع غير المصرّح به، أحد المسؤوليات الملزمة لفريق عمل الدورية، الذي لا يتسامح بدوره مع أي نوع من السلوك الذي لا يلتزم بأخلاقيات النشر، وهو مدرك تمامًا مسؤولياته والتزاماته الأخلاقية.

كان التّاريْخية هي أول دورية عربية مُحكمة ربع سنوية متخصصة في الدراسات التاريخية تصدر في شكل إلكتروني، تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية، وصدر العدد الأول منها في أيلول ٢٠٠٨. كان التّاريْخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهُويّة الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

مسؤولية رئيس التحرير

يتكون فريق عمل دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية من متخصّصين معترف بهم في مجال الدراسات التاريخية والأثرية والتراثية. ويتولّى رئيس تحرير الدورية نشر أسماء أعضاء الهيئة الاستشارية وهيئة التحرير وانتماءاتهم ومعلومات الاتصال بهم على موقع الدورية الرسمي عبر شبكة الإنترنت.

قرار النشر

يتحمل رئيس التحرير مسؤولية التصرف النهائي في جميع عمليات التقديم للنشر والمراجعات الرئيسة أو الجزئية أو القبول أو الرفض. ويستند قرار النشر أو عدم النشر إلى تقارير المحكّمين وملاحظاتهم والقيمة العلمية للبحث وأصالته ووضوحه وجدواه وصلته بمجال تخصص الدورية. وقد يحتاج رئيس التحرير إلى استشارة المحررين الآخرين أو المحكّمين المتخصصين في اتخاذ القرارات حول البحوث المقدمة. ويأخذ رئيس التحرير أيضًا بعين الاعتبار المسوّغات القانونية المتعلقة بالتشهير وانتهاك حقوق الطبع والنشر والسرقة الأدبية.

السرية

رئيس التحرير وأعضاء هيئة التحرير ليسوا ملزمين بالكشف عن أي معلومات حول البحث المقدّم لأي شخص آخر غير المؤلف والمحكّمين والمراجعين المحتملين ومستشاري التحرير الآخرين والناشر حسب الاقتضاء. إن عملية المراجعة العلمية سرية للغاية، والدورية ملتزمة التزامًا تامًا بسياسة مراجعة الأقران المزدوجة التعمية.

عملية التحكيم

تتم مراجعة المقالات في البداية من طرف رئيس التحرير. وقد يرفض رئيس التحرير المقال المقدم قبل إخضاعه لعملية مراجعة الأقران، إما لأنه لا يتّصل بنطاق وموضوعات الدورية أو لأنه ذو جودة متدنّية تجعله لا يرتقي للتحكيم على الإطلاق. وينبغي على رئيس التحرير تقييم المقالات بغض النظر عن انتماءات المؤلفين العرقية أو جنسهم أو معتقداتهم الدينية أو جنسيتهم أو مواقفهم الفكرية. وينبغي أن يستند قرار رئيس التحرير بقبول أو رفض المقال المقدم للنشر إلى أهمية العمل وأصالته ووضوحه وصلته بأهداف ومجال تخصص الدورية.
يتم إرسال المقالات التي اعتبرت مؤهلة للمراجعة إلى محكّمين اثنين على الأقل ممّنْ لديهم خبرة في مجال المادة المقدمة. ويجب أن يكون المحكّمون للمقال غير معروفين لبعضهم البعض. كما يطلب منهم أن يقرروا ما إذا كان المقال قابلاً للنشر كما هو، أم أنه قابل للنشر مع تغييرات طفيفة، أو تغييرات جذرية، أو لا يمكن نشره على الإطلاق. وينبغي على رئيس التحرير عدم النظر في إعطاء المؤلفين إمكانية ترشيح محكّمين أو طلبهم ألا يقوم محكّمون معينون بمراجعة أوراقهم.

النزاهة الأكاديمية وتضارب المصالح

يجب على رئيس التحرير وأعضاء هيئة التحرير عدم استخدام المواد غير المنشورة التي تم الكشف عنها في الورقة المقدمة لأغراضهم البحثية. ويجب الحفاظ على سرية الأفكار المبتكرة أو البيانات المكتسبة في عملية مراجعة الأقران بكل حزم ويجب عدم استخدامها للمصلحة الشخصية. ويجب على رئيس التحرير أن يطلب من المحكّمين الكشف عن أي تضارب مصالح عند قبولهم تحكيم عمل ما وعند إرسال تقارير التحكيم. كما يجب على رئيس التحرير أن يطلب من المحكّمين رفض المشاركة في التحكيم إذا كانوا في وضع لا يسمح لهم بالقيام بمراجعة غير متحيزة.

COPE

مسؤولية المؤلف (الكاتب)

يلتزم المؤلفون بمبادئ ومعايير أخلاقيات البحث والنشر العلمي، وتخضع جميع الأوراق العلمية لكشف السرقة الأدبية، وتُرفض كل ورقة بحثية لا تلتزم بسياسات وقواعد النشر المحددة من قبل دَّوريةُ كَان اَلْتَّارِيْخية. ويجب على المؤلف عند تقديم البحث تجنب الموضوعات غير الأخلاقية، والعرقية، والمذهبية، والمعلومات المزيفة، مع إدراج تفاصيل المصادر والمراجع ضمن الورقة البحثية.

دَّورية كان التَّاريْخية هي دورية علمية عالمية مُحَكَمة تعتمد سياسة المراجعة المزدوجة وتصدرها مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر. إن الهدف الرئيس من الدورية هو دعم الدراسات التاريخية المتخصصة وتوفير منصة فكرية للباحثين من كافة أنحاء العالم. تصدر الدورية أربعة أعداد في السنة وتقبل الأوراق البحثية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية. كما تنشر الدورية مقالات أصلية وعالية الجودة في مجالات العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظرًا لطبيعة التَّاريْخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. ويشمل ذلك مجموعة واسعة من مواضيع ومناهج ورؤى متخصصة تستجيب لطيف كبير من القراء ذوي التخصصات المتعددة.

الأصالة وسلوك التأليف المسؤول

يجب على المؤلفين الابتعاد عن جميع أنواع السلوك غير الأخلاقي مثل الانتحال والافتعال والتزوير. وتجنب السلوك غير الأخلاقي بتقديم البحث نفسه إلى أكثر من مجلة واحدة في الوقت نفسه. كما يجب على المؤلفين تقديم أعمال أصلية خالصة، ويجب ذكر مساهمة الآخرين فيها بشكل صحيح، مع الاستشهاد بالأبحاث التي كان لها أثر في تحديد طبيعة البحث المقدم. وإذا اكتشف المؤلف خطأً فادحًا في عمله المنشور يجب عليه إبلاغ رئيس التحرير أو الناشر بحذف الخطأ أو تصويبه.

حقوق النشر

يحتفظ المؤلفون بحقوق الطبع والنشر لعملهم، وبمجرد قبول الورقة للنشر فإن حقوق الطبع والنشر والترجمة لورقته العلمية تنقل إلى دَّوريةُ كَان اَلْتَّارِيْخية، وتُوزع بموجب ترخيص (CC BY-NC 4.0) والذي يسمح بالاستخدام غير المقيد والتوزيع والاستنساخ في أي وسيط بشرط ذكر كل ورقة علمية وتوثيقها توثيقًا صحيحًا وعزوها إلى مصدرها.

تضارب المصالح

إذا كان هناك أي تضارب مصالح محتمل أثناء أو بعد عملية مراجعة الأقران يجب على المؤلفين الإفصاح عنه لرئيس التحرير أو الناشر على الفور. ومن أجل تأمين عدم تضارب المصالح يتم اختيار مراجع ليس له علاقة أو مصلحة مع المؤلف، أو أحد المؤلفين، أو المؤسسات الجامعية أو الهيئة العلمية التي ينتمي إليها المؤلف، وفي كل الأحوال تُعتمد المراجعة المزدوجة للأبحاث المقدمة للنشر.

مسؤولية المحكم (المراجع)

تتبنى دَّوريةُ كَان اَلْتَّارِيْخية أسلوب مراجعة الأقران المزدوجة التعمية. ويساعد المحكّمون رئيس التحرير على اتخاذ القرارات التحريرية، كما يمكن أن يساعدوا المؤلف على تحسين الورقة البحثية من خلال تقاريرهم العلمية.

سلوك التحكيم المسؤول

لا يفترض أن يقوم المحكّمون بفحص البحوث التي تقع خارج مجال تخصص دَّوريةُ كَان اَلْتَّارِيْخية. ويجب على أي محكّم خارجي غير مؤهل أو غير مستعد لمراجعة البحث المقدم أن يعلم رئيس التحرير وينسحب من عملية التحكيم. وعلى المُحكم المبادرة والسرعة في القيام بتقييم البحث الموجه إليه في الآجال المحددة، ويجب ألا يستخدم المحكّمون أي معلومات أو بيانات تم الحصول عليها من البحث التي تم تحكيمه لمصلحتهم الشخصية. ويجب ألا يقبل المحكّمون بتحكيم البحوث التي يكون لهم فيها تضارب مصالح نتيجة لعلاقات تنافسية أو تعاونية أو غيرها مع المؤلف (المؤلفين). كما يجب على المحكّمين أن يعلموا رئيس التحرير بأي تشابه أو تداخل كبير بين البحث الذي تم تحكيمه وأي أعمال أخرى منشورة يعرفونها.

السرية والموضوعية

يجب على جميع المحكّمين الذين يقومون بمراجعة الأوراق العلمية أن يفهموا ويتقيدوا بمعايير السريّة، ومعاملة البحوث التي تم استلامها للتحكيم كوثائق سرية. ويجب عليهم عدم الكشف عنها أو مناقشتها مع الآخرين باستثناء ما يأذن به رئيس التحرير. وينبغي على المحكّمين إجراء عملية التحكيم بشكل موضوعي ويجب ألا يوجّهوا أي نقد شخصي للمؤلف. ويجب على المحكّمين التعبير عن وجهات نظرهم بنزاهة ووضوح مع ذكر الأدلة والحجج الداعمة.

شرح العملية التحكيمية

- هيئة التحرير تدير عملية التحكيم السري للمقالات والدراسات المقدمة لتحديد صلاحيتها للنشر، ويلتزم الباحث بالأخذ بملاحظات المحكمين.
- يتم تقييم وفحص جميع الأوراق المقدمة للنشر مبدئيًا من قبل المحرر للتأكد من ملاءمتها للمجلة.
- يتم إرسال المقالات والدراسات التي تعتبر مناسبة عادةً إلى ما لا يقل عن اثنين من الخبراء المستقلين المراجعين لتقييم الجودة العلمية للورقة.
- مدة التحكيم ثلاثة أسابيع ويبلغ المحكم بذلك، وبعدها يجب أن يرد المحكم أما (قبولاً) وهو قبول البحث للنشر، أو (قبولاً بشرط التعديل)، وهو قبول البحث للنشر بشروط إجراء بعض التعديلات عليه، أو (رفضاً) وهو التوصية بالاعتذار عن نشر البحث.
- المحرر مسؤول عن القرار النهائي بشأن قبول المقالات أو رفضها.
- لا يشارك المحررون في القرارات المتعلقة بالأوراق التي كتبوها بأنفسهم أو التي كتبها الزملاء. ويخضع أي إرسال من هذا القبيل لجميع الإجراءات المعتادة للمجلة، مع التعامل مع التحكيم (مراجعة الأقران) بشكل مستقل عن المحرر المعني ومجموعات البحث الخاصة بهم.

التسليم

- ترسل الأوراق العلمية مع مرفقاتها بالبريد الإلكتروني إلى الدورية.
- يقدم المؤلف نسخة من البحث مكتوبة على برنامج Microsoft Word.
- يرفق الباحث سيرته العلمية وبيانات التواصل معه.
- يتلقى المؤلف إشعارًا بالاستلام من مديرة التحرير.

الفحص الأولي

- تقوم هيئة التحرير بفحص الورقة العلمية للنظر إذا ما كانت مطابقة لقواعد النشر الشكلية المعلن عنها ومؤهلة للتحكيم العلمي.
- يعتمد في الفحص الأولي على ملاءمة الموضوع للدورية، ونوع المادة العلمية (مقال/ دراسة/ ترجمة/ تقرير/ عرض كتاب/ عرض أطروحة)، وسلامة اللغة، ودقة التوثيق والإسناد بناءً على نظام التوثيق المعتمد في الدورية، بالإضافة إلى عدم خرق أخلاقيات النشر العلمي.
- يجري إبلاغ المؤلف باستلام الورقة البحثية وبنتيجة الفحص الأولي.
- في هذه المرحلة إذا وجدت هيئة التحرير أن الورقة البحثية بحاجة إلى تحسينات ما قبل التحكيم، فتقدم للمؤلف إرشادات أو توصيات ترشده إلى سبل التحسين مما يساعد على تأهيل الورقة البحثية لمرحلة التحكيم.

التحكيم

- تخضع كل دراسة للمراجعة المزدوجة من أعضاء لجنة المراجعة والتحكيم العلمي.
- يُبلغ المؤلف بتقرير من هيئة التحرير يبين قرار المراجعة العلمية، وخلاصة الملاحظات والتعديلات المطلوبة إن وجدت، ويرفق معه تقارير المراجعين أو خلاصات عنها.
- تبقى أسماء المراجعين مغفلة في التقرير الذي يُرسل إلى المؤلف.

إجراء التعديلات

- يقوم المؤلف بإجراء التعديلات اللازمة على الدراسة استنادًا إلى نتائج التحكيم.
- يعيد المؤلف إرسال المقال/ الدراسة إلى الدورية بعد استيفاء طلبات المراجعون.

القبول والرفض

- تحتفظ الدورية بحق القبول والرفض استنادًا إلى التزام المؤلف بقواعد النشر وبتوجيهات هيئة التحرير.
- يرسل إلى المؤلف خطاب قبول النشر، ويأخذ المقال دوره في جدول النشر حسب أسبقية الوصول، وترسل نسخة من الدورية إلى البريد الإلكتروني للمؤلف فور النشر.

دَّورية كان التَّاريْخية مفهرسة وتم اعتماد محتوياتها ضمن عدد وافر من قواعد البيانات العلمية العربية والعالمية التي تتيح مجال الاستفادة منها والرجوع إليها باستمرار. وهي ضمن المجلات العلمية المعتمدة من اتحاد الجامعات العربية منذ نوفمبر ٢٠١٩. وحاصلة على معامل التأثير العالمي منذ (٢٠١٥) ومعامل التأثير العربي منذ (٢٠١٦)، ومعتمدة من المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية (٢٠١٨)، ومسجلة في دليل أولريخ الدولي للدوريات تحت رقم (٦٨٨٨١٤). وحاصلة على الجائزة العربية للتميز العلمي والتكنولوجي (٢٠١٩).

أعضاء هيئة التحكيم

تتميز دَّوريةُ كَان التَّاريْخية بهيئة تحكيم متخصصة ذات كفاءة من أساتذة الجامعات العربية والخبراء ممَنْ عُرِفوا بطول الباع في مجال الدورية والمجالات ذات العلاقة، وممَنْ أصدروا كتبًا أو أبحاثًا علميَّةً متميزة في تخصُّص الدورية. وتعتمد هيئة التحكيم مبدأ الحياد والموضوعية في تحكيم المواد العلمية المرشحة للنشر مع الحرص على خلو الأعمال من التطرف الفكري أو مساسها بمبادئ الأشخاص أو الأنظمة.

- تاريخ الحروب الصليبية.
- تاريخ العصور الوسطى.
- تاريخ الأمراض والأوبئة.
- تاريخ الأدب العربي.
- تاريخ العالم القديم.
- التراجم والأنساب.
- التاريخ المقارن.
- التاريخ الحديث والمعاصر.
- تاريخ الأديان والتصوف.
- تاريخ الكتب والمكتبات.
- منهج البحث التاريخي.
- المستكشفون والرحالة.
- العمارة والعمران والمدن.
- الأساطير والفولكلور والمعتقدات الشعبية.
- التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية.
- الآثار والتراث المادي والشفهي.

المُقيمّون والمُحكّمون

	الاسم	الجهة	الدولة
أ.د.	إبراهيم القادري بوتشيش	جامعة مولاي إسماعيل	المغرب
أ.د.	إبراهيم خليل العلاف	جامعة الموصل	العراق
أ.د.	أحمد السري	جامعة صنعاء	اليمن
أ.د.	أحمد عبد الله الحَسُّو	مركز الحسو للدراسات الكمية والتراثية	بريطانيا
أ.د.	إمام الشافعي محمد حمودي	جامعة الأزهر	مصر
أ.د.	أمين محمد علي الجبر	جامعة ذمار	اليمن
أ.د.	بديع العابد	جامعة الإسراء	الأردن
أ.د.	بشار محمد خليف	مركز حضارات المشرق العربي	سوريا
أ.د.	بوحسون العربي	جامعة تلمسان	الجزائر
أ.د.	حبيب البدوي	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د.	الحسن تاوشيخت	المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث	المغرب
أ.د.	حنيفي هلايلي	جامعة جيلالي ليابس	الجزائر
أ.د.	خالد حسين محمود	جامعة عين شمس	مصر
أ.د.	رضوان شافو	جامعة الوادي	الجزائر
أ.د.	سعاد يمينة شبوط	جامعة أبي بكر بلقايد	الجزائر
أ.د.	سعيد بن محمد الهاشمي	جامعة السلطان قابوس	سلطنة عمان
أ.د.	شعيب مقنونيف	جامعة " أبوبكر بلقايد " تلمسان	الجزائر
أ.د.	صالح محمد زكي اللهيبي	جامعة الجزيرة	الإمارات
أ.د.	عادل بن يوسف	جامعة صفاقس	تونس
أ.د.	عبد الرحيم مراشدة	جامعة جدارا	الأردن
أ.د.	عبد العزيز رمضان	جامعة الملك خالد	السعودية
أ.د.	عبد القادر سلامي	جامعة تلمسان	الجزائر
أ.د.	العربي عقون	جامعة قسنطينة (٢)	الجزائر
أ.د.	عطاء الله أحمد فشار	جامعة زيان عاشور	الجزائر
أ.د.	عماد جاسم حسن الموسوي	جامعة ذي قار	العراق
أ.د.	كرفان محمد أحمد	جامعة دهوك	العراق
أ.د.	لمياء بوقريوة	جامعة الحاج لخضر باتنة	الجزائر
أ.د.	مبارك لمين بن الحسن	جامعة ابن زهر	المغرب
أ.د.	محمد دوكوري	الجامعة الإسلامية	النيجر
أ.د.	مصطفى غطيس	جامعة عبد الملك السعدي	المغرب
أ.د.	وجدان فريق عناد	جامعة بغداد	العراق

" حسب الترتيب الأبجدي

يتم تحديث القائمة حسب مساهمات الأساتذة للمرة الأولى في نشر أبحاثهم على صفحات الدورية، وبعد الاطلاع على السيرة العلمية، ومراعاة الخبرات الأكاديمية والإنتاج الفكري والإشراف على الأطاريح الجامعية ومدى الاستعداد للانضمام إلى فريق عمل الدورية بصفة تطوعية.



دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية

علمية. عالمية. مُحَكَّمَة. ربع سنوية

السياسات والقواعد والإجراءات

ترحب دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة في أي من حقول الدراسات التاريخية، أو العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظرًا لطبيعة الْتَّارِيْخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، وألا تتخذ أية صفة سياسية، وألا تتعارض مع الأعراف والأخلاق الحميدة، وأن تتسم بالجدّة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح.

سياسات النشر

تسعى دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي، ويسعدها أن تستقبل مساهمات أصحاب القلم من الأساتذة الأكاديميين والباحثين والكُتَّاب المثقفين الأفاضل، ضمن أقسام الدورية: البحوث والدراسات، عروض الكتب، عروض الأطاريح الجامعية، تقارير اللقاءات العلمية.

هيئة التحرير:

- تُعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقًا للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية.
- يكتفي بالإجازة من قبل اثنين من أعضاء هيئة التحرير لنشر مراجعات الكتب، والأطاريح الجامعية، وتقارير اللقاءات العلمية.
- يحق لهيئة التحرير إجراء التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر لتكن وفق المعيار (IEEE) تنسيق النص في عمودين، مع مراعاة توافق حجم ونوع الخط مع نسخة المقال المعياري.
- تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسبًا للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

هيئة التحكيم:

- يعتمد قرار قبول البحوث المقدمة للنشر على توصية هيئة التحرير والمحكمين؛ حيث يتم تحكيم البحوث تحكيمًا سريًا بإرسال العمل العلمي إلى المحكمين بدون ذكر اسم الباحث أو ما يدل على شخصيته، ويرفق مع العمل العلمي المراد تحكيمه استمارة تقويم تضم قائمة بالمعايير التي على ضوئها يتم تقويم العمل العلمي.
- يستند المحكمون في قراراتهم في تحكيم البحث إلى مدى ارتباط البحث بحقل المعرفة، والقيمة العلمية لنتائجه، ومدى أصالة أفكار البحث وموضوعه، ودقة الأدبيات المرتبطة بموضوع البحث وشمولها، بالإضافة إلى سلامة المنهاج العلمي المستخدم في الدراسة، ومدى ملاءمة البيانات والنتائج النهائية لفرضيات البحث، وسلامة تنظيم أسلوب العرض من حيث صياغة الأفكار، ولغة البحث، وجودة الجداول والأشكال والصور ووضوحها.
- البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها في موعد أقصاه أسبوعين من تاريخ إرسال التعديلات المقترحة إلى المؤلف، أما إذا كانت التعديلات طفيفة فتقوم هيئة التحرير بإجرائها.
- تبذل هيئة التحرير الجهد اللازم لإتمام عملية التحكيم، من متابعة إجراءات التعديل، والتحقق من استيفاء التصويبات والتعديلات المطلوبة، حتى التوصل إلى قرار بشأن كل بحث مقدم قبل النشر، بحيث يتم اختصار الوقت اللازم لذلك إلى أدنى حد ممكن.
- في حالة عدم مناسبة البحث للنشر، تقوم الدورية بإخطار الباحث بذلك. أما بالنسبة للبحوث المقبولة والتي اجتاز ت التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها، واستوفت قواعد وشروط النشر بالدورية، فيُمنح كل باحث إفادة بقبول بحثه للنشر.
- تقوم الدورية بالتدقيق اللغوي للأبحاث المقبولة للنشر، وتقوم هيئة التحرير بعد ذلك بمهمة تنسيق البحث ليخرج في الشكل النهائي المتعارف عليه لإصدارات الدورية.

قَوَاعِدُ النَّشَرْ

إرشادات المؤلفين [الاشتراطات الشكلية والمنهجية]

ينبغي ألّا يزيد حجم البحث على ثلاثين (٣٠) صفحة، مع الالتزام بالقواعد المتعارف عليها عالميًا بشكل البحوث، بحيث يكون المحتوى حسب التسلسل: ملخص، مقدمة، موضوع البحث، خاتمة، ملاحق: (الأشكال/ الجداول)، الهوامش، المراجع.

البحوث والدراسات العلمية

تقبل الأعمال العلمية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في مجلة إلكترونية أو مطبوعة أخرى.

تقبل البحوث والدراسات المنشورة من قبل في صورة ورقية، ولا تقبل الأعمال التي سبق نشرها في صورة رقمية: مدونات/ منتديات/ مواقع/ مجلات إلكترونية، ويستثنى من ذلك المواضيع القيمة حسب تقييم رئيس التحرير.

يجب أن يتسم البحث العلمي بالجَوْدة والأصالة في موضوعه ومنهجه وعرضه، متوافقًا مع عنوانه.

التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.

اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع، مع الالتزام بعلامات الترقيم المتنوعة.

- **عنوان البحث:**

يجب ألا يتجاوز عنوان البحث عشرين (٢٠) كلمة، وأن يتناسب مع مضمون البحث، ويدل عليه، أو يتضمن الاستنتاج الرئيس.

- **نبذة عن المؤلف (المؤلفين):**

يقدم مع البحث نبذة عن كل مؤلف في حدود (٥٠) كلمة تبين آخر درجة علمية حصل عليها، واسم الجامعة (القسم/ الكلية) التي حصل منها على الدرجة العلمية والسنة. والوظيفية الحالية، والمؤسسة أو الجهة أو الجامعة التي يعمل لديها، والمجالات الرئيسة لاهتماماته البحثية. مع توضيح عنوان المراسلة (العنوان البريدي)، وأرقام (التليفون- الموبايل/ الجوال- الفاكس).

- **صورة شخصية:**

ترسل صورة واضحة لشخص الكاتب لنشرها مع البحث، كما تستخدم بغرض إنشاء صفحة للكاتب في موقع الدورية على شبكة الإنترنت.

- **ملخص البحث:**

يجب تقديم ملخص للبحوث والدراسات باللغة العربية في حدود (٢٥٠ - ٣٠٠) كلمة.

البحوث والدراسات باللغة الإنجليزية، يرفق معها ملخص باللغة العربية في حدود (١٥٠ - ٢٠٠) كلمة.

- **الكلمات المفتاحية:**

الكلمات التي تستخدم للفهرسة لا تتجاوز عشرة كلمات، يختارها الباحث بما يتواكب مع مضمون البحث، وفي حالة عدم ذكرها، تقوم هيئة التحرير باختيارها عند فهرسة المقال وإدراجه في قواعد البيانات بغرض ظهور البحث أثناء عملية البحث والاسترجاع على شبكة الإنترنت.

- **مجال البحث:**

الإشارة إلى مجال تخصص البحث المرسل "العام والدقيق".

- **المقدمة:**

تتضمن المقدمة بوضوح دواعي إجراء البحث (الهدف)، وتساؤلات وفرضيات البحث، مع ذكر الدراسات السابقة ذات العلاقة، وحدود البحث الزمانية والمكانية.

- **موضوع البحث:**

يراعي أن تتم كتابة البحث بلغة عربية سلمية واضحة مركزة وبأسلوب علمي حيادي. وينبغي أن تكون الطرق البحثية والمنهجية المستخدمة واضحة، وملائمة لتحقيق الهدف، وتتوفر فيها الدقة العلمية. مع مراعاة المناقشة والتحليل الموضوعي الهادف في ضوء المعلومات المتوفرة بعيدًا عن الحشو (تكرار السرد).

- **الجداول والأشكال:**

ينبغي ترقيم كل جدول (شكل) مع ذكر عنوان يدل على فحواه، والإشارة إليه في متن البحث على أن يدرج في الملاحق. ويمكن وضع الجداول والأشكال في متن البحث إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

- **الصور التوضيحية:**

في حالة وجود صور تدعم البحث، يجب إرسال الصور على البريد الإلكتروني في <ملف منفصل> على هيئة (JPEG)، حيث أن وضع الصور في ملف الكتابة (Word) يقلل من درجة وضوحها (Resolution)

- **خاتمة (خلاصة):**

تحتوي على عرض موضوعي للنتائج والتوصيات الناتجة عن محتوى البحث، على أن تكون موجزة بشكل واضح، ولا تأتي مكررة لما سبق أن تناوله الباحث في أجزاء سابقة من موضوع البحث.

- **الهوامش:**

يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة، فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر، وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش. يمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق الحواشي (الهوامش) بشرط التوحيد في مجمل الدراسة، وبإمكان الباحث استخدام نمط American Psychological Association " APA" الشائع في توثيق الأبحاث العلمية والتطبيقية، حيث يُشار إلى المرجع في المتن بعد فقرة الاقتباس مباشرةً وفق الترتيب التالي: (اسم عائلة المؤلف، سنة النشر، رقم الصفحة)، على أن تدون الإحالات المرجعية كاملة في نهاية البحث.

- **المراجع:**

يجب أن تكون ذات علاقة فعلية بموضوع البحث، وتوضع في نهاية البحث، وتتضمن قائمة المراجع الأعمال التي تم الإشارة إليها فقط في الهوامش، أي يجب ألا تحتوي قائمة المراجع على أي مرجع لم تتم الإشارة إليه ضمن البحث. وترتب المراجع طبقًا للترتيب الهجائي، وتصنف في قائمة واحدة في نهاية البحث مهما كان نوعها: كتب، دوريات، مجلات، وثائق رسمية.... إلخ، ويمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق المراجع والمصادر بشرط التوحيد في مجمل الدراسة.

قَوَاعِدُ النَّشَر

قواعد عامة

تُرسل كافة الأعمال المطلوبة للنشر بصيغة برنامج مايكروسوفت وورد Word ولا يلتفت إلى أي صيغ أخرى.

المساهمون للمرة الأولى من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات يرسلون أعمالهم مصحوبة بسيرهم الذاتية العلمية "أحدث نموذج" مع صورة شخصية واضحة (High Resolution).

ترتب الأبحاث عند نشرها في الدورية وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث أو قيمة البحث.

حقوق المؤلف

- المؤلف مسئول مسئولية كاملة عما يقدمه للنشر بالدورية، وعن توافر الأمانة العلمية به، سواء لموضوعه أو لمحتواه ولكل ما يرد بنصه وفى الإشارة إلى المراجع ومصادر المعلومات.
- جميع الآراء والأفكار والمعلومات الواردة بالبحث تعبر عن رأى كاتبها وعلى مسئوليته هو وحده ولا تعبر عن رأى أحد غيره، وليس للدورية أو هيئة التحرير أية مسئولية في ذلك.
- ترسل الدورية لكل صاحب بحث أُجيز للنشر، نسخة من العدد المنشور به البحث، ومستلة من البحث على البريد الإلكتروني.
- يحق للكاتب إعادة نشر البحث بصورة ورقية، أو إلكترونية بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير، ويحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.
- يحق للدورية إعادة نشر البحث المقبول منفصلاً أو ضمن مجموعة من المساهمات العلمية الأخرى بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أية لغة أخرى، وذلك بصورة إلكترونية أو ورقية لغايات غير ربحية.
- لا تدفع المجلة أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما ينشر فيها إسهامًا معنويًا من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي.

عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر. أما مراجعات الكتب القديمة فتكون حسب قيمة الكتاب وأهميته.
- يجب أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.
- يعرض الكاتب ملخصًا وافيًا لمحتويات الكتاب، مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور، وإبراز بيانات الكتاب كاملة في أول العرض: (اسم المؤلف/ المحقق/ المترجم، الطبعة، الناشر، مكان النشر، سنة النشر، السلسلة، عدد الصفحات).
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.

عروض الأطاريح الجامعية

- تنشر الدورية عروض الأطاريح الجامعية (رسائل الدكتوراه والماجستير) التي تم إجازتها بالفعل، ويُراعى في الأطاريح (الرسائل) موضوع العرض أن تكون حديثة، وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد حقول الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة.
- إبراز بيانات الأطروحة كاملة في أول العرض (اسم الباحث، اسم المشرف، الكلية، الجامعة، الدولة، سنة الإجازة).
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث، مع ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته، وخاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.

تقارير اللقاءات العلمية

- ترحب الدورية بنشر التقارير العلمية عن الندوات، والمؤتمرات، والحلقات النقاشية (سيمنار) الحديثة الانعقاد في دول الوطن العربي، والتي تتصل موضوعاتها بالدراسات التاريخية، بالإضافة إلى التقارير عن المدن والمواقع الأثرية، والمشروعات التراثية.
- يشترط أن يغطي التقرير فعاليات اللقاء (ندوة / مؤتمر/ ورشة عمل/ سيمنار) مركزًا على الأبحاث العلمية، وأوراق العمل المقدمة، ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.
- ألا تزيد عدد صفحات التقرير عن (١٠) صفحات.

الإصدارات والتوزيع

- تصدر دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخِية أربع مرات في السنة: (مارس– يونيو – سبتمبر – ديسمبر).
- الدورية متاحة للقراءة والتحميل عبر موقعها الإلكتروني على شبكة الإنترنت.
- ترسَل الأعداد الجديدة إلى كُتَّاب الدورية على بريدهم الإلكتروني الخاص.
- يتم الإعلان عن صدور الدورية عبر المواقع المتخصصة، والمجموعات البريدية، وشبكات التواصل الاجتماعي.

المراسلات

- تُرسَل الاستفسارات والاقتراحات للبريد الإلكتروني:
  info@kanhistorique.org
- تُرسَل الأعمال المطلوبة للنشر إلى رئيس التحرير:
  mr.ashraf.salih@gmail.com

مُحْتَوَيَاتُ الْعَدَدِ

كُتَّابُ الْعَدَدِ

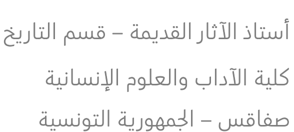


ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

أسماء الأعلام الشمال إفريقية القديمة
دراسة اشتقاقية



أ.د. عادل نجيم



أستاذ الآثار القديمة – قسم التاريخ
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
صفاقس – الجمهورية التونسية

مُلَخّصْ

إن دراسة ميراث الحضارة الشمال إفريقية القديمة يتطور باستمرار. هذا المجهود يشمل محاور جديدة ومقاربات مجددة. مساهمتي في هذا الجهد تنزل في هذا التمشي. هذه الدراسة تتمحور حول محاولة تفسير لتسميات الأعلام الإفريقية القديمة. انطلقت الفكرة من ملاحظة بسيطة حيث نجد في الفترة البيزنطية أسماء "أنطلة" و"كوريب" التي لها تقارب صوتي كبير مع أسماء عربية مما لفت انتباهي وأثار تساؤلي. مع العلم أن تفحص أسماء أخرى وصلتنا لا يشذ عن هذه الملاحظة. السؤال المركزي الذي سأحاول الإجابة عنه يتمثل في محاولة تفحص العلاقة بين بعض أسماء الشخصيات الإفريقية القديمة وأسماء عربية. سأحاول تقييم المصادر المتوفرة وتفكيك عدد من الأسماء الإفريقية القديمة من خلال هذه المقاربة الجديدة. تتمثل طرافة هذه الدراسة في محاولتها فحص التقارب بين أسماء شخصيات إفريقية قديمة وأسماء عربية. تُعَدّ هذه الدراسة حول التسميات الإفريقية مجددة في مقاربتها. لا يمكنها أن تتواصل هذه الدراسة بشكل جيد إلا بالاستناد على أدوات بحث متطورة تعتمد على مادة متنوعة مثل المصادر الأدبية والنقائشية. كذلك الفترة المدروسة يجب أن تشمل كامل الفترة القديمة دون أن تتوقف عند الفترة الرومانية كما تفعل ذلك غالبًا الدراسات الحالية.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٠٧	فبراير	٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر:	١٤	أبريل	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

أسماء الأعلام؛ شمال إفريقيا القديمة؛ أسماء عربية قديمة؛ تأثير ثقافي

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.165973

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عادل نجيم، **"أسماء الأعلام الشمال إفريقية القديمة: دراسة اشتقاقية".-** دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد الثامن والأربعون؛ يونيو ٢٠٢٠. ص ١٤ – ٢٠.

Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: njim_adel@yahoo.com

Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

مُقدِّمَةُ

إن دراسة ميراث الحضارة الشمال إفريقية القديمة يتطور باستمرار. هذا المجهود يشمل محاور جديدة ومقاربات مجددة. هذه المداخلة هي بالنسبة لي فرصة إضافية لتعميق أبحاثي حول الإرث الثقافي الإفريقي القديم. يجب القول إن هذا الملف قد أثار اهتمامي لأني أعتبر أن الثقافة الإفريقية القديمة لم تحض لحد الآن بالاهتمام الذي تستحقه من خلال الدراسات التاريخية لباحثين أجانب فرنسيين في غالبيتهم ومن طرف باحثين مغاربيين. أنا أفكر في إنجاز خلاصة تقييمية لهذه الدراسات مم يفسر هذا الموقف البحثي الجديد.

بالفعل أعتقد أن أخطاء الدراسات السابقة تبرر موافقي التجديدية في هذا الحقل المعرفي لأني سأذهب لتبني مقاربة جديدة لهذه الحضارة وتمثل هذه المداخلة بادرة أولى[١]. بعد دراسة رؤية العالم الديني لدى اللوبيين من خلال الشواهد الأثرية مكتشفة حديثا أو شواهد وقعت قراءتها في مقارنة مع الرؤية الدينية البونية والأترورية[٢]. في هذه المداخلة أواصل التعمق في ملف الهوية الإفريقية القديمة من خلال الاهتمام بملف ليس أقل أهمية وهو المتعلق بالتسميات الإفريقية. المحور الذي انوي الخوض فيه يتعلق بدراسة الأسماء الإفريقية خلال الفترة القديمة.

في البداية أود الحديث عن ظروف هذا الاختيار العلمي التي أعتبرها هامة. لقد خامرتني فكرة هذا البحث خلال إعداد خلاصة حول أسماء الأماكن الشمال افريقية القديمة لتقديمها في عمل جماعي حول أسماء الأماكن في شمال إفريقيا عمومًا في إطار عمل وحدة بحث جامعية تونسية تهتم بالتعمير. أثناء الاطلاع على عمل الباحث دوزانج حول القبائل الإفريقية خلال الفترة القديمة[٣] أثار انتباهي تسمية شخصين إفريقيين مشهورين من الفترة البيزنطية وهما "أنطلاس"[٤] و كوريب"[٥]. ما لفت انتباهي هو القرابة الصوتية بين أسماء هذين الشخصين وأسماء عربية أصيلة رغم أننا في الفترة البيزنطية وبعيدون طبعًا عن قدوم الإسلام لشمال إفريقيا مما لا يفسر بسهولة وجدو شخصين يحملان أسماء مشابهة.

تساءلت إن كان الحدس الذي خامرني بخصوص هذين الاسمين غير مبرر أو بالعكس يمكن أن يقود لمعطيات تاريخية هامة وغير مسبوقة. لذلك أخذت هذا السؤال على محمل الجد وقررت أن أقوم ببحث حول تسميات شخصيات إفريقية قديمة. تبين لي بسرعة أن ما كان مجرد حدس يمكن أن يصبح محورًا بحثيًا غير مسبوق وطريف ومجدد.

هذه الدراسة تكشف التأثيرات الحضارية المختلفة للأفارقة القدامى مع العلم أن الملف المتعلق بأصول سكان شمال إفريقيا القدامى صار محورًا حارقًا وخاصةً يحمل اعتبارات متعددة سياسية وأيديولوجية التي يعبر حلها مسألة هامة لكن هذا الملف المتشعب يتجاوز إطار هذا العمل. بالنسبة لي لا أريد أن يقع النظر لهذا البحث ولكل الأبحاث السابقة حول الأفارقة القدامى من خلال الرؤية التحاملية والتحريفية أيًا كان نوعها وخاصةً منها السياسية والإيديولوجية. شخصيًا نظرًا لوعيي بهذه الحقيقة ترددت بين عدم الخوض في هذا المبحث لتفادي الاحتكاك بهذه التخمينات وبين المبادرة بهذا العمل وتحمل تبعات ذلك.

لقد تبنيت هذا الاختيار لأني أعتبر أن هذه المقاربة ذات أهمية كبرى بالنسبة لمستقبل الأبحاث حول الهوية الإفريقية القديمة في مجملها. بالنسبة لي لقد كان لي دائمًا ميل للمواضيع المتعلقة بالهوية كما يبين ذلك العمل الذي قدمته في الملتقى المخصص لماسينيسا[٦]. ثم فكرت في توسيع دائرة البحث لمحاولة فهم هوية تسميات الشخصيات الإفريقية من خلال ما تسمح لنا به المصادر الأدبية والنقائشية. بالطبع هذه المهمة مستحيلة بالنسبة لباحث واحد وفي وقت قصير. يجب التنويه الى أن الدراسات المتعلقة بالتسميات صارت تعرف اهتمامًا متزايدًا[٧]. شخصيًا لي ميل خاص لمبحث أسماء الأعلام لأنه يعتبر كاشفًا سهلاً للتاريخ. بالفعل هذا المبحث يجعلنا نأخذ فكرة سريعة على هوية الشخص وعشيرته في فترة محددة من التاريخ. يكفي أن يتدرب الباحث قليلاً على هذا التخصص ليتعود على هذه المادة المعرفية على عكس الأركيولوجيا المعمارية التي تتطلب تقصيًا طويلاً لتفكيك مدلولاتها. لقد كشف علم التسميات الإفريقية القديمة على مختلف طبقات المجتمع الإفريقي في تناغم مع الأحداث التاريخية التي عرفها. بالطبع هذه النماذج يمكن أن تكون تقريبية لكنها تمدنا بالخطوط العريضة التي تمكننا من دراسة المجتمع الشمال إفريقي خلال الفترة القديمة. لذلك لكل حدث هام في التاريخ الإفريقي القديم فصل كبير من التسميات بكل تفرعاته. لنترك جانبًا وإراديا فصل ما قبل تاريخ شمال إفريقيا الذي يتطلب أدوات تقصي أخرى بسبب غياب المصادر المكتوبة. لنركز إذا على فصل التاريخ القديم بكل فتراته. أولاً الفترة اللوبية التي للأسف لا نعرفها كثيرًا، وقد أثار الباحث جبرائيل كامبس أهمية التساؤل حول الهوية اللوبية البربرية وحول الغموض المتعلق بفهم هذه الحضارة[٨]. فصول التاريخ الشمال إفريقي القديم

الموالية هي على التوالي الفينيقية والبونية والرومانية والبيزنطية. بالطبع لا ننسى كذلك الإضافات الطفيفة التي لا نعرفها إلا في العموم للحضارة الميقينية والأترورية والمصرية واليونانية ودون شك أعراق متوسطية أخرى التي لا يمكن أن يقع تثمين أثرها إلا من خلال البحث المعمق. بالطبع كان لكل إضافة بشرية وثقافية تداخلات واختلاط وتلاقح. هذه الرؤية ليست إلا عامة.

خلال هذا البحث حول أسماء الأعلام الإفريقية القديمة فكرت أولاً في تقييم ما تقدمه المصادر. لقد لاحظت الى أي درجة محور السياسة يهيمن على كل الأبحاث المعاصرة المتعلقة بالشخصيات الإفريقية القديمة لدرجة تجعلنا نقول إن المحور السياسي يخنق الأبحاث مما يدعونا لتغيير المقاربة مستقبلاً. نلاحظ أن الشخصيات الإفريقية الوحيدة المذكورة هي شخصيات سياسية ويمكننا أن نتعرف عليها من خلال النقود وبصفة أقل من خلال التماثيل. الأصداء الأخرى التي وصلتنا هي لشخصيات دينية أو أدبية تعود خاصة للفترة الوسيطة والحديثة. كذلك فإن الدراسات البيوغرافية رهينة معطيات المصادر الأدبية التي تبجل الأحداث وخاصةً الحدث السياسي بامتياز. كل هذه المعطيات تخولنا أن نموقع ثقافيًا الأشخاص المذكورين لكن لا تقدمنا كثيرًا بخصوص فهم المعني الذي يكشفه الاسم أو الأسماء التي يحملونها. كذلك في جل الحالات فان أسماء الأفارقة القدامى وصلتنا باللغة اللاتينية ثم باليونانية ثم باللغة البونية أو البونية الجديدة ونادرًا جدًا باللغة اللوبية. غالبًا إذا لم يكن أي شخص إفريقي مترومنا ويحمل تسمية ثلاثية فإننا لا نفهم إلا جزءًا من اسمه وبالطبع نحن عاجزون على معرفة إن كان يمثل الاسم العائلي أو الاسم الشخصي أو لقبًا يعكس خطة معينة كما هو الحال مثلاً بالنسبة للملك ماسينيسا. هذا البحث المخصص لدراسة معنى الأسماء الإفريقية القديمة سيحاول تبيان هذا اللبس.

أول مسألة تتعلق بتحوير التسميات فعندما نتعرض لدراسة هذه الأسماء نلاحظ أنها وصلت لنا غالبًا في لغات غير لغاتها الأصلية لذلك وقع تغييرها وحتى تحريفها سواء كانت المصادر أدبية أو نقائشية. بالفعل يمثل تفكيك الأسماء الإفريقية القديمة أول مهمة مركزية لدراسة التسميات الشمال إفريقية. لحل هذا المشكل تفطنا لأداة اثنوجرافية هامة يمكنها أن تعطينا فكرة إضافية على كيفية تغيير أسماء الأشخاص من ثقافة إلى أخرى. لنا ملف قادر على أن ينيرنا في تفكيك أسماء الأشخاص التي تتعرض إلى تحريف في النطق خلال الزمن وخاصةً في المرور من ثقافة لأخرى. هذا الملف يتعلق بأسماء العرب في الثقافة الإسلامية بإسبانيا الذين وردوا في المصادر الأوروبية وخاصة الإسبانية. الأمثلة الأكثر شهرة تتعلق باسم "أفيسان" و "أفيرواس" وهما "ابن سينا" و "ابن رشد"[9].

لنا أداة إنثروبولوجية أخرى تمكننا من فهم الكيفية التي تغيرت بها أسماء الأشخاص من ثقافة لأخرى. لننظر إلى الأسماء الإفريقية الحالية منطوقة بالفرنسية. يمكن أن نسوق مثالين طريفين لكنهما في رأيي مهمين جدًا إنهما لاعبي كرة قدم أفارقة ويعتبر تحوير اسميهما باللغة الفرنسية مفيدًا منهجيًا في إطار دراستنا. الأول اسمه "أوكوشا" وهو ليس إلا تحريفًا لاسم "عكاشة". بالطبع هذا اسم ذو طابع عربي.

الاسم الثاني هو "أموكاشي" وهو على الأرجح تحريف لاسم "أبو قيس" أو "أبو قصي" وهو اسم عربي بدون شك. رغم أن الإطار التاريخي مختلف نعتقد أن نفس الظاهرة تكررت ويمكن أن نأخذ منها درسًا. في اعتقادي فأن هاذين الملفين لهما دور منهجي لا بأس به بخصوص طريقة رؤية تغير أسماء الأشخاص الأفارقة القدامى في المصادر اللاتينية واليونانية ولاحقًا في المصادر الإسلامية التي أخذت عنها.

هذا البحث سينكب على دراسة اشتقاقية لأسماء الأشخاص الأفارقة خلال الفترة القديمة لكن نظرًا لمحدودية إطار الدراسة سنكتفي ببعض الأسماء الإفريقية القديمة ونحاول من خلالها قراءة الأسماء الأخرى. تتمثل طرافة هذا البحث في فحص التقارب بين أسماء شخصيات إفريقية قديمة مع أسماء عربية. كما بينا سلفًا كخطوة أولية هذه الدراسة لن تدخل في ملف الاعتبارات التاريخية للملاحظات التي ستتوقف عندها. ستسعى هذه الدراسة فقط للتأكد من صحة المعطيات من خلال عدد واسع من الأمثلة وتفحص صلب لها وأخيرًا ستقدم توصيات منهجية لمواصلة هذا البحث. الأسماء التي سنتناولها سنرتبها وفق محاور مدلولاتها. الأسماء المدروسة في هذا البحث تتعلق بمحاور ثلاث. الأسماء التي لها علاقة بالآلهة والأسماء التي لها علاقة بالأنبياء والأسماء المميزة للثقافة العربية.

أولاً: أسماء لها علاقة بالآلهة

١/١-هيارباس-ياربس

الاسم الأول من أسماء الأفارقة القدامى التي نعتقد أن لها علاقة بأسماء الآلهة هو "هيارباس" أو "ياربس"[١٠]. هذا الاسم الذي هو من أصل لوبي مؤكد حمله شخصان تعرفنا عيهما من خلال المصادر الأدبية. الشخص الأول يكاد يكون أسطوريًا لأن

له علاقة بقصة تأسيس قرطاج من طرف الفينيقيين. هذا الاسم حمله أيضًا أمير نوميدي يرجع للقرن الأول قبل الميلاد. يجب التنبيه إلى أن هذه الصيغة لاسم "هياربس" هي التي أوردتها لنا المصادر اليونانية واللاتينية. أنا أعتقد أنها تحريف للتسمية اللوبية. التأويل الأرجح للتسمية هو "عيار-باس". حرف العين تحول في إحدى الصيغ إلى حرف الهاء وفي الصيغة الثانية سقط كليًا من الاسم. الإله "باس" هو المسؤول عن المواليد في عديد الحضارات القديمة[11]. يعني أن هذا الشخص الإله باس هو الذي رعاه عند ولادته.

٢/١-أنطلة

المصادر الأدبية تعرفنا على اسم آخر حمله الأفارقة خلال الفترة البيزنطية لكن من المؤكد أنه منتشر في الفترات السابقة. هذا الاسم كما ورد في المصادر هو "أنطلاس" أو "أنطلة"[12]. نلاحظ أنه من الناحية الصوتية هذا الاسم ينطبق مع اسم منتشر جدًا لدى العرب القدامى هو اسم "حنظلة"[13]. بالنسبة لمدلول هذا الاسم فعلى الأرجح أنه في الأصل "صان-ظل" وهي "ظل-الصائن" مقلوبة والمقصود بها "ظل-الله".

٣/١-يوغرطة

تمدنا المصادر الأدبية بشخص اسمه "جوغرطة" أو "يوغرطة"[14]. هو أحد الملوك النوميديين وإشتهر بمواجهته ضد الرومان في حرب تستمت بسمه "حرب يوغرطة" انتهت سنة ١٠٤ قبل الميلاد بمقتله. إنه أحد اللوبيين القلائل الذي تناول الباحثون اسمه بالتفسير. لكن رغم هذه المحاولات فإن هذا التأويل مازال يحتاج إلى التوضيح. يرى أحد الباحثين أن من بين القراءات التي يمكن أن تكون لاسم هذا الرجل صيغة "يو-ثاع-تن" ويقول إن معنى هذه العبارة "أنه يتجاوزهم"[15]. هذا التفسير يستند على اللغة البربرية الحالية وهو خطأ منهجي. تأويل هذا الاسم يجب أن يكون حسب حقل دلالي قديم. اسم هذا الرجل وصلنا باللغة اليونانية "يوقاعتن". نعتقد أن التأويل الأقرب للواقع لهذا الاسم يكشف علاقته بأسماء الالهة. نقترح تأويله كالتالي. "يوقاعتن" هي تحريف لكلمة "ياه-قاع-صان" وهي تعني إما "ياه الكبير صانه" أو "ياه صانه كثيرا" وهو الرأي الأرجح. بالطبع لهذه التسمية دلالة حضارية حول عقيدة سكان شمال افريقيا القدامى. التأويل الآخر الممكن لهذا الاسم له علاقة بالأنبياء سنقدمه في الفصل الخاص به.

ثانيًا: أسماء لها علاقة بالأنبياء

١/٢-يوغرطة

لقد قدمنا في فصل الأسماء التي لها علاقة بالالهة تأويلاً لتسمية "يوغرطة" أو "جوقعطة"[16]. هناك تأولات أخرى ممكنة لهذا الاسم تبين علاقته بأسماء الأنبياء وباسم النبي آدم تحديدًا. هناك تأويلان ممكنان لهذا الاسم. التأويل الأول أن هذا الاسم هو تحريف لعبارة "صخر عاتي". القراءة الثانية المحتملة لهذا الاسم أنه تحريف لعبارة "صخر الجنة". كلا العبارتين رائجة جدًا في الأوساط الشرقية وهي تشير للنبي آدم. هذه التسمة تكسف الانتماء العقائدي للأفارقة القدامى.

٢/٢-ماسينيسا

احتفظت لنا المصادر الأدبية باسم "ماسينيسا" أو "ماسينيسان"[17]. يبدو أن هذا الاسم رائج في الأوساط الإفريقية القديمة. الشخص الأول بهذا الاسم عاش بين ٢٤٠ و١٤٨ قبل الميلاد وفي سنة ٢٠٣ قبل الميلاد صار ملك الماسيليين باعتراف من السلطة الرومانية. الشخص الثاني بهذا الاسم ولد سنة ٤٦ قبل الميلاد. هناك عدة تأويلات ممكنة لهذا الاسم بعضها له علاقة بأسماء الأنبياء وبعضها له علاقة بالتسميات العربية. لقد تناولت دراسات سابقة تفسير هذا الاسم لكن لم تربطه بأي تأثير ثقافي. سنحاول تقديم تفاسير أخرى ممكنة لهذا الاسم. التأويل الأول لهذا الاسم يمكن أن يكون "ماس-صان-صان" والمقصود بها "النبي-ادم-صانه". كما يكمن أن تكون هذه التسمية "ماس-صان-نوح-صانه". هناك تأويلات أخرى لهذا الاسم تعكس دوره السياسي سنقدمها في باب التسميات التي لها علاقة بالثقافة العربية.

٣/٢-شاشونك

لدينا اسم من أسماء الملوك اللوبيين القدامى يعكس علاقة الأفارقة القدامى بالأنبياء وبالنبي نوح تحديدًا. وصلنا هذا الاسم بصيغة "شاشونك"[18]. هذه التسمية ليست إلا "جاش-الصائن-نوح". لنا اسم قريب جدًا من هذا الاسم هو "النجاشي" ملك الحبشة. هذه التسمية لها دليل حضاري هام حول الأفارقة القدامى.

٤/٢-عتبان

أعطتنا مصادر ثقائشية لوبية اسم شخص من المهم دراسته. على واجهة معلم جنائزي بمدينة دقة بالبلاد التونسية توجد نقيشة تذكر اسم "عتبان"[19]. سنقترح قراءات ممكنة لهذا الاسم. القراءة الأولى التي نميل لها أن هذا الاسم هو "عثمان"[20]. لدى العرب القدامي حرف الميم يتحول بكل يسر

لحرف الباء. اسم عثمان رائج في الفترة الإسلامية لكنه في الواقع اسم عربي قديم. التأويل الثاني الممكن أن هذا الاسم هو "عتبة"[٢١]. أما بالنسبة لتأويل هذا الاسم فمن المحتمل أن يكون عبارة "هود-من" وقع تحريفها.

٥/٢-سبتيميوس

أعطتنا المصادر الأدبية إشارة لشخص اسمه "سبتيبيوس". ولد هذا الرجل سنة ١٤٦ وتوفي سنة ٢١١ ميلادية في مدينة لبدة بليبيا[٢٢]. صار إمبراطورا من سنة ١٩٣ إلى ٢١١. الانتماء الإفريقي لهذا الشخص لا غبار عليه. هناك عدة تأويلات لاسمه. التأويل الأول هو أن اسمه "يعني "سبط-الأب-هود". هناك تأويل أخر يرى في هذا الاسم إشارة عددية سنقدمه في الأسماء العربية الطابع.

٦/٢-سالوستوس

احتفظت لنا المصادر باسم كاتب مشهور من أصل إفريقي. وصلنا اسم هذا الرجل في المصادر اللاتينية بصيغة "سالوستوس"[٢٣]. هذا الاسم ليس إلا "ظل-الجد-هود". هذه تسمية عربية لا جدال فيها. هناك إمكانية تأويل أخرى لهذا الاسم لها علاقة بالأرقام سنوردها لاحقًا

٧/٢-يوبا

من بين الأسماء الإفريقية القديمة الرائجة نجد اسم "يوبا" كما قدمته لنا المصادر الأدبية. لنا عدد من الملوك النوميديين بهذا الاسم. يوبا الأول ولد سنة ٨٥ قبل الميلاد. أحد أولاده حمل اسمه وسُمي يوبا الثاني[٢٤]. هذا الاسم ليس إلا اسم النبي "أيوب". هذه إشارة إضافية على للترابط الثقافي الإفريقي بالعالم العربي قبل الإسلام.

ثالثًا: أسماء عربية

١/٣-أرابيون

لدينا اسم أفريقي هام هو "أرابيون"[٢٥]. هذا الشخص هو أخر ملك نوميدي. حكم بين سنة ٤٥ و٤١ قبل الميلاد. بالطبع تأويل هذا الاسم واضح جدا. هذا الاسم هو "عربي". هذه التسمية تعكس الأصل العرقي للشخص كما تكشف إنتماء جزء كبير من اللوبيين وأهميتهم الاجتماعية بين سكان شمال إفريقيا القدامى.

٢/٣-كوغيب

لقد أرشدتنا المصادر الأدبية اليونانية واللاتينية على اسم من أسماء الأفارقة القدامى. إنه اسم "كوغيب"[٢٦]. لهذا الاسم تأويلان ممكنان. التأويل الأول هو أن يكون هذا الاسم "كعيب" وهو اسم عربي أصيل ورائج. التأويل الثاني الأقل احتمالاً أن يكون هذا الاسم "غريب". وهو كذلك اسم عربي.

٣/٣-أبولايوس

لنا من بين التسميات الشمال إفريقية القديمة تسميات عربية أصيلة. هذه التسميات تتميز بصيغة "أبوفلان". الاسم الأول من هذه المجموعة هو لشخص أوردته المصادر الأدبية بصيغة "أبلايوس"[٢٧]. نعتقد أن هذه الصيغة هي نتيجة تحريف المصادر التي ذكرت لنا هذا الاسم. هذا الرجل ولد سنة ١٢٣ ميلادي في مدينة مادور غير بعيد عن مدينة سوق أهراس الحالية بالقطر الجزائري. هو رجل فكر وكاتب مشهور. اسم "أبولايوس" الذي ورد لنا بصيغة لاتينية ليس إلا "أبو ليث". هذه الطريقة في تسمية الأشخاص "أبوفلان" هي تقليد عربي. أما بالنسبة لاسم "ليث" فمن الرائج أنه يعني الأسد.

٤/٣-بوكوس

لنا اسم أخر من هذا الصنف. لنا إشارة نقائشية بونية حول هذا الاسم بصيغة "بكش" كما لنا إشارة من المصادر الأدبية لهذا الاسم بصيغة "بوكوس"[٢٨]. لنا صدى لهذه التسمية لشخصين. الأول عاش بين سنة ١١٠ و٨٠ قبل الميلاد. الثاني عاش في زمن يوليوس قيصر وهو على الأرجح حفيد الأول. بالنسبة لتأويل هذا الاسم فهو على الأرجح ليس إلا اسم "أبو قيس". وهو اسم عربي لا غبار عليه.

٥/٣-بوقود

لدينا إشارات حول اسم إفريقي قديم وصلنا من خلال النقائش والمصادر. إنه اسم "بوقود" أو "بوقوس"[٢٩]. يبدو أنه هذا الاسم رائج في الأوساط الإفريقية. تسمى بهذا الاسم ملكان موريطانيان. الأول حكم حوالي سنة ٨٠ قبل الميلاد. الثاني حكم بين ٤٩ و٣٨ قبل الميلاد. وصلنا هذا الاسم بصيغ مختلفة. الصيغة البونية الحدثية وهي الأكثر وثوقا "بقت" أو "بوقود". الصيغة اليونانية "بوقواس". الصيغة اللاتينية "بوقوس" أو "بوقوديس". في الواقع كل هذه الصيغ تعكس اسما واحدا هو "أبو جود" وهو اسم عربي أصيل بلا منازع.

٦/٣-ڤاودا

وصلنا اسم لرجل أخر إفرقي قديم كان ملكا للماسيليين وقريبًا من يوغرطة. وصلنا اسمه عن طريق شواهد نقائشية ومصدرية لاتينية. إنه اسم "ڤاودا"[٣٠]. هذا الاسم ليس إلا "جود" أو "جودة" الذي هو اسم عربي بلا منازع.

٧/٣-غايا

لنا اسم أخر من أسماء كبار رجال شمال إفريقيا القدامى. إنه ملك الماسيليين وأب ماسينيسا. وصلنا اسمه باللغة البونية بصيغة "غ-ي-ي"(٣١). كما وصل في مصدر يوناني بصيغة "غاية". يمكننا تأويل هذا الاسم بطرقتين. الأولى هي "غيث" والثانية هي "غاية" وكلاهما اسم عربي أصيل.

٨/٣-ماسينيسا

من بين التأويلات التي يمكن أن نقدمها لاسم ماسينيسا أنه يعني "مسن-صائن" والمقصود بها الملك الشيخ باعتباره الملك المؤسس للعائلة الملكية النوميدية(٣٢). رغم ضعف هذا التأويل لكننا نسوقه.

٩/٣-سبتيميوس

من بين التأويلات التي يمكن أن نقدمها لتسمية "سبتيميوس" أنه يعكس الرقم سبعة(٣٣). لعله يشير لليوم الذي ولد فيه. الحضارات المختلفة سمت الأطفال باسم اليوم الذي ولدت فيه وخاصةً يوم العبادة فنجد لدى اليهود تسمية "سبتي" نسبة ليوم السبت ونجد لدى المسيحيين تسمية "دومينيك" نسبة ليوم الأحد، ونجد لدى العرب تسمية "جمعة". هذا تأويل ضعيف لهذا الاسم لكننا نذكره.

١٠/٣-سالوستوس

من بين التأويلات التي يمكن أن نقدمها لتسمية "سالوستوس" أنها تعني "ثلاثة"(٣٤). رغم ضعف هذا التأويل نحتفظ به مؤقتا في انتظار مزيد البحث.

خَاتِمَةٌ

لقد وصلنا لنهاية بحثنا الأولي حول التسميات الإفريقية القديمة. تتمثل طرافة هذه الدراسة في محاولتها فحص التقارب بين أسماء شخصيات إ فريقية قديمة وأسماء عربية. تُعَدّ هذه الدراسة حول التسميات الإفريقية مجددة في مقاربتها. لا يمكنها أن تتواصل هذه الدراسة بشكل جيد إلا بالاستناد على أدوات بحث متطورة تعتمد على مادة متنوعة مثل المصادر الأدبية والنقائشية. كذلك الفترة المدروسة يجب أن تشمل كامل الفترة القديمة دون أت تتوقف عند الفترة الرومانية كما تفعل ذلك غالبًا الدراسات الحالية.

هذه الدراسة قابلة لمزيد التعمق بانفتاحها على عدد أكبر من التسميات. كما يمكنها أن تنكب على تسمية القبائل الشمال إ فريقية القديمة وتتفحص إمكانية تقاربها مع تسميات قبائل عربية كمثال إلى أي مدى تسمية "ريبو" أو "ليبو" و "لوبيين" لاحقًا يمكن أن يكون لها صلة باسم قبيلة عربية. كذلك تسمية ""موريين" أو "نوميديين" إلى غير ذلك. نعتقد أن هذه الدراسة ليست إلا في بدايتها. على كل ف إ ن حججًا أثرية مكتشفة سابقًا وأخرى جديدة تسمح لنا بالتفكير بقوة بأن علاقات كانت موجودة بين العالم الإفريقي القديم والثقافة العربية. لذلك فإن هذه الدراسة حول التسميات الإفريقية يمكن أن ترتبط بكل يسر بدراسة الهوية الثقافية الإفريقية القديمة بفصولها العرقية والدينية في سبيل فهم أحسن لسكان شمال إفريقيا القدامى.

المعطيات التي توصلت لها هذه الدراسة تدفعنا لتعميق التقصي وخاصةً تنضيج الأسئلة بالانكباب على فهم سببيات المعطيات التي لاحظناها مما يتطلب طبعًا وقتًا أكثر. هذه الدراسة لها علاقة بملف يشغلنا منذ فترة وهو ملف الهوية الإفريقية القديمة. نعتقد بكل تواضع أننا بهذا العمل قدمنا إضاءة جديدة حول هذا المبحث.

الهَوامِشُ:

(١) في إطار أبحاثي الأكاديمية لما بعد الدكتوراه اخترت التركيز على دراسة الثقافة الشمال إفريقية القديمة وخاصةً الفصلين اللوبي النوميدي والفينيقي البوني.

(٢) نجيم، كوسموغونيا: ع، نجيم، **كوسموغونيا أترويو ولوبيو وبونية، الملتقى الدولي حول ماسينيسا**، قسنطينة ٢٠-٢٢ سبتمبر ٢٠١٤، نشر في ٢٠١٥، صفحة ١١٧-١٣٦.

(٣) ديزانج، جرد: ي. ديزانج، **جرد القبائل الافريقية للفترة القديمة الكلاسيكية غرب النيل**، داكار، ١٩٦٢. الصفحة ١٥ و٣٣.

(٤) كامبس، أنطلاس: ج، كامبس، **أنطلاس، الموسوعة البربرية**، الجزء ٥، أكس-أن-بروفنس، ١٩٨٨، الصفحات ٧٠٦-٧٠٨. (صفحة ٧٠٦).

(٥) شارلي، كوريب: ج. ل. شارلي، كوريب، **الموسوعة البربرية**، الجزء ١٤، أكس-أن-بروفنس، ١٩٩٤، الصفحات ٢١٠٤-٢١١٠. (صفحة ٢١٠٤).

(٦) نجيم، كوسموغونيا، الصفحة ١١٧ وما يليها.

(٧) على سبيل الذكر لا الحصر انظر: بفلوم-دوفال، **تسميات**: ه، ج، بفلوم-ن، دوفال، **التسميات اللاتينية**، أعمال الملتقى الدولي، باريس ١٣-١٥ أكتوبر ١٩٧٥، نشر في ١٩٧٧.

(٨) كامبس، تحذير: ج. كامبس، تحذير، **الموسوعة البربرية**، الجزء ١، أكس-أن-بروفنس، ١٩٨٩، الصفحة ٧ ما يليها.

(٩) هونك، الله: س، هونك، **شمس الله تشرق على الغرب**، باريس، ١٩٩٧. الصفحة ١٥.

(١٠) كامبس، ياربس: ج. كامبس، ياربس، **الموسوعة البربرية**، الجزء ٢٢، أكس-أن-بروفنس، ٢٠٠٠، الصفحات ٣٤٥٥-٣٤٥٦. (الصفحة ٣٤٥٥).

(١١) هارماري، باس: أ، هارماري، باس، **قاموس الحضارة الفينيقية والبونية**، باريس-بروكسال ١٩٩٢، الصفحات ٦٩-٧٠. (الصفحة ٦٩).

(١٢) كامبس، **أنطلاس**، صفحة ٧٠٦.

(١٣) ابن منظور، لسان: ابن منظور، **لسان العرب**، ١٨ جزء، لبنان، ١٩٩٧. الصفحة ١١٣.

(١٤) كامبس-شاكر، يوغرطة: ج. كامبس-س. شاكر، يوغرطة، **الموسوعة البربرية**، الجزء ٢٦، أكس-أن-بروفنس، ٢٠٠٤، الصفحات ٣٩٧٥-٣٩٧٦. (صفحة ٣٩٧٥).

(١٥) شاكر، تنويه: تنويه لغوي حول اسم يوغرطة، **الموسوعة البربرية**، الجزء ٢٦، أكس-أن-بروفنس، الصفحات ٣٩٧٧-٣٩٧٩. (٣٩٧٧).

(١٦) كامبس-شاكر، **يوغرطة**، صفحة ٣٩٧٥.

(١٧) دوبويسون-ليبنسكي، ماسينيسا: م. دوبويسون- أ. ليبنسكي، ماسينيسا، **قاموس الحضارة الفينيقية و البونية**، باريس-بروكسال، ١٩٩٢، صفحة ٢٧٧-٢٧٩. (صفحة ٢٧٧-٢٧٨).

(١٨) ليبنسكي، ليبيا: إ، ليبنسكي، ليبيا، **قاموس الحضارة الفينيقية والبونية**، باريس-بروكسال ١٩٩٢، الصفحات ١٥٩-١٦٠. (صفحة ١٥٩).

(١٩) كامبس، أتبان: ج. كامبس، أتبان، **الموسوعة البربرية**، الجزء ٧، أكس-أن-بروفنس، ١٩٨٩، الصفحات ١٠٠٨-١٠١١. (صفحة ١٠٠٨).

(٢٠) ابن منظور، **لسان**، الجزء ٩، صفحة ٣٩.

(٢١) ابن منظور، **لسان**، الجزء ٩، صفحة ٣١.

(٢٢) لاروند، سبتيم سيفار: أ. لاروند، **سبتيم سيفار وسيران**، نشرية المجتمع الوطني لمجمعي فرنسا، ١٩٨٣-١٩٨٥، الصفحات ٥٩-٧٠. (صفحة ٥٩).

(٢٣) سيم-روبان، سالوسوت: ر. سيم-ب.روبان، **سالوستوس**، الحوليات الأدبية لجامعة بوزانسان، عدد ٢٨٢، الصفحات ٣-٣٢٧. (صفحة ٣).

(٢٤) كولتالوني-ترانوي، يوبا: م. كولتالوني-ترانوي، يوبا، **الموسوعة البربرية**، الجزء ٢٥، أكس-أن-بروفنس، ٢٠٠٣، الصفحات ٣٩١٤-٣٩١٨. (صفحة ٣٩١٤).

(٢٥) ليبنسكي، أرابيون: إ، ليبنسكي، أرابيون، **قاموس الحضارة الفينيقية والبونية**، باريس-ربوكسال، ١٩٩٢، صفحة ٣٥. (صفحة ٣٥).

(٢٦) شارلي، **كوريب**، ٢١٠٤.

(٢٧) ساب، أبولي: ج. ب. ساب، أبولي، **الموسوعة البربرية**، الجزء ٦، أكس-أن-بروفنس، ١٩٨٩، الصفحات ٨٢٠-٨٢٧. (صفحة ٨٢٠).

(٢٨) دوبويسون-ليبنسكي، بوكوس: م. دوبويسون- أ. ليبنسكي، بوكوس، **قاموس الحضارة الفينيقية والبونية**، باريس-بروكسال، ١٩٩٢، صفحة ٧٥. (صفحة ١٥٤٤).

(٢٩) دوبيوسون-ليبنسكي، بوڤود: م. دوبويسون- أ. ليبنسكي ، بوڤود، **قاموس الحضارة الفينيقية والبونية**، باريس-بروكسال، ١٩٩٢، صفحة ٧٥.

(٣٠) كامبس، ڤاودا: ج. كامبس، غاية، **الموسوعة البربرية**، الجزء ٢٠، أكس-أن-بروفنس، الصفحات ٢٩٩٥-٢٩٩٦. (صفحة ٢٩٩٥).

(٣١) كامبس، غايا: ج. كامبس، غايا، **الموسوعة البربرية**، الجزء ١٩، أكس-أن-بروفنس، ١٩٩٨، الصفحات ٢٩٠٤-٢٩٠٥. (٢٩٠٤).

(٣٢) دوبويسون-ليبنسكي، **ماسينيسا**، صفحة ٢٧٧.

(٣٣) لاروند، **سبتيم سيفار**، صفحة ٥٩.

(٣٤) سيم-روبان، **سالوست**، صفحة ٣.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

التزوير في مصادر تاريخ بلاد السودان
نبوءة في تاريخ الفتاش نموذجًا

د. محمد دوكوري
أستاذ باحث في الدراسات الإسلامية
الجامعة الإسلامية
جمهورية النيجر

مُلَخّص

شخصٌ ذو اطلاعٍ جيّد على مصادر تاريخ بلاد السودان ومصادر أخرى، أقْدَمَ على تزوير كتاب تاريخ الفتاش، ووَضَع فيه نبوءةً على لسان عدد من الأعيان والعلماء المشهورين، منهم جلال الدين السيوطي ومعاصره الشيخ عبد الكريم المغيلي، وشمهروش، وهو جني مذكور في مشيخة رواة متأخرين للحديث النبوي. تنبأ تاريخ الفتاش بحدوث دولة يؤسسها السلطان سيكو آمدو (شيخُو أَحْمَدُو) في القرن الثامن عشر، في منطقة ماسِنَه الواقعة في منحنى نهر النيجر، في وسط جمهورية مالي الحديثة، وتنصّ النبوءة على تفاصيل لا تترك مجالا للشك في أن سيكو آمدو هو المقصود بها؛ فتعينه تارة باسمه أو بأوصافه، وتارة بمولده الزماني أو المكاني. ستتناول دراستي النبوءة وتصف مصدرها الأساسي وظروفها الزمانية والمكانية، وتصف المراجع التي نقلتها عن تاريخ الفتاش وموقفها تجاهها، وتقف عند كل نبوءة على حدة ومَنْ نُسِبَت إليه. ثم تحلل الدراسة موضوع النبوءة شرعيًا بالتطرق إلى ضعف الأساس الشرعي الذي انطلقت منه، وتاريخيًا ببيان عدم مطابقة تفاصيل النبوءة للوقائع التاريخية الثابتة. وتنتهي الدراسة إلى أن تفاصيل النبوءة تلوح منها قرائن تدل على التزوير وبينات على الوضع. وتتناول الدراسة تسارعَ أصابع الإدانة بالتزوير إلى أهل ماسِنَه، وهم الجهة المستفيدة من النبوءة، إما إلى كلهم أو إلى بعض معين منهم، وتصف الدراسة المتهمين والقرائن التي اعتمدوها في تعيين المزوِّر الواضع. لا يمكن إنكار أن النبوءة موضوعة مزوّرة، وأن أصل كتاب تاريخ الفتاش لم يتضمنها. لكن تهمة أهل ماسِنَه بوضعها تثير أسئلة كثيرة، وليس عليها بينات كافية تثبت ما اتُّهِمُوا به، ولم تأخذ التهمة في الاعتبار جميع المعطيات الموضوعية؛ بل قد يكون المتَّهمون أخذوا في الاعتبار قرائن مؤيدة للإدانة، وأَهْمَلوا قرائن تُبَرِّئ المتّهم.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٣ مارس ٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر: ١١ مايو ٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

النبوءة؛ الحديث النبوي؛ إمبراطورية سنغي؛ تاريخ الفتاش؛ سيكو آمدو

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.166026

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد دوكوري، "التزوير في مصادر تاريخ بلاد السودان: نبوءة في تاريخ الفتاش نموذجًا".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد الثامن والأربعون؛ يونيو ٢٠٢٠. ص ٢١ – ٣٣.

Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: mdukure@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

مُقدِّمَةُ

كتاب "تاريخ الفتاش"[1] مصدرٌ مهمّ لتاريخ بلاد السودان، وقد تميَّز بكونه مكتوبًا؛ في قلة من المصادر المكتوبة، وغلبة من مصادر شفهيةٍ تثير إشكالية انقطاع السند في أحداث يرويها أشخاص لم يشهدوا زمنها غالبًا ولا قاربوا أحيانًا، وقد يكتفون بسند مبهم أو غريب إلى تلك العصور. وتاريخ الفتاش -المصدر المكتوب -تعتريه كذلك إشكاليات كثيرة لم يُتوصل حسب علمي، إلى نتائج مقنعة في شأنها، ومن ذلك أن مؤلِّفه غير معروف بيقين[2]، وكذلك القرن الذي أُلِّف فيه. وبمثل تلك الإشكاليات نزل مستوى الوثوق بالمعلومات الواردة فيه. ومن الإشكاليات التي في تاريخ الفتاش تضمُّنه نبوءة بالخليفة الثاني عشر من الخلفاء الذين ذكرهم حديثٌ نبوي، وهي موضوع دراستي. وسأتناول في الدراسة حقيقة النبوءة، والمتنبئين، وتحليل شرعي وتاريخي للنبوءة، وأتناول أخيرًا الكلام حول المُتَّهَم بوضع النبوءة في كتاب تاريخ الفتاش.

أولاً: النُّبُوءة

ورد في حديثٍ نبويٍّ خبرٌ عن اثني عشر خليفة سيتولَّون أمر المسلمين؛ فرأى علماء أنه قد مضى منهم عشرة: خمسة في المدينة واثنان بمصر وواحد بالشام واثنان بالعراق، وأنه بقي اثنان، ونَسَب تاريخ الفتاش إلى علماء بشَّروا بظهور الحادي عشر، وهو أسكيا محمد الكبير، وتنبَّأوا بظهور الخليفة الثاني عشر في أرض التكرور من بلاد السودان، ونَقَل الفتاش تنبُّؤ المتنبئين بأوصاف معرِّفة للخليفة الثاني عشر؛ فاسمه أحمد، وهو من قبيلة سَنْقَر، ويظهر في بعض جزائر سِبَّرَ ماسِنَه (الواقعة الآن وسط جمهورية مالي)، وهو موصوف بالصلاح والجود والتقى والزهد والتَّبَحُّر في العلم، وسيجدِّد الدِّين بعد ما يكون قد خَمد، وينصره الله على جميع مخالفيه[3]. جاءت النبوءة في كتاب تاريخ الفتاش استطرادًا لسياق تأييد خلافة أسكيا محمد الحادية عشرة، وسَوْق الشواهد على ذلك، فذكر -في امتداد ذلك -النبوءةَ بخلافة سيكو آمدو الثانية عشرة[4].

ثانيًا: ظروف النبوة

وقعت النبوءة بخلافة سيكو آمدو في العام الثاني من القرن العاشر الهجري (٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م)، وهو العام الذي حجّ فيه أسكيا محمد، أشهر سلاطين إمبراطورية سنغي، وأُلْقِيَت النبوءة إلى أسكيا محمد وإلى عالمَيْن من بلاده رافَقاه في رحلة الحجّ. وأما مكان النبوءة فبدأت مقدماتُها في مكة المكرمة أثناء الحج، ثم استمرَّت في مصر، في موضع بين القاهرة والإسكندرية. وكانت مكة حينئذ يحكمها شرفاء من بني الحسن بن علي بن أبي طالب، يَتْبَعون سلاطين المماليك البرجية في القاهرة، وتُوجد في القاهرة زعامةٌ رمزية لخليفةٍ عباسيٍّ لا نفوذ له، وذلك عقدين قبل أن يسيطر العثمانيون على دولة المماليك في مصر وعلى شرفاء مكة التابعين لهم. فكانت إمارة مكة لمحمد بن بركات، وكان حينئذ في آخر عهده قبل أشهر من وفاته. وكان سلطان المماليك البرجية في القاهرة هو محمد بن الملك الأشرف قايْتْباي الجركسي، تولاها بعد والده الذي توفي قبل عام؛ وكانت الخلافة الرمزية لأمير المؤمنين المتوكل على الله أبي العز عبد العزيز بن يعقوب بن محمد العباسي الهاشمي. وكانت الأمور حينئذ -في سلطنة مصر وإمارة مكة -في اضطراب شديد وعدم استقرار[5].

ثالثًا: مصدر النبوءة

٣/١-المصدر الأساسي:

وردت النبوءة في كتاب "تاريخ الفتاش" المنسوب إلى ألفع محمود كعت؛ وذلك في الصفحات الأولى من الكتاب؛ بدأت حكاياتها بمقدمة ذكر فيها أن شريف مكة تَوَّج أسكيا محمد وجعله خليفةً بأرض التكرور، ثم رجع أسكيا إلى بلاده، فمرَّ بمصر، والتقى فيها بالسيوطي (ت. ٩١٠هـ/ ١٥٠٥م)؛ فبشَّره السيوطي أنه هو الخليفة الحادي عشر، ثم تَنَبَّأ السيوطي بظهور الخليفة الثاني عشر في بلاد التكرور، وذكر الخليفة الثاني عشر باسمه ووصفه. وأكّد كتاب الفتاش هذه النبوءةَ بقول ثلاثة علماء آخرين:

أحدهم قاضٍ مشهور مخضرم من قضاة تنبكتُ؛ عاصَر سقوط دولة سُنِ علي وقيام دولة أسكيا، وهو القاضي حبيب[6]؛ نقل عنه أن الكُهّان تنبؤوا كذلك بظهور الخليفة الثاني عشر، وأن نبوءتهم هي سبب تشدّد السلطان سُنِ علي على جماعة سَنْقَر التي ينتمي إليها "الرجل المذكور والخليفة المنصور"[7]. ثانيهم الشيخ عبد الكريم المغيلي. نقل عنه مِثل نبوءة السيوطي، وأضاف أن المغيلي طلب من أسكيا محمد أن يكتب رسالة إلى الخليفة الثاني عشر؛ فيها تأكيد النبوءة به، وفيها طلب أسكيا أن يكون في زمرة المتنبَّأ به. ثالثهم الشيخ عبد الرحمن الثعالبي، نسب إليه تاريخُ الفتاش التَّنَبُّؤَ بأنه سيكون في آخر الزمان خليفتان بأرض التكرور؛ أحدهما في آخِر القرن التاسع الهجري والآخَر في أوائل القرن الثالث عشر الهجري[8].

٣/٢-مراجع ذكرت النبوءة:

تاريخ الفتاش هو المصدر الأساسي الذي وردت فيه النبوة، وقد ذُكرت النبوءة في مراجع نقلت منه، لأغراض مختلفة:

(٣/٢) ١- فيليكس دُبُوَا[٩]: (Felix Dubois)

وهو أول مَنْ نوَّه بتاريخ الفتاش وكتب عن أهميته في تاريخ بلاد السودان وأشاد به. وقد أتى على ذكر نبوءة تاريخ الفتاش في معرض ذكر رسائل كتبها أهل ماسِنَه إلى آفاق بلاد الإسلام يخبرون فيها بظهور الخليفة الثاني عشر الموعود؛ وأنه هو زعيمهم سيكو آمدو[١٠]. وكان موقف فليكس دوبوا صريحا في شأن النبوءة؛ أنها مزوّرة ولم تكن في أصل تاريخ الفتاش، بل اخترعها مؤلفها "خرافة مُغْرِضة وخِدَاعا وحِيلة"[١١]. وتنبّأ -هو أيضًا- بأن مثل ذلك سيحصل فيما تسيطر عليها فرنسا من بلاد السودان، وسيروّجها طامحون مناوئون للمشروع الاستعماري الفرنسي، كما حصلت دعوى المهدوية في السودان المصري[١٢]. ونقل فليكس دُبُوَا عن أحد أحفاد مؤلف الفتاش، أن أهل ماسِنَه سَعَوْا إلى تدمير جميع نسخ تاريخ الفتاش، حتى وصلوا إلى نسخةٍ لأسرتهم كانوا تلطَّفُوا في إخفائها بدفنها في قبر[١٣].

(٣/٢) ٢-هُداسْ ودِلَفُسْ[١٤]: (Houdas et Delafosse)

خرج تاريخ الفتاش من المطبعة بتحقيق هُداسْ ودِلَفُسْ، وقد ترجماه كاملاً إلى اللغة الفرنسية، وكتبا مقدمة ضافية مهّدوا بها النسخة المترجمة، ولما أتَيا فيها على ذكر النبوءة التي في بداية تاريخ الفتاش، ذكرا أنها اختصت بها النسخة الثالثة التي عُثر عليها في بلدة كاي. ونقلا الحكاية الشفهية أن سيكو آمدو أمر بتدمير جميع نسخ الفتاش المعروفة في زمنه، وانتهيا إلى أن أصل كتاب الفتاش تضمّن نبوءات في بدايته، وأن سيكو آمدو عمل على تعديل تلك النبوءات إلى ما يوافق أغراضه السياسية، مستدلَّين على ذلك بكون سيكو آمدو أمر بتدمير جميع النسخ غير المعدلة، وما لم تدمَّر بُتِر منه أوَّله كما حصل للنسخة الأم التي اعتمدا عليها في إخراج الكتاب، ولأن أغلب ما عثر عليه من نسخ الفتاش في المنطقة، ليس فيها إلا بدايته المتضمنة للنبوءة[١٥].

(٣/٢) ٣-همباتي[١٦] **وصاحبه** (Hampate et Daget):

ذكرا النبوءة في كتابهما عن إمارة ماسِنَه، على نحو ما في تاريخ الفتاش مع اختلاف يسير وإضافة في بعض المواضع؛ فأضافا أن سيكو آمدو تُنُبِّئ أنه سيولد إحدى عشرة سنة قبل نهاية القرن الثاني عشر، أي عام ١١٨٩هـ، وأنه سيظهر أمره بعد ثلاث وثلاثين سنة من بداية القرن الثالث عشر، أي ١٢٣٣هـ، ويكون عمره أربعة وأربعين عاما، وأنه سيكون معه جني قوي، وتختلف حكاياتهما عن الفتاش؛ أن أسكيا هو الذي طلب الكتابة إلى المتنبَّأ به وليس المغيلي كما في الفتاش، ونسبا نص الرسالة إلى محفوظات الروايات الشفهية. والنبوءة عندهما بالتعيين القطعي، منسوبةٌ إلى الجني شمهروش، أما السيوطي فذكراه في سياق الكلام عن حديث الخلفاء، ولم ينسبا إليه نبوءة معيّنة في شأن سيكو آمدو[١٧].

وفي كتاب همباتي وصاحبه نبوءات أخرى:

- منها تنبؤ الشيخ عثمان بن فوديو لابنه محمد بلّو أن الحاج عمر سيأتي إلى صكتو، وتنبَّأ بصفاته وبمراده[١٨]؛
- ومنها أن أحمد البكاي الكُنتي في حوار بينه وبين الحاج عمر في صكتو، وذلك قبل بداية أمر الحاج عمر وسعيه إلى تأسيس دولته. تنبأ أحمد البكاي أن الحاج عمر سيكون شريرا بعلم شيطاني يضلّل به كثيرا من الناس، وأنه - بدعوى تجديد الدين -سيدفع مَن معه إلى السرقة والنهب، وأنه سيكون سببا لموتِ كثيرٍ من الناس. وفيه أن أحمد البكاي أسَّس نبوءته على حديث نبوي تأوّلها بالنبوءة المذكورة[١٩]. وهذا يشبه النبوءة التي هي موضوع مقالتنا؛
- ومنها أنّ سيكو آمدو كُشِف له - وهو في ماسِنَه - أن الحاج عمر حين كان طاف بالكعبة، دعا أن يملّكه الله عاصمة دولة ماسِنَه، وتنبّأ سيكو آمدو أن ذلك لن يكون إلا بخسارة حفيده آمدو آمدو، وكُشِف لسيكو آمدو أن ذلك هو سبب نفرة حفيده من الحاج عمر[٢٠].

ولم ينتقد همباتى وصاحبه النبوءة موضوع البحث ولا النبوءات الأخرى، ولا صرَّحا بموقفٍ تجاهها، ولكنهما بَنَيَا عليها حكاياتهما عن دولة ماسِنَه.

(٣/٢) ٤-بِنْتُو سَنَنْكُوَا[٢١]: (Bintou Sanankoua)

ذكرَت المؤلفة النبوءةَ في مواضع كثيرة من كتابها، وكان موقفها صريحًا في نقدها سلبًا، وأنها زيادة أُلْحِقَتْ بكتاب الفتاش، صنعتها الورشة التي كانت تابعة للمجلس الكبير في دولة ماسِنَه، وأنها نُسخت هناك بكثرة ونُشرت على نطاق واسع، وزادت أن غرض أهل ماسِنَه من إضافتها إلى تاريخ الفتاش، تحقيق المرجعية الشرعية والاستحقاق السياسي والمكانة الاجتماعية. وقد بَنَتْ المؤلفة موقفها من النبوءة على ما ذكره باحثون قبلها، ذكرتهم وأحالت على كتبهم[٢٢].

(٣/٢) ٥-نِهيميا لفتريون[٢٣]:

قطع لفتريون أن النبوءة لم تكن في النسخة الأصلية لتاريخ الفتاش، ونسبها إلى وضع أهل ماسِنَه، وأخذ على الفرنسيَّيْن محقِّقَيْ الفتاش أنهما لم يَنْتَبِها إلى المشكلات التي تثيرها النسخة الثالثة للفتاش، التي تختص بالنبوءة؛ فتقبلاها على أنها

نسخة أصلية؛ وغرَّهما فرَحُهما بالعثور فيها على البداية المفقودة في النسخة الأم، وألْهاهُما تنويهُ فيليكس دُبُوَا بتاريخ الفتاش؛ فأوردا النبوءة ونشرا الكتاب بها، مع القطع بأنها مصنوعة في القرن الثامن عشر الميلادي، ولم تكن من الكتاب المؤلف في القرن السابع عشر الميلادي[٣٤].

رابعًا: المتنبئون

فيما ساقه تاريخ الفتاش من النبوءة، تتحصل نسبتها إلى مجموعة من الأعيان، وهم وإن اتفقوا في النبوءة في مُجْمَلِها؛ فقد يحسن أن نذكرهم بتفصيل ما نسب إلى كلٍّ منهم:

٤/١-السيوطي

الشيخ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت. ٩١١هـ)، صاحب المركز المهم في النبوءة؛ لشهرته ومكانته العلمية وعلاقته الشخصية ببلاد التسودان؛ فقد ذَكَر أنه دَخَل بلاد التكرور[٣٥]، وأنه كانت ترد إليه مسائل منها ويكتب عنها أجوبة يرسلها إليها[٣٦]، ولأن السيوطي كان في بلد هي محطة مهمّة في طريق الحاج من التكرور وغرب بلاد السودان؛ وذلك جعل اللقاء به من مقاصد العلماء والأعيان في رحلة الحج. فذكر الفتاش أن السلطان أسكيا محمد التَقَى بالسيوطي أثناء عودته من الحج، ويغلب على الظن أن اللقاء كان أوائل العام الثالث بعد التسعمائة (٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م)؛ إذ يستبعد أن يكون اللقاء به في مصر بقية العام الذي كان فيه حَجُّه.

وتَنَبُّؤ السيوطي تضَمنَّه أجوبته عن أسئلةٍ ألقاها عليه أسكيا محمد؛ أحدها عن الخلفاء الاثني عشر المذكورين في الحديث النبوي؛ فبدأ تنبؤ السيوطي بذكره أنه بقي من الخلفاء اثنان سيظهران بأرض التكرور، ثم بشّر أسكيا محمد أنه أحدهما، وذكر أن الثاني سيأتي بعده، وهو آخر الخلفاء. ثم سأله أسكيا هل يظهر مِن صلبه مَن يقيم الدين بعده، فأجاب السيوطي بأن الذي سيقيم الدين بعده "رجل صالح عالم عامل تابع للسنة، اسمه أحمد، يظهر أمره في بعض جزائر سِبَّرَ مَاسِنَة.. من قبيلة علماء سَنْقَر.. وأنه متبحّر في العلوم.. يَجِد الدِّين خامدًا فيكون كشرارة جَمْر وقعت في يابس الحشيش؛ فينصره الله على جميع الكفار والمخالفين حتى تعمّ بركته البلاد والآفاق والأقطار؛ فمن رآه وتبعه كان كمن تبع النبي (ﷺ)، ومن خالفه فكأنما خالف النبي (ﷺ)"[٣٧].

فالنبوءة في كلام السيوطي تأويلٌ للحديث الوارد في الخلفاء الاثني عشر، في محاولة منه لتحديد الخلفاء. وهي - على ما نُسب إليه - لا تدع مجالا للشك في تأويل النبوءة بسيكو آمدو مؤسس دولة ماسِنَه.

٤/٢-المَغِيلي

في سياق النبوءة بالخليفة الثاني عشر، ذكر الفتاش الشيخ عبد الكريم المغيلي (ت. ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م) في المرتبة الثانية بعد السيوطي[٣٨]، فذكر مطابقة كلام المغيلي كلامَ السيوطي في قضية الاسترقاق وأنه "اتفق أقوالهما كما يقع الحافر على الحافر"؛ لكنه بدأ ذِكر كلام المغيلي بقوله: "وذلك بعد ما سأل [يعني أسكيا] الشيخَ عبد الكريم المغيلي". وظاهر ذلك أن سؤال السيوطي كان بعد سؤال المغيلي، وإن ذكر في سياق الكتاب في الترتيب الثاني. ثم زاد صاحب الفتاش أنّ المغيلي طلب من أسكيا "أن يكتب إلى الخليفة الذي يجيء بعده ويطلب منه الدعاء"؛ وأتى بنص الرسالة، وفيها وصف الخليفة بأنه "وارثه المسدّد والقائم بأمره، المؤيّد المؤمنين، أحمد المنصور.."، وفيها مخاطبة أسكيا محمد الخليفةَ المتنبَّأ به بقوله: "وتبشيرك بأنك آخر الخلفاء وقاهر الأعداد وهادي السعداء باتفاق العلماء، ونحن نطلب منك الدعاء، وأن أكون يوم القيامة في كريم زمرتك"[٣٩].

فالنبوءة هنا واضحة ولا يصعب تأويلها بسيكو آمدو؛ بسبب ذكرها اسمَ الخليفة المتنبأ به: أحمد. ويفهم من موضع آخر من الفتاش أن المغيلي زار أسكيا محمد وهو في مكة، ولم يتبيّن من موضعَيْ تاريخ الفتاش أكانت نبوءة المغيلي في مكة أثناء تلك الزيارة أم كانت في لقاء بينهما في ظرف آخر[٣٠].

٤/٣-الثعالبي

ذكر صاحب الفتاش الشيخَ عبد الرحمن الثعالبي (ت. ٨٧٥هـ/ ١٤٧٠م) في سياق النبوءة بالخليفة الثاني عشر، ونسب إليه تنبّؤه "أنه سيكون آخر الزمان في أرض التكرور خليفتان أحدهما يظهر في آخِر القرن التاسع، والآخَر يظهر في أول القرن الثالث عشر"[٣١]. فهذا النص المنسوب إلى الثعالبي يتنَبَّأ بالخليفة الثاني عشر، ويحدد مكان ظهوره ببلاد التكرور، وزمان ظهوره بالقرن الثالث عشر الهجري، وهو المكان والزمان اللَّذَيْن ظهر فيهما سيكو آمدو، والتنبؤ بظهوره في القرن الثالث عشر الهجري مذكور في نبوءة السيوطي وشمهروش الجني كذلك.

السيوطي والمغيلي معاصران لأسكيا محمد وحجته، أما الثعالبي فقد توفي قبل سلطنة أسكيا محمد بأكثر من عشرين سنة؛ فيكون في كلام الثعالبي نبوءتان: نبوءة بالخليفة الحادي عشر في آخر القرن التاسع الهجري، وبالخليفة الثاني عشر في القرن الثالث عشر الهجري. والظاهر أن قول الثعالبي، وإن وردت فيه نبوءة بزمن ومكان ظهور الخليفة الثاني عشر؛ فهو ليس مذكورا على سبيل الاستقلال، بل جاء لتقوية كلام تلميذه

المغيلي؛ ولذلك لم يذكره في بداية الكلام لما عدّ المتنبئين: السيوطي والمغيلي وشمهروش الجني[٣٢].

٤/٤-شَمْهَرُوش[٣٣]:

النبوءة المنسوبة إلى الجني شمهروش في تاريخ الفتاش نبوءة مستقلة؛ وفيها تفاصيل مثيرة وغريبة، وفيها تقوية وإعلاء سند حديث الخلفاء الاثني عشرة المعتمد عليه في النبوءة؛ إذ يروي شمهروش حديث الخلفاء عن النبي (ﷺ) مباشرة، يرويها للشيْخَيْن المصاحِبَيْن لأسكيا محمد: صالح جَوَر ومحمد تُلِ، ويظهر فيها قوة اعتقاد القوم في الجن وقدرتهم على الخوارق والغرائب والتنبؤ بالمستقبل. تأخّرت تفاصيل نبوءة شمهروش أكثر من خمسين صفحة عن نبوءة السيوطي والمغيلي[٣٤]، ولكنها وردت مثلَهما في زيادة خاصة بالنسخة الثالثة لم تتضمنها النسخة المعتمدة.

تبدأ نبوءة شمهروش بحكاية حجّ أسكيا محمد برفقة الشيخين الفقيهين صالح جَوَر ومحمد تُلِ، وأنهم -عند العودة من الحج -وصلوا إلى موضع بين القاهرة والإسكندرية، "فلما تنصَّف الليل إذا هم رهط شمهروش من الجن معهم رجعوا من الحج، وهو وسطهم، وعليه تقرأ طلبة الجنّ"[٣٥]. التقى الشيخان صاحبا أسكيا بشمهروش، فتنبّأ لهما الجني بالخليفة الثاني عشر بعد أن بَشَّرَهما بأن أسكيا هو الحادي عشر من الخلفاء الاثني عشر المذكورين في حديث يرويه شمهروش سماعا عن النبي (ﷺ). قال شمهروش: "مضت عشرة منهم وبقي اثنان؛ فلعله [يعني أسكيا] الحادي عشر، وسيأتي آخرهم في القرن الثالث عشر، وقد أخبر النبي (ﷺ) أني أعيش إلى تاسع القرون وأوافق الحادي عشر من الخلفاء، ثم يحكم بين الجن والإنس، وحينئذ أتوقع الموت"[٣٦].

فنبوءة الجني شمهروش أنه حدَّد زمن ظهور الخليفة الثاني عشر بالقرن الثالث عشر الهجري، مع ربطه بالخلافة الحادية عشر لأسكيا، وهو في ذلك موافق للسيوطي والثعالبي، وشمهروش يروي عن النبي (ﷺ) مباشرة حديث الخلفاء الاثني عشر، ويروي عنه أيضًا أنه يعيش إلى القرن التاسع ويعاصر الخليفة الحادي عشر، ثم يتوقع هو موت نفسه، أي قبل ظهور الخليفة الثاني عشر[٣٧]. وزاد همباتى وصاحبه أن شمهروش تنبأ أن الخليفة الثاني عشر "سيخرج من حوالي جنّى [jenne] وسيعيد النظام حتى تنبكت"، وأن أسكي سأله عن اسمه فأجابه بأنه أحمد[٣٨]. ولم ينسب المؤلفان ما زاداه على الفتاش إلى مصدر معين، وقد ذكرا في مواضع من كتابيهما[٣٩] أنهما اعتمدا في بعض معلوماتهما على مصادر شفهية.

٥/٤-هل تنبَّأ شريف مكة بخلافة سيكو آمدو؟

سبق أن النبوءة بخلافة سيكو آمدو، جاءت في امتداد كلامٍ سِيقَ أساسًا لبيان أحقية أسكيا محمد بالخلافة، وجاءت النبوءة تبعاً واستطرادا؛ فالذين ذكرهم الفتاش في البشارة بأسكيا محمد هم المتنبئون بخلافة سيكو آمدو إلا شريف مكة؛ فقد ذكره في البداية، قبل ذكر السيوطي والمغيلي والجني شمهروش، ثم بدأ به في التفصيل، لكن لم يرد فيما نسبه إليه نبوءةٌ واضحة بخلافة سيكو آمدو، بل اكتفى هو بالبشارة بخلافة أسكيا قائلاً له: "يا هذا أنت الحادي عشر من الخلفاء الذين ذكر رسول الله (ﷺ).. نادى [شريف مكة] أسكي الحاج محمد وأجلسه بمسجد البلدة الشريفة مكة وجعل على رأسه قلنسوة خضراء وعمامة بيضاء وأعطاه سيفا، وأشهد الجماعة الحاضرين أنه خليفة بأرض التكرور وأن كل من خالفه في تلك الأرض فقد خالف الله ورسوله"[٤٠]. عدم نبوءة واضحة منسوبة لشريف مكة مع ذكره في سياق المتنبئين، بل البدء به؛ يظهر منه أن النبوءة وُضِع أساسها على ربط سيكو آمدو بأسكيا، وأنه امتداد له، وأن ما ورد في أسكيا ينسحب على سيكو آمدو؛ لأنه وارثه الشرعي.

خامسًا: تحليل النبوءة

١/٥-التحليل الشرعي

(١/٥) ١-تحليل حديث الخلفاء

النبوءة بالخليفة الثاني عشر في بلاد التكرور، مبنيّة أساسا على حديث نبوي يرويه جابر بن سَمُرة رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله (ﷺ) يقول: «إنَّ هذا الأمر لا يَنْقَضِي حَتَّى يَمضيَ فيهم اثنا عشر خليفة كلّهم من قريش»، وفي رواية أخرى: «لا يزال أمر الناس ماضيا ما وَلِيَهم اثنا عشر رجلا كلهم من قريش»، وفي رواية ثالثة: «لا يزال الإسلام عزيزا إلى اثني عشر خليفة كلهم من قريش»[٤١]. فهذا الحديث فيه نبوَّةٌ بظهور اثني عشر خليفة يتولّون أمر المسلمين، من غير تعيينهم بشيء إلا بكون كلّهم – في بعض روايات الحديث - من قريش.

وقد تعرّض علماء للحديث شرحًا وتعليقًا، وحاولوا تحديد الخلفاء المذكورين في الحديث النبوي، ويمكن أن يُستخلَص من كلامهم اتجاهان:

الاتجاه الأول: أن الخلفاء الاثني عشر قد اكتملوا. وعلى هذا الاتجاه لا يمكن أن يكون منهم سيكو آمدو. وأمثل مَن في هذا الاتجاه الحافظ ابن حجر العسقلاني؛ فقد عيّنهم جميعا وذكر أنهم اكتمل عددهم على التوالي قبل انقضاء القرن الأول الهجري: ١) أبوبكر الصديق، ٢) عمر بن الخطاب، ٣) عثمان بن

عفان، ٤) علي بن أبي طالب، ٥) الحسن بن علي، ٦) معاوية بن أبي سفيان، ٧) يزيد بن معاوية، ٨) عبد الله بن الزبير، ٩) عبد الملك بن مروان، ١٠) الوليد بن عبد الملك، ١١) سليمان بن عبدالملك، ١٢) عمر بن عبد العزيز[٤٢]. وفي هذا الاتجاه تعيينات أخرى مختلفة قليلا أو كثيرا عن هذا الذي ذكره ابن حجر[٤٣].

الاتجاه الثاني: أنه لم يظهروا كلهم بل ما زال منهم من يُنْتَظَر ظهوره، وفي هذا الاتجاه الحافظ ابن كثير (ت٧٧٤هـ)؛ فرأى أنهم لم يظهروا كلهم، وعيّن منهم ستة ذكرهم بأسمائهم: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز، والمهدي المنتظر، وواحد أو أكثر لم يذكره باسمه، بل قال: "بعض بني العباس"[٤٤]. وفي هذا الاتجاه أيضًا جلال الدين السيوطي؛ فذهب إلى أنهم لم يكتملوا، وأن منهم المهدي المنتسب إلى آل بيت النبي (ﷺ)، ونَصَّ في كتابه تاريخ الخلفاء على أسماء عشرة: "الخلفاء الأربعة والحسن ومعاوية وابن الزبير وعمر بن عبد العزيز؛ هؤلاء ثمانية"، قال: "ويحتمل أن يُضَم إليهم المهتدي من العباسيين لأنه فيهم كعمر بن عبد العزيز في بني أمية، وكذلك الطاهر لِمَا أُوتِيَهُ مِن العدل، وبقي الاثنان المنتظران أحدهما المهدي لأنه من آل بيت محمد صلى الله عليه وسلم". فهو ذكر عشرةً بعضهم بالقطع وبعضهم بالاحتمال، ونصّ على أنه بقي منهم اثنان يُنْتَظَران، وأن أحدهما المهدي[٤٥].

(١/٥) ٢-تحليل نبوءة السيوطي في الفتاش

بعد الرجوع إلى ما أمكن من مظان النبوءة في كتب السيوطي، لم أعثر على شيء موافق ولا مقارب للنبوءة التي نسبها إليه تاريخ الفتاش، بل يوجد ما يعارِض ذلك؛ فقد ذهب إلى أن الخليفة الثاني عشر هو المهدي المنتظر، وأنه منسوب إلى آل بيت النبي(ﷺ)[٤٦]، وقد عَرَفَ السيوطي بلادَ التكرور ودَخَلها[٤٧]، وله فتاوى وردت إليه من تلك البلاد وأرسل إليها أجوبتها[٤٨]؛ فلو كان للسيوطي علمٌ بنبوءة بسيكو آمدو في ماسِنَه من أرض التكرور وأنه الخليفة الثاني عشر لظهر لذلك أثر ولو قليل في مظانّ من كتبه الكثيرة. وإن شرط القرشية الذي أيّده السيوطي، يُبْعِد أن يَجْعَل هو منهم مَن لا ينتسب إلى قريش. ولم أجد أن سيكو آمدو ادَّعَى أو ادُّعِيَ له الانتساب إلى قريش أو إلى آل بيت النبي(ﷺ)، إلا ما ذكره فليكس دُبُوَا أن سيكو آمدو "أشاع أنه من آل النبي؛ لأن أحد أجداده تزوج من آل النبي". وهذا كلام غير محقَّق؛ ولم يكن ليَثْبُت له شرعا نسبٌ من جهة امرأة تزوّج بها أحد أجداده![٤٩]. وتبقى علاقة ضعيفة تربط نبوءة الفتاش بالمعروف من كلام السيوطي؛ كونه ذكر ظهور عشرة خلفاء وانتظار الاثنين الباقيين منهم؛ فكان كلام السيوطي هذا مَدخلا لوضع النبوءة ونسبتها إلى السيوطي.

(١/٥) ٣-تحليل نبوءة المغيلي وشيخه

أما الشيخ عبد الكريم المغيلي فأجوبته عن أسئلة أسكيَا الحاج محمد متوافرة ومشهورة ومدروسة[٥٠]، وليس فيها نبوءة منه بخلافة سيكو آمدو في أرض السودان، نعم تطرّق فيها المغيلي إلى حكم القبائل المسترقة الذين ورثهم أسكيَا محمد عن حُكَّامٍ سابقين، وهو الأمر الذي جُعِل – في بعض سياق تاريخ الفتاش -مقدّمة إلى الكلام حول النبوءة بسيكو.

وعلاقة ضعيفة أخرى بين أجوبة المغيلي ونبوءة الفتاش أنه ذكر في أجوبته أن الله يرسل في رأس كل قرن عالما يجدد الدين، وذكر أوصافا بعضها يقرب من أوصاف المُتَنَبَّأ به في الفتاش، قال: "ولذلك رُوِي أن في رأس كل قرن يُرسِل الله للناس عالِما يجدد لهم دينهم، فلا بد لهذا العالِم في كل قرن أن يكون أحواله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإصلاح أمور الناس والعدل بينهم ونصر الحق على الباطل والمظلوم على الظالم بخلاف عصره؛ فيكون بذلك غريبا بينهم؛ لانفراده بصفاء أحواله وقلة أمثاله، وحينئذ يتبين أنه من الصالحين وأن من خالفه وشاققه ليصرف الناس عنه إنما هو من المفسدين"[٥١]. وقد سبق أن النبوءة تحدد ظهور الخليفة الثاني عشر ببداية القرن الثالث عشر[٥٢]؛ فيكون هو مجدّد ذلك القرن.

وكذلك عبد الرحمن الثعالبي شيخ المغيلي؛ ليس فيما رجعتُ إليه من مظان كتبه شيء يشير إلى النبوءة المنسوبة إليه، لا في كتابه في التفسير (جواهر المعاني) ولا في كتابه في السيرة والآيات النبوية (الأنوار في آيات النبي المختار)، بل لم أجد في موضوعات الكتاب الأخير شيئًا له تعلق بتنبئه بخليفة أو خلفاء بعده، ولا رأيتُ الثعالبي جعل ضِمنَ آياتِ النبيِّ المعجزاتِ تَنَبُّؤَه بأمور تكون في المستقبل بعد وفاته[٥٣].

(١/٥) ٤-تحليل نبوءة شمهروش الجني

التحقيق أن رواية الأحاديث والأخبار عن طريق الجن ضعيفة ولا يُعتمد عليها في إثبات أمر شرعي، وقد اختلف أهل الحديث في ذكر الجن في عداد الصحابة[٥٤].

وَرَدَ اسمُ الجني شمهروش في كتاب تاريخ الفتاش سِتَّ عشرة مرة كلها من زيادات النسخة الثالثة المثيرة للشبهات، وهو اسم يظهر في أسانيد رواية الحديث في كتب أُلِّفت بعد القرن العاشر الهجري[٥٥]، وهو مذكور في سلسلة أحاديث لا ينبني على أغلبها عمل، بل هي أحاديث رويت بطريق تسلسلت بميزة خاصة[٥٦]، ومع ذلك فالأحاديث التي يُذكر في سندها الجنيُّ

شمهروش لم أجد منها حديث الخلفاء الاثني عشرة الذي تأسّست عليه النبوءة.

وجلال الدين السيوطي له كتاب في أحكام الجن[٥٧] تناول فيه موضوع رواية الجن للحديث؛ فذكر آثارًا من روايتهم، وليس فيها حديث الاثني عشر خليفة، ولا في أسانيدها جنيٌّ باسم شمهروش[٥٨]، وذكر السيوطي فيه أثرا أن قاضيا من الجن حكم بين الإنس والجن وبنى القاضي الجنيُّ حكمَه على حديث رواه عن النبي (ﷺ) بلفظ "من تَزَيّا لكم فاقتلوه"؛ فحكم للإنسي وأهدر دم الجني المتمثل على صورة ثعبان، ولم يذكر السيوطي اسم قاضي الجن[٥٩]. وهذا شبيه بما في تاريخ الفتاش من قضاء شمهروش بمثل هذا الحكم في مثل هذه القضية، وفيه قول شمهروش: "مَنْ تَبَدَّلَ عن صورته فَدَمُهُ هَدر"[٦٠].

(١/٥) ٥-خلاصة نسبة النبوءة إلى الشرع وعلمائه

فالنبوءة بسيكو آمدو خليفةً ثاني عشر؛ لم يَرِد لا في روايات الحديث النبوي الذي ذكر أولئك الخلفاء، ولا في أقوال العلماء الذين تعرّضوا لشرح الحديث أو الاستدلال به أو لغرض آخر؛ فلا يمكن نسبة النبوءة إلى الشرع ولا إلى علمائه شارِحِي نصوصه؛ وخاصة على رأي مَن يجعل الخلفاء قد اكتملوا قبل زمن ظهور سيكو آمدو؛ فهم أبعد عن نبوءة الفتاش، أما الآخرون وإن ذكروا انتظار بعض الخلفاء بالنسبة إلى عصرٍ ما؛ فلا أحد – في غير الفتاش - ذكر سيكو آمدو باسمه أو أوصافه أو بلاده أو زمنه أو شيء يمكن تحديده به، بل يوجد في بعض كلامهم ما ينفي أن يكون منهم سيكو آمدو.

٢/٥-التحليل التاريخي

حجّ أسكيا محمد أوائل القرن العاشر الهجري (أواخر القرن الخامس عشر)، وأشبه الأقوال في زمن تأليف تاريخ الفتاش أنه منتصف القرن السابع عشر الميلادي[٦١]؛ فحكاية تاريخ الفتاش لحج أسكيا، هي لحدثٍ وقع قبل عصر مؤلفه بأكثر من مئة سنة. ثم إن نُسَخ تاريخ الفتاش المعتمدة لا تؤيد النبوءة؛ لأنها خلوٌ منها، وإنما اختصت بها النسخة الثالثة من النسخ التي اعتمد عليها هُداسْ ودِلَفُسْ في إخراج الكتاب، وهي نسخة أثارت شكوكا كثيرة وتحوم حولها شبهات معتبرة فيما انفردت به عن النسخ الأخرى، وخاصة في الجزء المبتور من النسخة الأولى، وهو بداية الكتاب الذي تقع فيه النبوءة[٦٢].

وذُكر حجّ أسكيا في موضعين آخرين من تاريخ الفتاش[٦٣] يتفق عليهما جميع النسخ، وفيهما وصف لقاء أسكيا بشريف مكة، لكن دون ذكر النبوءة بخليفة سيظهر في أرض ماسِنَه من بلاد التكرور. وتاريخ السودان للسعدي هو صنو تاريخ الفتاش في اتحاد موضوعاتهما وفي تقارب زمان ومكان تأليفهما، وقد ذكر السعدي حَجَّة أسكيا محمد[٦٤]، وليس فيه شيء عن النبوءة لا بخليفة ثاني عشر ولا بخليفة حادي عشر قبله.

"نصيحة أهل السودان للإمام التكروري" مصدر آخر ذَكَر حج أسكيا، وهو مفقود حتى الآن؛ نقل عنه الوفراني في نزهة الحادي؛ فذكر حج أسكيا محمد، وذكر لقاءه في مصر بالخليفة العباسي وتتويجه أسكيا محمد نائبا له في أقاليمه، وذكر أن أسكيا التقى بمصر بالشيخ عبد الرحمن السيوطي، وتطرق إلى تأثر أسكيا به وبإرشاداته، وأنه كان لمواعظ ووصايا السيوطي أثر عليه حتى بعد رجوعه إلى بلاده. وليس فيه شيء من الكلام عن خليفة لا حادي عشر ولا ثاني عشر[٦٥].

ويشكك في نبوءة الفتاش عدم مطابقة بعض تفاصيلها للمعروف؛ فحين حجّ أسكيا محمد عام ٩٠٢هـ، كان أمير مكة يومئذ الشريف محمد بن بركات مع ابنه بركات[٦٦]؛ والذي ذكر في سياق النبوءة في الفتاش "الشريف الحسني مولاي العباس أمير مكة"، ولا تظهر مطابقة ذلك للواقع فيما يظهر؛ فأمراء مكة حينئذ، وإن كانوا شرفاء من بني الحسن بن علي بن أبي طالب؛ فليس اسم "العباس" مذكورا فيمن تولى إمارة مكة في ذلك العهد مطلقًا.[٦٧] والذي في "نصيحة أهل السودان" فيما نقله منه الوفراني، أن الذي توّج أسكيا هو الخليفة العباسي بمصر[٦٨] لا الشريف أمير مكة، وذلك مشابه للاسم المذكور في الفتاش، ويكون غريبا مخالفا أن يُجمع بين كونه عباسيا وكونه شريفا حَسَنيا أميرَ مكة.

وفي موضعين من تاريخ الفتاش متفقٍ عليهما بين النسخ، لم يُذكر اسم الشريف بالتعيين، بل اكتفى المؤلف بقوله في أحدهما: "وعمَّمه شريف مكة وقدّمه وولّاه"[٦٩]، وقوله في الموضوع الآخر -حكاية عن أسكيا محمد في آخر حياته-: "هذا قميصٌ قمَّصني به شريفُ مكة المشرّفة الذي هو أميرها حينئذ"[٧٠]. فالمعلومات التاريخية لا تؤيد النبوءة بل هي أقرب إلى تفنيدها؛ فلم يبق للنبوءة أساسٌ متين يصححها، ويمكن الظن قريبا من القطع بأن النسخة الأصلية للفتاش لم تحتو لا على النبوءة بظهور سيكو آمدو ولا أنه الخليفة الثالث عشر الذي يظهر في بلاد التكرور، وأن النبوءة المذكورة مصنوعة وموضوعة في تاريخ الفتاش.

سادسًا: التُّهمة بوضع النبوءة وقرائنها

١/٦-مَنْ الذي وضع النبوءة في تاريخ الفتاش؟

من أجل وضوح أمر التزوير على النبوءة بخلافة سيكو آمدو؛ فإن التهمة بوضعها اتجهت بالطبع إلى المستفيد أو

المستفيدين منها؛ لذا لم يتردّد باحثون في تعيين المتّهم بوضعها من غير عناء:

- فتارة يُتهم سيكو آمدو المُتَنَبِّأ بخلافته[٧١]؛
- وتارة أخرى تتجه أصابع الاتهام إلى ألفا نوح طاهر[٧٢]، أحد الشيوخ المقربين إلى سيكو آمدو، ورئيس المجلس الكبير في دولة ماسِنَه، إما بمبادرة منه أو بأمر من سيكو آمدو؛
- وتارة ثالثة يُتهم جماعة النُّساخ المحترفين في دار الكتب التي كانت ملحقة بالمجلس الكبير في حمدالله عاصمة سيكو آمدو، بعلم من سيكو آمدو أو بدون علم منه[٧٣].

٢/٦-قرائن التهمة؟

وكانت التهم الموجّهة إلى أهل ماسِنَه تعتمد أساسًا على قرائن:

القرينة الأولى: كون المستفيد من النبوءة هو سيكو آمدو.

القرينة الثانية: حكاية ذكرها فليكس دُبُوَا عن تاريخ الفتاش، مفادها أن أهل ماسِنَه سَعَوْا سعيًا حثيثا إلى إتلاف نسخ الفتاش وتلطَّفوا في الوصول إليها لتدميرها، حتى نبشوا القبور بحثًا عنها؛ وبعد تحليل الحكاية، كانت النتيجة تهمة أهل ماسِنَه بأنهم صنعوا نسخة مزوَّرة من تاريخ الفتاش بإضافة النبوءة، ثم سَعَوا إلى إتلاف النسخ غير المزورة كليًا أو جزئيًا بِبَتْر بدايتها التي تضمّنت النبوءة في النسخة المزوَّرة؛ حتى لا ينكشف التزوير[٧٤].

القرينة الثالثة: رسائل ألفا نوح طاهر التي بعثها إلى آفاق بلاد المسلمين المعروفة؛ مخبرًا بظهور الخليفة الثاني عشر وأنه سيكو آمدو. منها رسالة وجّهها إلى "تنبكتُ.. وتوات وغدامس وتونس والجزائر ومصر وقيروان وتلمسان والأندلس ومن يليهم إلى منتهى الإسلام"، قال: "فإن قيل: أين المصداق؟ قُلتُ: نص تاريخ الفتاش"؛ فسرد البدايةَ المعروفة من تاريخ الفتاش[٧٥]. ورسالة أخرى وجّهها إلى جماعات وبلدات ذكرها بأسمائها في الصحراء الكبرى من "المدن والبادية"، منها كُنتَ وولات وتِشِيت إلى "البحر المحيط"[٧٦].

٣/٦-قرائن التبرئة

يُشكِل على تهمة سيكو آمدو بوضع النبوءات بنفسه أو بأمر منه، أنه لم يدّع أنه الخليفة الثاني عشر في مراسلاته مع صكتو، مع أنَّ خَلَف الشيخ عثمان (محمد بلّو ت١٨٣٧ وأخوه أبوبكر عتيقُو ت١٨٤٢) طلبا منه التَبَعِية لصكتو، فامتنع وتعلَّل في امتناعه بأمور بعيدة عن دعوى الخلافة الثانية عشرة، بل فيها إقرار بأحقية سلاطين صكتوا، وإنما أسَّس تماديه في الامتناع عن تبعية صكتو، على أمور: منها القول بجواز وجود أميرين في عصر واحد إذا تباعدت الديار ولم يُمكن حكم الأطراف من مركز واحد، كما كان حال صكتو وماسِنَه، ومنها أنه توقّف عن بيعة محمد بلو ابن الشيخ عثمان؛ فيكون هو أحق بالبيعة بعده؛ قياسًا على أن عبدالله بن الزبير لما توقَّف عن بيعة يزيد بن معاوية، كان أحق بالخلافة بعده[٧٧].

ولم يرد كذلك أثرٌ لدعوى الخلافة الثانية عشرة في مراسلات أحمد البكاي زعيم كُنْتَه المعاصر لدولة ماسِنَه (ت.١٨٦٥) إلى سيكو آمدو وخَلَفه، ولا ورد ما يدل على دعوى أنّ سيكو آمدو قد تنبَّأ بخلافته إنسٌ ولا جِنّ، مع أن رسالة البكاي إلى سيكو آمدو نفسه توافرت فيها عبارات الإشادة به وبأنه إمام حق[٧٨]، وأن المراسلات بين خَلَف سيكو آمدو وأحمد البكاي كانت في وقت ساءت العلاقة بين الطرفين، وفيها ما يدل على عدم إقرار البكاي بوجوب الطاعة لسلطان ماسِنَه يومئذ. ولو كان لِخَلَف سيكو آمدو حينئذ علمٌ بنبوءةٍ بخلافة لذكرها في هذا النزاع، ولو كان عند أحمد البكاي علمٌ بدعوى الخلافة أو نبوءة بها لردّ عليهم وعابَهم بها، كما فعل في مسائل بعضها ذات علاقة بأحقية الإمارة[٧٩].

ويستبعد كذلك أن يكون عند الشيخ ألفا نوح طاهر علم بنبوءات كتاب الفتاش، ويكتب في ذلك إلى الآفاق داعيا الناس إلى بيعة سيكو، دون أن يصل ذلك إلى علم سيكو آمدو، ودون أن يَرِد ذلك في مراسلاته، وألفا نوح شيخٌ ممكّن ومقرب في دولة ماسِنَه ورئيس مجلس شيوخها من التأسيس، وثاني اثنين لم يكونا يفارقان سيكو آمدو، وبقي رئيسا لمجلس الشيوخ في عهد آمدو سيكو (الأمير الثاني ت. ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٤م)، حتى اعتزل في عهد آمدو آمدو (الأمير الأخير ت. ١٢٧٨هـ/ ١٨٦٢م)، مع ما عرف عن حكام دولة ماسِنَه وشيوخها من التشدد في الدين وبلوغ الغاية في التمسك بالشرع والتشبث به والاستقامة عليه[٨٠].

أما حكاية البحث عن نسخ الفتاش وتدميرها، التي أثارت تهمة أهل ماسِنَه بوضع النبوءة؛ فيُضْعِف الاعتماد عليها أن التدمير قد يكون لسبب آخر؛ فقد ذكر فليكس دُبُوَا نفسه في السياق نفسه وعن المُخبِر نفسه، أن سبب اختفاء نسخ تاريخ الفتاش وعدم انتشارها "أنه تضمّن الكلام عن شعوب وشخصيات كثيرة وأُسَرٍ أصبحت ثرية ومحترمة، بل وعن زعماء دول؛ قد ذَكَرت لهم تاريخ الفتاش أصولا متواضعة، وأحيانا يلوح منه أنهم من أرقاء؛ فكان ذلك مصدرُ حرجٍ وإزعاج لكثير من

الناس؛ فكانوا يشترون نسخها ويتلفونها"[81]؛ فلماذا لا يكون هذا سبب بحث أهل ماسِنَه عن تاريخ الفتاش لإتلافه.

ورسائل الشيخ نوح طاهر قد تؤيد تهمته بوضع النبوءة، لكن يتراءى من صنيعه فيها أيضًا أنه أخذ ما وجد من النبوءة في الفتاش بحسن ظن كبير، على فرض صحة نسبة تلك الرسائل إليه، وأنه لم يكن عنده علم بكونها موضوعة، وإلا فكيف يضع أمرا مصنوعا من عنده ويُلحقه بالفتاش، ثم يبعث بنسخه إلى العواصم الإسلامية المعروفة في عهده، مُظْهِراً درجة كبيرة من الثقة؛ حتى قال في آخر إحداها: "والقادر على إيصال مكتوب أسكيا إلى أمير المؤمنين أحمد بن محمد بن أبي بكر قادر على إيصال مكتوبي إلى مَنْ كُتِبَ إليهم"[82]، يفعل كل ذلك ولا يَتوقع أن يُدْرِك التزويرَ صغارُ طلبة العلم فضلا عن كبارهم. وأيضًا فممن أرسل إليهم نسخة من رسالته مشايخُه الذين تخرّج فيهم[83]، وفيها أمور منسوبة إلى مثل السيوطي والمغيلي، علماء ذاعت شهرتهم في مشرق بلاد المسلمين ومغربه؟

فهذه الرسائل المنسوبة إلى ألفا نوح طاهر، التي بعثها إلى عواصم الإسلام، هل ورد خبرٌ عنها في مصادر البلاد التي وجهها إليها؟ وهي بلاد المسلمين شرقًا وغربًا، وكذلك الجيران الذي وجهها إليهم لماذا لا يرد شيء عن تلك الرسائل في مصادرهم؟ أفلا يُمكن افتراض أن تكون النبوءة وُضعت في وقتٍ متأخر من حياة دولة ماسِنَه أو بعدها، وكذلك الرسالة المكتوبة باسم الشيخ ألفا نوح الطاهر؛ أو تكون النبوءة وضعها غيرهم في نسخة مزوّة من تاريخ الفتاش؛ فأخذها مَن أخذها منهم بحسن ظن كبير واعتقادٍ حَسَن في الذي أو الذين جاءت النسخة المزورة مِن طرفهم، ونفترض أن يكون بعض أهل حمد الله - ألفا نوح طاهر أو غيره في عصره أو بعده - اعتقدوا صحة نسخة اطلعوا عليها من صنع غيرهم أو دسيسة إليهم؛ فنسخوا الموضع المتضمن للنبوءة بكثرة ونشروه بسخاء.

خَاتِمَةٌ

أُلحِقت بكتاب تاريخ الفتاش أخبار تتنبأ بخلافة سيكو آمدو، ونَسَب الواضعُ تلك الأخبارَ إلى أعيان وعلماء مشهورين في أماكن وأزمان مختلفة، وكان ذلك في سياق تأييد سلطنة أسكيا محمد، أول وأشهر سلاطين إمبراطورية سُنْغَيْ، وتبدأ أخبار النبوءة بمكة وتنتهي في مصر، لكن الواضع خانَتْه تفاصيلُ النبوءة التي وضعها؛ فلاح منها قرائن التزوير وأنها ليست من أصل الكتاب؛ لعدم مطابقة مضمونها للواقع المعروف من التاريخ، وعدم صحة نسبتها إلى العلماء المنسوب إليهم في الفتاش. ولا يظهر بيقين مَنْ وَضَع النبوءة في الفتاش. واتهام أهل ماسِنَه المستفيدين لا يستقيم؛ لوجود قرائن أخرى تبرئهم، فيبقى الاحتمال في واضع النبوءة إلى ظهور بيانات.

في كتاب تاريخ الفتاش معلومات تحتاج إلى نقد ووقوف عندها؛ وخاصةً في القسم الأول من الكتاب، الذي اختصت به النسخة الثالثة التي اعتمد عليها محققا الكتاب الفرنسيان، وهو مجال ندعو أصحاب التخصص والهواية إلى تطرقه.

الهَوامِشُ:

(١) "**تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس**"، تأليف القاضي محمود كعت بن الحاج المتوكل كعت الكرمني التنبكتي الوعكري، وذيله لبعض من حفدته، وقف على طبعه من غير تغيير نصه السيد هوداس مدرس اللغة العربية بمحروسة باريز، وشاركه في ذلك السيد دلافوس مدرس اللغات السودانية"، Librairie d'Amérique et d'Orient, Paris، ١٩٨١، نشرت الطبعة الأولى المترجمة عام ١٩١٣.

(٢) فلا يعرف بيقين اسم مؤلف الفتاش. وللدكتور هارون المهدي ميغا مقالة في مؤلف الفتاش، انتهى فيها إلى أن اسمه "محمود كعت بن المختار قنبل"؛ وساق على ذلك أربع قرائن لم أجدها مقنعة في الغرض، والله أعلم. انظر: مقالة الدكتور هارون المهدي ميغا "**من هو مؤلف كتاب تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش؟**" في العدد الرابع والعشرين (٢٤) من مجلة "قراءات إفريقية". نشرت المقالة في موقع المجلة (www.qiraatafrican.com) بتاريخ ٢٠١٨/١١/١٢.

(٣) انظر: **تاريخ الفتاش**، ص١٢-١٦.

(٤) انظر: **تاريخ الفتاش**، ص١٢ فما بعد.

(٥) انظر: **تاريخ البُصْرَوِيّ**، تأليف علاء الدين يوسف بن أحمد الدمشقي (ت. ٩٠٥هـ، ط١، ١٩٨٨، دار المأمون للتراث، دمشق) ص١٨٩؛ **مفاكهة الخلان في حوادث الزمان** تأليف شمس الدين ابن طولون (٩٥٣هـ، ط١، ١٩٩٨ دار الكتب العلمية، بيروت) ص١٣٨، ١٤٩؛ **تاريخ دولة المماليك في مصر**، تأليف السير وليم موير، (مترجم، ط١، ١٩٩٥، مكتبة مدبولي، القاهرة) ص١٧٠؛ **أشراف مكة المكرمة وأمراؤها في العهد العثماني**، تأليف إسماعيل حقي (مترجم، ط١، ٢٠٠٣، الدار العربية للموسوعات، بيروت) ص ٤٥، ١٣٢.

(٦) ورد ذكر القاضي حبيب في مواضع من **تاريخ السودان** تأليف عبد الرحمن السعدي، (طبعة هوداس Librairie d'Amerique et d'Orient, Paris ١٩٨١): ففي ص٥١ ذكر جَدَّه عبد الرحمن التميمي الذي وصل تنبكتُ صحبة سلطان مَليٍّ منسا موسى مَرْجِعه من الحج عام ٧٢٥هـ (١٣٢٥)، فاستوطنها وأعقب فيها. وفي ص٦٦ ذكر أن القاضي حبيب تولى قضاء تنبكت بعد أن سيطر عليها سُنِّ علي ورحَّل منها فقهاءها، وذلك عام ٨٧٧هـ أو ٨٧٨هـ (١٤٧٢-١٤٧٣). وفي ص٦٩-٧٠ ذكر أن القاضي حبيب هو شيخُ قاضٍ آخر من أشهر قضاة تنبكت، وهو الفقيه محمود بن عمر بن محمد أقيت، وأن القاضي حبيب أوصى أن يتولى القضاء بعده، فكان كذلك. وفي ص١٧٤ ذكر وفاة القاضي حبيب في السنة الرابعة من القرن العاشر أيام أسكيا محمد، أي عام ٩٠٤هـ (١٤٩٨م).

(٧) **تاريخ الفتاش**، ص١٤. والحكاية المشار إليها مذكورة في تاريخ الفتاش ص٤٤، وفيها غلظة سُنِّ عَليٍّ على الجماعة المذكورة؛ وأنه كان يقتل كل من رآه بعينه منهم، وأنه قتل قبيلة سَنْقَر حتى لم يبق منهم إلا طائفة يسيرة تَسَعُهم ظِلّ شجرة واحدة. وهو موضع اتفقت عليه نسخ الفتاش.

(٨) انظر: **تاريخ الفتاش**، ١٢-١٦.

(٩) الكتاب بالفرنسية.

Tomboctou la mysterieuse, Felix Dubois, E. Flammarion, Paris 1897.

(١٠) انظر: المرجع السابق، ص١٥٣.

(١١) انظر: المرجع السابق، ص١٥٥.

(١٢) انظر: المرجع السابق، ص١٥٦.

(١٣) انظر: الحكاية في المرجع السابق ص٣٤٣.

(١٤) الترجمة الفرنسية للكتاب:

Tarikh El-Fettach ou Chronique du chercheur, par Mahmoud Kati, traduction française par O. Houdas et M. Delafosse, publication de l'ecole des langues orientales vivantes, Paris 1913.

(١٥) انظر: المرجع السابق ص.XII

(١٦) كتابهما بالفرنسية نشرت الطبعة الأولى منه عام ١٩٦٢:

L'Empire peul du Macina (1818-1853), Amadu Hampate Ba et j. Daget, Les Nouvelles Editions Africaines, Abidjan 1984. (prem. ed. 1962)

(١٧) انظر: المرجع السابق من ص١٨.

(١٨) انظر: المرجع السابق، ص٢٤٣

(١٩) انظر: المرجع السابق، ص٢٤٤، وهذه ترجمة الحديث المذكور من الفرنسية: "رَوَى سيدي أحمد البكاي عن النبي (ﷺ) أنه قال: سيكون بعدي خمسون يدّعون إصلاح الإسلام، فيهم ثلاثة أسماؤهم عُمَر، اثنان منهم صادقان صالحان، والثالث لن يكون إلا مُدَّعيا دجالا يُورِد مَنْ مَعَه المهالك"؛ فتأوَّلَ أحمد البكاي أن عُمَر الثالث الدجال هو الحاج عمر. ولم أقف على حديث في هذا المعنى.

(٢٠) انظر المرجع السابق، ص٢٤٧.

(٢١) كتابها بالفرنسية، نُشر عام ١٩٩٠ في باريس:

Un empire peul au XIXe siècle, La Diina du Maasina, Bintou Sanankoua; Karthala 22-24, boulevard Arago 75013 Paris 1990.

(٢٢) انظر المرجع السابق: ص٤٦، ٦٢، ٦٣، ٧٣، ٨٤.

(٢٣) مقالة بالإنجليزية نشرت عام ١٩٧١ في نشرة مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن:

A Sventeenth-Century Chronicle by Ibn al-Mukhtar: A Critical Study of "Ta'rikh al-fattash". Author: Nehemia Levtzion. Sorce: Bulletin of the School of Oriental and African Stadies, University of London, Vol. 34, No. 3 (1971), pp. 571-593. Published in 2009 on: http:/www.jstor.org/stable/613903.

(٢٤) انظر المقالة، المرجع السابق: ص٢٨٤.

(٢٥) انظر: حسن **المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، تأليف السيوطي (ط١، ١٩٦٧، دار إحياء الكتب العربية) ١١١/١.

(٢٦) انظر: **الحاوي للفتاوى**، تأليف السيوطي (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣)، في فصل "أجوبة عن أسئلة وردت من بلاد التكرور" ٢٧٨/١، ٣٣٢، ٣٤٥. وقال في مقدمة كتابه "**اللآلي المصنوعة في الأحاديث الموضوعة**" (ط١، ١٩٩٦ دار الكتب العلمية، بيروت) ٩/١: "وكُتِبَ منه عدة نسخ، ومنها نسخةٌ راحت إلى بلاد التكرور".

(٢٧) **تاريخ الفتاش**، ص١٣-١٤.

(٢٨) انظر: **تاريخ الفتاش**، ص١٢، ١٥.

(٢٩) **تاريخ الفتاش**، ص١٥. وسيكون مثيرا أن يُنظر في أسلوب هذه الرسالة المنسوبة إلى أسكيا من أهل القرن العاشر الهجري (آخر الخامس عشر وبداية السادس عشر الميلادي)، ويقارن برسائل أخرى مكتوبة في ذلك العصر؛ لأني أجد شبها في الأسلوب بينها وبين رسالة بعث بها أحد العلماء المقاومين للقوات الفرنسية في منطقة نهر السنغال، في القرن التاسع عشر الميلادي (١٨٨٦). يُنظر: مقالتي "**الشيخ محمد لامين درامى ورسالته إلى حاكم مستعمرة السنغال**"، مجلة كلية الشريعة في الجامعة بالنيجر، العدد الرابع، ٢٠١٩ ص١٢٣.

(٣٠) انظر في زيارة المغيلي لأسكيا أثناء الحج: **تاريخ الفتاش**، ص٦٩. وكتاب **همباتي وصاحبه**، ص١٧-١٨.

(٣١) **تاريخ الفتاش**، ص١٦.

(٣٢) انظر: **تاريخ الفتاش**، ص١٢.

(٣٣) **شَمْهَرُوش** (بتقديم الراء على الواو) كما ورد في الفتاش، وكما يرد في كلام المغاربة، أو شَمْهَوْرَش (بتقديم الواو على الراء) كما يقع في كتابات المشارقة غالبًا. وسيأتي الكلام عليه بتفصيل أكثر عند تحليل نبوءته من هذه المقالة.

(٣٤) انظر: **تاريخ الفتاش**، ص٦٦.

(٣٥) المرجع نفسه.

(٣٦) المرجع نفسه.

(٣٧) ذِكْر واضع النبوءة موتَ شمهروش بهذا التوقيت، يبدو أن الغرض منه نفي إمكانية طلب شهادة الجني إبان ظهور سيكو آمدو في القرن الثالث عشر الهجري، وسيأتي في بعض المصادر ذكر وفاته بعد ذلك في القرن الثاني عشر.

(٣٨) **همباتي وصاحبه**، ص١٨-١٩.

(٣٩) مثل ص١٩.

(٤٠) **تاريخ الفتاش**، ص١٢.

(٤١) الروايات الثلاث في صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب الناس تبع لقريش والخلافة في قريش، (أحاديث ١٨٢٠-١٨٢٢ ترقيم محمد عبد الباقي). وهي في شرح النووي على صحيح مسلم (ط١، ١٩٣٠ المطبعة المصرية بالأزهر) ٢٠١/١٢. وانظر لألفاظ الحديث وطرقه ورواته: سلسلة الأحاديث الصحيحة تأليف محمد ناصر الدين الألباني (طبعة مكتبة المعارف، الرياض ١٩٩٥) ٧١٩/١، حديث رقم ٣٧٦.

(٤٢) انظر: **فتح الباري** تأليف ابن حجر العسقلاني (ط دار المعرفة، بيروت) كتاب الأحكام، بعد باب الاستخلاف، رقم ٧٢٢٢ حديث الاثني عشر خليفة ٢١١/١٣.

(٤٣) انظر: **شرح النووي** على مسلم ٢٠١/١٢، عون المعبود شرح سنن أبي داود تأليف محمد شمس الحق العظيم آبادي (ط٢، ١٩٦٨ المكتبة السلفية بالمدينة المنورة) ٢٤٤/١١.

(٤٤) **تفسير القرآن العظيم** تأليف ابن كثير (ط١، ٢٠٠٠، مؤسسة قرطبة، القاهرة) عند قوله تعالى {وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا} المائدة: ١٢، ٦٥/٣.

(٤٥) انظر مِن كتب السيوطي: **الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج** (ط١، ١٩٩٦ دار ابن عفان، الخبر) ٤٣٩/٤، **والحاوي للفتاوى**، مصدر سابق، ٨٠/٢، والخصائص الكبرى (طبعة ١٩٨٥ دار الكتب العلمية) ١٧٥/٢، **وتاريخ الخلفاء** (طبعة ١٩٥٢ مطبعة السعادة، مصر) ١٦/١، **والعرف الوردي في أخبار المهدي** (ط١، ٢٠٠٦ دار الكتب العلمية، بيروت) ص١٥١.

(٤٦) انظر: **الديباج على مسلم للسيوطي** ٤٣٩/٤، **جامع الأحاديث للسيوطي** (دار الفكر، بيروت ١٩٩٤) ١٢٩/١٦، العرف الوردي في أخبار المهدي وخاصة، ص١٥١، عند ذكر أحاديث الاثني عشر خليفة، الحاوي للفتاوى ٨٠/٢ في سياق أخبار المهدي، الخصائص الكبرى، باب إخباره صلى الله عليه وسلم بالخلفاء بعده ثم الملوك وخلافة الأربعة ومعاوية وبني أمية وبني العباس وبأن الأمر في قريش لا يخرج عنهم ما أقاموا الدين وبأن الترك تسلبهم ملكهم ١٧٥/٢، **تاريخ الخلفاء** ١٦/١ في الكلام على مدة الخلافة.

(٤٧) **حسن المحاضرة** ١١١/١.

(٤٨) انظر: **الحاوي للفتاوى** ٢٧٨/١، ٣٣٢، ٣٤٥.

(٤٩) انظر: كتابه (Tomboctou la mysterieuse) ص١٥٣.

(٥٠) انظر: المخطوط الثامن من مجموع مخطوطات في المكتبة الوطنية بباريس برقم (ARABE ٥٢٥٩)، من ورقة ٤٨. وانظر: **المنهج الدعوي للإمام المغيلي من خلال الرسائل التي بعثها للملوك والأمراء والعلماء** (رسالة ماجستير أُعدّت في جامعة الحاج لخضر في باتنة بالجزائر عام ٢٠١٠-٢٠١١) ص١٤٦.

(٥١) المصدر السابق ورقة٥١/ب.

(٥٢) كما في النبوءة المنسوبة إلى الثعالبي في تاريخ الفتاش ص١٦، وهو كذلك في همباتي وصاحبه ص١٨.

(٥٣) **الأنوار في آيات النبي المختار**، للشيخ عبد الرحمن الثعالبي (ت. ٨٧٥هـ/ ١٤٧٠م، ط١، ٢٠٠٥ دار ابن حزم، بيروت).

(٥٤) انظر: **التقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح**، للحافظ العراقي (ت. ٨٠٦ ط١، ١٩٣١، المطبعة العلمية، حلب) ٢٩٥/١، وفتح الباري لابن حجر ٤/٧.

(٥٥) أقدم مصدر وجدتُ فيه هذا العَلَم (شَمْهَرُوش أو شَمْهَوْرَش) هو "سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر لأبي الفضل محمد خليل المرادي (ت. ١٢٠٦، ط٣، ١٩٨٨، دار ابن حزم ودار البشائر الإسلامية، بيروت) في ترجمة "أحمد بن علي بن عمر.. الحنفي الطرابلسي الأصل المنيني المولد الدمشقي المنشأ.."، قال: "وله رواية في الحديث عن والده عن قاضي الجن عبدالرحمن الصحابي الجليل الملقب بشمهورش؛ فانه اجتمع به والده في حدود سنة ثلاث وسبعين وألف [١٠٧٣هـ] وصافحه وآخاه وأمره بقراءة

شيء من القرآن؛ فقرأه وهو يسمع؛ فلما أتم قراءته قال له: هكذا قرأه علينا النبي (ﷺ) بين الأبطح ومكة، وتكرر اجتماعه به بعد ذلك". ومن مجموع المراجع التي اطلعت عليها في شأنه، وجدتُ عشرة رجال روَوْا عن شمهروش الجني: أحدهم هو المذكور آنفا في **سلك الدرر** ٨٦/١ وهو أيضًا عند الكتاني الآتي ٩٧٧/٢، وراوٍ ثان في **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**، تأليف محمد بن علي الشوكاني (ت. ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤، ط١، ١٩٩٨، دار الكتب العلمية، بيروت) في ترجمة السيد عبد الوهاب بن محمد شاكر بن عبدالوهاب، وسبعة منهم في فهرس الفهارس تأليف محمد عبدالحي الكتاني (ت. ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢، ط٢، ١٩٨٢ دار الغرب الإسلامي، بيروت) ٢٣٣/١، ٢٣٤، ٤٦١، ٤٩٧، ٦٧٥/٢، ٧٠٤، ٨٧١، والعاشر في العجالة لمحمد ياسين الفاداني (ت. ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠ ط٢، ١٩٨٥ دار البصائر، دمشق) ص١٢٠. وبإضافة الراويين عنه في تاريخ الفتاش (صالح جَوَر ومحمد تُل) يكون المجموع اثني عشر رجلا نُسِب إليهم الرواية عن الجني شمهروش. ورأيت راويًا ثالث عشر محتملاً، في حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر لعبد الرزاق البيطار (ت. ١٣٣٥هـ/ ١٩١٦، ط٢، ١٩٩٣، دار صادر، بيروت) ١٩٢/٢، في ترجمة "الشيخ يوسف بن بدر الدين المغربي بن عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن عبد الله بن عبد الملك بن عبد الغني المراكشي السبتي المالكي المصري مولداً الدمشقي إقامة، قال: "وأجازني أيضًا بسند عال، ينتهي فيه إلى القاضي شمهورش عن النبي (ﷺ)".

ومن مجموع ما ذكر عنه فيما وجدت: أنه جني مسلم اسمه عبد الرحمن، ولقبه شمهروش أو شمهورش، وأنه تولى قضاء الجن، وكان صَحِبَ رسول الله (ﷺ) وسَمِع منه، ثم عمِّر حتى أدرك القرن التاسع الهجري، وفي سلك الدرر ٨٦/١ أنه توفي في القرن الثاني عشر عام ١١٢٣هـ/ ١٧١١، أما تاريخ الفتاش ص٦٦ ففيه أن شمهروش توقع وفاة نفسه بعد القرن التاسع الهجري. وفي مجلة المنار (عدد ربيع الثاني ١٣٢١هـ/ ١٩٠٣) مجلد٦ ص٢٦٦، سؤال نصه: "يزعمون أنه كان للجن قاضٍ يقال له شمهورش وأنه كان يتلقى العلوم بالأزهر وكان يحضر دروس الشيخ الباجوري ويسأله عن بعض المسائل التي تشكل عليه على مرأى من الناس ومسمع. وقد حضرت مناظرة في ذلك بين فريقين منكر ومصدق، فأبى المصدق أن يرجع إلا بفتوى دينية وهي ما ننتظره من المنار الأنور"، أجاب عن السؤال محمد رشيد رضا (ت. ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥)، قال: "لم يقل أحد من المسلمين ولا من غيرهم: إن الجن يظهرون ويسألون العلماء على مرأى من الناس ومسمع. وإن للناس من الحكايات عن الجن في كل قطر وكل شعب ما يكاد يصل بهم إلى حد الجنون. والله يعلم إنهم لكاذبون". انتهى. والباجوري المذكور في السؤال هو إبراهيم بن محمد، تولى مشيخة الأزهر، وفاته عام ١٢٧٧هـ/ ١٨٦٠ كما في معجم المؤلفين والأعلام للزركلي. وفي شبكة انترنت مقالات صحفية كثيرة تتناول شمهروش الجني، وأن له ضريحًا ومقامًا في جبال الأطلس بالمغرب، يزعم مريدوه أنه يعقد هناك محكمة يحكم فيها بين الإنس والجن كل يوم خميس. انظر: مقالة في موقع INDEPENDENT العربية (indepententarabia.com)، للصحفية أسماء باشري، بتاريخ الثلاثاء ٢٠١٩/٠٢/١٩، عنوانها: **عوالم الشعوذة في المغرب... "شمهروش" و"قنديشة"**. ومقالة في موقع صوت ألمانيا (dw.com)، بتاريخ ٢٠١١/١١/٠٥، بعنوان: **سر الإقبال على محاكم الجن بالمغرب**، لدويتشه فيله، ومقالة في موقع جريدة الرياض السعودية (alriyadh.com)، بتاريخ ٢٠١٦/٠٢/٢٨، العدد ١٧٤١٥، مقالة بعنوان: **الجن والكتب**.

(٥٦) منها سبعة أحاديث في فهرس الفهارس للكتاني ٢٣٣/١، ٢٣٤، ٤٦١، ٤٩٧، ٦٧٥/٢، ٧٠٤، ٨٧١: أحدها حديث مسلسل الفاتحة؛ والثاني حديث الأولية، أي أول حديث سمعه الراوي من شيخه؛ والثالث مسلسل المصافحة، أي كل راو للحديث يصافحه شيخه عند التحديث؛ والرابع حديث فيه قراءة شيء من القرآن؛ والخامس حديث "الراحمون يرحمهم.."؛ والسادس حديث "إن الله لا يطعمكم ناراً"؛ والسابع حديث "ابردوا بالطعام فإن الحار لا بركة فيه".

(٥٧) **لقط المرجان في أحكام الجان للسيوطي** (مكتبة القرآن، القاهرة، ١٩٨٨). وهو تلخيص لكتاب آكام المرجان في أحكام الجان، لبدر الدين الشبلي.

(٥٨) انظر **لقط المرجان**، ص٦٩-٧٦.

(٥٩) انظر: **لقط المرجان**، ص٧٤.

(٦٠) **تاريخ الفتاش**، ص٦٧.

(٦١) انظر **مقالة نهيميا لفيتزيون**، مصدر سابق.

(٦٢) انظر **مقالة نهيميا ليفتزيون** حول تاريخ الفتاش، مرجع سابق.

(٦٣) ص٦٨، ٨٦.

(٦٤) **تاريخ السودان**، ص٧٢.

(٦٥) انظر: **نزهة الحادي بأخبار القرن الحادي** تأليف محمد الصغير بن الحاج بن عبد الله الوفراني ([ت١١٥٥هـ = ١٧٤٢ زركلي]، تم طبعه على يد بردين صاحب المطبعة بمدينة انجى سنة ١٨٨٨) ص٨٩. ونقله الناصري في **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى** (دار الكتاب، ١٩٩٧م الدار البيضاء) ١٠١/٥.

(٦٦) انظر: **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع** تأليف شمس الدين السخاوي (دار مكتبة الحياة، بيروت) ١٤/٣ ترجمة بركات بن محمد بن بركات، قال السخاوي ١٥/٣: "وقد رأيته غير مرة، ومنها في زيارتي سنة ثمان وتسعين [٨٩٨هـ]"، وانظر: غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام تأليف عز الدين الهاشمي (ت٩٢٢هـ ط١، ١٩٨٦، دار المدني، جدة) حوادث ٩٠٢هـ ٥٩٥/٢، وسمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي تأليف عبد الملك بن حسين العاصمي (ت١١١١ ط١، ١٩٩٨ دار الكتب العلمية، بيروت) ٤٢٧/٢-٤٣٦.

(٦٧) انظر: **تاريخ البُصْرَوِيّ**، ص١٨٩، **ومفاكهة الخلان لابن طولون**، ص١٣٨، ١٤٩، **وتاريخ دولة المماليك**، للسير وليم موير، ص١٧٠، **وأشراف مكة المكرمة** لإسماعيل حقي، ص ٤٥، ١٣٢.

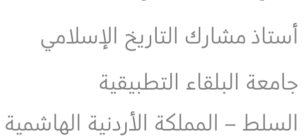
(٦٨) انظر: **نزهة الحادي**، ص٨٩.

(٦٩) **تاريخ الفتاش**، ص٦٨.
(٧٠) **تاريخ الفتاش**، ص٨٦.
(٧١) يُنظر: فليكس دُوبُوا (Tomboctou la mysterieuse) ص١٥٣-١٥٦، ٣٤٤.
(٧٢) يُنظر: مقالة للباحث مَوُّرو نُبِلي، نَشرت في مركز دراسة المخطوطات في همبورغ، مخطوط شهر يونيو ٢٠١٢، وتتناول مخطوطًا لألفا نوح طاهر باسم تاريخ الفتاش، مضمونه موافق لبداية تاريخ الفتاش المعروف حاليا، وزعم السيد نُبِلي في دراسته أن مخطوط ألفا نوح طاهر هو الذي ضُمِّن تاريخ الفتاش فيما بعد، وشَكَّك حتى في اسم كتاب تاريخ الفتاش؛ لكونه لم يرد إلا في زيادات النسخة الثالثة على زعمه.
Centre for the Study of Manuscript Cultures (CSMC), manuscript of the month 06/2012: A Propaganda Pamphlet in Support of a 19(th)-century West African Ruler, NOBILI Mauro: [www.manuscript-cultures.uni-hamburg.de].
(٧٣) يُنظر: بِنْتُو سَتَنْكُوا (Un empire peul au XIXe siècle) ص٦٢، ٧٣، ٨٤.
(٧٤) فليكس دُوبُوا، مرجع سابق ص٣٤٣.
(٧٥) **مجموع مخطوطات في المكتبة الوطنية الفرنسية بباريس**، برقم (ARABE ٥٢٥٩) ورقة ١٣٩.
(٧٦) المصدر السابق، ورقة ١٤٨.
(٧٧) انظر: أجوبة أمير المؤمنين أبي بكر العتيق بن الشيخ أمير المؤمنين عثمان عن كتاب الفقيه أحمد بن أحمد بن أبي بكر إمام أهل ماسينا (ط١، ٢٠١٠، مكتبة التين، لاغوس – نيجيريا) ص٥٤-٦٨.
(٧٨) انظر: **مخطوط في معهد البحوث في العلوم الإنسانية**، نيامي – النيجر (IRSH) برقم ٥١٩، وفي المخطوط أن أحمد البكاي كتب الرسالة في محرم عام ١٢٥٠هـ (١٨٣٤). وفيه عبارات يشبه بعضها عبارات الفتاش في الخليفة الثاني عشر المتنبأ به؛ فمن ذلك أن البكاي يصف سيكو آمدو (في ورقة ٦ من المخطوط) بقوله: "إمام المسلمين وأمير المؤمنين الشيخ أحمد بن محمد بن أبي بكر بن سعيد المؤيد المنصور المظفر الرشيد"، ويوجد وصف سيكو آمدو بالمؤيد المنصور في كتاب الفتاش (ص١٥) في الرسالة التي وجهها أسكيا إلى سيكو آمدو، التي أمر المغيلي بكتابتها، وفيها: "من أسكي.. إلى وارثه المسدد.. المؤيد.. أحمد المنصور". وأمر آخر ملفت أن في ورقة ٥٥ قول أحمد البكاي مخاطبًا سيكو آمدو: "وقَدْ كَانَ مُوَرِّثك عليك وعليه الصلاة والسلام أُوذِيَ بأكثر مِن هذا"، فانظر كيف جعل النبي (ﷺ) مُوَرِّثَ سيكو آمدو، وجَمَع النبي (ﷺ) وسيكو آمدو في الصلاة والسلام.
ويُنظر كذلك كتاب الحاج عمر الفوتي: **سيف الحق المعتمد فيما وقع بين الشيخ عمر بن سعيد الفوتي وبين أمير ماسِنَه أحمد**، فيه ردود الشيخ عمر على الماسنيين في مسائل شرعية وسياسية واجتماعية. وهو محقق مطبوع اطلعت على أجزاء منه في موقع (google books).
(٧٩) انظر: **مخطوط في معهد البحوث في العلوم الإنسانية**، نيامي – النيجر (IRSH) برقم ٥٦٧، وفيه ورقة٣: "وعلى كل فإنك لست بإمام المسلمين إنما إمام المسلمين اليوم مُلاني عبد الرحمن أو السلطان عبد المجيد؛ فمُلاني عبد الرحمن هو أهلها بالشريعة والسلطان عبد المجيد هو الأكبر الأكثر في الملك، وإنما أنت أمير من حمد الله إلى تنبكت مسيرة خمسة أيام في الأخصاص في منتهى أرض السودان في المغرب، وإمام المسلمين في المسلمين في أرضهم.."، وفيه ورقة ٥: "وأما قولك: حربٌ وَرِثناه من الآباء والأجداد الخ. فلا اعتراض عليك فيه لولا ما أشمّ فيه من رائحة التعريض؛ فإنك إنما ورثته من قريب منذ نيف وثلاثين سنة وإنما ورثه بالحق مِن آبائه وأجداده أبناءُ قريش وهاشم مولانا عبد الرحمن ".
(٨٠) ذلك مبيّن في جميع المراجع التي درست دولة ماسِنَه أو ذكرت عهد سيكو آمدو سلبًا أو إيجابًا، ومنها المراجع المذكورة في هذه المقالة.
(٨١) **كتاب فليس دوبوَا** (Tomboctou la mysterieuse) ص٣٤٣.
(٨٢) مخطوط رقم (ARABE ٥٢٥٩) في المكتبة الوطنية بباريس، ورقة ١٤٧. والشيخ نوح طاهر يشير هنا إلى موضع في تاريخ الفتاش، ص١٥، مما اختصت بها النسخة المظنونة، أن المغيلي طلب من أسكيا أن يكتب رسالة إلى سيكو آمدو الخليفة الثاني عشر، ودعا أن تبلغ الرسالة.
(٨٣) فمن الذين وجَّه إليهم ألفا نوح رسائلَه جماعةُ "كُنْتَ" الذين تعلَّم هو عندهم، وعرّف نفسه في بداية رسالته بقوله: "الفقير نوح بن الطاهر بن أبي بكر بن موسى تلميذ الشيخ سيدي المختار". وهو أحد علماء كنته المشهورين. انظر: مخطوط رقم (ARABE ٥٢٥٩) في المكتبة الوطنية بباريس، ورقة ١٣٩.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

المشروعات المائية في التاريخ الإسلامي
إنشاء عين زبيدة في مكة المكرمة نموذجًا




أ.م.د. قاسم محمد غنيمات
أستاذ مشارك التاريخ الإسلامي
جامعة البلقاء التطبيقية
السلط – المملكة الأردنية الهاشمية

مُلَخّص

جاء هذا المقال لإلقاء الضوء على أضخم مشروع مائي في التاريخ الإسلامي والمسمى عين زبيدة، والذي أمرت بإنشائه الأميرة العباسية زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور في العصر العباسي الأول خدمة لأهل مكة وضيوفها حجاج بيت الله الحرام كتسهيل الخدمة لهم في موسم الحج خاصة أن مكة المكرمة كانت تعتمد على مصدر مائي وحيد وهو بئر زمزم، فأرادت السيدة زبيدة، تأسيس مصدر إضافي في منطقة حيوية هامة في العالم يقصدها العرب والمسلمين من مختلف الأصقاع على مدار العام. وتضمنت الدراسة التعريف بالسيدة زبيدة وكيف كانت أحوال الماء في مكة قبيل إنشاء العين ومن ثَمَّ إنشاء العين بمواصفاتها المعمارية والجمالية وتكلفتها المالية والأثر الإيجابي لها على مكة المكرمة كوقف غير محدود. هذا المشروع هو الأعظم مائيًا نظرًا للفوائد الكبيرة التي جناها أهل مكة منه، حتى أن عدد الآبار التي كانت تصب فيها العين داخل الحرم بلغت ستون بئرًا وثلاثون بئرًا في منى ومزدلفة وعرفات. بعد قيام المشروع لم يعدّ هناك شكوى من نقص المياه في مكة المكرمة وبلغت كمية المياه المتدفقة من العين بين عشرون إلى ثلاثون متر مكعب يوميًا.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١٤	مارس	٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر:	١٨	مايو	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

السيدة زبيدة؛ مكة المكرمة؛ الحجاج؛ المعمار الإسلامي؛ عين زبيدة

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.166908

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

قاسم محمد غنيمات. "المشروعات المائية في التاريخ الإسلامي: إنشاء عين زبيدة في مكة المكرمة نموذجًا".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد الثامن والأربعون؛ يونيو ٢٠٢٠. ص ٣٤ – ٤١.

Corresponding author: qasem_72@yahoo.com
Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

مُقدِّمَةُ

يُعَدّ الماء من المحركات الأساسية لكثير من أحداث التاريخ، فكم من حرب قامت وسوف تقوم من أجل قطرات المياه، فهو سر وجود المخلوقات في هذا الكون، وحيثما وجد الماء وجدت الحياة، بل هناك مدن عديدة قد ارتبط بقاءها على مر الزمان بوفرة المياه فيها، مثل مدينة مكة المكرمة التي ارتبط تأسيسها منذ البداية بوجود الماء، فكلما توفرت كمياته زاد عدد سكانها والوافدين إليها.

على الرغم من وجود الكثير من الآبار المائية في مكة المكرمة إلا أنها كانت تعد من أفقر المناطق المائية في المنطقة العربية نظرًا لعدم وجود أي نهر جاري بها أو قريبًا منها، فقطرة المياه بها ربما تساوي وزنها ذهبًا، لذا فإن توفير المياه لمكة المكرمة يعد من أهم الخدمات التي تقدم إلى أهل المدينة، وقد تنبهت السيدة زبيدة زوج الخليفة العباسي هارون الرشيد أثناء أداءها فريضة الحج إلى هذه المعاناة التي يعاني منها سكان مكة في الحصول على الماء خاصةً في مناسك الحج، فعزمت عزمًا أكيدًا على تحقيق هذا الهدف، فأنشأت ما يعرف (بعين زبيدة) من خلال حفر قناة تنقل المياه إلى مكة المكرمة من الأودية المحيطة بها وتصب في العين المخصصة لذلك، وهو يعد أعظم مشروع مائي في تاريخ الإسلام نظرًا لوجوده حتي الآن.

هذا، وقد خصصت هذا البحث للحديث عن عين زبيدة، تناولت فيه التعريف بأم جعفر زبيدة زوج هارون الرشيد، وكذلك الوضع المائي لمكة المكرمة قبل إنشاء عين زبيدة ودوافع هذا الإنشاء، كما ذكرت فيه عملية الإنشاء والتكلفة المالية لهذا المشروع، وكيف أثر هذا المشروع في توفير المياه للحرم المكي وشجع على سهولة أداء مناسك الحج، ثم جاءت الخاتمة وذكرت فيها أهم النتائج التي توصل إليها البحث، وختمت ذلك بثبت المصادر والمراجع.

أولاً: التعريف بالسيدة زبيدة

هي أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم، ولقَبها جدها الخليفة أبو جعفر المنصور "زبيدة" لنضارتها[١]. فقد ولدت في زمن المنصور، وكان يراقصها ويقول: أنت زبدة وأنت زبيدة، فغلب ذلك الاسم عليها [٢].

ولدت السيدة زبيدة في مدينة الموصل سنة (١٤٩هـ/٧٦٦م)، أثناء ولاية أبيها جعفر عليها، وتحديدًا في قصر (حرب) الذي بناه حرب بن عبد الله أحد قواد المنصور، وقد أهدي أبو جعفر المنصور هذا القصر لابنه جعفر.[٣] بعد وفاة أبيها جعفر، تعهدها جدها المنصور وحظيت بحبه، فعاشت طفولتها مرفهة في قصر الخلافة، وعندما توفى المنصور سنة (١٥٨هـ/٧٥٧م)، تكفل بها عمها المهدي واعتني بتربيتها وتعليمها.[٤]

زوج الخليفة المهدي ابنه هارون الرشيد بأم جعفر ابنة أخيه، فاستعد لها ما لم يستعد لامرأة قبلها من الآلة وصناديق الجواهر والحُلي والتيجان والأكاليل، وقباب الفضة والذهب والطيب والكسوة، ودخل بها الرشيد في المحرم سنة (١٦٥هـ/٧٦٤م)، في قصره المعروف بالخُلد، وحُشر الناس من الآفاق وفُرّق فيهم من الأموال أمر عظيم [٥]. وبلغت النفقة في هذا العُرس من بيت مال الخاصة، سوي ما أنفقه الرشيد من ماله، خمسين ألف ألف درهم [٦].

هذا، وتداني السيدة زبيدة زوجها هارون الرشيد في الشهرة أو هي دونه قليل، ذلك أنها عُرفت بحبها للبذخ والترف وسخائها مع الشعراء والعلماء [٧]. فزبيدة أول من اتخذ الآلة من الذهب والفضة المكللة بالجواهر، وصُنع لها الرفيع من الوشي حتي بلغ الثوب من الوشي الذي اتخذ لها خمسين ألف دينار، وهي أول من اتخذ القباب من الفضة والأبنوس والصندل وكلاليبها من الذهب والفضة مُلبَسة بالوشي والسمور والديباج وأنواع الحرير من الأحمر والأصفر والأزرق، واتخذت الخفاف المرصعة بالجوهر وشمع العنبر، وتشبه الناس في سائر أفعالهم بأم جعفر.[٨]

وقد توفيت السيدة زبيدة أم جعفر ببغداد في شهر جمادي الأولى سنة (٢١٦هـ /٨٣١م)[٩]، وذلك بعد أن ملأت سيرتها العطرة وأعمالها الحسنة أسماع الناس[١٠]. ويوجد قبر زبيدة بجوار مسجد الشيخ معروف الكرخي ببغداد، وعليه قبة مخروطية الشكل تعد من نوادر الفن المعماري [١١].

ثانيًا: الماء في مكة قبل إنشاء عين زبيدة

حُرمت مكة المكرمة من المياه الجارية على سطح الأرض، فكان طبيعيا أن يلجأ ساكنوها إلى استنباط حاجاتهم من الماء من باطن الأرض بواسطة الآبار[١٢]. كما أن مطرة واحدة في الحجاز تحي وتميت، وليس المر كذلك في سائر البلاد التي تهطل فيها الأمطار فتعم، وإن لم يصب هذه البقعة عارض ممطر هذه المرة، أصابها مرة أخري، فمن أجل هذا كان الماء في الحجاز أثمن وأغلي من في سائر الأقطار، وكان ألذ وأبهج وأعلق بالقلب وأشرح للصدر، وكأن الماء في الحجاز يساوي الماء خمسين مرة في الشام، ومائة مرة في سويسرا مثلاً، وكأن الغصن الأخضر في الحجاز أحلي منه مائة مرة في أوروبا.[١٣]

إن نشأة مكة المكرمة ارتبطت منذ البداية بوجود الماء، الذي كلما توفرت كمياته زاد عدد سكانها والوافدين إليها لأداء الحج، ومن ثمَ توسعت رقعة العمران فيها، ولعب المجاورون دورًا كبيرًا في زيادة عدد سكان مكة المكرمة في مختلف العصور الإسلامية [١٤]. فقد أصبح لمكة أهمية كبري بعد بناء البيت الحرام، إذ بدأت تقطنها القبائل العربية بعد أن أصبح بئر زمزم المصدر الوحيد للحياة فيها، إذ لم يقم الجراهمة بأية أعمال للبحث عن المياه في مكة لاعتمادهم على بئر زمزم، غير أن قبيلة خزاعة أخذت تهتم بتوفير المياه وحفر الآبار لها خارج مكة في طريق القوافل، كما أن القرشيين حفروا آبارا داخل مكة بعد أن كثر سكانها، وزاد عدد الحجاج الوافدين إلى بيت الله الحرام [١٥].

حفرت قبائل من قريش آبارًا يستقون عليها ويشربون منها، فحفرت بنو أسد ابن عبد العزي (سُقية) بئر بني أسد، وحفرت بنو جمح (بئر سُنبلة) وهي بئر خلف بن وهب، وحفرت بنو سهم (بئر الغمر) وهي بئر بني سهم، وكانوا يسقون عليها، ومن الأبيار التي حفرت في الجاهلية، بئر أجياد[١٦] في دار زهير ابن أبي أمية بن المغيرة المخزومي، وبئر قُمَ كانت أيضا في الجاهلية، وهي لآل زريق ابن وهب الله المخزومي، وحفر ميمون بن الحضرمي بئره، وكانت آخر بئر حفرت من هذه الأبيار في الجاهلية، ولم يكن بمكة يومئذ ماء يشرب إلا زمزم، وبئر ميمون[١٧].

كانت زمزم المصدر الوحيد للمياه في مكة، ولما كثر عدد سكانها وازدادت أعداد الوافدين إليها في موسم الحج، قامت قريش بحفر الآبار فيها بحثًا عن المياه، ولما كان منسوب المياه في الآبار يقل في بعض السنين بسبب عدم نزول الأمطار، فقد قام أهالي مكة بعمل مصانع (أحواض) على رؤوس الجبال وفى داخل الشعاب لتخزين مياه الأمطار فيها لسقاية أنفسهم ولسقاية الحجاج.[١٨]

إن شأن بلاد الحجاز في هذا المعني هو غير شئون سائر البلاد، فالماء فيه يجوز أن يوزن بالمال، والماء فيه هو الذهب، والماء فيه هو الماس، ونقط الغيث فيه هو اللآلئ، وبالجملة فالماء فيه هو الحياة نفسها، وهي أغلى من كل هذا، ولو ألَف حجازي قاموس لغة وعند تعريف الحياة قال: إنها الماء، أو عند تعريف الماء قال: إنه الحياة لكان جديرًا [١٩].

حينما تم للرسول (ﷺ) فتح مكة اهتم بتوفير المياه التي كان مصدرها الرئيس الآبار التي حفرت في العصر الجاهلي، فأصلح رسول الله (ﷺ) بعضها، وجدد البعض الآخر، وقد أشرف على إصلاح هذه الآبار عتَاب بن أُسيد، واليه على مكة[٢٠]. كما زاد عدد آبار المياه في مكة المكرمة في عصر الخلفاء الراشدين، ففي سنة (٣٨هـ/٦٥٨م)، حفر أبو موسي الأشعري بئرا بالمعلاة، فنسب إليه[٢١]. لكن إذا كان عصر الرسول (ﷺ) والخلفاء الراشدين (رضوان الله عليهم) قد اقتصر في توفير الماء لأهل مكة وحجاج بيت الله الحرام على العناية بالآبار وتعميرها، وحفر بعض منها، فقد تطور الأمر مع بداية ظهور العصر الأموي إلى إنشاء قنوات خاصة تحمل مياه بعض العيون من حرم مكة إلى بركها [٢٢]، ثم تطور الأمر بعد ذلك في العصر العباسي، بعمل عين زبيدة [٢٣].

إن توفير المياه في مدينة مكة يُعَدّ من أهم الخدمات التي تقدم إلى أهل المدينة التي تفتقر إلى وجود الماء بها، ولكي نقدر ما قامت به السيدة زبيدة في هذا الصدد، يكفي أن نذكر أن الدراسات الحديثة الخاصة بالبحث عن المياه في مكة لم تتمكن من التوصل إلى نقطة ماء يمكن أن تستخرج من أية منطقة في مكة، وأن تضيف مصدرًا للمياه إلى المصادر التي اعتمد عليها مشروع السيدة زبيدة، والذي ما يزال باقيًا حتى اليوم ينعم به سكان مكة وحجاج بيت الله الحرام.[٢٤]

ثالثًا: مراحل إنشاء عين زبيدة

أمرت السيدة زبيدة والي مكة بدراسة مصادر المياه وكيفية وصول الماء إلى مكة لكي لا يجد كل من يفد إلى بيت الله الحرام صعوبة في الحصول على الماء، ومن المعلوم أن هذه الدراسة التي قام بعملها والي مكة أثبتت أنه لا يمكن دخول ماء الحلَ إلى الحرم، وذلك بسبب الصعوبة الجغرافية لمكة، وبالذات للمنطقة المحيطة بالحرم، ومن ثمَ كان الحل هو زيادة حفر آبار في داخل الحرم، ولكن السيدة زبيدة لم تقبل هذه الدراسة، فأرسلت من بغداد المهندسين والصُناع وأمرتهم بضرورة التوصل إلى حلَ من أجل حصول سكان مكة على الماء. ولقد أثبتت هذه الدراسة أن هناك عيونًا خارج الحرم، وهي عين حنين وعين وادي النعمان[٢٥]، وأنه يمكن الاستفادة منها في سقي أهل مكة وأمكنة المشاعر[٢٦].

عظمت رغبة السيدة زبيدة في عمل العين، وحسُنت نيتها، فلم تزل تعمل فيها حتى بلغت ثنية (خلَ) في منتهي الحرم من طريق العراق وطريق السيل للطائف، فإذا الماء لا يظهر في ذلك الجبل، فأمرت بالجبل فضُرب فيه [٢٧]، حتى أجراها الله لها، واتخذت لها بركا تكون السيول إذا جاءت تجتمع فيها [٢٨]. فنقبت زبيدة الجبال إلى أن أوصلت الماء من الحل إلى الحرم[٢٩]، فأسالت الماء عشرة أميال بحط الجبال ونحوت الصخر، حتى غلغلته من الحل إلى الحرم [٣٠]. وجعلت عند وادي حنين سدا يجتمع فيه السيل[٣١].

وتتكون قنوات العين من قسمين رئيسين، القسم المجمع للمياه وهو مبني تحت سطح ويبدأ من نقطة البداية، وهي نقطة تجمع مياه روافد وادي النعمان العلوية المعروفة بعذوبتها، وذلك من خلال فتحات تسمح للمياه الجوفية بالانسياب إلى داخل القنوات، ونقلها بالانحدار الطبيعي إلى أماكن الاستعمال، ويبلغ الطول الكلي للقنوات قرابة ٢٦ ميلا [٣٢]. أما الجزء الثاني فمهمته نقل الماء فقط، وقد يكون فوق سطح الأرض مباشرة أو معلق فوق جسور عند اختراق القناة لبطون الأودية، أو تحت سطح الأرض، وهو مبني بالحجارة من الأسفل، أما قواعده وجوانبه، فهي مكسوة بما يمنع تسرب المياه منها، ومسقوفة بحجارة ثقيلة يصعب نقلها أو إزالتها، وذلك للحفاظ على القناة من التلوث.[٣٣]

وقد تم بناء القناة بأحجار البازلت واستخدمت النورة[٣٤] في تكوين خليط المونة للصق أحجار البناء.[٣٥] في حين أحد المؤرخين القدماء بأن هذه القناة تم بناءها من الرصاص ربما لقوتها وصلابتها، يقول اليعقوبي عن ذلك:[٣٦] "القنوات التي حفرتها أم جعفر – زبيدة – من الموضع الذي يقال له: المشاش، كانت في قنوات رصاص". لكن في الحقيقة كانت مادة بنائها من الحجارة غير المنتظمة، تتخللها طبقة من الحجارة الملونة.[٣٧] وحيطان القناة من الجانبين غير مطلية بالجير ولا مجصصة، بل مبنية بالحجر البسيط، وذلك حتى ترشح الماء من خلال الحيطان، لأن الجص من شأنه أن يمنعه كما هو معروف عن طبيعة الجص.[٣٨] وعملت فتحات تصريف مياه الأمطار والسيول أسفل القناة بحجر مهذب ومجصص، كي لا يتأثر بناء القناة من جراء الماء، وجعل بناء هذه الفتحات مائلا إلى الخارج ليسهل تدفق المياه عبرها بسهولة. ومن وسائل المحافظة على القناة بناء دعامة مواجهة للمياه المنحدرة، لكسر حدتها وتمريرها عبر فتحتين، وبنيت حوائط ساندة لتدعيم هذا الجزء من القنوات المبنية في سفوح الجبال وفى المناطق الضيقة نوعًا ما.[٣٩]

إن طريقة عمل القناة تعبر عن الفن الهندسي المتقدم الذي وصل إليه الفن المعماري الإسلامي في تلك الحقبة الزمنية، فإن القناة لا تسير في خط مستقيم واحد، بل في تعاريج اقتضتها طبيعة الأرض، كما أن انحدار الماء في داخل القناة كان خفيفا خشية من حفر الأرض إذا كان انحدار الماء شديدًا[٤٠].

ويبلغ طول هذه العين – القناة – عشرة أميال[٤١]. وذكر اليعقوبي بأن القنوات اثنا عشر ميلا [٤٢]. أما القياسات الحديثة لطول قناة عين زبيدة، فإنه يبلغ طول القناة في المناطق التي تمر عبرها تحت سطح الأرض (٢٩١٦٨) ذراعا، ويبلغ طول القناة في المناطق التي تمر عبرها فوق سطح الأرض (١٥٩٤٠) ذراعا، إلا أن طول قناة عين عرفة الصحيح من منبعها الأول ببلاد السبحي إلى الأبطح فيبلغ (٣٦،٩٥٠) كم[٤٣]. ويبلغ عرض هذه القناة نحو متر وربع في ارتفاع نحو متر ونصف، وتقرب من سطح الأرض وتبعد عنه حسب ارتفاعها وانخفاضها، ولها خزانات[٤٤] تملأ منها السقاءون[٤٥].

هذا، ولم يغفل المهندسون الطابع الجمالي في بناء قناة عين زبيدة، فبرعوا في تنضيد الحجارة في القنوات المعلقة، وأقاموا الأقواس على أعمدة حجرية جميلة مُطعمة بحجارة صغيرة غاية في الجمال والدقة، أخذت شكل الفسيفساء الجميلة بألوان تتناسب مع البيئة الصحراوية المحيطة، ما أعطي منظرًا خلابًا ممتعًا، مما حدا بعلماء البيئة إلى ترشيحه كمكان مناسب لعمل منتزه وطني حاليًا[٤٦].

اهتمت السيدة زبيدة بهذا العمل الجليل اهتمامًا كبيرًا، وأرسلت إليه العمال من جميع الأطراف، فبنوا لهذا الماء مجري عظيما، وأوصلوا به مجري آخر من وادي النعمان من الماء الذي ينزل إليه من جبل كرا التي تبعد عن عرفات شرقا إلى الجنوب نحو اثني عشر كيلو مترًا، وسيروا إليه سبع قنوات أخري من الجهات التي تسقط إليها السيول حتى تساعد ماء المجري الأصلي، وعندما وصل إلى جنوب مني نقر له في الصخر خزان كبير يصب فيه يسمي بئر زبيدة[٤٧]. وينتهي عمل القناة عند بئر زبيدة، وهي عظيمة مطوية بأحجار كبار جدًا [٤٨]، وبنت السيدة زبيدة البرك المختلفة على امتداد مجري القناة حتى وصلت المياه إلى الحرم[٤٩].

من هذه البرك، بركة الزبيدية، وهي بين المغيثة والعذيب – في مكة المكرمة - وبها قصر ومسجد أيضًا عمرته زبيدة زوجة هارون الرشيد[٥٠] وهذه البركة كانت مدورة ولها مصفاة.[٥١] وهي من الأبنية المهولة التي ربما يوهم بناؤها أنه من عمل الجن.[٥٢] وأقيمت على القناة فيما بين عرفة وحوض البقر، خمس وعشرون خرزة – فتحة – من أجل سقاية الحجاج في مني ومزدلفة، كما كلَفت السيدة زبيدة والي مكة بإصلاح قناة هذه العين، وبوضع الحراسة عليها[٥٣].

من هذه القناة تأخذ كل الصهاريج[٥٤] بمكة المكرمة، فيشرب أهلها[٥٥]، فبالإضافة إلى بناء السيدة زبيدة للبرك المختلفة على امتداد مجري القناة، تم وضع البازانات[٥٦] في كل حيَ من أحياء مكة المكرمة من أعلى مكة حتى الحرم[٥٧]، وكانت هناك أحواض لشرب الناس، وأخري لشرب الحيوانات[٥٨]. وأنشأ (ياسر) خادم زبيدة بأمرها ميضآت على باب أجياد الكبير، وأدخل

فيها بئر الجفر[٥٩] وقد دخل كل هذا في رواق باب أجياد في التوسعة الجديدة للحرم المكي[٦٠].

إن هذه العين المذكورة التي أجرتها السيدة زبيدة، آثارها باقية مشتملة على عمارة عظيمة عجيبة، مما يتنزه برؤيتها على يمين الذاهب إلى مني من مكة،[٦١] إذ تتجلى من خلال هذه العين عظمة الفكر الهندسي الإسلامي، وتشهد له بالإبداع والتفوق كل منشآتها من حيث التصميم والتنفيذ ومراعاة الجوانب التي تحقق الإفادة منها، مع عدم إغفال الجانب الجمالي[٦٢].

هذا، وقد كُتب على وجه البركة – العين – كتابًا هو قائم إلى اليوم نصَه: "بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وصلي الله على محمد عبده ورسوله، بركة من الله مما أمرت به أم جعفر بنت أبي الفضل جعفر أمير المؤمنين، بإجراء هذه العين سقاية لحجاج بيت الله وأهل حرمه، وطلب ثواب الله وقربة إليه، على يدي ياسر خادمها ومولاها، سنة أربع وتسعين ومائة" وهذا الكتاب مكتوب بجصَ ومرمر قد سُود بالسواد[٦٣] وهو ما يعرف الآن بحجر الأساس الذي يكتب عليه القادة والزعماء أسمائهم عند بناء شيء ما. إن مثابرة السيدة زبيدة وتصميمها على تنفيذ هذا المشروع رغم وعورة التضاريس، يبرهن على أنها فعلاً كانت عالية الهمة، ولا تعرف لليأس أو الملل سبيلاً.[٦٤]

رابعًا: التكلفة المالية لعين زبيدة

كان الإنفاق على المنشآت العامة في العصر العباسي من السمات البارزة للخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة، وكانوا ينفقون على ذلك نفقة من لا يخشي الفقر، يقول الخليفة المأمون عن ذلك: الجود بذل الموجود، والبخل سوء الظن بالمعبود.[٦٥] في سنة (١٩٤هـ/٨٠٩م)، أمرت أم جعفر زبيدة بعمل بركتها التي بمكة المكرمة، فأرسلت بأموال عظام،[٦٦] وعملت عقبة البستان – عين زبيدة – فقال لها دليلها: يلزمك نفقة كبيرة، فقالت: اعمل ولو كانت كل ضربة فأس بدينار،[٦٧] فأنفقت السيدة زبيدة في ذلك من الأموال مل لم يكن تطيب به نفس كثير من الناس حتى أجراها الله عز وجل لها.[٦٨]

هذا، وقد بلغت تكلفة إنشاء عين زبيدة ألف ألف وسبعمائة ألف دينار[٦٩] أي مليون و٧٠٠ ألف دينار، وإذا تم تحويل المبلغ إلى دراهم وكانت وحدة صرف الدينار إلى الدرهم في ذلك العصر (١) مقابل (١٥) كانت تكلفة المشروع بالدراهم نحو٢٥ مليون و٥٠٠ ألف درهم، وهو مبلغ كبير وضخم جدًا قياسًا بظروف هذا العصر. فقد حجت أم جعفر زبيدة فبلغ إنفاقها في ستين يومًا: أربعة وخمسين ألف ألف دينار (٥٤ مليون دينار) ورفع إليها وكيلها حساب النفقة، فنهته عن ذلك، وقالت له: ثواب الله بغير حساب.[٧٠]

بعد الانتهاء من هذا العمل – إنشاء عين زبيدة – رفضت السيدة زبيدة أن تسمع أرقاما صرفت أو أنفقت على مشروعها الخيري، وأمرت بإلقاء الدفاتر والأوراق في نهر دجلة من قصرها المطل عليه، وقالت لعمالها الذين اجتمعوا لديها بعد الانتهاء من العمل لعرض تفاصيل الحساب: تركنا الحساب ليوم الحساب فمن بقي عنده شيء من مال فهو له، ومن بقي له عندنا شيء أعطيناه" وألبستهم الخُلع الثمينة، فخرجوا من عندها شاكرين.[٧١] وهذا يدل على عظيم جودها وكرمها في أنشاء هذه العين.

هذا، وقد اشترت السيدة زبيدة الأراضي في وادي حنين ومهدتها، وأمرت ببناء قناة يجري فيها الماء.[٧٢] ولم تكتف السيدة زبيدة بدفع هذا المبلغ المالي الكبير لإنشاء العين خدمة لبيت الله الحرام وزواره، لكنها لضمان سير عمل هذه العين في عهدها ومن بعدها وقفت عليها العديد من الأوقاف. فقد وقفت أموالها على عمارة الحرمين.[٧٣] فقد كان للسيدة زبيدة دورا بمكة المكرمة اشترتها من أصحابها وأوقفتها على أعمال الخير، ومن هذه الدور، دار الأرقم بن أبي الأرقم.[٧٤]

خامسًا: أثر إنشاء عين زبيدة على مكة المكرمة

يُعَدّ إنشاء مشروع عين زبيدة في بلاد الحرمين من أعظم المشروعات المائية في مكة المكرمة، لأن أثره مازال خالدًا حتى الآن، فضلاً عن أثره الكبيرة في سد حاجات البلد الحرام من المياه في وقت إنشاءه. أما الآبار التي كانت تصب فيها مياه عين زبيدة في داخل البلد الحرام لتأمين حاجيات القاطنين، فهي تبلغ نحو ستين بئرًا، يضاف إلى ذلك ثلاثون بئرًا في مني ومزدلفة وعرفات[٧٥]. فقد سقت السيدة زبيدة أهل مكة والحجاج الماء بعد أن كانت الراوية عندهم بدينار[٧٦]، فاستمر مجري القناة حتى وصل مكة، فكثرت المياه فيها، ولم يعد الناس يشكون نقص الماء[٧٧]، فمن هذه القناة تأخذ كل صهاريج مكة المكرمة، فيشرب أهلها عذبا فراتا[٧٨]. أما بئر زبيدة بمني فكان يتزود منها الحجاج أيام التشريق الثلاثة [٧٩].

تتراوح كمية هذه المياه المتدفقة من عين زبيدة بين عشرين وثلاثين ألف متر مكعب يوميًا[٨٠]. وبني في هذه القنوات الملتفة بجبل الرحمة حنفيات حجرية جميلة ومجار لتجميع مياه الوضوء وصرفها إلى المزارع المجاورة التي كانت موجودة في السابق، ويُعَدّ هذا أول استخدام لمياه الوضوء والغسل في سقي المزارع[٨١].

يقول الرَحالة ابن جبير عن أثر إنشاء عين زبيدة على أهل مكة المكرمة وحجاج بيت الله الحرام:[٨٢] "إن هذه المصانع والبرك والآبار والمنازل التي من بغداد إلى مكة هي آثار زبيدة بنت جعفر بن أبى جعفر المنصور زوج هارون الرشيد وابنة عمه، انتدبت لذلك مدة حياتها، فأبقت في هذا الطريق مرافق ومنافع تعُمّ وفد الله تعالى كل سنة من لدن وفاتها إلى الآن، ولولا آثارها الكريمة في ذلك لما سلكت هذه الطريق، والله كفيل بمجازاتها، والرضا عنها".

ويقول الرَحالة ابن بطوطة عن الطريق من بغداد إلى مكة المكرمة:[٨٣] "وكل بركة أو بئر بهذه الطريق التي بين مكة وبغداد فهي من كريم آثار زبيدة، جزاها الله خيرًا ووفي لها أجرها، ولولا عنايتها بهذه الطريق ما سلكها أحد". فقد اهتمت الرحلات المغربية بالمادة الحيوية في الحج: وهي قضية الماء، وأن الماء في الحج كان هو الأساس في الحديث، وجُلَهم لم يجد بدًا من ذكر السيدة زبيدة أم جعفر، ذكروها بتقدير كبير وإشادة عظيمة، كانوا يشعرون بأن الحديث عن الماء في موقع كمكة حديث أساسي[٨٤].

ومن الإشادات الحديثة بعين زبيدة وأثرها على أهل مكة وحجاج بيت الله الحرام، إبراهيم رفعت الذي يقول عن ذلك:[٨٥] "ها نحن نقف على سر من أسرار القدر وعمل من أجل الأعمال ربما شق مثله في عصرنا، عصر الاختراعات والتقدم الباهر في الصناعات، ولكنها الهمم لا يقف دونها شيء ولا يصدها عن تنفيذ عزماتها صاد، ولاسيما إذا صفت النية وخلصت السريرة، وهذه العين تعرف بعين زبيدة". إنه لم يجول بخاطر أحد منذ عهد إسماعيل عليه السلام حتى عهد زبيدة مثل هذا الخاطر الوثاب، خاطر إجراء نهر بين شعاب مكة، بل لم يتمنه متمني، لأنه أبعد من حد التمني[٨٦]. فقد تقرر أن الماء في البلاد الحارة والمعتدلة أحيا وأعذب وأبرد على الأكباد وأطيب أضعافا مضاعفة منه في البلاد الباردة، فقد كان أعظم ما يرزق به الإنسان من الثواب وما ترتفع به درجته في المبدأ والمآب، هو تفجير الينابيع وإسالة الجداول في بلاد نظير الحجاز تقصد إليها الحجاج من الحار والبارد والرطب واليابس، بالألوف وعشرات الألوف، ومئات الألوف زائدًا إلى من فيها من السكان، فالمشروع الذي شرعته السيدة زبيدة بنت جعفر وفتحته لجيران البيت الحرام، ولقصاده من جميع بلاد الإسلام، عمل قصر عن مثله الأولون والآخرون[٨٧].

خاتمةٌ

جاء إنشاء العين بناءً على دراسة شاملة من قبل السيدة زبيدة لأحوال الماء في مكة المكرمة. ووالي مكة المكرمة هو مَنْ زود السيدة زبيدة بالمعلومات الكافية عن مصادر الماء في مكة المكرمة. إن الحلول التي قدمها الوالي كانت تتمثل بحفر المزيد من الآبار وهذا ما تم رفضه من السيدة زبيدة كحل لمشكلة الماء.

السيدة زبيدة استعانت بالخبراء والمهندسين من بغداد لإنقاذ المشروع من منطقة السيل الجبلية وعمل برك لمياه السيول وجرّ المياه باتجاه الحرم. جاءت قنوات العين بفرعين الأول عند تجمع المياه من روافد وادي النعمان بالانحدار قرابة ٢٦ ميل والثانية للنقل مبينة من الحجارة البازلتية الثقيلة (حجارة الكلس). وقد تكلل تنفيذ المشروع بالنجاح وبأعلى درجات الحرفية الهندسية تجنبًا للأخطار المستقبلية، وتمثل ذلك بالفن العالي المعماري الإسلامي.

لم يغفل المهندسون عن الطابع الجمالي للقناة، فقد برعوا في ذلك من خلال عمل الأقواس والأعمدة الجميلة. تم نحت الصخر جنوب منى وعمل خزان كبير لتجميع المياه من القنوات، وهو ما أُطلق علية بئر زبيدة وهي نهاية عمل القناة، وتم عمل البرك المختلفة على امتداد مجرى القناة حتى أوصلت المياه للحرم ومن هذه البرك (البركة الزبيدية). كما تم عمل فتحات لسقاية الحجاج في منطقة منى.

لم تغفل السيدة زبيدة عن أمن العين فقد كلفت الوالي بوضع الحراسات في جميع المناطق. كلفت السيدة زبيدة والي مكة المكرمة بتجهيز فرق صيانة للعين وموظفين وفنيين أطلق عليهم البازانات. وخصصت السيدة زبيدة أحواض مائية لشرب الحيوانات. العمل الجميل أبرز سابقة بعمل حنفيات حجرية لتجميع مياه الوضوء وتوزيعها على المزارع المجاورة، وهذا يُعَدّ أول استخدام لمياه الوضوء في سقي المزارع.

التكلفة للمشروع كانت عالية جدًا وقدرت بمليون وسبعمائة ألف دينار، وقد رفضت السيدة زبيدة سماع الأرقام وأمرت بإلقاء دفاتر الحساب في نهر دجلة. هذا المشروع هو الأعظم مائيًا نظرًا للفوائد الكبيرة التي جناها أهل مكة منه، حتى أن عدد الآبار التي كانت تصب فيها العين داخل الحرم بلغت ستون بئرًا وثلاثون بئرًا في منى ومزدلفة وعرفات. بعد قيام المشروع لم يعدّ هناك شكوى من نقص المياه في مكة المكرمة وبلغت كمية المياه المتدفقة من العين بين عشرون إلى ثلاثون متر مكعب يوميًا.

الهَوامِشُ:

(١) ابن خلكان: **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**. تحقيق / إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٧٢م. جـ٢ ص٣١٤.

(٢) ابن الجوزي: **المنتظم في تاريخ الأمم والملوك**. تحقيق/ محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٩٥م. جـ٩ ص٢٧٦.

(٣) مصطفي جواد: **سيدات البلاط العباسي**. دار الفكر، بيروت، لم تذكر سنة الطبع. ص٤٦.

(٤) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**. وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، بدون سنة طبع. جـ٢ ص٢١٤.

(٥) الشابشتي: **الديارات**. تحقيق /كوركيس عواد، دار الرائد العربي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٨٧م. ص١٥٦ -١٥٧، الطبري: **تاريخ الرسل والملوك**. تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩م. جـ٦ ص٥٤٠.

(٦) الشابشتي: **الديارات**. ص١٥٧.

(٧) نخبة من العلماء: **دائرة المعارف الإسلامية**. ترجمة إبراهيم خورشيد وآخرين، دار المعرفة، بيروت، لم تذكر سنة الطبع. ج٣/ ص٣٣٩.

(٨) عمر رضا كحالة: **أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام**. مؤسسة الرسالة، بيروت، لم تذكر سنة الطبع. ج٢/ ص٢٩.

(٩) الطبري: **تاريخ الرسل والملوك**. جـ٨ ص٢٦١.

(١٠) ملك الخياط: **السيدة زبيدة ودورها السياسي والعمراني**. رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القري، كلية الشريعة الإسلامية ١٩٨٢م. ص٥٥.

(١١) عمر رضا كحالة: **أعلام النساء**. جـ٢ ص٢٨.

(١٢) عادل محمد غباشي: **أوقاف عين زبيدة في عهد الملك عبد العزيز**. مؤتمر الأوقاف الأول، جامعة أم القرى، مكة المكرمة ١٤٢٢هـ. ص١٢٠.

(١٣) شكيب أرسلان: **الارتسامات اللطاف** في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف. صححه/ السيد محمد رشيد، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ٢٠٠٦م. ص٥١.

(١٤) عادل محمد غباشي: **المنشآت المائية لخدمة مكة المكرمة والمشاعر المقدسة في العصر العثماني**. رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية ١٩٩٠م. ص٣١ -٣٤.

(١٥) سليمان مالكي: **مرافق الحج والخدمات المدنية للحجاج في الأراضي المقدسة** (٨-٦٥٧هـ)، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز، الرياض ١٩٨٧م. ص٥٥.

(١٦) حد أجياد الصغير، هو الشِّعب الملاصق لجبل أبي قبيس مستقبلة أجياد الكبير، وإنما سمي أجياد: لأن خيل تُبّع كانت فيه. الفاكهي: **أخبار مكة**. جـ٤ ص١٨٩.

(١٧) المصدر السابق: جـ٤ ص١٠٤-١١٤.

(١٨) ملك الخياط: **السيدة زبيدة**. ص٢٠٠.

(١٩) شكيب أرسلان: **الارتسامات اللطاف**. ص٤٨.

(٢٠) سليمان مالكي: **مرافق الحج**. ص٥٦.

(٢١) الأزرقي: **أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار**. تحقيق/ عبد الملك دهيش، مكتبة الأسدي، الرياض ٢٠٠٤م. جـ٢ ص١٥١.

(٢٢) **البركة**: سميت البركة بركة لإقامة الماء فيها، من بروك البعير، يقال: ما أحسن بركة هذا البعير، كما يقال: ركبته وجلسته. الحموي: **معجم البلدان**. جـ١ ص٤٠١.

(٢٣) عادل غباشي: **المنشآت المائية**. ص٧٤.

(٢٤) سليمان مالكي: **مرافق الحج**. ص٦٥.

(٢٥) هو وادي بين مكة والطائف، من أكبر أودية مكة، وتتكون روافده من: الضيقة، الكرّ، والثّري، وله روافد كبار أثناء مسيرته، وينحدر وادي النعمان بشكل شبه مستقيم، فيمر جنوب عرفة، فإذا تجاوزها اجتمع بوادي عُرنة، ثم يفقد النعمان اسمه ويصبح الاسم عُرنة. الحموي: **معجم البلدان**. جـ٥ ص٢٩٣، عاتق البلادي: **معالم مكة التاريخية**. ص٣٠٤.

(٢٦) سليمان مالكي: **مرافق الحج**. ص٦٣-٦٤.

(٢٧) الأزرقي: **أخبار مكة**. جـ٢ ص٢٣١.

(٢٨) ابن فهد: **إتحاف الورى بأخبار أم القرى**. تحقيق / فهيم محمد شلتوت، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٨٣م. جـ٢ ص٢٤٩.

(٢٩) الصبّاغ: **تحصيل المرام**. جـ٢ ص٦١٠.

(٣٠) ابن خلكان: **وفيات الأعيان**. جـ٢ ص٣١٤.

(٣١) الأزرقي: **أخبار مكة**. جـ٢ ص٢٣١.

(٣٢) أحمد الحسيني: **عين زبيدة أول وقف إسلامي يروي الحجاج**. جريدة عكاظ، جريدة يومية تصدر عن مؤسسة عكاظ للصحافة والنشر، المملكة العربية السعودية. عدد السبت ٣٠ /٧/ ١٤٣٤هـ.

(٣٣) نزار نجار: **عين زبيدة مشروع إنساني نبيل**. مجلة الاقتصاد الإسلامي العالمية.

(٣٤) تتألف النورة من أحجار الكلس بعد حرقها في مصانع النورة حتى تصبح ناعمة. ناصر الحارثي: **منهل ماء في دحلة الرشد في مكة المكرمة**. مجلة الدارة، فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبد العزيز، المملكة العربية السعودية ١٤٢٢هـ. ص٦٣.

(٣٥) أحمدي الأحمدي: **عين زبيدة مشروع سبق زمانه**. جريدة الرياض. جريدة يومية تصدر عن مؤسسة اليمامة للصحافة والنشر، المملكة العربية السعودية، عدد٥ يونيو ٢٠٠٩م.

(٣٦) **كتاب البلدان**: ص٣١٦.

(٣٧) عادل غباشي: **المنشآت المائية**. ص٤٢٦.

(٣٨) شكيب أرسلان: **الارتسامات اللطاف**. ص٣١.

(٣٩) عادل غباشي: **المنشآت المائية**. ص٣٦٢-٣٦٣.

(٤٠) سليمان مالكي: **مرافق الحج**. ص٩٨.

(٤١) ابن وادران: **تاريخ العباسيين**. ص٤٦٠.

(٤٢) **كتاب البلدان**: ص٣١٦.

(٤٣) عادل غباشي: **المنشآت المائية**. ص٣٤٩٠.

(٤٤) **الخزانات**: من خزن الشيء يخزنه خزنا واختزنه: أحرزه، وجعله في خزانة، والخزانة اسم الموضع الذي يخزن فيه الشيء. وهي مثل السدود في العصر الحالي. ابن منظور: لسان العرب. دار صادر، بيروت، لم تذكر سنة الطبع. مادة خزن.

(٤٥) محمد البتنوني: **الرحلة الحجازية**. ص٦٦.
(٤٦) أحمد الحسيني: **عين زبيدة أول وقف إسلامي يروي الحجاج**. جريدة عكاظ، عدد السبت ٣٠ /٧/ ١٤٣٤هـ.
(٤٧) محمد البتنوني: **الرحلة الحجازية**. ص٦٥.
(٤٨) الصباغ: **تحصيل المرام**. جـ٢ ص٦١٢.
(٤٩) ملك الخياط: **السيدة زبيدة**. ص٢٠٧.
(٥٠) الحموي: **معجم البلدان**. جـ٣ ص١٣٢.
(٥١) الحربي: **المناسك**. ص٢٨٨.
(٥٢) العصامي: **سمط النجوم العوالى**. ص٨٨٤.
(٥٣) سليمان مالكي: **مرافق الحج**. ص٩٨.
(٥٤) **الصهاريج**: جمع الصهريج، وهي كالحياض يجتمع فيها الماء، وأصله فارسي، وهو الصهري وجمعه صهاري. ابن منظور: **لسان العرب**. مادة صهرج.
(٥٥) عبد الهادي التازي: **مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة**. مؤسسة الفرقان، مكة المكرمة ٢٠٠٥م. جـ٢ ص٦٦٥.
(٥٦) **البازانات**: جمع بازان، وهو اسم لرجل سميت به الأحواض والآبار التي على مجري عين زبيدة لقيامه بإصلاحها. إبراهيم رفعت: **مرآة الحرمين**. جـ١ ص٢١٦.
(٥٧) سليمان مالكي: **مرافق الحج**. ص٦٤.
(٥٨) عبد الهادي التازي: **مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة**. جـ٢ ص٦٦٥.
(٥٩) **بئر الجفر**: هي البئر التي حفرها أمية بن عبد شمس، بطرفي أجياد الكبير، فاشتري ذلك البئر ياسر خادم السيدة زبيدة، فأدخلها في المتوضئات التي عملها على باب أجياد. الفاكهي: **أخبار مكة**. جـ٤ ص١٠١.
(٦٠) أحمد السباعي: **تاريخ مكة**. الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، الرياض ١٩٩٩م. جـ١ ص١٥٧.
(٦١) اليافعي: **مرآة الجنان**. جـ٢ ص٤٨، العصامي: **سمط النجوم العوالى**. ص٨٨٤.
(٦٢) أحمد الحسيني: عين زبيدة أول وقف إسلامي يروي الحجاج. جريدة عكاظ، عدد السبت ٣٠ /٧/ ١٤٣٤هـ.
(٦٣) ملباري: **المنتقي في أخبار أم القرى**. مطابع الصفا، مكة المكرمة ١٤٠٥هـ. ص٣٥.
(٦٤) ملك الخياط: **السيدة زبيدة**. ص٢١٠.
(٦٥) الجاحظ: **المحاسن والأضداد**. ص٤٤.
(٦٦) ابن فهد: **إتحاف الورى**. جـ٢ ص٢٤٨.
(٦٧) اليافعي: **مرآة الجنان**. جـ٢ ص٤٧، ابن خلكان: **وفيات الأعيان**. جـ٢ ص٣١٤.
(٦٨) الأزرقي: **أخبار مكة**. جـ٢ ص٢٣١، ابن فهد: **إتحاف الورى**. جـ٢ ص٢٤٩.
(٦٩) الفاسي: **الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة**. تحقيق/ على عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولي ٢٠٠١م. ص٢٠٠، الصباغ: تحصيل المرام. جـ٢ ص٦١٠.
(٧٠) ابن الجوزي: **المنتظم**. جـ٩ ص٢٧٧.
(٧١) الأزرقي: **أخبار مكة**. جـ٢ ص٣٢٧، الزواوى: **بغية الراغبين**. ص٦.
(٧٢) سليمان مالكي: **مرافق الحج**. ص٦٤.
(٧٣) ابن الجوزي: **المنتظم**. جـ٩ ص٢٧٧.
(٧٤) ملك الخياط: **السيدة زبيدة**. ص٢١٤، أحمد السباعي: **تاريخ مكة**. جـ١ ص١٥٧.
(٧٥) الأزرقي: **أخبار مكة**. جـ٢ ص٣٢٩.
(٧٦) ابن خلكان: **وفيات الأعيان**. جـ٢ ص٣١٤، اليعقوبي: **كتاب البلدان**. ص٣١٦.
(٧٧) سليمان مالكي: **مرافق الحج**. ص٦٤.
(٧٨) إبراهيم رفعت: **مرآة الحرمين**. جـ١ ص٢٠٨.
(٧٩) هورغرونيه: **صفحات من تاريخ مكة المكرمة**. جـ١ ص٧٧.
(٨٠) نزار نجار: **عين زبيدة عمل إنساني نبيل**. مجلة الاقتصاد الإسلامي العالمية.
(٨١) أحمد الحسيني: **عين زبيدة أول وقف إسلامي**. جريدة عكاظ، السبت ٣٠/٧/١٤٣٢هـ.
(٨٢) **رحلة ابن جبير**: مكتبة الهلال، بيروت ١٩٨١م. ص١٦٥.
(٨٣) **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**: دار التراث، بيروت ١٩٦٨م. ص١٧٠-١٧١.
(٨٤) عبد الهادي التازي: **مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة**. جـ٢ ص٧٢١.
(٨٥) **مرآة الحرمين**: جـ١ ص٢٠٧.
(٨٦) عبد الله عفيفي: **المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها**. دار الرائد العربي، بيروت والطبعة الثانية ١٩٨٢م. جـ٢ ص٢٣٢.
(٨٧) شكيب أرسلان: **الارتسامات اللطاف**. ص٥٣.

دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

الحمامات الإسلامية العامة
بين الفقه والمجتمع

أ.م.د. عامر عجاج حميد
أستاذ مساعد التاريخ الإسلامي
كلية التربية الاساسية
جامعة بابل – جمهورية العراق



أ.م.د. محمد عبيس حميد الطائي
أستاذ مساعد التاريخ الإسلامي
كلية التربية الاساسية
جامعة بابل – جمهورية العراق

مُلَخّصْ

تتشعب علاقات الظواهر والممارسات الحياتية اليومية مع ما يحيط بها من سلطات متنوعة سياسية أو فقهية، فبين الممارسة اليومية المعتادة لمرتادي الحمامات العامة نجد أنها تتواشج مع محيطها في ما هو معقد من الاعتياد والضبط الأخلاقي الاجتماعي وقوانينه الدينية التي تنفذها السلطة الدينية متمثلة بالفقهاء، أو السلطة التنفيذية متمثلة بالمحتسبين والشرط، وفي موضوع الحمامات فمع التقديم عن بعض جوانبها التاريخية من حيث نشوئها وأبنيتها وبعض الجوانب الحياتية للعاملين فيها وأهميتها في الطهارة والنظافة، حاول البحث تسليط الضوء على الحمامات من حيث أقسامها وعمارتها وتاريخها وكيف أنها لم تكن شائعة في شبه الجزيرة العربية، لكنها كانت موجودة في البلاد التي كانت ذات شتاء بارد ومنها بلاد الشام وشمال أفريقيا. لذا بدا وكان الفتاوى بشأن الحمامات كانت متأخرة قليلاً، لكنها أكدت على أهمية الاغتسال بشرط التستر فهل كان هذا الأمر يطبق بدقة؟ فمع ما تناوله البحث من وقائع ذكرها رحالة وفقهاء إلا أنه من المظنون أن ليس كل ما كان يقر فقهًا ينفذ تمامًا فالأحوال الواقعية تفرض نفسها من عدم توفر المآزر مثلاً أو عدم اهتمام الجميع بالأوامر الفقهية بحسب وعي الأشخاص الديني. ومع وصف الحمامات وبعض تواريخها السابقة للإسلام فان البحث حاول تسليط الضوء على موضوعين هما النساء ودخولهن الحمامات وما نجده من تشدد بالغ في المنع إلا لدواع حددها الشرع منها غسل المرأة من النفاس، أو دخولها الحمام لمعالجة علة ما، حيث أن القواعد الاجتماعية التقليدية تشدد على عدم خروج المرأة من البيت فكيف تذهب إلى حمام لتنزع ملابسها؟ وتشددت الفتاوى في ذلك خصوصًا في موضوع تكشفها أمام الذميات وسوغ ذلك باحتمال وصف الذمية جسد امرأة مسلمة رأته في الحمام لزوجها. وكذلك تناول البحث أهل الذمة ودخولهم الحمامات وما كان يشترط عليهم من وضع علامات خاصة بذلك. ومهما يكن من أمر فإن النواهي الفقهية لم تكن دائمة التطبيق، ففي مجال وجود التماثيل والصور في الحمامات لم يكن الأمر مطبقًا حتى في حمامات بعض الخلفاء في قصورهم وهذا ما وجد في قصور بلاد الشام كقصر عمرة وقصر المفجر، وقد يكون المسوغ أنها كانت حمامات بيزنطية أو أن مهندسيها غير مسلمين، إلا أننا يمكن ملاحظة الاختلاف الثقافي في السلوك داخل الحمامات بين المسلمين وغيرهم فيما تناوله أسامة ابن منقذ في كتابه "الاعتبار" موضحًا من تجربة شخصية ماراه في هذا المجال وتم تناوله في البحث.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١٩	أبريل	٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر:	١٤	مايو	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

الحمامات؛ البلان؛ المزين؛ التكشف؛ التستر؛ الإزار؛ الاشنان؛ النورة

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.166974

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عامر عجاج حميد، محمد عبيس حميد الطائي، "الحمامات الإسلامية العامة بين الفقه والمجتمع".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد الثامن والأربعون؛ يونيو ٢٠٢٠. ص ٤٢ – ٥٦.

Corresponding author: amer_1900@yahoo.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

Corresponding author: d.rmahmmedaltaie@gmail.com
Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan

مُقدِّمَةُ

تواجه الباحث ظاهرة ما؛ أو عمل يومي؛ أو في منشأ ما من المدونين أو من الناس عدم اهتمام بالتفاصيل الصغيرة لشؤون العمل أو للمنشأ أو للأشخاص العاملين فيه، إلا ما يمكن أن نجده مدونًا بصورة عرضية، فبسبب تكرار الممارسات التي اعتاد الناس عليها في هذه الأمكنة تجعلها خارج اهتمامات اغلب الكُتَّاب الذين يُعَدّ بعضهم مثل ذلك موضوعًا غير مهم ولا يستحق الكتابة فيه، وفي ظل عدم امتلاك رؤية ترى أن كل شيء قابل للتغيير وبالتالي ثمة حاجة لتوثيق حتى ما هو عادي ومألوف لأنه يتغير بعد حين طويل أو قصير، ففي عصور لم يكون التدوين والكتابة فيها متيسرا ومنتشرًا إلا بنطاق محدود يكون المكرر والمألوف أقل أهمية من أحداث أكثر إثارة وسخونة تهم الطبقة الرفيعة التي تكون الكتابة موجهة لها أو تحاول كسب رضاها من أحداث سياسية أو عسكريه أو سواها يرى الكتاب أنها أجدر بالكتابة عنها.

وفي موضوع الحمامات والعاملين فيها وهذا البحث يحاول تتبع بعض جوانبه نجد موضوعاته متفرقة ضمن اهتمامات العديد من الكتاب عالجت الموضوع، وكان تركيزها على الجانب الفقهي والحسبي، والتأكيد على منكراتها وأفردت لها في العصور المتأخرة كتب تخصصت في شؤونها. ثمة مستويين للنظر إلى الفعاليات الاجتماعية المختلفة فوجهة النظر الفقهية تتسم بالحدية والحسم بقوانين صارمة والواقع يفرض شروطًا أخرى يفرضها مدى توفر الشروط والمستلزمات لتطبيق تلك الشروط في المستوى السابق، وفي مجال الحمامات يحاول البحث مناقشة هذا الموضوع ضمنا. فالحمامات العامة منشأ مهم في المدينة الإسلامية وقد يرتبط بمنشآت عامة أخرى كالمساجد أو المدارس أو المنشآت الدينية الأخرى كالربط والخانقاوات والتكايا، لحاجة من يؤدي الواجبات الدينية المعتادة كالصوم أو الصلاة أو قراءة القرآن إلى الطهارة والنظافة قبل أداءها كطقس لازم. وفي ظل عدم قدرة الكثير من الناس على إنشاء حماماتهم الخاصة وخصوصا العوام منهم وهم الأغلبية من الناس، أُنشأت الحمامات العامة لسد هذه الحاجة. ناهيك عن الحاجة إلى الاغتسال العادي للتخلص من الوسخ والدرن.

تدرج البحث مبتدئا بالماء وأهمية الاغتسال به في الحضارات القديمة العراقية والمصرية، وكذلك ما ذكر عن الحمامات الرومانية القديمة التي قد تكون الحمامات الإسلامية اللاحقة خاصة في بلاد الشام والعراق وشمال أفريقيا والأندلس انبثقت منها تصميما ووظيفة ونسقًا معماريًا استلزمتها الحاجة العملية في ضرورة التدرج من البرودة إلى الدفء ثم إلى الحرارة. وعن الطهارة في الإسلام والديانات الأخرى كالمسيحية والتعمد بالمياه فيها، ولفظة الحمام واصلها، كذلك تناول طبيعة العمل في الحمامات ومهنها، والمواد التي استخدمت في إزالة الأوساخ كالسدر والأشنان أو إزالة شعر الأجساد عن طريق النورة. كذلك المحرمات داخل الحمامات وضرورة التستر فيها، مع التعريج على النساء ودخولهن الحمامات وشروطه وكذلك أهل الذمة وما فرض عليهم عند دخولها.

تناولت دراسات عدة الحمامات في الجانب المعماري والأثري ومنها: فقه عمارة الحمامات الإسلامية في العهد العثماني ل: محمد عبد الستار عثمان الذي تناول الحمامات أيضًا في كتابه الصادر في سلسلة عالم المعرفة، وبحث "رلى أبو خاطر" في مجلة إنسانيات/ ٢٠١٤م عن الحمامات التقليدية ضمن النسيج العمراني للمدينة الإسلامية. ودراسات أخرى، أما في الفقه والحسبة فتناولتها هذه الكتب ضمن ما ذكرته من موضوعات متنوعة، مثل كتاب الغزالي (ت:٥٠٥هجرية)، وابن رشد الجد (ت:٥٢٠هجرية) في كتابه البيان والتحصيل والشرح والتعليل، وكتاب ابن الحاج العبدري (ت: ٧٣٧ هجرية) المدخل. وفي كتب الحسبة تناول الموضوع الشيزري (ت:٥٩٠هجرية) في كتابه نهاية الرتبة الظريفة في طلب الحسبة الشريفة الحمامات مع موضوعات أخرى في قوانين ونظم الاحتساب، وابن الأخوة القرشي (ت: ٧٢٩هجرية) في كتابه معالم القربة في طلب الحسبة، وتناولت بعض دراسات متأخرة الحمامات بكتب ورسائل متخصصة منها رسالة ابن القوصوني (ت:٩٣١ هجرية) مقالة في الحمام، والافقهسي الشافعي (ت:٨٠٨ هجرية) في القول التمام في آداب دخول الحمام، وعبد الرؤوف المناوي (ت:١٠٣١هجرية) في النزهة الزهية في أحكام الحمام الشرعية والطبية.

تُعَدّ الحمامات مؤسسات عامة في أغلب البلدان الإسلامية فارتبطت بالنظافة والطهارة واذا كانت النظافة تعني إزالة الأوساخ فالطهارة ذات بعد ديني ونفسي وتتعلق بصورة أساسية بأداء الفرائض الدينية لدى المسلمين ، فالعبادات ترتبط ارتباطا وثيقا بالطهارة والمسلمون يحتاجون بصورة يومية إلى أداء عباداتهم اليومية كالصلاة أو سنوية أو أسبوعية كصلاة الجمعة أو سنوية كالصوم والحج وسواها من الأعمال العبادية التي لا يمكن أن تصلح دون طهارة واغتسال، وحيث انه لا يمكن لجميع الناس عمل حمامات خاصة بهم كون الأمر مكلفًا أو صعوبة توفير المياه له أو الوقود لجعله دافئًا خاصةً في

الشـتـاء، وفي المنـاطق ذات الشـتـاء البـارد أنشـئت الحمامـات العامة لتقديم خدماتها.

أولاً: الحمامات العامة

(نظرة في التاريخ والعناصر)

كانت الحضارات القديمة تهتم بموضوع الطهارة كطقس ديني، حيث يرتبط التطهر في مصر القديمة بعقيدة الشمس، وفي مواسـم تتـويج الملـك والاحتفـال بتجديـد جلوسـه عـلى العرش، وكانت مياه النيل الجارية في أي منطقة رمزًا للطهارة ووسيلة مهمة من وسائل التطهر، ويذكر هيرودوتس أن مصريا مسه خنزير أثناء مروره فذهب في الحال إلى النهر ليتطهر من نجاسة الحيوان فغطس بملابسه فيه، ومن الحالات التي يتطهر فيها المصري بالماء: الجنابة والنفاس للنساء وانقطاع الحيض وغسل الميت وحالات أخرى[١]، ويمكننا أن نرى مدى قداسة الميـاه في حضـارة وادي الرافـدين مـن خـلال نظريـة الخلـق الرافدينية وأهمية آلهتها، ونرى ما للمياه من قدسية ورهبة جعلت منها عقوبة من عقوبات القوانين في بلاد النهرين تلك التي عرفت باسم الاختبار النهري، وذلك لدورها الكبير في نشأة الخلق عند السومريين والبابليين؛ مما جعل لآلهة المياه "أنكي" و"أبسو" و"تيامات" مكانة كبيرة من القداسة في بلاد النهرين بسبب قوتهم ورهبتهم[٢]، وكان الإله (ابسو) الذي يعتبر مصدر الشفاء والطب، لأنه اله المياه العذبة، فهو أبو الإله (ايا) الذي هو رب الطب الأعلى.

ويرد ذكر الحمامات في العديد من المصادر المسمارية ومنها نصوص أدبية ودينية ورسائل ملكية ووثائق حكومية ونصوص الفال البابلية؛ عكست أهمية النظافة بالاغتسال في الحمامات، وكانـت هنـاك حمامـات عموميـة في العـراق القـديم إضـافة إلى الحمامـات الموجـودة في المنـازل والمعابـد العموميـة خاصـة في العهـد الأشـوري الحـديث، حيـث وردت إشـارات إلى "بيـت رمـكي" وتعني الحمام العمومي أو بيت التطهير[٣]. وكان يوحنا المعمدان وقومه يعيشون قرب المياه كي يعمدوا أطفالهم به والمنتمين الجـدد للمسـيحية، وهنـاك طوائـف أخـرى كثـيرة تـربط حياتهـا الاجتماعية والدينية بالمياه وتعيش على ضفاف الأنهر، أما في الديانة اليهودية فالماء عندها مقدس تقديسًا كبيرًا وهذا يظهر جليًا واضحًا في مراسيمها الدينية، وفي فكرها أيضًا، وكان الماء الحـي (ميـا هـي) شـعار وصـفة ملازمـة مـن الناحيـة الفكريـة والطقسـية للديانـة المندائيـة، فللمـاء في الديانـة المندائيـة قدسية عظيمة والماء الجاري منه تحديدًا، أما الماء الراكد فلم يكن مقدسًا[٤].

ونجـد الفكـرة مركـزة في الطهـارة والنجاسـة والمـاء الـذي يمكنـه التطهـير أو لا في الفقـه الإسـلامي أيضًـا، فقـد تنـاول الغزالي ونذكره هنا كمثال على موضوع طهارة المياه فيناقش مشكلة المياه وكميتها ومتى تكون طاهرة أو نجسة، وهو امر عالجه اغلب الفقهاء في رسائلهم وتوجيهاتهم، ويشير الغـزالي إلى أن المـاء القـوي يزيـل النجاسـة، وتنـاول بعـض مسـببات النجاسـة ومنهـا غمـس الأواني النجسـة في المـاء، ويحـذر مـن الوسوسـة الزائـدة في احتمـال نجاسـة المـاء، ويشير إلى الأخذ بالطهـارة في الغالـب، ففـي بيئـات يشـح فيهـا المـاء لا يمكـن الإفتـاء بضـرورة اسـتعمال كميـات ميـاه كبـيرة حـتى تصـح الطهـارة،[٥] فالمـاء يخـرج عـن الطهـارة عنـدما يتغـير بملاقـاة النجاسة طعما أو لونا أو رائحة، وغير مستبعد أن ما ذكره استند إلى تجارب فعلية، حيث يطلب الغزالي من رجلين ينتميان إلى مذهبين هما الشافعي والمالكي أن يسمح أحدهما للأخر دون تلاح أو شجار في التناوب على استعمال الماء عندما يكونان في الحمام عند حوض واحد، فمذهب مالك لا يعد الماء نجسا اذا مد احدهم يده فيه، عكس الشافعية الذين يرون نجاسته، فينبغي بحسب الغزالي أن يطلب الشافعي برفق من الأخر أن يسمح له أولاً بالتطهـر بالمـاء، وهـي إشـارة لمـا يمكـن أن يكـون سـببًا اجتماعيًا لنوع من الخلاف الفقهي مسرحه الحمام.[٦]

وسمي الحمام حمامًا لما فيه من الماء الحار؛ والكلمة مشتقة من الحميم، أما الحمة فهي كل عين فيها ماء حار ينبع ويستشفى بالغسل فيه، وفي الحديث الشريف "الحمة تأتيها البعداء وتتركها القرباء[٧]".

ويمكننـا الإشـارة هنـا إلى، أن أصـل الحمامـات قـد يكـون طبيعيًا أي أن الميـاه الـتي يـتم الاسـتحمام بهـا مـن عيـون حـارة تخـرج مــن باطــن الأرض دون تسـخين سـميت بــ"الحمات" استخدمت لأغراض طبية ومنها ما كان في مدينة طبرية في فلسطين. وتقع هذه الحمات على مسيرة أربعين دقيقة جنوبها، ولعلها هي التي حملت هيرودوت على أن يختار هذه البلدة قصبة لبلاده؛ ويقـول يوسـيفوس إن الحمامـات لـم تكـن بعيـدة عـن طبريـة، وذكرهـا بلينـوس أيضًـا وكـذلك في التلمـود، ولـم يكـف جغرافيـو العـرب عـن القـول بأن مياههـا ساخنة بلا نـار، ويقـول اليعقـوبي إن الميـاه السـاخنة يـؤتى بهـا إلى البلـدة في أنابيـب؛ ويشـير الإصـطخري إلى أن المـاء يبعـد عـن العيـون بمقـدار فرسخين أو نحـو ذلك (وهذه مبالغـة غـير معقولـة)، مـن شدة

حرارتها يقال إن الأجساد التي تلقى بها فيها يذهب عنها الشعر، ومن ثم لا يمكن استخدام الحمامات إلا إذا أضيف إليها الماء البارد؛ ويتحدث المقدسي عن عين مياهها تغلى وهى تزود معظم الحمامات بالماء معًا، ويذكر ناصر خسرو عينًا في طبرية على باب المسجد الذى في سرة البلد وقد بنى عليه حمام عزى إلى الملك سليمان[٨]. وحمامات طبرية نذكرها هنا نموذجًا لمثل هذه الحمامات الطبيعية الأولى التي توجد في أماكن أخرى.

يتناول ديورانت[٩] الحمامات الرومانية التي يرجع أنها أصل الحمامات اللاحقة في البلدان الإسلامية من حيث الشكل المعماري والإدارة والأدوات بعد الفتح في بلاد الشام وشمال إفريقية عندما ورث المسلمون هذه البلاد، حيث يذكر أن الرومان كانوا يرون أن الاستحمام اكثر وجوبا عليهم من عبادة الآلهة، وكانت رغبتهم بالاستحمام كبيرة، ومع وجود حمامات خاصة في بيوت الأغنياء فإن عامة الأحرار كانوا يستخدمون الحمامات العامة، ويذكر أن روما كانت تحوي ١٧٠ حمامًا في عام ٣٣ ق.م، وفي القرن الرابع الميلادي وصل عددها إلى ما يقرب "٨٥٦ "حماما يتولى إدارتها ملتزمون، وهي حمامات حارة عرفت بسعتها فبعضها كما يقول كان يحتويا على ١٦٠٠" مقعد من الرخام ويذكر أن أجورها كانت زهيدة.

ومن أقدم الحمامات الإسلامية في بلاد الشام: "حمام قصر عمرة" ويبعد عن عمان حوالي٥٠ ميلا؛ ويتألف من قاعة ذات ثلاث أجنحة تنتهي بقاعة تحاذيها على الجانبين مقصورتان، وتنفتح القاعة من الشرق على غرفتين، أما الجنوبية فهي مغطاة بقبة متقاطعة، ويشبه هذا الحمام حمام الصرح على بعد ٢٠ ميلاً من عمان، وكذلك حمامات قصور خربة المفجر والذي زينت احدى مقاصيره فسيفساء جميلة تمثل أسدا انقض على غزال تحت شجرة وارفة، وفي الطرف الأخر غزالين امنين[١٠]، ووجد في قصر الحمراء في غرناطة أنموذج لحمام يرجع إلى القرن الرابع عشر الميلادي يتألف من ذات العناصر الموجودة في حمامات الشام وفيه ذات الأقسام: البارد والدافئ والحار؛ مغطى بقباب يتسرب إليها النور من خلال فتحات صغيرة؛ ويزين مكان الاستراحة فيه تزيينات جدارية، وتستخدم في الحمامات عادة موادا مقاومة للمياه فهي مفروشة بالرخام غالبا، أما البناء فيكون بالآجر أو الرخام الذي يتحمل الماء[١١].

وفيما يخص أقسام الحمامات فانه يكاد يكون متشابها من حيث العمل وتقسيم المكان؛ لأسباب تتعلق بطبيعة وظيفة الحمامات والعناية بصحة المستحمين ولأسباب عملية أخرى، لكنها قد تختلف من حيث الحجم أو ربما الشكل المعماري.

وصممت غرف أو بيوت الحمامات بحيث يكون الانتقال فيها تدريجيا من الجو البارد إلى الحار وبالعكس بعد إتمام الاستحمام من الحار إلى البارد، ففي الغرفة الأولى يتم استقبال المستحم وفيها يخلع ملابسه، وتوجد بعدها غرفة البخار وتكون في العادة مكسوة بالرخام، وينتظر المستحم حتى يتصبب عرقا ثم يذهب إلى الغرفة الأخرى أو البيت الأخر وهي غرفة المغطس وفيها مياه باردة وحارة، ويقوم عامل بإزالة الأوساخ من المستحم[١٢]، وعمارة الحمامات الإسلامية هي امتداد لتقاليد فن العمارة الرومانية؛ ومن أمثلة ذلك حمامات انطاكية[١٣]، وافامية[١٤] وبصرى، وتتألف أيضًا من الأقسام: البارد والمعتدل والحار[١٥].

ثانيًا: مهن الحمامات

إن ما يمكن أن نقرأه عن أعداد حمامات بغداد في عهد المعتضد[١٦]، واورد عنه الصابي[١٧] نقلاً عن كتاب ليزدجرد بن مهبندار الفارسي الذي ألفه للخليفة المذكور وانتقد فيه المبالغات في أعداد الحمامات وعمارتها، وأنها بلد ليست كالبلدان؛ وأن حماماتها كانت "٢٠٠٠٠" حمام، إذ لا دليل على ذلك، فالرقم كبير جدًا، ويناقش بعقلانية هذه الأعداد معرجًا على مهن تتصل بالحمامات محللاً، فكتب إن لم تكن مائتي ألف فإن البعض يقول أنها "١٣٠٠٠" أو أقل، والبعض يقول أنها مائة الف، ثم يردف أن نحن أخذنا هذا الرقم بمتوسطه وهو ستون ألف حمام مستطردًا عما يحتاجه الحمام من عاملين فيه وهم: صاحب الصندوق والقيم والوقاد والزبال والمزين والحجام، ويشير إلى انه ربما أطاف بالحمام ضعف هذا العدد، واذا سلم بانها ستون ألفًا؛ فإن عدد الذين يعملون في الحمامات فقط من القوام والمزينيين والحجامين يكون ثلاثمئة وستون ألفًا من الناس، ثم يقارن بعدد ما يحتاجه الناس للحمامات حيث يقيس انه من الممكن أن يكون هناك حمام لكل مائتي نفس[١٨]، أو حمام لكل أربعمئة منزل، فإن عدد المنازل اثنا عشر الف منزل ويقيس على ذلك عدد سكان كل منزل والتي يفترضها بين من يرفعه إلى عشرون نفسا أو ينقصه إلى ثلاثة، فإن المنازل تضم ست وتسعون ألف إنسان، ثم يعطي رقمًا إحصائيًا لاحقًا في أيام معز الدولة البويهي (٣٠٣-٣٥٦هـ)[١٩] عن الحمامات ويقول أنها كانت ١٧ ألف حمامًا، وأنها نقصت عن العدد الذي ذكر أنها كانت عليه أيام المقتدر وهو سبع وعشرون الف حمام، وعدت في أيام عضد الدولة[٢٠] فكانت خمسة آلاف وكسرا أما في أيام بهاء الدولة سنة ٣٨٢هـ؛ فكانت ١٥٠٠ حماما ونيف؛ وهي في زمن الصابي[٢١] مائة وخمسون حمامًا، ويشير إلى أعداد الحمامات الخاصة بالوزراء والكتاب والحواشي والأصحاب والأمراء والقواد

والأشراف والقضاة والشهود والتناء والتجار وأولي المروات والأحوال الوافرات، حيث يذكر انه لا تخلو دار كل واحد منهم من حمام[٢٢].

إن ما يفصله الصابي يوضح طبقات المجتمع العالية ذات الحمامات الخاصة والحمامات العمومية التي يدخلها عامة الناس ويشير إلى كثرتها المتناسبة مع أعداد السكان إلا أنه يتناول عرضًا فئات العاملين فيها، أن ما نجده من مهن الحمامات لا يشبع رغبتنا في البحث عن تفاصيل حياتهم ومستواهم المعيشي الذي يجعلهم في فئة الجماعات الهامشية الفقيرة، ففئات العاملين في المدن الإسلامية تنقسم إلى أغنياء وفقراء ومهن وضيعة ومهن رفيعة فلدى ابن الأخوة (ت: ٧٢٩هـ) مهن رذلة ذكرها منها: الحجامة والحياكة والحراسة والقيام في الحمام... ومهن أخرى ذكرها نجد أن بعض مهن الحمامات كانت من ضمنها[٢٣].

يمكننا أن نجد ما نبحث عنه في مهن الحمامات مبثوثًا في مصادر متنوعة من كتب الأدب أو الفقه وكتب الحسبة، حيث أن الاهتمام بالتفاصيل لا يعني المدونين في الغالب، فأهل المهن يقومون بأعمال معتادة لا إثارة فيها مع تكرار يكاد يكون مملا، مع عدم امتلاك رؤية ترى أن الأشياء بطبيعتها لا تبقى على حال، وان التغير سنة مستمرة السريان على مختلف الظواهر، وما يكون عاديًا في يوم قد يتغير في زمن أخر.

تعد مصادر الإبداع الأدبي من المرتكزات العميقة التي يتم إهمالها أو عدم إعطاءها أهمية غالبًا في الدراسات التاريخية، فنرى أن بعض المؤرخين المعاصرين رفعوه إلى مستوى "أنه لا يمكن الاستغناء عنه مقارنة بالأرشيف والوثيقة فاستثمار النصوص الأدبية مهم أحيانًا في دعم المعطيات التاريخية[٢٤]، وطبقًا لذلك يمكننا قراءة شيء من مهن الحمامات في كتاب للهمداني[٢٥]، ورغم انه كتاب أدبي ذو اطار ساخر إلا أنه لا يخلو من سرد لواقع الحمامات، ففي المقامة الحلوانية يتناول دخوله إلى حمام في حلوان[٢٦] للاستحمام وحلاقة شعره الذي طال؛ ونجده يقدم الحلاقة على الاستحمام كتسلسل منطقي لإزالة الشعر المتساقط لكن لا دليل لدينا على أن مستقر عمل الحلاقين هو في الحمامات، وقد يكون لبعضهم محلات في الأسواق أو قد يرسلون صبيانهم إليها، ويذكر الهمداني مواصفات الحمام الجيد التي نجدها تتكرر في مصادر أخرى وهي: السعة والنظافة وطيب الهواء واعتدال الماء؛ وفي هذه النقطة لانعرف إن كان يعني اعتداله من حيث الحرارة أو أن عذوبة الماء هو ما يقصده، ونعلم أن مياه حلوان كانت كبريتية، وطلب حجامًا وصف ألاته وصفاته التي يتقدمها قلة الفضول وربما كان المزين يقوم مقام الحجام أحيانًا[٢٧].

ومن الضروري أن تكون موسى الحجام حادة والحجامة مباحة، إلا أن مهنة الحجام ليست من المهن التي تُعَدّ من المهن المعظمة والمكرمة والشريفة عند عموم الناس؛ لكنها مهنة دون، ولذا روي حديث يقول: "كسب الحجام خبيث" لكنها ليست حراما، ولو كانت الحجامة حرام وفعلها محرم لما دفع الرسول (ﷺ) للحجام شيء، حيث روي أن رسول الله (ﷺ) احتجم حجمه رجل عرف ب "أبي طيبة"، فأمر له بصاع من تمر "يعني أجرة له" وأمر أن يخفف خراجه"[٢٨]، وقد يكون كسب البلان والمزين مكروها لا محرما[٢٩]، ولاشك في أن العمل في هذه المهن يكون اضطراريًا، وعندما يمكن للشخص أن يكون تاجرًا فلماذا يعيش من المهن التي توصف بـ: الدنية، أو الرذلة، إلا اضطرار العوز والفقر، فالدلاك والقمام لا مسوءة عليهم للاضطرار[٣٠]،

ومن المهن الأخرى الدلاك، ويأتي ذكر بعض المهن في سياق الحلال والحرام الفقهيين لا لغرض الكلام عنها ووصفها، فالتدلك بالاشنان والصابون والسدر والخطمي ونحوها حلال لكن يحرم استعمال دردي الخمر، ويسمح باستخدام الزيت للتدلك[٣١]، وقد عرفت الحمامات الإغريقية التدلك بالزيت أو ببعض المراهم المصنوعة من زيت الزيتون[٣٢]، والتمريخ هو الدلك بالدهن وغيره ففائدته سد المسام ويمنع ما يتحلل ويستخدم بعد استخدام الماء الحار، وهو مسخن ومرطب، والنوع الخفيف من التدليك يساعد على توسيع المسام، أما التدليك القوي فانه يصلب الأعضاء، والمعتدل منه فانه يجلب الدم إلى الظاهر[٣٣].

ومهما يكن من وجهات النظر التي يبديها الكتاب القدامى في تأثير التدليك أو المواد المستخدمة فيه إلا أنها تبقى في اطار أسلوب التفكير الطبي في عصورهم، لكن قد يكون بعضها صحيحا طبقا لتجاربهم العملية، وكانت أجرة الحمامي في اليمن في العصور المتأخرة بقشة[٣٤] للتنظيف والتكبيس، وكذلك الحجام[٣٥]، ورغم أن الأجور قد تختلف من مكان وزمن إلى أخر، إلا أن مهن الحمامات بقيت من مهن الفقراء والتي يُنظر إليها بدونية عندما تقارن بمهن أخرى فعندما يتم تناول الكفاءة الاجتماعية في الزواج نجد أن الحجام والكناس والدباغ ليس كفئا للبزاز والعطار[٣٦].

والحلاق يجب ألا يستقبل الشعر بموساه لأنها مؤلمة، ومن أسماء الحلاق المعروفة الأخرى "المزين" ويرد ذكرهم في أحداث سنة ٧٠٥هـ عندما استعين بهم لقطع أيدي وأذان وأنوف جماعة

مع حلق ذقونهم[٣٧]، في ذكر مهلك قطلوشاه نائب خربندا ملك التتار، ومن صفات المزين الأخرى بحسب الشيزري[٣٨]، الذي هو البلان ذاته انه يجب أن يكون رشيقًا خفيفًا بصيرًا بالحلاقة ويكون ما يستخدمه قاطعا وان لا يستقبل الراس ومنابت الشعر استقبالا وقد يكون الأمر عائدا الى ان استقبال الشعر مع وجود موسى غير حادة يجعل الحلاقة مؤلمة[٣٩].

ويتناول الهمداني ما حصل من خصام بين رجلين وضعا الطين على راسه وكلا يدعي انه وضع الطين قبل الأخر فهو زبونه؛ مشيرًا إلى ما قد يحصل من تنافس بين اكثر من عامل في الحمام، ويبدو أن الحلاقين يأتون أحيانًا دون أن يستدعيهم أحد[٤٠]، ويشير ابن وحشية إلى الطين الذي يستعمل في غسل الرؤوس منذ أزمنة قديمة "الطين الأبيض الذي يغسل به الناس رؤوسهم في الحمامات"[٤١]، ويشير الغزالي إلى أنه لا بأس بحلاقة الرأس في الحمام لمَنْ أراد التنظف[٤٢]، وأن البعض يطلب حلاقة رأسه دون أن يتفق مع الحلاق على الأجرة، ويجلس وهو ساكت، وتتم حلاقته، فإن الحلاق لا يستحق الأجرة وبدى أنه متبرع بالعمل، وقد يستحق أو لا يستحق، وتسمية الأجرة قبل البدء بالحلاقة ضروري[٤٣]، ومن صفات المزين الأخرى أنه لا يأكل ما يغير رائحته كأكله للبصل أو الثوم أو الكراث، حتى لا يتقزز الناس برائحته عند الحلاقة، وحلاقة الجبين والصدغين فيجب أن يحلقهما بما يليق بالحال، ولا يقوم بحلاقة شعر صبي إلا بإذن وليه، ولا يحلق عذار أمرد[٤٤] ولا لحية مخنث.[٤٥]

ويحذر الغزالي من كشف فخذ الذي يدلك له، وكذلك أماكن ما تحت السرة من أجل إزالة الوسخ ومس عورة الغير، وكذلك الانبطاح على الوجه أمام الدلاك لتغميز الأفخاذ والأعجاز فإن في ذلك كراهة[٤٦]، ويأمر المحتسب المدلك دلك يده بقشور الرمان لتصبح خشنة لتخرج الوسخ، ويمنع دلوك الباقلاء والعدس في الحمام لأنهن من الطعام الذي لا يجوز شرعًا أن يمتهن[٤٧]، ويستخدم في التنظيف أيضًا السدر، ويفضل خلط السدر والدقاق بقليل من الملح والدقاق فتات كل شيء، وقد يخلط معه دقيق الباقلاء والحمص لدلك البدن لكنه غير محبذ.[٤٨] وقد يشك المحتسبون ببعض أنواع السدر المغشوشة والذي يتبقى بعضه في أصول الشعر إضافة إلى عدم فعاليته في إزالة الأوساخ، وحينها يقوم المحتسب ضمن مهمته في الرقابة على الأسواق بوزنه لأن المغشوش يختلف كيله ووزنه عن غير المغشوش والأخير تكون زنة القدح الواحد منه رطل[٤٩] وأوقيتان بالرطل المصري، ولا يجوز خلط السدر الصيفي مع الشتوي لأن الأول أفضل، ولأن الخلط يقلل من لونه وفعله في الغسل، ويمنع أيضًا خلط السدر مع أوراق الصفصاف أو التوت. ومن أساليب فحص السدر أيضًا أن يوضع منه شيء في كاس فإذا ظهرت فيه رغوة بيضاء فهو غير مغشوش، وإذا كانت الرغوة صفراء فتلك علامة غشه، وقد يغش أيضًا بما يعرف بالسرادة وهو نوى النبق وحصب السدر الذي قد يجفف ويخلط معه[٥٠]، ووجدت في مدن إسلامية حوانيت لبيع السدر، فقد ورد في وقفية لحمام قاهري اسمه "حمام الدروب" بأن هناك حانوت سدر على بابه، وكان يستحب للحائض عند غسلها استخدام السدر في الغسل. ويشار إلى نفعه عند صب الماء الحار عليه في الحميات لأنه يخرج أبخره الدماغ بزعمهم[٥١].

ومن مواد الغسل الأخرى الأشنان[٥٢]، ويشترط بالاشنان ألا يطحن كله بل أزهاره فقط ومن أساليب غشه خلطه بشولات الترمس[٥٣].

ومن أسماء الحمامات المعجمية البلانات وعرفت بذلك لأنها تبل من يدخلها بالماء أو بالعرق والذي يعمل فيها يدعى: **البلان** ويذكر الزبيدي انهم أَطْلَقوا تسمية البَلّانَ، على مَنْ يخدم في الحمام، وهي عامية، وثمة شعر في رجل اسمه موسى يحمل تورية باسمه، وكان خادمًا بحمام:

هَيالِيَ البَلَّانُ مُوسَى... خَلْوَةً تُحْيِي النُّفُوسا
قيلَ مَا تَعْمَلُ فِيها... قُلتُ أَسْتَعْمِلُ مُوسَى[٥٤]

ويتضمن عمل البلان نظافة أجساد الرجال، وإذا تعذر وجوده يوجد صبيان مؤتمنون بشرط عدم بلوغهم الحلم ويشترط عدم الخلوة بهم[٥٥].

ويتناول ابن الحاج في كتابه الذي ينتقد فيه الكثير من الممارسات الاجتماعية من وجهة نظر فقهية والتي يراها خاطئة، وهو مغربي عاش مدة في مصر وذهب إلى بلاد الشام؛ بدع زمنه في الحمامات فيذكر أن بعض الناس يدخلون فيأمرون البلان أن يحلق عانتهم فيكشف عليهم من لا يجوز عليه الاطلاع[٥٦]. ومن قواعد البلانين التستر فـ "لا يمشي الطياب ولا الحكاك ولا الحجام في الحمام إلا بالتبان والسراويلات[٥٧]". ووجود صبيان يقومون مقام الحمامي أو البلان فيه نظر فهم أضعف من أن يقوموا من القيام بفعل جسدي يحتاج إلى القوة لإزالة الوسخ، إضافة إلى أن أعمارهم لا تسمح بذلك، مع محاذير اجتماعية أخلاقية متعددة.

وممَن تلقب بالحمامي الشاعر نصير الدين الحمامي وكان يرتزق بكراء وضمان الحمامات ومن شعره:

ومُذْ لَزِمتُ الحمّامَ صِرتُ فَتى... خِلاً يُداري مَن لَا يداريه
أعرِفُ حَرَّ الأشيا وباردَها... وآخُذُ الماءَ من مَجاريه[٥٨]

وممن تلقب بالبلان ابن البلان المقرئ النحوي العسقلاني التنيسي المصري ت: بضع وخمسين وخمسمئة[٥٩].

ومن حرف الحمامات الأخرى **الناطور** ووظيفته حفظ الثياب من الضياع ويلقبه البعض بـ: الثيابي ومنهم محمد بن عمر الثيابي، وكان محدثًا، وقيل لعله كان ناطورًا في مسلخ الحمام ويسميه أهل بغداد: الحافظ فيمن يحفظ الثياب في الحمامات[٦٠]، وهنا نجد تسميات متعددة لمهنة واحدة، وقد يطلق عليها أسماء مختلفة في أمكنة أخرى. وفيما يخص المهنة التي ذكرت نجد أن الفقهاء تناولوا مشكلة ضياع الثياب في الحمامات أو ضياع مبالغ يزعم أنها فيها، وهناك اختلاف فيمن يضمن: هل هو العامل "الناطور" أم صاحب الحمام، لذا اشترطوا أن يكون حافظ الثياب عاقلاً وأن يوصى بحفظ الثياب وعند عدم وجود الحافظ ووضع المستحم ثيابه لا يضمن الحافظ على ذلك[٦١]، ويرى الحنفية أن مَنْ سرق في حمام يقطع[٦٢]، وفرقوا بين السرقة في الليل أو في النهار؛ فمَنْ سرق ليلاً يقطع، أما المالكية والشافعية فيرون أن مَنْ سرق شيئًا من آلات الحمام أو من ثياب الداخلين يقطع إذا كان دخله للسرقة لا للاستحمام، أما مَنْ سرق الحمام من بابه، أو دخله مغتسلاً فسرق لم يقطع[٦٣]. وهناك رأي يقول أن الثياب في مسلخ الحمام إذا سرقت والحمامي جالس في مكانه مستيقظ فلا ضمان عليه، وإن نام أو قام من مكانه ولم يجعل أحدًا مكانه ضمن، ومن واجبات الحمامي الحفظ اذا استحفظ[٦٤].

ثالثًا: استخدام النورة لإزالة الشعر في الحمامات

النورة هي حجر الكلس وتطلق على أخلاط من أملاح وزرنيخ وهي مزيل قوي للشعر[٦٥]، وترد بقصة ذات بعد يبدو خياليًا، فقد روي عن الرسول (ﷺ) أن أول مَنْ وضعت له النورة ودخل الحمام النبي سليمان بن داود ويربطون القصة ببلقيس التي كانت كما يزعمون "شعراء" أي ذات شعر في جسمها وسال عما يذهبه فقالوا له: الموسى، فلم يستسغه لأن أثره قبيح لذا عملت الشياطين "كذا" النورة[٦٦]، فاستعملتها وذهب الشعر، ولا نشك أن اغلب الممارسات والأفعال الحياتية قديمة، لكن قصص نشوئها ترتبط لدى الكتاب بأصول دينية أو تاريخية، فكان عمر ابن الخطاب رجلاً أهلب وكان يحلق شعر جسده الزائد بالنورة فقال "النورة من النعيم"[٦٧].

والصاروج هو النورة وأخلاطها في اللغة وتصهرج بها الحياض والحمامات[٦٨]، وقد تكون بيوت النورة ترجمة لما ورد في السنة النبوية المطهرة في الحث على استعمالها[٦٩]، وتناول الفقهاء الاطلاء بالنورة وراوا أنه يجوز للمرأة دون نزاع لأنه من باب الزينة وهذا مأمور به للزوج[٧٠]. وفضلاً عن استعمالها الذي ذكرنا فإن لها أغراض تستخدم في بناء الحمامات، وسد مسامها لحفظ المياه[٧١]. وقد تحرق النورة الجلد خاصة عند عدم معرفة الكميات التي توضع منها أو في الخطأ في تركيب موادها، فيذكر أن أعرابيًا دخل ابناه الحمام فحرقت جلدهما النورة فقال:

نهيتهما عن نورة أحرقتهما   وحمام سوء ناره يتسعر[٧٢]

ويتكون خليط النورة من أجزاء فأجزاء من النورة تخلط مع الزرنيخ معا "يؤخذ من النورة جزأين ومن الزرنيخ جزأين ويطلى بهما مع قليل صبر مجعول فيهما فيحلق في الحال، وان جعل من النورة أَجزَاء أَكثر وَمن الزرنيخ أقل كان أعدل، وإن زيدت النورة كان أبطأ عملا إلا انه يعمل[٧٣]".

أما معالجة مَنْ أحرقته النورة فتكون بسرعة غسلها مع استخدام دهن الورد، وبعد إتمام الغسل بالماء الحار يجلس في الماء البارد، ويوضح ابن القوصوني[٧٤] طرائق إزالة الشعر وهما الموسى والنورة ويشير إلى النورة المطفاء البيضاء وخلطها مع الزرنيخ الأصفر ثلاثة أجزاء؛ ويستخدم ذلك عند أول دخول الحمام في بيت الحمام البارد، ثم يمكث المستحم حتى يرى أثر النورة ثم يغسل البقايا بالماء البارد أو الفاتر، ويبدوان استخدام النورة يحدث رائحة غير طيبة فيستخدم آنذاك الطين الأرمني[٧٥] لإزالة الرائحة.

الممزوج بماء الورد وأطيان أخرى مع السعد[٧٦] والورد، وفي حال أحرقت النورة الجلد لطول مكثها عليه يدهن الموضع بدهن الورد والبنفسج، ولا شك أن الوصفات التفصيلية التي يوردها ابن سينا وسواه قد تكون موجهة للطبقة العليا التي بإمكانها استخدام طرق لمواد متنوعة للعناية بالجلد أو أنها لمجرد الترف والتمتع والتميز قد تكون ذات كلفة عالية.

وتذكر المصادر وجود خلوات خاصة في الحمامات تسمى "خلوة النورة" خاصة بإزالة الشعر من الجسم، وتسمى "بيت النورة" أو "مقصورة النورة"، وكان المحتسبون يشرفون أحيانًا على تركيب هذه المادة للنظر في نسب النورة إلى الزرنيخ لكي لا تتجاوز الحد المسموح به مما يؤدي إلى أضرار في الجلد، وفي وصف لاحد حمامات الإسكندرية ويعرف بـ: "حمام عطية" وجود دهليز به مصطبة يسار الداخل وخلوة "برسم الطلاء" بها حوض يغلق على باب خشب، أما حمام العياشي في الإسكندرية أيضًا

ففيه اربع بيوت لإزالة الشعر، أما الحمامات الدمشقية فكان بعضها يشتمل على مقصورة النورة، وكان بيت النورة يشتمل على مقصورة النورة، ويتكون بيت النورة عادة من جزئيين صغيرين بأحدهما محلول النورة، والثاني لسكب الماء بعد أن يدهن المستحم جسمه بخليط النورة والزرنيخ(٧٧).

وقد عرف عن الجاحظ بكتاباته الساخرة مع تصويره لناس مجتمعه في أحوالهم المختلفة ومنها البخل، فيذكر عن بخل رجل يدعى صالح بن عفان وما كان يفعله محاولا تفادي دفع مبالغ قليلة مقابل اطلاء جسمه بالنورة، ويذكر مجيئه كل سحر، فيدخل الحمّام، فإذا غاب الحمامي عن إجّانة النورة، مسح عانته وأرفاغه(٧٨)، ثم يتستر بالمئزر ثم يقوم فيغسله في غمار الناس، ثم يجيء في مثل تلك الساعة في مرة أخرى، فيطلي ساقيه وبعض فخذيه، ثم يجلس ويتزر بالمئزر، فإذا وجد غفلة غسله، ثم يعود في مثل ذلك الوقت فيمسح قطعة أخرى من جسده، فلا يزال يطلّي في كل سحر حتى يستطيع طلي كل ما يريد دون أن يدفع مالاً.

وكان هذا نفسه يقول لابنه ألا يعطي لصاحب المعبر أو صاحب الحمام طسوجا(٧٩)، بكامله بل يطلب منه أن يعطيهم ثلاثة أفلس ولا يردهم.

رابعًا: التستر والتكشف في الحمامات

إن سيسيولوجيا العلاقة بين الإنسان والحمام يمكن أن تكون بأوجه متعددة منها كون الحمام فضاء لعلاقته بجسده، وبحاجة الجسد إلى النظافة وكذلك بلقاء وحميمية الإنسان بالإنسان أو الجسد بالجسد الأخر، فالحمام أكبر من أن يكون فضاء للاغتسال فقط والعبور من النجاسة الطهارة ومن المدنس إلى النظافة بمعناها الروحي، فهو نقطة تقاطع للمقدس بالدنيوي والاجتماعي بالثقافي والاقتصادي بالديني(٨٠).

تشكل القواعد الفقهية قاعدة للسلوك الاجتماعي في الحياة اليومية في مختلف مفاصلها، فالفقهاء يتدخلون في تفاصيل صغيرة تصل إلى النصيحة بدخول أي من القدمين أولاً، أو ماذا يتكلمون عند شروعهم في أي عمل عادي، ولا تشذ الحمامات كمكان عام عن هذه القواعد التي لها بعد وتأثير في الأعراف والسلوك الاجتماعيين، وإذا كان الفقهاء يتناولون موضوعات مثل ضياع الثياب فيها انو انزلاق مستحم بحجر أو بأرضية الحمام ومَنْ يتحمل أضرار ذلك، أو الشعر الساقط في الجمام ونوعه اهو من الرأس أو مكان أخر من الجسم، ومدى نجاسته أو طهارته، فإن موضوع التعري وكشف العورات يأخذ حيزًا كبيرًا من اهتمامهم مستندين إلى أحاديث نبوية شريفة أو إلى سلوك المسلمين الأوائل في هذا المجال، فقد روي عن عبد الله بن عمر انه دخل الحمام مترزا فرأى رجالاً عراة فوضع يده على عينيه ثم خرج ولبس ثيابه، وذهب ثم أمر صاحب الحمام بإخلائه ممن فيه فاغتسل وحده(٨١)، ورغم أن العري تاريخيًا كان جزءًا من سلوك ديني سابق للإسلام حيث كان الطائفون بالكعبة "كانوا يطوفون بالبيت عراة، وهم مشبكون بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون"(٨٢)، ويفسر ذلك في التخلص من الآثام، حيث أن الثياب قبل الطواف كانت مشاركة للطائفين في الإثم(٨٣)، فإن هذا السلوك لم يكن يُنظر إليه بعد الإسلام إلا أنه سلوك غير سوي ويجب منعه، حتى في الحمامات التي تستوجب نزع الثياب فيها للاغتسال، فكان التكشف موضوعًا لفتاوى الفقهاء الذين منعوه بشدة.

ولا يقتصر التكشف في الحمامات على جنس دون أخر، بل يخص النساء والرجال على حد سواء، وسواء كان الناظر رجل لرجل أو امرأة لامرأة، في إشارة واضحة إلى ممارسات غير معلنة أو انجذاب مثلي يتم التحذير منه بصورة صارمة، ونعلم أن اغلب حمامات الرجال يمكن أن نجد من ضمن أدواتها المآزر التي يؤتزر بها على الوسط لغرض تغطية العورات، أما النساء وجسدها فجميعه عورة، ولا تتحدث المدونات عن كيفية تغطية أجساد النساء، وهل كانت تأتزر بقطعتين مثلاً، لكن القواعد الفقهية تكون أطر رسمية للسلوك لا نعلم مدى الالتزام بها حرفيًا، إن الإشارات العملية بالنسبة للرجال على الأقل تشير إلى عدم تطبيقها وهذا ما نجده مدونًا لدى بعض الرحالة الذين دخلوا إلى الحمامات ووجدوا أبنائها لا يلتزمون بهذه القواعد، أما بالنسبة للنساء فالأرجح أنه لا يختلف عن حال الرجال.

ومن الطبيعي أن يختلف الالتزام بالأوامر الفقهية بين الأشخاص بحسب التزامهم الديني الذاتي أو خوفهم من المحتسبين أو تساهل الحمامين الذين قد يكون من أهدافهم كسب الزبائن بقدر تطبق أوامر المحتسب، ومع وجود إشارات إلى غضب الولاة والمحتسبين على مثل هذا السلوك، فقد يكون ذلك مجرد أمثلة إلى عدم التزام طويل بالأمر ويتعلق الأمر أيضًا بشخصية المحتسب أو الحاكم أو الوالي ومدى التزامه الديني، كذلك يتعلق الأمر بمعرفتنا هل أن المآزر كانت تؤجر لوحدها أم أنها من ضمن خدمة الحمامات، كذلك تعود الأشخاص الداخلين من الحياء من عدمه، أو أن مجرد عدم الاعتياد هو السبب، فقد حكي عن أحد الذين ينوبون في القضاء في بغداد وكانت به دعابة، دخل الحمام دون مأزر فبلغ القاضي ذلك فظنه إنما فعل ذلك لفقره فبعث له ميأزر كثيرة لكنه أعاد

الأمر ثانيةً، وعندما سال عن ذلك أجاب بأن نفسه يضيق من المأزر[٨٤]، وما ذكر ورغم أنها قد تكون طريقة غرضها الفكاهة إلا أنها توضح أن البعض يأتي بمآزره معه وهذا مالا يتحقق دائمًا إلا لموسرين.

إن أداء الصلوات والفرائض الدينية تفترض نظافة كاملة وغسل وجوبي بكيفيات محددة بحالات الجنابة وسواها، ولا تصح الطقوس دون طهارة، ويبدو الاغتسال هدفًا لأداء واجبات دينية مؤكدة، أما أن يُنظر إليه كمكان للتعري مع هجاء الحمام في بعض المصادر فيتقاطع مع الهدف الرئيس للحمام وهو الطهارة. وقد روي عن الأمام علي "عليه السلام": "بئس البيت الحمام، يُنزع فيه الحياء، ولا يقرأ فيه آية من كتاب الله"[٨٥]، ويبدو أنه بإسناد منقطع، وروي في الأخبار "أن الحمام بيوت الشياطين" ومما قيل في ذمه أيضًا "بئس البيت الحمام، يهتك الأستار ويذهب الوقار، ويؤلف إلى الاطياب الأقذار[٨٦]"، وتبدو كفة الذم راجحة في موازنة تدعو للتأمل بين كونه مكانًا متساوق مع أهداف دينية واجبة كالأغسال المندوبة كغسل الجمعة والجنابة أو دنيوية كالتخلص من الأوساخ بعد العمل البدني مثلاً، وطبقًا لما ذكر من موجبات فإنه يستحق المدح.

لكن الحمام يبقى حتى في لاوعي الإنسان المسلم مرتبطًا بالأبعاد السلبية فيترادف مع الفجور لدى مفسري الأحلام، فمَنْ أصاب في الحمام ماء حار فإنه يصيب هم، وإذا اتخذه موضعًا فإن الذي يحلم بذلك يفجر بامرأة وتصيبه فضيحة جراء ذلك، لأن الحمام هو مكان كشف العورة، وإذا بُنى حمامًا فإنه يأتي الفحشاء ويشنع به[٨٧].

بين كتب التاريخ العام والرحلات نجد أن الأولى تتناول موضوعنا بما يصدره الخلفاء والأمراء من تعليمات تخص الحمامات أو ما يحصل فيها من فسق يؤيد وجهة نظر كراهية الحمامات، ففي العام ٣٩٧هـ أمر الحاكم بأمر الله الفاطمي بمنع دخول الحمامات في القاهرة على الناس إلا بعد لبس مأزر وتشدد في ذلك وهوجمت الحمامات ومَنْ لم ينفذ الأمر تم تأديبه والتشهير به.[٨٨] وفي زمن المقتدي (٤٦٧/٤٨٧هـ) أمر الوزير الوزير بمنع ما سُمي بـ "المفسدات" والتي كان أحدها دخول الحمامات دون مأزر ومنع الحمامين من إجراء ماء الحمامات إلى نهر دجلة، وأمرهم بحفر آبار تجمع فيها ماء الحمامات[٨٩]، في خطوة تبدو متقدمة للاهتمام بالبيئة. وكان الشيخ أو الحسن الحريري[٩٠] قد عرف عنه الزندقة والاستهزاء بأوامر الشرع رغم أنه زعيم مجموعة صوفية عرفت بـ "الحريرية"، فقد شوهد في الحمام ومعه صبيان دون مأزر وعندما سُأل ما الذي يفعله، وإيغالاً في فجوره، أجاب السائل هل تعجب من هذا فقط، وأمر الصبيان أن ينبطحوا على وجوههم مما جعل السائل يهرب من الحمام وقد تملكه العجب.[٩١] أما ما يذكره المقدسي عن مشاهداته في بلاد المغرب، فإنه أخذ عليهم دخول الحمامات دون مأزر[٩٢]، إن إشارات الرحالة توضح أمرًا قد يكون مألوفًا وربما لم يهتم جميع الرحالة به وقد يكون أهمله بعضهم لحساسيته، لكن المقدسي يشير إلى أهل شيراز في وصفه لعاداتهم التي رأها سيئة ومنها تكشفهم في الحمامات أيضًا[٩٣]، أما ابن بطوطة[٩٤] فإنه أخبر قاضي إحدى البلدات في مصر تدعى "منية أبي خصيب" بأن أهلها لا يتسترون في الحمام مما حدا بالقاضي جمع ضامني ومكتري الحمامات في البلدة وأخذ التعهدات اللازمة بعدم فعل ذلك، وكأنه لم يكن يدري حتى يأتي غريب ليخبره بذلك.

خامسًا: النساء وأهل الذمة والحمامات

إذا رأينا أن ثمة تحفظات على الرجال على دخول الحمامات فكيف يكون الأمر في دخولها للنساء؟ لاشك أنه يكون أشد فإذا كانت عورة الرجل من السرة إلى الركبة، فإن المرأة يكاد يكون جسدها كله عورة... " المرأة الحرة: فجميع بدنها عورة، إلا الوجه والكفين، وبه قال مالك وفي أخمص قدميها وجهان عند الخراسانيين، وقال الثوري: وأبو حنيفة (قدمها ليس بعورة) وقال داود، وأحمد: (جميع بدنها عورة، إلا الوجه)[٩٥]، ولا يسمح الشرع بدخول المرأة الحمام إلا أن تكون بها علة، ففي حديث "إِنَّهَا سَتُفْتَحُ لَكُمْ أَرْضُ الْعَجَمِ، وَسَتَجِدُونَ فِيهَا بُيُوتًا يُقَالُ لَهَا الْحَمَّامَاتُ، فَلَا يَدْخُلَنَّهَا الرِّجَالُ إِلَّا بِالْأُزُرِ، وَامْنَعُوهَا النِّسَاءَ إِلَّا مَرِيضَةً أَوْ نُفَسَاءَ" لأن إباحته لهن يكون ذريعة لهن لدخوله غير مؤتزرات فهو مكروه، وفي حديث عن عائشة "أيُّما امرأةٍ وضعَتْ ثيابَها في غَيرِ بَيتِها، فقد هتَكَتْ ما بَينَها، وبَينَ اللهِ عزَّ وجلَّ"[٩٦]، وكتب عمر بن الخطاب إلى أهل الشام أن يمنعوا نساءهم من دخول الحمامات مع نساء النصارى ويفسر الأمر بكراهية اطلاع نساء أهل الذمة على عورات المسلمين؛ لأن نساء أهل الذمة لسن بثقاه على شيء من أمور المسلمين فلا يؤمن أن تصف الذمية المسلمة لزوجها الذمي وكانه يشاهدها[٩٧].

وفي سنة (٤٠٥هـ) منع الحاكم بأمر الله الفاطمي النساء من الخروج من المنازل أو الخروج إلى الحمامات، ويُقال إنه قتل عددًا من النساء لم يلتزمن بالأمر وهدم حمامات عليهن[٩٨]. وثمة تعليلات طريفة للمنع، فالنساء لا يستحي بعضهن من بعض وينكشفن وينظر بعضهن إلى بعض حتى عن الأجنبيات فضلاً عن القريبات. وأما البنت مع الأم أو مع الجارية وأمثالهما فلا

تتستر حتى في البيت فضلاً عن الحمام، وهو ما يشاهد في الحمامات ولا تتزر إلا نساء السلاطين أو الأمراء ولا يسمحن هؤلاء باتزار العاميات ويطردنهن من الحمام إن فعلن[٩٩]، ولا يمكن تعميم وجهة النظر هذه لكنها وجهة نظر فقيه متأخر اسمه القاري، إلا أنها ربما كانت مشاهدة في مكان وزمان معينين، وقد تكون في هراة وجوارها في خراسان (تقع ضمن أفغانستان حاليًا) وهي مكان نشأة القاري، إلا أن ما ذكره يمكن عده مسوغًا للمنع.

ويقترح ابن الحاج إقامة حمامات في البيوت[١٠٠]، ويعجب من شخص يشتري دارًا بالألف وليس به حمام ويتوضأ بطست ولا يعمل موضعًا للوضوء فضلاً عن موضع الغسل، وإذا أصابته جنابة يخرج المتحفظ على دينه إلى الحمام ويترك أهله على ما هم عليه من الجنابة ويرى أن ترك المرأة للصلاة بسبب الجنابة يقع وزرها عليه، ولو طلبت الزوجة من القاضي موضعًا للغسل لحكم لها به، ويستدرك أنه يفضل عمل خلوة في البيت من مبلغ الصداق، فحمام البيت بارد مقارنة بالحمام العمومي، ويشير إلى عدم أحقية الرجل بوطأ المرأة بعد غسلها إلا بوجود ماء يكفيها[١٠١]. ويرى المكناسي[١٠٢] أن السلطان يمكنه منع النساء من دخول الحمام، بل يضربهن على ذلك، ومن حقه تأديب صاحب الحمام إذا سمح للنساء بدخوله فإن الحمام للرجال برأيه شرط التستر، ويروي عن شيخه ابن عبد السلام[١٠٣] أن بعض مَنْ له النظر الشرعي أمر الحمامين باتخاذ أزر للنساء كما هو للرجال فصارت النساء تتضارب بالأزر على وجه اللعب فصارت المصلحة زيادة في المفسدة. وقد تفسد اجارة الحمام إذا لم يدخله الرجال والنساء متستري، وسال سحنون[١٠٤]، عن ستر المرأة في الحمام فقال تستر جميع جسدها[١٠٥]، ونجد بعض الآراء المغايرة عما ذكر أنفًا فلا صحة لمنعهن والدليل دخول النساء الحمامات في جميع البلدان، وأن حاجتهن للحمام أكثر من الرجال لحاجتهن للزينة أكثر من الرجال، كذلك قدرة الرجل على الاغتسال في الأنهار والحياض وعدم قدرة النساء على ذلك[١٠٦].

واذا التفتنا إلى أهل الذمة والحمامات الإسلامية نجد شروطًا وضعها الفقهاء على دخولهم، وأوامر صدرت بالشروط المطلوبة لذلك ولا نظنها كانت متواصلة، فقد تصدر في زمن وقد تنفذ، أو لا تنفذ خصوصًا في البلدان التي كان أهل الذمة يمثلون نسبة غير قليلة من السكان، فاشترط فقهاء أن يدخلوها بكيفية تميزهم عن المسلمين، وأفردت لهم أحيانًا حمامات خاصة بهم ووضعت على حمامات النصارى الصلبان وعلى حمامات اليهود العلامة الخاصة بهم[١٠٧]، ولا يمكن الجزم أن هذا الأمر كان مطبقًا في جميع البلدان وقد يكون طبق في مصر وفي المدن الكبيرة منها ذات التنوع الديني الواضح.

وقد تصدر توجيهات دخول الحمامات الخاصة بأهل الذمة ضمن أوامر أخرى، منها ما صدر في العام (٨٣٠هـ) عندما نودي على أهل الذمة أن يصغروا عمائمهم وأن لا يدخلوا حمامات المسلمين، ومَنْ دخل منهم يضع في رقبته جلجل أو طوق من حديد إلى أشياء أخرى اخترعها المحتسب، لكنهم ضجوا من ذلك ورفضوا، ورفع أمرهم إلى السلطان وتم التداول مع القضاة الذين قرروا عدم دخولهم الحمامات إلا بخيط في الرقبة ويكون فيه خاتم من حديد ورصاص[١٠٨]، وفي وقت آخر أمر الأمير يلبغا السالمي، أن لا يدخل اليهود والنصارى الحمامات إلا وفي أعناقهم أجراس وكتب على بطريك النصارى إشهادًا بذلك[١٠٩] لكنهم سعوا في إبطال الأمر سعيًا مجدًا وكبست عليهم الحمامات وضرب جماعة من المخالفين فامتنع جماعة منهم عن دخول الحمامات[١١٠].

ومن الحمامات التي يذكر أن اليهود والنصارى لا يدخلونها حمام الصوفية في القاهرة[١١١]، ولا يعرف هل أنهم ممنوعون من دخوله أم انهم لسبب ما لا يدخلونه والسبب الأول أكثر ترجيحًا.

عاش أسامة بن منقذ[١١٢] في شيزر وأماكن أخرى معاصرًا لجزء من الحروب الصليبية وكتب سيرته في جزء سماه (الاعتبار) الذي يُعَدّ من أولى كتب السيرة الذاتية في التدوين العربي، وتكمن قيمتها في تناولها للمسكوت عنه في تاريخ الحروب الصليبية، سواء طبيعة حياة الإفرنج في المشرق العربي، أو ما كان يجري في دهاليز القوى الإسلامية المتصارعة، مع تناوله لموضوعات تتناول التفاعل العربي الصليبي آنذاك كالفارس الفرنسي، الذي أعجب بفكرة حلاقة شعر الأعضاء التناسلية في الحمام العربي، فطلب من الحمامي أن يحلق له عضوه ثم أحضر له زوجته في اليوم التالي ليحلق لها، تلك التفاصيل التي يخطئ البعض باعتبارها مجرد "طرائف"، بينما هي تدوين وحفظ دقيق لجوانب أخرى من التفاعل العربي الأوروبي، قل أن تضمنتها كتابات تلك الفترة.[١١٣]

إن أسامة بن منقذ كان ينظر إلى الأمور من زاوية ثقافته الإسلامية وتقاليده العربية، فيشير إلى ما دعاه "انعدام الغيرة" لدى الفرنجة، وكان لوالده في معرة النعمان حمام عام يديره شخص اسمه سالم وكان سالم يشد في وسطه مئزرًا، فدخل إفرنجي الحمام ولاحظ ما فعله سالم من حلاقة لجسده وعانته تحديدًا، فأعجب بذلك وطلب منه أن يحلق له ذلك، والأمر إلى هذا الحد عادي، حيث كان الحمامين يقومون بذلك أحيانًا، إلا أن

الإفرنجي طلب منه أن يحلق لزوجته وجاء بها في الغد ليقوم سالم بمهمة الحلاقة بعد تكشفها له[١١٤]. وفي أثناء جلوسه يومًا في إحدى الخلوات قال له سالم أن في الحمام امرأة، وأنكر أسامة ذلك، وبعد أن تأكد من ذلك ظهر أن فارسًا صليبيًا جلب معه ابنته إلى الحمام، وعند سؤال أسامة له عن ذلك تعلل الإفرنجي بأن أمها ماتت عن قريب وجلبها إلى الحمام معه هو لتغتسل[١١٥].

خَاتِمَةٌ

إن تتبع ملامح السلوك الاجتماعي تاريخيًا في جوانب من مفاصل الحياة الهامشية في العصور الإسلامية يمكنه إلقاء الضوء على بعض الجوانب الخفية من هذا السلوك، فالحمامات وطقوس الاستحمام ترتبط بوثاقة مع أوامر دينية بضرورة التطهر مع مخاوف من تعر لا يجوز عرفًا وفقهًا، ومع التعري يرتبط الحمام بجوانب دنيوية بعضها جمالي وفني ومنها ما عُرف من وضع تماثيل فيه ورث بعضها من عهود وثنية كالحمامات الرومانية وانتقلت إلى الحمامات الإسلامية، كذلك ما وضع فيه أحيانًا من ستور وصور نقشت بعض جوانبه فيه كالحمامات الأموية في قصر عمرة وقصر المفجر والتي اشترط بعض الفقهاء عدم الدخول في مثل هكذا حمامات أو أن الداخل إليه يقوم بكسر التماثيل إن وجدت لكي يصح له شرعًا الدخول.

ومن جهة أخرى يرتبط رمي الملابس للاستحمام بمشابهة التعري عند الغسل بعد الموت، ومع الراحة من الدرن والنجاسة عند الاغتسال فإن مشهد الضوء الخافت وأصداء الصوت في الحمامات توحي بالخوف والرهبة، وهنا نجد تداخلاً عجيبًا في ثنائيات متناقضة ككل جوانب الحياة، وتتزاوج فيها النواهي الدينية والشهوانيات الدنيوية. إن جوانب عدة يمكن تتبعها في هذا المجال منها مدى توفر ما يتم الاستتار به في الحمامات ومشكلات الإيقاد بالعذرة لتسخين المياه في تناقض أخر مع الطهارة المفترضة وأراء الفقهاء في دخان الحمامات في تفصيلات فريدة لفقهاء المسلمين في مختلف الجوانب الحياتية.

إن الحمامات وأبنيتها ذات التاريخ الطويل من التجربة تكاد تكون من حيث ترتيب حجراتها ذات نسق متشابه يتدرج الداخل إليه من الحجرة الباردة إلى الدافئة ثم الحارة، ولا اختلاف في هذا الشأن بين بلد مسلم وغير مسلم، إلا أن اختلافًا فيما يمكن أن يكون في داخله، فالتماثيل الموجودة داخل الحمام لا يقرها الشرع الإسلامي، أما التجرد التام من الثياب أمام الأخرين للنساء والرجال على السواء فهو محرم شرعًا، وقد لا يكون الأمر مهمًا في بلدان أخرى.

يمكن الإشارة إلى الاختلافات بين ما يجري في الواقع وبين متطلبات الفقه الصارمة، حيث أن الأمور لم تكن دائمًا تسير بمثالية متقنة، فالواقع يفرض في أحايين كثيرة وقائع لا يمكن الإيفاء بمتطلباتها. فنجد أن الحمام في عصور متأخرة كان مسرحًا للقاءات اجتماعية متنوعة وطقوس منها مناسبات الزواج، حيث يذهب العريس أو العروس مع أصدقاءه وأصدقائها إلى الحمام، أو تخصيص أيام محددة من الأسبوع إلى الحمام لاغتسال النساء، فيكون المكان مقرًا لتجمعات اجتماعية تجري فيها الاجتماعات التي قد تؤدي إلى رؤية فتيات فيه مما يفضي إلى زيجات.

ويمكننا أيضًا ملاحظة أن الحمامات تكون مجالاً للعمل حيث يضم الحمام مجموعة من المهن منها "المدلك أو الدلاك" و "المزين" ورغم أنها مهن عُرفت بأنها في نظر البعض مهن غير عالية المستوى إلا أن عددًا غير قليل من الناس كان يكسب عيشه منها. وفي مجال عمارة الحمامات فإن شروطًا معينة كانت تفرض عليها منها قلة الشبابيك أو انعدامها والتي تطل عليه أو انزواء مدخله لغرض عدم إتاحة الفرصة للمتطفلين بالنظر إلى داخله، وكذلك لا نشك في أن مهارات خاصة كان من الضروري أن تكون متوفرة في بناء الحمامات التي يشترط ارتفاع قبابها لأغراض خاصة.

إن إيصال المياه للحمامات كان في الغالب من الأنهار القريبة إن وجدت، أو من القنوات التي عُرفت في بلاد الشام بـ "القساطل" وهي أقنية فخارية. ويمكننا ذكر أن الحمامات كانت مكانًا لتجميع الفضلات القابلة للاشتعال، لذا فنجد أن لها ميزة التخلص من هذه الفضلات عن طريق استخدامها كوقود. ونذكر هنا أيضًا ارتباط بعض الحمامات بالجوامع والمدارس العامة، حيث إن هذه المؤسسات كانت وقفية حيث ترتبط النظافة بالحمامات من جهة ولا تصح الصلاة دون نظافة أيضًا.

وتوصي الدراسة بأن موضوعًا في الحمامات قد يمكن دراسته في هذ المجال وهو استخدامات الحمام الطبية في العصور الإسلامية، حيث تناول العديد من العلماء الذين كتبوا في الشأن الطبي والصحي أهمية الحمامات في العلاج لبعض الأمراض وحذروا من دخوله لمرضى آخرين.

الهَوامِشُ:

(١) أباظة، رحاب عبد المنعم: "**التطهر في مصر القديمة، أصل فكرته المقدسة**"، مجلة دراسات في آثار الوطن العربي، العدد ١٨، ٢٠٠٥م، ١٠٧.

(٢) سلطان، الدكتورة عز سعد: **الاختبار النهري في حضارة العراق القديم**.http: //www.dar-ein.com .

(٣) حمد، د. إبراهيم حسين، ورياض محمد الجبوري: **الحمامات في العراق القديم في ضوء المصادر المسمارية والمكتشفات الأثرية**، مجلة دراسات في التاريخ والآثار العدد، ٥٩، ٢٠١٧م، ٤٢١.

(٤) الترميذا علاء النشمي: **أسطورة الماء في الأديان، فكرًا وطقسًا**، /www.mandaeanunion.org.

(٥) الغزالي الطوسي أبو حامد محمد بن محمد (ت: ٥٠٥هـ): **إحياء علوم الدين**، دار المعرفة، بيروت، د . ت، ١٣٠/١.

(٦) الغزالي، **إحياء**، ٣٤٠/٢.

(٧) الزَّبيدي محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض (ت: ١٢٠٥هـ): **تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية. د.ت ،١٣/٣٢.

(٨) مجموعة مؤلفين: **موجز دائرة المعارف الإسلامية**، تحرير: م. ت. هوتسما، ت. و. أرنولد، ر. باسيت، ر. هارتمان الأجزاء (أ) إلى (ع): إعداد وتحرير: إبراهيم زكي خورشيد، أحمد الشنتناوي، عبد الحميد يونس الأجزاء من (ع) إلى (ي): ترجمة، نخبة من أساتذة الجامعات المصرية والعربية المراجعة والإشراف العلمي: أ. د. حسن حبشي، أ. د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ، أ. د. محمد عناني، مركز الشارقة للإبداع الفكري ط١، ١٩٩٨م، ٧٧٤/٢٢.

(٩) ديورَانت، ويليام جيمس، (ت: ١٩٨١م): **قصة الحضارة**/ تقديم: د: محيي الدّين صَابر، ترجمة: الدكتور زكي نجيب محمُود وآخرين، دار الجيل، بيروت، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٩٨٨م، ٣٢٨/١٠.

(١٠) بهنسي، عفيف: **جمالية الفن العربي**، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ١٤، ١٩٧٩م.، ١٤٠.

(١١) عثمان، محمد عبد الستار: **المدينة الإسلامية**، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد، ١٢٨، ١٩٨٨م، ٢٢٢.

(١٢) مجموعة مؤلفين: **الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي** نقلاً عن: موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي للمكتبة الشاملة، أبو سعيد المصري، ١١/١٦.

(١٣) **أنطاكية**: هي قصبة العواصم من الثغور الشامية، وهي من أعيان البلاد وأمهاتها، موصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهواء وعذوبة الماء وكثرة الفواكه وسعة الخير. ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (المتوفى: ٦٢٦هـ): **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م، /١ ٢٦٧.

(١٤) **افامية**: مدينة حصينة من سواحل الشام وكورة من كور حمص بنى سلوقس في السنة السادسة من موت الإسكندر اللاذقية وسلوقية وأفامية وباروًا، وهي حلب. ياقوت الحموي، **معجم**، ٢٢٧/١.

(١٥) بهنسي، **جمالية الفن العربي**، ١٤٠.

(١٦) محمد بن طلحة المعتضد باللّه أبو العباس ابن أبي أَحمد الموفق باللّه ابن المتوكل ولد في سنة ٢٤٢ه أيام جده وتوفي في سنة ٢٨٩ه. الصفدي صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله (ت: ٧٦٤هـ): **الوافي بالوفيات**، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠م، ٢٦٤/٥.

(١٧) الصابئ هلال بن المحسن بن إبراهيم بن هلال الحراني، أبو الحسين، أو أبو الحسن (ت: ٤٤٨هـ): **رسوم دار الخلافة**، تحقيق: ميخائيل عواد، دار الرائد العربي، بيروت، ط٢، ١٩٨٦م، ١٨.

(١٨) المصدر نفسه، ١٦.

(١٩) أحمد بن بويه بن فناخسرو بن تمام، معز الدولة: من ملوك بني بويه في العراق. فارسي الأصل، مستعرب. كان في أول أمره يحمل الحطب على رأسه، ثم ملك هو وأخواه (عماد الدولة) و(ركن الدولة) البلاد. وكان أصغر منهما سنا، ودام ملكه في العراق ٢٢ سنة إلا شهرا. وتوفي ببغداد، الزركلي، **الأعلام**، ١٠٥/١.

(٢٠) أبو شجاع فنا خسرو عضد الدولة ابن ركن الدولة البويهي أول مَنْ خطب له بعد الخليفة ببغداد كان فاضلاً محبًا للفضلاء توفي ببغداد ٣٧٢ه. ابن خلكان بو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر البرمكي الإربلي (ت: ٦٨١هـ): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت ط، الجزء: ١ - الطبعة: ٠، ١٩٠٠ الجزء: ٢ - الطبعة: ٠، ١٩٠٠ الجزء: ٣ - الطبعة: ٠، ١٩٠٠ الجزء: ٤ - الطبعة: ١، ١٩٧١ الجزء: ٥ - الطبعة: ١، ١٩٩٤ الجزء: ٦ - الطبعة: ٠، ١٩٠٠ الجزء: ٧ - الطبعة: ١، ١٩٩٤، ١٧٦/١.

(٢١) **هلال الصابئ (٣٥٩ - ٤٤٨ هـ)** هلال بن المحسن بن إبراهيم بن هلال الصابئ الحراني، أبو الحسين، أو أبو الحسن: مؤرخ، كاتب، من أهل بغداد. كان أبوه وجده من الصابئة، وأسلم هو في أواخر عمره. وكان قد تعلم الأدب وهو على دين آبائه. وولي ديوان الإنشاء ببغداد زمنا، الزركلي، **الأعلام**، ٩٢/٨.

(٢٢) الصابي، ٢١.

(٢٣) زيادة، د. خالد: الخسيس والنفيس، **الفئات في المدن الإسلامية** www.hekma.org.

(٢٤) الحسناوي، عبد الرحيم، "**جاك لوغوف ومفهوم غير اعتيادي للعصر الوسيط**"، مجلة المعرفة، دمشق، السنة الحادية عشرة، العدد، ١٢٩، ٢٠١٨م.، ص١٤٠.

(٢٥) الهمذاني بديع الزمان أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى (ت: ٣٩٨هـ): **مقامات بديع الزمان الهمذاني**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة الأزهرية، ١٩٢٣م، ٢٢٣.

(٢٦) **حلوان**: مدينة عامرة ليس بأرض العراق بعد الكوفة والبصرة وواسط وبغداد وسر مَنْ رأى أكبر منها وهي بقرب الجبل، وربما يسقط الثلج بها الثلج ومياهها كبريتية. **معجم البلدان**، ٢٩١/٢.

(٢٧) نجد ارتباطاً بين مهنة الحلاق والمهن الطبية في الغالب وحتى عهود قريبة، حيث كان الحلاق حتى أوائل القرن العشرين يقوم بعمليات جراحية صغرى، مثل الختان وقلع الأسنان وبعض العمليات الأخرى، وربما يستخدم موسى الحلاقة ذاتها كمشرط، أما ما أشار إليه من أن يكون قليل الفضول فإن بعض الصفات تلتصق بأهل المهن ويشيع ذلك في أذهان العامة، وقد يعرف عن الحلاقين كثرة كلامهم، فيذكر المنفلوطي عن حلاق ثرثار يتكلم بإفراط عن موضوعات الحرب والسياسة، وكانت من موضوعات القراءة في الابتدائية العراقية ستينيات القرن الماضي. المنفلوطي، مصطفى لطفي: **النظرات**، المطبعة الجمالية، مصر، ط٢، ١٩١٣م، ٣٣٩.

(٢٨) الخضير، عبد الكريم بن عبد الله بن عبد الرحمن بن حمد الخضير(الشارح) مؤلف الأصل: مالك بن أنس الأصبحي المدني (ت: ١٧٩هـ): دروس مفرغة من موقع الشيخ الخضير على المكتبة الشاملة. **شرح الموطأ**. موقع الشيخ الخضير، https: //shkhudheir.com ، ١/ ١٦٩.

(٢٩) ابن عبد السلام أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي الملقب بسلطان العلماء (ت: ٦٦٠هـ): **قواعد الأحكام في مصالح الأنام**، راجعه وعلق عليه: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٩١م، ٢/ ٧٠.

(٣٠) نفسه.

(٣١) المناوي، عبد الرؤوف، (ت: ١٠٣١هـ): **النزهة الزهية في أحكام الحمام الشرعية والطبية**، تحقيق: د. عبد الحميد صالح الحميدان، الدار المصرية اللبنانية، ط ١، ١٩٨٧م، ٢٥.

(٣٢) ديورانت، **قصة الحضارة**، ٣٢٩/١٠.

(٣٣) الافقهسي، شهاب الدين أحمد بن عماد الشافعي، (ت: ٨٠٨هـ): **القول التمام في آداب دخول الحمام**، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، ط ١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ٩٠.

(٣٤) البقشة عملة برونزية كل ٤٠ بقشة تعادل ريال يمني، أحمد بن عبيد بن ذعر، **اليمن تحت حكم الإمام أحمد**. مكتبة مدبولي د.ت، ٦٨.

(٣٥) القاضي أحمد بن حسين السيانحي، **قانون صنعاء في القرن الثاني عشر**، صنعاء، د.ت، ص٥٤.

(٣٦) العيني، بدر الدين محمود (ت: ٨٥٥هـ): **البناية شرح الهداية**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م، ١١٧/٥.

(٣٧) العيني، بدر الدين محمود (ت: ٨٥٥هـ): **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان**، تحقيق: د. محمود رزق محمود، د. محمد محمد أمين، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٤٧٤.

(٣٨) الشيزري، العدوي عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله، أبو النجيب، جلال الدين (ت: نحو ٥٩٠هـ): **نهاية الرتبة الظريفة في طلب الحسبة الشريفة**، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، د. ت، ٨٨.

(٣٩) سمعت من أحد الأشخاص من أنه رأى من يقوم بالحلاقة لشعر رأس أحدهم أوائل القرن الماضي في إحدى قرى الحلة في العراق بموسى عتيقة وغير حادة ولا ألة لديهم لبريها، وكان الجالس لا يتحرك متحملاً الألم، وعندما أكمل الحلاقة وسالته كيف حالك وهو يحلق لك؟ أجاب: وكانه وضع كوم جمر على راسي لكني تحملت ذلك.

(٤٠) الجويني عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد أبو المعالي، ركن الدين الملقب بإمام الحرمين (ت: ٤٧٨هـ): **نهاية المطلب في دراية المذهب**/ حققه وصنع فهارسه: أ. د، عبد العظيم محمود الدّيب، دار المنهاج، ط١، ٢٠٠٧م، ١٦٨/٧.

(٤١) ابن وحشية، احمد بن علي الكسداني، (ت: ٢٩١هـ): **الفلاحة النبطية**، تحقيق: توفيق فهد، المعهد العلمي الفرنسي، دمشق، ١٩٩٣م، ٧٣٣.

(٤٢) الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ٢٠٩/١.

(٤٣) المصدر نفسه، ٩٩/١.

(٤٤) **العذار**: يقال أخضر شاربه ونبت عذاره يعني بدا شعر لحيته يخرج. الشهاب الخفاجي، **درة الغواص**، ٤٦٩.

(٤٥) المخنث هو الانيث من الرجال وهو المؤنث الضعيف. القادوسي الدكتور عبد الرازق بن حمودة: **أثر القراءات القرآنية في الصناعة المعجمية تاج العروس أنموذجًا**، أطروحة دكتوراه غير منشورة، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة حلوان، ٢٠١٠م.، ٢٣١. الشيزري، نهاية الرتبة، ٨٨.

(٤٦) الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ٣٤٠/٢.

(٤٧) الشيزري، **نهاية الرتبة**، ٨٨.

(٤٨) الافقهسي، ص٩١.

(٤٩) الرطل اثنا عشر أوقية بأواقي العرب، والأوقية أربعون درهمًا وهو نصف من. الزبيدي، تاج العروس، ٧٩/٢٩.

(٥٠) ابن الأخوة محمد بن محمد بن أحمد بن أبي زيد ضياء الدين القرشي (ت: ٧٢٩هـ) **معالم القربة في طلب الحسبة**، دار الفنون، كمبردج، د. ت.، ١٥٨.

(٥١) عبد الحفيظ، محمد علي: **"الضوابط الفقهية لعمارة الحمامات الإسلامية، دراسة تطبيقية على نماذج مختارة من الحمامات في العالم الإسلامي"**، مجلة العمارة والفنون، العدد ١٠، "٢" ربيع ٢٠١٨م. ص٥١٦.

(٥٢) **الاشنان**: هو الحرض، والمحرضة التي يجعلون فيها الاشنان. الانباري، المذكر والمؤنث، ٤٣٥/١. وتغسل به الأيدي على أثر الطعام، وتغسل به الناس الطعام، وشجرته ضخمة لها حطب، وهو الذي به يغسل الناس بعد أكل الطعام. الزبيدي تاج العروس، ٢٧٨/١٨. علي، جواد: (ت: ١٤٠٨هـ): **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، دار الساقي، لندن، ط٤، ٢٠٠١م، ٢٢٢/١٤.

(٥٣) الترمس وزان بندق: حب معروف من القطاني الواحدة ترمسة. الفيومي أحمد بن محمد بن علي ثم الحموي، أبو العباس (ت: نحو ٧٧٠هـ): **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**، المكتبة العلمية، بيروت. د.ت، ٧٣/١.

(٥٤) الزبيدي، **تاج العروس**، ٢٨/ ١١٦.

(٥٥) الوقاد محاسن محمد: **الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية ٦٤٨_٩٢٣هـ، ١٢٥٠ _١٥١٧م**، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م، ١٣٩.
(٥٦) ابن الحاج، أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي (ت: ٧٣٧هـ): **المدخل**، دار التراث د. ط، د.ت، ٢٣٨/٣.
(٥٧) **ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب**، تحقيق: ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٥٥م، ٤٨.
(٥٨) **الصفدي الوافي بالوفيات**، ٦٦/٢٧.
(٥٩) السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت: ٩١١هـ): **الحاوي للفتاوي**، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٤م، ٤٩٩/١.
(٦٠) الدمشقي الشافعي محمد بن عبد الله (أبي بكر) بن محمد ابن أحمد بن مجاهد القيسي، شمس الدين، الشهير بابن ناصر الدين (ت: ٨٤٢هـ): **توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم**، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٩٩٣م، ٦١٥/١.
(٦١) الحنفي أبو محمد غانم بن محمد البغدادي، (ت: ١٠٣٠هـ): **مجمع الضمانات**، دار الكتاب الإسلامي، د. ط، د.ت، ٩١.
(٦٢) قطع اليد في السرقة، قلعجي، محمد رواس: **معجم لغة الفقهاء**، دار النفائس، ط٢، ١٩٨٨م، ٣٦٦.
(٦٣) **الموسوعة الفقهية الكويتية** صادر عن: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت عدد الأجزاء: ٤٥ جزءًا ط: (من ١٤٠٤-١٤٢٧هـ)، الأجزاء ١-٢٣: الطبعة الثانية، دار السلاسل، الكويت، الأجزاء ٢٤-٣٨: ط١، مطابع دار الصفوة، مصر، الأجزاء ٣٩-٤٥: ط٢، طبع الوزارة. ١٦١/١٨.
(٦٤) الرافعي، عبد الكريم بن محمد القزويني (المتوفى: ٦٢٣هـ): **فتح العزيز بشرح الوجيز**، **الشرح الكبير**، وهو شرح لكتاب الوجيز في الفقه الشافعي لأبي حامد الغزالي، دار الفكر، بيروت د.ت، ٣٢٤/٧.
(٦٥) أرشيف ملتقى أهل الحديث، http://www.ahlalhdeeth.com، موقع المكتبة الشاملة، ٢٨٦/٤١.
(٦٦) السيوطي، **الحاوي للفتاوي**، ٤٠٨/١.
(٦٧) ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ): **الآداب والأحكام المتعلقة بدخول الحمام**، تحقيق: أبي سليمان بن محمد بن جادالله، دار الوطن، الرياض، ١٩٩٧م، ص٧٢.
(٦٨) الفراهيدي أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم البصري (ت: ١٧٠هـ): **العين**، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، د.ت، ٤٦/٦.
(٦٩) عبد الحفيظ، **الضوابط الفقهية**، ص٥١٤.
(٧٠) ابن كثير، **الآداب والأحكام المتعلقة بدخول الحمام**، ص٧٢.
(٧١) الفراهيدي، **العين**، ٦ /٤٦.
(٧٢) المحبي، محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين بن محمد الحموي الأصل الدمشقي (ت: ١١١١هـ): **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، دار صادر، بيروت، د.ت.، ٤٤٢/٢.
(٧٣) ابن سينا، الحسين بن عبد الله، أبو علي، شرف الملك (ت: ٤٢٨هـ): **القانون في الطب**، حققه ووضع حواشيه: محمد أمين الضناوي، د.م، د.ت. ٣٤٥/٣.
(٧٤) الحنفي، **مقالة في الحمام**، مخطوطة مكتبة المصطفى، الورقة: ١٠.
(٧٥) منسوب إلى أرمينية، وهو الطين الأحمر، ويستعمل في الأدوية.• ابن الصلاح عثمان بن عبد الرحمن، أبو عمرو، تقي الدين (ت: ٦٤٣هـ): **شَرحُ مشكِل الوَسِيطِ**، تحقيق: د. عبد المنعم خليفة أحمد بلال، دار كنوز إشبيليا، المملكة العربية السعودية، ط١، ٢٠١١م، ٢٣٦/١.
(٧٦) نبات من الفصيلة السعدية التي تضم أكثر من ٦٠٠ نوع، وينتشر في بلاد الشام ومصر والعراق ومصر والمغرب وحوض المتوسط، وبعض أنواعه ينتج درنا حلو المذاق ويستخدم في علاجات طبية، ويستخدم في تأخير نمو الشعر. (مجلة رؤى، RUOAA.COM). مقال، **قدرة نبات السعد في إيقاف نمو الشعر**.
(٧٧) عبد الحفيظ، **الضوابط الفقهية**، ٥١٣.
(٧٨) الارفاغ هي المغابن. الجوهري، **منتخب من صحاح الجوهري**، تنبيه: هذه -فقط-مواد منتخبة من الصحاح للجوهري، فهناك مواد بكاملها لم تُذكر، والمذكور فيه اختصار، ثم رُتِّبت على أوائل أصول الكلم (كترتيب المصباح المنير) وأصل الكتاب (صحاح الجوهري) ضمن كتب المكتبة الشاملة، الغالب أن هذه نسخة إلكترونية لا توجد مطبوعة، ٦٤٦.
(٧٩) (الطسوج: حَبَّتان. والدانِقُ أربعة طَساسيج) الجوهري أبو نصر إسماعيل بن حماد الفارابي (ت: ٣٩٣هـ): **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٤، ١٩٨٧م.، ٣٢٧/١.
(٨٠) بوشحة، الهادي: "**الحمام الشعبي بتلمسان**"، مجلة إنسانيات العدد المزدوج ٦٣/٦٤، جوان، ٢٠١٤، ص١٤٣.
(٨١) ابن سعد: أبو عبد الله محمد بن منيع الهاشمي البصري، البغدادي (ت: ٢٣٠هـ): **الطبقات الكبرى**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٠م. ١٥٤/٤.
(٨٢) النيسابوري نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي (ت: ٨٥٠هـ): **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت ط١، ١٤١٦هـ ٣٩٦/٣.
(٨٣) جواد علي، **المفصل**، ٣٥٩/١١.
(٨٤) ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، (ت: ٥٩٧هـ): **المنتظم في تاريخ الأمم والملوك**، المؤلف: تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ط١، ١٩٩٢م.، ٣٦/١٥.
(٨٥) الطّريفي عبد العزيز بن مرزوق: **التحجيل في تخريج ما لم يخرج من الأحاديث والآثار في إرواء الغليل**، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ٢٠٠١م.، ٣٧.

(٨٦) الثعالبي عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور (ت: ٤٢٩هـ): **اللطائف والظرائف**، دار المناهل، بيروت، د. ت، ٨٥.

(٨٧) ابن سيرين محمد "منسوب" (ت: ١١٠هـ): **تفسير الأحلام "منتخب الكلام في تفسير الأحلام"** (مطبوع بهامش تعطير الأنام في تعبير المنام للنابلسي)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ١٩٤٠م، ١٠٧/٢.

(٨٨) الأنطاكي، يحيى بن سعيد بن يحيى (ت: ٤٥٨هـ): **تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة تاريخ أو تيخاء**، حققه وصنع فهارسه: عمر عبد السلام تدمري، جروس برس، طرابلس، لبنان، ١٩٩٠. ص٢٥٧.

(٨٩) سبط ابن الجوزي: شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قِزْأُوغلي بن عبد الله (ت: ٦٥٤ هـ): **مرآة الزمان في تواريخ الأعيان**، تحقيق وتعليق: محمد بركات، وآخرون، دار الرسالة العالمية، دمشق، ط ١، ٢٠١٣م، ٢٩٥/١٩.

(٩٠) الحريري البصري القاسم بن علي بن محمد بن عثمان أبو محمد (ت: ٥١٦هـ): **درة الغواص في أوهام الخواص**، تحقيق: عرفات مطرجي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت ط/١، ١٩٩٨م.

(٩١) الكتبي: محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر بن هارون بن شاكر (ت: ٧٦٤هـ): **فوات الوفيات**، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١، ج: ١ – ١٩٧٣ ج: ٢، ٣، ٤- ١٩٧٤ ، ٧/٣.

(٩٢) المقدسي البشاري أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت: ٣٨٠هـ): **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ١ - ليدن ٢ - دار صادر، بيروت ٣، مكتبة مدبولي القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٩١م، ٢٣٩/١.

(٩٣) نفسه، ٤٢٩/١.

(٩٤) ابن بطوطة محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، أبو عبد الله، (ت: ٧٧٩هـ): **رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)**، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٤١٧هـ. ٢٢٥/١.

(٩٥) العمراني أبو الحسين يحيى بن أبي الخير بن سالم اليمني شافعي (ت: ٥٥٨هـ): **البيان في مذهب الإمام الشافعي**، تحقيق: قاسم محمد النوري، دار المنهاج، جدة، ط١، ٢٠٠٠م. ١١٨/٢.

(٩٦) ابن رشد الجد، أبو الوليد محمد بن أحمد القرطبي (ت: ٥٢٠هـ): **البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل المستخرجة**، تحقيق: د محمد حجي وآخرون: دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ٢، ١٩٨٨م.، ٥٥٠/١٨.

(٩٧) ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين (ت: ٧٥١هـ): **أحكام أهل الذمة** تحقيق: يوسف بن أحمد البكري -شاكر بن توفيق العاروري، رمادي للنشر، الدمام، ط١، ١٩٩٧م. ١٢٤٦.

(٩٨) ابن كثير، **البداية والنهاية**، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٩٨٨م. ٥٥٥/١٥.

(٩٩) القاري، علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي، (ت: ١٠١٤هـ): **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح**، دار الفكر، بيروت، ط، ١، ٢٠٠٢م. ٢٨٤١/٧.

(١٠٠) ابن الحاج، **المدخل**، ١٧٠/٢.

(١٠١) نفسه، ١٧٣.

(١٠٢) ابن غازي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن علي العثماني المكناسي (ت: ٩١٩هـ): **شفاء الغليل في حل مقفل خليل**، دراسة وتحقيق: الدكتور أحمد بن عبد الكريم نجيب، مركز نجيبويه للمخطوطات وخدمة التراث، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م، ٩٤٠/٢.

(١٠٣) العز بن عبد السلام بن أبي القاسم شيخ الإسلام القاهري الشافعي صاحب الشهرة الحسنة والمؤلفات المتقنة ت(٦٦٠هـ)، **الغزي**، ديوان الإسلام، ٢٩٠/٣.

(١٠٤) عبد السلام أبو سعيد، عربي أصله من حمص تعلم بالقيروان كان ثقة حافظاً للعلم مالكي المذهب وإليه انتهت الرئاسة. ولي قضاء إفريقية وتوفي ٢٤٠هـ، ابن فرحون إبراهيم بن علي بن محمد، برهان الدين اليعمري (ت: ٧٩٩هـ): **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**، تحقيق وتعليق: الدكتور محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة، د.ت. ٣٨/٢

(١٠٥) اللخمي علي بن محمد الربعي، أبو الحسن (ت: ٤٧٨ هـ): **التبصرة**، دراسة وتحقيق: الدكتور أحمد عبد الكريم نجيب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط١، ٢٠١١م، ٥٠٣٨/١١

(١٠٦) البابرتي حمد بن محمد بن محمود، أكمل الدين أبو عبد الله ابن الشيخ شمس الدين ابن الشيخ جمال الدين الرومي (ت: ٧٨٦هـ): **العناية شرح الهداية**، دار الفكر، د. ط، د.ت. ٣١/١٠.

(١٠٧) الصنهاجي القلعي محمد بن علي بن حماد بن عيسى، نزيل بجاية، أبو عبد الله (ت: ٦٢٨هـ): **أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم**، تحقيق: د. التهامي نقرة، د. عبد الحليم عويس، دار الصحوة، القاهرة، د.ت. ٩٩. ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ٢٩٤/٥.

(١٠٨) العسقلاني أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر (ت: ٨٥٢هـ): **إنباء الغمر بأبناء العمر** المؤلف: المحقق: د حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية -لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر، ١٩٦٩م ٣٨٢/٣.

(١٠٩) يلْبَغا السَّالِمي (ت.٨١١هـ) يلبغا أبو المعالي السالمي الظاهري الحَنفي: من أشهر أمراء الجند في دولة المماليك "الظاهر" برقوق، ثم ابنه "الناصر". المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي (ت. ٨٤٥هـ): **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ١٠٢٨.

(١١٠) نفسه، ١٤٠٣.

(١١١) نفسه، ١٥٥/٣.

(١١٢) أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني الكلبي الشيزري (٤٨٨ - ٥٨٤هـ)، من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيزر (بقرب حماة)، الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الدمشقي (ت:١٣٩٦هـ): **الإعلام**، دار العلم للملايين، ط ١٥، ٢٠٠٢ م، ٢٩١/١.

(١١٣) وليد فكري، **كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ أول سيرة ذاتية في التاريخ العربي**https: //raseef22.com ٨ يوليو ٢٠١٦.

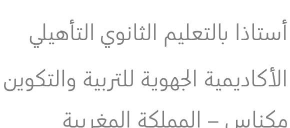
(١١٤) الاعتبار، ١٣٧/١.

(١١٥) نفسه، ١٣٩/١

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

جوانب تاريخية ومعمارية من إغرم بجماعة ايتزار في الأطلس المتوسط





د. سعيد عبيدي
أستاذا بالتعليم الثانوي التأهيلي
الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين
مكناس – المملكة المغربية

مُلَخّص

يمثل المعمار الأمازيغي بالجبال المغربية عامة وبالأطلس الكبير والمتوسط والصغير على نحو خاص صورة لنمط الحياة ومثالاً لتأقلم الإنسان مع محيطه الثقافي والطبيعي. ويتناول هذا المقال جوانب من تاريخ ومعمار إغرم ايتزر بالأطلس المتوسط، وذلك لإبراز إشكالية تأسيس هذا القصر الجبلي، وما عرفه من تطورات تاريخية إلى حدود الفترة الاستعمارية، وذلك لكشف طبيعة العلاقة التي ربطت ساكنته مع القبائل المجاورة من جهة والسلطة الحاكمة من جهة أخرى، بالإضافة إلى تسليط الضوء على نسيجه المعماري، وذلك من أجل التعريف بهذا النمط المعماري الذي تتسم به جبال الأطلس المغربي الكبير والمتوسط والصغير إلى جانب إكودار والمداشر وغيرها من أنماط العمارة الأمازيغية. ومن ثَمَّ محاولة الإجابة على سؤال مركزي: هل قصور الجبال من خلال نموذج إيتزار نسخة طبق الأصل لقصور الواحات أم أن لهذا القصر الجبلي خصوصيات تميزه؟ إن الهندسة المعمارية الدفاعية والمدنية والدينية لإغرم ايتزار التي أصبح معظمها في عالم الدوارس، تشهد على التاريخ العريق للمنطقة وتمثل الذاكرة الجماعية للساكنة المحلية التي يجب نقلها للأجيال الناشئة، لذلك وجب في الزمن الراهن الاستفادة من هذا الإرث والكشف عن أسراره النفيسة التي طالها الإهمال والنسيان، وذلك عبر حمايته وترميمه ورد الاعتبار إليه وتثمينه من خلال تحويل معالمه إلى مزارات يتعرف من خلالها الزائر على مكونات التاريخ المحلي وما يتميز به من خصوصيات اجتماعية وتنظيمية ومعمارية.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١٣	أبريل	٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر:	٢٤	مايو	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:
إغرم؛ ايتزار؛ الأطلس المتوسط؛ المخزن؛ العمارة الأمازيغية؛ التراث

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.167388

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
سعيد عبيدي. "جوانب تاريخية ومعمارية من إغرم بجماعة ايتزار في الأطلس المتوسط".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد الثامن والأربعون؛ يونيو ٢٠٢٠. ص ٥٧ – ٦٤.

Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: abidisaid.said@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

مُقَدِّمَةُ

يمثل المعمار الأمازيغي بالجبال المغربية عامة وبالأطلس الكبير والمتوسط والصغير على نحو خاص صورة لنمط الحياة ومثالاً لتأقلم الإنسان مع محيطه الثقافي والطبيعي، مما جعله يكتسب مهارات متعددة ساهمت في تدبير حياته الاقتصادية والاجتماعية، وكذا تشييد أشكال معمارية بهذه المجالات الجبلية التي كانت دائمة الاتصال مع السهل وفي علاقة مستمرة مع ساكنته، على عكس الكتابات الكولونيالية التي صورت لنا الجبال المغربية بكونها مجالات "للسيبة البنيوية" التي لا تنالها أحكام المخزن، فضلاً عن كونها مجالات وعرة معزولة تقطنها قبائل أمازيغية تعيش في صراع دائم ومستمر مع ساكنة السهول[١].

في هذا المنحى، تحاول هذه المقالة المعنونة بـ "جوانب تاريخية ومعمارية من إغرم بجماعة ايتزار بالأطلس المتوسط" تسليط الضوء على بعض الجوانب المرتبطة بالموقع الجغرافي لهذا المجال وما يتسم به من خصوصيات طبيعية، علاوة عن التطرق لأهم الأحداث التاريخية التي كان مسرحًا لها منذ تأسيسه وجعلته يكتسب مناعة وقوة تجلت بوضوح مع التسرب الاستعماري بالمنطقة الذي عمل على تكييف سياسته لمواجهة قوة الجبال ومناعتها[٢].

كما تروم هذه الورقة البحثية كشف العوامل المتحكمة في تشييد إغرم التابع لجماعة ايتزار بالأطلس المتوسط وظروف الاستقرار به وإبراز أهم المحطات التاريخية التي شهدها مجال تعميره، فضلاً عن كشف السمات المعمارية والخصائص العمرانية لإغرم، وذلك من أجل التعريف بهذا النمط المعماري الذي تتسم به جبال الأطلس المغربي الكبير والمتوسط والصغير إلى جانب إكودار والمداشر وغيرها من أنماط العمارة الأمازيغية، وإبراز مختلف مكوناته المتمثلة في الدور السكنية "تدارت" ومدخل القصر الرئيس، المسمى "باب نعلي"، وممراته، فضلاً عن الساحة العمومية "ترحبات" والأبراج الركنية والسور المحيط به، مع الإشارة كذلك إلى مواد البناء وتقنيات التشييد لهذا المعمار الأصيل. ثم أخيرًا رصد الوضعية الراهنة المتدهورة لهذا القصر وتتبع آليات تثمينه عبر صيانته وإنقاذه من الاندراس ورد الاعتبار إليه، وكذا جعله موردًا في التنمية إلى جانب التراث الطبيعي الذي تزخر به جماعة ايتزار القروية.

وقبل التطرق للمحاور المرتبطة بهذه المساهمة، تجب الإشارة إلى أن "إغرم" مصطلح أمازيغي واسع الانتشار في مجال جغرافي يشمل مناطق الأطلس والجنوب الشرقي[٣]، ويتخذ هذا المصطلح عند بعض القبائل صيغة المؤنث "تغرمت"، فيقصد به في هذه الحالة المنزل الكبير ذي الغرف المتعددة والتي تتألف في بعض الأحيان من عدة طبقات يخصص بعضها لخزن المواد وغيرها، بينما نجد صيغة المذكر "إغرم" يرتبط معناها بالقرية المحصنة التي يقابلها اسم القصر الذي تم تشييده على طول أودية واحات زيز واغريس ودرعة وغيرها من الواحات التي تتميز تجمعاتها السكنية ببنيانها المتراص المتجمع المحصن بسور أو سورين لا يفتحهما على الخارج سوى باب رئيس كبير يقوم بحراسته حارس دائم[٤]. مما يبين الوظيفة الدفاعية لإغرم من أجل توفير الأمن والحماية للساكنة المستقرة فيه، دون إغفال الوظيفة الاستقرارية والمناخية التي اضطلع بها إغرم على غرار القصور الواحية بمنطقة تافيلالت وغيرها[٥].

أولاً: موقع إغرم بجماعة ايتزر

يقع إغرم؛ موضوع هذه الدراسة؛ بمركز جماعة ايتزر القروية التي تنتمي إداريًا إلى إقليم ميدلت بجهة درعة تافيلالت، ويحد هذه الجماعة شمالا جماعة تمحضيت وجنوبًا جماعة زايدة وجماعة تانوردي، وأما من جهة الشرق فيحدها جماعة ايت بن يعقوب وغربًا جماعة واد إفران (سوق الحد) وجماعة سيدي المخفي (سيدي عدي). وتبلغ مساحة جماعة ايتزر حوالي ٣٤٠ كيلومتر مربع[٦]، كما تبعد عن الطريق الوطنية رقم ١٣ الرابطة بين مدينتي مكناس والريصاني بخمسة كيلومترات بالمركز المعروف باسم "والغ"، وتبعد عن مدينة ميدلت بحوالي ٤٨ كلم عبر الطريقة الوطنية رقم ١٣، ويبعد مركز ايتزر عن مدينة خنيفرة التي كانت تنتمي لإقليمها قبل سنة ٢٠١٤ بحوالي ١٢٠ كلم. (الخريطة رقم ١).

وأما من الناحية القبلية فتعتبر منطقة ايتزار مهد قبيلة اركلاون[٧] ايت عبدي، حيث تحيط بها قبيلتي آيت علي اوغانم بقرية اكريسف وآيت يحيى اوعبي ببومية جنوبا وقبيلة آيت يوسي ببولمان شمالاً، وقبيلتي زيان وآيت عرفة غربًا وشرقًا قبيلة آيت ايزداك بميدلت[٨].

ومن الناحية الطبيعية فيقع ايتزر بحوض ملوية العُليا في منطقة عبور؛ تربط بين مرتفعات الأطلس المتوسط شمالاً وجبال الأطلس الكبير جنوبًا[٩]؛ مكونة أراض ممتدة على سفوح جبال الأطلس المتوسط على علو ١٦٠٠م عن سطح البحر، وفي منطقة تجمع بين طبيعة غابوية مكونة من أشجار الأرز الذي يشغل مساحة تقدر بـ ٩٣١٣ هكتار والبلوط الذي تقدر مساحته ب ٥٥٥٦ هكتار وغيرهما من الأشجار في المرتفعات[١٠]، وأخرى

شبه صحراوية كلما ابتعدنا عن الغابات المشكلة لغطائها النباتي(١١).

والجدير بالإشارة إلى أنه رغم كون المنطقة تتسم باختلاف درجة الحرارة نتيجة سيادة النطاق شبه الجاف، حيث تقل التساقطات المطرية عن ٣٠٠ ملم سنويًا(١٢)، فإن موضع ايتزر يتميز بوجود ثروة مائية تتمثل في وادي ايتزر الذي يصب بواد ملوية، والعيون مثل "عين باحماد"، فضلاً عن السد التلي بآيت الحاج(١٣).

ثانيًا: تسمية ايتزار

إن محاولة الوصول إلى الدلالة الطوبونيمية لتسمية إغرم "ايتزار" من خلال محاولة تأصيل هذا الاسم عبر النظر في رسم الكلمة وأصولها الاشتقاقية من الناحية اللغوية كما وردت في معاجم اللغة وقواميسها من جهة، وعبر مقاربة الجوانب الدلالية ذات الحمولة التاريخية والثقافية والاجتماعية من جهة ثانية سيسعف؛ ولا شك؛ في كشف بعض القضايا الملغزة المرتبطة بإشكالية تأسيس إغرم "ايتزار" بالأطلس المتوسط، وكذا العوامل الفاعلة في ظهوره وتداوله، وذلك لأن الأسماء الجغرافية لا توضع اعتباطًا، وإنما تترجم تفاعل الإنسان مع محيطه ليصبح الاسم بمثابة رمز لامتلاك المسمى وحيازته(١٤). إضافة إلى أن أسماء الأماكن متصلة بالتعرف على تاريخ المجال المدروس وتطور هندسته المعمارية وثقافة ساكنته، حيث إن اسم المكان؛ في الغالب الأعم؛ لا يكون فعلاً فجائيًا أو اعتباطيًا، وإنما فعل قصدي يمتح جذوره من الثقافة المهيمنة على ساكنة ذلك المجال خلال فترة زمنية معينة(١٥).

في هذا السياق، تجب الإشارة إلى أن رسم كلمة ايتزار في الوثائق المخزنية كان يكتب "إدزر" كما يظهر من خلال ظهير سلطاني إلى سكان ايتزار سنة (١٢٧٧هـ/ ١٨٦٠م) في عهد السلطان محمد بن عبد الرحمان بن هشام (١٨٥٩-١٨٧٣م)(١٦)، بينما في الوثائق المحلية العدلية أو غيرها من الوثائق التي بحوزة ساكنة ايتزار نجدها برسم "ايتزر"، وذلك ما يتضح انطلاقا من وثيقة الصلح الذي تم "أمام قاضي فاس عبد الهادي الصقلي الحسني بين السيد مولاي عبد الرحمان عثمان وابن عمه سيدي محمد بن عبد الله" في ٠٦ رمضان عام (١٣٠٨هـ/١٨٩٠م)(١٧).

وقد أرجع أحد الباحثين هذا الاختلاف في كتابة الاسم إلى اللكنة والنطق المحلي لدى ساكنة ايتزار، حيث إن سكان ايتزار يتقنون اللغتين الأمازيغية والعربية، ولا غرو في ذلك، إذا علمنا أن مجموعة من أسماء الأماكن والأعلام وغيرها تكتب بشكل لغوي صحيح وتتم قراءتها من قبل العامة بشكل مختلف يؤدي في غالب الأحيان إلى رسمها من قبل المستمع الذي يروم كتابتها مرة ثانية بطريقة يشوبها لحن لغوي رغم قربها من الرسم الأول(١٨). وفيما يتعلق بأصل تسمية ايتزار والدلالة التي تحملها فنجد أن هناك ثلاث روايات تتكامل في دلالاتها ومعانيها رغم اختلافها في أصل الكلمة وجذرها اللغوي.

الرواية الأولى نجدها عند الباحث محمد الإسماعيلي الذي يذكر أن سبب تسمية ايتزار كما ذكر الباحث محمد الاسماعيلي يرجع إلى تشييد الزاوية به "من طرف أهلها لتكون منارة تعج بشعاع العلم، يأتيها طلاب العلم من مناطق بعيدة، كالريصاني وقصر السوق وكلميمة وأرفود، اذكر منهم الإخوة: مولاي العربي العلوي رحمه الله والأخ سيدي علي بالفلاح بالرشيدية، والأخ مصدق مولاي العربي بميدلت، والسيد مولاي أحمد الرتبي، والسيد الفقيه أو مدان بميدلت رحمه الله، واللائحة طويلة. وذلك لتلقي العلم، وحفظ كتاب الله والتبرك بأوليائها الصالحين رحمة الله عليهم. ويحكى أنه مرت بالبلدة قافلة من المسافرين، وشاهدوا ولمسوا من أهلها طباعا ومعاملة طيبة وأخلاقًا جد عالية وعلامات ربانية قل نظيرها. وقال أحدهم لمرافقيه: "هذا ايتزار"، أي المكان الجدير بالزيارة. ومنذ ذلك العهد، بدأت تتوافد القبائل المجاورة على ايتزار لتدوين جميع عقودهم على سنة الله ورسوله. واشترت بعض القبائل قطعا أرضية اتخذتها مقبرة لها تيمنا وتبركا بأولياء ايتزار الصالحين أسكنهم الله فسيح جنانه"(١٩).

وأما الرواية الثانية فلا زالت متداولة لدى الساكنة المحلية، إذ تذكر الرواية الشفهية أن أصل رسم كلمة ايتزار وتسميتها يرجع إلى كلمة زيارة "أزور مكان ما" التي تنطق بالأمازيغية "أد زورغ "، واعتمادا على هذا الرسم الأمازيغي وضع البعض فرضية اشتقاق اسم "إدزر" من هذا الفعل، وفيما يخص الرواية الثالثة فتتمثل في تسمية سكان ايتزار من قبل بعض القبائل المجاورة بأهل الزيارة التي تعني بالأمازيغية "آيت أوزار" ومنها اشتقت تسمية ايتزار وأخذت معناها(٢٠).

يتضح من خلال تجميع هذه الروايات والموازنة بينها هيمنة الحقل المعجمي المتحور حول ألفاظ الزيارة والمزار والزائر الذي يقصد مكانا محددا تحقيقا لأغراض ومقاصد متصلة بالتواصل والتثاقف وصلة الرحم واجتلاب البركة وطلب العلم والمعرفة، وهو ما تؤكده الوقائع التاريخية التي عرفتها منطقة ايتزار من خلال كونها شكلت محجا لمجموعة من الطلبة الوافدين من تافيلالت والأطلس الكبير لتلقي العلوم الدينية.

ثالثًا: التطور التاريخي لإغرم بايتزار

٣/١-التأسيس:

يواجه الباحث في تاريخ تأسيس إغرم ايتزار عدة صعوبات ترتبط جلها بغياب إشارات في المصادر التاريخية إلى الفترة الزمنية التي تكونت فيها النواة الأولى لهذا النمط من العمارة الأمازيغية، غير أن محاولة البحث في أصول ساكنة ايتزار والاعتماد على بعض النتف التي تقدمها الوثائق المحلية والمخزنية وبالاستناد إلى الرواية الشفهية رغم تضاربها، من شأنه أن يدلل بعض العقبات المرتبطة بإشكالية التأسيس.

في هذا الاتجاه، نجد بعض الروايات الشفوية ترجع بناء إغرم ايتزار إلى فترة حكم الدولة الإدريسية للمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط، حيث تذكر هذه الروايات المتداولة محليا أن أجداد أهل ايتزار المنحدرين من جدهم عثمان، دفين بلدة آند، قدموا من الشرق إلى المغرب بعد مجيء ادريس الأول واستقراره بوليلي، فأخذ شرفاء ايتزار الأدارسة يتنقلون ويختفون في الهضاب والسهول حتى استقر المقام بجدهم عثمان بجبل يسمى جبل الغيم على قمم جبال العياشي على رأس وادي امدغرة المعروف بوادي زيز[٢١]. ومقابل هذه الروايات نجد رواية اخرى تذكر أن أهل آند أصلهم دغوغيون جاؤوا من منطقة الساقية الحمراء واستقروا في المنطقة[٢٢].

ورغم طابع الغرابة الذي تتسم به هذه المحكيات الشفوية، وكذا غياب ما يعززها في المصادر التاريخية، فإن ما يمكن الاستفادة منها هو أن أصل إغرم ايتزار يرجع إلى أحد الشرفاء الأدارسة المسمى عثمان بن الحسن من قبيلة سيدي بوموسى التي كانت تحصى ضمنها ساكنة منطقة ايتزار إلى حدود سنة ١٩٧١، وذلك في إطار مجموعة سيدي بوموسى[٢٣]، إذ إن هذا الأخير الذي ينتمي إلى سيدي حمزة المنتسب للقرن العاشر الهجري الموافق للقرن السادس عشر الميلادي يرجع له الفضل في بناء واحة تيشوت التي لا زالت تستقر بها إلى يومنا هذا قبيلة آيت تيشوت، وتقع هذه القرية في الشمال الغربي لايتزار[٢٤] وتمثل النواة الأولى للمنطقة، لذلك يمكن أن يصطلح عليها من المنظور التاريخي "ايتزار القديم" ومن المنظور الجغرافي "ايتزار العليا".

وإذا كان هناك اختلاف حول الفترة التاريخية التي تم خلالها تعمير مجال ايتزر والاستقرار وتشييد إغرم به من لدن الساكنة، فإنه لا اختلاف بين الرواية الشفوية والوقائع التاريخية من كون تأسيس إغرم بمركز ايتزار جاء بعد تأسيس قرية تيشوت التي تعتبر الموطن الأول لاستقرار أهل ايتزار بالمنطقة، وكذلك النواة الأصلية لإغرم الحالي، لذلك لا غرابة أن تنحدر منها قبيلة آيت سيدي بوموسى التي استقرت بايتزار فيما بعد.

وفيما يرتبط بعوامل تشييد إغرم ايتزر، فنجد أن العامل الطبيعي إلى جانب عوامل أخرى ساهمت بشكل كبير في تأسيس معمار إغرم سواء في نواته الأولى "تيشوت" أو في موضعه الحالي بهذا الموقع المتميز بتحصينه الطبيعي عند قدم جبال الأطلس المتوسط الجنوبي، وكذا في موضع يتسم بوفرة المياه الضرورية للحياة، إضافة إلى ما تزخر به المنطقة من أشجار كثيفة تم توظيفها من لدن السكان في تسقيف دورهم السكنية، واستعمال هذا الخشب كألواح للبناء بالطابية (التراب المكوك)، علاوة عن استخدام حطب الغابة للتدفئة خلال فصل الشتاء الذي يتميز بتساقطاته الثلجية.

ما يمكن استنتاجه في هذا السياق أن اختيار بناء وتأسيس إغرم ايتزار في هذا المجال الجغرافي جاء خلاصة لكل متطلبات الاستقرار وتلبية لحاجة ملحة من لدن الساكنة المحلية تتمثل في بناء مجتمع ذي وحدة تنظيمية وتضامنية تضم داخل أسوار إغرم عددا من الأسر تتفاعل اجتماعيا وسياسيا، وهي متطلبات أدركها الإنسان الذي يعيش في مثل هذه المجالات الجبلية المتسمة بقساوة ظروفها الطبيعية على غرار منطقة إيتزار.

٣/٢-جوانب من التطور التاريخي لإغرم ايتزار:

لا شك أن تصفح بعض المصنفات التاريخية وما تضمنته من نتف قليلة يبين أن هذا المجال قد حظي بمكانة متميزة من قبل السلطة المركزية، وخير دليل على ذلك تصنيف إغرم ايتزار في عهد السلطان المولى اسماعيل (١٦٧٢-١٧٢٧م) ضمن القصبات الاسماعيلية من لدن صاحب "كباء العنبر من عظماء زيان وأطلس البربر"[٢٥]، وذلك نقلا عن صاحب "البستان الظريف في دولة أولاد علي الشريف" الذي ذكر أن "عدد القلع التي بنى اسماعيل بالمغرب، ستا وسبعين قلعة"[٢٦].

بعد تأسيس إغرم ايتزار واعتماد ساكنته على النشاط الفلاحي أساسا، فإنه إذا كانت العلاقة مع السلطة المركزية تتسم بالتعاون والانفراج كما تشهد على ذلك مجموعة من الظهائر السلطانية والوثائق المخزنية التي من بينها الرسالة التي بعثها السلطان محمد الرابع (١٨٥٩-١٨٧٣م) إلى شرفاء قبيلة آيت سيدي بوموسى بايتزار وذلك بتاريخ ١٤ ربيع الأول عام ١٢٧٧هـ/ ٢٩ شتنبر ١٨٦٠م[٢٧]، وكذا نسخة من ظهير السلطان محمد بن يوسف (١٩٢٧-١٩٦١م) إلى قبيلة آيت سيدي بوموسى بايتزار والذي تم تحريره سنة ١٩٤٧م[٢٨]، فإن علاقة سكان إغرم

ايتزار مع القبائل المجاورة أو الوافدة على المنطقة تميزت بالمد والجزر.

في هذا السياق، نجد أنه بعد توافد عدة قبائل أمازيغية وعربية على مجال ايتزار عرفت المنطقة مع بداية القرن السابع عشر الميلادي مجموعة من الصراعات مع قبائل أنصاف الرحال من أجل البحث عن مجالات جديدة للرعي قصد امتلاكها، وقد انتهت هذه النزاعات والتنقلات في نهاية القرن التاسع عشر بسيطرة قبيلة إركلاون التي تنتمي لبني مكيلد على المجال الذي يحيط بايتزار[٢٩].

والجدير بالإشارة إلى أن النزاعات والصراعات في هذا المجال لم تهدأ إلا بعد حركة السلطان الحسن الأول (١٨٧٣-١٨٩٤م) إلى منطقة ملوية العليا سنة ١٨٨٨م، والتي كان من بين أهدافها وضع حد للصراعات على المراعي التي تعرفها المنطقة، مما جعل السلطان يسيطر على إغرم ايتزار ويقوم بتعيين قائد عليها[٣٠]. وبالإضافة إلى تدخل السلطة المركزية لحل الصراعات على المجال الرعوي بالمنطقة في بعض الأحيان، فإن ساكنة ايتزار اعتمدت على إصلاح ذات البين لحل نزاعتهم الداخلية فيما بينهم أو الخارجية التي ترتبط بالقبائل المجاورة، كما تشير إلى ذلك وثيقة محلية ترجع لسنة ١٨٩٦م يتعلق موضوعها بالطريقة السلمية المتبعة من لدن الساكنة لتجاوز الخلاف مع قبيلة ايت عثمان[٣١].

وأما في فترة الحماية الفرنسية بالمغرب (١٩١٢-١٩٥٦م)، فإنه بعد سيطرة المستعمر على المنطقة ما بين ١٩١٢ و١٩١٤ أصبح ايتزار مركز عسكري وإداري يمكنها من مراقبة تحركات القبائل المجاورة والسيطرة عليها، وعلى المستوى الجهوي ظل ينتمي مركز ايتزار خلال هذه الفترة إداريا لإقليم مكناس، إذ كان بها خليفة ينوب عن الحاكم الفرنسي وهو السيد مولاي عبد الرحمان احيزون، وبعده تولى الخلافة الحاج سيدي محمد بن بوزيان، والذي كان يعمل تحت امرته قائدان وهما القائد احسين، الذي تولى خلافته ابنه القائد الهواري بقرية بولعجول، والقائد محمد أوميمون بقرية أكرسيف[٣٢].

وغني عن البيان أن المنطقة خلال الفترة الاستعمارية، وبعد نفي أحد زعماء الحركة الوطنية إليها، وهو محمد بن الحسن الوزاني (١٩١٠-١٩٧٨م)، شهد ايتزار حركة علمية خلال أربعينيات وخمسينات القرن العشرين خاصة بعد تأسيس مدرستين حرتين به هما مدرسة الفتح التي كان مديرها بعد التأسيس هو ادريس الطود وبلغ عدد تلاميذها ١١٠ تلميذا، وقد تم افتتاحها يوم ٢٦ مارس ١٩٤٧م بعد تأسيسها من قبل محمد بن علي ومحمد بن بوزيان وملاي عبد الرحمان نايت ايبا، ومدرسة أمير الأطلس التي كان مديرها محمد حجي وبلغ عدد التلاميذ بها حوالي ٨٠ تلميذا[٣٣].

رابعًا: المكونات المعمارية لاغرم ايتزار

يصنف إغرم ايتزر بحكم موقعه الجغرافي ضمن القصور الجبلية التي تتميز عن القصور السهلية باعتمادها على الموقع الوعر تحقيقا للأمن، وإذا كانت القصور الجبلية في الغالب الأعم قد شكلت موطنا للقبائل الرحل من أجل الحماية بهذا النوع من العمارة[٣٤]، فإن إغرم ايتزار رغم تشييده في موضع جبلي شكل استثناء عن القاعدة العامة التي اتسمت بها القصور الجبلية.

وفيما يخص المساحة التي كان يمتد عليها إغرم ايتزار الذي كان يتخذ شكلا هندسيا غير منتظم ليتكيف مع طبوغرافية الموقع الذي شيد عليه ، فقد كانت تقدر بأربعة هكتار وبكثافة سكانية تناهز حوالي ١٢٠٠ نسمة سنة ٢٠٠٣[٣٥]، وفيما يخص النسيج المعماري الذي كان يتكون منه إغرم ايتزار، فإنه على غرار باقي أصناف القصور السهلية والجبلية، ينقسم إلى ملكية مشتركة تتجلى في النظام الدفاعي لإغرم، والمتمثل في الأسوار والأبواب والأبراج، أو في الفضاءات الداخلية من قبيل الشارع الرئيسي والمسجد، فضلاً عن الملكية الخاصة ممثلة في الدور السكنية.

٤/١-النسيج المعماري الخاريجي لإغرم

(٤/١) ١-الأبواب

يتم الدخول إلى إغرم ايتزار من عدة أبواب اختلفت في نوعيتها ما بين أبواب منكسرة وأبواب مباشرة، كما اختلفت في تصميمها ما بين أبواب ذات عقود نصف دائرية وأخرى ذات شكل مستطيل، على غرار مداخل قصور الواحات المغربية، وذلك ما يتضح من صور الفترة الكولونيالية، وكذا من آثار الأبواب التي لا زالت شاخصة إلى الوقت الحالي. واستنادًا إلى الرواية الشفهية فقد كان إغرم ايتزار يتوفر على خمسة أبواب لكل واحد منها مصراع خشبي، ويعلوه برج لمراقبة تحركات كل المتربصين بالمجال الحيوي لإغرم أو من يريدون الهجوم على ساكنته، كما كان لكل برج فتحة ضيقة تطل على حقول المنطقة وتمكن الحارسان بالرج ليلا والمسلحان بالأسلحة التي كانت متواجدة حسب كل فترة تاريخية (التساعيه وبوحبه) والعصي أحيانا، من مراقبة كل التحركات. وأما أسماء هذه الأبواب الخمسة فهي: الباب نعلي، باب ايت لحسن أوحمو، باب نايت القاضي، الباب نيقبلين (أي قبالة)، القادمين من الصحراء، الباب نيحنضار (احنضور هو المنزل)[٣٦].

(٤/أ) ٢-الأسوار والأبراج

كانت تحيط بإغرم ايتزار أسوار من جميع الجهات وتتخللها أبراج للمراقبة والحراسة من خلال توفرها على مرامي لتوجيه السهام أو النيران لكل من يروم الاقتراب من أسوار إغرم من الأعداء، واعتمادًا على بعض الأطلال المتبقية لأسوار إغرم ايتزار يتضح أنها كانت متوسطة الارتفاع، حيث يتراوح علوها ما بين ستة وأربعة أمتار حسب الواجهات الجغرافية، وأما سمك الأسوار فقد كان يتراوح ما بين متر واحد و٠٫٧٠ متر.

ونظرًا لاتخاذ إغرم ايتزار شكلاً هندسيًا غير منتظم فلم نتوصل لتحديد الأبعاد التي كانت تمتد عليها أسواره، وكذا عدد أبراج المراقبة التي كانت تدعم الأسوار وتتخذ معظمها شكلاً هندسيًا مستطيلاً خاصةً الأبراج الركنية التي لها شكل شبه منحرف. وأما مواد البناء التي شيدت بها فهي أساسا التراب المدكوك مع وضع أساس لها من الحجارة، غير أن وجه الاختلاف في هذه الطابية التي شيدت بها إغرم ايتزار مقارنة بالقصور الصحراوية هو وجود نوع من الحصى نتيجة اختلاف مكونات التربة بين المجال الواحي والمجال الجبلي.

٤/٢-النسيج المعماري الداخلي لإغرم

كان النسيج المعماري الداخلي لإغرم ايتزار يتوفر على عناصر معمارية متعددة تتجلى في المرافق الدينية ، وأهمها المسجد الذي اكتسب أهمية تاريخية، حيث كانت تقام فيه صلاة الجمعة ويحفظ فيه الطلبة القرآن ويتلقون فيه العلوم الدينية على يد فقهاء كبار لا زالت الذاكرة الجماعية بايتزار تتداول أسماء كثير منهم مولاي أحمد الفقيه خطاب الذي خلفه الفقيه سيدي عمر[٣٧]، ورغم الغزو الإسمنتي لإغرم ومحوه لآثار المسجد الأصلية عبر تشييد مسجد على أنقاضه بمواصفات هندسية حديثة فإن الرواية الشفهية تذكر أن مسجد إغرم كان عبارة عن تحفة معمارية مصممة بشكل هندسي بديع ومسقفة بالنوع الجيد من خشب أشجار الأرز الذي يتوفر بمجال إغرم.

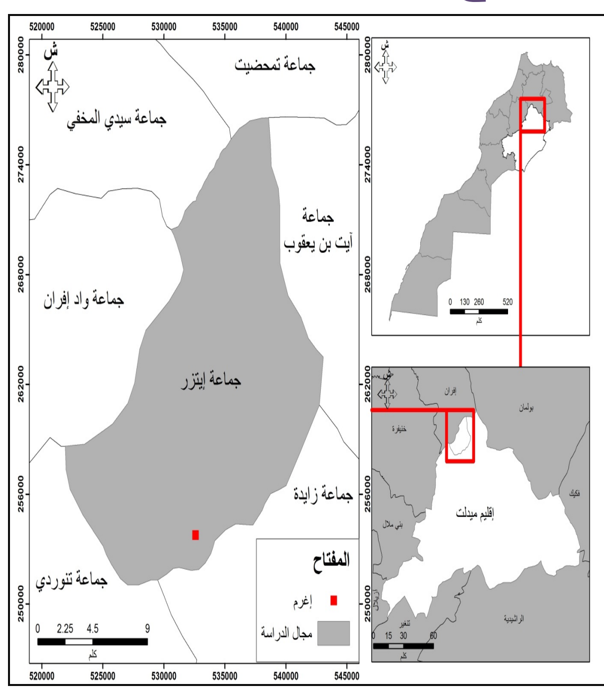
ومن العناصر المعمارية الداخلية بإغرم نجد الشارع الرئيس للقصر والأزقة والدروب الضيقة إضافة إلى الساحة العامة "الرحبة" التي كانت توجد بعد الدخول لإغرم من الأبواب الرئيسية مباشرة. أما الدور السكنية بإغرم فقد عرفت تطورًا كبيرًا منذ تشييده في البداية إلى نهاية القرن العشرين، حيث بلغت حوالي ٤٠٠ منزل، وقد كانت هذه المنازل تضم كثافة سكانية مهمة وسطوحها متلاصقة بعضها ببعض، كما تشترك في العناصر المكونة لها مثل المدخل والسقيفة والحجرة الرئيسة وحجرات خاصة بالسكن وأخرى لتخزين المؤونة.

والجدير بالإشارة؛ أنه رغم التاريخ العريق لإيتزر والأدوار التاريخية التي اضطلعها بها إغرم منذ تشييده واستقرار الساكنة به، فإن معظم نسيجه العمراني في الزمن الراهن أصبح في عالم الدوارس بفعل اكتساح العمارة الاسمنتية لمجاله الداخلي، بالإضافة إلى عدم ترميم أبراجه وأسواره المحيطة به، وكذا الدور السكنية بعد انهيارها نظرًا للتساقطات الثلجية التي تعرفها المنطقة والأمطار الغزيرة خلال فصل الشتاء، وذلك ما تجلى في الأمطار العاصفية التي شهدتها المنطقة يوم السبت ٠٧ فبراير ٢٠٠٩، حيث أسفرت عن انهيار زقاقين سكنيين بإغرم[٣٨] ولم يتم اتخاذ أي خطوة بعدها لرد الاعتبار أو صيانة هذا المعمار الأصيل الذي تعتبر جل منازله آيلة للسقوط كما بينت ذلك دراسة مختصة من قبل مهندسين معماريين منذ سنة ٢٠٠٣[٣٩].

خاتِمَةٌ

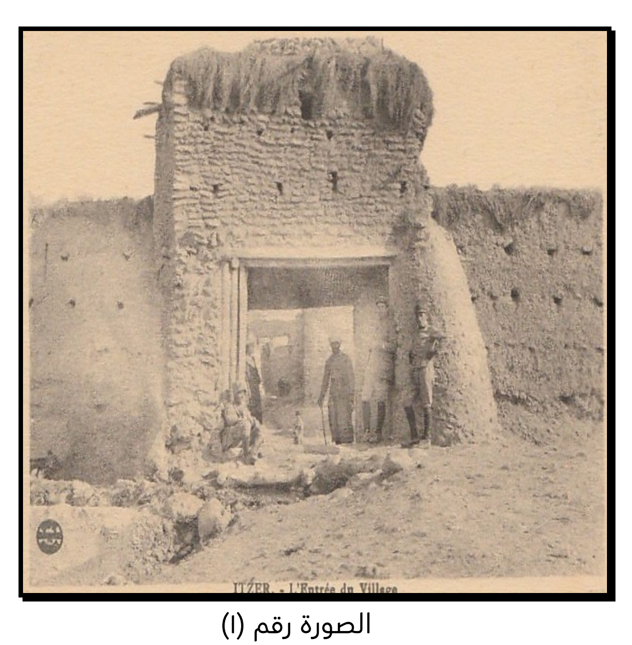
خلاصة القول إن الهندسة المعمارية الدفاعية والمدنية والدينية لإغرم ايتزار التي أصبح معظمها في عالم الدوارس، تشهد على التاريخ العريق للمنطقة وتمثل الذاكرة الجماعية للساكنة المحلية التي يجب نقلها للأجيال الناشئة، لذلك وجب في الزمن الراهن الاستفادة من هذا الإرث والكشف عن أسراره النفيسة التي طالها الإهمال والنسيان، وذلك عبر حمايته وترميمه ورد الاعتبار إليه وتثمينه من خلال تحويل معالمه إلى مزارات يتعرف من خلالها الزائر على مكونات التاريخ المحلي وما يتميز به من خصوصيات اجتماعية وتنظيمية ومعمارية، وذلك لكونه يعتبر أرضية ثمينة لتحقيق التنمية المستدامة محليًا إلى جانب باقي مكونات التراث الطبيعي الذي تزخر به جماعة إيتزار وفي مقدمته أشجار الأرز وغيرها.

الملاحق



الخريطة رقم (١)

توطين مجال الدراسة وطنيًا وإقليميًا ومحليًا



الصورة رقم (١)

باب آيت لحسن أوحمو لإغرم ايتزار سنة ١٩١٨

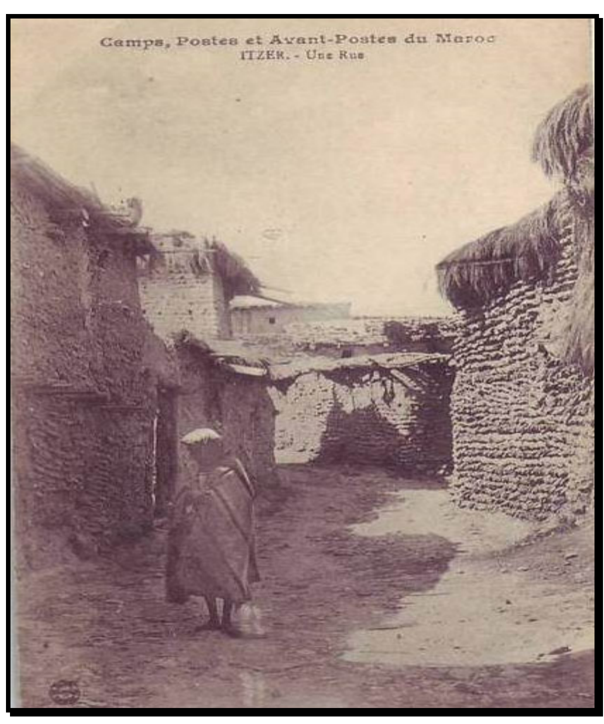
https://www.delcampe.net/fr/collections, le 11/11/2019



الصورة رقم (٢)

جانب من أسوار إغرم ايتزار خلال الفترة الاستعمارية

https://www.delcampe.net/fr/collections, le 11/11/2019



الصورة رقم(٣)

أحد أزقة إيتزار المكشوفة سنة ١٩١٥

2019/11/ le 11https://www.delcampe.net/fr/collections,

الهَوامِشُ:

(١) يراجع: **ندوة الجبل في تاريخ المغرب**، تنسيق وتقديم محمد مزين وعبد الرحيم بنحادة، إنجاز الجمعية المغربية للبحث التاريخي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، سايس-فاس، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ٣، ١٩٩٤، ص. ٤.

(٢) المصطفى فنتير، **جبال الأطلس الكبير والحضور الاستعماري (١٩١٢-١٩١٤)**، ضمن ندوة الجبل في تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، سايس-فاس، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ٣، ١٩٩٤، ص. ١١٨.

(٣) عبد العزيز التوري، إغرم، **معلمة المغرب**، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة، نشر مطابع سلا، ١٤١٠هـ/١٩٨٩، ج. ٢، ص. ٥٣٤.

(٤) م. ن، ص. ٥٣٤.

(٥) بن محمد القسطاني، **الواحات المغربية قبل الاستعمار غريس نموذجًا**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، سلسلة الدراسات والأطروحات رقم ٣، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ٢٠٠٥، ص. ٣٥.

(٦) مشروع مخطط التنمية لجماعة ايتزر، مونوغرافية الجماعة، سنة ٢٠٠٢، ص. ١.

(٧) إركلاون: اسم تحمله قبيلتان أمازيغيتان من مجموعة آيت مكليد، تستوطن الأولى منطقة تمتد من منطقة ملوية العليا وعلى طول الواجهة الجنوبية من الأطلس المتوسط، وتقطن الثانية بالمناطق الممتدة من الجهة الشمالية لهذا الأخير إلى نهاية سهل أزرو المعروف بتيكريكرا. عبد العزيز التوري، إركلاون، معلمة المغرب، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة، نشر مطابع سلا، ١٤١٠هـ/١٩٨٩، ج. ٢، ص. ٣٢٦.

(٨) محمد الإسماعيلي، **ذكرياتي بايتزر**، دون تاريخ الطبع، ص. ٥.

(٩) عائشة البلغيتي العلوي، إتزر، **معلمة المغرب**، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة، نشر مطابع سلا، ١٤١٠هـ/١٩٨٩، ج. ١، ص. ١٣١.

(10) Etude d'aménagement de la forêt domaniale d'Itzer, 2002.

(١١) محمد الإسماعيلي، ذكرياتي بايتزر، م. س، ص. ٥.

(12) Raynal R., «La Terre et l'Homme en Haute Moulouya», B.E.S.M., 1960, Rabat, vol. XXIV, p. 281-346.

(١٣) مشروع مخطط التنمية لجماعة ايتزر، مونوغرافية الجماعة، سنة ٢٠٠٢، ص. ٢.

(١٤) إبراهيم بوطالب، **الصحراء في تاريخ المغرب**، مجلة دار النيابة، العدد السابع، السنة ٢، صيف ١٩٨٥، ص. ٣٢.

(١٥) محمد البركة، **الطوبونيمية والبحث التاريخي: محاولة في تحديد آليات البحث التاريخي**، مجلة كان التاريخية، العدد ٢٤، يونيو ٢٠١٤، ص. ص. ١٢١-١٢٥.

(١٦) ظهير سلطاني إلى ساكنة إيتزار عام ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م، الوثيقة منشورة بتاريخ ٢٦ مارس ٢٠١٥ في صفحة ذاكرة ايتزار.

(١٧) وثيقة صلح بين السيد مولاي عبد الرحمان عثمان وابن عمه سيدي محمد بن عبد الله عام ١٣٠٨هـ/١٨٩٠م، انظر بوابة ذاكرة ايتزار بتاريخ ١١ أكتوبر ٢٠١٤.

(18) http://lmitz.blogspot.com, Kassemi Samir, La mémoire d'Itzer, jeudi 26 Mars 2015.

(١٩) محمد الإسماعيلي، ذكرياتي بايتزر، م. س، ص. ٦.

(20) http://lmitz.blogspot.com, Kassemi Samir, La mémoire d'Itzer, jeudi 26 Mars 2015.

(٢١) محمد الإسماعيلي، ذكرياتي بايتزر، م. س، ص. ٥.

(٢٢) م. ن، ص. ٥.

(٢٣) عائشة البلغيتي العلوي، **إتزر**، معلمة المغرب، م. س، ج. ١، ص. ١٣١.

(٢٤) م. ن، ص. ١٣١.

(٢٥) أحمد المنصوري، **كباء العنبر من عظماء زيان**، تحقيق محمد بن لحسن، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة الكرامة، الرباط، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص. ١١٤.

(٢٦) أبو القاسم الزياني، **البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف**، دراسة وتحقيق رشيد الزاوية، منشورات مركز الدراسات والبحوث العلوية الريصاني (إقليم الرشيدية)، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، الطبعة الأولى، ١٩٩٢، ص. ١٧١.

(٢٧) **ظهير سلطاني إلى ساكنة إيتزار عام ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م**، الوثيقة منشورة بتاريخ ٢٦ مارس ٢٠١٥ في بوابة ذاكرة ايتزار.

(٢٨) **ظهير السلطان محمد بن يوسف إلى قبيلة آيت سيدي بوموسى بايتزار سنة ١٩٤٧م**، انظر بوابة ذاكرة ايتزار الإلكترونية بتاريخ ٢٦ يونيو ٢٠١٦.

(٢٩) عائشة البلغيتي العلوي، إتزر، **معلمة المغرب**، م. س، ج. ١، ص. ١٣١.

(٣٠) م. ن، ص. ١٣١.

(٣١) **وثيقة محلية ترجع لسنة ١٨٩٦**، الوثيقة منشورة بتاريخ ١٧ أكتوبر ٢٠١٤ في بوابة ذاكرة ايتزار.

(٣٢) محمد الإسماعيلي، ذكرياتي بايتزر، م. س، ص. ٥.

(٣٣) جون جيمس ديمس، **حركة المدارس الحرة بالمغرب (١٩١٩-١٩٧٠)**، ترجمة السعيد المعتصم، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٩٩١، ص. ص. ١٤٣-١٤٦.

(٣٤) أحمد مولود ولد أيّده الهلال، **مدن موريتانيا العتيقة قصور ولاتة وودان وتيشيت وشنقيط**، منشورات مركز الدراسات الصحراوية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠١٤، ص. ٣٦.

(35) Etude relative à la stratégie d'intervention et les opportunités d'investissement dans le secteur de l'habitat dans le centre de : Itzer, Ministère délégué charge de habitat et de l'urbanisme, délégation provinciale de Khenifra, Aout 2003, p.p. 27-28.

(٣٦) محمد الإسماعيلي، ذكرياتي بايتزر، م. س، ص. ٦.

(٣٧) م. ن، ص. ١٧. محمد الاسماعيلي، ذكرياتي بايتزر، م. س، ص. ٦.

(٣٨) الكبيرة ثعبان، **كارثة ايتزر التي سكت عنها الجميع**، جريدة الأحداث المغربية، العدد ٣٦٥١، الاثنين ١٦ فبراير ٢٠٠٩، ص.١٩.

(39) Etude relative à la stratégie d'intervention et les opportunités d'investissement dans le secteur de l'habitat dans le centre de : Itzer, op.cit, p. p. 27-28.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

نقود الدولة الزيانية (٦٣٣-٩٦٢هـ/١٢٣٦-١٥٥٤م)
دراسة تاريخية وفنية



رشيد خالدي
أستاذ مساعد قسم (أ)
جامعة باجي مختار
عنابة – الجمهورية الجزائرية

مُلَخَّص

كانت النقود – وما زالت -ترمز إلى السيادة والاستقلال، ومن هذا المنطلق أولت الدولة الزيانية (٦٣٣-٩٦٢هـ/١٢٣٦-١٥٥٤م) اهتمامًا كبيرًا لدار السكة في تلمسان، حيث عملت على توفير كل الظروف والإمكانيات التي تحتاجها دار الضرب بالمدينة خاصة ما تعلق منها بتوفير معدن الذهب والفضة، والاستعانة بخبرة أسرة "بني الملاح" الأندلسية التي أشرفت على جميع مراحل سك النقود الزيانية. تأسيسًا على ما سبق، أصدرت دار الضرب في تلمسان نقودًا ذهبية وفضية ونحاسية كانت تحمل كتابات ونقوشًا مختلفة، وبما أن النقود تُعَدّ بمثابة شاهد على كثير من الأحداث التاريخية، بل إن البعض يعتبرها من أوثق المصادر فيما يخص المادة الخبرية نظرًا لصعوبة الطعن فيها وتزويرها مقارنة بغيرها من المصادر التقليدية، وإلى جانب وظيفتها الاقتصادية المعروفة، كانت صناعة النقود في تلمسان الزيانية تخضع لمراقبة الدولة. تتمحور إشكالية هذه الدراسة البحثية حول عنصرين اثنين: أولاً: مواكبة النقود الزيانية للفترات التاريخية التي مرت بها تلمسان في الفترة موضوع الدراسة، حيث كانت النقود-في محطات عديدة-شاهدًا على هذه الأحداث. ثانيًا: الجانب الفني لسك النقود والذي يمثل شطرًا كبيرًا من عملية الصنع عبر مراحلها المختلفة. وقد أوضحت الدراسة أن نقود الدولة الزيانية كانت تحاكي إلى حد ما -في شكلها ومضمونها - نقود المرينيين في المغرب الأقصى والحفصيين في المغرب الأدنى، وبأن التعامل بنقود دولة الموحدين استمر لفترة محدودة من عمر الدولة الزيانية قبل أن تتمكن هذه الأخيرة من ضرب عملة خاصة بها وفق المعايير والأوزان التي كانت معروفة في المدن الإسلامية.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٢٩	أبريل	٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر:	١٦	مايو	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:
دار الضرب؛ الناظر؛ تقنيات الصنع؛ المعادن؛ الغش في العملة

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2020.167405 DOI

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
رشيد خالدي، **"**نقود الدولة الزيانية (٦٣٣-٩٦٢هـ/١٢٣٦-١٥٥٤م): دراسة تاريخية وفنية".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد الثامن والأربعون؛ يونيو ٢٠٢٠. ص ٦٥ – ٧٧.

Corresponding author: rachid0779210976@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org
Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقَدِّمَةُ

كانت النقود وما زالت ترمز لسيادة الدولة واستقلالها، وعلى هذا الأساس كان سك العملة يعتبر من اختصاص السلطة المركزية، أي إن صناعة النقود تندرج تحت مسمى الحرف والصنائع المرتبطة بالدولة، ولم يكن ذلك مقتصرا على مدينة تلمسان الزيانية وحسب، وإنما كان معروفًا في جميع المدن الإسلامية مشرق ومغربا مما يُعطي انطباعًا أوليًا بأن صناعة النقود كانت على درجة وأهمية بالغة بالنسبة للدولة وهو الأمر الذي أشرنا إليه في ثنايا هذه الدراسة. وحتى تستوفي صناعة النقود في تلمسان الزيانية حقها من الدراسة، ارتأينا في هذا المقام أن نقسم ورقة البحث هذه إلى قسمين، تناولنا في القسم الأول الجانب التاريخي الخاص بأهم المحطات التاريخية لحرفة السك النقدي بالمدينة، ثم تطرقنا إلى الجانب الفني لموضوع هذه الدراسة وذلك من خلال التعرف على تقنيات وأساليب الصنع المعتمدة بدار الضرب في تلمسان في الفترة الزيانية، وهي الدار التي كانت تحت إشراف السلطة المركزية وتتولى إصدار النقود.

تتمثل أهمية موضوع هذه الدراسة في معرفة الخلفية التاريخية للنقود الزيانية من خلال الكتابات التي دونت عليها، ودور أسرة بني الملاح الأندلسية في حرفة السك النقدي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى التعرف على الطرق والتقنيات التي كانت معروفة في دار الضرب في تلمسان وهي الأمور التي كان يسهر على إنجازها حرفيون وصناع اختلفت تخصصاتهم من عمل إلى آخر، وبما أن النقود مصدر لا غنى عنه في توثيق الحدث التاريخي، فإن ذلك من شأنه الكشف عن كثير من الأحداث التاريخية التي عايشتها مدينة تلمسان حاضرة بني زيان، وهي معلومات تكتسي كثيرًا من المصداقية بالمقارنة مع مصادر أخرى لأنه من الصعب أن تتعرض هذه الأخيرة للتزييف والتحوير، وعليه تمثل النقود وعلم النميات (Numismatics) - وهو العلم الذي يختص بدراسة المسكوكات من مختلف جوانبها - رافدا مهما للدراسات التاريخية.

تتمحور إشكالية هذه الدراسة حول عنصرين اثنين؛ أولاً: مواكبة النقود الزيانية للفترات التاريخية التي مرت بها تلمسان في الفترة موضوع الدراسة، حيث كانت النقود-في محطات عديدة-شاهدًا على هذه الأحداث. ثانيًا: الجانب الفني لسك النقود والذي يمثل شطرًا كبيرًا من عملية الصنع عبر مراحلها المختلفة، وعلى ضوء ذلك سنطرح عدة تساؤلات وهي كالآتي:

- تعتبر النقود من شارات الملك والسيادة، فيم تمثلت الإجراءات التي اتخذتها السلطة المركزية في تلمسان الزيانية لإرساء قواعد وأسس حرفة السك النقدي؟
- فيم تمثلت الكتابات والنقوش التي حملتها العملة الزيانية؟ وهل كانت هذه الأخيرة تحمل معان أو دلالات معينة؟
- تعتبر دار الضرب الرئيسة بالمدينة حجر الزاوية في سك النقود، كيف كان يتم العمل فيها؟ وما هي التقنيات والأساليب التي استخدمها السكاكون في هذه الدار؟
- كانت السلطة المركزية طرفًا فاعلاً في صناعة النقود، ورغم ذلك استمرت بعض الأطراف الأخرى في سك عملة مزيفة في كثير من المناسبات مما ألحق ضررًا بالحركية الاقتصادية في المدينة داخليًا وخارجيًا، وعلى ضوء ذلك، ما هي الظروف التي شجعت هذه الأطراف على سك عملة مغشوشة؟ وفي المقابل كيف أمكن التصدي لهذا العمل غير المشروع؟

إن موضوع النقود في بلاد الغرب الإسلامي عامة، ومدينة تلمسان على وجه الخصوص، يتطلب من الباحث أن يقف عند كثير من القضايا المتعلقة بتقنيات الصنع المحلية التي كانت متداولة في دور الضرب، ولعل الدراسة الميدانية وتفحص القطع النقدية سيكون مهمًا لرسم صورة مكتملة عنها، وهي الصورة التي سوف لن تكون كذلك إلا إذا تمكن الباحث من فهم مدلول تلك الكتابات التي نقشت عليها، ذلك أنه وفي جميع الأحوال كانت النقود ترمز إلى فترة تاريخية معينة بملابساتها وتطوراتها المختلفة، وعلى هذا الأساس، سيكون المنهج التاريخي هو الأنسب لدراسة موضوع كهذا بالنظر إلى ارتباط النقود بالدول الحاكمة. هذه الأخيرة سعت جاهدة وفي كثير من الأوقات إلى توظيف العملة في الدعاية لها وإبراز خصوصياتها، وفي هذا السياق سنكون أمام مهمة تجميع ما توفر لدينا من مادة خبرية تؤكد ما كنا قد أشرنا إليه سابقا أو تنفيه، وعليه فإن تحليل هذه المعطيات واستقراء تلك العبارات القصيرة التي حملتها النقود سيساعدنا في تركيب كثير من الحلقات المفقودة والتي من الممكن جدًا أن تكون المظان الكلاسيكية قد أغفلتها فيما يتعلق بالوقائع السياسية والاقتصادية لتلمسان الزيانية.

ونحن بصدد إنجاز هذه الدراسة، واجهتنا مشكلة حقيقية في التعرف على اسم السلطان الزياني الذي أمر بضربها، ذلك أن العديد من القطع النقدية التي تعود للفترة الزيانية تخلو من

اسم السلطان باستثناء بعض القطع الأخرى التي نقش فيها من أمر بسكها، وعلى صلة بالموضوع ذاته وجدنا أيضًا أن بعض النقود تحمل عبارة مبهمة لمن أمر من السلاطين بإصدارها وهي " أبو عبد الله محمد" والاسم هذا كان قد تسمى به كثير من سلاطين الدولة الزيانية، مما يطرح مشكلة في تصنيفها حسب جهة الإصدار، وهو الأمر الذي نبه إليه أحد المتخصصين Henri Lavoix عندما ذكر بأن ستة من سلاطين الدولة الزيانية كانوا يحملون اسم "أبو عبد الله"، وفي غياب الأسماء الحقيقية سيكون من الصعب علينا أن نتعرف على من هو الذي أمر بضرب هذه النقود، بالرغم من أن الطراز المكتوب على هذه النقود من المرجح جدا أن يكون قد أمر بضربه إما "أبو عبد الله محمد الثابتي" أو ابنه "أبو عبد الله محمد" الذي خلفه في الحكم[١].

تعتبر النقود من بين الأدوات الرئيسة التي تبرز مظاهر سيادة الدول كما هو معروف، وبالنظر إلى وظيفتها الاقتصادية في تسهيل المعاملات وتنشيط الحركة التجارية فإنها تؤدي كذلك وظيفة سياسية ترتبط بالسيادة والاستقلال، وعلى هذا الأساس كانت الدولة الزيانية أمام تحد كبير وهو ضرورة إعطاء الأهمية البالغة للنقد والعملة بالنظر إلى مجموعة من المعطيات السائدة وقتئذ، منها ما هو داخلي متعلق بتسهيل المعاملات وخدمة مكونات المجتمع، ومنها ما هو خارجي يدخل في نطاق المعاملات التجارية ومحاولة الدولة الزيانية توطيد نفوذها التجاري خاصةً في بلاد السودان ودول حوض المتوسط في الفترة الوسيطة، و لتحقيق هذا الهدف اعتمد الزيانيون على إحدى العائلات الأندلسية التي ارتبط اسمها وذاعت شهرتها في صناعة النقود.

ويجدر بنا -قبل التعرف على جهود أسرة بني الملاح في الإشراف على دار الضرب بمدينة تلمسان-أن نوضح ما المقصود بالسك؟

جاء في معجم لسان العرب أن السكة حديدة قد كتب عليها، ويضرب عليها الدراهم وهي المنقوشة[٢]، ووجدنا في كثير من المصنفات التاريخية أن السكة تعتبر من شارات الملك ومظاهر السيادة للدولة القائمة، ويقول "ابن خلدون (ت. ٨٠٨هـ/١٤٠٦م)" في هذا الخصوص: "اعلم أن للسلطان شارات وأحوالاً تقتضيها الأبهة والبذخ، فيختص بها ويتميز بانتحالها عن الرعية والبطانة، ومن جملة هذه الأمور السكة وهي الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بها بين الناس بطابع حديد تنقش فيه صور أو كلمات مقلوبة وهي وظيفة ضرورية للملك"[٣]، يعكس هذا القول الأهمية والمكانة التي تبوأتها السكة وما تزال تتبوؤها إلى يومنا هذا، كما أنها بقيت مقترنة بولي أمر المسلمين أو السلطان. وبما أن السكة ترمز في المقام الأول إلى السيادة والاستقلال وتختص بالسلطان أو مَنْ ينوب عنه في الأقاليم التابعة له، وبالنظر إلى وظيفتها الاقتصادية والسياسية فإنها كانت ولا زالت بمثابة وثائق رسمية لأنها تؤرخ للأحداث والتطورات الحاصلة في دولة ما، وتُعَد مصدرًا لا غنى عنه في التأريخ إلى جانب المصادر التقليدية المعروفة، وأهم ما يميزها هو أنه لا يمكن الطعن فيها بسهولة[٤].

تأسيسًا على ما سبق ذكره، أولت الدولة الإسلامية عناية كبيرة لدار الضرب التي كانت مهمتها سك النقود، وعليه أصبحت هذه الدار منذ نشأتها تحت سلطة الدولة وإشرافها المباشر، وشكلت دار الضرب تكوينا معماريًا هامًا كثيرًا ما شغل موضعًا بين تكوينات المدينة المختلفة، حيث كانت تقع بالقرب من مركز المدينة أو بالأحرى في المجال الذي تتقاطع فيه التكوينات السياسية والاقتصادية الحيوية في المدينة الإسلامية على حد تعبير أحد الباحثين[٥].

كان هذا ما تعلق بمفهوم السكة ومكانتها في الدولة الإسلامية، أما بالنسبة للدولة الزيانية -موضوع هذه الدراسة - فإن ما أشرنا إليه سابقًا كان هو المتعارف عليه في مجال السكة وضرب النقود، وسنوضح ذلك فيما توفر لدينا من مادة خبرية تتعلق بالموضوع، وسنبدأ حديثنا بتبيان دور أسرة بني الملاح في صناعة السكة بمدينة تلمسان الزيانية.

أولاً: أسرة بني الملاح وجهودها في حرفة السك النقدي

تأسست الدولة الزيانية حوالي سنة (٦٣٣هـ/ ١٢٣٦م) واتخذت من مدينة تلمسان حاضرة لها، واستطاعت هذه الدولة أن تبسط نفوذها على مجال محدود من بلاد المغرب الأوسط في أغلب فتراتها التاريخية بالنظر إلى مجموعة من الظروف كان أبرزها كثرة الاعتداءات و التحرشات من جيرانها المرينيين في المغرب الأقصى، والحفصيين في المغرب الأدنى، بالإضافة إلى تمردات القبائل المستمرة على السلطة المركزية، ورغم ذلك استطاعت هذه الدولة الصمود إلى غاية منتصف القرن (١٠هـ/١٦م)، تاريخ نهاية حكم بني زيان في تلمسان، هذا بالنسبة للشق السياسي، أما الشق الاقتصادي فهو متعدد الجوانب وسنحاول فيه التطرق إلى العملة الزيانية من خلال جهود أسرة بني الملاح الأندلسية التي استقرت بمدينة في تلمسان.

يرجع الفضل لأسرة بني الملاح في ظهور النقود الزيانية على الشكل والمضمون الذي أخذته هذه النقود على الأقل في المرحلة الأولى من صدر الدولة الزيانية، حيث تمكن بعض الأفراد من هذه الأسرة من الإشراف على دار السكة في تلمسان الزيانية، ذلك أن هذه الأسرة كانت لها تقاليد عريقة في حرفة السك النقدي منذ أن كانت هذه الأخيرة تستوطن مدينة قرطبة الأندلسية، وعندما انتقل أفرادها إلى مدينة تلمسان استعان بهم سلاطين الدولة الزيانية في وظائف مهمة وأعمال مختلفة من بينها صناعة النقود نظرًا لخبرتهم ودرايتهم بأصول هذه الصنعة[٦].

يقول ابن خلدون: نزل أولهم – يقصد بنو الملاح – في تلمسان مع جالية قرطبة فاحترفوا بحرفتهم الأولى – وهي السكة – وزادوا إليها الفلاحة وتحلوا بخدمة عثمان يغمراسن و ابنه[٧]، ويشير ابن خلدون إلى أن هذه الأسرة امتهنت أيضًا أعمالاً مختلفة مثل السكة والفلاحة، كما تقلد بعض أفراد هذه الأسرة أمر الحجابة في البلاط الزياني على عهد السلطان "أبي حمو موسى الأول (٧٠٧-٧١٨هـ/١٣٠٨-١٣١٨م)"[٨]، ويدل هذا على أن هذه الأسرة تنوعت مهامها وأعمالها في الدولة الزيانية وحظيت بالتالي بمكانة مرموقة لدى سلاطين بني زيان، ذلك أن الدولة الزيانية في مرحلتها الأولى – طور النشأة – لم تكن بعد قد وصلت إلى مرحلة التحضر وهو ما يفسر اعتماد بني زيان على أسرة أندلسية عريقة في التمدن والتحضر واعتمادهم عليها في أمور كثيرة خاصة الإشراف على دار الضرب بالمدينة.

اعتمادًا على ما ورد في كتاب "بغية الرواد" وجدنا أن أسرة بني الملاح رافقت الدولة الزيانية منذ تأسيسها سنة (٦٣٣هـ/١٢٣٦م)، حيث ذكر مؤلف هذا الكتاب أن أحد أفراد هذه الأسرة وهو "عبد الرحمن بن محمد ابن الملاح" تولى وظيفة الأشغال في عهد السلطان الزياني "يغمراسن بن زيان (٦٣٣-٦٨١هـ/١٢٣٦-١٢٨٣م)"[٩]، ومن المرجح أن يكون بعض ممن ينتسبون إلى هذا البيت الأندلسي قد تولى مهمة الإشراف على دار السكة في تلمسان ودليلنا في ذلك ما ذكره ابن خلدون في كتابه العبر من أن أفراد هذه الأسرة لما نزلوا تلمسان احترفوا فيها سك النقود وأضافوا إليها أيضًا بعض الحرف الأخرى وهو ما أشرنا إليه سابقًا، وكانت النقود التي أصدرتها دار الضرب بالمدينة تحاكي نقود الدولة الموحدية من حيث الشكل (الدينار شكله دائري، والدرهم شكله مربع) مع اختلاف المضمون، ويُلاحَظُ في هذا الشأن استمرار الدولة الزيانية في التعامل بالنقود الموحدية على الأقل إلى غاية السنوات الأولى من القرن (٨هـ/١٤م)، ولا يقتصر هذا الأمر على الزيانيين فحسب، بل كان معروفًا عند المرينيين والحفصيين كذلك[١٠].

ويذكر أحد الباحثين -في السياق ذاته- أنه بعد التخلص من العملة الموحدية التي كانت سائدة عند تأسيس الدولة الزيانية، ضرب الزيانيون عملة خاصة بهم من معادن الذهب والفضة والنحاس، وكانت الدولة هي من تضرب النقود من خلال إشراف بني الملاح على دار السكة، إلا أن ذلك لم يمنع بعض الخواص من ضرب نقود خارج هذه الدار، وكثيرًا ما كانت نقود هؤلاء تفتقد للمعايير المرتبطة بالعملة من حيث العيار والوزن، وهو ما أدى إلى انتشار ظاهرة تزييف النقود في تلمسان مما أثر سلبًا على الحركة الاقتصادية داخل المدينة وخارجها وهو الأمر الذي تصدت له السلطة المركزية في أكثر من مناسبة[١١].

يتبين مما سبق ذكره، أن أسرة بني الملاح الأندلسية التي استقرت في مدينة تلمسان لعبت دورًا أساسيًا في سك النقود الزيانية من خلال الإشراف على دار الضرب، وبالنظر إلى خبرة هذه الأسرة في حرفة السك النقدي فقد حظيت بمكانة مرموقة في البلاط الزياني لفترة من الزمن.

ثانيًا: النقود الزيانية من حيث الشكل والمضمون

ذكرنا فيما سبق أن نقود الدولة الزيانية -في مرحلتها الأولى- كانت تشبه نقود دولة الموحدين، وكانت تتمثل أساسا في الدينار الذهبي والدرهم الفضي، وفي هذا الشأن يعتقد أحد الدارسين أن نقود الزيانيين من حيث الشكل والوزن كانت تتطابق مع ما كان معروفًا لدى الموحدين، حيث احتوت نقود الزيانيين على بعض الكتابات التي تشير إلى اسم السلطان وتاريخ الضرب ومكانه[١٢]. كان النظام النقدي -الذي تتعامل به الدولة الزيانية في بلاد المغرب الوسط- يتشكل أساسًا من معدن الذهب والفضة، فما كان ذهبا يعرف بالدينار، وما كان فضة يعرف بالدرهم[١٣]، وفيما يلي جدول يتضمن بعض الأوصاف الخاصة بالدينار الزياني وأجزاؤه المتداولة[١٤].

الدينار الزياني	
الوزن	الأبعاد
٤,٩٥غ	٣٠ مم
٤,٦٦غ	٣٢ مم
٤,٦٥غ	٣٠ مم
٤,٤٤غ	٢٩ مم

نصف الدينار الزياني	
الوزن	الأبعاد
٢,٣٠غ	٢٢ مم
٢,٢٦غ	٣٢ مم
٢,١٢غ	٢٥ مم

ربع الدينار الزياني	
الوزن	الأبعاد
١,١٥غ	من ١٧ مم الى ١٥ مم
١,١٤غ	١٥ مم
١,٠٥غ	١٤ مم

ثمن الدينار الزياني	
الوزن	الأبعاد
٠,٥٦غ	٨ مم
٠,٥٢غ	٦ مم

يتبين من خلال الجدول أعلاه أن قيمة الدينار الزياني كانت تختلف من فترة لأخرى، حيث تراوحت بين ٤,٩٥غ و٤,٤٤غ، ووصلت في فترة السلطان أبي حمو موسى الأول (٧٠٧-٧١٨هـ/١٣٠٧-١٣١٨م) إلى ٤,٦٦غ، ثم تراجعت إلى حوالي ٥,١غ في عهد السلطان أبي عبد الله محمد الثالث (٨٢٧-٨٣١هـ/١٤٢٤-١٤٢٨م)[١٥].

ومن بين اثنين وثلاثين قطعة ذهبية للعملة الزيانية التي عثر عليها، وجدنا أن من بينها ثلاث قطع ذهبية تمثل نصف الدينار، ويتراوح وزنها ما بين ٢,٣٠غ و ٢,٢٢غ وبأبعاد يتراوح سمكها من ٢٢ مم إلى ٢٥ مم، وهناك أيضا تسع قطع نقدية ذهبية تمثل ربع الدينار يتراوح وزنها بين ١,١٥غ و١,٠٥غ وبأبعاد من ١٧ مم إلى ١٤ مم، وقطعتان ذهبيتان تمثلان ثمن الدينار وزنها بين ٠,٥٦غ و ٠,٥٢غ وبأبعاد من ٨ مم إلى ٦ مم، وللعلم فإن العدد الإجمالي للقطع النقدية الذهبية للعملة الزيانية بالدينار -التي عُثر عليها- يقدر بحوالي سبعة عشرة قطعة[١٦].

حملت النقود الزيانية -كغيرها من نقود الدول الإسلامية الأخرى- كتابات مختلفة ترتبط في مجملها باسم السلطان ومكان الضرب وبعض الآيات الكريمة وعبارات أخرى قد ترمز إلى الفترات المهمة من عمر الدولة الزيانية، وتحمل النقود التي عُثِرَ عليها هذه البيانات، ففي عهد "يغمراسن بن زيان" أول سلاطين الدولة الزيانية وُجِدَ دينار ذهبي ضرب بمدينة تلمسان،

ولم يحمل هذا الدينار تاريخ إصداره ولم يظهر عليه اسم السلطان وكل ما وجد من كتابة على هذه القطعة هو آية قرآنية وشعار الواحد بالله وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، والشكر والمنة لله والحول والقوة بالله هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم[١٧]، وفي هذا الصدد، وعلى صلة بما ورد ذكره في هذا الشأن، وجدنا في دراسة حديثة ملحوظة هامة تفيد بأن المادة الخبرية التي تؤرخ للنقود الزيانية غداة تأسيس الدولة الزيانية تعتبر نادرة جدا ولم يتم العثور لحد الأن على نقود زيانية خالصة، بمعنى توجد عليها كتابات ونقوش تشير بوضوح للسلطان الزياني أو مكان ضربها، وفي المقابل يضيف صاحب هذه الدراسة أن النقود التي ضربت بمدينة تلمسان عند تأسيسها كانت تحمل مظامين ترمز لتبعية الدولة الحفصية، وفي هذا الإطار فقد عثر على ديناران، الأول باسم السلطان الحفصي- أبو زكريا يحي (٦٢٧-٦٤٧هـ/١٢٣٠-١٢٤٩م) والثاني باسم خلفه السلطان أبو عبد لله محمد (٦٤٧-٦٧٥هـ/١٢٤٩-١٢٧٧م) وعليه يخلص الكاتب إلى أن ضرب النقود الزيانية كان في بادئ الأمر يحمل كتابات تشير إلى أسماء سلاطين الدولة الحفصية واستمر هذا الأمر تقريبا إلى غاية نهاية الحصار المريني على تلمسان[١٨].

وهناك دينار يُرَجح أنه يعود لفترة حكم السلطان "أبي حمو موسى الأول" (٧٠٧-٧١٨هـ/١٣٠٨-١٣١٨م) تظهر على أحد وجهيه دائرتان ومربعان، وكتب في محيط دائرته: "ضرب بمدينة تلمسان حرسها الله تعالى وآمنها"، وفي الظهر توجد دائرة كتب فيها "وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم"، أما المربع فقد كتب فيه "بسم الله الرحمن الرحيم صل الله على محمد وآله لا إله إلا الله محمد رسول الله ما أقرب فرج الله"[١٩]، و تشير العبارة الأخيرة " ما أقرب فرج الله " إلى الحصار الذي ضربه المرينيون على مدينة تلمسان أواخر القرن (٧هـ/١٣م) والذي استمر حوالي ثماني سنوات تقريبا[٢٠].

وفي السياق ذاته، وفي فترة حكم السلطان أبو محمد عبد الله الثاني (٩٣٤-٩٤٧هـ/١٥٢٨-١٥٣٥م) تم العثور على نقود تعود إلى هذه الفترة كتب في مركز الوجه منها العبارة التالية: عن أمر عبد الله المتوكل على الله أمير المسلمين عبد الله أيده الله ونصره، وفي الهامش نجد الكتابة التالية: بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد، وفي مركز الظهر كتب بسم الله الرحمن الرحيم عن أمر عبد الله أمير المؤمنين أبي الربيع سليمان أيده الله ونصره، أما الهامش فقد كتب فيه، طبع بمدينة تلمسان حرسها الله، ويلاحظ على هذا الطراز أنه يحمل

أمر السلطان العثماني سليمان القانوني (٩٢٦-٩٧٤هـ/١٥٢٠-١٥٦٦م) بكتابات مركز الظهر، وسبب ذلك هو قيام خير الدين بربروسا بمساندة السلطان الزياني أبي محمد عبد الله في السيطرة على عرش بني زيان نظير إقامة الخطبة وضرب السكة بالسم السلطان العثماني[٢١].

كما أصدرت دار الضرب في مدينة تلمسان نقودًا فضية، حيث بلغ وزن درهم الدولة الزيانية ٥,١غ، ومن أجزائه التي كان يُتَعامل بها في السوق نصف الدرهم والربع والثمن[٢٢]، لكن ما يمكن ملاحظته في هذا الخصوص، هو أن النقود الفضية التي أصدرتها دار الضرب بمدينة تلمسان كانت قليلة، وكل ما وصلنا من نقود فضية تعود للفترة الزيانية تحمل عبارة ما أقرب فرج الله، وكان ضرب هذه النقود على نمط وطراز الدراهم الموحدية، ويتميز الشكل العام له بوجود مربعين متوازيين حول كتابات كل من الوجه والظهر، المربع الخارجي من حبيبات متماسة، ونصوص كتاباته جاءت على النحو التالي: لا إله إلا الله الأمر كله لله ما أقرب فرج الله بالنسبة لمركز الوجه، وفي مركز الظهر نجد الكتابة التالية: الله ربنا محمد رسولنا القرآن إمامنا[٢٣].

يظهر مما سبق ذكره، أن نقود الدولة الزيانية -في مختلف فتراتها التاريخية-كانت تحمل كتابات ونقوشا تشير إلى مكان الضرب وبعض الآيات القرآنية، وأحيانا كانت هذه النقود تحمل بعض العبارات التي تدل على حدث تاريخي بارز كما هو الحال بالنسبة للنقود التي صدرت بعد نهاية الحصار المريني على المدينة وهو الأمر الذي يفيد الباحث في التأريخ لهذه الفترة على الأقل بمعرفة حجم المعاناة التي تعرضت لها تلمسان الزيانية في وقت ما من تاريخها.

كانت هذه إذن لمحة موجزة عن تاريخ نقود الدولة الزيانية وبعض الجوانب المرتبطة بها من حيث الشكل والمحتوى والجهة التي كان لها الدور الكبير في الإشراف على سك العملة وهي أسرة بني الملاح الأندلسية في المرحلة الأولى من تأسيس دولة بني زيان، ذلك أن الإشراف على دار السكة بتلمسان الزيانية لم يقتصر على هذه الأسرة على امتداد تاريخ الدولة الزيانية، ويبدو أن مهمة هذه الأخيرة في الإشراف على دار الضرب سينتهي مع منتصف القرن (٨هـ/١٤م)، وعليه أصبحت دار الضرب تحت إشراف جهة أخرى لم تكن بالضرورة أسرة بذاتها كما كان عليه الحال قبل ذلك، لذا من المرجح أن السلطة المركزية قد أسندت مهمة الإشراف على دار السكة إلى شخص له من الخبرة والدراية في صناعة النقود ما يكفي لسير العمل بشكل عادي داخل هذه الدار.

ثالثًا: كيفية العمل وتقنيات الصنع

سنحاول فيما يلي أن نتناول موضوع هذه الدراسة من زاوية أخرى وذلك من خلال التعرف على كيفية العمل وتقنيات الصنع التي كانت معروفة وقتئذ في السك النقدي داخل دار الضرب، ولعل معرفتنا بالجهود التي بذلها الحرفيون والصناع داخل دار السكة تفيدنا في الكشف عن الأدوات والأساليب وسير العمل واختصاصات فريق العمل في تحويل المعادن إلى نقود وهو الأمر الذي سيساعد على تسهيل المعاملات المختلفة على المستوى الداخلي والخارجي، وحتى يستوفي هذا الأمر حقه من الدراسة ارتأينا أن نتطرق لهذا الموضوع من جوانب ترتبط ببعضها البعض وتؤدي في الوقت نفسه الوظيفة الأساسية للنقود، وهي كالآتي:

مقر دار الضرب: أشرنا سابقًا إلى أن هذه الدار كانت تعتبر إحدى التكوينات المعمارية المهمة في المدينة الإسلامية بالنسبة للسلطة الحاكمة لأن ذلك يندرج تحت مسمى السيادة والملك، وعلى هذا الأساس يرى أحد الباحثين أن دار الضرب تكون في العادة قريبة من الفضاءات الحيوية في المدينة ذات الطابع الاقتصادي والسياسي المنتشرة كما هو معروف في مركز المدينة[٢٤].

لم تسعفنا المادة الخبرية المتوفرة لدينا -بخصوص موقع دار الضرب بمدينة تلمسان الزيانية - في التعرف على المكان الذي شغلته هذه الدار أو تحديده، لكن من المرجح أنها كانت قريبة من القصر الملكي و هو المشور الذي كان يقيم فيه سلاطين الدولة الزيانية وهو المكان الأنسب في اعتقادنا لأنه المكان القريب من المجال الذي تنشط فيه التكوينات المعمارية المعروفة في المدينة، وهو المجال الذي يحتضن منشآت كثيرة ومتعددة الوظائف، دينية مثل المساجد والمدارس، واقتصادية مثل سوق المدينة المعروف والتي تعتبر القيصارية أحدي أهم معالمه الحيوية، لذلك ليس من المستغرب أن تكون دار السكة على أهميتها ودورها البارز متواجدة في المجال المذكور.

من جانب آخر، ونحن بصدد تجميع معلوماتنا حول دار الضرب في تلمسان، سنطرح التساؤل التالي: هل كانت دار الضرب بالمدينة من إنشاء الدولة الزيانية؟ أم أن الدار التي كانت تسك النقود في الفترة المدروسة تعود نشأتها إلى الدول التي استقرت في تلمسان قبل مجيء الزيانيين؟

تشير المعلومات المتوفرة لدينا -بخصوص وجود دار لسك العملة في تلمسان- إلى أن سلالة السليمانيين وهم فرع من الأدارسة الذين حكموا المغرب الأقصى وقاعدته مدينة فاس في القرن (٢هـ/٨م) أن هؤلاء – أي الأسرة السليمانية– ضربوا نقودًا بمدينة تلمسان حوالي سنة (٢٨٧هـ/٩٠٠م)، حيث تم العثور على دينار ذهبي يعود إلى هذه الفترة يحمل الكتابة التالية: "لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله على شكل دائري، وفي الوسط كتب لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وفي الوجه الثاني ضرب عليها محمد رسول الله"[٢٥]، وفي الإطار نفسه يرى أحد الدارسين أن مدينة تلمسان كانت تتوفر على دار لسك العملة خلال الفترة التي تمكن فيها المرابطون من فرض سيطرتهم على المدينة[٢٦].

في ظل غياب معلومات محددة عن إنشاء الزيانيين دارًا لسك العملة بالمدينة-فإنه من المحتمل أن تكون دار الضرب التي كانت موجودة من قبل هي من اضطلعت بسك نقود الدولة الزيانية، أي استمرار العمل في دار السك السابقة، إلا أن هذا لا يعني أن السلطة الزيانية تركت هذه الدار على حالها، بل أدخلت عليها بعض التحسينات والتجهيزات بما يتناسب والتطورات الحاصلة في عملية السك النقدي.

تولت دار الضرب بالمدينة سك النقود معتمدة في ذلك على ما توفر لديها من معادن الذهب والفضة والنحاس ومعادن أخرى كانت معروفة لدى السكاكين حيث نجد أن بعضا من هذه المعادن كانت تستعمل في تصفية معدني الذهب و الفضة في المقام الأول، وفي هذا الشأن أخذت السلطة على عاتقها مهمة تمويل دار السكة بالمعادن اللازمة لاستمرار العمل فيها خاصة وأن مدينة تلمسان كانت تربطها علاقات تجارية نشطة مع بلاد السودان تعود إلى فترات سابقة على ظهور الزيانيين، لكن يبدو أن هذه العلاقات التجارية ازدهرت خلال العهد الزياني وعلى إثر ذلك كانت تلمسان تحصل على كمية كبيرة من ذهب السودان وأصبحت تمثل الوسيط التجاري في هذا الخصوص بين بلاد السودان ودول حوض المتوسط الأوربية، مما يعني أنه لم تكن هناك أية مشكلة فيما يخص توفر المادة الأولية لسك النقود بالنسبة للدولة الزيانية في الفترة المدروسة.

لم يقتصر تمويل دار السكة بالمعادن على الدولة فقط كما أوردنا سابقا، بل كان كثير من الأفراد يقصدون هذه الدار وهم محملون بمعدني الذهب و الفضة، لتتولى هذه الأخيرة سك نقودا لهؤلاء مقابل رسم بسيط[٢٧]، وقد استثمرت الدولة مداخيل هذه الدار في القيام بأعمال دار السكة وتوفير متطلباتها، حيث كان على ناظر هذه الدار أن يدفع أجور الحرفيين الذين يشتغلون فيها، وتغطية مصاريف التجهيزات التي تحتاجها عمليات السك، ومن بين الصعوبات التي كانت تواجهها دار السكة في تلمسان انتشار نقود مزيفة كان مصدرها بعض الخواص ممَنْ يشتغلون في الصياغة[٢٨].

رابعًا: زجر الغش في النقود

لقد مثَّل تزييف النقود مشكلة كبيرة بالنسبة للدولة الزيانية بسبب الآثار المترتبة عن هذه المسألة والتي تتلخص في فقدان الثقة في النقد الزياني واضطراب أحوال الأسواق وتراجع الحركة الاقتصادية خصوصًا النشاط التجاري، وعليه سنلاحظ بأن السلطة المركزية اتخذت الإجراءات الكفيلة للحد من هذه الظاهرة، وسنوضح ذلك لاحقًا، لكن وجب التنبيه إلى أن مسألة تزييف النقود لم تكن مقتصرة على مدينة بعينها أو هي وليدة الفترة المدروسة، بل كانت هذه القضية معروفة من قبل و منتشرة بصورة أوضح في المدن البعيدة عن مركز الحكم كنتيجة منطقية لضعف الرقابة عليها في زمن كثرت فيه الثورات و التمردات على السلطة المركزية خاصة بالنسبة للدولة الزيانية.

كان في طليعة الإجراءات ،التي أقرتها السلطة المركزية بمدينة تلمسان الزيانية، إسناد مهمة الإشراف على دار الضرب بالمدينة إلى أسرة بني الملاح الأندلسية -كما أوضحنا ذلك سابقًا- وكانت هذه الأخيرة على دراية وخبرة كبيرة في هذا المجال ولها من الممارسة في هذه الحرفة ما يجعلها بمنأى عن أية أعمال مشبوهة يمكن أن تقوم بها في دار السكة، ورغم أن هذا الإجراء يبدو منطقيا وضروريا لأنه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تسك الدولة نقودا مزيفة، لكننا نجد مادة خبرية - في مصدر قريب جدًا من الأحداث التي كانت تتفاعل في المدينة والتي تتعلق بموضوع السك- تشير إلى أن السلطان الزياني كان يسك نقودا من الذهب الرديء، كالدنانير التي تسمى في إيطاليا بسلاتشي (أي الخفيفة) غير أن القطعة الواحدة منها تساوي دينارًا وربعًا إيطاليا لكونها كبيرة جدًا، ويسك أيضًا نقودًا فضية غير خالصة، وأخرى نحاسية متفاوتة القيمة والنوع[٢٩].

يتبين إذن من الإفادة المصدرية التي ذكرها الوزان (توفي بعد٩٥٧هـ/١٥٥٠م)، أن دار السكة في تلمسان - في فترة السلطان المذكور- أصدرت نقودا من الذهب والفضة والنحاس كانت تفتقد إلى الشروط التقنية وهي العيار والوزن والجودة، لكن يجب التنويه إلى أن هذه النقود كانت محدودة بالطبع لأن ذلك من شأنه أن يحدث ضررا بالغا بالحياة الاقتصادية في تلمسان وبعلاقاتها التجارية مع الدول الأوربية، ولعل من بين

الأسباب التي أدت إلى هذا الواقع هو سيطرة عناصر يهودية على العمل داخل دار السكة بالمدينة بعد أن ابتعد بنو الملاح عن حرفة السك النقدي خلال هذه الحقبة من عمر الدولة الزيانية، واليهود كما هو معروف - في كثير من بلاد المغرب الإسلامي -كانوا مشهورين في تزييف النقود كلما وجدوا الفرصة سانحة لذلك[٣٠].

ومن بين الأسباب الأخرى التي ساهمت في شيوع ظاهرة تزييف النقود؛ وجود دور ضرب خاصة بالأفراد كانت متواجدة على نطاق ضيق بالمدينة وتمارس هذا العمل في سرية تامة بعيدا عن رقابة الدولة، وكانت تسك نقودا للأفراد الذين يدفعون لها في المقابل معدني الذهب والفضة[٣١]، وهو الأمر الذي لم يغفل عنه مصدر معاصر وهو "الحكيم المديوني"، بحيث تطرق هذا المؤلف إلى هذه المسألة عندما طلب من ناظر دار السكة أن يجتهد في البحث عن الصناع الذين يحترفون الصيرفة- وكان معظمهم من اليهود- ذلك أن هؤلاء كانوا يقومون بسك نقودًا لمن يطلبها من عامة الناس، وعلى هذا الأساس أوصى المديوني في كتابه "الدوحة المشتبكة" بأن يضطلع الناظر بمسؤولية التدقيق والتمحيص في النقود التي يسكها هؤلاء ليتأكد من مطابقتها لتلك التي تصدرها دار الضرب الرئيسة في المدينة، وفي الإطار نفسه كان من مهام الناظر أن يبحث عن الصاغة ممَنْ يشتغلون في صناعة الحلي والمجوهرات لأن الكثير منهم كانوا يسكون عملة مزيفة داخل بيوتهم[٣٢].

تأسيسًا على ما سبق ذكره، يتبين أن العناصر اليهودية بمدينة تلمسان كانت الجهة الرئيسة المسؤولة عن شيوع النقود المزيفة نظرًا لخبرتهم ودرايتهم الكبيرة في الأنشطة الحرفية المرتبطة بتحويل المعادن خاصة الذهب والفضة، خاصة إذا علمنا أن هؤلاء كانوا يتمتعون بنوع من الاستقلال أو بهامش من الحركة بعيدا نوعا ما عن رقابة السلطة المركزية بالمدينة.

ومن بين الأسباب الأخرى التي كانت وراء تزييف النقود كذلك، اضطراب الأحوال السياسية في تلمسان وكثرة القلاقل والفتن وتعرض المدينة لبعض الحملات العسكرية من جيرانها، بالإضافة إلى تراجع الحركة الاقتصادية نتيجة ظروف داخلية وخارجية مثل الجفاف والأوبئة (مرض الطاعون)، وتسببت هذه المشاكل مجتمعة في إضعاف قبضة الدولة ورقابتها على الصناع الذين يحترفون الصياغة وهو الأمر الذي سيكون عاملا مشجعا على رواج العملة المزيفة[٣٣].

لم تقف الدولة لوحدها في مواجهة مشكل تزييف النقود، بل انبرى كثير من فقهاء تلمسان في التصدي لهذه الظاهرة و التنبيه لخطورتها في الوقت نفسه، حيث يقول "الفقيه العقباني (ت. ٨١١هـ/١٤٠٨م)" ما نصه: وأقول أن فساد سكة المسلمين وغش دراهمهم قد عم وقوعه بهذه البلاد المغربية بأسرها ولم يقع لمادة ذلك حسم ولا إزالة حتى كادت رؤوس أموال الناس تنقرض من أيديهم بغلاء الأسعار في كل شيء[٣٤]، وعلى منواله ذكر "الفقيه الونشريسي (ت ٩١٤هـ/١٥٠٨م)" أن من يضرب دراهم ودنانير مزورة كان جزاؤه أن يخلد في السجن حتى يموت في نظر فقهاء المسلمين[٣٥].

بما أن تزييف النقود كان يُشَكِّل عبئا على الدولة ويطرح مشاكل عديدة تتقاطع فيها مصالح المنتجين مع المستهلكين، كان على الجهات الرسمية ألا تغفل عن نشاط أولئك الصناع ممن يحترفون الصياغة وذلك حماية للصالح العام وبالتالي الحفاظ على الاستقرار السياسي والاقتصادي في وقت لم يكن بالسهل على السلطة أن تراقب بشكل دقيق وفعال كل ما له صلة بالتزوير وما شابه ذلك. رغم تصدي الدولة -ممثلة في شخصية المحتسب والناظر-لظاهرة الغش في النقود إلا أنها كانت تعود للظهور من فترة لأخرى بسبب قلة الاستقرار السياسي الذي طبع دول الغرب الإسلامي في العصر الوسيط خاصة مدينة تلمسان.

خامسًا: مراحل حرفة السك النقدي

لا يمكن الإلمام بموضوع النقود الزيانية بمختلف جوانبه إلا بدراسة تستوفي جوانبه الفنية، أي ذلك الجانب الذي يسلط الضوء على مراحل حرفة السك النقدي، وهو جانب على درجة كبيرة من الأهمية لأنه يعطينا صورة واضحة ومفصلة عن خطوات هذه الحرفة والأساليب التي اتبعها الحرفيون والصناع في دار الضرب، إذ كانت الحرفة تختلف عن كثير من الحرف المعروفة في المدينة الإسلامية، لأنها تطلبت خبرة ودراية كبيرة بالمعادن وتحويلها خاصة بالنسبة للمشرفين على دار الضرب، وبما أنها ارتبطت بمظاهر سيادة السلطان أو الخليفة، فقد أُشْتُرِط في من يحترفها السرية فيما يخص تقنيات الصنع، وعلى هذا الأساس سنتطرق في ما يلي إلى الجانب التطبيقي لحرفة السك النقدي من خلال سير العمل داخل دار الضرب.

١/٥-سير العمل داخل دار الضرب

أولا-فريق العمل داخل دار الضرب: كانت هذه الدار تعمل تحت تأطير عدد لا بأس به من الحرفيين والصناع على اختلاف

تخصصاتهم ومهامهم، وكان لكل منهم وظيفة محددة يقوم بها، ونجد على رأس هؤلاء:

الناظر: يعتبر ناظر دار السكة المشرف الأول على جميع المراحل التي تمر بها عملية سك النقود، وكل من يعمل في هذه الدار يقع تحت سلطته المباشرة، ومن الطبيعي أن يكون الناظر معينا من قبل السلطان الزياني للاعتبارات التي ذكرناها سابقًا – السكة من شارات الملك – ومن بين الشروط التي كان يجب على الناظر أن يستوفيها؛ الأمانة، والخبرة والدراية بصناعة النقود والقدرة على التمييز بين النقود الحقيقية والمغشوشة، والعلم بأوصاف المعادن وكل الأمور المتعلقة بذلك، وأن يكون خبيرًا بأنواع خطوط الطوابع وأشكال الفتح، بالإضافة إلى النزاهة والديانة[٣٦]. وحتى يتمكن الناظر من أداء مهامه على أحسن صورة كان عليه أن يشرف شخصيًا على مراحل سك النقود من أولها إلى أخرها من سبك وتخليص للمعدن، ثم عمليات المد والقطع والنقش على النقود، ويحرص في الوقت نفسه على مراقبة عمل السكاكين الذين يضيفون بعض المعادن والمواد الأخرى للذهب والفضة لتخليصهما من الشوائب وضمان تنقيتهما بشكل كامل.

ومن المهام التي أنيطت بالناظر كذلك، البحث عن من يشتغل من الحرفيين في الصيرفة، لأن هؤلاء كانوا يقومون بسك نقود لمن يطلبها من عامة سكان المدينة، وكان عليه، في هذا الصدد، التدقيق في تلك النقود للتأكد من مطابقتها شكلاً ومضمونًا لتلك التي تصدرها دار الضرب الرئيسة تلمسان[٣٧]، وفي السياق ذاته كان على الناظر أن يتجول أحيانًا في دروب وأزقة المدينة مقتفيًا الحرفيين - الذين يمارسون الصياغة و يصنعون الحلي والمجوهرات- حيث كان هؤلاء يصنعون نقودًا مغشوشة في كثير من الأحيان ، فكان من واجب الناظر أن يمنعهم من ذلك[٣٨]. وفي السياق ذاته، وبعد أن يقوم السباك بتحويل سبائك الذهب والفضة إلى قطع نقدية مراعيًا في ذلك جملة من المعايير المتعلقة بالشكل والعيار، بعد ذلك يسلمها للناظر ليجربها بميزانه، فإذا أخذها منه فليتحر التحقيق المعتدل فيها بما أمكن من الوجوه، فإذا وجدها تفتقد لبعض المواصفات المطلوبة كان يعيدها للسباك ليقوم هذا الأخير بإعدادها بشكل جيد[٣٩].

الشاهدان: كان وجود الشاهدين بدار الضرب ضروريًا، وأوكِل إليهما توثيق كل ما يَرِدُ دار الضرب من معادن مختلفة وما يتم سكه من نقود داخلها، وبالتالي حفظ حقوق كل الأطراف حتى لا يقع أي خلاف بين الدافع والصانع كما ذكر صاحب كتاب "الدوحة المشتبكة"[٤٠]، ويجب أن يكون بيد كل واحد منهما مفتاح جولق الأزواج (الجولق هو الصندوق، والأزواج هي الأصول التي كانوا يطبعون السكة بها) التي يطبع فيها لثقافها –أي اختبارها– وكان عليهما أيضًا مراقبة عمل السكاكين بحيث لا يطبع هؤلاء دينارا أو درهما إلا بمعاينتهما[٤١].

الكُتَّاب: يستعين الشاهدان في دار الضرب بكتاب يضبطون الأعمال المنجزة ويحررونها بدقة بالنظر إلى الحركة الكبيرة التي تشهدها دار السكة فيما يخص المعادن المختلفة التي يتم جلبها والنقود التي تسك بشكل مستمر كذلك، الأمر الذي يستدعي وجود طائفة من الكتاب يسهرون على تحرير كل ذلك في دفاتر، يتم فيها تقييد أوزان النقود وطبيعتها وثمن الأجرة والتاريخ وأسماء أصحابها[٤٢].

نخلص في الأخير إلى أن الناظر والشاهدين والكُتَّاب كانوا يشكلون في الأساس الجهاز الإداري العامل بدار الضرب، ويتبقى لنا أن نتعرف على الحرفيين الذين يصنعون النقود وهم السكاكون الذين صنفهم "الحكيم المديوني" إلى ثلاث أصناف: المعلمون والعمالون والمتعلمون. يشرف الصنف الأول-وهم المعلمون-على عملية سك النقود من خلال تأطير العمل داخل دار الضرب وهم فقط من لديهم خبرة ودراية كافية بسير العمل ومراحله، ولم يشركوا معهم أحدًا في صنعتهم هذه، بمعنى أنهم كانوا يحتكرون طرق وتقنيات صنع النقود[٤٣]. أما الصنف الثاني، وهم العمالون، فكانوا يقومون بعمليات السبك والتخليص والمد والقطع والنقش، وهي مجمل الأعمال المرتبطة بحرفة السك النقدي، وهي المراحل التي كانت على إثرها تأخذ النقود شكلها النهائي، أما المتعلمون فكانوا مكلفين بأعمال بسيطة داخل دار الضرب لم تتجاوز إيقاد النار مثلاً وتنظيف الأفران وغيرها من النشاطات الثانوية[٤٤].

كان هؤلاء إذن العناصر الفاعلين في الحركة التي شهدتها دار السكة في مدينة تلمسان الزيانية وغيرها من دور الضرب في الغرب الإسلامي وقتئذ، وفي هذا السياق وحتى نستوفي الموضوع حقه من الدراسة، لا بد من الإشارة إلى المواد والأدوات التي كانت متداولة في دار السكة، وتأتي المعادن في مقدمة المواد التي تطلبتها صناعة السكة في تلمسان، مثل الذهب والفضة والنحاس، وكان هذا الأخير يضاف إلى أحد المعدنين السابقين عند السبك بأقدار معلومة، أو يستعمل مع الرصاص لتخليص الذهب والفضة من الشوائب المختلفة، بالإضافة إلى الكبريت والذي يبدو أنه استعمل في عمليات

التنظيف والغسل، والملح أيضًا ومسحوق الآجر والحطب والفحم لإيقاد النار[٤٥].

أما بالنسبة للأدوات، فنجد الأفران التي استعملت لتخليص معدني الذهب والفضة من الشوائب، والأواني مثل البوط المستعمل في إذابة المعدن، والمراط الذي يفرغ فيه المعدن المذاب، والكوجل لتذويب المعدن، والقدور وأدوت أخرى أهمها المطرقة والسندان والمهراس والغربال والأقلام والميزان والصنج[٤٦]، وفي هذا الصدد، فإن الحكيم المديوني صاحب كتاب الدوحة المشتبكة والذي يعد مصدرا لا غنى عنه في الإلمام بمتطلبات حرفة السك النقدي قد فصل كثيرا في المواد والأدوات المستعملة من طرف السكاكين في دار الضرب، وهذه الأخيرة -المواد والأدوات - كان أحد الباحثين قد صنفها في جدول لمن يريد التدقيق في المصطلحات الخاصة المتداولة في دور الضرب المغربية والأندلسية في الفترة الوسيطة[٤٧].

٢/٥-صناعة النقود من قبل السكاكين

بعد دراسة الجهاز الذي كان يسير العمل داخل دار الضرب، بقي لنا أن نتعرف على الكيفية التي تتم من خلالها صناعة النقود من قبل السكاكين، حيث كان العمل يُنْجَزُ وفق الخطوات التالية:

السبك والتخليص: تعد هذه الخطوة تعد أول عمل يشرع فيه السكاكون داخل ،وعليها يتوقف كل العمل فيما بعد، والمقصود بالسبك -كما جاء في معاجم اللغة العربية - إذابة المعدن، فيقال: سبك الذهب والفضة ونحوه من الذائب يسبكه، ويسبكه سبكا وسبكه بمعنى ذوبه وأفرغه في قالب، والسبيكة هي القطعة المذابة منه والجمع سبائك[٤٨]، وبعد أن تتم عملية السبك، يشرع السكاكون بعدها مباشرة في تخليص معدني الذهب والفضة من الشوائب عن طريق النار[٤٩]، وكان السكاكون داخل دار الضرب يستعملون مادة الشب لغسل الذهب والفضة وذلك بغرض إزالة السواد عنهما[٥٠]، ولا بد من الإشارة إلى بعض التدابير العملية التي يلجأ إليها الحرفيون أثناء هذه العملية، مثل غسل الذهب من الفضة والنحاس باستعمال الرصاص أو الكبريت، فيحترق النحاس ويبقى الذهب خالصًا، كما استعملت الأحجار والأمزاج كذلك في غسل الذهب من الفضة ، حيث يضيف السكاكون النحاس إلى الذهب المخلوط بالفضة لفصل الفضة عن الذهب، ثم يسبك الكل ويطعم بالكبريت الأصفر، فيتم تخليص الذهب من الفضة بشكل كامل وهو الأمر الذي بينه الحكيم المديوني في مصدره بالتفصيل[٥١].

اتبع السكاكون -بدار الضرب -طرائق متعددة وتقنيات مختلفة في عملية سبك المعدن وتخليصه من الشوائب التي علقت به، ليصبح بالتالي جاهزا لتحويله إلى نقود خالصة، وفي هذا الصدد ينبه المصدر السابق إلى أن المشتغل بعملية السبك والتخليص يجب أن تتوفر فيه المهارة والحذق والمعرفة الكاملة بالمعادن، وأن تكون لديه تجربة كافيه في هذه الصنعة، ويشدد المصدر المذكور أيضا على أن من يشتغل في سبك المعدن وتخليصه لا بد أن يكون حريصًا جدًا ويقظًا وهو يمارس عمله هذا لأن الخطأ غير مسموح به بتاتا في هذه المرحلة[٥٢].

المد والقطع: يقصد بالمد تحويل السبائك إلى صفائح مستوية مضبوطة الأبعاد، أما القطع فيتم عن طريقة تحويل الصفائح المعدنية الممدة إلى قطع مدورة بالنسبة للدينار ومربعة بالنسبة للدرهم، ويستعين السكاكون في هذه العملية بالنار والمطرقة، وبعد ذلك يشرع الصناع في قطع السبائك إلى وحدات ذات أشكال محددة لتوضع في صندوق ثم يتم رشها بمادة الشب حتى يساعد ذلك على اعتدالها، ثم يقوم الناظر لاحقا بوزنها ويتحقق من اعتدال أطرافها، وإذا ظهر له أن بعض الوحدات النقدية لا تستوفي شروط ومعايير الوزن والاعتدال يقوم بإرجاعها ليتم إعدادها بالشكل المطلوب[٥٣].

النقش والطبع: يقصد بالنقش على النقود تلك الخطوط التي يرسمها الفتاح على الطوابع التي تضرب بها النقود[٥٤]، ويعتبر وجود مهما وأساسيًا داخل دار الضرب، وتشترط فيه النزاهة في العمل لضمان جودة العمل وإتقانه، وكان على الفتاح أن يكون بارع الخط لأن طوابع الدينار والدرهم تعتبر من شارات الملك والسيادة الخاصة بولي الأمر، والفتاح هو الحرفي الذي يضع الرسم الذي تسك عليه العملة ويكتب نصها[٥٥]، أما الطبع فهو ضرب الطابع على وجهي كل قطعة نقدية[٥٦]، وكان نقش الكلمات ورسم الخطوط على الطابع يتم بطريقة مقلوبة فتخرج رسوم تلك النقوش ظاهرة مستقيمة على النقود[٥٧].

لقد كانت هذه إذن خطوات حرفة السك النقدي خلال الفترة الوسيطة وقد ذكر أحد الباحثين بأن صناعة النقود في دار الضرب بالعدوة المغربية والأندلسية كان لا يتم إلا بتحضير قوالب السك التي تضرب بها السكة أولا ثم تحضير خامة السكة أي السبيكة التي تختم بها القوالب، وفي هذا الإطار فإن قوالب الضرب كانت تُعَدّ سلفًا بحيث يتم حفر عليها تلك النقوش والكتابات المختلفة التي نراها على القطع النقدية، وكانت دار الضرب بالمدينة تحتفظ بهذه القوالب، ويبدو أن العمل بهذه الأخيرة لم يكن هو الغالب في صناعة النقود ذلك

أن القوالب كانت معرضة للتلف نتيجة أعمال الضرب المستمرة مما يؤدي إلى عدم ظهور تلك الكتابات بشكل صحيح وواضح[٥٨]، وكان السباكون يستعملون المطرقة والسندان باعتبارهما الوسيلة الوحيدة لترقيق الصفائح الذهبية إلى سمك معين، لكن الطريقة هذه لن يكن مرغوبًا فيها لأنها مكلفة[٥٩].

وعليه، وبالنظر إلى الحاجة الملحة إلى سك قطع نقدية كثيرة وفي وقت وجيز لجأ السكاكون بدار الضرب إلى طريقة أخرى وهي القوالب المصبوبة[٦٠]، ويظهر أن هذه الطريقة كانت عملية واقتصادية في الوقت نفسه وتستجيب للطلب المتزايد على النقود من جهة، ومن جهة ثانية كانت هذه الطريقة تنتج قطعا نقدية مضبوطة بشكل صحيح، يظهر ذلك من خلال التماثل الواضح في السمك والشكل والوزن بين القطع المصبوبة والتقابل الواضح بين مركز كل من الوجه والظهر في القطعة الواحدة[٦١]، أما خامات السكة فقد فصل فيها الحكيم المديوني في مصدره بكثير من التفصيل عندما تطرق إلى الكيفية التي كان بموجبها يتم تخليص الذهب والفضة من الشوائب المختلفة لتضرب منه نقودا ذهبية وفضية ونحاسية[٦٢].

تضمنت النقوش والخطوط التي حَفلت بها النقود الزيانية عبارات موجزة كأن تحتوي مثلاً على كآيات قرآنية ولفظ الجلالة مع التمجيد واسم النبي الكريم محمد (ﷺ)، كما كُتِب على هذه النقود جهة ومكان الضرب وهي مدينة تلمسان المحروسة، ونجد فيها أحيانا إشارة إلى السلطان الزياني الذي أمر بضربها[٦٣]، وكنا قد تطرقنا إلى هذه المعلومة سابقا.

خَاتِمَةٌ

كانت هذه إذن لمحة موجزة عن صناعة النقود بمدينة تلمسان الزيانية (٧-١٠هـ/١٣-١٦م) حاولنا فيها، قدر الإمكان، الإحاطة بجوانب الموضوع المختلفة، بدءًا بالجانب التاريخي الذي أشرنا فيه إلى مميزات النقود الزيانية ومواصفاتها من حيث العيار والوزن ودور أسرة بني الملاح الأندلسية في الإشراف على دار الضرب بالمدينة في مرحلة معينة من تاريخ الزيانيين، بعد ذلك سلطنا الضوء على دار السكة وسير العمل فيها محاولين قدر الإمكان التعرف على مهام كل طرف فيها، بالإضافة إلى الأساليب والتقنيات المعتمدة في مراحل السك النقدي وهو الجانب الفني من هذه الدراسة.

يتبين -مما سبق ذكره -أن نقود الدولة الزيانية كانت تحاكي إلى حد ما -في شكلها ومضمونها - نقود المرينيين في المغرب الأقصى والحفصيين في المغرب الأدنى، وبأن التعامل بنقود دولة الموحدين استمر لفترة محدودة من عمر الدولة الزيانية قبل أن تتمكن هذه الأخيرة من ضرب عملة خاصة بها وفق المعايير والأوزان التي كانت معروفة في المدن الإسلامية، وقد ساعدها في ذلك الخبرة والدراية الكبيرة التي كانت تمتلكها أسرة بني الملاح الأندلسية وهي التقاليد والأسس التي شكلت قاعدة لحرفيي السك النقدي في مرحلة ما بعد هذه الأسرة.

كان العمل بدار السكة في تلمسان نشطًا ومهمًا بالنظر إلى الحضور الزياني القوي في بلاد السودان الغربي، حيث ربطت الإمارة الزيانية علاقات تجارية متينة ببلاد السودان منذ زمن بعيد ، وازدادت هذه العلاقة تجذرا خلال الفترة المدروسة، واستطاعت تلمسان الزيانية أن تحتكر تجارة الذهب مع السودان في فترات تاريخية معينة خاصة بعد منتصف القرن (٨هـ/١٤م) وذلك بعد دخول المرينيين في أزمة سياسية خانقة والمرينيين كما هو معروف كانوا من أقوى المنافسين للزيانيين في تجارة الذهب مع بلاد السودان، وهو الأمر الذي سيفتح المجال لتوغل الزيانيين أكثر فأكثر في المنطقة التي كانت تضمن حاجيات بلاد المغرب من معدن الذهب، وعليه أصبحت تلمسان الزيانية تمثل الوسيط التجاري بين بلاد السودان والممالك الأوربية في حوض المتوسط خلال هذه الحقبة التاريخية، ذلك أن مادة الذهب كانت من بين المواد التي يكثر عليها الطلب في أوربا وهو ما سينعكس إيجابيا على الدولة الزيانية.

لا تتوفر لدينا مادة خبرية ثرية بخصوص المكانة التي اكتسبتها النقود الزيانية في التعاملات المالية مع شركاءها التجاريين باستثناء ما أشار إليه بع الباحثين من أن العملة الزيانية كانت قوية إلى درجة أن بعض المتعاملين التجاريين الأوربيين كانوا يفضلون قبض ما يبيعونه بالعملة الزيانية[٦٤]، وهو الأمر الذي يعني أن نقود الزيانيين كانت لها مكانة ومصداقية لدى الأجانب كما كان الحال مع نقود المرابطين من قبل[٦٥].

وفي السياق ذاته، هناك من الباحثين من ذكر بأن الدنانير الزيانية مثلها مثل دنانير المرينيين والحفصين لعبت دورًا مهمًا ومحوريًا في حوض البحر المتوسط طيلة الفترة الممتدة من القرن (٧هـ/١٣م) إلى القرن (٩هـ/١٥م)، وعند عقد مقارنة بين الوضعية النقدية في بلدان المغرب الإسلامي ونظيرتها الدول

الأوربية خلال الفترة نفسها، يتبين أن الأفضلية والتفوق كان يميل لصالح دول المغرب الإسلامي، ذلك أن هذه الأخيرة كانت تعتمد في سك عملتها على الذهب والفضة، بحيث كان الدينار الزياني من الذهب يقدر عياره ب ٤,٥غ من الذهب، والدرهم الزياني كان عياره ٥,اغ من الفضة[٦٦].

وفي المقابل، كانت الدول الأوربية، وإلى غاية سنة ١٣٠٠م ما زالت لم تضرب عملة ذهبية في معاملاتها التجارية، وفي الوقت الذي تمكنت فيه إمارة مايوركا من سك عملة ذهبية في حدود سنة (٧٠٩هـ/ ١٣١٠م)، أما بالنسبة لإمارة أراغون الإسبانية فقد ظلت تتعامل بالنقود الذهبية الإسلامية خلال الفترة ذاتها، ولعل هذا المر يبين بوضوح مدى تأثير النقود الزيانية وغيرها من نقود دول المغرب الإسلامي في حوض المتوسط في مختلف المعاملات التجارية، وعليه فقد كان الدينار الذهبي الزياني في حدود سنة (٦٨٤هـ/ ١٢٨٦م) يعادل حوالي ثمانية (أي ثمانين درهما فضيا من نقود إمارة Besantsبيسيطا (أراغون[67].

بقدر ما كانت النقود الزيانية تعبر عن مظاهر السيادة والاستقلال، كانت على الجانب الآخر تؤدي وظيفة اقتصادية باعتبارها الأساس الذي تبنى عليه جميع المعاملات ذات الطابع التجاري، وقياسًا على ذلك انتظمت كطرف فاعل في المجال الاقتصادي داخل المدينة الإسلامية وأصبحت أداة ووسيلة لتقييم الحركية الاقتصادية في تلمسان الزيانية.

الهَوامِشُ:

(1) Henri Lavoix, Catalogue Des Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque nationales (Espagne et Afrique), Imprimerie Nationale- Paris, 1891, p 464.

(٢) ابن منضور(ت.٧١١هـ/١٣١١م) **لسان العرب**، طبعة جديدة مصححة وملونة، اعتنى بتصحيحها أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، الطبعة الثالثة، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان ١٩٩٩، ج٦، ص ٣١٠.

(٣) ابن خلدون (ت. ٨٠٨هـ/١٤٠٦م) **المقدمة**، حققها وقدم لها وعلق عليها عبد السلام الشدادي، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، المغرب ٢٠٠٥،ج٥، ص ٣٦، ٤١.

(٤) صالح بن قربة، **"المسكوكات الفاطمية في حضارة المغرب الإسلامي"**، مجلة الثقافة، السنة الثانية والعشرون، العدد ١١٤، وزارة الاتصال والثقافة، الجزائر ١٩٩٧، ص٥٧.

(٥) محمد عبد الستار عثمان، **المدينة الإسلامية**، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٢٨، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٩٨٨، ص٢٧٩- ٢٨٠.

(٦) ابن خلدون (ت. ٨٠٨هـ/١٤٠٦م) **تاريخ ابن خلدون المسمى "ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر"** ضبط ووضع الحواشي والفهارس: خليل شحاذة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت- لبنان ٢٠٠٠، ج٧، ص١٤٠- ١٤١.

(٧) المصدر نفسه، ص ١٤٠- ١٤١.

(٨) المصدر نفسه، ص ١٤٠ – ١٤١ .

(٩) يحي ابن خلدون، **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، تقديم وتحقيق وتعليق: عبد الحميد حاجيات، وزارة الثقافة- الجزائر ٢٠٠٧، ص ٢٠٥

(١٠) مسعود كربوع، **نوازل النقود والمكاييل والموازين في كتاب المعيار للونشريسي**- جمعًا ودراسة وتحليلاً- مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، جامعة الحاج لخضر باتنة- الجزائر ٢٠١٢/٢٠١٣، ص ٩٣.

(١١) خالد بلعربي، **ورقات زيانية، دراسات وأبحاث في تاريخ المغرب الأوسط في العهد الزياني**، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع- الجزائر، ص٦٣.

(12) Atallah Dhina,Les Etats de l'occident Musulman aux XII ,XIV,et XV Siècles, Institutions- Gouvernementales et Administratives, office des publications Universitaires, Alger 1984, pp 206- 207.

(١٣) خالد بلعربي، **التعامل النقدي والأوزان والمكاييل**، ضمن كتاب **"النظم التجارية لدويلات المغرب الأوسط من ظهور الرستميين إلى نهاية الزيانيين ١٦٠-٩٦٢هـ/٧٧٧-١٥٥٤م**، إشراف فاطمة بلهواري، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية- الجزائر ٢٠١٤، ص ١٥٢.

(14) Atallah Dhina, op cit, p 214.

(١٥) خالد بلعربي، **التعامل النقدي**، ص ١٥٢.

(16) Atallah Dhina, op cit, p 214.

(١٧) محمد باقر الحسيني، **"تحقيقات واستدراكات وإضافات على ما ورد في معجم الأنساب لزامباور على ضوء نقود المغرب والأندلس ما بين القرنين ٤- ١٠هـ/ ١٠-١٦م"**، مجلة المؤرخ العربي، السنة السادسة عشرة، العددان ٤١ – ٤٢، ، الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، العراق ١٩٩٠، ص ٢٢١. لم يعط

الكاتب الدليل الذي استند عليه في القول بأن هذا الدينار يعود إلى فترة السلطان يغمراسن بن زيان.

(18) Mohamed El Hadri, Monnaies mérinides et zayyanides au cabinet des Monnaies, Médailles et Antiques de la BNF. [supplément In : Revue numismatique, 6(e) serie- tome 165, année 2009, pp 394- 395.

(19) Atallah Dhina,op cit, pp 222-223.

(٢٠) حاصر السلطان المريني أبو يوسف يعقوب (٦٥١-٦٨٥هـ/١٢٥٨-١٢٨٦م) مدينة تلمسان لثماني سنوات وثلاثة أشهر، وكان حصارًا قاسيًا على المدينة وأهلها نالهم فيها من الجهد ما لم ينله أمة من الأمم، واضطروا إلى أكل الجيف والقطوط والفئران حتى أنهم زعموا أنهم أكلوا فيها أشلاء الموتى من الناس وخربوا السقف للوقود وغلت أسعار الأقوات والحبوب وسائر المرافق بما تجاوز حدود العوائد، وبعد مقتل السلطان المريني المذكور كتب بنو زيان في سكتهم ما أقرب فرج الله. انظر: ابن خلدون، **العبر**، ج٧، ص ١٢٨-١٢٩.

(٢١) رأفت محمد النبراوي، **النقود الإسلامية**، الطبعة الأولى، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة – مصر ٢٠٠٠، ص ٣٢٣- ٣٢٤.

(٢٢) خالد بلعربي، **التعامل النقدي**، ص١٥٥.

(٢٣) رأفت محمد النبراوي، المرجع السابق، ص٣٢٧.

(٢٤) محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص٢٧٩- ٢٨٠.

(٢٥) خالد بلعربي، **التعامل النقدي**، ص ١٣٦.

(٢٦) حسن حافظي علوي، "**جوانب من تاريخ المرابطين من خلال النقود**"، مجلة المناهل، السنة الثانية والعشرو، العدد ٥١، سبتمبر ١٩٩٧، كتابة الدولة المكلفة بالثقافة-المملكة المغربية، ص٣٦٦- ٣٦٧.

(٢٧) سيدة إسماعيل كاشف، "**دراسات في النقود الإسلامية**"، المجلة التاريخية المصرية، المجلد ١٢، ١٩٦٤-١٩٦٥، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مصر، ص١٠١.

(٢٨) عبد اللطيف الخلايبي، **الحرف والصنائع وأدوارها الاقتصادية والاجتماعية بمدينة فاس خلال العصر المريني والوطاسي (٦٦٩-٩٦٠هـ/١٢٧٠-١٥٥٠م)**، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة – مصر ٢٠١١، ص ٥٩.

(٢٩) الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ترجمه عن الفرنسية: محمد حجي ومحمد الأخضر، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان ١٩٨٣، ج٢، ص٢٣.

(٣٠) نصيرة عزرودي، "**الغش في العملة في بلاد المغرب الأوسط من خلال كتب النوازل المتأخرة**"، مجلة المواقف، العدد٦، ديسمبر ٢٠١١، كلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة معسكر-الجزائر ٢٠١١، ص٣٢٢.

(31) Atallah Dhina, op cit, p 205.

(٣٢) الحكيم المديوني، **الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة**، تحقيق: حسين مؤنس، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد ٦، العدد ١-٢، مدريد- إسبانيا ١٩٥٨، ص ١١٦.

(٣٣) مسعود كربوع، المرجع السابق، ص١٠٠- ١٠١.

(٣٤) العقباني، **تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر**، تحقيق: علي الشنوفي، Extrait du Bulletin d'Etudes Orientales de L'institut Français de Damas Tome XIX, 1967 ص١٠٥.

(٣٥) الونشريسي، **المعيار**، ج٢، ص ٤١٤.

(٣٦) الحكيم المديوني، المصدر السابق، ص ١١٢.

(٣٧) الحكيم المديوني، المصدر السابق، ص ١١٦.

(٣٨) الحكيم المديوني، المصدر السابق، ص ١١٦.

(٣٩) الحكيم المديوني، المصدر السابق، ص ١٣٤-١٣٥.

(٤٠) الحكيم المديوني، المصدر السابق، ص ١١٣- ١١٤.

(٤١) الحكيم المديوني، المصدر السابق، ص ١١٣- ١١٤.

(٤٢) عبد اللطيف الخلايبي، المرجع السابق، ص ٦٦.

(٤٣) الحكيم المديوني، المصدر السابق، ص١١٧.

(٤٤) عبد اللطيف الخلايبي، المرجع السابق، ص٦٨.

(٤٥) عبد اللطيف الخلايبي، المرجع السابق، ص ٦٩.

(٤٦) عبد اللطيف الخلايبي، المرجع السابق، ص٦٩- ٧٠.

(٤٧) الموساوي العجلاوي، "**مصطلحات السكة والصياغة وتطور الدلالة**"، مجلة اللسان العربي، العدد٤٦، ديسمبر ١٩٩٨، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مكتب تنسيق التعريب، الرباط – المملكة المغربية، ص١٢٩-١٣٠-١٣١-١٣٢-١٣٣-١٣٤.

(٤٨) ابن منظور، **لسان العرب**، ج٦، ص ١٦٢.

(٤٩) الحكيم المديوني، المصدر السابق، ص٩٣.

(٥٠) الحكيم المديوني، المصدر السابق، ص٩٤.

(٥١) الحكيم المديوني، المصدر السابق، ص٩٥.

(٥٢) الحكيم المديوني، المصدر السابق، ص٩٦.

(٥٣) عبد اللطيف الخلايبي، المرجع السابق، ص ٧٤- ٧٥.

(٥٤) عبد اللطيف الخلايبي، المرجع السابق، ص ٧٥.

(٥٥) الحكيم المديوني، المصدر السابق، ص ١١٥.

(٥٦) عبد اللطيف الخلايبي، المرجع السابق، ص٧٥.

(٥٧) ابن خلدون، **المقدمة**، ج٢، ص٤١.

(٥٨) ابن قربة صالح، **المسكوكات المغربية من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة بني حماد**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الآثار الإسلامية، جامع الجزائر، معهد العلوم الاجتماعية ١٩٨٢- ١٩٨٣، ص ١١- ١٢.

(٥٩) عاطف منصور محمد رمضان، **النقود الإسلامية وأهميتها في دراسة التاريخ والآثار والحضارة**، الطبعة الأولى، زهراء الشرق، القاهرة- مصر ٢٠٠٨، ص ٣٦٠.

(٦٠) ابن قربة صالح، **المسكوكات المغربية**، ص١٧.

(٦١) عاطف منصور محمد رمضان، المرجع السابق، ص ٣٦٠.

(٦٢) ابن قربة صالح، **المسكوكات المغربية**، ص١٩.

(63) Atallah Dhina, op cit, p p 223- 224.

(٦٤) خالد بلعربي، **التعامل النقدي**، ص١٥٥.

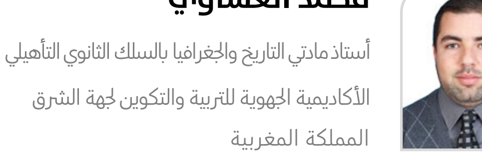
(٦٥) يذكر أحد الباحثين في هذا الشأن، بأن العملة المرابطية تمتعت بثقة كبيرة في مجال المبادلات وسجلت حضورا قويا في الحوض الغربي للبحر المتوسط، فعمل القشتاليون مثلاً على تقليد الدينار المرابطي في محاولة منهم لتدعيم قيمة عملتهم وجعلها قادرة على المنافسة. انظر: حسن حافظي علوي، "**جوانب من تاريخ المرابطين من خلال النقود**"، مجلة المناهل، السنة الثانية والعشرون، العدد ٥١، شتمبر ١٩٩٧، كتابة الدولة المكلفة بالثقافة، المغرب ١٩٩٧، ص٣٦٧- ٣٦٨.

(66) Atallah Dhina,Le Royaume Abdelouadide A L'époque D'abou Hammou Moussa 1(er) et D'abou Tachfin 1(er), Office des Publications Universitaires- Alger 1985, p p 170-171.

(67) Ibid, P.171.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

تاريخ المهمشين في الغرب الإسلامي الوسيط
من خلال كتابات الأستاذ إبراهيم القادري بوتشيش
قضايا وإشكالات



محمد العساوي

أستاذ مادتي التاريخ والجغرافيا بالسلك الثانوي التأهيلي

الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة الشرق

المملكة المغربية



مُلَخّص

تميز البحث التاريخي غداة حصول المغرب على الاستقلال بمحاولات الباحثين المغاربة الرد على الكتابات الكولونيالية، ومحاولة الكشف عن حصيلة الاستعمار وآثاره على المجتمع والاقتصاد المغربيين، لكن في سنوات السبعينيات انتقل الدارسون والباحثون في علم التاريخ إلى الاهتمام بمواضيع أخرى، والتي يمكن تصنيفها إلى ثلاث اتجاهات رئيسة، الاتجاه الأول انكب في عملية تحقيق النصوص التاريخية، بينما الاتجاه الثاني ذهب إلى البحث في التاريخ العلائقي (أي تاريخ العلاقات المغربية بالدول الأخرى)، أما الاتجاه الثالث فاتخذ مسار البحث المونوغرافي كهدف له بُغية التأريخ لمختلف المناطق المغربية. كما تميزت هذه المرحلة كذلك بانتقال نوعي من حيث المادة المصدرية، إذ تم تجاوز المصادر الإرادية كالوثائق الرسمية وكتب الأخبار إلى الاعتماد على أجناس مصدرية لاإرادية (المصادر الدفينة) ككتب النوازل، والتراجم، والمناقب، والحسبة، والرحلات، وحتى الرواية الشفهية بالنسبة للتاريخ المعاصر. وخلال أواخر القرن الماضي ومطلع القرن الحالي، اقتحم المؤرخون مواضيع كانت في السابق حكرا على الجغرافيين والسوسيولوجيين والأنثروبولوجيين، وبرزت معها مجالات بحثية جديدة في الحقل التاريخي بمختلف حقبه لم تكن مطروحة في السابق والتي يمكن تصنيفها ضمن خانة "التاريخ الجديد"، الذي نادت به في أوربا مدرسة الحوليات خلال عشرينيات القرن الماضي، ومن الأسماء المغربية البارزة التي اقتحمت هذا المجال، وصنعت لنفسها مكانا متميزا في فضاء التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والذهني للغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط، نجد الدكتور إبراهيم القادري بوتشيش، الذي انكب منذ سنوات في مشروع بحثي يرتكز على دراسة تاريخ الهامش والمهمشين بمختلف أطيافهم في هذه الرقعة الجغرافية من الوطن العربي، متسلحا بخلفية منهجية ونظريات أوربية، تقوم على لم الإشارات التاريخية المتناثرة هنا وهناك، والعمل على إخراجها إلى الوجود، بُغية تسليط المزيد من الأضواء على هذه الفئات الاجتماعية التي همشها التاريخ.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٢٠	مايو	٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر:	٣٠	مايو	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

المهمشين؛ الغرب الإسلامي؛ العصر الوسيط؛ إبراهيم القادري بوتشيش؛ التاريخ الجديد؛ المصادر الدفينة.

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.167559

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محمد العساوي، "تاريخ المهمشين في الغرب الإسلامي الوسيط من خلال كتابات الأستاذ إبراهيم القادري بوتشيش: قضايا وإشكالات".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد الثامن والأربعون؛ يونيو ٢٠٢٠. ص ٧٨ – ٨٦.

Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: elaissaoui-mohamed@hotmail.com

Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

مُقدِّمَةُ

ما زال موضوع التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والذهني للغرب الإسلامي، يكتنفه الكثير من الغموض، بسبب قلة المادة المصدرية التي اهتمت بمثل هكذا مواضيع، وإذا كانت هذه المعضلة تعد من المسلمات التي اعترف بها كل من عارك هذا الميدان، فإن المشكل يتعاظم ويزداد حدة بالنسبة للفئات المستضعفة التي ظلت مهمشة قابعة في زوايا الإهمال والنسيان، فحتى المصادر التي صمدت لقرون من الزمن، ووصلت إلينا سالمة لنستقي منها معلوماتنا هي في الغالب مصادر رسمية، لم تحفل سوى بالتاريخ السياسي والعسكري، وتاريخ الخلفاء والسلاطين وحاشيتهم، ووصف بلاطاتهم، أو ذكر مناقبهم ومحاسنهم التي وصلت أحيانا إلى حد المعجزات والخوارق[١].

أما الفئات المستضعفة فقد وقفت منهم هذه المصادر الرسمية موقفا مضادا، وصبت عليهم جام غضبها، معتبرة إياهم مجرد "أراذل" و"سفهاء" و"سفلة"...، بل إنها تفننت في تحايلها لتشويه مواقفهم، فنعتتهم ب "المروق" و"الخروج عن السنة والجماعة"...[٢]، ومن تم يتضح أن الإشكالية لا تكمن فقط في غياب المصادر والوثائق فحسب، بل حتى في طبيعة تلك المصادر التي تتوفر بين أيدي الباحثين اليوم، إذ أن مادتها تزخر بالتزييف والتحريف، وتنم عن الكراهية والتحامل، وتنطق بالتعصب والعداء.

والأدهى من ذلك، أن هذه الفئات المقهورة، لم تخلف لنا أثرًا تاريخيًا نستعين به لدحض التهم التي كال لهم الخصوم جزافا، أو نستجلي على الأقل أوضاعها، ومكوناتها الفكرية والإيديولوجية، وهذا الأمر هو الذي يفسر إحجام الباحثين عن الخوض في هذا الموضوع بميكانيزماته المعقدة، ومعوقاته الواضحة، غير أن مثل هذا الصمت لا يحل المشكل، بقدر ما يزيد في تجدره.

ولحسن الحظ، فإن بعض الباحثين اتجهوا في السنوات الأخيرة نحو محاولة الكشف عن جوانب من التاريخ الاجتماعي والاقتصادي وتاريخ الذهنيات في الغرب الإسلامي، معتمدين في ذلك على ما أسماه المؤرخ المغربي محمد المنوني[٣] (رحمه الله) بالمصادر الدفينة، التي تشمل كتب النوازل والفتاوى، والحسبة، والأمثال الشعبية، فضلا عن كتب الرحلات والطبقات والتراجم والفرق الكلامية، وكلها أدوات تساهم وبنفس الحجم في إيجاد حل لمعضلة التأريخ للطبقات المستضعفة التي ظلت على هامش التاريخ.

ومن الأسماء التي سطع نجمها في سماء التاريخ الاجتماعي والذهني للطبقات المهمشة في الغرب الإسلامي، نذكر الدكتور والباحث المغربي إبراهيم القادري بوتشيش الذي تمكن من رسم مسار بحثي كان بكرا في ساحة البحث التاريخي العربي، حيث يقول في هذا الصدد: "بدأ اهتمامنا بهذا المشروع - تاريخ المهمشين - منذ أواخر السبعينيات ضمن مشروع أكاديمي جامعي تبناه المفكر العربي المصري محمود إسماعيل من خلال إشرافه على مجموعة من الأطاريح التي أسفرت عن صدور عدد من المؤلفات لكل من كاتب هذه السطور والأساتذة الباحثين أحمد الطاهري وعبد الإله بنمليح وحسين خالد وغيرهم من الباحثين، لكن أول بحث نشرته في هذا المنحى صدر تحت عنوان "تاريخ المستضعفين في التاريخ الإسلامي: نموذج من الأندلس"، نشر بمجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمكناس، في عددها الأول سنة (١٩٨٦)، وما يزال هذا المشروع الأكاديمي متواصلا مع جملة من تلامذتي الذين نشروا مؤلفات وأبحاث تصب في هذا المجال"[٤].

وهكذا استطاع الأستاذ القادري بوتشيش بجده واجتهاده وتكوينه المتميز في تسليط المزيد من الأضواء على مواضيع ظلت في الأمس القريب ضمن المسكوت عنه في تاريخ الغرب الإسلامي، مستعينا بخلفية منهجية ونظريات أوربية فيما ما اصطلح عليه بـ "التاريخ الجديد" الذي قاده ثلة من المؤرخين الأوربيين أمثال لوسيان فافر ومارك بلوخ، محدثين ثورة في دائرة البحث التاريخي، وذلك من خلال نهج توجه جديد سنة (١٩٢٩) سمي بـ "مدرسة الحوليات"، وهذا المسار المستحدث هو بمثابة "تاريخ من أسفل" أي أنه يركز على دراسة تاريخ المجتمعات ومعتقداتهم وسلوكهم وحياتهم اليومية...، بعيدا عن تاريخ الطبقة الحاكمة وما يحيط بها من أمور سياسية وعسكرية، وللإحاطة بالموضوع ومحاصرته قدر الإمكان فقد تم اختيار الإشكاليات التالية: من هم المهمشون؟ ولماذا غيبتهم المصادر التاريخية؟ وما الصعوبات والتحديات التي تواجه الباحثين الذين يلجون عوالم هذه الفئة؟ وإلى أي حد ساهمت كتابات الأستاذ إبراهيم القادري بوتشيش في الكشف عن تاريخ الهامش والمهمشين في الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط؟

أولاً: ورقة تعريفية بالأستاذ الدكتور إبراهيم القادري بوتشيش

١/١-المولد والنشأة والمسار العلمي:

ولد الباحث إبراهيم القادري بوتشيش سنة (١٩٥٥) بالمغرب، حصل على الإجازة في الآداب -تخصص تاريخ وجغرافيا - من جامعة سيدي محمد بن عبد الله بمدينة فاس سنة (١٩٧٧)، وعلى شهادة الدراسات العليا في التاريخ الوسيط من نفس الجامعة سنة (١٩٧٨)، وعلى شهادة السنة الثانية من شعبة العلوم السياسية ـ فرع القانون العام -، من نفس الجامعة أيضا سنة (١٩٧٩)، وعلى شهادة الكفاءة التربوية، من المدرسة العُليا للأساتذة بالرباط (١٩٧٩)، وعلى دبلوم الدراسات العليا المعمقة في التاريخ الوسيط، من جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس سنة (١٩٨٤)، وعلى دكتوراه الدولة في التاريخ الإسلامي الوسيط من جامعة مولاي إسماعيل بمدينة مكناس سنة (١٩٩١)[٥].

٢/١-المناصب التي تقلدها:

- أستاذ ممارس: تخصص التاريخ الإسلامي الوسيط بجامعة مولاي إسماعيل بمدينة مكناس.
- عضو جمعية أساتذة التاريخ والجغرافيا بمكناس.
- عضو هيئة تحرير مجلة "مكناسة" الصادرة عن كلية الآداب بمكناس.
- مستشار في جمعية المؤرخين المغاربة بالرباط.
- رئيس وحدة البحث والتكوين في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للغرب الإسلامي.
- رئيس المجموعة المغاربية للدراسات التاريخية والأثرية والحضارات المقارنة.
- عضو جمعية الباحثين في الغرب الإسلامي.
- مشرف على رسائل وأطروحات جامعية.
- عضو الجمعية المغربية للبحث التاريخي.
- عضو اتحاد المؤرخين العرب.
- عضو الجمعية الإفريقية لدراسات تاريخ الأديان.
- عمل أستاذا زائرًا في جامعة السلطان قابوس بسلطنة عمان وجامعة صنعاء، والجامعة التونسية، ومحاضرا في بعض الجامعات الفرنسية[٦].

٣/١-إنجازاته العلمية:

للأستاذ إبراهيم القادري بوتشيش إنتاج غزير في مجال التاريخ والفكر، حيث ألّف عشرين كتابا، وما يزيد على مائتي بحث منشور في مجلات محكّمة يصب معظمها في تاريخ المهمشين ومجال المتخيل والتمثلات الشعبية وحركات المعارضة، وهو متميز بمنظوره التجديدي في قراءة التاريخ، وبتطوير مناهجه التي جعلته يحصل على جوائز علمية عديدة سنوات (٢٠٠٣، ٢٠٠٤، ٢٠٠٥، ٢٠٠٨، ٢٠١٥)، كما له مساهمات كثيرة في عدد من المؤتمرات داخل المغرب، وفي العالم العربي وأوربا وآسيا وأميركا[٧].

ومن أشهر مؤلفاته نذكر:

- إسهامات في التاريخ الاقتصادي -الاجتماعي لمدينة مكناس خلال العصر الوسيط.
- خطاب العدالة في كتب الآداب السلطانية.
- المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي: إشكاليات نظرية وتطبيقية في التاريخ المنظور إليه من أسفل.
- مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين.
- التصوف السني في تاريخ المغرب.
- حلقات مفقودة من تاريخ الحضارة في الغرب الإسلامي.
- بين أخلاقيات العرب وذهنيات الغرب.
- إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي وتاريخه الاقتصادي والاجتماعي.
- مستقبل الكتابة التاريخية في عصر العولمة والأنترنت.
- الإسلام السري بالمغرب العربي.

ثانيًا: المهمشون في الغرب الإسلامي (قضايا وإشكالات)

١/٢-المهمشون وإشكالية المصطلح:

يشكل موضوع المهمشين خطابا جديدا لقراءة وفهم التاريخ، ويفتح أبوابا كانت موصدة فيما قبل على المؤرخ، فهذه الفئة اختلف المؤرخون في مسمياتها، فبالإضافة إلى المهمشين، هناك من يطلق عليها "المنسيين" أو "المستضعفين" أو "تاريخ من لا صوت لهم" أو "التاريخ الصامت" أو "التاريخ المسكوت عنه" أو "تاريخ العامة" أو "التاريخ من أسفل"، ومن هنا يمكننا طرح التساؤل الآتي: من هم المهمشون؟

يقر كل الدارسين لتاريخ المهمشين ومن ضمنهم "جان كلود سميث" (J.C.Smith)[8] بصعوبة تحديد معنى دقيق للمهمش، وذلك بسبب تعدد مستوياته المتراوحة بين مستوى التموقع

الشكلي داخل المجتمع، وبين مستويي الإقصاء الكلي من المجتمع أو الاندماج فيه، وإن كان يرجح في موضع آخر أن مفهوم الهامشي يتأسس على التاريخ الذي ينطلق من "المركز" أي التاريخ الذي لا يحتسب إلا الأدوار التي قامت بها نخب السلطة والثروة والنخبة العالمة، وهو مفهوم يؤثث منظوره على أساس أن المركز يشكل مصدر التحكم في رسم معايير الأخطاء والانحرافات الأخلاقية وغيرها من النظم القيمية التي تبنى عليها منطلقات المؤرخ ومواقفه من الهامشيين[٩]، لذلك حق له القول إنه "لا يمكن انطلاقًا من المركز أن ننظر إلى مجتمع بأكمله، ولا أن نكتب تاريخه بطريقة أخرى إلا بإعادة الخطاب الاجماعي للماسكين بالسلطة... والتساؤل عن المنبوذين والصامتين في التاريخ التقليدي"[١٠].

ومن هذه النظرة ل "جان كلود سميث" نجد الأستاذ إبراهيم القادري بوتشيش يشاطره الرأي في أن قراءة التاريخ انطلاقا من المركز تفرز تاريخا مبتورا يتمحور حول السلطة، ويقصي تاريخ الفئات الصامتة، إلا أن الباحث لا يقتصر على هذا المفهوم في شكله العائم لسبب بسيط، وهو أن بعض الحالات في التاريخ سجلت تهميش حتى بعض النماذج المنتمية إلى خانة النفوذ والجاه والسلطة[١١]، بناء على قاعدة أن التاريخ يكتبه المنتصرون[١٢].

لذلك يعتقد القادري بوتشيش أن مفهوم المهمش يمكن أن يتمطط ليشمل كل "المغضوب عليهم" من جانب السلطة، سواء كانوا من تلك الفئات المنبوذة التي ظل صوتها مكتوما، أو تلك التي تم تحويل صوتها مع مجيئ الغازي والمنتصر إلى صوت مبحوح طواه الزمن، وبكلمات أخرى فإن مفهوم المهمش لا يستند على مقولة قراءة "التاريخ من أسفل" فحسب بل يشمل كل من أُقصي من الكتابة التاريخية[١٣].

٢/٢-المهمشون وإشكالية تغييبهم في المصادر التاريخية:

لفهم ظاهرة تغييب تاريخ الهامش والمهمشين بالغرب الإسلامي سواء عن قصد أو بدون قصد، لابد من استحضار نص يشكل النموذج المهيمن في الكتابة التاريخية الوسيطية، كتبه المؤرخ المغربي "ابن أبي زرع الفاسي" (القرن الثامن الهجري) في مؤلفه المُعنون ب "الأنيس المُطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس"، إذ يقول فيه واصفا الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين: "صفته: أسمر اللون نقي، معتدل القامة، نحيف الجسم، خفيف العارضين، رقيق الصوت، أكحل العينين، أقنا الأنف، له وفرة تبلغ شحمة أذنيه، مقرون الحاجبين، جعد الشعر، وكان رحمه الله بطلاً نجدًا شجاعًا حاسمًا مهابًا ضابطًا لملكه..."[١٤]، ويستمر هذا الوصف الدقيق لشخصية يوسف بن تاشفين أكثر من صفحتين.

إن الشكل السردي الذي قدمه هذا المؤرخ في وصف الحاكم المرابطي، وهو النموذج الذي سار على هديه معظم المؤرخين العرب – باستثناء الفرقة الناجية منهم وهم أقلية – يعكس خللا واضحا في المنهج التاريخي، ففي الوقت الذي وصف الخليفة من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه، مع ذكر الجزئيات الدقيقة من ملامح وجهه، لم يتعامل بنفس السخاء مع شرائح المجتمع المهمشة من فلاحين ورعاة وحرفيين، بل لم يكتب ولو كلمة واحدة حول المتشردين والمنبوذين والمتسولين.

ولا شك أن العلامة ابن خلدون فطن إلى القصور الحاصل في المنهج التاريخي العربي، من خلال انتقاده للتاريخ السلطاني وإدانته لإقصاء تاريخ المهمشين، فأعاد طرح السؤال المنهجي حول جدوى الكتابة التاريخية، وموقع المهمشين فيها[١٥]، وهو ما يتجلى من خلال تمريره إشارتين متشبعتين بحمولات دلالية وردتا ضمن النصوص المقدمة، محدثا بذلك هزة عنيفة في مسار التاريخ السلطاني المألوف والمتواتر:

- تتمثل الإشارة الأولى في انتقاده اللاذع لمنهجية التاريخ السلطاني المتحكمة في إنتاجات أقرانه من المؤرخين، والتي أفرزت "ذهنية بلاطية" متفننة في سرد تاريخ الحاكم، فقد عاب عليهم إطنابهم في وصفه ووصف حاشيته وشارات ملكه، والإغراق في "الثرثرة" الإنشائية من خلال ذكر تفاصيل الجزئيات عما كتب في نقش خاتمه ووصف ثيابه، لذلك وصفهم ب "التقليد والغفلة" لأنهم أغفلوا ذكر من أسماهم ب "صانعي وسائل المعاش"، أي ما نسميهم نحن بالقطاعات المهمشة[١٦].

- أما الإشارة الثانية فتكمن في إحالته على المؤرخ المسعودي كرمز ونموذج للمؤرخ المحترف الذي يمتلك ناصية المنهجية التاريخية السليمة، خاصة في كتابه "مروج الذهب ومعادن الجوهر" الذي شرح فيه – حسب ابن خلدون نفسه – "أحوال الأمم وذكر نحلهم وعوائدهم، ووصف الجبال والبحار وفرق شعوب العرب والعجم فصار إماما للمؤرخين"[١٧]، بمعنى أن ابن خلدون يحيل في تصوره المنهجي النموذجي على التاريخ الكلي الذي عبر عنه ب "أحوال الأمم"، كما يشيد في هذا التصور النموذجي أيضا بأهمية دراسة العوائد والطباع والسلوك عند الأمم، وكذلك دراسة مجال البحر والجبل وتأثيرهما في العوائد.

يُعَدّ بيان رأي ابن خلدون -الداعي إلى تأسيس منهج جديد لدراسة الشعوب والأمم – أول صيحة منهجية فطنت إلى أهمية دراسة تاريخ المهمشين، ومقابل ذلك فإنه انتقد بشدة تهاونات مدرسة التاريخ السلطاني، واعتبرها مسؤولة عن تغييب قوى فاعلة، وعدم استحضار ذهنيات مجتمعية، وعادات وتقاليد يمكن من خلالها رؤية التاريخ رؤية سليمة، وهو ما يعكس وقوفه على خلل طال منهج التاريخ العربي – الإسلامي، يكمن سببه الأساسي في طمس تاريخ الفئات المهمشة.

وعلى محك هذا الطرح الخلدوني حاول الأستاذ إبراهيم القادري بوتشيش تفسير إهمال تاريخ الهامش والمهمشين من قبل المصادر التاريخية الوسيطية في الغرب الإسلامي، وأعزاها إلى العوامل الآتية:

- **عوامل الطمس والتعتيم المتعمد**: تميز مؤرخ السلطة بنظرة سطحية لاقتصاره على جمع أحداث تاريخية وعسكرية وتدوينها من دون استنطاق مكوناتها وتجلياتها، لذلك يوضح القادري بوتشيش أنه على الرغم من الأدوار الشامخة التي قامت بها شرائح المجتمع المهمشة داخل مجتمعاتها، فإنها لم تذكر في المصادر التقليدية إلا بنصف الكلمات، وهذا أمر بديهي إذا وضعنا في الحسبان موقع المؤرخ الاجتماعي، وموقفه من صراع الحاكم والمحكوم، والتوتر الذي ميز علاقة الطرفين، إضافة إلى مكوناته الثقافية ونظرته القاصرة إلى التاريخ[18].

- **عامل سياسي**: بقي المؤرخ حبيس رؤية البلاط للآخر، ذلك أنه ليس له حرية ومنطلق معينان ومبادئ شخصية يلتزم بها، بل يُردد ما يقوله السلطان[١٩].

- **عامل الرقابة**: شكل تحديا بالنسبة للمؤرخ، وهكذا راح يسعى في كتاباته إلى التركيز على هذا العامل، وإقصاء كل ما يخالفه، وهو أمر جعله يُصنّف محاولات الخروج على السلطة بوصفها مساسا بوحدة الدولة وتماسكها، وانطلاقًا من هذه الرؤية صنف مؤرخو السلطان المهمشين ضمن الفاسقين والرعاع[٢٠]، وهو أسلوب "ذكي" في الظلم وعدم الإنصاف، ما يفرض على الباحث النزيه إعادة تقييم هذه الحركات المظلومة بنقد ما هو متواتر وخلخلته، وإعادة الدراسة والتحليل انطلاقًا من نظرة شمولية تربط هذه الحركات بواقعها، وبالمعتقدات والنظم السائدة[٢١].

- **عامل التفسير الديني**: ذلك أن مؤرخ السلطان غالبًا ما يفسر الأحداث انطلاقًا من خلفية دينية، فيحصر الحدث التاريخي ويقرؤه من زاوية العناية الإلاهية[٢٢].

- **عامل التفسير الفردي للأحداث التاريخية**: ينطلق المؤرخ من منطلق تقديس الحاكم وجعله مدار الأحداث التاريخية والبطل الوحيد والقائد المحنك صاحب الانتصارات المدوية[٢٣].

ثالثًا: تاريخ المهمشين في كتابات الأستاذ الدكتور إبراهيم القادري بوتشيش. كتاب "تاريخ المستضعفين: نماذج من الغرب الإسلامي أو الإسلام السري بالمغرب العربي – أنموذجًا"

يتكون هذا الكتاب من عشر دراسات تَسع لـ (٢٤٦) صفحة من الحجم الصغير، وهو عبارة عن مجموع مقالات كتبها المؤلف في مناسبات مختلفة وارتأى نشرها في كتاب واحد، وهو أمر له ما يبرره، فالمواضيع يجمع بعضها خيط رابط، باعتبار مقاربة المؤلف التي أرادها متميزة وأصيلة وباعتبار نوعية القضايا التي أثارها، وهي مواضيع كلها تصب في التاريخ الاجتماعي والذهني للفئات المهمشة في الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط، أما محاور هذا الكتاب فجاءت وفق الشكل التالي:

١/٣-حركة المتنبئين والسحرة في الغرب الإسلامي (إعادة تقويم لحركة حاميم خلال القرن الرابع الهجري):

أراد المؤلف من هذا البحث أن يربط ظهور هذه الديانة بالسياق العام لتاريخ المغرب، وبعد استعراض آراء مختلف الباحثين الذين تطرقوا للموضوع، يقترح قراءة جديدة تتناول العوامل الاقتصادية والثقافية والمحلية، علاوة على السياق العام للتاريخ الإسلامي وضعف الخلافة، ثم ينصب بعد ذلك على دراسة ديانة حاميم ونبوءته في محور ثان، مستخلصًا في نهايته مجموعة من الأسباب التي أدت إلى توقف هذه التجربة[٢٤].

٢/٣-الحركة المسرية: بين الواقع ومحاولات التزييف:

هناك عدة حركات لثوار في الغرب الإسلامي نجحوا إلى حد بعيد في مناهضتهم للدول، ومن بينها الحركة المسرية التي لعبت دورا متميزا في تاريخ الأندلس السياسي والمذهبي، ونجحت في زعزعة الحكم الأموي بقرطبة، وقاد هذه الثورة محمد بن عبد الله بن نجيع ابن مسرة وهو من الموالي، اشتهر بالعلم وبالاطلاع الواسع على مختلف المعارف من فلسفة وطب وتصوف وكلام.

وقد تزعم ابن مسرة حركة مناهضة للإقطاعية السائدة بالأندلس، والتي تسببت في تزايد الفوارق الاجتماعية، كما كان عليه، وهو المتصوف الزاهد أن يواجه المذهب المالكي الرسمي

ويعلن حربا ضد حكومة قرطبة، فاتُّهم بالزندقة وهو بريء منها، وقد اتخذت الحركة المسرية صبغة دينية، لكنها حملت بعدًا اجتماعيًا[٢٥].

٣/٣-حركة علي بن يدر من خلال مراجعة جديدة:

ثمة حركات في تاريخ المغرب، لا تزال تلفها سحب كثيفة من الغموض، رغم المكانة المهمة التي احتلتها في خريطة الصراعات السياسية، والبصمات الواضحة التي نحتتها في مسار التاريخ المغربي، ومن هذا القبيل، حركة علي بن يدر الهنتاتي الزكندرى التي اندلعت في أواخر العصر الموحدي، واستمرت خلال العصر المريني الأول، وانتهت بتأسيس إمارة مستقلة في الجنوب دامت ما يربو على الثمانين سنة، مشكلة بذلك معلمة أساسية تستحق الدراسة والاستقصاء.

ومع ما يمثله هذا الحدث التاريخي من أهمية، فإن الأسطوغرافيا التقليدية لم تخصص له سوى إشارات باهتة، وأخبار متفرقة ومقتضبة، أما بعض التفاصيل التي كتبت حول حركة بن يدر، فإنها وردت بكيفية عفوية من أقلام بعض المؤرخين، أثناء سردهم لأخبار صراع الأمراء الموحدين والمرينيين معها، وهي على كل حال، لم تتجاوز مستوى القذف والشتم، وكل ما يفوح برائحة المقت والكراهية، ولا غرو فقد كالوا لزعيمها كل العبارات المستهجنة، فنعتوه ب "اللغوى" و "المنافق" و "المفسد"، وعدوا أنصاره في جملة "الأشقياء" و"المخربين"، ونحو ذلك من أساليب اللوم وعبارات الذم الأخلاقي.

من هذا المنطلق المتعصب، يجد الدارس اليوم نفسه أمام إشكالية حقيقية كلما حاول أن يستنطق النصوص حول أهداف الحركة وحوافزها، وأسسها الإيديولوجية، وكذا النظام الذي تبنته في مرحلة بسط سلطتها على جزء مهم من الجنوب المغربي، فالمصادر لاذت بالصمت تجاه هذه القضايا، باستثناء شذرات متناثرة تخص بدايتها الأولى.

ومن هنا يقر الأستاذ إبراهيم القادري بوتشيش على أن كل من عارض النظام في تاريخ الغرب الإسلامي يمكن اعتباره ضمن خانة "المهمشين"، أي أن هذه الطبقة لا تندرج ضمنها فقط الفئات الدنيا من المجتمع كما هو شائع، بل حتى الذين كان لهم نفوذ ولم يؤرخ لهم، والأخطر من ذلك أن بعض المؤرخين المشهورين اتهموهم ووصفوهم بألقاب الدونية والكراهية، ليس لسبب منطقي سوى أنهم عارضوا بأفكارهم الأنظمة الحاكمة[٢٦].

٤/٣-الحركة الحفصونية: مقاربة على ضوء النمط الإقطاعي:

يشير المؤلف في بداية هذا البحث إلى أن المصادر الأندلسية اعتبرت حركة ابن حفصون كحركة شغب وتمرد، وأن الدراسات المعاصرة تناولت الموضوع من زاوية عنصرية صرفة باعتبارها مؤشرًا على يقظة الوعي الإسباني، ويميل المؤلف إلى اعتبار الحركة إفرازًا لانتفاضة فلاحين وأقنان ناهضوا الظلم المسلط عليهم، ولإثبات ذلك يقوم الباحث بدراسة الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية على ضوء النمط الإقطاعي السائد[٢٧].

٥/٣-الجوانب الخفية في حركة التصوف وكرامات الأولياء بالمغرب (العصر المرابطي والموحدي نموذجًا):

منذ البداية يعلن الباحث اختلافه مع بقية الباحثين الذين تناولوا موضوع الكرامات، التي يرى أنها تمثل في الواقع نتاجا اجتماعيا، ثم بعدها تطرق إلى مختلف الفئات التي تبنت الكرامة، مشيرا إلى أن كرامات الأولياء هي إفراز لمرحلة ظلامية توافق أحوال الأزمات، وانطلاقًا من ذلك يقوم القادري بوتشيش بتحليل أوضاع المغرب على عهد الدولتين المرابطية والموحدية خصوصًا خلال فترات الأزمة، وهو ما سمح له باستنتاج أن الخطاب الكرامي هو انعكاس لفكر قاعدي جماهيري أتى بحلول لبناء المجتمع الأمثل، ولتوضيح كلامه يقترح الباحث تحليلاً سيميائيًا لبعض الكرامات التي تتكرر في المتون المناقبية كالحج والوضوء والمشي على الماء وتحويل التراب إلى ذهب.

إن وظيفة الكرامة إيديولوجية بالأساس وتهدف إلى الدفاع عن المضطهدين وأدب المناقب يعكس القطيعة بين الدولة والمجتمع من جهة ويشتغل ككابح للنزوات المادية التي يتميز بها الجمهور[٢٨].

٦/٣-الأيتام في الأندلس من خلال وثيقة تعود إلى العصر المرابطي:

اعتمد الأستاذ إبراهيم القادري بوتشيش للحديث عن هذه الفئة على وثيقة استقاها من نوازل ابن الحاج، وهي عبارة عن عقد إشهاد يخص يتيمة وضعها أبوها تحت وصاية رجل، ومن تم جعل هذه الوثيقة كأرضية لتفسير تغييب الأيتام في المصادر التاريخية، معتبرًا أن نظرة المجتمع لهم ك "قاصرين" يعيشون تحت الوصاية، وبالتالي لم يكن بمقدورهم لعب أي دور إن على صعيد الإنتاج الاقتصادي، أو على المستوى الثقافي والسياسي، ومن ثم لم يظفروا بالتفاتة مهمة من جانب المؤرخين[٢٩].

٣/٧-المتسولون في المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين والموحدين:

أكد المؤلف أن أوضاع القرن السادس الهجري أدت إلى حصول تحولات اقتصادية زادت من استفحال الفوارق الطبقية وكان من نتائجها ظهور شريحة المتسولين، وبعد رصد أعدادهم المتزايدة وأماكن تجمعهم وأدوار المحسنين والمتصوفة يخلص المؤلف إلى أن موقف المرابطين والموحدين ظل سلميا ولم يبذلا أي مجهود لاستئصال شأفة ظاهرة التسول[٣٠].

٣/٨-العوام في مراكش خلال القرن السادس الهجري: نماذج من تاريخ المستضعفين في حواضر الغرب الإسلامي:

تم تهميش تاريخ العوام في هذه المدينة، وهو أمر راجع حسب رأي القادري بوتشيش إلى شح النصوص، وتناثرها بين أمهات المصادر فضلا عن ندرة المصنفات التاريخية المونوغرافية الخاصة بمدينة مراكش خلال العصرين المرابطي والموحدي، ناهيك عن كون قسط وافر من مصادر تاريخ المغرب العام لذات الحقبة قد عفا عنها الزمن. إن المخيال الاجتماعي خلال العصر الوسيط نظر إلى هذه الفئة بكونها **"سواد الناس"** الذين لا يملكون السلطة، ويعيشون في عالم له أبعاده الفكرية والدينية التي تتدنى عن مستوى "عالم الخاصة"، ومن ثم فإن إهمالهم وتهميشهم يظل مسألة مشروعة حسب هذه النظرة الضيقة[٣١].

٣/٩-لماذا غُيِّبت الفئات الشعبية من تاريخ المغرب الشرقي الوسيط؟:

يبدأ الباحث حديثه في هذا البحث بطرح جملة من الإشكالات الجوهرية من قبيل: هل ثمة مشروعية لتغييب تاريخ الفئات الشعبية من طرف مؤرخي العصور الوسطى؟ ألأنهم لم يلعبوا دورا أساسيا في تاريخ المنطقة؟ ألأنهم شكلوا تيارا مضادا يعوق تطورها؟ إذا كان الأمر كذلك فمن حق المؤرخين أن يهملوهم وأن يدينوهم، ولكن الثابت من خلال الإشارات المتناثرة التي وردت بكيفية عفوية من طرف هؤلاء المؤرخين أنفسهم، أنهم لعبوا دورًا طلائعيًا في تاريخ المنطقة.

فمما لا شك فيه أن جماهير المغرب الشرقي كانوا أول من اعتنق الإسلام في المغرب الأقصى، بل إنهم شكلوا جند الحملة الثانية التي قادها عقبة بن نافع أثناء توغله في المغرب، وأصبحوا المدافعين المتحمسين عن العقيدة الجديدة التي جاءت تحمل بين طياتها فكرة المساواتية وإلغاء الاستغلال الطبقي.

ومن هذا المنطلق ساهموا في الثورات الخارجية التي عمت طول بلاد المغرب وعرضها، ولم يتقاعسوا عن إبراز رد الفعل السياسي تجاه بعض الولاة الذين انحرفوا عن جادة الإسلام. كما أن جماهير المغرب الشرقي كونوا لحمة حركة زيري بن عطية وحملاته العسكرية، ففي الوقت الذي اجتاحت جيوشه المغرب الأوسط لمداهمة بادس بن منصور بن بلكين انطلق من مدينة وجدة، ومن هناك استنفر القبائل الزناتية.

وغني عن القول إن دعم جماهير المغرب الشرقي لحركة ابن تومرت، ومشاركتهم الفعالة في الصراع ضد بني عبد الواد، ومقارعة الأخطار الأجنبية، حقائق تجعل منهم قطاعا يستحق الدخول في التاريخ، لا التهميش والنسيان كما فعل المؤرخون، إذن فلماذا هذا التغييب؟

حاول القادري بوتشيش الإجابة على هذه الأسئلة التي ظلت عالقة من منظوره الشخصي، إذ اعتبر المشكل الأول يكمن في الموقع الجغرافي للمغرب الشرقي، وحاضرته الأولى مدينة وجدة التي ظلت في تاريخ المغرب الوسيط ضمن المناطق المهمشة، ولم تحظى باهتمام كبير من المؤرخين، بخلاف مدن أخرى كفاس ومراكش والرباط، وما زاد في إهمالها هو دورها العسكري الذي اضطلعت به على مر العصور الشيء الذي جعلها تدخل في عداد "مدن الحصون" الثغرية من وجهة نظر المؤرخين، لا مدن العلم والحضارة، ومن ثم لم توجه عناية إليها، أما المشكل الثاني فيكمن في الفئات الشعبية نفسها حيث لم تخلف لنا أثرًا، نستعين به لدراسة أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية، وفهم مكوناتها الفكرية والإيديولوجية[٣٢].

٣/١٠-مسألة العبيد بالمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين:

يبتدئ المؤلف هذا البحث بوضع المسألة في إطار الإنتاج التاريخي، وبعد التعريف بالنعوت التي عُرف بها العبيد في المصادر يتطرق إلى الأسباب الكامنة وراء وجودهم بالمغرب، فقد توفرت الدولة المرابطية على أعداد مهمة منهم، حصلوا عليهم بطرق مختلفة، وكان العبيد يعيشون أوضاع خضوع تام، ويعملون بشكل مضن لا يخلو من استغلال لكنهم كانوا مستكينين قابلين بأوضاعهم، وقليلاً ما يفرون[٣٣].

خَاتِمَةٌ

نستخلص مما سبق ذكره؛ أن الأستاذ الدكتور والمؤرخ المغربي إبراهيم القادري بوتشيش بمؤلفاته وكتاباته القيمة، قد أحدث ثورة في مجال البحث التاريخي للغرب الإسلامي، وذلك بانقلابه على التاريخ التقليدي الذي اهتم بمواضيع سياسية وعسكرية وبتاريخ الخلفاء والسلاطين وحاشيتهم وشؤون البلاطات، ليدشن توجهًا جديدًا يعتمد على التأريخ للفئات الحقيقية التي صنعت التاريخ والمتمثلة في فئة المهمشين بمختلف أطيافها، كما انقلب أيضًا على المادة المصدرية بتجاوزه المصادر التاريخية الإرادية (كتب التاريخ العام) ليعتمد على المصادر اللاإرادية (المصادر الدفينة) بمختلف أنواعها عن طريق جمع كل الإشارات المتناثرة هنا وهناك التي تفيد البحث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والذهني.

الهَوامِشُ:

(١) يشير الأستاذ إبراهيم القادري بوتشيش في هذه النقطة إلى أن أغلب المصادر التاريخية كُتبت تملقا للخلفاء والوزراء والأعيان، ولعل قراءة المقدمات التي يشير من خلالها المؤرخون إلى دواعي تأليف كتبهم تنهض حجة على ذلك، ومن الأمثلة على ذلك في تاريخ المغرب نذكر: المؤرخ ابن أبي زرع الذي صرح أنه ألف كتابه "روض القرطاس" خدمة للدولة المرينية في عهد أبي سعد عثمان بقوله: "أردت خدمة جمالها، والتقرب إلى كمالها، والتفيأ بظلالها... بتأليف كتاب جامع للطيف الأخبار..."، أما لسان الدين ابن الخطيب فقد ألف "أعمال الأعلام" ترضية لحاميه السلطان، وسيده الوزير الوصي أبو زيان محمد السعيد، والأمثلة على ذلك كثيرة في تاريخ المغرب.

(٢) القادري بوتشيش إبراهيم، **"أوضاع الفئات المستضعفة في العصر الإسلامي الوسيط: نموذج من الأندلس"**، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمكناس، العدد١، ١٩٨٦، ص.٣٨.

(٣) انظر كتاب الأستاذ المنوني محمد، **"المصادر العربية لتاريخ المغرب: من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث"**، الجزء١، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ١٩٨٣.

(٤) القادري بوتشيش إبراهيم، **"من التاريخ السلطاني إلى تاريخ المهمشين: نظرات في تجديد الأدوات المنهجية للمؤرخ"**، مقال منشور ضمن أعمال مؤتمر "دراسة المجالات الاجتماعية المهمشة في تاريخ المغرب"، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية -ابن مسيك-، مختبر المغرب والعوالم المغربية، الدار البيضاء، ٢٠١١، ص.٤٩.

(٥) الموسوعة الحرة "ويكيبيديا"، متاح على الرابط التالي:
https://ar.wikipedia.org/wiki/إبراهيم_القادري_بوتشيش

(٦) المرجع نفسه.

(٧) مقال بعنوان **"تطوان تكرم المؤرخ المغربي إبراهيم القادري بوتشيش"**، منشور في الجريدة الإلكترونية بريس تطوان، بتاريخ: ٥ أبريل ٢٠١٨، متاح على الرابط التالي: https://presstetouan.com/news28383.html

(8) **"التاريخ الجديد"**، إشراف جاك لوغوف، ترجمة وتقديم: محمد الطاهر المنصوري، مراجعة عبد الحميد هنية، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٧، ص.٤٤١.

(٩) المرجع نفسه، ص.٤٣٧.

(١٠) المرجع نفسه، صص.٤٣٨-٤٣٩.

(١١) القادري بوتشيش إبراهيم، **"من التاريخ السلطاني إلى تاريخ المهمشين: نظرات في تجديد الأدوات المنهجية للمؤرخ"**، مرجع سابق، ص.٥١.

(١٢) يُنظر على سبيل المثال التهميش الذي طال بعض الأمراء والزعماء البربر كالأميرين البربريين كسيلة والكاهنة من جانب الأسطوغرافيا العربية.

(١٣) القادري بوتشيش إبراهيم، **"من التاريخ السلطاني إلى تاريخ المهمشين: نظرات في تجديد الأدوات المنهجية للمؤرخ"**، مرجع سابق، ص.٥١.

(١٤) ابن أبي زرع، **"الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس"**، تحقيق: عبد الوهاب بن

منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣، ص.١٥٦.

(١٥) القادري بوتشيش إبراهيم، **"من التاريخ السلطاني إلى تاريخ المهمشين: نظرات في تجديد الأدوات المنهجية للمؤرخ"**، مرجع سابق، ص.٥٣.

(١٦) ابن خلدون عبد الرحمن، **"المقدمة"**، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٩، ص.٢٦.

(١٧) المصدر نفسه، ص.٢٧.

(18) القادري بوتشيش إبراهيم، **"المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي: إشكاليات نظرية وتطبيقية في التاريخ المنظور إليه من أسفل"**، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٤، ص.٢٧.

(١٩) المرجع نفسه، ص.٢٨.

(٢٠) المرجع نفسه، صص.٣٠-٣١.

(٢١) بلعربي خالد، **"مسار التجديد في الكتابة التاريخية عند إبراهيم القادري بوتشيش، قراءة في كتاب المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي: إشكاليات نظرية وتطبيقية في التاريخ المنظور إليه من أسفل"**، مجلة أسطور، العدد.١٠، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، يوليوز ٢٠١٩، ص.١٧٦.

(٢٢) القادري بوتشيش إبراهيم، **"المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي: إشكاليات نظرية وتطبيقية في التاريخ المنظور إليه من أسفل"**، مرجع سابق، ص.٣١.

(٢٣) المرجع نفسه.

(٢٤) القادري بوتشيش إبراهيم، **"الإسلام السري في المغرب العربي"**، ط.١، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٥، ص.١١-٤٤.

(٢٥) المرجع نفسه، ص.٤٥-٦٦.

(٢٦) المرجع نفسه، ص.٦٧-٩٠.

(٢٧) المرجع نفسه، ص.٩١-١٢٨.

(٢٨) المرجع نفسه، ص.١٢٩-١٤٨.

(٢٩) المرجع نفسه، ص.١٤٩-١٥٨.

(٣٠) المرجع نفسه، ص.١٥٩-١٧٢.

(٣١) المرجع نفسه، ص.١٧٣-٢٠٠.

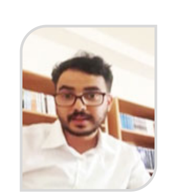
(٣٢) المرجع نفسه، ص.٢٠١-٢٢٦.

(٣٣) المرجع نفسه، ص.٢٢٧-٢٤٤.

مقالات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

تاريخ الحرية وأصول فكرة الوحدة الأفريقية
قراءة في تصفية الاستعمار ونشأة الجامعة الأفريقية



حمزة بوحدايد

باحث في سلك الدكتوراه تخصص التاريخ المعاصر

جامعة ابن طفيل

القنيطرة – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

تتحدث المقالة عن العلاقة التي صاحبت رغبة الشعوب الإفريقية في التحرر وتلك الإرهاصات الأولى للزنوجة والزنوج في العالم، ووفق منهج تاريخي استقصائي للأحداث التاريخية. قسمنا المقالة، إلى محورين رئيسيين، قدمنا في الأول: قراءة في تصفية الاستعمار بالقارة الأفريقية والعوامل التي أثرت في ذلك، فالاستعمار كان يحمل في ذاته عامل هدم ذاتي، فهو يسير في ذاته نحو هلاكه؛ أي حتمية نهاية الاستعمار، فكانت حركات التحرر هي الثمرة التي أنضجت حتمية التحرر، فتحررت الشعوب الإفريقية بداية من الأربعينيات. ما يلفت الانتباه أن تحرر الشعوب الإفريقية أيضا صاحبته فكرة زنجية ، تعود لتنامي الوعي القومي الزنجي في العالم، لما تعرض له السود من ميز عنصري في أمريكا أو جنوب إفريقيا أو غيرها من البلدان الأوربية، وهو الأمر الذي دفع الأفارقة والسود في العالم لتمهيد تأسيس حركة عالمية احتضنها السود أولا ثم توارثها الأفارقة للدفاع عن قضاياهم وتحقيق إستقلالاتهم وعقدوا المؤتمرات الإفريقية فيما عرف بالجامعة الإفريقية التي كانت الأساس الحقيقي لتطور حركات التحرر الإفريقية وزرع الوعي القومي الإفريقي، وهو ما عالجناه في المحور الثاني. خلاصة القول إن إفريقيا ما كانت للتسير نحو حتمية الاستقلال والوحدة لولا فتيل الجامعة الإفريقية التي وفرت أرضية خصبة للفكر التحرري والوحدوي الإفريقي، باحتضانها لجيل من الزعماء والسياسيين، الذين قادوا القارة الإفريقية منذ منتصف القرن العشرين إلى الحرية والسير نحو وحدة الشعوب الإفريقية.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١٦	مارس	٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر:	١٣	مايو	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

الجامعة الإفريقية؛ الوحدة؛ الزنوجة؛ العنصرية؛ الشعوب الإفريقية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.167566

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

حمزة بوحدايد. "تاريخ الحرية وأصول فكرة الوحدة الإفريقية: قراءة في تصفية الاستعمار ونشأة الجامعة الأفريقية".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد الثامن والأربعون؛ يونيو ٢٠٢٠. ص ٨٧ – ٩٤.

Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: hamzabouhdaid@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

مُقَدِّمَةُ

ساعد التراكم الكبير الذي عرفه القرن العشرين في ميادين مختلفة، الشعوب التي خضعت للاستعمار الأوروبي وعلى رأسها القارة الإفريقية إلى أن تتجه نحو فك أغلال المستعمر عن أراضيها وتنال حريتها، فجاءت سنوات التحرر لتثبت أن عصر الاستعمار قد ولى وأن شروطه الإنتاجية صدأت، فأصبح الاستقلال الصفة البارزة، مُعلنا بذلك ولادة إفريقيا المستقلة، فلم تدخل سنة ١٩٦١ إلا وكانت معظم الدول الإفريقية قد حصلت على الاستقلال وطردت الجيوش الأجنبية، غير أن خروج الاستعمار لم يكن يعني نهاية للمشاكل وما ترتبت عنه السياسات الاستعمارية المتتالية التي نهبت إفريقيا وأجهضت تطورها التاريخي العادي، وإنما كان يعني بداية لتحمل مسؤولية حقيقية في استقلال حقيقي، وهو ما تحملته عدة قيادات إفريقية، ذهبت بأفكارها إلى أن إفريقيا عليها أن تتوحد وتجتمع تحت راية واحدة، فبدأت تبزغ تلك النوايا إلى الوجود، بعدما استفادت من تجارب من سبقها في الاحتماء ضد العدوان الرأسمالي والعنصري "الجامعة الإفريقية" Pan Africanism، التي نشأت في العالم الجديد كما يصفها مادهو بانيكار Maadhu Panikkar على أنها: "هبة العالم الجديد للعالم القديم"[١].

كان للجامعة الإفريقية السبق في مناهضة الإمبريالية ومظاهرها العنصرية ضد الإنسان الأسود، فكانت بمثابة إرهاص للسير بإفريقيا ككتلة متحدة ضد رأسمالية الإنسان الأبيض. فكيف تحرر الأفارقة ليفكروا في وحدة الشعوب الإفريقية؟ هل جاء تحررهم بلا تفكير تاريخي؟ أم أن تحرر الأفارقة هي فكرة تاريخية تعود لأصول الجامعة الإفريقية؟ تبقى هذه فرضيات سنحاول الإجابة عليها في هذه المقالة؛ وسننطلق من العام إلى الخاص من فكرة التحرر إلى أصول فكرة الوحدة، معتمدين أيضًا على المنهج التاريخي في سرد مؤتمرات الجامعة الإفريقية، فيما أن الهدف من البحث، إزالة الضبابية عن فكرتين تاريخيتين في القارة الإفريقية ومدى علاقة بعضهما ببعض؛ فكرة الجامعة الإفريقية وعلاقتها بالقارة الإفريقية واستقلال الشعوب الإفريقية وعلاقة الجامعة بوحدة الشعوب الإفريقية. فهي دراسة تسرد مراحل استقلال القارة بحثًا عن الأساس التاريخي لتصفية الاستعمار.

أولاً: تصفية الاستعمار

ارتبطت الدعوة إلى الوحدة الأفريقية برغبة الشعوب الإفريقية في التحرر من نير الاستعمار وتصفيته، فكانت أية وحدة أفريقية رهينة استقلال شعوبها "إلى أن يتم القضاء التام على جميع أشكال ومظاهر الاستعمار في أفريقيا، لا يمكن للثورة الأفريقية أن تتعايش مع الاستعمار"، كما عبر عن ذلك الزعيم الغاني كوامي نكروما Kwame Nkrumah[٢] بمعنى أن أفريقيا لا يمكن أن تتقدم في ظل استمرار مظاهر الاستعمار والتبعية للدول الاستعمارية. ومن ثم فلا يمكن لأفريقيا أن تقوم موحدة إلا في ظل قارة إفريقية متحررة. فالتقت رغبة إنهاء الاستعمار برغبة توحيد السود في إطار الجامعة الأفريقية، التي كانت الإرهاصات الأولى للوحدة الأفريقية.

شهدت المستعمرات في مختلف أنحاء العالم منذ القرنين التاسع عشر والعشرين تطورات مهمة أدت إلى حصول العديد من هذه الدول على استقلالها، ولعل ما خرجت به نهاية الحرب العالمية الثانية بالنسبة لأفريقيا والأوضاع الجديدة للقوى الدولية حتم على القوى التقليدية (فرنسا وبريطانيا) الخروج من الأقطار التي احتلوها. هكذا انتهى زمن الاستعمار الطويل، وولدت دول جديدة واستقلت مناطق عديدة في العالم، لم يكن لها وجود على الخريطة الدولية. فجاء الاستقلال الذي كان أمرًا حتميًا لتطورات العالم.

جاء أول رد فعل تحرري بانفصال مستعمرات العالم الجديد عن القوى الأوربية، فانفصلت الولايات المتحدة الأمريكية عن الاستعمار الإنجليزي بعد حرب دامت ثماني سنوات عملا بمبدأ "أمريكا للأمريكيين"، وانتشرت الثورة بعد ذلك في مختلف أقطار أمريكا اللاتينية ضد الاستعمار الأوروبي، فالمستعمر فهم حقيقة القاعدة البيولوجية التي قال بها تيرقو Trugot، والتي مفادها أن المستعمرات التي بلغت حدا من النمو كالثمرة الناضجة، فمثلما تنفصل هذه عن أصل الشجرة، يطالب مواطنو المستعمرات بالانفصال عن الوطن الأم، بدافع من الوعي القومي، وهو ما جعل الدول الاستعمارية تراجع علاقاتها مع هذه المستعمرات، وانتهاج سياسة جديدة تتسم بالاحترام وتضمن المصالح للجميع، بيد أن هذه السياسة الجديدة، اقتصرت على المستعمرات التي يقطنها سكان من أصول أوربية، أما المستعمرات التي خضعت للاستعمار الأوربي منذ نهاية القرن التاسع عشر في أفريقيا وآسيا، فهي في نظر القوى الاستعمارية "ملحقات" يقطنها أهالي متخلفون سياسيًا واقتصاديًا لا يصلحون لإدارة وحكم أراضيهم[٣]، فدفعوا بسكان

تلك المستعمرات إلى ساحة الحروب والمعارك، فيما كان مصير البعض الآخر أن أخذ إلى المعامل والمصانع في أوربا ليعملوا فيها. ساعد وضع هؤلاء المحاربين والعمال بأن يحتكوا بالأوربي في أرضه ويتشربوا الحرية والديمقراطية، فأدى هذا الاحتكاك بالأوربي إلى المناداة والمطالبة بتطبيق الحرية والديمقراطية في بلدانهم الأصلية [٤]. وكان لتصريح ولسون بتاريخ يناير ١٩١٨ المتضمن لمبدأ حق الشعوب في تقرير المصير، الأثر الأكبر في السير نحو إنهاء تاريخ الاستعمار وإيقاظ القومية الأفريقية.[٥] دون إغفال الدور الذي لعبته ثورة أكتوبر الاشتراكية في بث روح الثورة على الدول الرأسمالية.[٦]

اتجهت الشعوب المستعمَرة إلى العمل التحرري الذي تركز في البداية على التربية السياسية والتوعية الثقافية للجماهير والمطالبة بإحداث إصلاحات عاجلة ذات طابع سياسي واجتماعي واقتصادي، غير أنه مع نهاية الحرب العالمية الثانية أصبح الاستقلال هو المطلب الوحيد لكل الحركات الوطنية في العالم، والذي ساعدت عليه مجموعة من التطورات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية كالميثاق الأطلنطي* الذي نادى بحق الشعوب في تولي شؤونها وميثاق سان فرانسيسكو*[٧]، وقد ساهمت مجموعة من العوامل في تنامي الوعي القومي بأفريقيا، منها: السياسة الاستغلالية لشركات والحكومات الاستعمارية وانتقال الأفكار القومية للإنسان الأفريقي ووعيه بقضاياه، فضلاً عن المؤتمرات التي عقدها زعماء أسيا وأفريقيا[٨]، فكان هذا بمثابة عوامل أدت لولادة الوعي القومي التحرري للإنسان الأفريقي ووعيه بقضاياه وشعوره بحقه في الوجود، ويمكن أن نجمل أهم عوامل نهاية الاستعمار في النقط التالية:

- بداية الشعور القومي للأمم وتطور الأفكار القومية، بداية مع استقلال شعوب الأمريكيتين؛
- عدم وفاء الدول الاستعمارية بوعودها تجاه شعوب المستعمرات، خاصة ما تعلق بمشاركة هذه الشعوب في الحربين العالميتين مقابل وعود بالاستقلال؛
- المبدأ ١٤ من مبادئ الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون Woodrow Wilson والذي نص على "حق الشعوب في تقرير المصير"، وظهر جليًا بعد أن تبناه كل من الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأمريكية إبان الحرب الباردة بين المعسكرين، رغبة لاستقطاب الدول الحديثة الاستقلال إلى احد المعسكرين الشرقي أو الغربي؛ بل أكثر من هذا الاستقطاب، يشرح روجيه جارودي Roger Garaudy الأهداف الحقيقية لهذا المبدأ بالنسبة لأمريكا الذي ينعته ب: "الولسنية" في الحرية وتقرير المصير:" .. على أن ما يحدده ويلسون" بواجبنا الخاص"، تجاه كل شعب مستعمر وهو أن نعيد لهذا الشعب النظام والسيادة وندربه على القانون والتعود عليه و"إطاعته"، وهو ما يعني من الناحية العلمية الخضوع لـ "حقنا" في سرقة هذا الشعب واستغلاله...، يجب خلق المستعمرات أو الحصول عليها بحيث لا نهمل أو نتغاضى عن أصغر زاوية في العالم"[٩] ومنه يطرح سؤال: حول الغايات الحقيقية لهذا المبدأ؟
- تغير موازين القوى الدولية وتأكيد منظمة الأمم المتحدة على نفس مبدأ تقرير المصير، أما ما يمكن أن نجمله هو أن الاستعمار كان يسير في ذاته نحو هلاكه فهو يشتمل على عامل هدم ذاتي يعمل عمله فيه مهما طال أمده.[١٠] وهو ما اصطلح عليه جورج بوليتزر "بالدينامية الذاتية"[١١]، فالتسلسل القابع داخل النظام الرأسمالي، المتمثل في عدة عوامل وحاجات إنتاجية، هي من دفعت القوى الرأسمالية الصناعية للاستعمار، إلى أن يحدث انتفاؤها بسبب تطور الإنتاج الرأسمالي وتحوله من مرحلته الصناعية إلى مرحلته المالية، التي سترتبط فيها المستعمرات السابقة بالتبعية.

هكذا لم تدخل سنة ١٩٦٠م، حتى وكانت مجموعة من المناطق في أفريقيا قد تحررت وبانت كياناتها السياسية.

أدت هذه العوامل التي عرفتها أفريقيا إلى ولادة مجموعة من الدول وظهور كيانات سياسية جديدة في القارة الأفريقية، وأبرز هذه الدول: تشاد والنيجر ومالي وموريتانيا والصومال وأفريقيا الوسطى والكاميرون ونيجيريا وداهومي وتوڤو وفولتا العليا وساحل العاج والسينغال والكنڤو برازفيل والڤابون ومالاڤاش[١٢]، وقبل هذه السنة كانت قد استقلت كل من مصر وإثيوبيا وليبيريا وجنوب أفريقيا سنة ١٩٤٥[١٣] ثم ليبيا والسودان وتونس والمغرب وغانا وغينيا.[١٤]

وعلى الرغم من تحرر القارة الأفريقية من الاستعمار، إلا أنها دخلت في مرحلة جديدة، خلال النصف الثاني للقرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين، اتسمت في مجملها بالتخلف، الذي كان نتيجة لواقع إجهاض التطور الطبيعي للقارة الأفريقية، فعانت أفريقيا في المرحلة الجديدة من مشاكل عديدة، ظهرت جليا بعد خروج المستعمر، مما دفع الاقتصادي الفرنسي الفريد سوفيAlfred Sauvy بأن ينعت هذه الدول ببلدان "العالم الثالث"*، فأصبح خيار التكتل في زمن التكتلات

خيارًا لا مفر منه ولا غنى عنه من أجل تجاوز هذه المشاكل التي طرحها خروج الاستعمار، وبناء قطب اقتصادي وتكتل سياسي للدفاع عن مصالح القارة السياسية والاقتصادية وكذا تحقيق التنمية لشعوب القارة، فكان ما سيكون بظهور تحركات من أجل تأسيس وبناء الوحدة الأفريقية.

ثانيًا: أصول فكرة الوحدة

١/٢-الجامعة الأفريقية Pan Africanism

عانى الإنسان الأسود منذ نعومة أظافره في التاريخ بنوع من التمييز سرعان ما تطور في امتداده الزمني ـ بالأخص بعدما دشن البرتغاليون مدرسة الرق الحديثة ـ لظاهرة التحقير والعنصرية لكل ما هو أسود، وربط الأسود بكل ما هو قبيح، فالجهل بتاريخ الزنوج واختلاف العادات والحقد السلالي من قبل الأوروبيين نحو الزنوج، فضلا عن الرغبة في الاستغلال، كل هذه العوامل هيأت العقل الأوروبي للحط من قدر الزنوج عقليا وحضاريا، وأصبح الزنجي عندهم قرينا للتخلف والبدائية والانحطاط والقدرة العقلية المحدودة، فالأوروبيون كانوا يريدون تبرير استعمارهم لأوطان الزنوج وان يبرروا تجارة الرقيق[١٥]، هذه النظرة السائدة حول الإنسان الأسود، هي ما جعلت الفيلسوف الألماني هيغل يصدر أحكامًا انتقاصيَّة وتهميشية في حقِّ السود، حيث استثناهم من عملية التطور. بقوله: "... أن الشخصية الزنجية تتميز بالافتقار إلى ضبط النفس، وتلك حالة تعجز عن أي حضور أو أي ثقافة، ولهذا كان الزنوج باستمرار على نحو ما نراهم اليوم"[١٦]

هذا التمييز العنصري الذي تعرض له الإنسان الأفريقي بسبب لون بشرته، فتح له مجال تنمية الوعي القومي الأسود ومحاولة الاتجاه نحو الوحدة، التي تعود أصولها إلى دعوة زنوج الولايات المتحدة الأمريكية وجزر الهند الغربية ـ مع بداية القرن العشرين ـ إلى تشكيل منظمات زنجية تدعو للعودة إلى أفريقيا ومنح الأفارقة حقوقهم كاملة أسوة بالبيض، فتطورت هذه الدعوات إلى المناداة بتأسيس الجامعة الأفريقية. ساهمت الجامعات الأمريكية بنشر الفكرة في أوساط الطلاب الأفارقة الذين درسوا في هذه الجامعات، عن طريق بروز مثقفين زنوج أمثال: وليام ادوارد ديبوا Williams Edward Dubois وماركوس ݣارڤي Marcus Garvey، وجورج بادمورGeorge Padmore وغيرهم من الذين نشروا الفكرة وروجوا لها محليا ودوليا[١٧]، وبما أن منشأ الفكرة كان خارج القارة الأفريقية، فقد اتسمت الجامعة منذ ظهورها بتعدد أراء الداعين إليها، ودعا من خلالها إدوارد ديبوا للاحتجاج الثقافي والأدبي للسود الذين يلاقون صنوف التمييز العنصري من البيض في العالم الجديد وأوروبا وفي موطنهم الأم بأفريقيا، فيما اعتبرها ماركوس ݣارڤي تعبيرًا عن الاحتجاج السياسي، حيث دعا إلى إنشاء قوة للزنوج تقف جنبا إلى جنب مع قوة البيض والى وجود بيت اسود على غرار البيت الأبيض وقد أتيحت لماركوس ݣارڤي فرصة تأسيس عدة جمعيات ومنظمات ذات طابع زنجي منها؛ العصبة الإمبراطورية للجامعات الأفريقية والتي وضعت شعار: "أفريقيا للأفريقيين" و"الرابطة العالمية لتقدم الزنوج" التي أسسها عام ١٩٠٤ في نيويورك و"الكنيسة الأرثوذكسية الأفريقية"، و"جمعية ممرضات الصليب الأسود" و"الفرقة الدولية الأفريقية" و"صحيفة العالم الزنجي" التي صدرت عام ١٩١٠ وقد قام ݣارڤي بتوحيد المؤسسات والمنظمات السابقة في إطار مؤسساتي واحد، أطلق عليه "إمبراطورية الزنوج"[١٨].

أثار مشروع ماركوس ݣارڤي اهتمامًا واسعًا في أوساط السياسيين والمثقفين في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا، خاصة بين الشباب الأفارقة المقيمين في تلك البلدان، والذين يتابعون دراستهم في الجامعات الغربية، حيث لعب بعض هؤلاء دورًا فاعلاً في معركة تحرير أفريقيا خلال خمسينيات وستينيات القرن العشرين ومنهم الكيني جومو كنياتا Jomo Kenyatta والغاني كوامي نكروما[١٩] الذي رفض الاستعمار الجديد كما لم يكن يفصل بين استقلال أفريقيا ووحدتها عندما قال:" إن الاستقلال والوحدة أمران متلازمان، ولابد في عملية مجابهة الاستعمار الجديد من وحدة القارة الأفريقية، فعلاج جميع العلل الأفريقية من الفقر والاستعمار الجديد والبلقنة وعدم التوحيد والخلافات الثقافية واللغوية، إنما يتمثل في وحدة سياسية وجنس إفريقي متحد في ظل حكومة اتحاديه واحدة"[٢٠].

هكذا بدأ الفكر الوحدوي للإنسان الأسود خارج القارة الأفريقية، ويصف هذه النشأة مادهو بانيكار في كتابه "الثورة في أفريقيا" ص١٣٩: "أن الجامعة هي إحدى هبات العالم الجديد للعالم القديم"[٢١] كناية عن أصل الفكرة ومنشئها الأول في الولايات المتحدة الأمريكية وجزر الهند الغربية (جزر الكاريبي). وبالتالي لا يمكن لهذه الجامعة الأفريقية أن تبقى حبيسة منشئها، بل يجب أن تنتقل إلى القارة الأفريقية، وهذا ما عبر عنه ديبوا الذي ارتبط بعقد المؤتمرات الداعية لإنشاء الجامعة الأفريقية حينما قال: "تحقيق العدالة للسود، لن تكون ممكنة، إلا إذا خرجت قضية السود من أمريكا وربطت بقضية الشعوب

الأفريقية".[٢٢] فنشأت الجامعة الأفريقية كتعبير عن كفاح شعب أفريقيا ضد التفرقة العنصرية[٢٣].

٢/٢-مؤتمراتها

تبلورت حركة الجامعة الأفريقية من خلال مجموعة من المؤتمرات التي عقدت خارج القارة بداية من مؤتمر لندن سنة ١٩٠٠ إلى مؤتمر مانشستر سنة ١٩٤٥[٢٤]، غير أن هناك اختلافًا بين الباحثين حول عدد المؤتمرات وتاريخ ظهورها، فيما أعتبر مؤتمر لندن ١٩٠٠، الذي دعا إليه المحامي الزنجي الأمريكي هنري سلفستر وليامز* Hennery Silvestre Williams، الانطلاقة الأولى لفكرة الجامعة الأفريقية.

تميزت هذه المؤتمرات بانعقادها خارج القارة وكونها نظمت تحت رعاية دُعاتها الزنوج الأوروبيين والأمريكيين ذوي الأصول الإفريقية وفي العواصم الغربية، التي تحتل حكوماتها إفريقيا احتلالاً مباشرًا وتمارس ضد الشعوب الأفريقية أبشع السياسات العنصرية، كما نسجل على هذه المؤتمرات أنها لم ترفع دعوة الاستقلال عن الحكم الاستعماري الغربي أو الثورة المسلحة عليه[٢٥]. وكانت أول هذه المؤتمرات:

(٢/٢) ١-مؤتمر لندن ١٩٠٠:

عقد المؤتمر في لندن سنة ١٩٠٠ وحضره عدد محدود من الأفارقة[٢٦] إلى جانب ممثلين عن زنوج العالم الجديد وأوروبا، كان من أشهر الحاضرين وليام ديبوا وماركوس ڤارڤي، وقد انتهى المؤتمر بتوصيات عامة يمكن حصرها في نقطتين[٢٧]: الدعوة إلى التخفيف من التفرقة العنصرية التي تمارسها الدول الغربية ضد الأفارقة في أوروبا والعالم الجديد؛ دعوة زنوج العالم للدخول في حركة زنجية عالمية مع زنوج إفريقيا لتحسين أوضاع الزنوج والأفارقة وخلق أسس تربطهم.

وبناءً على توصيات المؤتمر يمكن القول إن مشاكل القارة الأفريقية وهمومها لم تكن حاضرة بشكل واضح، وانصبت نقاشات المؤتمر بشكل رئيس على معاناة السود من التمييز العنصري، كما أن المؤتمر لم يخرج بتوصية: دعوة الشعوب الأفريقية إلى الثورة على الاستعمار أو الاستقلال. لكن والحق يقال إن المؤتمر كان بمثابة نقطة لانطلاق الأفارقة نحو عقد مزيد من المؤتمرات.

(٢/٢) ٢-مؤتمر باريس ١٩١٩

تزامن المؤتمر مع انعقاد مؤتمر الصلح بالعاصمة الفرنسية وشارك فيه حوالي ٥٧ ممثل من المستعمرات بأفريقيا والولايات المتحدة الأمريكية وجزر الهند الغربية (جزر الكاريبي)[٢٨]، خرج هذا المؤتمر بتوصيات مهمة: وضع المستعمرات الألمانية تحت الحماية الدولية (الانتداب) إلى غاية حصولها على الاستقلال؛ حق الأفارقة في ملكية الأرض؛ إلغاء التفرقة العنصرية؛ مشاركة السكان المحليين لأفريقيا في شؤون الحكم وإدارة بلدانهم؛[٢٩] الدعوة إلى إنشاء مدونة قانون دولي لحماية المواطنين بالقارة الإفريقية.[٣٠]

وقد خرج هذا المؤتمر مقارنة مع المؤتمر السابق، بتوصيات أكثر تقدمية، على الرغم ما يسجل عليه من توظيف لمفاهيم تتصف بطموح محدود، خاصة عندما تدعو لبسط الحماية الدولية (الانتداب) على المستعمرات الألمانية في إفريقيا وهي ذريعة وغطاء كرسته عصبة الأمم لإعادة توزيع المستعمرات الألمانية على الدول المنتصرة في الحرب العالمية الأولى.

(٢/٢) ٣-مؤتمر لندن/ بروكسل / باريس ١٩٢١

نتيجة لما مرت به أوروبا بعد الحرب العالمية الأولى ونظرًا للظروف الأمنية، تنقل المنظمون بين العواصم الأوروبية حتى استقر بهم المقام بالعاصمة الفرنسية باريس، حيث بلغ عدد المشاركين ما يزيد عن مائة عضو، يمثلون السود من العالم الجديد وأوروبا وأفريقيا، وترأس جلسة المؤتمر، الأمريكي وليام ديبوا، وخرج المؤتمر بالتوصيات التالية: المساواة المطلقة بين الأجناس؛ إنشاء منظمة العمل الدولية لإيجاد مكتب، تكون مهمته حماية الأيدي العاملة السوداء؛ إدخال أعضاء من السود في لجان عصبة الأمم؛ الدعوة إلى ضرورة منح الأفارقة الحكم الذاتي ضمن سلطة: دولة المستعمر.[٣١]

يُلاحظ من خلال هذا المؤتمر مدى التطور الكبير الحاصل في مطالب المؤتمرين، في حين كان التطور الأبرز التأكيد على الدعوة الصادرة من مؤتمر باريس ١٩١٩ بشأن مشاركة الأفارقة في حكم بلدانهم، كما لا يمر أن نطرح تساؤلا حول المقصد الحقيقي للبند المتعلق بإنشاء منظمة عمل دولية لحماية اليد العاملة السوداء، هل هو حقا ما يظهر من الكلام أم الأمر لا يعدو سوى رغبة أوروبية في جلب اليد العاملة؟ بعدما راح في الحرب العالمية الأولى الآلاف الأوروبيين من القادرين على العمل. فكما هو معروف أن الشروط الاقتصادية هي من تحدد ما هو فوقي، بمعنى أن الرغبة في حماية اليد العاملة كان ضرورة إنتاج أوروبية وما ذاك البند إلا ما عبر عنه الجاحظ قديمًا حينما قال: "فلا تذهب إلى ما تريك العين واذهب إلى ما يرك العقل. والأمور حكمان، حكم ظاهر للحواس وحكم باطن للعقول والعقل هو الحجة".[٣٢]

(٢/٢) ٤-مؤتمر لندن/ لشبونة ١٩٢٢

جاءت توصيات هذا المؤتمر مكررة لما صدر عن المؤتمرات السابقة دون أن يشهد تغيرًا على مستوى القيادات السياسية، ومن هذه التوصيات: إشراك الأفارقة في إدارة شؤون بلدانهم؛ اعتبار التفرقة العنصرية عدوة للسلام والتقدم.

(٢/٢) ٥-مؤتمر نيويورك ١٩٢٧

يعتبر أول مؤتمر عقد في الولايات المتحدة الأمريكية التي انطلقت منها فكرة الوحدة الأفريقية[٣٣]، شارك فيه حوالي ٢٠٨ مندوب[٣٤] وظهرت فيه فكرة التعاون بين الشعوب الملونة في العالم والخروج من إطار الزنجية إلى طلب التعاون بين الزنوج والمصريين والهنود والصينيين، في حركة عامة لتحررهم جميعا من الاستعمار والتفرقة العنصرية[٣٥]، وقد دعا المؤتمرون إلى عقد المؤتمر القادم في تونس اعترافا منهم لأول مرة بدور شمال القارة غير الزنجية في حركة التحرر الأفريقية، غير أن الخطوة قوبلت برفض السلطات الفرنسية[٣٦]، ويمكن القول أن المؤتمر كان يسعى حسب ما ورد عند كوامي نكروما:

تعزيز رفاه ووحدة الشعوب الأفريقية والتي يعود أصلها إلى أفريقيا في كل أنحاء العالم؛ السعي للتعاون بين أفريقيا والشعوب الأخرى التي تشارك الأفارقة نفس التطلعات[٣٧] و يمكن أن نضيف أيضا على أن المؤتمر بدأ يعترف بدور شمال أفريقيا في مسار حركة التحرر الأفريقية. وإن رفضت السلطات الفرنسية أن يعقد مؤتمر على الأراضي التونسية، لكونها صاحبة السلطة خلال هذه الفترة، ومثل هذه المؤتمرات كانت تهدد مستعمراتها ومصالحها.

(٢/٢) ٦-مؤتمر مانشستر ١٩٤٥

يعتبر هذا المؤتمر من أهم مؤتمرات الجامعة الأفريقية من خلال قراراته لبلورة مجموعة من التوجهات التي فتحت باب عقد المؤتمرات داخل القارة الأفريقية، بل يمكن أن نعتبر مؤتمر مانشستر بمثابة الانطلاقة الحقيقية لأفريقيا من أجل الاستقلال والوحدة وهذا الاتجاه نحو الوحدة كان يقتضيه أولا الاستقلال كما قال كوامي نكروما: "... استقلال وطني يؤدي إلى الوحدة الأفريقية..."[٣٨].

عقد المؤتمر برئاسة وليام ديبوا تحت شعار: "يا شعوب المستعمرات اتحدوا"، وقد برز في المؤتمر عدد من القيادات الأفريقية التي تولت زمام الأمور في أفريقيا[٣٩] أمثال: كوامي نكروما (ساحل الذهب) و جومو كنياتا (كينيا) وزيكوي (نيجيريا) وسامرا هافر(سيراليون) وتم اختيار نكروما وسيكوتوري سكرتيرين للمؤتمر.[٤٠]

أثبت هذا المؤتمر نضج الحركة الأفريقية خاصة في الدول سالفة الذكر، وأصبحت حركة ذات اتجاهات واضحة، كما أصبحت معاداة الاستعمار والإمبريالية هي الخط الرئيس للحركة الأفريقية، فلأول مرة يخرج المؤتمر بتوصيات الاستقلال الوطني، لكونه الحل الوحيد والأوحد لتحقيق أماني الشعوب الأفريقية، كما ذهب المؤتمر إلى حد التلويح باستخدام القوة لتحقيق ذلك، وأدانت قراراته احتكار رأس المال وتسخير الثروة والصناعة من أجل الربح الخاص فقط، كما رحب المؤتمر بالديموقراطية الاقتصادية لكونها الديموقراطية الحقيقية وطلب بالاستقلال الاقتصادي إلى جانب الاستقلال السياسي.[٤١]

وخلال مؤتمر مانشستر يمكن ملاحظة أن الأفكار الاشتراكية بدأت تتسرب إلى عقول قادة الحركة الأفريقية.[٤٢] وهو ما يؤكد طبيعة المؤتمرين، فعلى عكس كل المؤتمرات السابقة التي كانت تحت رعاية الطبقة المتوسطة والمثقفين والإصلاحيين البورجوازيين، فإن مؤتمر مانشستر، قد حضره العمال والنقابيون والمزارعون والطلاب، بل أكثر من هذا فمعظم الحضور كان من الأفارقة.[٤٣]

يُعَدّ هذا آخر مؤتمر عقدته الجامعة الأفريقية خارج القارة، حيث تحولت من فكرة عرقية للسود إلى مطلب سياسي واضح[٤٤] ما كان يعني أنها لم تعد جامعة للزنوج فقط، بل أضحت حركة تمثل كل الشعوب الأفريقية المستعمرة، فما يجمع الأفارقة ليس هو اللون أو التاريخ أو اللغة أو الدين أو الجنس، فأفريقيا ليست أمة واحدة، بيد أن التاريخ الاستعماري هو من يقضي بالتضامن الإفريقي وعليه بنيت مبادئ الشخصية الأفريقية لمواجهة الاستعمار[٤٥] وهو ما عبر عنه أيضًا نكروما بقوله: "أنا مقتنع بأن القوى الاستعمارية صنعت ما يوحد أكثر مما يفرق حتى الآن"[٤٦] في رده على أولئك الذين يصرون على أن إفريقيا لا يمكن لها أن تتوحد لافتقادها شروط الوحدة سالفة الذكر.

خَاتِمَةٌ

تميزت الجامعة الأفريقية إذن بكونها نشأت خارج الأراضي الأفريقية، وساهم فيها زنوج العالم الذين ما زالت الرابطة بأفريقيا تغذي شعورهم، فجاءت الجامعة لتعزز وحدة السود إثر التمييز العنصري الذي استهدفهم في كل مكان، بعدما تعززت بمؤتمرات وضعت فيها مطالبها وأسس حركتها. لعل أهم ما يميز كل هذه المؤتمرات التي كان أغلبها في بلدان اوروبية، أنها بحثت عن استقلال القارة الأفريقية من نير الاستعمار الأوروبي وكذا مجابهة الميز العنصري بوحدة السود، وسرعان ما انتقل هذا الفكر التحرري والوحدوي إلى بلورته من خلال مؤتمرات داخل إفريقيا من أجل إتمام عمل الجامعة الأفريقية، فكانت المؤتمرات التأسيسية والمجموعات الأفريقية التي وضعت لبنة بناء منظمة الوحدة الأفريقية.

وفي الأخير لا يسع المقام إلا لنقول إن إفريقيا استطاعت بمساهمة حثيثة من أفكار الزنوجة للتخلص من براثن الاستعمار وتتحرر من سلاسله القابضة على شعوب حرة، جينيا من أمهاتها، في قول الخليفة الراشدي عمر عبرة للتاريخ: "فمتى استعبدتم الناس وقد ولدتكم أمهاتكم أحرار". وما لا شك فيه أن فكرة التحرر الإفريقي، فكرة تاريخية بامتياز، منذ المد الأسود في العالم مع تيار الزنوجة في جزر الهند الغربية إلى أن وصل إلى تربته الأصلية في القارة الإفريقية حيث تحول إلى مدفع مصوب ضد الاستعمار، من أجل استقلال الشعوب الإفريقية.

الهَوامِشُ:

(١) بانيكار مادهو، **الثورة في أفريقيا**. ترجمة: روفائيل جرجس، المؤسسة المصرية للترجمة والنشر، القاهرة،١٩٦٤، ص.١٣٩.

(2) Kwame Nkrumah, **Africa Must Unite**. Printed in Great Britain, New York, 1963, p. 204.

(٣) زوزو عبد الحميد، **تاريخ الاستعمار والتحرر في أفريقيا وأسيا**. ديوان المطبوعات الجامعية،٢٠٠٩، ص.٥-٦.

(٤) نفسه، ص.١٢.

(٥) رياض زاهر، **استعمار أفريقيا**. الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥، ص. ٤٢٩.

* **الميثاق الأطلنطي**: هو إعلان مشترك أصدره رئيس وزراء بريطانيا ونستون تشرشل ورئيس و.م.أ. فرنكلين رزوفلت يوم ١٤غشت١٩٤١ ووضح الميثاق أهداف الحلفاء. يُنظر: محمد حسن الوزاني، **مذكرات حياة وجهاد**. مؤسسة محمد حسن الوزاني، ١٩٨٦، ص.١٨٠.

* **ميثاق سان فرنسيسكو**: ميثاق أصدر خلال مؤتمر سان فرنسيسكو يونيو١٩٤٥ بموجبه تأسست منظمة الأمم المتحدة. ينظر: ميثاق الأمم المتحدة

(٦) رياض زاهر، مرجع سابق، ص.٤٣١.

(٧) زوزو عبد الحميد، مرجع سابق، ص.٨-٩.

(٨) الجمل شوقي وإبراهيم عبد الله عبد الرازق، **تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر**. دار زهراء، الرياض. ص ٣٣٦-٣٣٧.

(٩) جارودي روجيه، **أمريكا طليعة الانحطاط**. ترجمة: مروان حموامي، ط.١، دار الكتاب للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٨، ص.٣٠-٣١.

(١٠) زوزو عبد الحميد، مرجع سابق، ص.٩.

(١١) بوليتزر جورج، **مبادئ أولية في الفلسفة**. ترجمة: فهمية شرف الدين، دار الفاربي، بيروت، لبنان، ١٩٦٩، ص.١٣٤.

(١٢) الجمل شوقي وابراهيم عبد الله عبد الرازق، مرجع سابق، ص.٣٣٧.

(13) Abdalla asaaf, **le maroc et l'afrique apres l'independance**. institut des etudes africains,1 er éd, 1995, p.111.

(١٤) الجمل شوقي وعبد الله عبد الرازق ابراهيم، مرجع سابق، ص.٣٣٧.

* **العالم الثالث**: مجموع الدول التي هي في طريق النمو والتي غالبًا ما تحررت من الاستعمار بعد الحرب العالمية الثانية، وتمثل ثلثي سكان العالم تقريبًا. يُنظر: المسعودي ليلى وجولي هوبير، **قاموس الدبلوماسية**. منشورات عكاظ، الرباط،٢٠٠١، ص.٢٨٥.

(١٥) سعودي محمد عبد الغني، **قضايا افريقيا**. سلسلة عالم المعرفة، عدد ٣٤، الكويت، ١٩٨٠. ص. ١٥١.

(١٦) هيغل، **محاضرات في فلسفة التاريخ، العقل في التاريخ**، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، ط.٣، دار التنوير للطباعة والنشر، ٢٠٠٧، ج:١، ص١٨١.

(١٧) الطاهر كرفاع المختار، **فكرة الوحدة الأفريقية وتطورها التاريخي**. المجلة الجامعة، عدد: ١٥، ٢٠١٣، ج: ٣، ص.١٣٦.

(١٨) نفسه، ص.١٣٧.
(١٩) نفسه، ص.١٣٧ـ ١٣٨.
(٢٠) اسبر آمين، **إفريقيا سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا**. ط.١، دار دمشق، ١٩٨٥، ص.١٢١.
(٢١) بانيكار مادهو، **الثورة في أفريقيا**،مرجع سابق ص.١٣٩.
* **هنري سيلفستر ويليامز**: محامي من ترينداد، يعود له الفضل في تنظيم الجامعة الأفريقية لأول مؤتمراتها بلندن، يُنظر: آدو بواهن، **تاريخ أفريقيا العام**، أفريقيا في ظل السيطرة الاستعمارية (١٨٨٠ـ١٩٣٥)، اليونسكو، ١٩٩٠،ج:٧، ص.٧٧١.
(٢٢) كرفاع المختار، مرجع سابق، ص. ١٣٨.
(٢٣) الرفاعي عبد العزيز، **مشاكل أفريقيا في عهد الاستقلال**.ط.١، مكتبة القاهرة الحديثة، ١٩٧٠، ص. ١٦١.
(٢٤) نفسه.
(٢٥) كرفاع المختار، مرجع سابق، ص.١٣٨.
(٢٦) الجمل شوقي، مرجع سابق، ص.٤٣٣.
(٢٧) كرفاع المختار، مرجع سابق، ص. ١٣٨ ـ ١٣٩.
(28) Kwame Nkrumah , op. cit, p.133
(٢٩) كرفاع المختار، مرجع سابق، ص.١٤٠.
(30) Kwame Nkrumah , op. cit, p.١٣٣.
(٣١) كرفاع المختار، مرجع سابق، ص.١٤٠ـ ١٤١.
(٣٢) الجاحظ، **الحيوان**. تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الجزء الأول، ط:٢، ١٩٦٥، ص.٢٠٧.
(٣٣) نفسه، ص.١٤٢.
(34) Kwame Nkrumah , op. cit, p.134.
(٣٥) الجمل شوقي، مرجع سابق، ص.٤٣٣.
(٣٦) كرفاع المختار، مرجع سابق، ص.١٤٢.
(37) Kwame Nkrumah , op. cit, p.134.
(38) Ibid, p. 130.
(٣٩) فائق محمد، **عبد الناصر والثورة الأفريقية**. دار الوحدة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٤، ص.١٨.
(٤٠) الجمل شوقي، مرجع سابق، ص.٤٣٤.
(٤١) فائق محمد، مرجع سابق. ص.١٨.
(٤٢) نفسه.
(43) Kwame Nkrumah, op. Cit, p.135.
(٤٤) كي ـ زيربو جوزيف، **تاريخ إفريقيا السوداء**، ترجمة: يوسف شلب الشام، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٤، ج:٢، ص.١١٥٦.
(٤٥) الرفاعي عبد العزيز، مرجع سابق، ص.١٦١.
(46) Kwame Nkrumah , op. cit, p .132.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

قبيلة بني حسّان
نموذج للتمازج العرقي في قبائل شمال المغرب

أحمد الحبشي
باحث في تاريخ وحضارة شمال المغرب المتوسط
كلية الآداب والعلوم الإنسانية – تطوان
جامعة عبد المالك السعدي – المملكة المغربية

مُلَخَّص

اقتحام مبحث تاريخ القبائل بشكل عام أمر ليس بالهيّن، فطبيعة الذاكرة في القرية يغلب عليها الحفظ الشفوي وتفتقر إلى زخم الأحداث لغلبة "الروتين" واستقرار الحياة، فهي بذلك تختلف بشكل كبير عن نظيرتها في المدينة، وإن كانت الثانية لا تخلو من معلومات عن الأولى، فذاكرة المدينة وما تعرفه من وتيرة سريعة في النمو والحركة، فضلاً عن تمركز المؤسسات السياسية والعلمية بها ما حظّها بأفضلية توسيع الذاكرة وغنى الأحداث التي تتضمن أحيانا بعض الجوانب المرتبطة بالقرى ومن ثمّ القبيلة. قبيلة بني حسّان التي تقع في الشمال الغربي للمغرب الأقصى تجسّد هذا الفقر في الذاكرة المدوّنة في مقابل غنى الذاكرة الشفوية إلى حدّ ما، إذ هي الأخرى تحوم حول وقائع ومَرويات محدودة تحمل ما تحمل من التخيُّل والتحريف. حاولت في هذا المقال استخراج ما استطعت من نصوص وإشارات مبعثرة في صفحات بعض المصادر، وكما استندت إلى بعض الروايات الشفوية محاولاً تركيب نبذة تاريخية محقّقة لتجربة هذه القبيلة في عملية التمازج والانصهار التي حدثت في تاريخها بين ثقافات وأصول متنوعة (الأمازيغية، العربية، الأندلسية)، وذلك بتتبع أصول –نماذج- من أسماء بعض العائلات المعروفة بالقبيلة ومن خلالها الارتقاء إلى الأصول الكبرى، كما ساعدنا استخدام منهج المقارنة والترجيح في استخلاص بعض الآراء المتعلقة بطبونوميا الأماكن ودلالة بعض الكلمات، ثمّ عرّجنا على ذكر أهم المآثر العمرانية الموجودة بالمنطقة، ووقفت في المحور الأخير عند مساهمة أهالي بني حسّان في مقاومة الاستعمار الإسباني وما أبلوه من شجاعة وإصرار فريد.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٧ مارس ٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر: ١٦ مايو ٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

شمال المغرب؛ القبيلة؛ بني حسان؛ الأصول؛ الأمازيغ؛ الأندلسيين؛ العرب

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.167765

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

أحمد الحبشي. "قبيلة بني حسان: نموذج للتمازج العرقي في قبائل شمال المغرب".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة -العدد الثامن والأربعون؛ يونيو ٢٠٢٠. ص ٩٥ – ١٠٣.

Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: elhabchiahmed51@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

مُقَدِّمَةُ

تستحق قبائل شمال المغرب من الناحية التاريخ الكمّي والأنثروبولجي إلى أعمال أكثر دقّة فيما يتعلّق بجمع المعلومات (الوثائق المكتوبة والشهادات الشفوية) وتحويلها إلى مادة مضبوطة منهجيا ومرتبة ترتيبا علميا محكمًا، إذ البياضات الموجودة في تاريخ هذه القبائل أكثر ما تظهر في المواضيع المرتبطة بأصولها، ويرجع السبب إلى صعوبة التنقيب في هذا المبحث وندرة المادة التاريخية. السطور الآتية محاولة أكاديمية التمست تناول جوانب من تاريخ قبيلة بني حسّان التي تقع بين مدينتي تطوان وشفشاون، بتجميع وتدقيق بعض النصوص المصدرية وكذلك تحليلها ومقارنتها بقرائن أخرى، فكان المنطلق التساؤل عن الملامح المميزة لهذه القبيلة؟ وكيف تفاعل أهلها مع جغرافية المكان الذي استوطنوه؟ وما هي أصول سكانها وبعض من أخبارهم في التاريخ؟

تُعَدّ قبيلة بني حسان من القبائل الجبلية الذائعة الصيت بشمال المغرب، فهي تتواجد جنوب إقليم تطوان، تحدّها من الجنوب قبيلتي بني حزمر وبني سعيد ومن الغرب بني ليث وبني عروس أما من جهة الشرق فقبيلة بني زجل الغمارية وجنوبا قبيلة الاخماس، وتتكون من ثلاث جماعات قروية "الحمراء، الواد، ولاد علي منصور" منهم من يضيف جماعة بني ليث إلا أنّ هذه الأخيرة يميل أهلها إلى اعتبارها قبيلة قائمة بذاتها كانت تحسب قبل الاستعمار على قبيلة بني حزمر[١]، يمتد موضعها – قبيلة بني حسّان-على مساحة شاسعة تقدر بـ ٣٦٦ كلم مربع[٢].

يغلب على مورفولوجيتها المرتفعات الجبلية والهضاب، وتنتصب في مجال القبيلة أعلى ثلاث قمم جبلية بإقليم تطوان: جبل كلتي ١٩٢٦ متر، جبل عليويين ١٨٤٧ متر ثم جبل حافة زلطان ١٨٢١ متر.عدد سكانها يقدر ب ٢٧٠٠٠ نسمة حسب الإحصاء الرسمي لسنة ٢٠١٤. وتتكون التشكيلة السكانية بالقبيلة من ثلاث فرق: (١) فرقة بني علي: التي تطابق حدود جماعة "الحمراء" القروية حاليًا مما يلي السوق الأسبوعي الشهير بالقبيلة المسمى بـ "أربعاء بني حسان".(٢) فرقة "الخمس": التي تطابق حدود جماعة "أولاد علي منصور" في سفح الجبلين المذكورين أعلاه مما يلي حدود قبيلة بني سعيد. (٣) فرقة "بني مهارون": التي تطابق حدود جماعة "الواد" القروية الحالية التي تجاور حدود بني زجل والأخماس.

أولاً: أصول قبيلة بني حسّان من خلال نصوص مصدرية

١/١-الروافد العامة لأصول بني حسّان

تتموضع قبيلة بني حسان ضمن مجال قبائل جبالة حاليا، هذا المجال الذي يقع بين منقطتين معلومتين هما: غمارة والهبط[٣]، فيما كانت القبيلة من قبل تحسب على المجال الترابي لغمارة[٤]، وبما أن هذه الأخيرة بطن من بطون مصمودة التي تنحدر من شعب البرانس (أحد أكبر شعوب الأمازيغ في شمال إفريقية)[٥] فإن السؤال الذي يُطرح ما إذا كانت قبيلة بني حسّان ذات أصل أمازيغي؟ أم أنّ تواجدها الجغرافي في نطاق كان تابعًا للقبائل القديمة بالمغرب لا يعني بالضرورة انتماء أصولها –بني حسان-إلى هذه الجذور الأمازيغية؟

لا يختلف اثنان في أن اسم قبيلة بني حسّان عربيّ الأصل "فحسّان" من الأسماء العربية المشهورة، وهنا وجبت الإشارة إلى أن بنو حسان تطلق أيضًا على عرب معقل الذين استوطنوا جنوب البلاد في خضم هجرات قبائل بنو هلال إلى المغرب خلال منتصف القرن الحادي عشر، وأيضا بجهة الغرب المطلّ على ساحل المحيط الأطلنتي تتواجد قبيلة بني حْسن- ينطقها أهلها بتسكين التاء- الذين يعود نسبهم هم الآخرون إلى معقل العربية[٦]، إلاّ أننا لا نتوفر على شواهد تثبت علاقة آصرة بين قبيلة بني حسّان والقبائل الشبيهة لها في الاسم التي تمت الإشارة إليها.

بخصوص أصول قبيلة بني حسّان ونسبها فإننا نفتقر إلى نصّ أو وثيقة واضحة تتناول هذا الأصل بشكل مباشر، وأقدم من يُرجّح أنه أوّل من ذَكر القبيلة هو الجغرافي الأندلسي البكري الذي عاش خلال القرن الحادي عشر الميلادي، حيث يتحدث عن جماعة يسمّيهم ببنو حسين يسكنون ببلاد غمارة "وجبل درقة يتصل ببلاد غمارة ويسكن آخره من بنو حسين بن نصر، ثم نهر راسن، ومنبعثه من موضع يعرف بتطسوان من جبل حميم"[٧].

هذا النصّ لا يغيّر من فهمنا الأَوّلي لاسم القبيلة إذ يربطه باسم عربي آخر هو بن نصر إلاّ أنه يبقى ملتبسًا، ويُحتمل أن "بنو حسين" هؤلاء ليسوا بالضرورة هم بنو حسّان الذين نتناول أصولهم بالدراسة، غير أن جبل حميم هذا ليزال موجود في مجال فرقة الخمس بقبيلة بني حسّان فيكون الوصف لهم هو الأقرب للاحتمال، ثم يأتي ابن خلدون في القرن الرابع عشر ليتحدث عن القبيلة بالاسم المعروفة بها الآن وهو بنو حسّان في معرض تِعداده لبطون غمارة: "إذ كان بنو حسّان منهم موطنين بذلك

الساحل من لدن أزغار وأصيلا إلى أنفى، ومن هنالك تتصل بهم مواطن برغواطة ودكالة.."[٨].

ويبدو من هذا النصّ المصدري الذي لم يكشف سرّ أصل القبيلة، بل هو الآخر أبقى على النقيضين اللذين اجتمعا في تاريخها وهما اسمها العربي واعتبارها بطن من بطون قبيلة غمارة الأمازيغية. لكن هذا لا يمنع من الخلوص إلى افتراض ملحّ مفاده طابع العروبة الذي اكتسته قبيلة بني حسّان في بعض ملامحها العامّة بعد الدخول الأوّل للعرب المسلمين يأتي على رأسها اسم القبيلة العربي، وما يثبت هذا الاتصال بين العرب الأوائل الذين دخلوا إلى المغرب وبين الغماريين هو مسجد البيضاء أو مسجد الملائكة الذي يُنسب أمر بنائه إلى موسى بن نصير نتحدث هنا عن أواخر القرن الأول الهجري والقرن السابع ميلادي[٩]، ومن المعلوم أن هذه القبيلة لهجتها عربيّة تتخللها كغيرها من قبائل شمال المغرب ألفاظا أمازيغية قليلة وهذا التأثير العربي لعلّه قد تمّ في مراحل مبكّرة من التاريخ حيث يصعب تحديده بدقّة، وازداد ترسخا مع توالي الأحداث المساعدة من هجرات قبائل عربيّة وافدة إلى المغرب وما حصل من امتزاج بين الثقافة المحلية والثقافة الوافدة أدى إلى انحصار الآثار اللغوية الأمازيغية –كحال معظم القبائل التي تعرّبت- في "صفات حيوية خاصة أو بضع كلمات تعبّر عن بعض المهن أو عن أشياء اختصت بها البيئة المغزوة من حيوان ونبات وأسماء أعلام"[١٠].

٢/١-فرق قبيلة بني حسان وأصولها

يتبيّن من البحث الأوّلي أننا أمام مجموعة سكانية طَبَعَها مظهر التنوع في مرحلة مبكرة لم تُبيّنها المصادر بشكل واضح وعليه نتوجه إلى طريق آخر للبحث في أصول هذه القبيلة وهو الانطلاق من النسب نزولا إلى الأصل وليس العكس. لذا سنحاول –بقدر المتاح-تتبع بعض الأسماء العائلية المعروفة والتي وردت في مصدر من المصادر ومن ثمّ استخلاص أصل من الأصول. وفي العموم تتشكل الأقسام الكبرى لفرق قبيلة بني حسّان مما يلي[١١]:

فرقة بني علي	• بني عمران، بطارة، بواتو، أزمور، أشكراد، بني موسى، أفقرن، إسماتن، الواذيين.
فرقة الخمس	• ماجو، أولاد علي منصور، بني صابر، السكن.
فرقة بني مهرون	• جماعة الواد، جماعة إسلان، جماعة إدمامن، جماعة أشروطة، جماعة الغابة، جماعة إهلال، جماعة تغزوت.

قبل الشروع في عملية تتبع الأصول تدقيقًا وتفصيلاً لابد من الإشارة إلى أمر مهم هو أنّ أسماء الفرق والمداشر في هذه القبيلة لا تقتصر على أصل دون آخر، أي أن حركة الجماعات والأفراد حالت دون الحفاظ على أصل خالص في مكان معيّن، وبالتالي يطبع هذا الفرق طابع التنوع والتمازج في الأصول والأنساب إلى حد بعيد.

(٢/١) ١-الأصول الأمازيغية

الأصول الأمازيغية لبني حسّان يشوبها الغموض ويعسر على الباحث تحديدها من منطلق النسب كما هو الحال مع نظيرتها العربية، إلا أن أسماء بعض المداشر تنمّ عن لكنة أمازيغية غير خفيّة (أشكراد، إسماتن، إدمامن، السكن، إسلان..)، والنظر إلى الحقيقة الكليّة لتاريخ القبيلة وموضعها الجغرافي زيادة على انتمائها إلى الحلف الغماري في العصر القديم والوسيط يحتّم باستمرار النسل الأمازيغي في هذه القبيلة، ومن الدلائل القليلة الموثِقّة لهذا الأصل وجود تقاييد تعود إلى القرن التاسع عشر الميلادي ذكرت أسماء عائلية ك"المجكسي" وهي إحدى القبائل الغمارية الأصيلة[١٢]، بالإضافة إلى "امصمود" الاسم العائلي الذي يرجحّ نسبته إلى قبيلة مصمودة الشهيرة، وهناك من يعتبر أن فرقة بني مهرون تأوي نسلا من محمد ابن أبي الطواجين الكتامي (نسبة إلى كتامة إحدى بطون البرانيس الأمازيغية) الذي ادعى النبوة واستقرّ أنصاره بالقبيلة بعد مقتله[١٣].

(٢/١) ٢-الأصول العربية:

من الأنساب العربية التي يَثبت وجودها في القبيلة بل ويعطيها خاصيّة وميزة بارزة من بين قبائل جبالة هو النسب العمراني الشريف، فالعمرانيون ينتصفون إلى فرقتان: أولاد حنين وأولاد سيدي عتيق، وهما أخوان، إبنا سيّدي يحيى بن سعيد بن مسعود بن عامر بن عمر بن موسى بن عمران، بن يزيد بن صفوان بن خالد بن يزيد بن عبد الله ابن مولانا إدريس[١٤]. والفرع العمراني الذي استقرّ في قبيلة بني حسّان يجسّده نسل أولاد سيدي عتيق في عدد من مداشرالقبيلة: أولا ابن عبّو (بالجامع البيضاء)، وأولاد اشعرّوا، وأولا الحرّاق، وأولاد أفاسي (مدشر هلال)، وأولاد بوتّو بها، وأولاد الغندور، وأولاد زكري، وأولاد دقّاش (بالجامع البيضاء)، وكذا أولاد الخمّال، وأولاد الزغلي[١٥].

ومن الأنساب العربيّة نجد البقاليين الذين ينحدر منهم المفتي والمدرّس الطيب بن عبد السلام البقالي وموطنهم مدشر امحراشن من قبيلة بني حسان[١٦]، بالإضافة إلى الشرفاء

العالميين الذين قدموا من منطقتي بني عروس وتلمبوط، هؤلاء الوافدين التسموا مستقرا لهم في رحاب فرقة بني علي[١٧].

(٢/١) ٣-الأصول الأندلسية:

إضافة إلى ما سبق يعتبر الرافد الأندلسي من المكونات الرئيسة للعنصر البشري في قبيلة بني حسّان، فهذه الأخيرة بحكم موقعها الجغرافي إلى جانب باقي القبائل القريبة من ساحل البحر الأبيض المتوسط تحتّم عليها أن تكون جزء من أحداث فتح الأندلس وما تبعها من حركة بين العُدوتين استمرت حوالي ثمانية قرون، إذ كان جلّ جيش موسى بن نصير وطارق بن زياد من هذه المناطق.

للرحالة الحسن الوزان نصّ يشير إلى هذه العلاقة في معرض حديثه عن علي بن راشد مؤسس مدينة شفشاون الذي ينسُبه إلى قبيلة بني حسّان[١٨] (وفي معلمة المغرب نجد أنه ينتمي إلى مدشر إيناروزيم بقبيلة الاخماس؟)[١٩]، وكيف اضطرّ إلى الهجرة للأندلس خلال أواسط القرن الخامس عشر الميلادي بسبب قمع تعرّض له بمعية أهله من قبل "بعض مواطنيهم"، ولا نعرف بالضبط ما هي هذه الأحداث التي تسببت في هجرته لكن يمكن الحديث في هذا الصدد عن صراعات غامضة مع قبيلة بني عروس المجاورة، هذه القبيلة التي يُخص أهلها دون باقي قبائل شمال المغرب بلقب "الشرفاء" أو "الأشراف" كما سمّاهم حسن الوزان. على العموم الشاهد في هذا النص هو تلك الإشارة لإمكانية التنقل من بادية شمال المغرب نحو الأندلس لسبب من الأسباب سواء كان قتالا أو بحثا عن الاستقرار أو طلبًا للعلم.

بعد سقوط المدن الأندلسية تباعًا وآخرها كانت غرناطة سنة ١٤٩٢م، بدأت هجرات الأندلسيين هروبا من الزحف الكاثوليكي واستقرّ عدد كبير منهم بالمدن والبوادي القريبة من المتوسط، هذه الهجرات المتتالية استمرّت إلى الطرد النهائي الذي لحق الموريسكيين سنة ١٦٠٩م. من بين القبائل التي استقرّت بها العائلات الأندلسية قبيلة بني حسّان، ما أوهم البعض إلى حد اعتبار هذه القبيلة كلها أندلسية وهي مبالغة تنطوي على حقيقة مكنونة تستدعي التدقيق والتمحيص[٢٠].

وتتجلى أسرة الأزرق كأنموذج للعائلات الأندلسية التي استقرّت بالقبيلة، وقد انتقل الأندلسيون الذين يحملون هذا الاسم إلى عدد من المدن المغربية (فاس، رباط، سلا)، كما توجد نصوص تثبت انتقال بعض أفراد هذه العائلة من بني حسان إلى تطوان حيث أقاموا بحامية تطوان خلال القرن التاسع عشر الميلادي ولتزال هذه الأسرة بالمدينة[٢١]، ويبقى إثبات الأصل الأندلسي لبعض العائلات بقبيلة بني حسّان يحتاج مجهود بحثي متريث حتى يتسنى جرد أعدادها وحصرها.

ثانيًا: حركة قبيلة بني حسان في المجال وعلاقتها بالقبائل المجاورة

سبق الإشارة إلى نص ابن خلدون الذي وصف امتداد مجال قبيلة بني حسّان إلى السهول الساحلية حتى تصل إلى حدود تامسنا حيث القبائل البرغواطية، إلاّ أن هذا الأمر سيتغير مع حلول قبائل العرب الهلالية في مجال بلاد الهبط، وذلك أيام حكم عبد المؤمن الموحدي خلال القرن الثاني عشر الميلادي[٢٢]، إذ اضطرّت قبيلة بني حسّان أن تقلّص من مجالها لا أن تنتقل إلى موطن جديد، فالموضع الجغرافي الحالي للقبيلة -جنوب شرق تطوان- ثابت أنه كان موطنها القديم وتشهد بذلك المآثر العمرانية التي تعود إلى القرن الهجري الأوّل/القرن السابع الميلادي، وكذلك الأحداث التي تمحورت حول المتنبئين حاميم (ق١٠م) وابن أبي الطواجين (ق١٣م) اللذان ظهرا في المنطقة وأحدثا بها وقائع نقلتها أغلب المصادر التاريخية التي تحدثت عن تاريخ المغرب، وكانت القبيلة جزء من هذه الأحداث ولم تخلو تفاصيلها من ذكر المناطق والقبائل المجاورة كجبل العلم وبني عروس وبني سعيد.

عدا هذا التقلص في المجال لم تعرف قبيلة بني حسّان تحركات جماعية كبيرة، أما على مستوى الحركة الفردية لشخصيات وعائلات من القرية فهي ملحوظة وموثّقة، بادية الأثر، تجّسدت في انتشار الحسّانيون –نسبة إلى بني حسّان-في معظم القبائل المحيطة بها واستقرّ آخرون ببعض المدن الشمالية، وكان هذا الانتقال نتيجة لطلب الرزق أو بغرض طلب العلم والتدريس إلخ. فعلى مستوى القبائل الأخرى يمكن إيراد أمثلة عن بعض العائلات العمرانية التي اتخذت ألقاب تميزها عن أقربائها كأولاد يعقوب وأولاد النجار، حجاج...، وانتقل بعضهم من بني حسان إلى القرى القريبة سماتة وبني يدر وبني مسارة وبني سعيد..[٢٣]، والبعض اختار أن يبتعد شيئًا ما عن القرى المحيطة كشخصية الحسوني أب الفقيه عبد الله بن الحسن الخالدي الذي هاجر في بداية القرن ١٧م، إلى قبيلة اسلاس (تبعد عن إقليم تاونات ب ٣٥كلم) وبقي نسله هناك[٢٤].

واستقرّت عدد من العائلات الحسانية في مدن الشمال كتطوان وطنجة وأُطلق على بعض هذه العائلات لقب الحسّاني[٢٥]، فضلاً عن تواجد الكثير من العائلات -كأسرة الشيخ وأولاد النجار وغيرهما-في مدينة شفشاون ذات الأصل الحساني

نظرا لقربها من القرية. ولايفوتنا أن نشير إلى ارتفاع وتيرة هجرة القرويين نحو المدينة بشكل عام كظاهرة في المغرب خلال القرن العشرين وقبيلة بني حسان ليست استثناءً في هذا الأمر، حيث أمست هذه القبيلة من أهم الروافد التي مدّت مدينة تطوان ومدينة شفشاون بأعداد كبيرة من السكان استقروا في هذين المدينتين على وجه الخصوص وفي باقي المناطق الحضرية بشمال المغرب.

ثالثًا: بني حسّان في متن الرحّالة الأوربيين

تُمكننا بعض نصوص الرحالة الذين عبروا من بني حسّان من بلورة صورة عن هذه القبيلة من وجهة نظر أجنبية، بواسطة هذه الأوصاف التي اهتمت بجوانب عدة نستشف آراء وانطباعات بل وحقائق ذات ملمح خاص، كما يُلفت -القارئ لهذه النصوص-اهتمامهم الفريد بالجانب الطبيعي وافتتانهم بمناظرها الخلابة، إنها رؤية الآخر التي ترى ما لايراه أهل المكان حيث تتجرد هذه الرؤية من النمطية فترى كل ما هو عادي عند أهل القبيلة غريب وعجيب.

في صيف سنة ١٨٨٣م، زار الرحالة الفرنسي شارل دو فوكو قبيلة بني حسان، القبيلة "التابعة للمخزن"[٢٦]، وفي هذا تأكيد على انضواء القبيلة تحت لواء الإيالة الشريفة أي السلطة المركزية بالمغرب. ولا يُخفي الرحالة إعجابه بالمنظر الساحر لجبل بني حسان حيث "تتدرج حقول القمح على جانبه تكسوه انطلاقًا من الصخور التي تتوجه حتى نهاية الوادي، غطاءً ذهبيًا، تلمع، وسط حقول القمح" وانتشار ما عبّر عنه "بآلاف القرى المحاطة بالحدائق التي ما هي إلا حياة وثروة وطراوة" وفي ثنايا وصفه للمكان يذكر أصناف من المزروعات كانت سائدة في ذلك التاريخ كأشجار التين والكروم الرمان والمشمش زيادة عن كونها أرض غنية بالمياه، ثم نجده يشهد لسكان هذه القبيلة "بكثرة الاجتهاد في التحصيل"[٢٧] ما يعني أنهم سكان نشطين مجدين في عملهم.

وجهة نظر أخرى نلتمسها في كتاب المغرب المجهول لمؤلفه موليراس، هذا الأخير الذي كلّف محمد بن طيب (الدرويش) بمهمة اكتشاف المغرب المجهول بين ١٨٧٢ و١٨٩٣م، وصل الرحّالة إلى منطقة بني حسان في فصل الشتاء وزوّدنا بمعلومات عن بعض أنواع الألبسة التي يستعين بها رجال ونساء المنطقة لمقاومة درجات الحرارة المنخفضة في هذا الفصل، "فإن الرجال يرتدون ملابس كثيفة من الصوف الأسود، ومن أبرزها الجلابة القصيرة التي تصل إلى الركبة بالنسبة للرجال والحايك المشدود بحزام (...) بالنسبة للمرأة، وتنتعل هذه الأخيرة "بوعفاس" وهو يتشكل من نعلين وحزام يوضع حول الساق"[٢٨].

وأمّا أصناف الطعام التي وجدها فهي البيصار[٢٩]–والتي لازالت المنطقة مشهورة بها-والبلوط والأرجال وبعض السمك[٣٠]، وبخصوص السمك أورَدَ أنهم يشترونه من قبيلة بني سعيد التي تطلّ على البحر، وهي معلومة مهمة ذات قيمة اقتصادية وتعبّر عن جانب من جوانب العلاقة التي كانت تربط القبيلتين.

ولم ينسى هو الآخر كسابقه إتاحة حيز من وصفه لجغرافية المكان الملفتة بغطائها النباتي "القرى بشساعتها، غابات السنديان والبلوط والحور والعرعر" وأنواع المواشي "الماعز والعجول والقليل من البغال" بالإضافة إلى الحيوانات التي يصيدها أهل القرية (النمس، الحجل، بنات أوى والثعالب والأرانب) والتي كانت مصدرًا رئيسًا من مصادر التغذية التي اعتمد عليها أهل القرية نظرًا لغياب سهول بالمنطقة توفر محاصيل زراعية متنوعة وما يزيد مصادر التغذية قلّة، تباعد القرى الذي يحدّ من إمكانيات التبادل التجاري، لذلك كان الصيد مصدرًا للتغذية بالغة أهميته إلى وقت قريب.

ومن الأشياء الفريدة التي امتاز بها صاحب الرحلة تطرقّه لانتشار ظاهرة هداوة[٣١] في قبيلة بني حسّان، "حيث يقوم بعضهم بمعاشرة هداويات ثم الالتقاء بهن عن طريق الصدفة، فتثمر هذه العلاقة ذرية من الهداويين الصغار وهم متسولين جوالين وأعداء للنظافة مثل آبائهم"[٣٢].

وأما فيما يخص بعض الحكايات التي كانت متداولة بين أهل القبيلة، ما سمّاه أسطورة "الأثر الرائع للرِجل اليمنى لمولاي عبد السلام بن مشيش" حيث حطت الرجل اليمنى لهذا الولي الصالح على صخرة بغابة تاينزة وهو في طريقه إلى مكة تاركة أثرًا بعمق ٨ سنتيمترات، (وتذكر الأسطورة أنه كان يقطع في كل خطوة ما بين ١٠ و١٥ كيلومتر) وظلت القدم مرسومة بشكل واضح على الصخرة، ثم بَنى فيما بعد أهالي المنطقة سورًا حجريًا حول هذا المكان الذي أصبح مزارًا للورعين، طبعًا مثل هذه المرويات لم تختص بها قبيلة بني حسّان دون باقي القبائل المغربية في ذلك العهد، وإنما هي لمحة عن طبيعة الذهنية التي سادت تلك المرحلة من التاريخ، ذهنية جَمعية تُعلي من شأن الصالحين وتنسج من فرط الحبّ لهم على لسان العوام قصصًا خارقة من خلالها يُنسب لهم أفعال مُعجزة يُطلق عليها "الكرامات"، وهذه المَرويّة تُخفي إرادة القبيلة أن يكون لها حظ من بركات "عبد السلام بن مشيش" القطب، دفين جبل العلم، وتظفر بشيء

من الحظوة التي تحظى به قبيلة بني عروس جارتها، والظفر بقصة من هذه القصص التي ينشأ عنها جلب الشرف لمنطقة ما كان بالغ الأهمية عند المجتمع المغربي كافة الحضري منه والبدوي في المغرب قبل الاستعمار وبعده بقليل حيث ستستبدل ذهنية المجتمع هذه القيم والعادات بأخرى.

وبالنسبة للقوات المحليّة التي كانت موجودة في قبيلة بني حسّان إبان العقدين الثامن والتاسع من القرن التاسع عشر الميلادي فقدّرها محمد بن طيب بـ ٢٥٠٠ من المشاة لبني حسان وبني ليث مجتمعتان، أما العدد المحتمل للسكان فهو ١٧٥٠٠ نسمة[٣٣].

رابعًا: بعض المآثر الدينية

الجامع البيضاء أو جامع البيضا من أقدم المساجد في شمال إفريقيا كلها حيث ينسب بناؤه إلى القائد موسى بن نصير أواخر القرن الأول الهجري، يتربع هذا المسجد فوق ربوة عالية قريبة من سوق الأربعاء، من الراجح أنه قد رُمّم في فترات سابقة. من العلماء الذين زاروا هذا المسجد الحسن المصباح أوائل القرن الثامن عشر الميلادي وقال "أن سكان القرية يُجمعون على أن موسى بن نصير هو الذي بناه"[٣٤]، وقد أصبح هذا المسجد مهجورًا منذ أواسط القرن الماضي.

زاوية سيدي عيسى الحاج: يقع ضريح الولي الشهير عيسى الحاج بن علال الحاج الكبير البقال (ت١٦٦٩) في مدشر "بني صابر" في سفح جبل كلتي، وفوق تلة صغيرة، جد الفرع المعروف بـ "عيساوة" من الأسرة البقالية الشريفة، ويُعَدّ هذا الضريح مزارا لأهالي بني حسان والقرى القريبة في موسم خاص من السنة.

زاوية سيدي علي البختي: تقع في سفح جبل كلتي ويأتيها الزائرون من المداشر المجاورة.

جامع مولاي عبد السلام: وهو عبارة عن زاوية وفي نفس الوقت جامع يقع قرب مدشر "تامثلت"، يُجلّونه الأهالي بشكل كبير وتذكر الروايات الشفهية أن القطب عبد السلام بن مشيش درس في مرحلة من عمره في هذا المسجد ولذلك لازال إلى حد الآن يعتبر أحد أكبر معاهد تحفيظ القرآن في منطقة شمال المغرب.

منازل بني خجو: وهي مجموعة من الديار العتيقة الواقعة في مدشر "أحجة" في فرقة بني امهارون بالقرب من حدود قبيلة بني زجل الغمارية ومركزها "تلمبوط" وهي ديار أسرة "ابن خجو" العلمية الشهيرة، التي يعد أبو القاسم بن علي بن خجو الخلوفي الحساني (ت. ٩٥٤٩م) دفين فاس أبرز أعلامها.[٣٥]

خامسًا: قبيلة بني حسّان والمشاركة في مقاومة الاحتلال الإسباني

بعد خضوع المغرب للحماية الثنائية –الفرنسية والإسبانية- أُلحقت مناطق شمال المغرب بالتتابع للإدارة الاستعمارية الإسبانية، كانت قبيلة بني حسان وبحكم وُعورة موقعها الجغرافي من المناطق التي تأخر إخضاعها إلى أن قاد الجنرال برنكير قواته المسلحة من مختلف الجهات نحو مدينة شفشاون فاقتحمت جيوشه أرض قبيلة بني حسان، وفي شهر شتنبر ١٩٢٠ احتلت سوقها – سوق الأربعاء-ثم تقدمت الجيوش فاحتلت مركز دار أقوبع"[٣٦].

ويَظهر من رسالة بعثها الصدر الأعظم بالحكومة الخليفية (نسبة إلى خليفة السلطان في المنطقة الخاضعة للاستعمار الإسباني) في شهر نوفمبر ١٩٢٤م، إلى مجموعة من قبائل جبالة وفيهم قبيلة بني حسّان أنّ أهل هذه الأخيرة كانوا منخرطين بشكل كبير في عمليات المقاومة إلى درجة اضطرار المقيم أن يرفع من سقف تهديداته حيث كان يلوّح بـ"هدم مدينة شفشاون، وتخريب كل ما ظهر فيه فساد من القرى والمداشر"[٣٧] حسب وصف صاحب الرسالة، إلاّ أن العامل الجغرافي –تضاريس الجبال والمرتفعات الوعرة- واصطفاف أهل المنطقة إلى جانب المقاومة وقفا حجر عثرة أمام خطط الإسبان لإخضاعهم، ما شجّع المقاومة على الرفع من حماسها وكسر هيبة قوات الاستعمار في هذه السنوات.

وفي سياق الانتصارات التي كانت تحققها المقاومة الريفية والجبلية خلال أوائل العقد الثاني من القرن العشرين وعلى رأسها هزيمة الجيش الإسباني في معركة أنوال ١٩٢١م بقيادة محمد بن عبد الكريم الخطابي، طالب الرأي العام الإسباني بالخروج من المغرب وبإيقاف "حرب لا فائدة منها" كما جاء في إحدى الصحف الإسبانية، فما كان أمام الجنرال ريفيرا إلاّ أن يُقرّ الانسحاب من المناطق الداخلية بشمال المغرب والاكتفاء بحماية الموانئ[٣٨]، وأثناء عملية الانسحاب التي واكبتها احتياطات كبيرة وتخطيط حذر وقعت معركة أشروطة أو عين الحمراء، وتعرف عند الإسبان بمعركة خندق الموت بقبيلة بني حسان يوم ١٩ نوفمبر ١٩٢٤، وعلى غير ما توقع الإسبان كان جنود المقاومة الذين اجتمعوا من معظم القبائل الجبلية وبعض القبائل الريفية في انتظار عبور الجنود الإسبان من قبيلة بني حسان، فقاموا بمحاصرة جيش الاحتلال وباغتوه بهجمات كبّدته خسائر كبيرة (مقتل الجنرال سيرانو وستة من

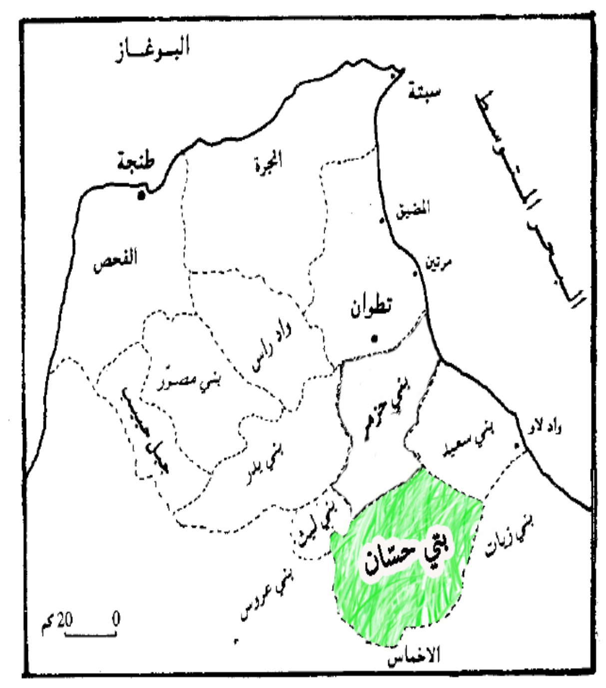
الكولونيلات، وثمانية من الكومندرات، ومائة وخمسة وسبعين ظابطًا وحوالي ٧٠٠ جندي[٣٩].

ولعل هذه المعركة كانت من الأسباب الكامنة التي دفعت الجيش الإسباني للانتقام من سكان منطقة بني حسان، إبان أحداث شهر غشت ١٩٢٧م، عند الحصار الأخير، حيث حوصر حوالي ١٠٠٠ مقاتل من كافة قبائل جبالة في جبل القلعة (جبل يقع بين بني حسان ومدينة شفشاون تابع لجماعة الواد)، ومعهم النساء والأطفال، فقامت المدافع الإسبانية باستهدافهم طيلة شهر، فاضطروا للاختباء في الكهوف ولم يقتل منهم أحد حتى تفرقوا في القبائل، وقلة منهم ذهبوا إلى جبل العلم عند ضريح مولاي عبد السلام ليحتموا من بأس الاستعمار[٤٠].

خَاتمَةٌ

لعلّ هذا التركيب أعلاه قد أزاح الحجاب شيئًا ما عن تاريخ القبيلة، محاولا فهم طبيعة المسار التاريخي الذي مرّت منه وهي في طريقها لبلورة هويتها الحالية، وبفهم هذا المسار النموذج، يلقي بضلاله لفهم باقي القبائل التي اقتربت تجربتها التاريخية من تجربة بني حسّان، فهذه الأخيرة عرفت عملية تمازج ثقافي طويلة الأمد بين الروافد المتعددة لأصول سكانها، فلا تاريخها الأمازيغي البعيد قد اختفى، ولا لغتها العربية قد شملت كلّ التعابير والأسماء، بل إنّ الثقافة الأندلسية هي الأخرى حاضرة ولكن بشكل متخفّي منصهر مع العناصر السابقة، لتشكّل هوية جبليّة معبّرة عن تجربة فريدة، بهذا تكون القبيلة أمازيغية الجغرافية (أغلب أسماء المواضع الجغرافية أمازيغية)، عربية العنوان (بني حسّان)، أندلسيّة الذاكرة (حيث يتداول سكان الكثير من مداشرها قصة هروب الأندلسيين من المَقاتل ومطاردات المملكة القشتالية وكيف اختاروا تلك القمم الشاهقة في جبال بني حسّان ليتحصّنوا من كلّ تهديد).

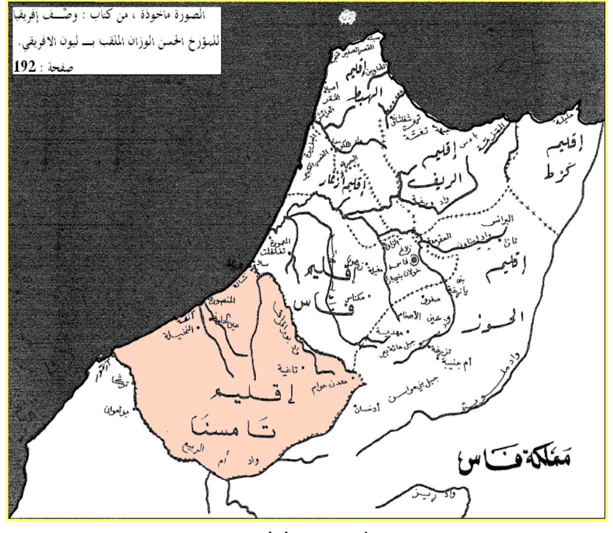
الملاحق



رسم توضيحي خريطة رقم (١)

القبائل المحيطة بقبيلة بني حسّان شمال غرب المغرب

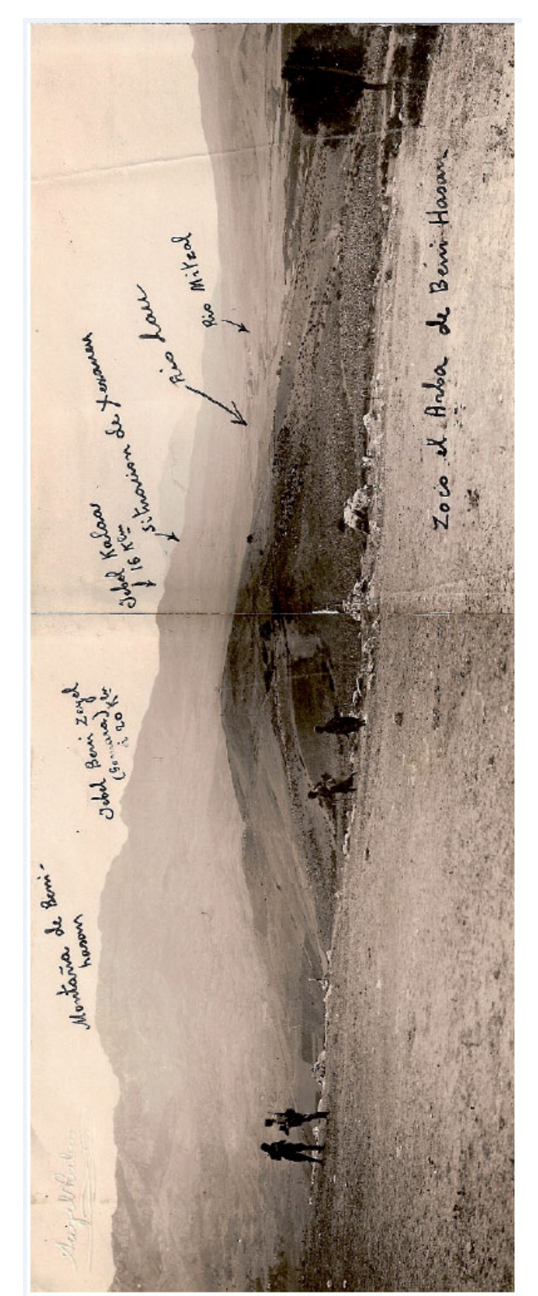
المصدر: خاص



رسم توضيحي خريطة رقم (٢)

تقسيم أقاليم المغرب خلال القرن السادس عشر الميلادي

المصدر: كتاب وصف إفريقيا



صورة رقم (١)

منطقة سوق الأربعاء بقبيلة بني حسّان سنة ١٩٢١م

المصدر: Cleccion de Carlos Bond, Tetuan 1921

الهَوامِشُ:

(١) **رواية شفوية**: عدل أصله من قبيلة بني حسان ومقيم بمدينة تطوان: ذ.عبد العزيز الكموط.

(٢) **معلمة المغرب**، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، ١٩٩٢، ج٥، ص، ١٥١٨.

(٣) معاذ البكوري، **جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لقبائل غمارة ١٨٥٩-١٩٠٦م**، أطروحة دكتراه، جامعة سيدي محمد بن عبد الله كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس-فاس، ٢٠١٧-٢٠١٨، ص، ٢٠.

(٤) كان المجال الترابي لقبائل غمارة يمتد من الحدود الغربية للريف إلى ضواحي تطوان ووادي السطح بجبل العلم غربًا ويتسع نطاق حدودها جنوبا إلى المناطق القريبة من فاس، لكن هذا المجال تقلّص شيئًا فشيء بفعل عوامل عدّة، فأمسى ينحصر في المناطق الواقعة إلى الجنوب الشرقي من تطوان على ساحل البحر الأبيض المتوسط. انظر: الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٢، ص، ج١، ٥٣٢. وأيضًا: التقي العلوي، "**أصول المغاربة القسم البربري؛ غمارة وحلفاؤها**"، **مجلة البحث العلمي**، ع ٣١، ص٢٧. بالإضافة إلى:عبد الوهاب بن منصور، **قبائل المغرب**، ص ٣٢٦-٣٢٦.

(٥) استعملت مصطلح الأمازيغ للدلالة على جميع القبائل التي استقرت بالمغرب منذ العصور القديمة، الذين أطلق عليهم الليبون في البداية ثم الموريون ثم البرابرة وتواضع أهل شمال إفريقيا اليوم على مصطلح الأمازيغ.

(٦) مقال: خالد غاوش، "**جرد القبائل المعمرة لمنطقة الغرب؛ بني حسن**"، /https://www.academia.edu، ص، ٩.

(٧) عبد الله البكري، **المسالك والممالك**، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ٢٠٠٣، ج٢، ص ٢٩٠

(٨) عبد الرحمان بن خلدون، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، دار الفكر، ج٦، ٢٨١.

(٩) انظر: **معلمة المغرب**، ج٥، ص، ١٥١٨.

(١٠) عبد المنعم سيد عبد العال، **لهجة شمال المغرب؛ تطوان وما حولها**، دار الكتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨م، ص، ٤٥.

(١١) محمد داود، **تاريخ تطوان**، مراجعات وإضافات حسناء محمد داود، ج١١، مطبعة الخليج العربي، تطوان ٢٠٠٩، ص، ٢١.

(١٢) بلال الداهية، "العائلات الأندلسية في قبيلة بني حسان الجبلية"، نشر ضمن **جريدة الشمال**، العدد ٨٠٤، الثلاثاء ٢٩ شتنبر إلى ٥ أكتوبر ٢٠١٥.

(١٣) المرجع نفسه.

(١٤) أحمد الرهوني، **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، تحقيق جعفر السلامي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية-تطوان/ جمعية تطاون أسمير، ج٦، ص، ١٤٦.

(١٥) المرجع نفسه، ص، ١٤٧-١٤٨.

(١٦) المرجع نفسه، ص، ١٢-١٣-١٤.

(١٧) بلال الداهية، "العائلات الأندلسية في قبيلة بني حسان الجبلية".

(١٨) "جبل بني حسان شاهق المنال على العدو، إذ فضلاً عن طبيعة الأرض، يتميز رجاله بشدة البأس وعظيم الشجاعة، لم يتحملوا القمع من بعض مواطنيهم فنزعوا من أذهانهم كل كبرياء بقوة السلاح، وغيروا أحوال كثير منهم إلى وضعية حقيرة. ثم شاباً من بين هؤلاء الأشراف غضب لكونه أصبح محكوما من أتباعه القدامى، وامتلأ صدره حقدا عليهم، فذهب إلى إسبانيا وعمل فترة من الزمن أجيرا في خدمة النصارى إلى أن أصبح محاربًا محنكا. وبعد ذلك رجع وسكن أحد هذه الجبال الذي التجأ إليه أتباعه، فجمع عددًا لا يستهان به من الفرسان ودافع عن الجبل ضد تحرشات البرتغاليين، (...) أقره (الملك) على حكم شفشاون وناحيتها، وهكذا أصبح حاكمها الشرعي (...) يدعونه باسمه واسم أسرته علي بن راشد". حسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية ١٩٨٣، ج١، ص321.

(١٩) **معلمة المغرب**، ج٢، ص. ٤١٧٢.

(٢٠) "فمدينة الشاون كلها أندلسية ومؤسسها أندلسي وجبال بني حسان والاخماس وقبائل غمارة والحوز كلها أندلسية". محمد قشتيلو، **محنة الموريسكوس في إسبانيا**، الطبعة الثانية، ١٩٩٩، ص. ١٩.

(٢١) **معلمة المغرب**، ج١، ص. ٣٣٦.

(٢٢) معاذ البكوري، المرجع السابق، ص. ٣٢-٣٣. انظر أيضا: محمد بن منصور، **قبائل المغرب**، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٦٨، ج١، ص. ٣٢٥.

(٢٣) رواية شفوية

(٢٤) وجاء في تقييد لبعض فقهاء قبيلة اسلاس ما يلي: "أما ما يقال عن الولي الصالح سيدي عبد الله بن حسون الذي يوجد ضريحه في دوار بني هلال قبيلة اسلاس من قبيلة بني حسان وهي إحدى قبائل شفشاون ولهذا يدعى بالحسوني جاء من قبيلة بني حسان والله أعلم وشارط في مدشر بني هلال فتزوج من عائلة الجمليين تسمى رحمة الجميلة فأنجب منها سيدي بن حسون" ولهذا الفقيه ضريحين ضريح في مدشر الهلاليين وضريح آخر في مدينة سلا التي انتقل إليها وتوفي فيها. انظر: عبد الكريم احميدوش، **"حياة ومسار الشيخ العلامة عبد الله احمد الخالدي السلاسي المعروف بابن حسون"**، (http://taounate.net/archives/4038).

(٢٥) بالإضافة إلى أسرة الرايس الحسانية. انظر:أحمد الرهوني، **عمدة الراوين**، ج٣، ص. ١١١ و١٢٤ وص١٧٥.

(٢٦) شارل دو فوكو، **التعرف على المغرب ١٨٨٣-١٨٨٤**، ترجمة المختار بلعربي، دار الثقافة، ص. ١٦.

(٢٧) نفسه، ص ١٧.

(٢٨) أوجست مولييراس، **المغرب المجهول**، ترجمة عز الدين الخطابي، منشورات تيفراز، ج٢، ص. ٦٧٣-٦٧٤.

(٢٩) أكلة محليّة تصنع بالفول المجفّف يغلىّ في الماء ويضاف إليه زيت الزيتون والثوم.

(٣٠) نفسه، ص. ٦٧٥.

(٣١) طائفة كان مركزها بجبل العلم بجوار قبيلة بني حسّان، كانوا ينادون بالمتسولين ونبذهم المغاربة بسبب اللباس الذي كانوا يرتدونه وسلوكهم في الحياة.

(٣٢) المرجع السابق، ص. ٦٧٤.

(٣٣) نفسه، ص ٦٧٥.

(٣٤) **معلمة المغرب**، ج٦، ص. ١٩٥٠.

(٣٥) بلال الداهية، **"العائلات الأندلسية في قبيلة بني حسان الجبلية"**.

(٣٦) محمد داود، **مختصر تاريخ تطوان**، مراجعة وتنقيح حسناء داود، المسارة، ٢٠٠٨، ص. ٤٣١.

(٣٧) محمد داود، **تاريخ تطوان**، ج١١، ص. ٢٣٧-٢٣٨.

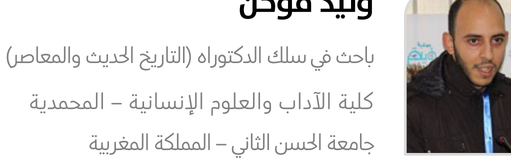
(٣٨) محمد علي داهش، **المغرب في مواجهة إسبانيا ١٩٠٣-١٩٢٧**، دار الكتب العلمية، ٢٠١٠، ص. ١٠٨-١٠٩.

(٣٩) **معلمة المغرب**، ج٢، ص. ٤٦١.

(٤٠)رواية الشفوية، عبد العزيز الكموط.

مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

إسبانيا واستغلال الموارد الطبيعية في شمال المغرب بين الرغبة الاستعمارية وضعف موارد المنطقة الخليفية منطقة اللوكوس نموذجًا (١٩١٢-١٩٥٦)

وليد موحن
باحث في سلك الدكتوراه (التاريخ الحديث والمعاصر)
كلية الآداب والعلوم الإنسانية – المحمدية
جامعة الحسن الثاني – المملكة المغربية

مُلَخّص

لا مناص أن غاية كل استعمار تتجلى في الاستفادة من خيرات المستعمرات، في كافة المراقي والتجليات منذ بداية هذه العملية الاستيطانية الكونية، ولم تكن إسبانيا بعيدة عن هذا المنحى في استعمارها لشمال المغرب، بل كانت تربو بشكل أساسي استنزاف ما اكتنزت المنطقة الخليفية من ثروات ظاهرية وباطنية، على الرغم أنها لم تكن تملك نفس الآليات والتقنيات والدراسات التي بلورتها فرنسا الجارة في الاستعمار المغربي، والتي استعمرت المنطقة السلطانية، واستنزفتها بصورة قوية، كما توضح الكتابات الفرنسية، والأطروحات المغربية، وبما أن إسبانيا لم تكن تمتلك نفس المقومات، فإنها لم تجن من هذا الاستعمار سوى الفتات. وقد ارتأينا التركيز على منطقة جغرافية محددة هي منطقة اللوكوس، من أجل النفاذ إلى ميكانيزمات الاستغلال الاستعماري الإسباني في منطقة عرفت نسبيًا مقارنة بالمناطق الأخرى الجبلية والريفية بثرائها وخصبة أراضيها وبمواردها السمكية، والتي عملت الدولة الإسبانية على استنزافها بشكل مفرط أثر على موارد نهر اللوكوس في مراحل ما بعد الاستعمار. ومن أجل تسهيل هذا الهدف والمرام، فقد عملت إسبانيا على مد السكك الحديدة، وتجهيز الموانئ البحرية، وتوفير المعدات اللوجستيكية من أجل ضمان مستدام للعملية، غير أن قلة موارد الدولة الإسبانية، وأوار العمليات العسكرية المشتعلة في المنطقة وقف حائلاً أمام إتمام العملية وفق المخطط المرصود لها من طرف ساسة مدريد الذين كانوا يطمعون في خيرات المنطقة من أجل الهاء الرأي العام الإسباني الذي كان في غالبيته ناقمًا على هذه الحماية الإسبانية على شمال المغرب.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٠١	أبريل	٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر:	٢٢	مايو	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

إسبانيا؛ شمال المغرب؛ الاستغلال الاستعماري؛ منطقة اللوكوس

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.167796

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

وليد موحن. "إسبانيا واستغلال الموارد الطبيعية في شمال المغرب بين الرغبة الاستعمارية وضعف موارد المنطقة الخليفية: منطقة اللوكوس نموذجًا (١٩١٢-١٩٥٦)".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد الثامن والأربعون؛ يونيو ٢٠٢٠. ص١٠٤ – ١١٠.

Corresponding author: Mouhan.walid@gmail.com
Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

مُقدِّمَةُ

عرف البحث التاريخي تطورًا في المناهج والطرق وأضحى البحث فيه يلامس عدة جوانب ومناحي لم يخترقها الدارسين من ذي قبل، وفي هذا المضمار سلف الباحثون في تاريخ الحماية في المنطقة الشمالية، على البحث والتقصي في مراحل الكفاح المسلح والتركيز على الحركة الوطنية والإسهاب في الحديث على المعطيات السياسية ونشأة الأحزاب الوطنية، ولم يتحدثوا إلا لمامًا على الأوضاع الاقتصادية والوقائع الاجتماعية خاصة في المنطقة الخليفية[١] التي لم تأخذ حقها من البحث، وما زالت عدة من قضاياها منجمًا بكرًا في حاجة إلى من يخترق لمامها، ويكشف مكنونها، وفي هذا الصدد اخترنا البحث في موضوع استغلال الموارد الطبيعية بشمال المغرب على عهد الحماية الإسبانية بمنطقة اللوكوس[٢] نموذجًا برغم من عوز المادة المصدرية وقلة الأبحاث التي تميط اللثام حول واقع الاستغلال الاستعماري الإسباني.

لا مناص أن غاية كل استعمار هي النفاذ إلى البلد المستعمر، من أجل الاستفادة من خيراته، ونهب ممتلكاته، والانتعاش من موارده، خاصةً زمن الاستعمار الإمبريالي الذي عرفه العالم منذ القرن التاسع عشر الميلادي، الموجه من طرف المتروبولات الاستعمارية، والتي انطلقت في شمال إفريقيا بصفة جلية بعد الاحتلال الفرنسي الغاشم على الأراضي الجزائرية سنة ١٨٣٠م.

وإن كانت فرنسا قد عرفت مدرسة استعمارية كبرى لها أهداف وغايات ومرامي، نظمتها بفعل رحلاتها الاستكشافية، وتنظيماتها الجغرافية، ودراية قادته العسكريين في الجزائر والهند الصينية، فإن الدولة الإسبانية-موضوع الدراسة-لم يكن لها نفس الباع والقوى، بل أنها كانت منهكة، حيث كانت إسبانيا نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تعاني من تمزق سياسي وانهيار اقتصادي وتراجع اجتماعي وثقافي، حتى أضحى بلادهم خارج التحولات التي كانت تعرفها أوربا والساحة الدولية آنذاك. فقد كانت إسبانيا مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين مثقلة ومتعبة تقلصت إمبراطوريتها وضعف حالها وأمامها التاريخ يجري والعالم حولها يتقدم ولا بد لها من مسايرة الركب إن أرادت العيش والبقاء[٣].

إذ بسبب ذلك اضطربت الكثير من القطاعات الاقتصادية المرتبطة بالتجارة مع المستعمرات وافتقدت الدولة الكثير من الموارد التي كانت تحقق بواسطتها توازنا ماليًا فدخل الاستعمار والإمبريالية الإسبانية مرحلة حرجة جدًا بسبب التنافس الشديد بين الدول الاستعمارية حول ما تبقى على المائدة الاستعمارية.[٤] فلم يكن من بد لإسبانيا سوى تصريف أنظارها نحو المنطقة الشمالية، من أجل الاستفادة من مواردها الطبيعية، والهاء الرأي العام الإسباني عن المشاكل الداخلية المستعصية.

وانطلاقا من ذلك يحق لنا طرح الإشكالات التالية: ما هي مصادر المعرفة الإسبانية بخصوص المنطقة الشمالية قبل الاستعمار؟ هل حقًا وجدت إسبانيا في المنطقة الشمالية وخاصةً منطقة اللوكوس مرتعًا من أجل الاستفادة من الموارد الطبيعية؟ وما طبيعة هذه الاستفادة وهل حققت النتائج المرجوة منها؟ وما أهمية منطقة اللوكوس في المخطط الاستعماري الإسباني؟

أولاً: شمال المغرب في المخطط الاستعماري الإسباني

من البديهي القول إن إسبانيا لم تكن بنفس المكانة الاستعمارية، بل لا يمكن اعتبارها قوة إمبريالية، بحيث لم تحصل على المنطقة الشمالية إلا لدوافع استعمارية أملتها المصالح الإنجليزية، المتحصنة في مضيق جبل طريق بوابة المستعمرات الإنجليزية. لقد انطلق البحث الجغرافي حول المغرب بشكل مبكر وتُعَدّ رحلة على باي العباسي من بواكير الرحلات التي كانت لها نوازع ورغبات استعمارية تربو السيطرة على المغرب، وتبيان قيمته الجغرافية، ومكانة موارده الطبيعية. ولن يغيب على المتمعن في نص الرحلة كونها سفارية علمية في أساسها، وأن الهاجس السياسي لم يكن له من أهمية سوى التمويه على المركز السياسي بمدريد بحثًا عن الدعم المالي، بل إن القراءة الناقدة لتكشف عن افتتانه بالمغرب، وولعه بطبيعته، وتقديرًا لعاداته وتقاليده، وإجلال لدينه، لدرجة يكاد ينتفي معها وهم التجسس الذي أشيع عن صاحب الرحلة، وإن كان على باي لم يتخل عن انتقاد نظام الحكم المستبد، والأحوال الاجتماعية المتردية، وخصوصًا الاضطهاد الذي كان يكابده اليهود"[٥].

والواقع أنه يصعب علينا التميز في هذه الرحلة، بين الغث والسمين بين الحقيقة والخيال، بين الصدق والكذب في مشروع الهيمنة الوارد في الرحلة المومأ إليها.[٦] ولم تنجح هذه الرحلة برغم كونها تركت معطيات جزلة وذات بال، غير أنها لم تكن كافية من أجل رسم صورة متكاملة على المنطقة الشمالية ومواردها التي كانت تسيل لعاب الإسبان، خاصةً منهم التيار الأفريقاني[٧] الذي كانت تحذوه رغبات جامحة من أجل السيطرة

على المنطقة الشمالية وتقديم نصر موعود للأمة الإسبانية يعيد لها أمجادها الضائعة في كوبا والفلبين.

ونشطت رحلات أخرى في الصدد، وإن كانت تختلف في الظروف والمسببات، فإنها كانت تشترك في غاية توفير معطيات للجهاز الاستعماري[٨]، وإن كانت في معظمها لم تأت بالجديد مقارنة بالرحلات الفرنسية التي جابت الأصقاع المغربية، ودرستها من كافة النواحي الثقافية واللسانية والفكرية وبطريقة علمية وتحت إشراف معاهد الدراسات الفرنسية. وانطلاقًا من ذلك وتفاديًا لضعف المعرفة الجغرافية المتسربة من رحيق الرحلات الإسبانية وجهت إسبانيا أنظارها إلى الجمعيات الجغرافية والمكونات العلمية، والمعاهد الطبيعية من أجل إنجاز رسوم وخرائط ودراسات تكون مدعمة ونبراس لتسهيل مرام التغلغل الاستعماري بشمال المغرب، والهاء الرأي العام الإسباني على مشاكله الداخلية المستعصية. وهكذا نشطت معاهد جغرافية نشيطة تربو توفير معرفة جغرافية ملائمة وذات جودة وغائية للإسبان.

ثانيًا: منطقة اللوكوس في صلب اهتمامات الجمعيات الجغرافية الإسبانية

لقد اقتنع الإسبان أن العمل العسكري غير كاف من أجل تمهيد المنطقة، ولا مناص من دراستها علميًا، تسهيلاً لمرام استغلالها فلاحيًا واقتصاديًا. لقد كانت منطقة الحماية الإسبانية تنقسم إلى خمسة أقسام رئيسة: الكرت، الريف، غمارة، جبالة، اللوكوس. ما ميز هذه الجهة الأخيرة هو موقعها الاستراتيجي بالنسبة للسلطات الإسبانية التي كانت تبحث وبشكل حثيث عن منفذ على الواجهة البحرية الأطلسية.[٩]

كما تمكنت إسبانيا أن تنجز بهذه الجهة مجموعة من المندوبيات التي اتخذتها كوسيلة للتدخل بمجال المنطقة الشمالية، من أهمها: مندوبية السكنى ومندوبية الاقتصاد الصناعة والتجارة والتي تضم مصالح التجارة والمعادن والسياحة، ثم مندوبية التربية والثقافة ومندوبية الأشغال العمومية والمواصلات ومندوبية المالية، ما يهمنا معرفته هو أن هذه المندوبيات اعتبرت من الأدوات التي ساهمت في تنظيم المنطقة الخليفية على المستوى إنجاز بعض المشاريع الاقتصادية والاجتماعية والتجهيزات الأساسية، كما عرفت مدينة العرائش بناء ميناء للصيد البحري حيث اعتبر من أهم الموانئ الصيد وإخراج الأسماك بمنطقة النفوذ الإسباني.[١٠]

وقد استأثرت هذه المنطقة بدراسات وافية تستجلي قيمتها، ولعل من أهمها: بحث لوكاس فيرنانديث نافارو الصادر مع بزوغ عهد الاستعمار سنة ١٩١٢، والموسوم "معادن شمال المغرب" وهو عبارة عن جرد طويل لمعادن المنطقة، كان لحكايات السكان دور في النفخ فيها، من ذهب وفحم الليغنينت والجري، وذلك في إطار فكرة للمؤلف تسعى إلى القول إن الاستكشاف يضفي طابع المنفعة على احتلال الأرض.[١١]

وبعد ذلك تناسلت عدة تقارير جغرافية حول إمكانية المنطقة الطبيعية، حيث اجتمع خمسة متخصصين للقيام ببعثة من أجل دراسة السكان بالجهة الغربية لمنطقة الحماية، خارج الطرق التي كان يسلكها المستكشفون حتى ذلك الحين. فلوكاس فرنانديث نافارو تكلف بدراسة جيولوجيا المنطقة. أما كونستانسيو بيرنالدو دي كيروس، سيعمل على دراسة الجوانب الاطنوغافية في المنطقة، بينما فيرناندو مارتينت دي لاسكالير، سيتكلف بمهمة البحث على الحشرات المضرة بالمنطقة والعمل كمترجم، وغيرهم الكثير من العلماء والعسكريين الذي انتشروا في المنطقة من أجل رسم صورة متكاملة ومحينة حولها. وسخروا أبحاثهم للجهاز الاستعماري الإسباني. لكن الصدمة كانت مدوية في مجمل تقارير هؤلاء، نظرًا لأن المنطقة لم تكن بذلك الزخم الذي روج حولها، والخيرات السخية التي بلورتها الاسطوغرافية الأفريقانية حول المنطقة الشمالية وغناها من الموارد الطبيعية.

وهكذا صرح فلوكاس فرنانديث نافارو في مقال بجريدة "إسبانيا" في عددها ٣٠٣ الصادر يوم ١٥ يناير ١٩٢٢ بعنوان دال: فقر المغرب يدحض فيها أفكار كل دعاة غنى منطقة الحماية، وأنها ليست بتلك الغنى المرصود حولها. غير أنه لا يقف على هذا المعطى، بل ينسب ضعف استغلال الحماية إلى ترهل الجهاز الاستعماري الإسباني "من يدافعون عما نفعله في المغرب عليهم أن يبحثوا عن مبررات وتفسيرات في مجالات أخرى وليس في المقدرات الاقتصادية المنعدمة. إن المغرب في شموليته أرض يمكن أن تحتوي على مؤهلات اقتصادية عظيمة غير أن حمايتنا بكامل الصراحة بئيسة ولن تتجاوز فقرها حتى وإن رفع النقاب عن مصادر ثروته المتواضعة.[١٢] هذا ناهيك عن المقاومة التي كانت ضاربة أطنابها في سائر المنطقة الشمالية، والتي صعبت من مأمورية استغلال المنطقة الخليفية بوجه عام ومنطقة اللوكوس على وجه التحديد.

ثالثًا: إسبانيا والاستغلال الاستعماري (أرقام ومعطيات)

من أجل استغلال أمثل للموارد الطبيعية في المنطقة كان لازمًا على سلطات الحماية الإسبانية التفكير في إنشاء السكة الحديدية في المنطقة، وقد عهد للمهندس لويس موراليس بتنفيذ المشروع الذي واجهته عدة عراقيل ومشاكل نظرًا لمرور الخط وسط العديد من النقط التي كانت تتعرض لهجمات من طرف حركة المقاومة في المنطقة. وقد تمكن هذا الخط السككي حسب طوماس غرسيا فيكيراس ما بين سنتي ١٩٣٦ و ١٩٥٤ ما مجموعة ٧٨٠٦٠٠ مسافر، بينما سجلت نفس الفترة نقل ما مجموعه ٤٧٩٠٠ طن من البضائع جله من الموارد المعدنية المستخرجة من نطاق المنطقة.[١٣] لقد رصد الإسبان أجود الأراضي، وركزوا صلب اهتمامهم على المناطق التي تضم ثروات معدنية وطاقية، لتقوم الإدارة الاستعمارية بتفعيل قانون نزع الملكية الذي يتم بموجبه نزع أراضي مَنْ لا يتوفر على وثائق تبرز ملكيته وهذا ما مكن السلطات الاستعمارية من وضع يدها على مساحات مهمة من الأراضي قامت بتفويتها للمعمرين الإسبان وللشركات الإسبانية التي نشطت بصفة كبرى في هذه الفترة.[١٤] ومن أهمها نذكر:

Compania De Industrias Corcheras De Marruecos

وتعني شركة صناعة الفلين في المغرب وتقوم بتصنيعه، والتي كان مقرها في تطوان ورأسمالها يبلغ حوالي ٢ مليون بسيطة، وكانت تتحكم في حوالي ٦٤٤٨٣ هكتار في المناطق الجبلية للمنطقة الشمالية، حيث تستخرج منها الفلين وتقوم بتصنيعه أو تصديره خامًا، وقد شكلت غابة "الخليفة"، التي كانت تمتد على حوالي على مساحة ألفين وخمسمائة هكتار بين القصر الكبير والعرائش، مصدرًا مهما للفلين، وكانت تشكل مصدرًا هامًا للأخشاب والفحم، كما كانت هذه الشركة تشرف على العديد من الهكتارات الغابوية في منطقة "أهل سريف" المحاذية لمنطقة القصر الكبير حيث كانت تستخرج الأخشاب والفلين والفحم.[١٥]

Extractos Curtientos y Prductos Quimicoc

ركزت هذه الشركة على أشجار السنط لاستخراج المواد الكيماوية هذه المواد التي كان يكلف استيرادها من طرف إسبانيا مبالغ مهمة من العملة الصعبة مما جعلها تتجه للاستثمار في هذه المادة بالمنطقة خاصة القصر الكبير ومحيطه. حيث كانت تشكل أشجار السنط مصدرًا مهمًا للخشب والفحم وبعض المواد الكيماوية الأخرى.

أما الثروة السمكية لنهر اللوكوس، فكانت مياه نهر اللوكوس تحمل إلى القصر الكبير تشكيلة وافرة ومتنوعة من الأسماك، شكلت معها ثروة غنية أخذ منها الإسبان الشيء الكثير، حيث تشير الروايات الشفهية أن الإسبان قضوا بشكل كلي على العديد من الأنواع بسبب الاستغلال المفرط. ومن جملة الأسماك التي كان نهر اللوكوس ينعم بها نذكر "الانقليس" الذي كان الإسبان يقبلون عليه بكثرة، وهو عبارة عن سمكة نحيفة طويلة تشبع الثعبان إضافة إلى شبك الشبوط والشابل. وفي الحقيقة نعدم دراسات وأبحاث تركز حول هذا الاستغلال ونوعيته سواء في الكتابات العربية أو نظيراتها المحبورة بالإسبانية حسب ما اطلاعنا عليه. وتشير الجريدة الرسمية الصادرة في الرباط في ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٥٠ أن الحكومة الفرنسية استصدرت قرار بمنع البواخر الإسبانية التي تتجاوز حمولتها ٤٠ طنًا، مما يدل الاستغلال لهذه الثروة السمكية.[١٦]

جدول رقم (١)

الصيد البحري في منطقة الحماية الإسبانية سنة ١٩٥٤م

الصيد البحري بمنطقة الحماية الإسبانية سنة ١٩٥٤ [١٧]	
موانئ الصيد البحري	كمية السمك المصطاد بالطن
أصيلا	١٠،٨
العرائش	١٨٩٩،٧
الفنيدق	٣٢،٩
المضيق	٥٥١،١
مارتين	٣٣٨،٤
الناظور	١١٧،٩
الحسيمة	٣٣٦٩،٥

اعتبرت موانئ الصيد البحري في المنطقة الخليفية شمال المغرب موانئ تقليدية تجهيزاتها ضعيفة تركز على الصيد التقليدي الساحلي، الذي كان يشغل عددا مهما من الساكنة. وبحكم أهمية قطاع الصيد البحري للسلطات الاستعمارية عملت على تحديث وتجهيز عدد من الموانئ كل حسب أهميتها

بالنسبة إلى الاستراتيجية الاستعمارية الإسبانية، ومن أهم الموانئ التي دعمت بشكل بارز لاستغلالها ليس فحسب في الصيد العصري بل في تصدير المواد الأولية التي كانت تنهبها السلطات الاستعمارية. وهي: ميناء الحسيمة وميناء العرائش الذي نشطت فيه شركات لصيد بالمزراب لصيد سمك التون.[١٨]

تمكنت المؤسسات الاستعمارية الإسبانية من استغلال أنشطة الصيد البحري لفائدة المستعمر، سواء على الواجهة المتوسطية أو الأطلسية، غير أنها لم تركز على خلق مؤسسات صناعية مرتبطة بالصيد البحري يستفيد منها المغاربة، إذ اقتصر مجهودها على إنشاء شركات معدودة تعمل على تصنيع سمك التون وتصديره إلى الخارج عبر ميناء بني أنصار وميناء الفنيدق.[١٩] ولا غرابة في انقراض مجموعة من الأسماك بمنطقة اللوكوس بعد أفول عهد الاستعمار، نتيجة هذا الاستغلال المفرط والمبالغ فيه من طرف سلطات الحماية الإسبانية في المنطقة.

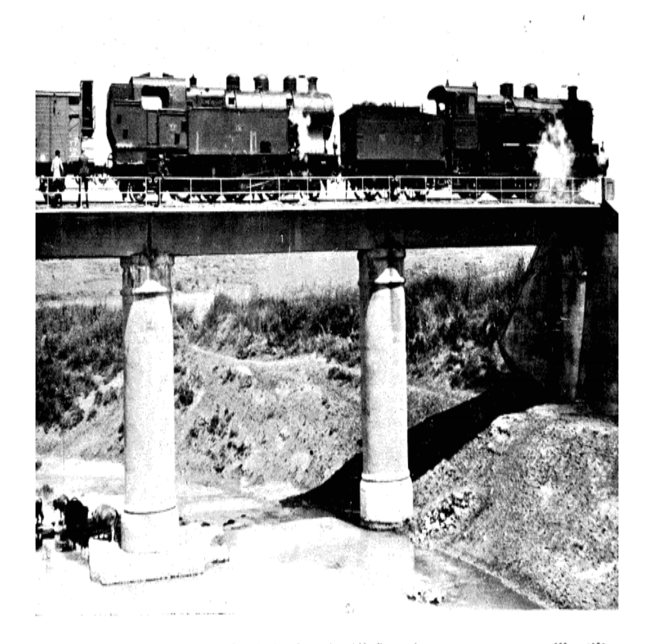
جدول رقم (٢)

تطور المناطق المزروعة في منطقة اللوكوس[٢٠]

السنوات	المساحة بالهكتار في منطقة اللوكوس بالهكتار	مجموع المساحة من تراب منطقة الحماية الإسبانية بالنسبة المئوية
١٩٣٦-١٩٤٠	٤٢٨٠٠	٢٦,١
١٩٤١-١٩٤٥	٦٨٧٠٠	٢٧١
١٩٤٦-١٩٤٩	٩٩١٠٠	٣٥,٩
١٩٥٠-١٩٥٣	١٣٠٤٣٣	٣٨,٤

لقد توسعت مساحة المنطق المزروعة بمنطقة اللوكوس بشكل كبير وذلك بغية من الاستعمار الإسباني استغلال المنطقة بأكبر قدر من الإمكان، لا سيما المناطق القروية المحيطة بالمنطقة، والتي تتميز بتربة خصبة، وأراضي زراعية ذات جودة عالية، كما تتلقى تساقطات مطرية، ويسهل عملية سقيها من مياه نهر اللوكوس. وقد عملت إسبانيا على تشجيع الفلاحين على زرع أراضيهم، أو الاستيلاء عليها عن طريق القوة، من اجل الاستفادة من زاد خيراتها. كما لعبت الصحف دورًا رياديًا في الترويج لهذه العملية، والتنويه بالأعمال الزراعية والحضارية للدولة الإسبانية.

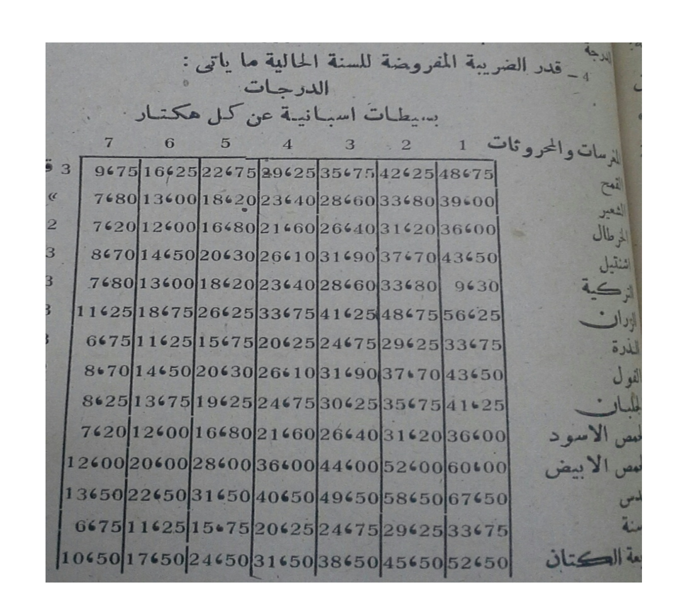
ونأخذ هنا مقتطف من جريدة الاتحاد التي كانت تعتبر لسان حال الحماية الإسبانية: بما أن الزراعة هي من أهم موارد ثروة هذا البلاد من تربتها المجيدة فلمنتوجات هذه المنطقة توجه إسبانيا أهم اعتنائها ومزيد اهتمامها والدليل على ذلك هو التنظيم الكبير لإدارة العمل الزراعي وتعليمه على النسق الجديد والكيفية الزراعية الحديثة وتحسين الأراضي لتتجود بالزيادة من غلاتها.[٢١] كما عملت إسبانيا على إنشاء السكك الحديدة ومدها بمنطقة اللوكوس حتى يسهل عليها ربط مناطق الاستخراج في منطقة التصدير:



صورة رقم (١)

مرور إحدى القطارات على قنطرة واد المخازن

ولم تكتف إسبانيا باستغلال الأراضي الزراعية والموارد الطبيعية بل عملت على فرض الضرائب المرهقة على الأراضي الزراعية، والتي ساهمت في تفقير أهل المنطقة الذين وجدوا أنفسهم عاجزين عن تأديته:[٢٢]



4 - قدر الضريبة المفروضة للسنة الحالية ما ياتى :

الدرجات

بسيطات اسبانية عن كل هكتار

الغرسات والحروثات	1	2	3	4	5	6	7
القمح	48،75	42،25	35،75	29،25	22،75	16،25	9،75
الشعير	39،00	33،80	28،60	23،40	18،20	13،00	7،80
الخرطال	36،00	31،20	26،40	21،60	16،80	12،00	7،20
اشتيل	43،50	37،70	31،90	26،10	20،30	14،50	8،70
التركية	9،30	33،80	28،60	23،40	18،20	13،00	7،80
الوران	56،25	48،75	41،25	33،75	26،25	18،75	11،25
الذرة	33،75	29،25	24،75	20،25	15،75	11،25	6،75
الفول	43،50	37،70	31،90	26،10	20،30	14،50	8،70
الجلبان	41،25	35،75	30،25	24،75	19،25	13،75	8،25
الحمص الاسود	36،00	31،20	26،40	21،60	16،80	12،00	7،20
الحمص الابيض	60،00	52،00	44،00	36،00	28،00	20،00	12،00
دس	67،50	58،50	49،50	40،50	31،50	22،50	13،50
سنة	33،75	29،25	24،75	20،25	15،75	11،25	6،75
عة الكتان	52،50	45،50	38،50	31،50	24،50	17،50	10،50

ووجب التأكيد أخيرًا أن إسبانيا لم تجد في منطقة اللوكوس تلك المنطقة الموعودة بالاستغلال والاستفادة، على غرار المنطقة الشمالية برمتها، وان كان سهل اللوكوس أكثر غنى من المناطق الريفية ومنطقة غمارة حسب الإحصائيات الاستعمارية التي تناولت المنطقة. كما أن الألية الاستعمارية الإسبانية لم تكن بتلك القوة التي بإمكانها تأهيل المنطقة بما فيه الكفاية. فقد تذمرت إسبانيا من هذا الاستعمار، وتكبدت هزائم نكراء حتى خرجت عدة أقلام إسبانيه على مختلف المنابر، تتحدث عن المنطقة، بكونها صغيرة المساحة ويصعب استغلالها بشريًا وطبيعيًا، وإلقاء اللومة على فرنسا التي احتكرت اللحم المغربي ورمت بالعظم لإسبانيا[٢٣]، التي قدمت تضحيات بشرية ومالية كبيرة من أجل أداء تلك الرسالة النبيلة، ألا وهي الحماية الإسبانية. إن المغامرة الاستعمارية الإسبانية التي كانت تحلم باستغلال الموارد الطبيعية بالمنطقة الشمالية، لم تجد سوى أرض قليلة لاستغلالها، وثروة يسير من أجل الاستفادة منها، عملت على استنزافها بطريقة مفرطة كان لها نتائج وخيمة على منطقة الشمال برمتها بعد أفول عهد الحماية وبزوغ عهد الاستعمار.

خَاتمَةٌ

إن وظيفة أي استعمار هي استغلال طاقات وموارد وثروات البلد المحتل، ولم تشذ الدولة الإسبانية على هذا المعطى ودأبت على استغلال كافة الموارد المتاحة لها بالمنطقة الشمالية من ثروات سمكية ومعدنية وطاقية، وإذا كان الاستغلال بالمنطقة الفرنسية كتب حوله الشيء الكثير، فان هذا الباب لم يفرد له سوى النزر القليل في المنطقة الإسبانية، وما زال في حاجة ماسة إلى التقصي والتنقيب من أجل كشف أوجه الاستغلال الإسباني للموارد الطبيعية.

إن الحماية الإسبانية كانت مسؤولة على الاستغلال المفرط في المنطقة الشمالية، خاصة في سهل اللوكوس الغني من الناحية الطبيعية مقارنة بباقي مناطق الحماية الإسبانية الضعيفة في مواردها الطبيعية ولا غرو أن هذه النتف التي أفردناها ضمن رحاب هذا المقال سوى إشارات أولية لهذا الموضوع الثري والغني، والذي لازال في حاجة ماسة إلى البحث والتنقيب في الأرشيفات الأجنبية خاصة منها الإسبانية.

الهَوامِشُ:

(١) لم تفرد للمنطقة الخليفية دراسات ذات بال حول الاستغلال الاستعماري إلا لمامًا وعرضًا، بينما أخذت فرنسا دراسات ثرة وغنية في هذا الصدد. ومن هذه الدراسات نذكر: جمال الحيمر، **الاستيطان الزراعي بإقليم مكناس: نماذج من التقنين الاستعماري**: ضمن (أمل: التاريخ، الثقافة، المجتمع).-ع. ٣٨، ٢٠١٢، ص. ١٤١-١٥٥، جلال زين العابدين، **الاستيطان الأوروبي في المغرب على عهد الحماية الفرنسية وانعكاساته الاجتماعية**، مجلة دراسات استشراقية، العدد ١٦، ٢٠٠٨، ص٩٣ -١٠٨، أحمد تافسكا، **الفلاحة الكولونيالية في المغرب ١٩١٢-١٩٥٦**، مطابع أمبريال، الرباط، ١٩٩٨. كما عملت فرنسا على إصدار مجلات في هذا الصدد أهمها:

Bulletin des Colons: revue de défense des intérêts de l'agriculture au Maroc/ La Chronique des Mines Coloniales- Le Cheminot marocain

(٢) ومن الدراسات القليلة التي تناولت الاستغلال الاستعماري في المنطقة الشمالية نذكر:

-Ben Attou, Mohammed, Le protectorat espagnol et le Nord marocain: organisation administrative et stratégie socio-économique: le cas du Bas-Loukkos, Lucus; Dirassat. - N° 11, 2003,. - Agadir: Faculté des lettres et des sciences humaines, 2003. p. 41-107, Romero Vicente: Las minas del Rif y Melilla, 1916: las vetas de una mirada centenaria، Melilla : Consejería de Cultura, Servicio de Publicaciones.

(٣) علي بولربح، **الخطاب الاستعماري الإسباني حول شمال المغرب (1850-1950): إشكالات أولية**، مجلة المناهل، العدد 89-90، رجب-1432 يونيو 2011، ص 88.

(٤) عبد الرحيم برادة، **إسبانيا والمنطقة الشمالية المغربية 1931-1956**، الجزء الأول، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2007، ص99.

(٥) علي باي، ضومينغو فرانتسكو بادي، **رحلات عبر المغرب**، ترجمة مزوار الإدريسي، منشورات ليطوغراف، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨، ص ٦.

(٦) محمد المرجان، **الرحلة والمعرفة الكولونيالية: المغرب بعيون الرحالة الإسبان خلال القرن التاسع عشر ميلادي**، دار أبي رقراق للنشر والتوزيع، ٢٠١٦، ص٤٥.

(٧) تيار ايديولوجي برز في إسبانيا خلال القرن التاسع عشر، كان يربو نشر الحضارة الإسبانية في المناطق الأفريقية، خاصة منها المغرب وغينيا، وعمل على نشر أفكار تبشر بتفوق العنصر الإسباني، وضرورة نشر حضارته في هذه الأصقاع البدائية.

(٨) نذكر في هذا الصدد

Jose Maria de Murga ;Recuerdos Marroquies del Moro Vizcaino ;Puerto Aguirre ;Expedicion en el Riff ;Manuel Liana y Otriso Rodrigan ;El imperio de Marrucos...:

(٩) علي بولربح، **السياسة الترابية للسلطات الاستعمارية الإسبانية شمال المغرب (١٩١٢ - ١٩٥٦)**، تطوان، مطبعة الهداية، ٢٠١٥، ص ٥٠.

(١٠) المرجع نفسه، ص٥١. وأيضًا انظر: المختار الهراس: القبيلة والسلطة تطوار البنيات الاجتماعية في شمال المغرب.

(١١) بيرنابي لوبيث غارسيا، **المغرب وإسبانيا تاريخ ضد كل منطق**، ترجمة محمد المساري، منشورات ليتوغراف، الطبعة الأولى، ٢٠١٢، ص:١٠٢.

(١٢) المرجع نفسه، ص١١٧.

(13) Tomas Garcia Figuras. Espana y su Protectorado en Marruecos; Instituto de Estudios Africanos. Madrid ,1949.P117.

(١٤) سعيد حاجي، **القصر الكبير خلال مرحلة الحماية ١٩١٢-١٩٥٦**، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ٢٠١٦، ص ١٩٦.

(١٥) المرجع نفسه، ص٢٠٤.

(١٦) طوماس راميريث أوطيث، **القصر الكبير تاريخ مغربي صغير**، تعريب عبد الرحمان الشاوش، مراجعة محمد أخريف، منشورات جمعية البحث التاريخي والاجتماعي بالقصر الكبير، ٢٠١٢، ص١٤٩.

(١٧) علي بولرباح، **السياسة الترابية للسطات الاستعمارية الإسبانية بشمال المغرب ١٩١٢-١٩٥٦**، مرجع سابق، ص ١٠١-١٠٢.

(١٨) المرجع نفسه، ص ١٠٣.

(١٩) عبد الرحيم برادة، **إسبانيا والمنطقة الشمالية المغربية**، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الجزء الثاني، ٢٠٠٦، ص ١٨٣.

(20) Ben Attou, Mohammed, Le protectorat espagnol et le Nord marocain: organisation administrative et stratégie socio-économique : le cas du Bas-Loukkos, Lucus; Dirassat. - N° 11, 2003,. - Agadir: Faculté des lettres et des sciences humaines ،2003. p.٧٤.

(٢١) كاتب مجهول، "**عمل إسبانيا التحضيري في المغرب النبر الامتحاني الزراعي بالعرائش**"، جريدة الاتحاد، العدد ٦، صفر سنة ١٣٤٦.

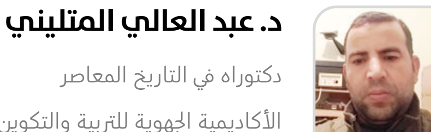
(٢٢) الجريدة الرسمية لمنطقة حماية إسبانيا بالمغرب، تطوان ٧ شعبان عام ١٣٦٠هـ/ ٣١ غشت سنة ١٩٤١، العدد ٢٤، ص١٢.

(٢٣) عبد الرحيم برادة، **الحماية الإسبانية على شمال المغرب ومسؤولياتها في بروز المشاكل الاقتصادية بالمنطقة**، مجلة أمل، العدد ٤٣، خريف ٢٠١٤، ص٩٥.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

المناطق الحدودية في قلب الصراع الاقتصادي بين الحمايتين في أوائل عهد الحماية

ميناء العرائش أنموذجًا



د. عبد العالي المتليني
دكتوراه في التاريخ المعاصر
الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين
جهة فاس – مكناس – المملكة المغربية

مُلَخّص

نعرض الدراسة التي بين أيدينا لقضية من القضايا المهمة التي لم تحظ بكبير عناية واهتمام من قبل الباحثين والدارسين لتاريخ الكولونيال المغربي إلا فيما ما ندر، وذلك بالنظر إلى وفرة القضايا والمواضيع العامة، التي ما تزال تستهوي الكثير منهم في البحث والتقصي في هذا الصنف من البحث التاريخي، لذلك ارتأيت أن أميط اللثام عن جانب من جوانب قضية عرضت لنا ونحن في بيوتات الأرشيف، نبحث هنا وهناك، عن وثيقة أو تقرير، نكشف به جزءًا من النقاب عن هذا الموضوع أو ذاك، ومما أثار اهتمامي في هذا السياق، موضوع المناطق الحدودية بين الحمايتين بالمغرب، خاصة في قسمه الشمالي، وتساءلت حينها عن طرق تدبير الإدارتين الأجنبيتين لهذه المناطق، خصوصًا إذا كان الأمر يتعلق بموضوع الموانئ، والتي نعرف أنه ذات تأثيرات، ومحل استقطاب لا يرتبط دائما بالخلفيات القريبة، ولا بالتجار الذين يسكنون بمحيطه، ولا حتى باختيارات الدولة أحيانًا، بل قد يكون عامل نشاطه، ومحل تميزه تجاريًا، مرتبط بأولويات أخرى، وكان ميناء العرائش الذي يقع في نقط تماس حدود الحمايتين أفضل نموذج لهذه التناقضات، وعليه، كانت أهداف هذه الأسطر التي خطتها يدنا تبتغي إبراز ثلاثة قضايا أساسية في هذا الموضوع: أولها: التعريف بميناء العرائش وأهميته التجارية بالنسبة للتجارة المغربية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين الميلادي. وثانيها: أسباب الصراع الفرنسي-الإسباني بعد فرض حمايتهما على المغرب حول الخلفية الاقتصادية التاريخية لميناء العرائش، وثالثها: حدود تمكن الحماية الفرنسية من كسب رهان الصراع مع الحماية الإسبانية حول النفوذ التاريخي لميناء العرائش.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٠٤	مايو	٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر:	٢١	مايو	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

القوى الإمبريالية؛ الموانئ المغربية؛ ميناء العرائش؛ التجارة الأوروبية؛ التجار اليهود

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2020.168042 DOI

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عبد العالي المتليني. "المناطق الحدودية في قلب الصراع الاقتصادي بين الحمايتين في أوائل عهد الحماية: ميناء العرائش أنموذجًا".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد الثامن والأربعون؛ يونيو ٢٠٢٠. ص ١١١ – ١٢٠.

Corresponding author: abdelaalimetlini@gmail.com

Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

مُقَدِّمَةٌ

شكلت الموانئ المغربية المنفذ الخارجي الذي ظل يصل المغرب اقتصاديًا بكل شركائه الخارجيين خارج القارة الإفريقية، وظلت هذه المنافذ المعول عليها لتفاعل المغرب مع محيطه القريب والبعيد، فالعلاقات التجارية لهذا البلد ترسخت خارجيًا، ومع أكثر من وجهة وسوق تجارية، اعتمادًا على الموانئ في المقام الأول، والطرق البرية المرتكزة على قوافل الدواب ثانيًا، لكن الظاهر أن التفاضل ظل قائمًا بينهم (الموانئ) في تنشيط هذه العلاقات، وفي تنمية السياسات الاقتصادية للدولة الشريفة عبر الحقب والعصور، فارتبط كل ميناء بالمناطق الواقعة خلفه لتنمية تجارته، واعتمد كل منها على قوارب الأجانب وشركاتهم التجارية في مد الداخل المغربي بأصناف عدة من منتوجات القارة الأوروبية على وجه التحديد، والعديد من دول بعض القارات الأخرى، وما كاد الفرنسيون ومعهم الإسبان يثبتون أقدامهم على التراب المغربي زمن حمايتهم في أوائل القرن العشرين، حتى ثارت ثائرة إدارتيهما في السباق على بسط النفوذ والسيطرة الاقتصادية على العديد من نقاط التماس بين مجال تواجد حمايتيهما، وكان لميناء العرائش والقنيطرة نصيب واضح من هذا الصراع في البدايات الأولى لإدارتهما للبلاد والعباد. إذن، فما هي مسببات هذا التنافس الاقتصادي بين الحمايتين الفرنسية والإسبانية في الخلفية الاقتصادية التاريخية لميناء العرائش؟ وما مصير هذا الصراع والأدوات التي استعملها الطرفان لحسم المعركة لصالح كل منهما؟

أولاً: اهتمام فرنسا وباقي القوى الإمبريالية بالموانئ المغربية قبيل الحماية

مثلت ثمانية من المراسي المغربية أعمدة التجارة الخارجية للمغرب بعد منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، واشتملت على كل من تطوان وطنجة والعرائش والجديدة والرباط – سلا والدار البيضاء والصويرة واسفي[١]، إلى جانب مراسي ثانوية مثلتها مراسي أصيلة والمهدية وفضالة وأزمور وأكادير وأسكا وأركسيس وطرفايا [٢]، وبرزت الأهمية الاقتصادية للمراسي المغربية خلال القرن التاسع في تضاعف رواجها التجاري ابتداء من منتصف هذا القرن[٣]، خاصة بالنسبة لمينائي العرائش والدار البيضاء، على الرغم من أن التجارة الخارجية للمغرب عموما سجلت انخفاضا مهما في بداية القرن العشرين الميلادي، إذ انتقلت من ١٠٣ مليون فرنك سنة ١٩٠٢م إلى أقل من ٧٨ مليون فرنك سنة ١٩٠٥م[٤].

ولقد حظي ميناء العرائش بعظيم العناية والاهتمام من قبل المخزن، نظرًا لأدواره التاريخية في التجارة الخارجية للمغرب، إذ كان من أكثر الموانئ أمانا وتوفيرا للحراسة التي تحمي العمليات البحرية وبضائع التجار، إلى جانب الرباط والصويرة في القرن التاسع عشر الميلادي [٥]، وكان لمؤتمرات المسألة المغربية البينة والدليل على ما ندعيه، فقد ورد في رسالة من "Stéphen Pichon" وزير الخارجية الفرنسية، إلى القائم على سفارات بلاده بكل من لندن، وبرلين، ومدريد، وبترسبورغ، وفيينا، وروما، ثم واشنطن، بتاريخ ٨ فبراير ١٩٠٧م ما يلي: «**كما تعلمون، قام المندوبون المغاربة بتضمين محضر الجلسة الختامية لمؤتمر الجزيرة الخضراء تحفظًا خاصًا بشأن العمل الذي سيتم تنفيذه في موانئ طنجة والعرائش والدار البيضاء وآسفي، والتي عهد به لشركات معينة خاصة**[٦]»، وفعلا عهد لدار "Hoessner" الألمانية بتطوير هذا الميناء سنة ١٩٠٧م، فرصدت ألمانيا استنادًا إلى مخرجات مؤتمر الجزيرة الخضراء ما مجموعه ٥ مليون "مارك" للقيام بالتحسينات الضرورية لتطور النشاط التجاري لميناء العرائش[٧].

ثانيًا: أهمية الموانئ الأطلسية في التجارة المغربية قبل الحماية

يرجع تاريخ اهتمام فرنسا بالموانئ المغربية وخاصة منها الأطلسية إلى مؤتمرات المسألة المغربية، وعلى الخصوص مؤتمر الجزيرة الخضراء، الذي حاول من خلال توصياته، جعل هذه الموانئ في هذا الجزء من الوطن مدخلا لانطلاق الخطوات الأولى للتدخل والتهدئة [٨] والاستغلال[٩]،فقد ظلت هذه الموانئ عبر التاريخ المنافذ الرئيسية والطبيعية للمملكة من طنجة إلى الصويرة ثم باقي السواحل الجنوبية، أوردت بعض الدراسات بهذا الخصوص ما يلي: «**نتخيل جيدا أنه على أبواب وليلي "Volubilis"، وعلى جنبات زرهون، تغطي كروم العنب الغنية مساحات مهمة، وأيضًا على ساحل المحيط الأطلسي، إذ كان صانعوا النبيذ الأصليين (الخمر) يبيعونه للجنود الرومان في ليكسوس (العرائش) أو سلا**[١٠]»، وفي القرن التاسع عشر الميلادي، تزايد التبادل التجاري الأوروبي مع المغاربة، الشيء الذي أحدث خلخلة في البنية التحتية للنظام التجاري المغربي[١١]، خصوصا عندما أدارت المنافذ البحرية الأطلسية ظهرها في بعض المراحل التاريخية للمنطقة

المتوسطية، فكان كل من هذه الموانئ يحفظ الخصوصيات التي تميز الجهة التي ينتمي إليها، فبالنسبة للموانئ الجنوبية ظل ميناء الصويرة المنفذ التجاري لمنطقة الأطلس الكبير وسوس، بينما مثل ميناء آسفي والجديدة منفذي تجارة بلاد الحوز ومراكش ودكالة وعبدة، ومن جهة أخرى شكل ميناء الدار البيضاء المركز التجاري لسهل الشاوية الخصب، وفي نفس السياق لعبت موانئ المنطقة الشمالية نفس الأدوار، خصوصًا أنها تواجدت على مصب أودية بدءًا بمينائي المهدية والقنيطرة، وميناء الرباط وسلا، ثم العرائش، باستثناء ميناء طنجة، وغداة توقيع معاهدة الحماية سنة ١٩١٢م، ونظرًا للاعتبارات التي أسلفنا ذكرها، وأيضًا بسبب وقوع ميناء العرائش في مجال نفوذ الحماية الإسبانية، فقد تقرر أن تقوم سلطات الإقامة العامة الفرنسية ببناء ميناء الرباط - سلا على مصب أبي رقراق، وكذلك المهدية - القنيطرة على مصب واد سبو، هذه الوضعية التي جعلت الحماية الفرنسية تعجل بإنجاز الموانئ الشمالية للمنطقة الفرنسية لتحويل وجهة تجار ومنتوجات فاس ومكناس والغرب من العرائش إلى القنيطرة والرباط والدار البيضاء، لكون هذه المناطق ظلت على مر التاريخ مرتبطة بميناء طنجة والعرائش[١٢]، ولم تكتف بهذا، بل ظلت كذلك تشرف وتراقب الطريق المؤدية إلى فاس[١٣]، ولم يكن هذا الاهتمام ببناء مينائي هاتين المنطقتين نابع من رغبة من لدن الحماية في البناء والتطوير بهذه المناطق وعموم البلاد، وإنما شكلت ذلك عنصرا ضمن منظومة من الركائز التي بنت عليها الحماية الفرنسة بالمغرب برنامجها الاستعماري في توظيف رساميلها، وحسن استغلال مقدرات الدولة المحمية.

وفيما يلي ترتيب الموانئ المغربية على مستوى التجارة الإجمالية سنة ١٩٠٨م[١٤]

المراسي	التجارة الإجمالية بالفرنك	%
الدار البيضاء	١٩,٠١٨,١٣٤	٢٠
الصويرة	١٤,٥٣٥,٣٩٩	١٥،١
الجديدة	١٤,١٦٠,١١٢	١٤،٨
طنجة	١٣,٨٠٣,٧٥١	١٤،٥
العرائش	١٢,٤٥٥,٩٥٣	١٣
آسفي	١١,٩٥٣,٦٦٢	١٢،٦
الرباط وسلا	٨,٠٤٨,١٦٧	٨،٦
تطوان	١,٣٩١٧٧١	١،٤٦
المجموع	٩٥,١٠٦,٩٤٩	

ثالثًا: النفوذ الاقتصادي لميناء العرائش قبل الحماية

يفرض المقام ضرورة الإشارة إلى الأدوار الدولية المهمة التي ظل يلعبها هذا الميناء في التجارة الخارجية المغربية، فقد كان هذا الميناء واحدًا من ثلة من الموانئ المغربية التي ظلت تستقبل سفنا لرحلات بحرية دولية منتظمة، خاصةً من دول أوروبا الغربية[١٥]، ففي القرن الثامن عشر الميلادي كانت إحدى الشركات الدنماركية قد قررت توسيع عملياتها التجارية لتشمل العديد من المراسي في الشمال المغربي كتطوان، وطنجة ثم العرائش، ومنها شركة "Afrikanske" (١٧٥٥-١٧٦٧م)[١٦]، كما أن الإنجليز استهدفوا هذا الميناء بالعديد من بضائعهم بموافقة حكومة البزابيث، خاصة أقمشة الكتان والحرير، وبعض أنواع الأسلحة الحديثة الهجومية، والتي جرت على الإنجليز حينها انتقادًا كبيرًا من القوى الأوروبية، واستمر نشاط ميناء العرائش بنفس الحيوية إلى غاية السنوات الأولى للقرن العشرين الميلادي، كتب أنذري تريذوما يلي: «في العرائش، تمثل التجارة الألمانية في عام ١٩٠٣م، وفقًا للإحصاءات الإنجليزية الرتبة العاشرة، ووفقًا لنا، التجارة الثانية عشرة في فرنسا[١٧]»، ومحليًا بات ميناء العرائش المزود الرئيسي لمنطقة فاس ومكناس والغرب بمجموعة من المواد وخاصة المستوردة منها، كالسكر والشاي والقهوة والشمع والصابون والقماش...، أورد كاربخال ما نصه: «مدينة العرائش أسسها أهل البلاد على الساحل عند مصب واد ليس(اللكوس)، في المحيط...، بسبب موقعها كانت دائما محصنة بالمدفعية والعدد والمؤن...،تكتنفها سهول كبيرة، ومستنقعات يكثر فيه سمك الأنقليس (النون)،...، جل سكانها فحامون، ينقلونه على زوارق صغيرة ليبيعوه في مدينتي طبنجة وأصيلا...، تجني كمية وافرة من القطن في الحقول المجاورة...، حيث ينزل التجار المسيحيون بسلعهم الأوروبية التي يحملونها إلى فاس...، يحكم... اليوم عامل واحد للمدن الثلاث: أصيلا والقصر الكبير والعرائش...[١٨]»، وقد تميزت فترة الحرب العالمية الأولى بمنع السلطات الاستعمارية بالمنطقة السلطانية والخليفية خروج المواد الموجهة للاستهلاك البشري وحتى الحيواني من هذا الميناء، فأستغل ميناء القنيطرة هذا الوضع من أجل تعويض أدواره التجارية، فأصبح ميناء القنيطرة المزود الرئيس لتجار المناطق السالفة الذكر بموادهم المستوردة، وأيضا شكل نقطة تصدير منتجاتها. خاصة بسبب امتيازات سهولة اختراق المجالات الفاصلة بينه وبين هذه المناطق بواسطة الدواب قياسا لأوضاعها في اتجاه ميناء العرائش.

رابعًا: أسباب الصراع الفرنسي - الإسباني حول ميناء العرائش

تقع مدينة العرائش ومينائها على مصب نهر واد اللكوس، خضعت هذه المدينة للاحتلال الأسباني سنة ١٩١١م، بالموازاة مع الاحتلال الفرنسي لمنطقة الغرب، ضمت هذه المدينة أثناء التدخل الأسباني حوالي ١٠ آلاف نسمة، منهم ٢٠٠٠ يهودي، و٢٠٠ نسمة من الأوروبيين، أما القصر الكبير فكان عدد سكانه في هذا التاريخ ٦٠٠٠ نسمة، منهم ١٠٠٠ يهودي، وانطلاقا من العرائش توجهت الجيوش الأسبانية لإخضاع تطوان، ومن جهة أخرى نحو المدينة الصغيرة أصيلا، التي تجمع قبائل الخلط، التي تستوطن واد اللكوس، والذي يصل إلى جبالة، بينما تحاشت هذه القوات استهداف طبنجة بسبب مركزها الدولي، بحيث كانت مقرا لقناصل مختلف الأجناس[١٩].

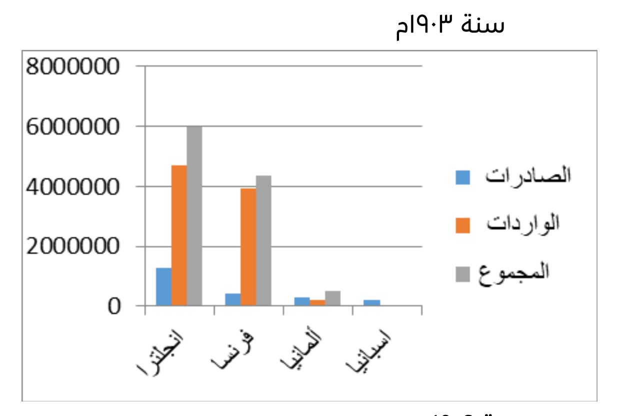
يجب أن نستحضر في هذا السياق قضية مهمة، ربما كان لها عظيم الأثر في محاولة الحد من الإشعاع التجاري لميناء العرائش في بلاد المغرب عمومًا، والمناطق التي ظلت ترتبط به تاريخيًا على وجه التحديد، ومن ذلك المعاهدات الثنائية التي سبقت استفراد الفرنسيين بالمغرب كمستعمرة ستلتحق بإمبراطوريتها الاستعمارية في الشمال الإفريقي، ومنها على سبيل المثال الاتفاقية السرية الفرنسية الإسبانية المؤرخة بـ ٣ أكتوبر سنة ١٩٠٤م، والتي تضمنت فيما تضمنته بالنسبة لمجال النفوذ الإسباني مستقبلاً:

- كل شمال المغرب من على المحيط الأطلسي إلى جنوب العرائش، وعلى خط شريطي حتى ملوية، بما في ذلك مدن طنجة وتطوان والعرائش والقصر الكبير ثم كل الريف وجزء من الغرب.
- شريط من الشريط الساحلي جنوب مدينة أكادير، إضافة إلى منطقة ضيقة في المناطق الداخلية، تضم الوديان المنخفضة في منطقة الساقية الحمراء ودرعة والأحواض الساحلية التي تلي السوس[٢٠].

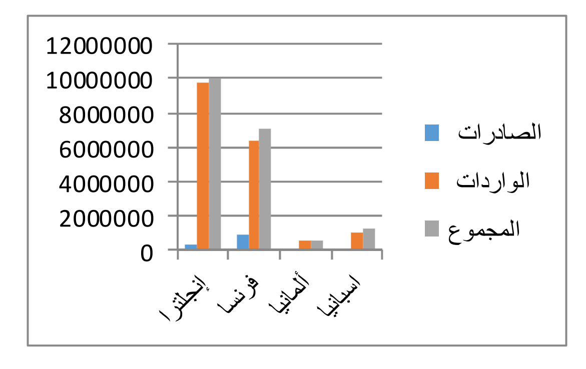
انطلاقًا من هذه الاتفاقية (اتفاقية ١٩٠٤م) استحضرت فرنسا ما ذكرناه في الاهتمام بتطوير ميناء المهدية والقنيطرة، وغاية ما كانت تسعى إليه هو الحد من الإشعاع الذي كان لميناء العرائش[٢١] في المنطقة التي ستصبح تحت نفوذ الحماية الفرنسية(فاس ومكناس والغرب...)، هذه المناطق التي تميزت بأراضي خصبة، أنتجت خلال القرن التاسع عشر الميلادي القطن والتبغ والحرير وقصب السكر والبطاطس، وكل أنواع الحبوب[٢٢]، وعملت جاهدة لتغيير وجهة تجارها ومنتوجاتها صوب مينائي القنيطرة والرباط، بعد أن كان ميناء العرائش عبر التاريخ الميناء الطبيعي للمنطقة الشمالية الغربية للمغرب[٢٣]، هذا الأخير الذي كان قد تعرض لعملية بناء وتطوير رصيفه سنة ١٨٨٨م، وعهد لشركة ألمانية بعد ذلك ببناء "مكسر للأمواج" من الإسمنت لمنع زحف الرمال البحرية على الميناء، والذي شيدته في دجنبر ١٩١٠م[٢٤]، وظل هذا الوضع قائمًا إلى غاية السنوات الأخيرة التي سبقت توقيع معاهدة الحماية.

ويبين المبيانان التاليان تطور تجارة ميناء العرائش بين ١٩٠٣م و١٩٠٤م بمليون فرنك[٢٥].

سنة ١٩٠٣م



سنة ١٩٠٤م



تؤكد المعطيات التي بين أيدينا، ما كان لميناء العرائش من مكانة متميزة في التجارة الخارجية للمغرب تصديرا واستيرادا، في السنوات التي سبقت توقيع عقد الحماية، وتعزز إحصائيات الفترة الممتدة بين ١٩٠١ و١٩٠٥م قيمة ما بلغته مساهمة الموانئ الأكثر نشاطا حينها، إذ تصدر كل من ميناء الدار البيضاء وطنجة حجم وقيمة الرواج التجاري لها، فتراوح مقدار مساهمة كل منهما في هذه الفترة ما بين ١٥ و٢٠ مليون فرنك، وبلغت مساهمة العرائش ما بين ١٥ و١٦ مليون فرنك، والصويرة بحوالي ١٥ مليون فرنك...[٢٦].

وفيما بين ١٩٠٩ و ١٩١٢م سيطر ميناء العرائش على ٦٠ % من واردات التجارة البحرية للمغرب بالمنطقة الفرنسية، مقابل % ٤٠ بالنسبة للمنطقة الإسبانية، والتي بلغت بالنسبة للأولى على سبيل المثال سنة ١٩١٢م ما قيمته ١١,٠٩٥,٦١٨ فرنكا، وفي السنة نفسها ٧,٣٩٧,٠٠٠ فرنكا للمنطقة الإسبانية، أما على مستوى الصادرات من التجارة البحرية المغربية، فقد هيمن هذا الميناء على % ٨٠ من صادرات المنطقة الفرنسية طيلة الفترة الممتدة بين ١٩٠٩م و١٩١٢م، مقابل% ٢٠ من صادرات المنطقة الإسبانية، والتي وصلت قيمتها سنة ١٩١٢م بالنسبة للمنطقة الفرنسية إلى ٢,٠١٢,٢٥٢ فرنكا، و٥٠٣,٠٦٣ فرنكا داخل المنطقة الإسبانية[٢٧]، ناهيك عن أن متوسط ما صدره هذا الميناء ما بين ١٩٠٩ و١٩١١م بالنسبة للمناطق ذاتها (الغرب ومكناس وفاس...) من المنتوجات الغذائية الذي بلغ ١,٢٩٥,٢٧٨ فرنكا، ومن المنتوجات ذات الأصل الحيواني ما يقدر بـ ١,٥٦٧,٠٠٢ فرنكا، أي ما مجموعه ٢,٨٦٢,٢٨٠ فرنكا [٢٨]، وهو الأمر الذي كان من حظ ميناء طنجة في الفترة نفسها، مع تسجيل عناصر الامتياز لميناء العرائش بسبب عامل القرب، وتفضيل التجار للطريق الرابطة بين القصر الكبير والعرائش على طريق القصر ـ طنجة، بسبب الأمان الذي ميز الطريق الأولى، فكمائن وفخاخ العصابات كانت قد بدأت نشاطها على طريق طنجة منذ منتصف سنة١٩١١م[٢٩]، وما يبرز الأهمية الملاحية لهذا الميناء محليًا ووطنيًا، هو كثافة حركة المراكب التي دأبت على التوجه لميناء العرائش، فقد ولج هذا الميناء ١٠١ مركبًا سنة ١٨٥٣م، و٢٢٠ مركبًا سنة ١٨٨٣م، ثم ٤١٤ مركبا في ١٩٠٣م، وأخيرا٣٣٥ مركبا في ١٩١٢م[٣٠].

وفيما يلي صادرات ميناء طنجة بالنسبة للمنطقة الشمالية الغربية للمغرب ما بين ١٩٠٩ و١٩١١م بالفرنك[٣١]

نوع المنتوج	الغرب	زمور وبني احسن	الجديدة (دكالة)	جهة فاس	المجموع
ـ العجول	١,٠٠٠,٠٠٠	١,٠٠٠,٠٠٠	١,٠٠٠,٠٠٠	ـ	٣,٠٠٠,٠٠٠
ـ الدواجن	١٠٠,٠٠٠	ـ	ـ	ـ	١٠٠,٠٠٠
ـ الشمع	٣٠,٠٠٠	ـ	ـ	ـ	٣٠,٠٠٠
ـ البيض	٥٠٠,٠٠٠	ـ	ـ	ـ	٥٠٠,٠٠٠
ـ الجلد	٣٠٠,٠٠٠	ـ	ـ	٣٠٠,٠٠٠	٦٠٠,٠٠٠
ـ شباشب	ـ	ـ	ـ	١,٠٠٠,٠٠٠	١,٠٠٠,٠٠٠
ـ أثواب	ـ	ـ	ـ	١٦٠,٠٠٠	١٦٠,٠٠٠
المجموع	١,٩٣٠,٠٠٠	١,٠٠٠,٠٠٠	١,٠٠٠,٠٠٠	١,٤٥٠,٠٠٠	٥,٣٩٠,٠٠٠

كانت العجول المنتمية لسهول سبو وورغة وايناون توجه إلى العرائش، ثم إلى القصر الكبير وأصيلا وطنجة، لتلبية احتياجات الأسواق المحلية هناك، وأيضا لتزويد الجيوش الإسبانية بمتطلباتها فيما بعد، كما كانت تشحن من طنجة كذلك إلى جبل طارق وسبتة وتطوان ومليلية، وهو ما دفع الفرنسيين لاستعجال المخططات لجعل خيرات هذا المنتوج تبقى وتستهلك بمجالات المنطقة الفرنسية.

وبالنسبة للدواجن بمنطقة العرائش والنواحي، فكان قسم كبير منها يأتي من مناطق "جبالة" في المنطقة الفرنسية الوقعة شمال شرق المنطقة الغربية، حيث كان يستهلك الجزء الأكبر منها في مدينة طنجة والقصر الكبير وأصيلا والعرائش، ويصدر الباقي عبر طنجة وجبل طارق وقادس إلى أوروبا، وهو حال باقي المنتوجات الأخرى من أصناف المنتوجات الحيوانية من صوف وجلود...[٣٢].

خامسًا: بناء ميناء القنيطرة (ربط الخلفية الاقتصادية للعرائش بالرباط والقنيطرة)

يتميز هذا الميناء بموقع استراتيجي، فهو يقع على نهر سبو[٣٣]الذي يعتبر ثاني أهم نهر صالح للملاحة في الشمال الإفريقي بعد نهر النيل[٣٤] «ميناء القنيطرة هو بمثابة فم أو مصب نهر سبو، وبإمكانه أن يكون ميناء نهريًا جيدًا[٣٥]»، حتى أنه قارب مكانة ميناء الدار البيضاء من حيث الأهمية والأدوار في بدايات الحماية، ومرد ذلك إلى الأراضي الغنية المحيطة به[٣٦] إذ يعتبر منفذًا طبعيا لسهل الغرب، حيث وجود قبائل "بني احسن" وواد ورغة، وأعتبره رجال الحماية الفرنسية المنفذ الطبيعي لمكناس وفاس[٣٧]، والأراضي الخلفية لوزان والريف[٣٨]، لهذا نظر رجال الحماية الفرنسيين إلى هذه الخيرات العديدة بمنظور يتأسس على عدم التفريط فيها، والتعجيل بنقل هذه الخلفية لتكون ضمن نفوذ المنطقة الفرنسية بذل تركها مرتبطة بمجال نفوذ

الحماية الإسبانية وميناؤها العرائش، الذي ظل تاريخيا منفذا لهذه المناطق[٣٩]، فسهول سبو تقترب من مساحة ٤٠٠٠ كلم مربع، ويشتهر بثروات وخيرات كثيرة ووافرة، فقد صدرت هذه المناطق حوالي ١١٠٠٠ ثور عبر ميناء طنجة سنة ١٩١٢م، وظلت تموّن منطقة جبالة الواقعة بين "القصر" و"وزان" وأيضًا الشمال الشرقي لسهل الغرب، بما فيها كل من طنجة والقصر وأصيلا والعرائش بالدواجن، واستوردت منها قرابة ١٠٠,٠٠٠ من الرؤوس سنة ١٩١٢م، بالإضافة إلى الصوف والجلود، وأسهمت في حركة التصدير من ميناء طبنجة بـ ٣٢٨,٥٧٠ كلغ من جلود الأبقار والماعز والأغنام، والعراش بـ ٨٣,٦٤٥ كلغ، ثم بـ ٢٤١,٧٧٦ كلغ من الصوف...[٤٠].

علاوة على المبرر المذكورة أعلاه، هناك حافز آخر أكثر أهمية يتعلق بالصراع بين الحمايتين حول هذا الميناء، ويتعلق بملابسات وما أفضى إليه اتفاق القوى الإمبريالية المشاركة في مؤتمر الخزيرات سنة ١٩٠٦م، والتي كانت قد حسمت موقفها من المسألة المغربية، وهيأت الظروف سياسيا لفرنسا لإكمال عقد إمبراطوريتها الاستعمارية بالشمال الإفريقي، ومما علم لدى الفرنسيين والإسبان في هذا السياق، أن الإشراف المزدوج لرجالهما على مينائي تطوان والعرائش كان سيمتد لفترة ١٥ سنة برئاسة فرنسية، قبل أن ينتقل الميناءين إلى السيادة الإسبانية بعدها[٤١]، فبهذا كان سيضعف حتما مصالح الفرنسيين بالشمال الغربي المغربي، وعيه، فلم يبقى أمام رجالات الاستعمار الفرنسي سوى التخطيط لإضعاف ميناء العرائش اقتصاديا، والعمل على الاستفادة من خلفيته التجارية داخل المنطقة السلطانية، فتتهاوى مؤشرات مساهماته التجارية، ومعاملات التجار المسقرين به، الذين بلغ صيتهم تاريخيًا الآفاق.

أدت العوامل السالفة الذكر، والوساوس التي ظلت تخامر عقول رجالات الحماية الفرنسية حول نفوذ ميناء العرائش، إلى الإسراع في بناء ميناء القنيطرة منذ الوهلة الأولى لتوقيع معاهدة الحماية ١٩١٢م، وفرض هذا الوضع أيضا، الاستجابة لحاجيات الجيوش الفرنسية التي ظلت تتزايد بتزايد توغلها في الداخل المغربي، والتي حتمت ضرورة إيجاد ميناء عسكري يضمن مد القوات العسكرية لها بالمؤونة والمعدات والعتاد، ناهيك عن التنفيذ الآني لمخطط ربط منطقة الغرب ومعها فاس ومكناس بالقنيطرة بدل العرائش، التي كانت توجد تحت سلطة الإقامة الإسبانية، رغبة منها في الحد من تأثير ميناء العرائش في خلفياته السالفة الذكر، ومنطلق الفرنسيين في هذا القرار هو شعورهم أن ميناء القنيطرة الأحق باحتواء هذه المناطق والاستفادة منها، إذا ما تم تمكينه من البنيات الضرورية التي ترق به لمستوى الموانئ الكبرى على شاكلة ميناء الدار البيضاء، وفي مقدمة هذه المسوغات التي أرتكن إليها هؤلاء لتبرير هذا القرارات المستعجلة، هو القرب الجغرافي بين هذا الميناء وهذه المناطق، استنادا إلى المسافات والطرق التي اختطتها حوافر الجمال والبغال، قياسا إلى المسافة التي تفصلها عن ميناء العرائش، بحيث اختصرت المسافة أحيانًا إلى بضعة عشرات الكيلومترات، فالمسافة بين العرائش وفاس اكثر بـ٢٠ كلم بالمقارنة مع المسافة بين القنيطرة وفاس، وبأقل من ٣٠ كلم بين مكناس والرباط مقارنة بين العرائش مكناس[٤٢]، وأقل بـ ٨٠ كلم في المسافة بين طنجة وفاس[٤٣] قياسًا إلى المسافة الفاصلة بين القنيطرة وفاس.

ويظهر الجدول أدناه المسافة الفاصلة بين موانئ القنيطرة والعرائش وطنجة والمناطق التي شكلت خلفية لهما (طرق آثر الدواب)[٤٤]

المجموعة الأولى	المجموعة الثانية
• من طنجة إلى فاس: ٢٥٠ كلم	• من طنجة إلى مكناس: ٢٢٠ كلم.
• من العرائش إلى فاس: ١٩٠ كلم.	• من العرائش إلى مكناس: ١٦٥ كلم.
• من القنيطرة إلى فاس: ١٧٠ كلم.	• من القنيطرة مكناس: ١٣٥ كلم.
• من سلا إلى فاس: ١٩٠ كلم.	• من سلا إلى مكناس: ١٢٥ كلم.
• من الدار البيضاء إلى فاس: ١٢٥ كلم.	• من الدار البيضاء إلى مكناس: ١٢٥ كلم.

يجب التنبيه إلى أن الفرنسيين جازفوا وغامروا كثيرًا في أجرأة هذا المشروع الاقتصادي المعقد، فلولا الحدود، والمعمرين، وسلطة القهر التي امتلكتها الإدارة الفرنسية، ثم التفوق الحضاري الفرنسي على الجانب الإسباني، لما أمكن رؤية هذا الحلم الفرنسي حقيقة على أرض الواقع، فعناصر الأفضلية التي تمتع بها ميناء العرائش على وجه الخصوص، إلى غاية شروع الحماية في تجهيز موانئ المنطقة الفرنسية ظلت هي الفيصل والحكم فيكل هذا، وعليه تعود أسباب أهمية ميناء العرائش إلى ثلاث عوامل نلخصها حسب تقرير فرنسي فيما يلي:

عوامل سياسية وأمنية: تتمثل في وقوعها قريبًا من مضيق جبل طارق، أي قربها من أوروبا، ومن الطبيعي أن تكون وجهة تجارية متميزة، غير أن طريق القوافل التي تربطه بفاس والمسماة "طريق السفراء"، وبسبب تحول أوضاعها الناتج عن غياب الأمن بها في السنوات الأخيرة، وخاصة في مناطق "جبالة" منذ ١٩١١ -١٩١٢م أدى إلى استعمال طريق آخر هو فاس -

العرائش[٤٥]، ترتب عنه استفادة ميناء العرائش من اضطراب هذه الطريق.

عامل اقتصادي: مرتبط بكون ميناء العرائش أكثر قدمًا من ميناء القنيطرة، وكون ميناء الرباط ـ سلا لم يكن ذائع الصيت في التجارة البحرية، وبسبب الانقطاعات المتكررة التي ظلت تعرفها طرق القوافل في اتجاه مكناس وفاس، ووادي سبو والشاوية بسبب قطاع الطرق، وفي مثل هذه النقطة تقوم القوافل التجارية بمحاولة تغيير الإتجار مع مثل هذه الجهات، إضافة إلى تفضيل سكان زمور وزعير القريبة من الرباط ـ سلا الإتجار مع الدار البيضاء ومكناس والعرائش، علاوة على أن تجهيزات ميناء العرائش في هذه الفترة (قبل الحماية) مكنت من تسهيل العمليات المرتبطة بالشحن والتفريغ في البحر والنهر، قياسًا إلى ما هو موجود بميناء الرباط والقنيطرة، وحتى على مستوى الاستيراد والتصدير.

عامل نفسي: يرتبط بعدة عوامل منها اعتياد التجار في الماضي بفاس ومكناس وغيرها، على امتطاء طريق طنجة والعرائش في مسلسل اتجارهم، بدل الاتجاه نحو السواحل الأطلسية، وللمعرفة الجيدة للقوافل التجارية في جهة مكناس وفاس بالفنادق والموانئ التقليدية للمنطقة الإسبانية لاحقًا، كما أن قوافل جمال الشمال الغربي المغربي هم في الأصل قبائل "شراردة" و "غرباوة " يوجودون باختصار على الطريق الرابطة بين مكناس ـ فاس وطنجة ـ العرائش، وهم من المجربين في هذه المهن أبًا عن جد، فهؤلاء كانوا يمتلكون قطعان تتراوح بين ٣٠ جمل و ٥٠، وقد تصل حتى ١٠٠ جمل، وعلى علاقة متينة بالوكلاء التجاريين بهاتين المدينتين، ويعرفون جيدًا المناطق على طول هذه الطريق التي يوجد بها الكلأ لماشيتهم مقارنة بطريق القنيطرة ـ سلا، مما يعطي الامتياز لمينائي طنجة والعرائش[٤٦] على حساب القنيطرة والرباط.

فرضت هذه الوضعية المركبة على رجالات الإقامة العامة الفرنسية، القيام بتدخلات إدارية واقتصادية تسهم في البحث عن الحلول التي ستعجل بتغيير تجار فاس ومكناس والغرب عموما لوجهتهم من طنجة والعرائش إلى الموانئ الأطلسية القريبة، وخاصة القنيطرة والرباط، في ظل وجود منطقتين للحماية في هذا الجزء من المغرب، الممثلة في الحماية الإسبانية في الشمال والفرنسية في الوسط، جاء في رسالة لـ"سانت أولير" مؤرخة بـ ١٨ فبراير ١٩١٤م بهذا الخصوص ما يلي «**كنت دائمًا مقتنع بأن إنشاء تجارة نشيطة بين جهة فاس وموانئ الحماية الفرنسية بالمغرب، يشكل جزءًا أساسيًا لبرنامجنا المتعلق بالتنظيم والغزو**[٤٧]»، وقد جرت رياح تطورات المنطقة الإسبانية في الشمال المغربي بما كانت تشتهيه سفن الفرنسيين، فالعاشر من شهر دجنبر ١٩١٤م شهد إصدار السلطات الإسبانية قرار بالمنطقة الخليفية يقضي بمنع تصدير السلع الأساسية نحو المنطقة السلطانية، على الأقل لمدة ستة أشهر، كالسكر والشاي والشمع، والبن، الصابون، والمعلبات...، بدعوى نقصان الاحتياطات بالمنطقة من هذه المواد، فأزعج هذا الكثير من تجار هذه ميناء ومدينة العراش ونواحيها، ودفع الكثير منهم للتفكير في التصدير عبر القنيطرة[٤٨]، بحيث برر مدير الجمارك الإسباني للتجار خطوة بلاده هذه بكونها جاءت كرد على قرارات السلطات الفرنسية المشابهة، لكن هذه الذرائع ما كان لها أن تقنع التجار بالعرائش، الذين كان لهم اجتماعات لعدة مرات مع المعنيين بالأمر لفهم سياق اتخاذ مثل هذا القرار، ومنهم الجنرال "سيلفيستر Sylvestre " الذي حاول شرح وجهات نظر السلطات بالمنطقة الخليفية بهذا الخصوص، وخاصة بالنسبة لتجار فاس ومكناس المقيمين هناك، والذين ظهر لهم تشبث الجنرال برأيه المعبر عن إدارة الحماية الإسبانية، مما هدد بانخفاض رواج ميناء العرائش، هذا الموقف المتطرف للمسؤولين الإسبان، دفع إلى تدخل العديد من القناصلة للدفاع عن حقوق مواطنيهم بالمنطقة الخليفية، ومنهم القنصل البريطاني الذي تحدث عن ضرورة أن يشمل هذا المنع المواد الأساسية كالسكر والشاي والدقيق والحليب، وان تطبق على غيرها من البضائع الأخرى جزئيا [٤٩].

سادسًا: نجاح السلطات الفرنسية في استقطاب تجار العرائش

تمكن رجال الحماية الفرنسية من إنجاح خططهم في استقطاب كبار تجار العرائش وشركاتها الملاحية الكبيرة، وسيظهر ذلك في التفاعل الإيجابي لهؤلاء مع دعواتهم لهم بالانتقال إلى الموانئ الأطلسية في المنطقة الفرنسية، وفي مقدمتها القنيطرة، فقد كتب نائب القنصل الفرنسي بالعرائش والقصر الكبير إلى المقيم العام بتاريخ ١٨ دجنبر ١٩١٤ يبشره بتلقي وعد من "عمران أمسلم Amram Amselem " احد كبار التجار بالعرائش بالانتقال إلى القنيطرة، وأن الأمر ينطلي على العديد من التجار الفاسيين، فدعاه إلى مطالبة السلطات بالقنيطرة لتخصيص استقبال كبير لهذا التاجر، لأن انتقال هذا التاجر لمدينة القنيطرة سيشجع تجار آخرين للقيام بخطوات مشابهة، والذي سينعكس إيجابا على ميناء القنيطرة الذي يجب أن يتوفر على مخازن لتخزين سلع هؤلاء التجار، في الوقت

الذي عمل فيه هذا المسؤول الفرنسي على بدل مجهودات إضافية لتشجيع تجار آخرين على الاتجاه نحو القنيطرة[٥٠]، وفعل سيشهد تاريخ ٢٣ دجنبر ١٩١٤م الانتقال الفعلي للتاجر "عمران امسلم" إلى هذه المدينة، وأن كل من التاجر "جودا كاستيل " والتاجر محمد بوصفيحة على وشك الانتقال، وأن هؤلاء التجار الثلاث الكبار يسألون عن تخزين سلعهم، وإذا كان بالإمكان أن تقوم الجمارك بإعطائهم مخازن بالمجان إلى غاية بناء مخازن جديدة[٥١].

فإلى حدود ١٩١٤ م ضمت العرائش العديد من التجار، أهمهم على الإطلاق:

- عمران امسلم: عد من التجار الفرنسيين.
- محمد بوصفيحة: تاجر مغربي من فاس.
- جيدا كاستيل: محمي هولاندي.
- سالومون موريوسف: عد من التجار الإسبان.
- صامويل سارفاتي: عد من التجار الإسبان.
- محمد بلغيتي: تاجر مغربي من فاس.
- ادريس بلامين: تاجر مغربي من فاس.
- أحمد الشاوي: تاجر مغربي من فاس.
- حاييم ريي: من طنجة ممثلاً في العرائش من قبل سيمون م.كاستيل.
- بنيلوز: محمي الماني.
- بنكيران: تاجر مغربي عد ضمن الإسبان.
- بنموسى: تاجر مغربي ومحمي ألماني.

سابعًا: الأشغال العمومية المرتبطة بالقنيطرة والرباط وتأثيرها في ميناء العرائش

أول ميناء يصادفنا على طول الساحل الفرنسي من الشمال إلى الجنوب هو ميناء القنيطرة، الواقع على وادي سبو، على بعد ١٧ كم من البحر، وهو المنفذ الطبيعي للغرب ووادي سبو، وفي هذا السياق تم إنشاء أول مركزين للاستعمار الفرنسي هناك في سيدي قاسم ومشرع بلقصري، بالموازاة مع التجهيزات التي أحدثها الفرنسيون على مشارف ميناء القنيطرة أو تلك المتصلة به، مما مكن القنيطرة من أن تغدو أقرب ميناء إلى فاس ومكناس، وهما المدينتان الكبيرتان في شمال الإمبراطورية الشريفة، حيث يربطهما خط سكة حديد ضيق، فامتصت هذه التجهيزات ومعها ميناء القنيطرة حركة المرور بشكل متزايد على حساب العرائش، إضافة إلى ميناء الرباط، فسمحت هذه الوضعية الجديدة من التأكد بحدوث النمو السريع لميناء سبو، وعلى وجه السرعة تم افتتاح القنيطرة للتجارة في مستهل عام ١٩١٣م[٥٢].

يمكن عد بعض الإنجازات التي حققها ليوطي بين ميناء القنيطرة وفاس ومكناس في:

على مستوى تعبيد الطرق: شهد المغرب بناء العديد منها منذ فترة ليوطي، وما يهمنا هنا الطريقان الآتيان،

- الطريق رقم ٣: من القنيطرة إلى فاس، على مسافة ١٥٦ كلم.
- الطريق رقم ٤: من القنيطرة إلى مكناس، على مسافة ٦٠ كلم[٥٣].

١/٧-استعمال السكة لجلب تجار فاس المسلمين واليهود نحو القنيطرة:

وظف ليوطي ومعه سلطات الحماية السكة الحديدية كآلية لتمرير التدابير والإجراءات والسياسة الفرنسية في أوساط الأهالي[٥٤]، فانشأ بمقتضى ذلك السكة الحديدية التي تعتبر سياسة أهلية[٥٥]، والتي لبت عدة مطالب لفئات متنوعة، ومنها رغبات وتطلعات النخبة التجارية المستقرة بأهم الحواضر المغربية، التي واكبت تطلعاتها التطور الذي تعرفه وسائل النقل والتنقل لمغرب ما بعد الحماية، وخاصة تجار فاس والعديد من أغنياء التجار اليهود المغاربة، الذين استوطنوا الموانئ والحواضر الكبرى للمغرب، فمن جملة الشروط التي أبداها بعض التجار الفاسيين في هذه الفترة، التي تزامنت مع انتقال العديد منهم للاستقرار بميناء المهدية ومعه مدينة القنيطرة، نقل أموالهم عن طريق البريد، واستغلال السكة الحديدية لنقل بضائعهم بعدما كان دورها يقتصر على نقل الجنود والمعدات العسكرية، وأيضًا استعمال القطار بالنسبة للتجار المقيمين بالقنيطرة، والذين يتوفرون على وكالة بها، مما سيساعدهم على تحقيق عدة مآرب منها سرعة تنقلهم وبضائعهم، ثم الأمن وانخفاض التكلفة مقارنة بالقوافل[٥٦].

٢/٧-تطوير تجهيز ميناء القنيطرة وعصرنته:

شهد مستهل شهر يناير ١٩١٣م فتح هذا الميناء في وجه التجارة البحرية، بعدما كان مقتصرًا على السفن ذات الحمولة العسكرية، فانتعش رواجه التجاري، وأصبح هذا الميناء ومعه القنيطرة المدينة نقطة عبور أساسية لكل الطرق البرية التي تربط بين مدن الدار البيضاء وطنجة، ثم بينه وبين مكناس وفاس، ومنفذًا طبيعيًا هامًا لسهل الغرب ومنطقة بني أحسن وكل المناطق المجاورة، وتحقق هذا التحول بفضل تطوير

تجهيزاته، فميناء القنيطرة احتضن سنة ١٩٢١م ما مجموعه ٨ مخازن مغطاة، في وقت كانت فيه اثنتان قيد الإنجاز، بالإضافة إلى رصيف عائم ومجموعة من الأماكن لرسو السفن المصنوعة من الخشب، ورافعتان[٥٧]، ووصل طول رصيفه الجنوبي سنة ١٩٢١م حوالي ١٨٠٠ متر، وهي نفس المسافة التي حققها الرصيف الشمالي سنة ١٩٢٤م[٥٨].

وانتقل عدد السفن التي تقصد هذا الميناء من ٣٥سفينة سنة ١٩١٣م، إلى ١٤٧ سفينة سنة ١٩١٤م، ثم إلى ٢٥٠ سفينة سنة ١٩١٥م...، أما في ١٩١٦م ففرغ بهذا الميناء ١٢٥٠٠ طن من السلع[٥٩]، وفي سنة ١٩٢٠م دخلته ٣٠٩ سفينة بحمولة وصلت إلى ٩٨,٠٠٠ طن[٦٠]

خاتِمَةٌ

تمسك الفرنسيون بمتانة في الدفاع عن مشروعية إدارتهم للخلفية الاقتصادية لميناء العرائش سابقًا، وكان زادهم في ذلك أعمال البناء والتطوير التي باشروها في مينائي القنيطرة والرباط، وتوفيرهم لبنية تحتية ميناءيه أغرت كثير من تجار ميناء الحماية الإسبانية بالانتقال طواعية للاستقرار هنالك في القنيطرة والرباط وغيرها، وعن طيب خاطر، لكن في الخفاء ظل الفرنسيون يجتهدون لضرب حصار اقتصادي مطبق على ميناء العرائش، لتهديم كيانه الاقتصادي، وإحداث خلخلة في نظامه التجاري، وهو ما حدث بنوع من النجاح والتوفيق في المخططات التي وضعها رجالات الحماية الفرنسية، لبلوغ ضالتهم المنشودة، وفعلاً، سيلاحظ أن الميناءين اللذين خلفا العرائش في أدواره، كان نشاطهما التجاري في منحى تصاعدي، وأعمال البناء والتجهيز والتطوير ظلت بهما على قدم وساق طيلة فترة ليوطي على الأقل، على الرغم من تسجيل بعضًا من التذبذب مع الحرب الكبرى(١٩١٤-١٩١٨)، والتي استنزفت الجهد والمال لدى الفرنسيين، وجعلتهم في بعض الأحيان يرتكنون إلى تمويل احتياجات جنودهم المشاركين في الحرب بدل إتمام المشاريع الكبرى التي انطلقت في سائر البلاد، وهمت جميع وسائل الاتصال والمواصلات، والتي زاوج فيها هؤلاء بين الطموحات السياسية والعسكرية، وكذا المخططات والبرامج الاقتصادية المفيدة أولا وقبل كل شيء للدولة الحامية (المتربول).

الهَوامِشُ:

(1) Kann Réginald, Le Protectorat Marocain, Edition Berger-Levrault, Nancy-Paris-Strasbourg, 1921,P.136.

(٢) علي حسني، **التحول المعاق-الدولة بالمغرب الحديث: مساهمة في تاريخ المؤسسات والتحولات الاجتماعية ١٨٣٠-١٩١٢م**، مؤسسة كونراد أدناور، الطبعة الأولى، الدار البيضاء ١٤٢٠ هـ/ ٢٠٠٠م، ص١٣٦.

(٣) يوسف أخليص، **القضاء القنصلي ومسألة السيادة في مغرب ما قبل الحماية**، طنجة، مطبعة سليكي أخوين، الطبعة الأولى، ٢٠١٤، ص ٢٤١. يضيف أن حجم الرواج التجاري تضاعف ثلاث مرات ما بين ١٨٥١و ١٨٦٦م، فتضاعف النشاط التجاري لمرسى أسفي في الفترة نفسها ١٥ مرة، ومرسى الجديدة ٩ مرات، والدار البيضاء ٥ مرات، وطنجة أربع مرات، والعرائش والصويرة مرتين ...

(4) Tradieu André, La Conférence d'Algésiras : histoire diplomatique de la crise Marocaine (15 Janvier- 7 Avril), 2(eme) Edition, Félix Alcan, Paris, 1908, P.23.

(5) Erckmann, Jules (Capitaine). Le Maroc moderne, Editeur CHallemel Ainé, Paris, 1885, P.247.

(6) Ministère des affaires étrangères, Documents diplomatiques 1907-Affaires du Maroc III 1906-1907, Imprimerie Nationale, 1907 ,P.177.

(7) Ministère des affaires étrangères, Documents ….,op.cit, P.٢٢١.

(8) Charles –André Julien, **Le Maroc face aux impérialismes 1415- 1956**, Edition J.A, Paris, 1978, P.69.

(٩) العلوي زين العابدين، **المغرب في عهد السلطان مولاي يوسف**، المغرب من عهد الحسن الأول إلى الحسن الثاني، نشر ادكل، ٢٠٠٩، ج٢، نفسه، ص ٢٣٢.

(10) Perotin Jacques, Question viticole au Maroc, Thèse pour le doctorat, Faculté de droit , Bordeaux, 1936, P.18.

(١١) علي حسني، التحول ....، م.س، ص ١٢٧.

(12) (Sans auteur), Le Nord-ouest du Protectorat: Commerce maritime de ces régions par les ports de Tanger – Larache et par les ports de la zone Francaise, S.d, A.M, carton N°E0796, p 1-2 .

(13) Ministère des affaires étrangères, Documents ….,op.cit, P.57.

في رسالة من القائم بالأعمال الفرنسية بطنجة السيد سانت أولير، إلى السيد "ليون بورجوا" مؤرخة بـ ٢٤ أكتوبر ١٩٠٦م، وزير الخارجية الفرنسية، ورد أن الريسوني الثائر في منطقة الريف وجبالة في هذا التاريخ، كانت له طموحات للسيطرة على المنطقة الممتدة بين طنجة والعرائش، ومراقبة طريق تجارة فاس، لإخلاء سبيل الفرنسيين الذي كان يعتقلهم جنوده في منطقة أصيلا. وهو ما يفهم من عدم رده على الدعوات المتكررة منهم لإطلاق سراح هؤلاء.

(١٤) عبد العزيز الخمليشي، **مدينة الرباط في القرن التاسع عشر (١٨١٨-١٩١٢): جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية**، كلية الآداب بالرباط، رسائل وأطروحات رقم ٦١، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ١٤٣٣هـ -٢٠١٢م، ص٤٩٥.

(15) Lebel Roland, Le Maroc dans les relations des voyageurs anglais aux16 et 17 et 18(e) siècle, Hespéris, 1(er)Trimestre, Tome IX, Paris, 1929, [269-294], P.271.

(16) De Castries. H, Le Danemark et le Maroc (1750-1767),Hespéris, 4 (e)Trimestre, Tome VI, Paris, 1926,[327-350], P.340.

(١٧) Tradieu André, La Conférence ....op.cit, P.24,

(١٨) كاربخال مارمول، **إفريقيا**، ترجمة محمذ حجي و محمذ زنيبر ومحمذ الاخضر وأحمذ التوفيق وأحمد بنجلون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الجزء الثاني، ١٤٠٨-١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨-١٩٨٩م، ص.١٨٨-١٨٩.

(19) Martin A.G.P, Géographie nouvelle de L'Afrique du nord: Physique- politique-économique, Editeurs Forgeot et Cie, Bordeaux, 1912,P.92.

(20) Deslinières Lucien, Le Maroc socialite, Librairie M.Giard et E.Brière, Paris, 1912, P.248.

(٢١) محمد بكراوي، **السياسة البحرية للحماية الفرنسية بالمغرب: ميناء القنيطرة نموذجًا ١٩١١- ١٩٣٨**، بحوث، منشورات كلية الآداب المحمدية، سلسلة الندوات رقم ٧، [١٣٣- ١٤٤]، ص ١٣٦.

(٢٢) علي حسني، التحول ...، م.س، ص١٣٩.

(23) Darmon, Quelques recherche sur La priorité de Larache au sujet de l'approvisionnement de la Région Meknès – Fès, 1 Juin 1914, carton N°E0796, p3.

(٢٤) إدريس شهبون، **العرائش في تاريخ المغرب قبل عهد الحماية: جوانب من الحياة السياسية والاقتصادية والعمرانية**، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة تاريخ المغرب، الرباط، مطبعة المعارف الجديدة، ٢٠١٤، ص ٤٥٦.

- Kann Réginald, Le Protectorat ...,Op.Cit, P.136.

(25) Tradieu André, La Conférence ...,op.cit, P.501.

(26) Peyreigne Charles. Les influences européennes au Maroc avant la Conférence d'Algésiras, Librairie Ch. Dirion, Toulouse, 1908, P.130.

(27) Service Economique de la Résidence générale, Commerce Maritime du Maroc Français, A.M, boite N°E0796, P1. _ Parmentier, Région de Fez :Détournement du trafic sur Kenitra et Salé, 23 Février 1914, A.M, boite N°E0796 ,P1.

(28) Service Economique de la Résidence générale, Commerce ..., boite N°E0796 , P٤.

(29) Saint-Aulaire, Les importations par mer à destination de Fez, 28 Février 1914, AM, boite N°E0796, p 1.

(٣٠) إدريس شهبون، العرائش في تاريخ.....م.س، ص ٤٥٧ .
بلغ عدد المراكب الداخلة والخارجة من هذا المرسى مابين ١٨٨٨و ١٨٩٣م ما مجموعه ١٨٨٦ سفينة من بينها: ٤٨٧ باخرة، و٩٣٤ مركب شراعي تجاري، و٤٦٥ مركب لصيد الأسماك.

(31) Service Economique de la Résidence générale , Commerce ..., boite N°E0796, P٥ .

(32) Parmentier ,Région de Fez :Détournement ..., boite N°E0796, P1.

(33) Fallot Ernest, La Solution française de la question du Maroc, Librairie CH. Delagrave, paris, 1904, P.43.

(34) Port Lyautey, Le Port du Nord Marocain , A.M , Carton N° E0800,P٢.

(35) Edith Wharton, Ecco Travel in...,p223.

(36) Avelut. H, les Voies du Communication ,La Renaissance du Maroc –dix ans de Protectorat 1912-1922, R.G.R.F.M, Rabat, s.d p249.

(37) Fallot Ernest, La Solution .....,op.cit, P.42.

(38) Port Lyautey, Le port du nord ...,Op.cit, P١٣.

(39) Victor Piquet, Le Maroc :Géographie-histoire mise en valeur, Dar Alaman ,1914, p ٣٧٥

(40) (Sans auteur) ,Le Nord-ouest ...,Op.Cit, p ٢٢_٢٣.

(41) Tradieu André, La Conférence ...,op.cit, P.٥٩.
لم يذكر اتفاق ١ سبتمبر إلا العرائش وتطوان (الشرطة الإسبانية)، وطنجة (الشرطة المختلطة)، ثم الرباط والدار البيضاء (الشرطة الفرنسية)، لكن بالإشارة إلى معاهدة ٣ أكتوبر ١٩٠٤م، كان الأمر واضحًا، أما الموانئ الأخرى: أسفي والجديدة، الصويرة، فستستقبل مدربين فرنسيين إذا تم السيطرة عليهم واحتلالهم.

(42) Darmon , Quelques recherche sur La priorité ...., boite N°EO796, p1.

(43) (Sans auteur) ,Le Nord-ouest du Protectorat : Commerce..., Op.cit p٣.

(44) Idem

(45) Girard Le Capitaine, Etude sur le Maroc, Librairie militaire R Chapelot et C (e), Paris, 1904, PP.39-40.

(46) (Sans auteur), Le Nord-ouest du Protectorat: Commerce ....., p ٥_٦_٧.

(47) Saint-Aulaire, Les importations ..... , boite N°E0796, p 2.

(48) Langlais, A/s de la sortie des marchandises de la zone espagnole à destination de la zone française, 10 décembre 1914, A.M, boite N°E0796, P 1 – 2 .

(49) Langlais, A/s de la sortie des ... , boite N°E0796, P 3 – 4.

(50) Langlais, Lettre de Vice Consul de France a Larache et El Ksar à M. le Commissaire resident général de France au Maroc, 20 décembre 1914 , A.M, boite N°E0796.

(51) Langlais,Transitaires de Larache, 23 décembre 1914, A.M, boite N°E0796 .

(52) Kann Réginald, Le Protectorat ...,Op.Cit, PP .150-151.

(53) L'inspecteur Chef du Service des forêts, Routes – Plantations – Pépinières, 19 décembre 1916, A.M, Carton N°E0256.

(٥٤) تعتبر "مصلحة الشؤون الأهلية" من أهم ركائز الغزو العسكري والتدبير الإداري للحماية الفرنسية بالمغرب، فهي التي تحفظ وتعمل على تفعيل العمل السياسي داخل أوساط القبائل، كما تعرف السياسة التي تطبقها بالسياسة الأهلية.

(٥٥) بوزويتة سمير، **الاحتلال العسكري الفرنسي للمغرب: دراسة في الاستراتيجية العسكرية (١٩١٢_١٩٣٤)**، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحير التحرير، مطبعة كنابرنت، الطبعة الأولى، الرباط،٢٠٠٧، ص١١٧.

(٥٦) العلمي مصطفى مشيش، **القنيطرة: ميلاد المدينة والحركة الوطنية**، البوكيلي للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، القنيطرة، ١٩٩٨، ص٤٤.

(57) Vidi, Histoire d'un Port: Kénitra, France- Maroc, Juilet1921, [125], p125.

(٥٨) بكراوي محمد، السياسة...، م.س، ص١٣٧.

(٥٩) العلمي مصطفى مشيش، القنيطرة....، م.س، ص ١٩./ العلوي زين العابدين، المغرب ....م.س، ص٢٣٤.

(٦٠) العلوي زين العابدين، المغرب....م.س، ص ٢٣٤.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

مساهمة العربي المشرفي
في الحياة الفكرية لمغرب القرن التاسع عشر
دراسة ببليوغرافية



هشام البقالي
وزارة التربية الوطنية والتكوين المهني
والتعليم العالي والبحث العلمي
المملكة المغربية

مُلَخّصْ

شهد القرن التاسع عشر بالمغرب حركة تأليف واسعة، همت مختلف نواحي الحياة الفكرية، وخلاله برز عدة علماء خلفوا تراثا مهما، لعل من أبرزهم العلامة العربي المشرفي صاحب التآليف الغزيرة في التاريخ والشعر والدب والطب والسيرة. تروم الدراسة المساهمة في التعريف بمؤلفات العربي المشرفي الكثيرة، وتبيان المحقق منها والمفقود، والتي ما تزال حبيسة رفوف المكتبات الخاصة والعامة؛ لذلك سعينا في هذه الورقة إلى لتقصي مؤلفاته وذكر محققيها ونسخها، وأهم المحققين والدارسين الذي اشتغلوا بالبحث والتحقيق في مؤلفاته. فما هي أهم آثار العربي المشرفي التي خلفها؟ وما الفائدة التي يمكن الوقوف عليها تاريخيًا من هذا الكم الكبير من المؤلفات في تخصصات مختلفة؟ وقد اعتمدنا في هذه الدراسة على اعتماد منهج تاريخي وصفي تحليلي، حيث عمدنا إلى تتبع مؤلفات الرجل في أهم المصادر التي ترجمت وأرخت له، فضلاً عن المعلومات التي ذكرها بنفسه عن كتبه. مع العلم أننا استفدنا في مقالنا على ما أنتجه ثلة من المؤرخين عن العربي المشرفي، وذلك بالاستعانة بعدد مهم من المقالات والدراسات الأكاديمية. ولأجل ذلك رتبت مؤلفات المؤرخ العربي المشرفي حسب المحقق منها، ثم التي ما تزال حبيسة رفوف المكتبات الخاصة والعامة، وأخيرًا المفقودة منها؛ مع العلم أنني حاولت قدر المستطاع التعريف بأهم مضامين كتب العربي المشرفي، وذكر محققي كتبه، والاختلاف بين الطبعات.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٢٥	يناير	٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر:	١٠	أبريل	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:
العربي المشرفي؛ مغرب القرن ١٩؛ تحقيق المخطوط؛ الهجرة؛ مدينة فاس

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.168051

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
هشام البقالي. "مساهمة العربي المشرفي في الحياة الفكرية لمغرب القرن التاسع عشر: دراسة ببليوغرافية".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد الثامن والأربعون؛ يونيو ٢٠٢٠. ص ١٢١ – ١٣١.

Corresponding author: hicham_albakali@hotmail.fr
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org
Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

تميز المغرب خلال القرن التاسع عشر الميلادي بحركة تأليف واسعة، همت مختلف نواحي الحياة الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية...، مما دفع بالبعض إلى تسميتها "النهضة العلمية"[١]، ومن بين أبرز الذين ساهموا في هذه الحركة أبو حامد العربي المشرفي المعسكري. فالرجل، والحالة هذه "لم يكن غريبًا عن الأوساط الفكرية المعاصرة له واللاحقة، سواء بفاس، أو المدن المغربية الأخرى"[٢]. حاولت الدراسة تتبع إنتاجات العربي المشرفي التي تعتبر ذات أهمية كبيرة في التأريخ للأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية والذهنية للمغرب خلال القرن التاسع عشر، إلى جانب أهميتها في الكشف عن الحياة الأدبية، وذلك نظرًا لتشعب المجالات التي أبدع فيها العربي المشرفي. فمَنْ هو العربي المشرفي؟ ولماذا هاجر من الجزائر إلى المغرب؟ وما هي مؤلفاته التي ساهم بها في حركة التأليف والنهضة في مغرب القرن التاسع عشر؟ وهل لهذه المؤلفات قيمة علمية في البحث التاريخي؟ وهل لها إضافات تُذكر في حقل العلوم الإنسانية؟

١-التعريف بالمؤلِّفِ

هو أبو حامد العربي بن عبد القادر بن علي المشرفي الجزائري[٣]، المعروف بالمعسكري صاحب التآليف الغزيرة، التي جمع فيها بين التأليف في الأدب والتاريخ والتراجم والنسب...، لذلك وصفه المترجمون له بالأديب والمؤرخ والنسابة والراوية. إذا كان اسم العربي المشرفي يَرِدُ بين أسماء مؤلفي القرن التاسع عشر الميلادي كأحد الإخباريين والنسابة، عبر مؤلفاته المتنوعة المذكورة في عدد من الدراسات التاريخية والأدبية في المغرب والجزائر، فإن ما يلفت الانتباه أن المعلومات التي نصادفها في كتب التراجم لا تسمح بالإحاطة بمجمل جوانب شخصية الرجل وما واكبها من تقلبات[٤]، فمعظم المصادر التي ترجمت له[٥]، لم تُشر لتاريخ ولادته الذي يبقى مبهما، حيث تم تقديره بسنة ١٨٠٥م[٦]؛ لكنها أجمعت على مكان الولادة في قرية الكرط، بضواحي مدينة معسكر غرب الجزائر[٧].

٢-أسرة المشارف

ينتمي أبو حامد العربي المشرفي لأسر المشارف الذائعة السيط في غرب الجزائر بنسبها وحسبها، ناهيك عن أدوارها في تاريخ الجزائر السياسي والاجتماعي والديني والثقافي...[٨]، فالأسرة المشرفية إدريسية النسب من الفرع الحسني[٩]، لذلك حظيت بمكانة متميزة، بل وحازت الأسرة الرياسة على سائر شرفاء منطقة غريس، حجتنا في ذلك ما اورده العربي المشرفي، حيث قال: "وبالجملة فالمشارف كلهم حازوا الرياسة على سائر شرفاء الراشدية ولذلك كانت النقابة فيهم لا تتعداهم ولا تخرج منهم وحصرها فيهم ملوك الأتراك "[١٠].

٣-الهجرة لمدينة فاس

هاجر إلى المغرب سنة ١٨٤٣م[١١]، واستقر بفاس. وعن أسباب هجرته يقول: "والسبب الحامل لنا على ذلك - أي الهجرة- وإن كنا لسنا أهلا لذلك، الغيرة على الدين، والكف لجزية المشركين"[١٢]، ويضيف في مكان آخر عن سبب اختيار المغرب دارا للهجرة: "فولاية أهل النبوة أمان لهذه الأمة من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، وهذا هو أحد الأسباب التي جاءت بنا للمغرب، واخترنا الهجرة إليه دون الهجرة لأرض تونس وما وراءها من الأمصار...ألا ترى إلى فاس وأحوازها بل وجميع الإيالة المغربية، حاضرة وبادية، كيف نجاها الله مما أصاب غيرهم من واسطة المغرب وتونس المجاورة، فقد تغيرت أحوالهم بظهور كلمة الكفر في تلك النواحي أعادها الله دار إيمان"[١٣].

توفي العربي المشرفي سنة ١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م، عن تسعين سنة، ودفن قرب ضريح علي بن حرزهم خارج باب فتوح بفاس[١٤].

٤-إنتاجات المشرفي

يعتبر العربي المشرفي من أغزر علماء الجزائر إنتاجا فكريا في القرن التاسع عشر، ويعد من العلماء الموسوعيين، نظرا لما خلفه من مؤلفات، حيث كان له قلم لا يفتر وذهن لا يكل، ترك ما يناهز ٣٥ مؤلفا في مختلف المجالات[١٥]؛ والملاحظ أن عددًا من الباحثين عكفوا على دراسة تراثه، وتحقيق مخطوطاته، بل منها ما حقق أكثر من مرة. كان المرحوم أبو القاسم سعد الله[١٦] من أوائل الباحثين الذين درسوا وعرفوا بالعربي المشرفي وتراثه، وفي العقدين الأخيرين برز بشكل لافت الدكتور عبد الحق شرف، الذي عكف على تحقيق العديد من كتب المشرفي[١٧]، وأنجز دراسات عدة حوله وتراثه[١٨].

برع العربي المشرفي في نظم القصائد مدحًا وهجاءً[١٩]، وَأَلَّفَ في التاريخ وبرع فيه؛ وتعد كتاباته بمختلف أنواعها في هذا الباب من نوادر ما ألف، وتُعَد "ذخيرة الأواخر" في التاريخ العام و"طرس الأخبار" في تاريخ الجزائر، شاهدان على ذلك. كما ألف في تاريخ المغرب، وعرج على المناقب والتراجم والأنساب، ثم الرحلات التي كانت داخل المغرب. ورغم كثرة انشغالات العربي

المشرفي في مجال التاريخ، فإن سجله جاء حافلا في باب الردود والسجالات والاعتراضات؛ ولمع نجمه أيضًا في اللغة والآداب والطب، فجاءت دواوينه الشعرية والأدبية شاهدة على قوة أسلوبه الأدبي، وملكته الشعرية[٢٠]، فما هي مؤلفات العالم العلامة العربي المشرفي المحققة، المخطوطة والمفقودة؟

٤/١-الكتب المحققة

(٤/١) ١-ياقوتة النسب الوهاجة، وفي ضمنها التعريف بسيدي محمد بن علي مولى مجاجة:

خصصه العربي المشرفي لمناقب محمد بن علي المجاجي[٢١]، حجتنا في ذلك العنوان الثاني الذي وضعه المشرفي لكتابه في مقدمته؛ حيث يقول: "وإن شئت قلت: "اليواقيت الثمينة الوهاجة في التعريف بسيدي محمد بن علي مولى مجاجة"[٢٢]. قسمه على أقسام أربعة، بزيادة مقدمة وخاتمة. يحتوي الكتاب على فوائد تاريخية غاية في الأهمية، خاصة فيما يتعلق بتراجم شرفاء وعلماء الجزائر وفاس. توجد منه عدة نسخ في المغرب والجزائر، فالنسخة الأصلية بخط المؤلف: توجد بالخزانة العامة بالرباط، رقم ١٥٣٤[٢٣]؛ فرغ من تأليفها صبيحة الخميس التاسع والعشرين من ربيع الثاني من متمم سنة القرن الثالث عشر بعد الألف/ ١٨٨٢م[٢٤]، بخط مغربي جيد. والمخطوطة في مجلد وسط، تقع في ٨٨ ورقة، مسطرتها ١٥، مقياسها ١٧٠×١١٥.

نسخة ثانية بالمكتبة الوطنية بالرباط ضمن مجموع تحت رقم ٢٠٧ ك، ص ٤٠٣- ٤٦٦. نسخة ثالثة بخزانة علال الفاسي، رقم ٢٠ ع، تتكون من ١٨١ صفحة[٢٥]. نسخة رابعة بالمكتبة الوطنية الجزائرية الحامة رقم ٣٣٢٦، ناسخها السيد الحاج المهدي بن أبي عبد الله يوم ١٥ شوال ١٣٥١هـ/ ٢٨ مارس ١٩٦٢؛ عدد أوراقها ٢٠ ورقة أي ٤٠ صفحة بوجهين، مسطرتها 180×240. كتبت هذه النسخة بعناية فائقة بخط مغربي حسن وواضح يقرأ بسهولة، بحبر أسود مع تطعيمها بألوان أخرى هي: الأحمر- الأخضر- الأزرق- والأصفر، وذلك في بعض الكلمات من قبيل: التصلية على النبي والحمدلة؛ وفي كتابة أسماء بعض الشخصيات. نسخة خامسة بالمكتبة البوعبدلية ببطيوة أرزيو بولاية وهران بالجزائر، تحتوي على ٣٨ ورقة٢٦. نسخة سادسة بمكتبة الشيخ البشير المحمودي البرج معسكر بالجزائر.

نشر الكتاب[٢٧] سنة ٢٠١٢؛ والملاحظ أن محققاه لم يركزا في الوقوف على التعريف بالشخصيات التي أوردها العربي المشرفي، ولم يرجعا إلى مصادر أخرى ترجمت لهؤلاء الأعلام؛ ناهيك على أنهما اعتمدا على نسخة وحيدة نسخت عن النسخة الأصلية سنة ١٩٦٢، ولم يرجعا للنسخة الأم بخط المشرفي.

(٤/١) ٢-طرس الاخبار بما جرى آخر الأربعين من القرن الثالث عشر للمسلمين مع الكفار، وفي عتو الحاج عبد القادر وأهل دائرته الفجار:

صنفه المشرفي في مقدمة وسبعة فصول وخاتمة، توجد نسخة منه في دار الوثائق القومية النيجيرية[٢٨]، ونسخة بالمكتبة الوطنية المغربية رقم ٤٩٦ ك، وقد حققه يوسف أحليس[٢٩].

(٤/١) ٣-ذخيرة الأواخر والأول فيما يتضمن من أخبار الدول:[٣٠]

عبارة عن تأليف يجمع بين التاريخ العام والرحلة، حيث دون فيه المشرفي ملاحظاته عن الرحلة التي قام بها من المغرب إلى الجزائر سنة ١٨٧٨م، انتهى من تأليفه سنة ١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م.

يقع الكتاب في سفرين من ٣٣٣ ورقة[٣١]، يوجد بعضه بخط المؤلف بالخزانة الكتانية بفاس[٣٢]، ونسخة من الجزء الثاني بالمكتبة الوطنية بالرباط[٣٣]، ونسخة ثالثة بالمكتبة الوطنية بالجزائر[٣٤]، ونسخة رابعة بخزانة خاصة بمراكش مبتورة الآخر[٣٥].

(٤/١) ٤-مشموم عرار النجد والغيطان المعد لاستنشاق الوالي وأنفاس المولى السلطان:[٣٦]

ألفه المشرفي بطلب من عامل فاس عبد الله بن أحمد لشرح الرسالة السلطانية إلى أعيان زرهون وذلك بعد تمرد سكان المدينة على عامل السلطان.

توجد بالمكتبة الملكية النسخة الأصلية منه بخط المؤلف تحت رقم ١٢٠٨٢ ز، ونبه الدكتور حسن الفرقان إلى وجود نسخة ثانية منه في إحدى الخزائن الخاصة بمدينة فاس[٣٧].

نشر الكتاب في طبعة تجارية محضة لم تحترم أبسط أبجديات التحقيق العلمي المتعارف عليه بين المحققين[٣٨].

(٤/١) ٥-الآيات والحوادث:

ذكره المشرفي في ذخيرته ووسمه بالتأليف الصغير[٣٩]؛ توجد نسخة منه بالمكتبة الوطنية بالجزائر بعنوان: **تاريخ المغرب الأقصى في القرن الثالث** عشر، رقم ٤٠٣٠١٣، تتكون من ١١ ورقة مكتوبة بخط مغربي مقروء وجميل، فرغ من تأليفه العربي المشرفي يوم ٢٩ صفر ١٢٨٥ هـ/ ٢١ يونيو ١٨٦٨م[٤١]، وهي النسخة الأصلية والوحيدة بخط صاحبها العربي المشرفي، وقد حققها الدكتور عبد الحق شرف، وهي قيد الطبع حاليًا.

(٤/١) ٦-نزهة الأبصار لذوي المعرفة والاستبصار تنفي عن المتكاسل الوسن في مناقب سيدي أحمد بن محمد وولده سيدي الحسن[٤٢]:

مؤلف في أدب الرحلة والتراجم، انتهى من تأليفه يوم الأربعاء ١٨ رجب ١٢٩٠هـ/ ١١ شتنبر ١٨٧٣م، وذلك بطلب من الوزير

عبد الله بن أحمد، الذي كانت له محبة السيد أبي علي سيدي الحسن بن احمد بن محمد الميموني التمكديشتي؛ حجتنا في ذلك قوله: "والباعث على تسطير هذا الدفتر بعد الاستخارة النبوية، أن محب العلماء [...] السيد عبد بن أحمد رئيس العسكر المحمدي والجيش الحمدي، له محبة في الجناب الطيني وخدمة للمقام الديني، مقام أبي علي سيدي الحسن بن الولي الصالح وقطب الدين الواضح أبي العباس سيدي أحمد بن محمد الميموني، ثم التمكديشتي [...] فأراد مني إظهارها صونا للمحبة، وعونا على إخلاصها ورحمة للعامة، وشفقة على الذين يطلقون ألسنتهم في أمثاله [...] فقد ساعدته لوفق ما طلب مؤديا للحق الذي له علي وجب، إذ لا تسعني مخالفته في مثل هذه القضية، وقد قدمني لذلك دون العلماء الأجلة، والبدور الأهلة الذين غص مجلسه الكريم بهم"[٤٣]

قام بدراسته وتحقيقه الباحث مولاي الزهيد علوي، ونال به درجة الدكتوراه من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة، ٢٠١٨، معتمدا في تحقيقه على ثلاث نسخ[٤٤] من أصل خمس نسخ، نشرته وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالرباط، ٢٠٢٠.

(٤/I) ٧-رحلة إلى نواحي فاس:

وهي أرجوزة من ١٦٨ بيتا[٤٥]، حققها الدكتور عبد الحق شرف اعتمادا على نسختين، إحداهما بخط العربي المشرفي، وهي قيد الطبع حاليًا.

(٤/I) ٨-تمهيد الجبال وما وراءها من المعمور، وإصلاح حال السواحل والثغور:

وهو العنوان الأصلي الذي وضعه العربي المشرفي لكتابه، حيث يقول: "وأختم هذه العجالة المسماة بتمهيد الجبال وما وراءها من المعمور، وإصلاح حال السواحل والثغور"[٤٦]؛ غير أنه ورد بعدة عناوين أخرى، فقد وسمه ابن سودة بـ: "رحلة إلى القبائل الجبلية"[٤٧]، وسماه محمد المنوني بـ: "الرحلة الحسنية شمال المغرب"[٤٨]، ونفس الاسم وضعه أيضا الدكتور حسن الفرقان[٤٩]؛ كما نشره الدكتور إدريس بوهليلة بعنوانين أحدهما رئيسي والثاني فرعي وَسَمَهُ بـ: حركة السلطان مولاي الحسن الأول إلى شمال المغرب ١٣٠٦-١٣٠٧هـ/ ١٨٨٩م)[٥٠]، كما أفردت له الباحثة حنان الفاضلي اسما آخر وهو: رحلة إلى شمال المغرب[٥١].

حقق الكتاب لحد الآن من طرف عدة باحثين، كانت أولى المحاولات من طرف حدور بختة[٥٢] وحليمة بن فاطمة[٥٣] في إطار رسالتي ماستر بإشراف الدكتور عبد الحق شرف، وحققه الدكتور إدريس بوهليلة ونشر ضمن منشورات كلية الآداب تطوان سنة ٢٠١٦ في ٢١١ صفحة، كما نشرته الباحثة حنان الفاضلي بعنوان: **رحلة إلى شمال المغرب**، سنة ٢٠١٩[٥٤]، ويعمل على تحقيقه للمرة الرابعة أحد الباحثين لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ بكلية الآداب تطوان بإشراف الدكتور عبد الحفيظ حمان.

(٤/I) ٩-الرد على أبي راس:

حققها الباحث تقي الدين بوكعبر اعتمادا على النسخة الأصلية والوحيدة بخط العربي المشرفي ونال بها درجة الماجستير[٥٥].

إن ما يلاحظ على تحقيق المصدر هو الجدية والدقة، واعتماد الباحث على كم هائل من المخطوطات والمصادر، كما كان في كثير من الأحيان يغوص في جزئيات، خارج نطاق البحث.

(٤/I) ١٠-الحسام المشرفي لقطع لسان الساب الجعرفي[٥٦] الناطق بخرافات الجعسوس سيء الظن الكنسوس[٥٧]:

أبدع في تحقيقه الدكتور عبد الحق المشرفي إلى غاية الترجمة الرابعة[٥٨]، اعتمادا على نسختين، إحداهما بخط المؤلف، والثانية منسوخة عنها، حيث نال به درجة الدكتوراه، وعمل لاحقا على إكمال تحقيق بقية المخطوط، وهو قيد الطبع حاليا.

(٤/I) ١١-رسالة[٥٩] في أهل البصبور الحثالة[٦٠]:

حققها الدكتور عبد الحق شرف اعتمادا على النسخة الوحيدة الأصلية بخط العربي المشرفي[٦١]، وهي قيد الطبع حاليًا.

(٤/I) ١٢-ورقات في رواج السكة بالزيادة:

حققها الدكتور عبد الحق شرف اعتمادا على النسخة الوحيدة بخط العربي المشرفي[٦٢]، وهي قيد الطبع حاليا.

(٤/I) ١٣-فتح المنان في شرح قصيدة ابن الونان، أو المواهب السنية في شرح الشمقمقية[٦٣]:

حقق في مناسبتين، كانت الأولى سنة ٢٠١٠ من طرف الباحثة نعيمة اسباعي، في إطار رسالة جامعية بكلية الآداب تطوان، حققت منه الجزء الثاني، والثانية من طرف الباحثة الباحثة كريمة شيشن، ونالت به درجة الدكتوراه من كلية الآداب تطوان سنة ٢٠١٣، حيث حققت الجزء الأول.

(٤/I) ١٤-ديوان نظم من أيقض للدين جفن الوسن مولانا الحسن:

ألفه ليقدمه إلى الحسن الأول، حقق مرتين، كانت الأولى من طرف إسماعيل آيت عبد الرفيع، حيث قام بتخريجه وتقديمه، ونال به دبلوم الدراسات العليا المعمقة من كلية الآداب

تطوان سنة ٢٠٠٨، وحققته في المرة الثانية الباحثة حنان التونلي، ونالت به درجة الدكتوراه من كلية الآداب تطوان سنة ٢٠١٤.

(١/٤) ١٥-أقوال المطاعين في الطعن والطواعين:

كان الكتاب موضوع رسالتين جامعيتين، الأولى من تحقيق الدكتور عبد الحفيظ حمان، أستاذ التاريخ بجامعة عبد المالك السعدي أواخر ثمانينيات القرن الماضي ولم يكتب له النشر، كما حققه حسن الفرقان ونال به درجة الدكتوراه سنة ٢٠٠٣[٦٤]، ونشره سنة ٢٠١٤[٦٥].

٢/٤-الكتب المخطوطة

(٢/٤) ١-حاشية على شرح المكودي:

عبارة عن مؤلف في النحو، منه نسخة بالخزانة الصبيحية بسلا، رقم ٣١٢، عدد أوراقه ١٢٩.

(٢/٤) ٢-الفتح والتيسير في شرح منظومة غوثية البدر المنير السيد محمد بن العربي الوزير، أو الفتح والتيسير في شرح قصيدة حوت من هم على قدم البشير النذير:

دونه العربي المشرفي لاستعطاف كرم الصدر الأعظم في عهد الحسن الأول محمد بن العربي الجامعي، توجد منه نسختان، الأولى بخط المؤلف وهي النسخة الأصلية بالمكتبة الملكية بالرباط رقمها ٥٢٧١، والثانية بخزانة علال الفاسي بالرباط، رقم ٢٣٣١ ع ١٥، تتكون من ١٠٦ صفحة، مقياسه ٢٠/١٦ مسطرته ١٧، بخط مغربي وسط[٦٦].

(٢/٤) ٣-كناشة:

تحتوي على قصائد متنوعة المواضيع، توجد نسخة منها بالمكتبة الوطنية بالرباط ضمن مجموع، رقم ٢٠٤ ك، من الصفحة ١ إلى الصفحة ١٥٠.

(٢/٤) ٤-كناشة:

مدح فيه المولى عبد الرحمن وبعض أعيان المخزن، كتبها المشرفي في فترات متباعدة، وتضم مواضيع مختلفة، توجد نسخة منها بالمكتبة الوطنية بالرباط، رقم ٤٧١ ك، تتكون من ٤٦٥ صفحة من القطع الصغير.

٣/٤-الكتب المفقودة

(٣/٤) ١-تاريخ علماء فاس:

ذكره العباس بن إبراهيم في سفرين[٦٧]، ورجح المرحوم محمد المنوني أنه من المؤلفات الصغيرة التي دمجها المشرفي في الباب الرابع من كتاب نزهة الأبصار، ويعتقد الدكتور عبد الحق شرف أنه هو نفسه كتاب "**لواء الفكر في فضلاء العصر**" الذي ذكره المشرفي في الذخيرة[٦٨]، ترجم فيه المشرفي لعلماء فاس ومراكش والرباط وسلا ووزان والغرب وبني حن ومكناس[٦٩].

(٣/٤) ٢-إثمد الجفون في من بعهد الله يوفون[٧٠]:

ذكره العربي المشرفي في كتبه ثلاث مرات، الأولى ضمن لائحة كتبه التي أوردها في **الذخيرة**[٧١]، والثانية في شرحه **للشمقمقية**[٧٢]، والثالثة في كتاب **مشموم عرار النجد**[٧٣].

(٣/٤) ٣-الدرة الوهاجة في نسب صنهاجة:

ذكره خير الدين الزركلي، حيث قال: "**صنف نيفا وثلاثين كتابا، منها: الدرة الوهاجة في نسب صنهاجة**"[٧٤].

(٣/٤) ٤-تاريخ الدولة العلوية:

يُعَدّ في حكم المفقود، أشار له ابن سودة في دليله، ويرجح الدكتور حسن الفرقان "أن يكون المشرفي قد أدمجه في كتاب مشموم عرار النجد"[٧٥]، بينما يرى الدكتور عبد الحق المشرفي أنه هو الباب السادس من كتاب الذخيرة[٧٦].

(٣/٤) ٥-الرحلة العريضة لأداء حج الفريضة[٧٧]:

يصنف ضمن أدب الرحلات الحجازية، اطلع عليه ابن سودة[٧٨]، ويعد في حكم المفقود حاليًا.

(٣/٤) ٦-جواب على سؤال السند لأبي الحسن علي بن طاهر المدني لعلماء فاس:

اعتبره العباس بن إبراهيم من أعظم مؤلفات العربي المشرفي، حيث أجاب فيه عن لغز نظمه علي بن طاهر وألقاه على علماء فاس[٧٩].

(٣/٤) ٧-درأ الشقاوة عن السادات درقاوة:

يُعَدّ في حكم المفقود حاليًا، ذكره العباس بن إبراهيم[٨٠].

(٣/٤) ٨-الدر المكنون في الرد على العلامة كنون:

من الكتب المفقودة، انتصر فيه المشرفي "لأصحاب الطرق [الصوفية]، وَرَدَّ فيه على المخالف ردًا شنيعًا خرج فيه عن الرد الشرعي"[٨١].

(٣/٤) ٩-المشرفي الحمزاوي لقطع فؤاد الخبزاوي:

ذكره ابن سودة في دليله[٨٢] وهو في حكم المفقود حاليًا.

(٣/٤) ١٠-عجيب الذاهب والجائي في فضيحة الغالي اللجائي:

ذكره ابن سودة في دليله، حيث أقر بوجود نسخة منه في خزانة محمد بن إبراهيم الكتاني[٨٣].

(٣/٤) ١١-النجم الثاقب:

في حكم المفقود حاليًا.

(٣/٤) ١٢-الحسام المشرفي للمهاجر المقتفي:

أشار له المشرفي في كتابه الذخيرة[٨٤].

(٣/٤) ١٣-نزهة الماشي في قبائح العياشي المستنغامي:

ذكره في كناشة[٨٥].

(٣/٤) ١٤-تقييد في ذم أهل فاس:

حسب مصطفى المشرفي فهو يقع في ورقتين، حيث قال: "جعل تقييدًا في نحو الورقتين في ذم فاس على عادته في الهجو"[٨٦]، كما ذكره أيضا ابن سودة[٨٧].

(٣/٤) ١٥-عقد الجمان الملتقط من قعر قاموس الحقيقة الوسط:

ذكره بشير ضيف[٨٨].

(٣/٤) ١٦-تقاييد على شمائل المصطفى:

في حكم المفقود حاليًا، وهو كتاب في السيرة النبوية[٨٩].

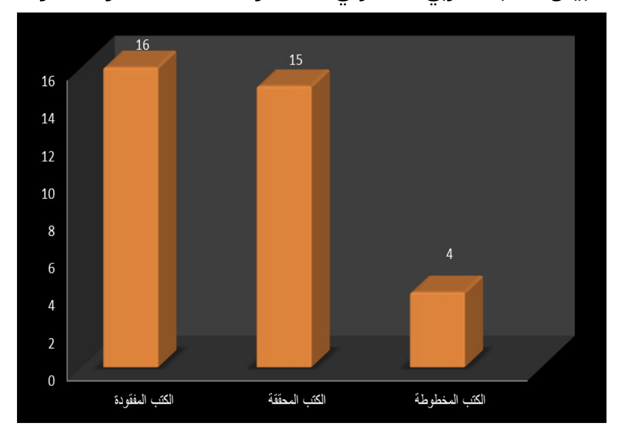
خَاتِمَةٌ

ومن نافلة القول إن هذا التراث الذي خلفه المشرفي في أمس الحاجة إلى مزيد من الاهتمام والعناية من طرف الباحثين والمحققين للاستفادة منه في تأريخ تاريخ المغرب والجزائر خاصة، وتاريخ المغرب الكبير بصفة عامة، كما يذهب إلى ذلك الدكتور إدريس بوهليلة٩٠، فالرجل وتراثه جدير بأن "ينشر ويقرأ الناس آراءه في معاصريه وفي أحداث وطنه وأحداث العالم الإسلامي والمغرب الأقصى التي عاشها وشارك فيها باندفاع وحماس، ولا نريد لتراثه أن يضيع"[٩١]. فالرجل كان من بين العلماء الفاعلين في مغرب القرن التاسع عشر، وذلك لما تميز به من الإلمام بفنون مختلفة، من تاريخ وأدب وفقه. وعسانا أننا أنصفنا الرجل ولو بالقليل، وأضفنا لبنة من لبنات البحث والتقصي عن حياته ومؤلفاته الغزيرة.

الملاحق

الشكل رقم (١)

مبيان لكتب العربي المشرفي المخطوطة، المحققة، والمفقودة



الهَوامِشُ:

(١) عبد الرحمان ابن زيدان: **النهضة العلمية على عهد الدولة العلوية**، تحقيق مصطفى الشابي، تقديم عبد الحق المريني، المطبعة الملكية الرباط، ٢٠١٦.

(٢) شرف عبد الحق، **العربي بن عبد القادر بن علي المشرفي حياته وأثاره**، مذكرة ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، ٢٠٠٧.

(٣) يُعرف المشرفي نفسه قائلاً: "العربي بن عبد القادر بن علي بن مسعود بن أحمد بن أبي جلال الأصغر بن أحمد بن أبي جلال الأكبر بن عمر بن الصديق، ينتهي نسبنا إلى عيسى بن إدريس"، العربي المشرفي: **ديوان نظم في مَنْ أيقظ للدين جفن الوسن**، مخطوط الخزانة الحسنية، رقم ٥٣١٠، ص ١١١ أ.

(٤) الفرقان الحسن: **أدبيات الأوبئة في مغرب القرن ١٩، نماذج أقوال المطاعين في الطعن والطواعين للعربي المشرفي**، منشورات التوحيدي، الرباط، ٢٠١٤، ص ٩.

(٥) ابن إبراهيم (العباس المراكشي): **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، ١٩٧٤، ج ٩ ص ٢٧، عبد السلام بن عبد القادر بن سودة: **إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع**، ضمن **موسوعة أعلام المغرب**، تنسيق وتحقيق محمد حجي، دار الغرب الاسلامي، بيروت ١٩٩٦، ج ١، ص ٣٣٠، ج ٨، ص ١٣١٣، ابن زيدان عبد الرحمن: **معجم طبقات المؤلفين على عهد الدولة العلوية**، تحقيق حسن الوزاني، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط ٢٠٠٩م، ص ٤٠٣، عبد الحفيظ بن محمد الطاهر الفاسي: **معجم الشيوخ المسمى رياض الجنة أو المدهش** المطرب، صححه **وخرج حواشيه وعلق عليه عبد المجيد خيالي**، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢، ص ١٤٦، أبو القاسم سعد الله: **أبحاث وأراء في تاريخ** الجزائر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٠، ج ٢، ص ١٧٥، الفرقان حسن: **أدبيات الأوبئة في مغرب القرن ١٩**...م. س، ص ١١- ١٢.

Michaux-Bellaire, Edouard, **Les musulmans d'Algérie au Maroc,** Archives marocaines, Volume 11, 1907, pp 1- 116.

(٦) يرى الدكتور حسن الفرقان أنه ولادة العربي المشرفي "كانت في مطلع العقد الأول من القرن التاسع عشر"، الفرقان حسن: **أدبيات الأوبئة في مغرب القرن ١٩**...م. س، ص ١٣.

(٧) أبو القاسم سعد الله: **أبحاث وأراء**...م. س، ج ٢، ص ١٧٥، نويهض عادل: **معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر**، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، ١٩٨٠، ط ٢، ص ٣٠٣، في حين جانب الصواب عبد السلام بن سودة حينما عده من مواليد تلمسان، عبد السلام بن عبد القادر بن سودة: **إتحاف المطالع**... م. س، ج ٨، ص ١٣١٣.

(٨) عن الأسرة المشرفية وأدوارها أنظر شرف عبد الحق، **العربي بن عبد القادر بن علي المشرفي حياته وأثاره**، مذكرة ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، ٢٠٠٧، عليو محمد: **الحياة الاقتصادية والاجتماعية في**

منطقة معسكر خلال القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر (١٧٠١ـ١٨٣٠)، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، جامعة معسكر، ٢٠٠٩، بوجلال قدور: **العلم والعلماء في بايلك الغرب ١٧١١-١٨٣٠ معسكر ومازونة نموذجا**، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، المركز الجامعي مصطفى اسطنبولي، قسم التاريخ، ٢٠٠٩، سمية مصدق: **أشراف غريس من خلال مصادر النسب ما بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر للميلاد (١٧ - ١٩م)**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر، ٢٠١٦.

(٩) الفضيلي إدريس: **الدرر البهية والجواهر النبوية في الفروع الحسنية والحسينية**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، ١٩٩٩، ج ٢، ١٥٤.

(١٠) ياقوتة النسب الوهاجة ص ٢٣.

(١١) حدد العربي المشرفي بنفسه تاريخ هجرته، حيث جعله في جمادى الثانية ١٢٦٠هـ/ ١٨٤٤م، واعتبره حدا فاصلا بين مرحلتين مهمتين في حياته، ولخص ذلك في البيتين التاليين:

وفـي الستين من هذا القرن نظمتـها
وفي حلل الأهوال كنت أرفل
وفي ثالث عشر القرون أسيـــــدي
وفي شهر جمادى الثاني كان التحول.

العربي المشرفي: **كناشة**، مخطوط المكتبة الوطنية بالرباط ٢٠٤ ك، ص ٥٠، الفرقان حسن: **أدبيات الأوبئة في مغرب القرن ١٩**...م. س، ص ٢٧، الزهيد علوي: "**مخطوط " نزهة الأبصار لذوي المعرفة والاستبصار تنفي عن المتكاسل الوسن في مناقب سيدي أحمد بن محمد وولده سيدي الحسن للعربي المشرفي - تقديم وتعريف**"، **المجلة الجزائرية للمخطوطات**، مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا جامعة وهران، الجزائر، المجلد الرابع عشر، العدد الثاني، دجنبر ٢٠١٩، ص٣٦.

(١٢) العربي المشرفي: **كناشة**، الخزانة العامة، رقم، ٢٠٤ ك، ص٩٧.

(١٣) العربي المشرفي: **نزهة الأبصار لذوي المعرفة والاستبصار تنفي عن المتكاسل الوسن في مناقب سيدي أحمد بن محمد وولده سيدي الحسن**، الخزانة الحسنية رقم ٥٦١١ ط، ص ٤٦.

(١٤) العباس بن إبراهيم: **الإعلام**... م. س، ج ٩ ص ٢٧، ابن سودة: **إتحاف المطالع**... م. س، ج ١، ص ٣٣٠، ابن زيدان عبد الرحمن: **معجم طبقات**... م. س، ص ٤٠٣.

(١٥) حسب الباحث فارس كعوان فهي ٢١ مؤلفا على الأقل، فارس كعوان: "**هجرة الأسرة المشرفية إلى المغرب الأقصى في عهد الاحتلال الفرنسي وإسهاماتها الثقافية**"، ضمن كتاب: **الهجرة، الحراك والنفي وآثارهم على الصعيد الثقافي واللغوي**، سلسلة أعمال ملتقيات، مخبر الدراسات والأبحاث حول الرحلة والهجرة، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر ٢٠١٠، ص ٢٢٥، و٢٦ مخطوطًا حسب فتيحة عبد العالي: "**جهود المشرفي المعسكري في التأليف الأدبي**"، مجلة **الحقيقة**، جامعة أحمد دراية – أدرار، الجزائر، العدد ٣٨، ٢٠١٦، ص ٢٤٦- ٢٦٢، و٢٧ مخطوطا حسب محمد السعيد قاصري: "**أبو حامد العربي المشرفي الجزائري وتراثه المخطوط بالمغرب الأقصى**"، مجلة **جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية**، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، المجلد ٢٢، العدد ٢، ٢٠٠٧، ص ٢٤١- ٢٥١، و٢٨ مخطوطا حسب حمدادو بن عمر: "**المعاملات التجارية بالمغرب الأقصى من خلال مخطوط رواج السكة بالزيادة لأبي حامد العربي المشرفي**"، **مجلة دراسات إنسانية واجتماعية**، جامعة وهران ١، العدد ٧، جانفي ٢٠١٧، ص ٢٢٠، ٢٢١، ونفس العدد عند محققا مشموم عرار النجد، أنظر العربي المشرفي: **مشموم عرار النجد والغيطان المعد لاستنشاق الوالي وأنفاس المولى السلطان**، دراسة وتخريج زينب حمودة وأولاد الفاضل العثماني، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الرباط ٢٠١٧، ص ١٧- ١٩ من مقدمة التحقيق، في حين اعتبرها حسن الفرقان قد جاوزت الثلاثين كتابا، الفرقان الحسن، **أدبيات الأوبئة في مغرب القرن ١٩**...م. س، ص ٥٥، بينما عدها الدكتور عبد الحق شرف ٣١ مخطوطا، عبد الحق شرف: **العربي بن علي بن عبد القادر المشرف المتوفى ١٨٩٥م حياته وآثاره**، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، ٢٠٠٧، ص ١١١- ١٦١، و٣٢ مخطوطا في أطروحته للدكتوراه، أنظر العربي المشرفي: **الحسام المشرفي لقطع لسان السابّ الجعرفي الناطق بخرافات الجعسوس سيء الظن الكنسوس**، دراسة وتحقيق (إلى نهاية الترجمة الرابعة)، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية جامعة وهران الجزائر، ٢٠١١، ص ٤١ – ٦٨، وجعلها تقي الدين بوكعبر ٣٦ مخطوطا، أنظر: المشرفي أبو حامد العربي: **رد المشرفي على أبي راس الناصر في قضية النسب**، دراسة وتحقيق تقي الدين بوكعبر، ماجستير جامعة وهران، ٢٠١٤، ص ٤٥.

(١٦) أبو **القاسم** سعد الله: "**مؤلفات المشرفي المعاصر للأمير عبد القادر**، مجلة **الثقافة**، ع ٧٥، عدد خاص بالذكرى المئوية لوفاة الأمير عبد القادر، السنة ١٣، وزارة الثقافة، الجزائر، جوان ١٩٨٣.

(١٧) العربي المشرفي: **الحسام المشرفي لقطع لسان السابّ الجعرفي الناطق بخرافات الجعسوس سيء الظن الكنسوس**، دراسة وتحقيق (إلى نهاية الترجمة الرابعة)، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية جامعة وهران الجزائر، ٢٠١١، **الآيات والحوادث أو: تاريخ المغرب الأقصى في القرن الثالث عشر**، دراسة وتحقيق الدكتور عبد الحق شرف، وهي قيد الطبع حاليا، **رحلة إلى نواحي فاس**، حققها الدكتور عبد الحق شرف، وهي قيد الطبع حاليا، **الرسالة في أهل البصبور الحثالة**،

دراسة وتحقيق الدكتور عبد الحق شرف، وهي قيد الطبع حاليا، **ورقات في رواج السكة بالزيادة**، حققها الدكتور عبد الحق شرف، وهي قيد الطبع حاليا.

(١٨) نذكر منها، **العربي بن علي بن عبد القادر المشرفي المتوفى ١٨٩٥م حياته وآثاره**، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، ٢٠٠٧، ونشرتها وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، ٢٠١١ (١٩٨ صفحة)، **رسالة أخوية من العربي المشرفي إلى السيد عبد القادر بن حليمة نهاية العقد الثامن من القرن التاسع عشر، المجلة الجزائرية للمخطوطات**، جامعة وهران الجزائر، عدد ٥، ٢٠٠٨، ص ١٦٩- ١٨٢، **موقف الحاج العربي المشرفي من الحماية القنصلية من خلال نازلته الرسالة في أهل البصبور الحثالة**، مجلة **الخلدونية للعلوم الإنسانية والاجتماعية**، مجلة علمية محكمة، تصدر عن كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تيارت الجزائر، عدد ٥، ٢٠١١، ص ٢٢٥- ٢٤٤، **"الأمير عبد القادر بين المعارضة والتأييد من خلال كتابات معاصريه العربي المشرفي أنموذجا"**، ضمن كتاب: **الأمير عبد القادر عبقرية في الزمان والمكان**، منشورات مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية، جامعة معسكر، الجزائر، ٢٠١٤، ص ١٦٩- ١٩٢، **"الجزائر في أدبيات رحالة القرن التاسع عشر رحلة المشرفي الجزائري أنموذجا"**، مجلة **الخلدونية للعلوم الإنسانية والاجتماعية**، مجلة علمية محكمة، تصدر عن كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تيارت، الجزائر، عدد ٩، ٢٠١٦، ص ١٠١- ١١٣، **كتابات العربي المشرفي الجزائري المتوفي ١٨٩٥ مصدر من مصادر تاريخ الجزائر خلال ق ١٩**، ***مجلة* آفاق للعلوم**، مجلة علمية دولية محكمة في العلوم الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية، تصدر عن جامعة زيان عاشور الجلفة، الجزائر، عدد ١٠، ٢٠١٨، ص ١٧- ٢٥، **"الغربة والشوق والحنين في كتابات العربي المشرفي المعسكري المتوفى ١٨٩٥م"**، ضمن كتاب: **مدينة معسكر: تاريخ وحضارة**، مخبر البحوث البحوث الاجتماعية والتاريخية، جامعة معسكر، الجزائر، ٢٠١٨، **"إسهامات علماء الجزائر في فقه النوازل بالمغرب الأقصى خلال ق١٩ العربي المشرفي الجزائري أنموذجا"**، ضمن كتاب: **العلم والعلماء في المغارب**، مخبر البحوث والدراسات الاستشراقية في حضارة المغرب الإسلامي، جامعة سيدي بلعباس الجزائر، ٢٠١٨، **الردّ والمجادلة في كتابات العربي المشرفي الجزائري الدرقاوية والتيجانية أنموذجا من خلال كتاب الحسام تقديم وتعليق**، مجلة **دراسات إفريقية**، مخبر البحوث والدراسات الاستشراقية في حضارة المغرب الإسلامي، جامعة سيدي بلعباس الجزائر، ٢٠١٨، **ورقات مشرفية**، دار نور للنشر، ألمانيا، ٢٠١٩ (١٦٩ ص)، **ورقات مشرفية دراسات تاريخية في فكر العربي المشرفي الجزائري المتوفى ١٨٩٥**، مركز طروس للنشر، الكويت، ٢٠١٩، (٢٠٩ ص).

(١٩) لقبه النميشي بـ: "حطيئة زمانه"، أحمد النميشي: **تاريخ الشعر والشعراء بفاس**، طبع بفاس ١٤٢٤م، ص ٩٣.

(٢٠) عبد الحفيظ بن محمد الطاهر الفاسي: **معجم الشيوخ**...م. س، ص ١٤٦- ١٤٧.

(٢١) هو محمد بن علي أبهلول المجاجي (٩٤٥- 1002هـ/ ١٥٣٨- ١٥٩٤م)، نسبة إلى مجاجة، عالم من الزهاد العباد، كانت تشد إليه الرحال في المسائل العلمية، له الباع الطويل العريض في الشعر والقريض، من أهل مجاجة، وله فيها زاوية مشهورة. أبو القاسم محمد الحنفاوي: **تعريف الخلف برجال السلف**، مطبعة بيير فوفتانة، الجزائر، ص ٤٣٣، الطعمي محيي الدين: **تكملة جامع كرامات الأولياء**، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٨، ص ٣٨٣، نويهض عادل: **معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر**، دار النشر مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٩٨٠، ص ٢٨٦، الربيعي بن سلامة وأخرون: **موسوعة الشعر الجزائري**، دار الهدى، الجزائر، ٢٠٠٢، ج ٢، ص ٥٢٥، محمد مفلاح: **أعلام من منطقة غليزان: تراجم منذ القدم إلى غاية مواليد القرن التاسع عشر الميلادي**، دار المعرفة ٢٠٠٨، ص ١٤٤- ١٤٥، شرفي عاشور: **معلمة الجزائر، القامزس الموسوعي: تاريخ، ثقافة، أحداث، أعلام ومعالم**، دار القصبة للنشر، ٢٠٠٩، ص ١٢٧٥، رابح خدوسي: **موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين**، منشورات الحضارة، الجزائر، ٢٠١٤، الجزء الثاني، ص ٥٠٣.

(٢٢) الزركلي: **الأعلام**... م. س، ج٤، ص ٢٢٤، المرعشلي يوسف: **نثر الجواهر والدرر في علماء القرن الرابع عشر، وبذيله عقد الجوهر في علماء الربع الأول من القرن الخامس عشر**، دار المعرفة، بيروت- لبنان، المجلد الأول، ٢٠٠٦، ص ٨١٥، كامل سلمان الجبوري: **معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى سنة ٢٠٠٢م**، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان،... ج٣، ص ٣٧٨، حنفاوي بعلي: **الرحلات الحجازية المغاربية: المغاربة الأعلام في البلد الحرام : دراسة نقدية توثيقية نقدية ثقافية**، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، عمان ٢٠١٨، ص ٤٦٤، **الكتاني**، عبد الحي بن عبد الكبير: **فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات**، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ٢، ١٩٨٢، ج ٢، ص ٥٧٧، وسماها **"ياقوتة النسب الوهاجة في نسب أهل مجاجة"**.

(٢٣) ابن سودة عبد السلام: **دليل مؤرخ المغرب الأقصى**، ص ٨٠، طبعة ١٩٩٧، وقد مدني مشكورا بنسخة منه الأستاذ الدكتور عبد الحق شرف.

(٢٤) **ياقوتة**...، ص ٣٧.

(٢٥) عبد الرحمن الحريشي: **الفهرس الموجز لمخطوطات مؤسسة علال الفاسي**، مطبعة الدار البيضاء، ١٩٩١، ج ١، ص ١٠٢.

(٢٦) مدني مشكورا بنسخة منه الأستاذ الدكتور عبد الحق شرف.

(٢٧) العربي المشرفي: **اليواقيت الثمينة الوهاجة في التعريف بسيدي محمد بن علي مولى مجاجة**، دراسة وتحقيق حمدادو بن عمر والعربي بوعمامة، سلسلة

التراث والدراسات المعاصرة ٣، اتحاد الناشرين المصريين، دار صادر، ٢٠١٢، ١٤٤ صفحة.

(٢٨) رابح خدوسي: **موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين**، منشورات الحضارة، الجزائر، ٢٠١٤، الجزء الثاني، ص ٥١٩.

(٢٩) العربي المشرفي: **طرس الاخبار بما جرى آخر الاربعين من القرن الثالث عشر للمسلمين مع الكفار، وفي عتو الحاج عبد القادر وأهل دائرته الفجار**، دراسة وتحقيق يوسف أخليص، دبلوم الدراسات العليا المعمقة، كلية الآداب ابن مسيك، الدار البيضاء، ٢٠٠٠، وأعيد نشره من طرف الدكتور حساني مختار سنة ٢٠٠٧ عن دار الحكمة في الجزائر.

(٣٠) يذكر حنفاوي بعلي أنه محق ومطبوع، دون أن يذكر محققه أو مكان نشره، أنظر حنفاوي بعلي: **الرحلات الحجازية المغاربية: المغاربة الأعلام في البلد الحرام : دراسة نقدية توثيقية نقدية ثقافية**، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، عمان ٢٠١٨، ص٤٦٥، وعلما أن الكتاب حققه تحقيقا جزئيا الأستاذ عبد المنعم القاسمي، لكنه لم ينشر بعد كما ذكر المرحوم أبو القاسم سعد الله، أنظر شرف عبد الحق: **"في الذكرى الثالثة لرحيل العلامة أبو القاسم سعد الله، رسالة جوابية إلى الدكتور أبو القاسم سعد الله"**، مجلة **الخلدونية للعلوم الإنسانية والاجتماعية**، جامعة ابن خلدون تيارت، الجزائر، العدد العاشر، ديسمبر ٢٠١٦، ص ١٥٦، وقد أكد لي ذلك صديقي الأستاذ الدكتور عبد الحق شرف في لقاء لي معه بالرباط في مارس من سنة ٢٠١٩، أن الدكتور عبد المنعم القاسمي حقق منه القسم الأخير وهو الخاص بالجزائر، القاسمي عبد المنعم، **ذخيرة الأواخر والأوائل فيما ينظم من أخبار الدول للعربي المشرفي**، دراسة وتعليق، مذكرة لنيل الماجستير في أصول الدين، جامعة الجزائر، ٢٠٠١، أما بقية المخطوط فهي في حكم المفقود.

(٣١) عن هذه الرحلة ومضمونها راجع شرف عبد الحق: **العربي بن علي بن عبد القادر المشرفي (ت. ١٨٩٥) حياته وآثاره**، م. س، ص ١١١- ١٢٠، العربي المشرفي: **الحسام المشرفي لقطع لسان الساب الجعفري الناطق بخرافات الجعسوس سيء الظن الكنسوس**، دراسة وتحقي (إلى نهاية الترجمة الرابعة) عبد الحق شرف لأطروحة دكتوراه، جامعة وهران، ٢٠١١، ص ٤١- ٤٤، شرف عبد الحق: **"الجزائر في أدبيات رحالة القرن التاسع عشر، رحلة المشرفي أنموذجا"**، مجلة **الخلدونية للعلوم الإنسانية والاجتماعية**، جامعة ابن خلدون تيارت، الجزائر، المجلد التاسع، جوان ٢٠١٦، ص ١٠١- ١١٣.

(٣٢) ابن سودة: **دليل مؤرخ**...م. س، ج ١، ص ١٥٠.

(٣٣) تحت رقم ٢٦٥٩ ك، نسخها الفاطمي الصقلي في ٥٨ صفحة.

(٣٤) أبو القاسم سعد الله: **أبحاث وأراء**...م. س، ج ٢، ص ١٨٣.

(٣٥) محمد المنوني: **المصادر العربية لتاريخ المغرب**، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ج ٢، ص ٩١.

(٣٦) جانبت الصواب الباحثة فتيحة عبد العالي حينما وسمته بـ **مشموم عرا المجد في الغيطان المعد في لاشتنشاق مولاي السلطان**، وفيه تصحيف كبير جدا لعنوان الكتاب، فتيحة عب العالي: **جهود المشرفي المعسكري**...م. س، ٢٥٥.

(٣٧) الفرقان حسن: **أدبيات الأوبئة في مغرب القرن ١٩**... م. س، ص ٥٧، الهامش ٢١٨.

(٣٨) العربي المشرفي: **مشموم عرار النجد والغيطان المعد لاستنشاق الوالي وأنفاس المولى السلطان**، دراسة وتخريج زينب حمودة وأولاد الفاضل العثماني، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الرباط ٢٠١٧.

(٣٩) العربي المشرفي: **ذخيرة الأواخر**...م. س، ص ٥١.

(٤٠) أنظر العربي المشرفي: **الرد على ابي راس الناصر في قضية نسب أسرة المشارف**، دراسة وتحقيق بوكعبر تقي الدين، رسالة ماجستير، جامعة وهران، ٢٠١٤، ص ٤٣، هامش ١.

(٤١) أنظر العربي المشرفي: **الحسام المشرفي**... م. س، ص ٤٧- ٤٩.

(٤٢) العربي المشرفي: **نزهة الأبصار لذوي المعرفة والاستبصار تنفي عن المتكاسل الوسن في مناقب سيدي أحمد بن محمد وولده سيدي الحسن**، دراسة وتحقيق مولاي الزهيد علوي، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة، ٢٠١٨، معتمدا في تحقيقه على ثلاث نسخ من أصل خمس نسخ، نشرته وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالرباط، ٢٠٢٠.

(٤٣) **نزهة الأبصار لذوي المعرفة والاستبصار تنفي عن المتكاسل الوسن في مناقب سيدي أحمد بن محمد وولده سيدي الحسن**، مخطوط المكتبة الوطنية بالرباط، رقم ك ٥٧٩، ص ٣.

(٤٤) النسخ المعتمدة في التحقيق هي:

- نسخة المكتبة الوطنية بالرباط رقم ك ٥٧٩، تتألف من ٥٤٣ صفحة.
- نسخة خزانة المدرسة النحلية بقرية مزوضة بإقليم شيشاوة، تتكون من ٥١١ صفحة.
- نسخة الخزانة الحسنية بالرباط رقم ٥٦١٦، تتألف من ٦٩٥ صفحة.

في حين لم يعتمد على نسخة زاوية تمكدشت، والتي يعتقد انها النسخة الأصلية بخط المؤلف، ونسخة مكتبة بلدية وهران بالجزائر.

(٤٥) مخطوط المكتبة الوطنية بالرباط ضمن مجموع رقم ١٢٦٤ ك، من الصفحة ٣١٣ إلى الصفحة ٣٢٣.

(٤٦) المشرفي أبو حامد العربي بن علي: **تمهيد الجبال وما وراءها من المعمور، وإصلاح حال السواحل والثغور (أو حركة السلطان مولاي الحسن الأول إلى شمال المغرب ١٣٠٦-١٣٠٧هـ/ ١٨٨٩م)**، دراسة وتحقيق إدريس بوهليلة، منشورات كلية الآداب تطوان، ٢٠١٦، ص ١٩٢.

(٤٧) ابن سودة: **دليل مؤرخ**... م. س، ج ٢، ص ٤٩٤.

(٤٨) محمد المنوني: "**أوضاع نظما ونثرا تصف رحلات السلطان الحسن الأول لتفقد جهات المغرب**"، مجلة **دار النيابة**، السنة السادسة، العدد ٢٢، ١٩٨٩، ص ٥٢.

(٤٩) الفرقان حسن: **أدبيات الأوبئة في مغرب القرن ١٩، نماذج أقوال المطاعين**...م. س، ص ٦١، هامش ٢٦١.

(٥٠) المشرفي أبو حامد العربي بن علي: **تمهيد الجبال وما وراءها من المعمور، وإصلاح حال السواحل والثغور (أو حركة السلطان مولاي الحسن الأول إلى شمال المغرب ١٣٠٦-١٣٠٧هـ/ ١٨٨٩م)**، دراسة وتحقيق إدريس بوهليلة، منشورات كلية الآداب تطوان، ٢٠١٦.

(٥١) أبو حامد العربي بن عبد القادر المشرفي: **رحلة إلى شمال المغرب**، تقديم وتحقيق حنان الفاضلي، مكتبة سلمى الثقافية، ٢٠١٩.

(٥٢) العربي المشرفي: **تمهيد الجبال وما وراءها من المعمور، وإصلاح حال السواحل والثغور**، دراسة وتحقيق حدور بختة، من بداية المخطوط إلى الورقة ٣١ و، رسالة ماستر في التاريخ المعاصر، جامعة ابن خلدون، تيارت ٢٠١٣- ٢٠١٤، ١٧٢ ص.

(٥٣) العربي المشرفي: **تمهيد الجبال وما وراءها من المعمور، وإصلاح حال السواحل والثغور**، دراسة وتحقيق حليمة بن فاطمة، من الورقة ٣٢ ظ إلى الورقة ٦٢ ظ، رسالة ماستر في التاريخ المعاصر، جامعة ابن خلدون، تيارت ٢٠١٣-٢٠١٤، ٢٠١ ص.

(٥٤) أبو حامد العربي بن عبد القادر المشرفي: **رحلة إلى شمال المغرب**، تقديم وتحقيق حنان الفاضلي، مكتبة سلمى الثقافية، ٢٠١٩.

(٥٥) المشرفي أبو حامد العربي: **رد المشرفي على أبي راس الناصر في قضية النسب**، دراسة وتحقيق تقي الدين بوكعبر، ماجستير جامعة وهران، ٢٠١٤، ص ١٠٣، وتوجد نسخ ثلاث لهذا المخطوط، كلها منسوخة عن النسخة الأصلية كما يشير إلى ذلك تقي الدين بوكعبر في أطروحته.

(٥٦) "**العجرفي**" حسب حسن الفرقان، أنظر لفرقان حسن: **أدبيات الأوبئة في مغرب القرن ١٩**... م. س، ص ٦٧، ونفس الأمر عند الدكتور إدريس بوهليلة، أنظر المشرفي أبو حامد العربي بن علي: **تمهيد الجبال وما وراءها من المعمور**... م. س، ص ٣٩ من مقدمة التحقيق، حمدادو بن عمر: **المعاملات التجارية بالمغرب الأقصى**... م. س، ٢٢١، وأيضا عند محققي **مشموم عرار النجد**... م. س، ص ١٨، وبالعودة لمخطوط مشموم عرار النجد نجد فعلا أن العربي المشرفي ذكر اسم كتابه كما يلي: **الحسام المشرفي لقطع لسان الساب الجعرفي( )الناطق بخرافات الجعسوس سيء الظن الكنسوس**، أنظر العربي المشرفي، **مشموم عرار النجد والغيطان المعد لاستنشاق الوالي وأنفاس المولى السلطان**، مخطوط المكتبة الملكية، رقم ١٢٠٨٢ ز، ص ٤ ظهر، وقد قاما محققاه بتصحيف كلمة "**الجعرفي**" وكتباها "**العجرفي**" في الصفحة ١٨ من النص المحقق، والعنوان الصحيح ما أقره الدكتور عبد الحق شرف في تحقيقه، أنظر العربي المشرفي: **الحسام المشرفي**... م. س، ص ١٠٢ من مقدمة التحقيق، ص ١٦٥ من المخطوط المحقق، حيث يقول المشرفي: وَتَرْجَمْتُهُ بـ: **الحسام المشرفي لقطع لسان الساب الجعرفي( )الناطق بخرافات الجعسوس سيء الظن الكنسوس.**

(٥٧) "**أكنسوس**" حسب حسن الفرقان، أنظر لفرقان حسن: **أدبيات الأوبئة في مغرب القرن ١٩**... م. س، ص ٦٧، وأيضا محققا **مشموم عرار النجد**... م. س، ص ١٨.

(٥٨) العربي المشرفي، **الحسام المشرفي لقطع لسان الساب الجعرفي الناطق بخرافات الجعسوس سيء الظن الكنسوس**، دراسة وتحقيق إلى نهاية الترجمة الرابعة، عبد الحق المشرفي، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران، ٢٠١١، وقد أكمل تحقيقه وهو قيد الطبع حاليا.

(٥٩) جانب الصواب الدكتور فارس كعوان حينما جعلها: "**العجالة في أهل البصبور الحثالة**، أنظر فارس كعوان: "**هجرة الأسرة المشرفية إلى المغرب الأقصى**... م. س، ص ٢٣١.

(٦٠) أنظر عبد الحق شرف: **موقف الحاج العربي المشرفي من الحماية القنصلية من خلال نازلته الرسالة في أهل البصبور الحثالة**، مجلة **الخلدونية للعلوم الإنسانية والاجتماعية**، مجلة علمية محكمة، تصدر عن كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تيارت الجزائر، المجلد ٥، ص ٢٢٥-٢٤٤.

(٦١) توجد ضمن مجموع بالمكتبة الملكية بالرباط، رقم ١٣٩١٩.

(٦٢) مخطوط بقسم المحفوظات بالمكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، رقم ١/ ٣٤٣، تضم ١٥ صفحة.

(٦٣) **فتح المنان لشرح قصيدة ابن الونان، أو المواهب السنية في شرح الشمقمقية**، حسب محققا مشموم عرار النجد، أنظر العربي المشرفي: **مشموم عرار النجد**... م. س، ص ١٨.

(٦٤) العربي المشرفي: **أقوال المطاعين في الطعن والطواعين للعربي المشرفي**، دراسة وتحقيق الفرقان الحسن، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، ٢٠٠٣.

(٦٥) الفرقان الحسن: **أدبيات الأوبئة في مغرب القرن ١٩، نماذج أقوال المطاعين في الطعن والطواعين للعربي المشرفي**، منشورات التوحيدي، الرباط، ٢٠١٤.

(٦٦) عبد الرحمن الحريشي: **الفهرس الموجز لمخطوطات مؤسسة علال الفاسي**، مطبعة الدار البيضاء، ١٩٩١، ج ٤، ص ٢٢٤.

(٦٧) العباس بن إبراهيم: **الإعلام**، ج ٩، ص ٢٧.

(٦٨) العربي المشرفي: **الحسام المشرفي**... م. س، ص ٥٠ من قسم الدراسة.

(٦٩) محمد المنوني: **قبس من عطاء المخطوط المغربي**، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٩، ج ٢، ص ٧٦٨.

(٧٠) رغم أن العربي المشرفي قد ذكره في كتابه **مشموم عرار النجد** حيث قال: "وصاحب الترجمة استقصينا أوصافه

المحمودة في تأليف مستقل سميناه **إثمد الجفون فيمن بعهد الله يوفون**"، العربي المشرفي: **مشموم عرار النجد والغيطان المعد لاستنشاق الوالي وأنفاس المولى السلطان**، دراسة وتخريج زينب حمودة وأولاد الفاضل العثماني، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الرباط ٢٠١٧، ص ١٦٩، إلا أن محققا العرار يذكران اسما آخر له حيث سمياه: **إثمد الأبصار في من بعهد الله يوفون**، أنظر الصفحة ١٨.

(٧١) العربي المشرفي: **ذخيرة الأواخر والأول فيما يتضمن من أخبار الدول**، مخطوط المكتبة الوطنية بالرباط، ٢٦٥٩ ك، ص ٥٦.

(٧٢) العربي المشرفي: **فتح المنان في شرح قصيدة ابن الونان**، مخطوط بالخزانة الملكية، رقم ١٢٤٢٧، ص ١٤٥، وقد أهداني نسخة منه الأستاذ الدكتور عد الحق شرف.

(٧٣) العربي المشرفي: **مشموم عرار النجد والغيطان المعد لاستنشاق الوالي وأنفاس المولى السلطان**، دراسة وتخريج زينب حمودة وأولاد الفاضل العثماني، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الرباط ٢٠١٧، ص ١٦٩، حيث قال: "وصاحب الترجمة استقصينا أوصافه المحمودة في تأليف مستقل سميناه **إثمد الجفون فيمن بعهد الله يوفون**".

(٧٤) الزركلي: **الأعلام**... م. س، ج ٤، ص ٢٢٤، كامل سلمان الجبوري: **معجم الشعراء من العصر الجاهلي**... م. س، ج ٣، ص ٣٧٨، ج ٤، ص ٢٠٩، **نثر الجواهر والدرر في علماء القرن الرابع عشر**... م. س، ص ٨٦٥، العربي المشرفي، **الحسام المشرفي** ...م. س، ص ٥١ من قسم الدراسة.

(٧٥) الفرقان حسن: **أدبيات الأوبئة في مغرب القرن ١٩**...م. س، ص ٦٤.

(٧٦) العربي المشرفي: **الحسام المشرفي**... م. س، ص ٤٧ من قسم الدراسة.

(٧٧) جانبت الصواب الباحثة فتيحة عبد العالي حينما سمته بـ **التحفة العريضة في أداء الفريضة**، فتيحة عبد العالي: **جهود المشرفي المعسكري**...م. س، ٢٥٢.

(٧٨) ابن سودة: **دليل مؤرخ** ...م. س، ج ٢، ص ٣٥٣.

(٧٩) العباس بن إبراهيم: **الإعلام**... م. س، ج ٩، ص ٢٧.

(٨٠) العباس بن إبراهيم: **الإعلام**... م. س، ج ٩ ص ٢٧.

(٨١) عبد السلام بن سودة: **دليل**... م. س، ج ٢، ص ٤٥٤.

(٨٢) عبد السلام بن سودة: **دليل**... م. س، ج ٢، ص ٤٨٤.

(٨٣) ابن سودة: **دليل مؤرخ**... م. س، ص ٣٤٠، العربي المشرفي: **الحسام المشرفي**... م. س، ص ٥٩ من قسم الدراسة.

(٨٤) العربي المشرفي: **الحسام المشرفي**... م. س، ص ٥٩ من قسم الدراسة.

(٨٥) العربي المشرفي: **كناشة**، المكتبة الوطنية، ٢٠٤ ك، ص ٨٢.

(٨٦) محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي: **الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية**، دراسة وتحقيق إدريس بوهليلة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، ٢٠٠٥، ج ١، ص ١٤٣.

(٨٧) ابن سودة: **دليل مؤرخ**... م. س، ص ٣١٣.

(٨٨) بشير ضيف: **فهرست معلمة التراث الجزائري بين القديم والحديث: نماذج متنوعة للمعلوم والمجهول**، مراجعة عثمان بدري، ط ٢، الجزائر ٢٠٠٧، ص ٣٥٨.

(٨٩) العربي المشرفي: **الحسام المشرفي**... م. س، ص ٥٤ من قسم الدراسة.

(٩٠) **المشرفي** أبو حامد العربي بن علي: **تمهيد الجبال وما وراءها من المعمور**... م. س، ص ٤٠ من مقدمة التحقيق.

(٩١) أبو القاسم سعد الله: "**مؤلفات المشرفي**... م. س، ص ٧٧.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

الاحتلال الفرنسي لمدينة عنابة
١٨٣٠م - ١٨٣٢م



بورمضان عبد القادر
أستاذ مساعد قسم (أ)
كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية
جامعة ٢٠ أوت ١٩٥٥ سكيكدة – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّص

تميزت علاقات الجزائر وفرنسا طيلة الفترة العثمانية (١٥١٨ – ١٨٣٠م) بعدم الاستقرار، وفي مطلع القرن التاسع عشر وصلت إلى حد القطيعة لعدة أسباب أبرزها قضية ديون القمح التي أدت إلى حادثة المروحة ١٨٢٧م وإعلان فرنسا الحصار البحري على الجزائر، وانتهت إلى الاحتلال الفرنسي للجزائر العاصمة في ٥ جويلية ١٨٣٠م. وفي سياق سياسة التوسع الفرنسية المبكرة في الشرق الجزائري استهدف القادة الفرنسيون مدينة عنابة لأهميتها الاقتصادية والتجارية لفرنسا، لذلك عمل الداي حسين على توجيه تعليمات إلى أحمد باي لحماية هده المدينة خلال فترة الحصار البحري للسواحل الجزائرية (١٨٢٧ – ١٨٣٠م)، والتي كانت تعيش اضطرابات وأوضاعًا صعبة عشية الاحتلال الفرنسي ميزها سوء العلاقة بين سكانها وأحمد باي، وقادة جيوشه بن زقوطة ثم بن عيسى، فقامت فرنسا بثلاث محاولات لاحتلال مدينة عنابة، الأولى كانت بقوات معتبرة سنة ١٨٣٠م قادها الجنرال دامريمون Damrémont وفشلت بسبب المقاومة، والانسحاب المفاجئ للفرنسيين بسبب ثورة باريس، والثانية كانت سنة ١٨٣١م في شكل دعم مادي وعسكري لسكان المدينة ضد أحمد باي قادها النقيب بيغو (Bigot) والقائد هودر (Huder) وانتهت بنكسة فرنسية دبرها إبراهيم باي، والثالثة عام ١٨٣٢م وقادها النقيبين دارمندي (Darmandy) والمملوك يوسف ونجحت في احتلال القصبة والمدينة وانسحاب قوات بايليك قسنطينة.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٢ أبريل ٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر: ٢٠ مايو ٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

الاستعمار الفرنسي؛ الشرق الجزائري؛ الحصار البحري؛ أحمد باي؛ تاريخ الجزائر الحديث

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.168182

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

بورمضان عبد القادر. "الاحتلال الفرنسي لمدينة عنابة ١٨٣٠ - ١٨٣٢م".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة -العدد الثامن والأربعون؛ يونيو ٢٠٢٠. ص ١٣٢ – ١٤٤.

Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: saidhisto6@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

مُقدِّمَةُ

تُعَدّ فرنسا من الدول الأوروبية التي تمتعت بامتيازات في الجزائر، لكن ذلك لم يمنع من توتر العلاقات بين الدولتين لأسباب مختلفة وصلت هذه العلاقات إلى حد القطيعة بعد حادثة المروحة بين الداي حسين باشا والقنصل الفرنسي دوفال **Duval** ١٨٢٧م، التي أدت بعد حصار بحري لثلاث سنوات بين (١٨٢٧ – ١٨٣٠م) لاحتلال فرنسا للجزائر في ٥ جويلية ١٨٣٠م. لم ينتظر الفرنسيون كثيرًا حتى وجهوا أنظارهم إلى مدينة عنابة الساحلية لإخضاعها، وكان لهم ذلك بعد ثلاث محاولات في الفترة بين (١٨٣٠ – ١٨٣٢م) ومن هنا أطرح الإشكالية: بماذا نفسر مسارعة الفرنسيين لاحتلال عنابة؟ هل يعود ذلك إلى معرفة الفرنسيين بضعف الجبهة الداخلية بالمدينة؟ أم لاستعداد جزء من السكان لاستقبال الفرنسيين؟ وكيف احتل الفرنسيون هذه المدينة؟ وبما نفسر سقوطها السهل في الحملة الثالثة؟

ويكتسي هذا الموضوع أهمية بالغة، لأن اهتمام الفرنسيين باحتلال مدينة عنابة كان لإدراكهم أهميتها ليس فقط الاقتصادية والجغرافية فحسب، بل أهميتها بالنسبة لعملية التوسع الفرنسي في الشرق الجزائري، وعاصمته قسنطينة، فلا غرابة أن نرى الفرنسيين يتخذون بعد سنوات قليلة عنابة كقاعدة انطلاق لاحتلال قسنطينة عام ١٨٣٦م في المرة الأولى ثم ١٨٣٧م في المرة الثانية.

أولاً: العلاقات الفرنسية الجزائرية مطلع القرن التاسع عشر

١/١-توتر العلاقات بين فرنسا والجزائر وحدوث القطيعة

على خلفية قضية ديون القمح اتصل حسين باشا (١٨١٨ م-١٥٣٠م) بقنصل فرنسا دوفال[١] وتحدث معه حول قضية القالة التي بنى فيه الفرنسيون بناء، ووضعوا فيها مدافع وقد نفى القنصل هذه الأخبار، وسلم له الداي رسالة إلى ملك فرنسا حول قضية الديون، والقالة، وعشية عيد الفطر ٢٩ أفريل ١٨٢٧م حضر القنصل إلى قصر الداي لتهنئته فسأله عن جواب الملك فرد القنصل بالنفي، فاغتاظ الباشا وضربه بمنشة الذباب، وشتم القنصل، والملك الفرنسي وطرده، وبعد كتمانه للحادثة لأيام أعلم القنصل حكومة بلاده بها أواخر ربيع ١٨٢٧م.[٢]

وكان الداي حسين قد عزل سنة ١٨٢٦م باي قسنطينة محمد منماني، وعين مكانه الحاج أحمد باي[٣] وهو كرغلي، وقد توجه إلى الجزائر صيف ١٨٢٧م في أول حملة للدنوش[٤]، وعاد أحمد باي بعد إتمام الضيافة، وبعدها جاءت مراكب الفرنسيين ووضعت البلونكو (الحصار)[٥].

ويوم ١١ جوان ١٨٢٧م رست الغليوطة **La Torche** بميناء الجزائر، وعلى متنها النقيب كولي **Collet** ،والسيد دوفال، وطلبا من الداي تقديم الاعتذارات عن سلوكه مع رفع العلم الفرنسي على حصون مدينة الجزائر، لكن الداي رفض فأعلنت فرنسا الحصار على السواحل الجزائرية يوم ١٥ جوان ١٨٢٧م، كما أعطت أوامر لوكيل الممتلكات الفرنسية بالقالة بالمغادرة ،وفي ٢٠ أوت ١٨٢٧م غادرت سفينة **Le Volcan** عنابة، وكان على متنها ٢٨ مسافرًا كما غادرت قبلها بيومين السفينة **L'étincelle** من ميناء عنابة تحت حمايتها ١٤٢ باخرة صيد مرجان جلبت من القالة.[٦]

وقد أمر حسين باشا بتحطيم المؤسسات الفرنسية[٧]، وأرسل الضابط سي الحفصي بن عون إلى القالة لمراقبة تنفيذ عملية الهدم بعد مراسلة بينه وبين داي قسنطينة الحاج أحمد باي، الذي كان كما قلنا سابقا بالجزائر لتقديم الدنوش وتلقي تعليمات من الباشا لتزويده بمعلومات عن مقاطعة قسنطينة خلال هذه المرحلة من العداء[٨]، وذكر أحمد باي أنه أرسل إلى الشيخ محمد بومطير[٩] فرس، وبندقية، وبرنوس هذا الأخير أخبره الماركانتي[١٠] بأن الرايس علي الفلوجي جاء من الجزائر وتعرض لمضايقة من الفرنسيين في عرض البحر برأس الحمراء (رأس الحراسة)، ففر إلى جهة جبل الإيدوغ ومن هناك أرسل رجلاً من البلاد إلى عنابة، فأرسلوا له مركبين مع جنود مسلحين وأعيد زورق الرايس إلى عنابة لإصلاحه، وتفقد الرايس علي بطاريات عنابة وطلب إجراء تصليحات للعربات ولواحقها.[١١]

٢/١-احتياطات أحمد باي حول عنابة خلال فترة الحصار البحري (١٨٢٧ – ١٨٣٠م)

وجه أحمد باي رسالة إلى سكان عنابة مؤرخة في ١٤ جوان ١٨٢٧م ضمنها تعليمة صارمة لمراقبة حركة السفن الحربية التي تقترب من الميناء، وهذه الرسالة ذات أهمية الكبيرة كتبت بعد فترة قصيرة من حادثة المروحة بين الداي حسين والقنصل دوفال، وهذه الرسالة لم ترد بها الشخصية الموجهة لها وهي تطبيق لتعليمات الداي التي وجهت إلى عنابة وتكون قد وجهت لكل المدن الساحلية.[١٢]

وأوردت المجلة الأفريقية **Revue Africaine** في عددها رقم ٤٣ لسنة ١٨٩٩م رسالة أحمد باي باللغة العربية، وبداها بتحية لأهل عنابة وشيخها، والآغا (قائد القوات)، والنوبجية (الحامية)، وأعيان المدينة، وأهلها من إنكشارية (الجنود

النظــاميين)، ومالكيــة (الجنــود الاحتيــاطيين)، والطوبجيــة (المدفعيــة)، مـذكرًا إياهــم بـورود أمـر مـن الـداي بجـب طاعتـه وتطبيقـه بجـد وهـو السـهر عـلى حراسـة جهـة البحـر ليلاً ونهـارًا، والوقوف على حراسة الأماكن التي يخشى تسرب العدو منها[١٣].

عين الحاج أحمد باي عمار بن زقوطة حاكمًا على مدينة عنابة في منصب الماركانتي، وأعطى تعليمات لقوات عنابة لمراقبة حركة سفن الحرب (بتاتيل- مراجنية بركاوات الزرقان)، والتي لا يخشى منها يسمحوا لها بالدخول، أما إذا رأوا سفينة قراصنة متجهة للمدينة يوجهوا إليها الأضواء، فإن لم تتوقف يرموا عليها بدون كور أو حجر، وإن تمادت وبلغت حد الرمي يرموا عليها الكور والحجر ويغرقونها ويهلكوها.

كما حذر أحمد باي من المساس بالفرنسيين بعنابة أو لمس أمـوالهم فعلـيهم آمـان اللـه، وإن أرادوا الرحيـل إلى بلـدهم بطواعيـة فلهـم ذلـك، واشـترط عـلى مَـنْ أراد الـذهاب طواعيـة كتابة تعهد بأنه ذهب طواعية ولم يجبر، ومَنْ بقي فهو في أمان، وينطبق ذلك على بقية المسيحيين بعنابة[١٤] كما ألح أحمد باي على ديوان عنابة، وعسكرها، وأهلها بتشديد الحراسة متمنيا الخير لأهل المدينة، مذكرًا إياهم بعدم ترك الفرنسيين يأخذوا الجير والأجـر والعمـال مـن عنابـة إلى القالـة[١٥]. وكتـب أحمـد باي إلى الـداي حسـين يخـبره بتطبيـق تعليماتـه بحـزم اتجـاه أي سـفينة تقترب من عنابة، كما أخبره بأن الخسورجية (الجنود الأصافيون) قد غادروا قسنطينة بعتادهم وتوجهوا نحو عنابة، وبأنه أمر أحد الموريسكيين لمراقبة الوضع بعنابة، وحالة الحراسة، وإصلاح الثغـرات، وكلفـه بإرسـال نجـارين محترفـين مـن قسـنطينة إلى عنابة للحاق بنجاريها لصنع خشب البنادق[١٦].

كما أرسل أحمد باي رسالة إلى الداي حسين يخبره فيها بأنه وصل إلى عنابة يوم ٢٨ جوان ١٨٢٧م، وتلقى رسالتين واحدة من علماء بونة، والثانية من ابن الماركانتي الحاج المكي وأخبروه بأن باخـرة وسـفينة قراصـنة فرنسـيتين قـد دخلتـا إلى ميـناء عنابـة، وصعد على متنها الوكيل وممثلي الشركة ومواطنين ساكنين بعنابة، وقام سكان عنابة بغلق أبواب منازل هؤلاء وحراستها ليلاً عـبر المدينـة[١٧]. وفي رسـالة أخـرى مـن أحمـد باي إلى الـداي حسـين بتــاريخ ٢١ جويليــة ١٨٢٧م، أورد فيهــا بــأنه كتــب إلى الماركانتي بعنابة بخصوص أي سفينة حربية فرنسية أن يسارع إلى قـدفها بالكـرات، كمـا وجـه أوامـر إلى الخليفـة ليتكفـل هـو ورجاله قرب عنابة لمراقبة وضعية المدينة والاستعداد للدفاع عنها ومتابعة ما يجري يعلمه فيها ليل نهار[١٨].

كما وجه أحمد باي رسالة إلى الداي حسين يعلمه فيها بأن سكان عنابة رأوا في ماي ١٨٣٠م سفن تطل ثم تختفي، فأمدهم بمئة بندقية[١٩]، وأورد النقيب ميترو (Capitaine Maitrot) في مؤلفه بونة العسكرية **Bône Militaire** بأن أحمد باي أرسل الخيسورجية (جنود الاحتياط) من قسنطينة إلى عنابة) مزودين بالخـيم، والمؤونـة، والمـاء، وأمـر الماركـانتي أن يـوفر لهـم كـل حاجياتهم واستخلص أحمد باي من هذا الأخير المعطيات وأخبر بها الداي بأن كل شيء هادئ ومرتب بعنابة وضواحيها سواء عـلى الأرض أو في البحـر. وكانــت حاميــة عنابــة مكونــة مــن مسـاعدين (احتيـاطيين) غـير محـدد عـددهم، ورمـاة، وخمـس بطـاريات تـدافع عـن مكـان الرسـو، وبـين ١٨ و٢٠ مـدفعًا بحصـن جنوة، والحامية (النوبة) وتضم ٧١ إنكشاريًا تحت قيادة الأغا[٢٠].

ثانيًا: أهمية مدينة عنابة وأوضاعها عشية الاحتلال الفرنسي

عند دخول الفرنسيين إلى إفريقيا، لم تكن عنابة فقط ميناء رئـيس للمقاطعـة وإنمـا كـذلك كانـت غنيـة بمواردهـا الداخليـة كـالجلود، والصـوف، وخاصـةً الحبـوب، اعتبرتهـا فرنسـا مفتاحًـا وإحدى أبواب بايليك الشرق الجزائري، وكان احتلال هذه المدينة يكتسيـ أهميـة بالغـة مـن وجهـة نظـر التوسـع المسـتقبلي، والسيطرة على مقاطعة قسنطينة[٢١]، ويعتبر ميناء عنابة أهم ميناء على الساحل الشرقي لموقعه الجغرافي المتصل بمنطقة غنيه وأهميته الاستراتيجية على ساحل رائع يحتوي على المرجان ويمكن من العبور نحو قسنطينة،[٢٢] فقد كانت لفرنسا مصالح تجاريـة بعنابـة، والقالـة كمـا كـان للفرنسـيين معرفـة بسـكان المنطقـة وعـاداتهم، ولكـن نفـوذهم تقلـص خـلال فـترة الحصـار (١٨٢٧م-١٨٣٠م)، ولـذلك لا نسـتغرب سـعي الفرنسـيين لاحـتلال مدينـة عنابـة فهـي نقطـة اسـتراتيجية، وهـي الميـناء الـرئيس لإقليم قسنطينة، كما تمثل عنابة بوابة الجزائر من الشرق حيث مضـيق تـونس وصـقلية الـذي يمكـن أن تـأتي منـه قـوات تركيـة لضرب القوات الفرنسية[٢٣].

وحسـب بـوياك **Boyac** فالفرنسـيون كانـت لهـم علاقـات طويلة مع سكان عنابة منذ وجود المحطات بالقالة، وكانت لهم مصلحة مـن التجـارة الـتي كـانوا يمارسـونها والأرباح الـتي كـانوا يجنونهـا مـن المحطـة التجاريـة، وحـتى تسـيطر حكومـة البايليـك عـلى التجـارة عينـت وكيـل يسـمى الماركـانتي، اكتسـب سـلطة قريبة من سلطة حاكم عنابة التي كان عدد سكانها عام ١٨٣٠م بالكاد يقارب بـ ١٥٠٠ نسمة[٢٤].

أما بالنسبة لأحمد باي فقد أغرته خيرات المدينة، وأحوازها، وتجارتها، فأرسل عام ١٨٣٠م أحد أعوان "الماركانتي" بن زقوطة لإحصاء مداخيل ومخروجات الميناء من كل أنواع التجارة، كما أرسل أحمد باي شخص آخر لقيادة المدينة لكن لجنة كانت بصدد التشكل من أعيان المدينة، وهم سي زروق بن سيدي الشيخ، سي أحمد بن سيدي الشيخ، القاضي سي حساين، والقايد السابق سي رجم بن ربيعة (راضية) وقد رفضوا هذا التعيين فحدثت القطيعة مع أحمد باي[٢٥] فرغبة سكان عنابة كانت استعادة حرية التجارة، وتقويض سلطة أحمد باي، فانتظروا سقوط الأتراك بالعاصمة ليعلنوا استقلالهم، وقبل أيام من وصول الفرنسيين جاء وكيل للباي (عمار بن زقوطة) لأخذ قيادة المدينة، لكن اللجنة السالفة الذكر رفضت استقباله ورفضت طلبه بخصوص تسليم البارود[٢٦]، فقد كانت مدينة عنابة تعيش ثورة داخلية معارضة للحكم التركي بقيادة الشخصيات الأربعة يساعدهم ديوان، وقد طردوا الحاج عمار بن زقوطة وابنه الحاج المكي بسبب الغش التجاري وتكوين ميليشيا، كما قرر السكان عدم إرسال ذخائر حربية لأحمد باي، وأعلن ديوان الترك استقلال المدينة عن حكم قسنطينة، وذكر حمدان خوجة أن وفدا عنهم قد ذهب إلى الجزائر لطلب النجدة من الفرنسيين وهو ما سهل على قادة الحملة الأولى ١٨٣٠ الدخول إلى المدينة الضعيفة بصراعاتها[٢٧].

ثالثًا: الحملات الفرنسية لإخضاع مدينة عنابة (١٨٣٠ – ١٨٣٢م)

١/٣-الحملة الأولى ١٨٣٠ وانسحابها المفاجئ

تمكنت فرنسا في ٠٥ جويلية ١٨٣٠م من فتح أبواب الجزائر تحت قيادة الماريشال دي بورمون **De Bourmont**[٢٨]، بعد ثلاثة قرون كما يسميها بوياك **Boyac** من القرصنة ضد العالم المسيحي،[٢٩] وكان على فرنسا احتلال الموانئ الهامة للإيالات، وبمجرد نجاح الحملة بدأت الحكومة الفرنسية تفكر لاستعادة مصائد المرجان، والمحطتين التجاريتين بالقالة، وعنابة اللتين حطمتا خلال فترة القطيعة بين آيالة الجزائر وفرنسا[٣٠]. فمشروعات دي بورمون هي الاحتلال الكلي، لا سيما المدن الساحلية التي أثارت اهتمامه، فقد وجه في شهر جويلية ١٨٣٠ دوبيري **Dupérré** سفينة **La corvette L'écho** إلى مياه عنابة بقيادة السيد قرايب **Graeb** وعلى متنها عدد من سكان عنابة الذين كانوا بالجزائر أيام الاحتلال، وبرفقتهم بعض النبلاء، وكذلك السيد رومبرت **Rambert**[٣١] الوكيل القديم للممتلكات الفرنسية بأفريقيا، وكان يحمل بيان من دي بورمون مترجم إلى العربية، ومهمة رومبرت هي جس نبض سكان عنابة، وتحضير استقبال هادئ للحملة[٣٢]، فقد عاش رومبرت فترة طويلة بعنابة، وله دراية كبيرة بعادات ولغة البلاد، مما سمح له بتقديم معلومات دقيقة ساعدت القادة العسكريين على احتلال عنابة[٣٣].

تلقى الكونت داموريمون **Damrémont**[٣٤] أمر من دي بورمون يوم ٢٦ جويلية ١٨٣٠م لتوجيه حملة بحرية إلى عنابة، قوامها سبعة سفن على متنها ٤٥٠٠ رجل، ومعدات المدفعية بقيادة دامريمون[٣٥] لكن المؤرخ الفرنسي بوياك **Boyac** ذكر أن أمر الحملة أعطاه الأميرال روزاميل **Rosamel**، وخرجت الحملة يوم ٢٦ جويلية ١٨٣٠م وكانت مكونة من ثمانية سفن وهي:

Le sevur, La Guerier, la surveillante, le trédent, l'action, le superb, le volca

وسفينة بريك عليها عشرين مدفعًا، وهذه السفن تحمل فوجين من المشاة وهما الفوج (٦) و (٤٩) يشكلان قوة من ٢٥٠٠ رجل، وفرقة للهندسة، وبطارية ميدانية[٣٦]، وصلت الحملة إلى عنابة في يوم ٠٢ أوت ١٨٣٠م، وتقدمت العمارة الخفيفة التي كان على متنها رومبرت وكان له أنصار بالمدينة، ومن السهل عليه التواصل مع السكان[٣٧]، وكانت المدينة تعيش على وقع الفوضى ضد سلطة أحمد باي، وانقسام السكان بين فئة الأتراك الذين كانوا أقلية، ويسيطرون على القصبة، ويسكنون أعلى المدينة للتحكم في البحر، والعرب يسكنون أسفل المدينة، وحي سيدي عبرا يقطنه اليهود[٣٨].

واستقبل بعض السكان وبينهم الوكيل (رومبرت إ) الجنود بالأطعمة الطازجة، وسارع دامريمون إلى احتلال الأماكن الرئيسة، ووضع بالقصبة الفيلق السادس، أما الفيلقين الثاني والتاسع والأربعون فكلف بحراسة السهل الممتد إلى واد بجيمة[٣٩]، كما شرع دامريمون في تعزيز الدفاعات ضد هجمات العرب، محاولا ربط اتصالات مع القبائل المجاورة[٤٠] دون جدوى لكرهها للمسيحيين أو خوفًا من أحمد باي، كما أن السكان غير متقبلين لديانة أخرى غير ديانتهم الإسلام[٤١].

شكلت هجمات العرب خطرًا على الحامية الضعيفة لدرجة صعودهم الأسوار لمواجهة المدفعيين جسدًا لجسد، وبعد خروج لقواته استطاع دامريمون إرجاعهم بنجاح، واستغل هذا التراجع للاهتمام بالإدارة، وشكل مجلس النبلاء ليكون الوسيط بين الأهالي[٤٢]، وفي ٠٣ أوت ١٨٣٠م سادت حالة من الفوضى بالمدينة، وقيام مظاهرات قام بها المالكيين العرب (الجنود الاحتياطيين)، بينما حاول جماعة الديوان إظهار التحكم

في الوضع ودفع الناس نحو المساجد، أما الفرنسيون فقد سيطروا على القصبة، والحصون، وشكلوا مخيم خشبي أمام باب الربح[٤٣]، وبدأت القبائل من يوم ٠٣ أوت تحمل السلاح، ورجالهم يقتربون من أسوار المدينة، وحتى يظهر الجنرال دامريمون عدم الخوف أمر قواته بخرجة نحو آثار هيبون التي كانت مأوى طبيعي لرجال القبائل[٤٤].

وفي صبيحة ٦ أوت ١٨٣٠م تقدمت فرقة وتمكنت من تسلق التلة، وأوقعت المقاومين العرب في كمين، الدين أظهروا مقاومة، ومات في هذه المعركة أربعة جنود من الفيلق السادس[٤٥]. وفي يوم ٧ أوت ١٨٣٠م تعززت قوات المقاومين، وناوشوا الفرنسيين وهجموا عليهم لكن الضباط والجنود الفرنسيين احتموا بمواقعهم وكبدوا الجزائريين خسائر فادحة[٤٦]، وقد بدأ الإحباط يتسرب إلى صفوف المهاجمين إلى أن ظهر شيخ القالة بن تميم ومعه قوات كبيرة، وفي الحادية عشرة من اليوم نفسه قام العرب بهجومات قوية ووصلوا إلى معاقل الفرنسيين رغم طلقات المدفعية، وأظهروا شجاعة كبيرة، ولم ينسحبوا إلا بعد معركة شرسة جرح فيها قائد المدفعية فوكود Faucoud جروح بليغة. ويوم ١٠ اوت ١٨٣٠م وقع هجوم كبير ضد معاقل الفرنسيين، وقتل منهم إثنين وبترت يد نقيب الهندسة أوسيي Oussier[٤٧].

وفي منتصف ليلة ١١ أوت ١٨٣٠م تسلل المقاومون عبر الأشجار، وهاجموا الفرنسيين مطلقين صيحات قوية (الله أكبر) مصحوبة بإطلاق النار من مسافات قريبة ووصل بعضهم إلى خنادق الفرنسيين، وقتلوا بالحراب، وخسروا المعركة وتركوا ورائهم ٨٦ قتيل (شهيدًا)، وقتل في هذه المعركة زوج أخت أحمد باي[٤٨]، وخسر الفرنسيون جنديين مدفعين ورقيب من الفيلق ٤٩ ورقيب من الفيلق السادس[٤٩].

كانت فرقة دامريمون على وشك تحقيق النصر، لكن جاءه أمر بالعودة إلى الجزائر، فقد وصلت عمارة يوم ١١ اوت ١٨٣٠ من مرسيليا تحمل خبر سقوط شارل العاشر[٥٠]، وهذا بسبب أحداث شهر جويلية بفرنسا فكان إخلاء عنابة حتميًا[٥١]، وحتى يذيع صيته بين السكان ترك لهم كمية كبيرة من الذخائر، والأغذية، وجهز قواته للعودة في حين عادت سرية روزاميل من طرابلس ورست بمياه عنابة، ولكن اضطراب البحر أخر الإبحار إلى يوم ٢٠ أوت ١٨٣٠[٥٢]، وقد تشجع العرب بهذا الانسحاب واحتلوا مواقع الفرنسيين واستخدموها لإطلاق النار عليهم، وقاوم سكان مدينة عنابة قوات باي قسنطينة التي حاولت أن تحتل المدينة وحاصرتها بشدة[٥٣]، وقد حلت قوات عنابة بالجزائر يوم ٢٥ أوت ١٨٣٠[٥٤]. حيث بعث دي بورمون ببرقية إلى وزارة الحربية يوم ١٥ أوت ١٨٣٠م جاء فيها "تلقيت أحداث التي كانت باريس مسرحًا لها الأشياء يمكن أن تتغير في لحظة في وجه جيش الاحتلال الأعمال العدائية التي بدأتها السرايا الإنجليزية في البحر جعلت الوضع حرج للغاية بالنسبة لجيشنا بعنابة ووهران جعلني أستدعيهم[٥٥].

٣/٢-الحملة الثانية ١٨٣١ ونكسة الفرنسيين

بعد إخلاء عنابة في أوت ١٨٣٠م هاجمتها القبائل المجاورة عدة مرات، وكان بقصبة المدينة حوالي مئة تركي في وقت أعلن أحمد باي الحصار على المدينة، وأصبح سكانها يعانون من نقص الغذاء، والمجاعة[٥٦]، فقد عزم أحمد باي الانتقام من خيانة سكان المدينة، وجمع قواته التي يقودها عمار بن زقوطة[٥٧] الذي تمركز على الضفة اليسرى لواد سيبوس، وراسل القبائل لتجميع المقاتلين، واستمر سكان عنابة يتزودون لعدة أشهر عبر أودية واد القبة، وواد بوقراط، ولما تجمع الرجال قام عمار بن زقوطة لمهاجمة المدينة لكن بطاريات القصبة منعته، واستمر الحصار لعدة شهور، ونقصت المعاشات[٥٨] فحاول سكان مدينة عنابة القيام بهجومات ضد بن زقوطة لكن تم إرجاعهم بل وصلت قوات الباي إلى أسوار المدينة التي حاول بن زقوطة تلغيمها لكن لم ينجح بسبب نيران مدفعية القصبة[٥٩].

غادر دي بورمون وخلفه كلوزيل Clauzel[٦٠] يوم ٧ اوت ١٨٣٠م، ووجه حملات عسكرية إلى البليدة، والمدية، ثم وجه أنظاره إلى إقليم الشرق الجزائري وحاكمه أحمد باي الذي رفض الاستسلام فقام كلوزيل بتوجيه من ديلسبس Delesspse قنصل فرنسا بتونس بعقد اتفاقية مع باي تونس لوضع إقليم قسنطينة تحت سلطة ابن أخيه سيدي مصطفى باي مقابل دفع باي تونس مليون فرنك سنويا لفرنسا[٦١]. وكان هذا العزل لأحمد باي بمرسوم صدر في ١٥ ديسمبر١٨٣٠م، وأكد بمرسوم آخر يوم ١٨ ديسمبر ١٨٣٠م، ولكن من الصعب على الباي الجديد سيدي مصطفى الوصول إلى قسنطينة خاصةً أن أحمد باي كان يلح على استعادة عنابة، وهذه الاتفاقية لم تجسد من طرف الحكومة الفرنسية بسبب معارضة وزير خارجية فرنسا سيبستياني Sibastiani لعدم استشارته من الماريشال كلوزيل الذي عاد إلى فرنسا يوم ٢١ فيفري ١٨٣١ واستبدل بالجنرال بيرتزين Bertezen[٦٢].

وفي هذه الفترة كانت سفينة le Brik de Grenadie تمر قرب عنابة، وكان قائدها هودير Houder[٦٣] وهي عائدة من تونس فتوجه إليها ستة من نبلاء المدينة لطلب مساعدات

غذائية كما طلبوا منه مساعدات عسكرية بفرقة من الزواف[٦٤]، فوعدهم بطرح القضية على قائد القوات[٦٥]، وبعد وصوله إلى الجزائر اتصل هودير بالقائد العام بيرتزين وأطلعه على الأوضاع بعنابة وكان هذا الأخير متحفظًا من إرسال قوة عسكرية لكن مراسلة مستعجلة من سكان عنابة حذرت من سقوط المدينة بيد أحمد باي أزالت تحفظه[٦٦]، فجهز فرقة من الفيلق الأول للزواف مكونة من أربعة ضباط، وثمانية صف ضباط، وخمسة وعشرون زوافا يحمل كل واحد ١٥٠ خرطوشة، وصعدت هذه القوات على متن سفينتي La creole و la donis وكانتا معبئتين بكميات كبيرة من المؤن، ومئة بندقية، وستين بذلة موجهة للسكان ممن يريدون الانخراط في الجيش الفرنسي.

كانت فرقة الزواف مكونة من ضابط قديم في الهندسة وهو النقيب بيقو Bigot، أما القيادة العامة فكانت للقائد هودير، وخرجت الحملة يوم ٠٩ سبتمبر ١٨٣١م[٦٧]، ووصلت إلى عنابة يوم ١٣ سبتمبر ١٨٣١م، وكان الفرنسيون يأملون في إخلاص السكان واحتلال المدينة دون نفقات ودماء، ومن جهة ثانية تسريع المفاوضات مع أحمد باي عن طريق أحد الأعوان في تونس[٦٨]. ونزلت القوات الفرنسية في ظروف غير التي كان يأملها الفرنسيون، فقد اشترط السكان بقاء الرايات في المرفأ، وأن يحتل الزواف المسلمين القصبة إلى جانب الأتراك، فالسكان كانوا يبحثون عن الدعم وليس عن أسياد، وتنازل النقيب وأخذت القوات أماكنها في القصبة تمركز أربعون جنديًا وبالمدينة خمسة وسبعون. وفي هذه الظروف وصل إلى المدينة باي سابق لقسنطينة وهو إبراهيم القريتي[٦٩]، الذي كان يعرف القائد هودير بالقسطنطينية[٧٠]، وقد أثار نبلاء المدينة، وسي أحمد بن الشيخ انزعاج الفرنسيين وحفيظة القائد هودير، فقد كان هؤلاء يرون أن السلطة تسحب من أيديهم فسعوا إلى تحريض السكان، وقبائل الجبال للهجوم على عنابة كما غاب عن القائد هودير أن سي أحمد بن الشيخ قد كتب رسالة إلى أحمد باي يبدي استعداده للتمرد على الأتراك والفرنسيين[٧١].

فمدينة عنابة كانت تشهد صراعًا حقيقيًا بين أعيان المدينة، وعلى رأسهم سي أحمد بن الشيخ مستغلاً نفوذه الديني لتجنيد أنصاره ضد السيطرة الفرنسية، وإبراهيم باي الذي تظاهر بخدمة القائد هودير، لكن كان ينتظر الفرصة المناسبة للاستيلاء على القصبة[٧٢]، كما شعر هودير بالحاجة للسيطرة على القصبة وأعتقد بعد مفاوضات مع إبراهيم أنه سيحقق ذلك، لكن إبراهيم باي كان يخطط لمؤامرة فقد زاد من عدد الزواف بالقصبة، ولما لاحظ بعض التراخي بين الفرنسيين استغل الفرصة يوم ٢٦ سبتمبر ١٨٣١م، وصعد للقصبة وأغرى الزواف بالمال، وكذلك الأتراك، وأغلق الأبواب، ورفع علم المسلمين وحياه بثلاث طلقات مدافع[٧٣]، وأحاط وجنوده ببعض الجنود الفرنسيين وأدخلوهم زنزانة، ولما جاء النقيب بيقو ليدخل القصبة وجد الباب مغلقًا فسارع لإخبار هودير الذي حمل السلاح وصعد إلى القصبة فأطلق إبراهيم النار عليه فرد بطلقات نارية[٧٤].

وبتاريخ ٢٩ سبتمبر ١٨٣١م جاءت القبائل وهاجمت الأبواب، وقتل النقيب بيقو بطلقتي مسدس، كما أطلقت المدفعية النار على السفينتين La creole –La donis بالميناء، وخلال التراجع الفوضوي للقوات الفرنسية قتل القائد هودير بطلقة قاتلة وهو يضع رجله للصعود في إحدى القوارب[٧٥]، كما خسر الفرنسيون سبعون رجلا وتسعة بحارة وجرح إثنين وثلاثون، وقد وصلت من الجزائر سفينتين وهما: La cygne و La voltigeur وعلى متنهما ٢٤٠ زوافا تحت قيادة دوفيفي Duvivier[٧٦] الذي حاول القيام بغارة ضد القصبة لكن لم يجد الحماس، وعادت العمارات الأربعة يوم ١١ أكتوبر ١٨٣١م بما بقي من حملة هودير من رجال وعددهم ٤٠ رجلاً وضابطين و ستة صف ضباط.[٧٧]

قبل مغادرة القوات الفرنسية حضر ممثلين عن سكان عنابة إلى سطح La creole للاعتذار، وسافر ثلاثة من نبلاء المدينة إلى الجزائر كمندوبين لتبرير ما حدث،[٧٨] فكان لهذه الحملة صدى كبيرا في فرنسا، وحملت المسؤولية لبرتزين الذي سيخلفه القائد سفاري دو روفيغو Savary duc Rovigo[٧٩] الذي جاء إلى الجزائر في مهمة محددة وهي توقيع اتفاق مع أحمد باي ليقبل بالسيادة الفرنسية ويتخلى عن المطالبة بعنابة[٨٠].

٣/٣-الحملة الثالثة ١٨٣٢م واحتلال مدينة عنابة

بعد فشل حملة القائد هودير، ونكسة الفرنسيين نصب إبراهيم باي نفسه زعيما للقصبة وللمدينة، وكان يثق أكثر في الأتراك الهاربين من قسنطينة بينما قلت ثقته بالسكان ففرض عليهم ضرائب من كل الأنواع ، وقرر مهاجمة جيش عمار بن زقوطة فوقعت بينهما معركة يوم ٠٥ جانفي ١٨٣٢م دامت يومين ولم تكن حاسمة للطرفين ،لكن أحمد باي اعتبرها هزيمة وتخلص من بن زقوطة وعين مكانه الباشا حامبا بن عيسى الذي عسكر قرب عنابة ب ١٨٠٠ رجل بواد الذهب Ruisseau D'or ، وشدد الحصار على المدينة وأغلق الميناء، كما وجه رسالة إلى سكان عنابة يطلب منهم الدخول في طاعة أحمد باي. دام

الحصار ستة شهور من سبتمبر ١٨٣١م إلى فيفري ١٨٣٢م سبب لسكان عنابة المجاعة، وفي ظل هذه الظروف فر ثلاثة وجهاء من المدينة والتحقوا بالجزائر حيث التقوا بالجنرال دورفيغو مستنجدين به وطالبين الصفح عن واقعة القائد هودير[٨١]، وأخبرهم القائد العام بأنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا إلا بعد تأكيد خضوعهم واستسلامهم[٨٢].

كلف دي روفيغو النقيب يوسف[٨٣] قائد الصيادين الجزائريين القيام بمهمة الاستطلاع إلى عنابة، فأبحرت سفينة La Béarnaise[٨٤] يوم ٢ فيفري ١٨٣٢م من الجزائر ووصلت إلى عنابة يوم ٨ فيفري ١٨٣٢م،[٨٥] وكان على متن السفينة الاستطلاعية شخصيات من المدينة أبرزهم مصطفى بن كريم وثلاثة تجار، ولقد رست السفينة يوم ٨ فيفري ١٨٣٢م بقصر العين Casa raine، وحضر مبعوثين من إبراهيم باي، ونزل يوسف وصعد إلى القصبة لمقابلة الباي رغم تحفظ فريارت Freart[٨٦] واستقبله إبراهيم بحفاوة وقرأ رسالة الحاكم العام[٨٧].

بعد مفاوضات صعبة مع إبراهيم باي عاد يوسف إلى الجزائر يوم ١٠ فيفري ١٨٣٢م ومعه رسالتين إلى القائد العام، واحدة من إبراهيم باي، والثانية من نبلاء المدينة، ألحوا فيهما على طلب التموين للمدينة التي شارف سكانها على الموت جوعًا، كما وضح يوسف لدي روفيغو الوضعية السيئة للمدينة، والخوف من تسليم الإخوة بن الشيخ المدينة لبن عيسي، وكان دي رو فيغو مدرك لأهمية احتلال المدينة لكن ليس له القوات اللازمة لتجهيز حملة عسكرية، وكان يرى قبل توجيه الحملة إرسال المؤونة للسكان، ورفع معنوياتهم، ووضع نصب عينيه النقيب دارمندي[٨٨]. وقد وجه تريزل Trézel تعليمات شفوية لدارماندي قائلاً: "امعنوا احتلال المدينة قبل شهر أو ستة أسابيع سأرسل لك القوات للدفاع عنها أو سفينة لدعمك " وكان يوسف مساعدًا لدارمندي مكلف بعد وصول الحملة إلى عنابة بمواصلة طريقه نحو تونس لشراء الخيول[٨٩].

غادر النقيب دارمندي، ويوسف الجزائر على متن سفينة La Gouelet يوم ٢٣ فيفري ١٨٣٢م ومعها سفينة La Bearnaise تجر خلفها سفينة La Cassauba المحملة ب ٣٠,٠٠٠ وجبة غذائية من بسكويت، وفرينة، وأرز، وقائد هذه الأخيرة هو الرايس محمد وقد رست السفن يوم ٢٨ فيفري ١٨٣٢م ونزلا دارمندي، ويوسف ومساعديهم، واستقبلهم جمع من السكان وثمانين تركيًا قدموا لهم عرضًا للفنطازية، وصعد دارمندي، وقواته إلى القصبة واستقبلهم إبراهيم وقدم القنصل دارمندي رسالة الدوق دوروفيغو لإبراهيم قرأها القاضي بصوت مرتفع[٩٠].

دامت المقابلة ساعة من الزمن ثم رافق الباي القنصل ومساعديه نحو المدينة البائسة، وقد عين منزل للقنصل دارمندي مطل على البحر، ونوافذه على الأسوار[٩١]، وبعدها باشر دارمندي مفاوضات مع إبراهيم باي لوضع القصبة بيد الفرنسيين، لكن هذا الأخير كان يريد ربح الوقت وتموين حصنه، وتعقدت الوضعية بغزو بن عيسى ملازم أحمد باي للمدينة[٩٢]؛ ففي ليلة ٤ مارس ١٨٣٢م دخل عرب قسنطينة إلى المدينة ليلاً عبر باب مجاور لمسجد أبي مروان بمساعدة وتوجيه من المفتي والإخوة بن الشيخ، وتوجهوا لفتح باب قسنطينة وهم يصيحون "باركوا السيد بن محمد لأنه طيب القلب الجنرال بن عيسى جاء ليخرجكم من استبداد الخائن إبراهيم، وكانت سياسة بن عيسى هي جعل السكان يلتفون حول أحمد باي، لذلك رددت دوريات بن عيسى "أمنوا الله أمنوا رسول الله الحاج أحمد وعد بمساعدة وحماية كل أبنائه بعنابة مهما كانت أصولهم".[٩٣]

وبعد توغل بن عيسى وجد السكان في حالة من الجوع ووزع الأغذية على السكان وكانت صبيحة هذا اليوم هو عيد الأضحى ما جعل السكان يبتهجون[٩٤]، وفي هذه الأوقات فر دارمندي ورفاقه الثلاثة وبعض المور عبر النافذة مستعملين حبلا، وفي ٠٥ مارس ١٨٣٢م وصل إلى سفينة دارمندي قارب يحمل المفتي والقاضي، وقائد خيالة قسنطينة علي آغا واعتذروا عما حدث وطلبوا من دارمندي التوجه إلى بن عيسى للتفاوض فذهب إليه ووجده عند جسر مبعوجة وتوجها الإثنين إلى ضريح المرابط "سيدي إبراهيم بن تومي"، وبعد نقاش طويل وحاد أقنع دارمندي بن عيسى بتأخير الهجوم على القصبة إلى غاية وصول جواب الحاكم العام، وبعد نهاية اللقاء عاد دارمندي إلى القصبة أين وجد إبراهيم باي في وضعية حرجة. في ٠٧ مارس ١٨٣٢م جاء قارب يحمل رسالة من بن عيسى إلى الحاكم العام دوروفيغو، أخذتها سفينة La Cassauba نحو القالة ثم نقلت إلى النقيب فريارت بتونس لأخذها إلى الجزائر خلال عودته[٩٥].

وفي ١٤ مارس ١٨٣٢م تلقى النقيب فريارت بتونس رسالة من النقيب دارمندي، أخبره فيها بأن مدينة عنابة احتلها بن عيسى، وأنه هو ورفاقه الثلاثة فروا نحو سفينة La Cassauba ووضعيتهم حرجة ويطلبون عودة سفينة La Béarnaise إلى عنابة فأبحرت السفينة في جو مضطرب، ووصلت يوم ٢٦ مارس ١٨٣٢م صباحا إلى خليج عنابة[٩٦]؛ وجد يوسف دارمندي بمياه عنابة فطلب دارمندي من النقيب فريارت

تزويده بثلاثين بحارا ووجد تجاوبًا وحماسًا من ضباط السفينة، واختار أربعة وعشرون بحارًا مسلحين باثني عشر بندقية واثنى عشر سيفًا[٩٧] وفي زوال ٢٦ مارس ١٨٣٢م ذهب دارمندي إلى بن عيسى ودار بينهما حوار مطول، حاول فيه دارمندي إقناع بن عيسى تمديد حالة الهدنة إلى غاية وصول جواب القائد العام، ولكن بن عيسى اعتبر الأمر تضيعًا للوقت، وهدد بشن الهجوم على المدينة في اليوم الموالي، وأخبره دارمندي أنه في حالة هجومه سينسحب بعيدًا عن ميناء عنابة، فقال له بن عيسى افعل ما تريد سنحصل على القصبة في يومين بالقوة إذا لم تسلموها غدا بالاستسلام[٩٨].

في مساء ٢٦ مارس ١٨٣٢م صعدا دارمندي ويوسف إلى الحصن، وعرض دارمندي على إبراهيم لقائه مع بن عيسى وذكره بوعده تسليم القصبة لفرنسا، لكن إبراهيم رفض وثار قائلاً له: "غير ناضج مسيحي هل أكون جبان وأسلم قلعتي إلى الكفار وأكون تحت أوامرك" فصرخ دارمندي قائلاً: "جبان أنت تستحق المخرج الذي ينتظرك سأتركك لوجهتك"[٩٩]. علم الفرنسيون بسفينة **La Cassauba** صباح ٢٧ مارس ١٨٣٢م أن إبراهيم باي أطلق النار على رجاله، وهؤلاء قبضوا عليه، فطلب يوسف الإذن للصعود إلى القصبة لمعرفة ما يحدث[١٠٠]، وقد فر إبراهيم باي ليلة ٢٧ مارس ١٨٢٧م سرًا نحو جبال الإيدوغ، ولجأ إلى المرابط بومعيزة، ولما علم جنود الحامية دخلوا في نقاش حاد حول إمكانية الاستسلام لبن عيسى عوض قبول عرض الفرنسين، لكن الأتراك عارضوا بشدة، وأرسلوا أحدهم إلى سفينة **La Béarnaise** لإخبار النقيبين حول ما يجري فصعدا إلى القصبة ووجه يوسف كلامه إلى الحامية قائلاً: "قرروا ليس لكم وقت أكبر لتضييعه، هل تريدون فتح أبوابكم ل بن عيسى الذي لا تثقون فيه، أو ترغبون أحسن في التعامل مع الفرنسيين أصدقائكم الوحيدون والذين سيحمونكم". لم ينتظر يوسف واقترب من فتحة مطلة على البحر، ووضع فيها مسحوق مشع وهي الإشارة المتفق عليها هو ودارمندي لإعلان نجاح الخطة[١٠١]، وكانت سفينة **La Béarnaise** قد اقتربت من الشاطئ صخرة الأسد وأنزلت القوات التي ستدخل الحصن وكانت الفرقة مكونة من:

- النقيب دارمندي قائدًا.
- الملازم دوفريقات دي قويدك (**De Gouedic**).
- تلميذ القسم الأول كورنوليير لوسونيير (**Cournulier-lucinier**).
- الماريشال كولومب (**Colombe**).
- الماريشال شاني (**Chany**).
- ٢٤ بحارًا.
- طفل طبال[١٠٢].

نزلت هذه القوة شمال صخرة الأسد، وواجهتها صعوبات عند صعود المرتفعات ذات الحشائش الطويلة، ولما وصلوا تحت الأسوار وجدوا يوسف ينزل بحبل فصعد به أفراد الفرقة إلى الحصن، وحضر قادة القصبة لإعلان خضوعهم وهم حسين باشاوش الأتراك، القايد عمر، إبراهيم آغا، وكليب عمر باشاوش الطوبجية (المدفعية) وتوجه لهم يوسف قائلا: "المسلمون في هذا الخطر الذي أنتم فيه جئتم لطلب الفرنسيين لمساعدتكم ساعدتكم في الخروج من المشاكل انطلاقًا من هذه اللحظة أنتم مجندوا فرنسا وإذا لم يكن واحدا منكم غير مرتاح سأقطع رأسه"[١٠٣]. بعد أن علم بن عيسى بسيطرة الفرنسيين على القصبة بعث برسالة إلى دارمندي جاء فيها: "قنصل لقد خدعتني عندما وضعت ثقتي فيك لكن بعون الله أتمنى قريبا أن تندم" وكان جواب دارمندي "لم أخدعك لأني لم أعدك بشيء لقد قمت بمجهودي حتى لا تبتعد عني ونواصل علاقتنا الحسنة وهذا ما أنا حاضر للقيام به دائمًا"[١٠٤].

حاول بن عيسى لاختراق القصبة دون جدوى، رفع معسكره وتخلى عن المدينة ففي ٢٨ مارس ١٨٣٢م خرجت قوات بن عيسى محملة بالمواشي، وفي الغد شوهد سكان عنابة وهم يبتعدون عن المدينة التي أصبحت بيد الفرنسيين[١٠٥]. في ١٥ ماي ١٨٣٢م نزل بعنابة الجنرال دوزر**D'uzer**[١٠٦] قائد للقوات بها، أما دارمندي فشغل مهنة نائب متصرف إداري **sous-intendant** وقد جلب دوزر معه عدة كتائب، وكتب دوزر ما ملخصه: "إن مهمة الفرنسيين هي شريفة وهي الإتيان بالحضارة لأفارقة عنابة واحترام ملكياتهم، وأعرافهم، وعاداتهم، ودينهم ولسنا منبهرين بأن نبين لهم بأننا الأقوى ولكن بأننا عادلين وبهذه الأدوات مجتمعة سيحترمون ويحبون فرنسا"[١٠٧]، أما النقيب يوسف فقد رقي إلى قائد فرقة الخيالة الشرفية **légion d'honneur**[١٠٨].

بقي إبراهيم ينتقل من قبيلة إلى قبيلة أخرى لخوض الثورة ضد الفرنسيين، واستعان بأحد المرابطين وجمع بين أربعة آلاف وخمسة آلاف رجل وهجم على مدينة عنابة يوم ٢٢ أوت ١٨٣٢م، ثم انتقل إلى حواف بحيرة فزارة على بعد خمسة محطات عن عنابة، وجمع بين ١٢٠٠ و١٥٠٠ رجل وجاء تحت أسوار المدينة يوم ٠٨ سبتمبر١٨٣٢م، وقام بنهب الحقول، وخرجت قوات يوسف

واشتبكت مع قواته وقتلت ٢٠ رجلاً وخسر الفرنسيون أربعة أو خمسة جنود وكانت هذه المعركة آخر معركة لإبراهيم تحت أسوار المدينة(١٠٩).

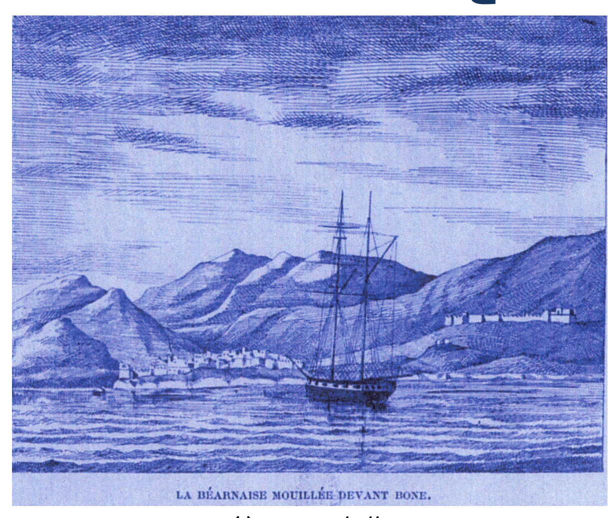
خَاتِمَةٌ

إن البحث في تاريخ التوسع الفرنسي مازال يحتاج إلى مزيد من الدراسات، والأبحاث قصد الإلمام باستراتيجية الاستعمار الفرنسي وسياسته التوسعية في الجزائر، وهذا يتأتى بتوسيع مجال البحث، وتقصي الحقائق، بالاعتماد على الوثائق الأرشيفية والدراسات الجادة الموضوعية سواء لمؤلفين فرنسيين أو جزائريين وأجانب.

ومن خلال هذه الدراسة المتعلقة باحتلال مدينة عنابة بين الفترة ١٨٣٠م ١٨٣٢م توصلت إلى النتائج التالية:

- إن العلاقات بين الجزائر وفرنسا كانت تشوبها توترات، وعرفت مدًا وجزرًا لكن قضية الديون وتحصينات القالة عجلت في تدهورها فكانت حادثة المروحة ٢٩ أفريل ١٨٢٧م بمثابة آخر مسمار في نعش هذه العلاقات.
- إن إعلان فرنسا للحصار على الجزائر بتاريخ ١٥ جوان ١٨٢٧م دفع بالداي حسين إلى توجيه تعليمات لقادة البايليكات لتعزيز الحراسة.
- ساهمت احتياطات أحمد باي حول مدينة عنابة في الحفاظ على المدينة من هجومات بحرية فرنسية محتملة، فقد كان أحمد باي يتبادل الرسائل مع الداي حسين حول الأوضاع ببايليك الشرق، خاصة بساحل منطقة عنابة نظرا لأهميته بالنسبة للفرنسيين.
- رغم جهود أحمد باي اتجاه سكان عنابة وتطميناته، فإن علاقة السكان معه كانت متدهورة وهذا بسبب ممارسات أعوانه التسلطية خاصة بن زقوطة وأبناءه الحاج المكي وعمار ما دفع السكان لعدم التعاون وغلق الأبواب أمامهم.
- تميزت الأوضاع بمدينة عنابة بأنها سيئة عشية الاحتلال فإضافة لسوء الجانب المعيشي كانت المدينة تشهد عدم استقرار داخلي ترجم في ثورة غداة سقوط سلطة الأتراك بالعاصمة.
- استغل القادة الفرنسيون ظروف المدينة وحصارها من طرف أحمد باي في تهيئة الأجواء لاحتلالها، معتمدين على شخصيات أهلية وأخرى فرنسية، ما مكنها من دخول المدينة مطلع أوت ١٨٣٠م، لكنها تلقت مقاومة عنيفة من رجال القبائل المنضوين تحت أحمد باي.
- ساهمت العلاقة السيئة بين إبراهيم باي القريتي، وأحمد باي في إضعاف روح المقاومة بالمدينة، فكان من الأجدر على الرجلين تناسي الأحقاد ومواجهة العدو المشترك، بدل استنزاف جهودهما دون نتيجة.
- لعب كل من النقيبين دارمندي ويوسف دورًا خطيرًا في إخضاع مدينة عنابة للاحتلال الفرنسي، بما تميز به من مكر ودهاء في علاقتهما بإبراهيم باي من جهة، وبن عيسى من جهة ثانية، ما مكن من احتلال القصبة دون مقاومة رغم أن مهمتهم في البداية، كانت فقط تقديم الدعم لسكان المدينة لمواجهة الحصار.
- إن احتلال مدينة عنابة ١٨٣٢م، قد أثار البهجة في الأوساط الفرنسية، لما تمثله المدينة من أهمية كبيرة لمستقبل التوسع الفرنسي، لذلك علق الجنرال سولت **Soult** على الحدث بقوله: "إنه أجمل عمل عسكري للقرن"، وبعد خمس سنوات شكلت عنابة قاعدة انطلاق لاحتلال قسنطينة عام ١٨٣٧

الملاحق

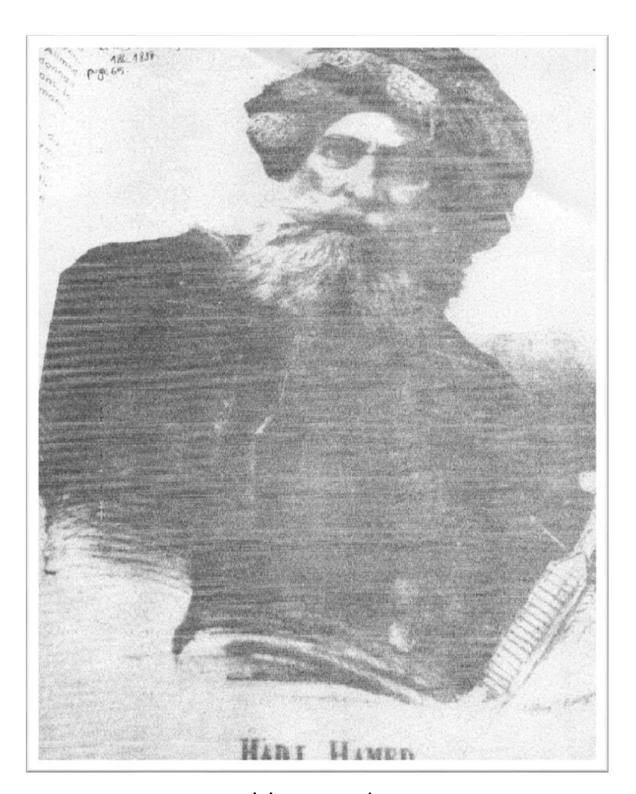


الملحق رقم (١)

سفينة La Béarnaise راسية قبالة مدينة عنابة

المصدر:

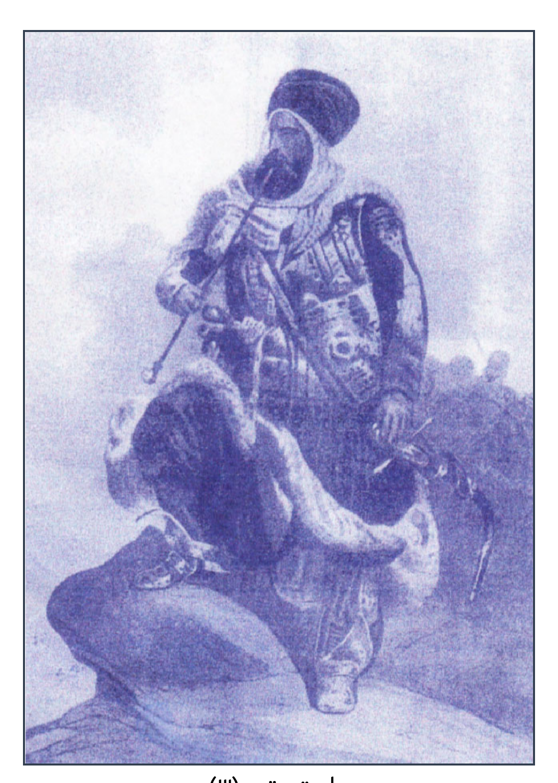
Source: G.C. De Cornulier-lucinier. La prise de Bône et Bougie.1832-1833.d'apres des documents inédite, P lethie lieux, librairie éditeur, Paris P143



ملحق رقم (٢)

الحاج أحمد باي آخر بايات قسنطينة

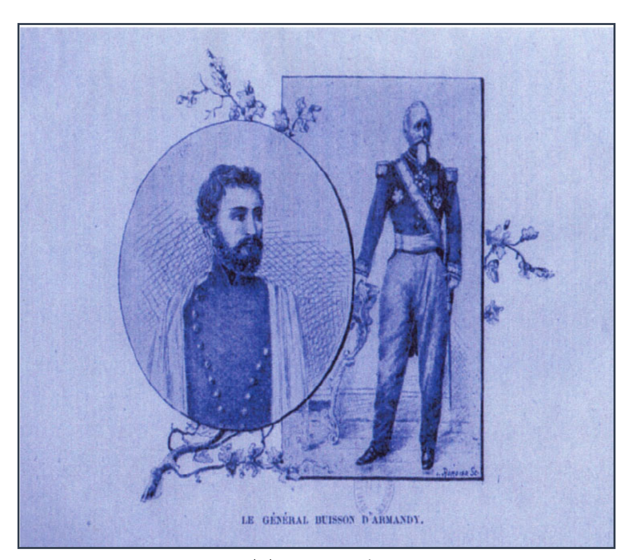
Source: Tamimi Abd el jalil,Le Beylik de constantine et Hadj Ahmed Bey,P65



ملحق رقم (٣)

الجنرال يوسف

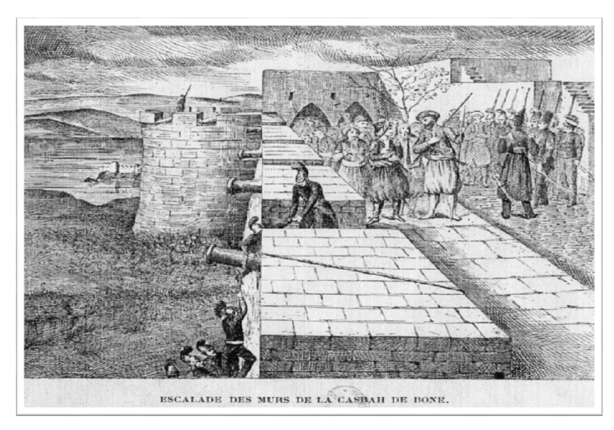
المصدر: أبو القاسم سعد الله، (٢٠٠٧) تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء التاسع، الفهارس العامة، طبعة خاصة، دار البصائر للنشر والتوزيع، ص ٣٤٠.



ملحق رقم (٤)

الجنرال دارمندي

Source: G.C. De Cornulier-lucinier. La prise de Bône et Bougie.1832-1833.d'apres des documents inédite, P lethie lieux, librairie éditeur, Paris. P 91.

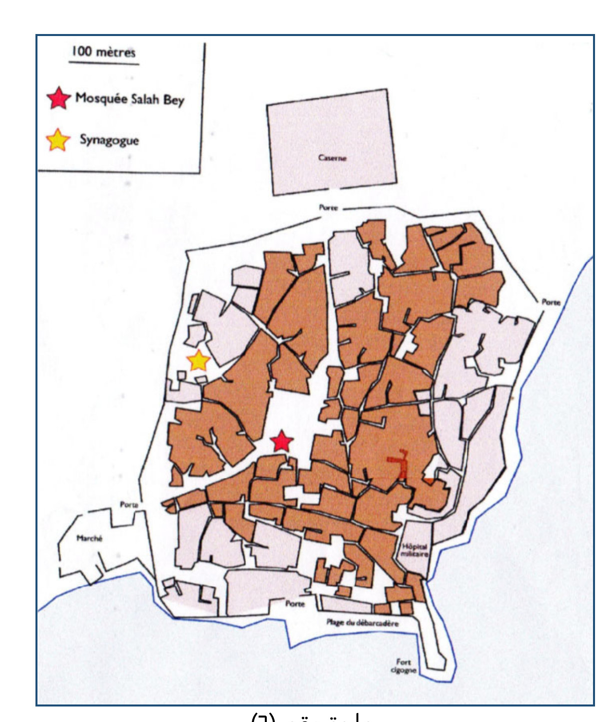


ملحق رقم (٥)

تسلق أسوار قصبة مدينة عنابة من طرف الفرنسيين

أواخر مارس ١٨٣٢م

Source: G.C. De Cornulier-lucinier. La prise de Bône et Bougie.1832-1833.d'apres des documents inédite, P lethie lieux, librairie éditeur, Paris.p179



ملحق رقم (٦)

مخطط مدينة عنابة غداة الاحتلال الفرنسي ١٨٣٣م

Source: Higo Vermenen, (2015) Les Italiens a Bône, migration méditerranéen et colonisation de peuplement en Algerie 1865-1940, Thése Doctorat, Directeur Claude Chaleard, Université Paris Ouest, P. 270.

الهَوامِشُ:

(١) دوفال هو آخر قنصل فرنسي في الجزائر قبل الاحتلال، وكان في نفس الوقت تاجرًا، وكانت مواقفه الشخصية سببًا في الأزمة التي وقعت بين الجزائر وفرنسا، انظر: حمدان بن عثمان خوجة، **المرآة** تقديم تقريب وتحقيق محمد العربي الزبيري منشورات Anep الجزائر ٢٠٠٦، ص١٤٧.

(٢) محمد زروال، **العلاقات الجزائرية الفرنسية (١٧٩١ – ١٨٣٠م)**، مطبعة دحلب، الجزائر ١٩٩٤، ص١٩.

(٣) **أحمد باي**: هو أحمد بن الشريف ولد سنة ١٧٨٤م من أب تركي وأم جزائرية تنتمي إلى عائلة بن قانة حضر الحملة الفرنسية على الجزائر ١٨٣٠م، وقاوم الفرنسيين حتى وفاته عام ١٨٥٠م. انظر: بن نعيمة عبد المجيد وآخرون، **موسوعة أعلام الجزائر ١٨٣٠-١٩٥٤**، الجزائر ٢٠٠٧، ص٣٩.

(٤) وهي رحلة كان يقوم بها البايات كل ثلاث سنوات إلى الجزائر لتقديم تقرير حول الأوضاع بالبايليك، وتقديم اللازمة للباشا. انظر: إبراهيم مياسي، **لمحات من جهاد الشعب الجزائر**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ٢٠٠٧، ص١٥٢.

(٥) أحمد توفيق المدني، **مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر ١٧٥٤م--١٨٣٠م**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ١٩٧٩، ص١٦٤.

(٦) أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص ١٦٠-١٦٢.

(٧) وهي حصن فرنسا (الباستيون) عنابة، رأس الزهور القل.

(8) Feraud Charles, démolition des Sociétés Francaise a el Kala 1827, Revue Africaine, Volume 17, Année 1873, pp141-143.

(٩) بومطير هو قائد القبائل المجاورة للقالة المعروف عند التجار الفرنسيين بشيخ المعزولة.

(١٠) حسب شارل فيرو فإن الماركانتي هو عون للتجارة مع الأمم الأوربية وقد أعطاه الباي سلطات تعادل تلك التي بحوزة حاكم عنابة.

(11) Feraud,ch, op,cit,pp425-426.

(12) Bigonet, E, Lettre du Bey de Constantine1827, R.A, Volume N43, Année 1899, p172.

(13) Ibid, p175.

(14) Ibid, pp174-175.

(15) Ibid, p177.

(١٦) السعيد د حماني، **من هيبون بونة إلى عنابة، تاريخ تأسيس قطب حضري**، منشورات مؤسسة بونة للبحوث والدراسات، ط١، واد القبة، عنابة، ٢٠٠٧، ص ١٦٣.

(17) Maitrot (Capitaine) Bône Militaire 44 siècles de lutte (1912) présentation par Mohamed Lakhdar Boubaker et Saïd Dahmani, édition association Amis et élèves, Hassan El Annabi, ARAJA, 2017, p 142.

(18) Ibid, p 143.

(١٩) السعيد رحماني، المرجع السابق، ص١٦٤.

(20) Maitrot, C, op,cit, pp 114-115.

(21) Boyac, René, Histoire de Bône, Imprimerie, du Courrière de Bône, Place D'arme, et Rue vieille ville saint augustin, 1891, p 123.

(22) Hsen Dardour, Annaba 25 siècles de quotidienne et de luttes, société d'édition et de diffusion, Tome 2, Alger, 1983, p223.

(٢٣) أبـو القاسـم سـعد اللـه، **الحركـة الوطنيـة**، الجـزء الأول، دار الغرب الإسلامي، ط١، بيروت، لبنان، ١٩٩٢، ص ٣٣.

(24) Boyac.R.op.cit.p124.

(25) Maitrot, c, op, cit, p153.

(26) Boyac.R.op.cit.p125.

(27) Hsen Dardour, op, cit, p 226.

(٢٨)هو قائد الحملـة الفرنسـية علـى الجزائـر ولـد سـنة ١٧٧٣م، وتوفي ١٨٤٦م كان من جنرالات الإمبراطوريـة ثـم انضـم إلى لويس الثامن عشر، هـو الـذي أمضى رفقـة الـداي حسـين على وثيقة الاستسلام ٠٥ جويلية ١٨٣٠م عن حمدان خوجـة، **المرآة**، المصدر السابق، ص ٤٦.

(29) Boyac, R, op, cit, p 122.

(30) Ibid, p 123.

(٣١) رومبرت، Rambert كـان وكيـل محطـة القـل لحساب الشركة الإفريقية التي كان مقرها القالة، عاش فترة طويلة بعنابـة، وفر من القرصنة وبعد الحملة وضع نفسه تحت إمرة القائد العام، شارك في الحملتين الأولى والثانية على عنابة. أدمج في الترجمة العسكرية عن:

Boyac, R , op, cit p 122.

(32) De Mont-rond, Histoire de la conquête de l'Algérie de 1830-1847, Tome1, imprimerie de E. Marc Aurel, éditeur, Paris, 1847, pp23,24,159.

(33) Boyac, R, op, Cit, P 122.

(٣٤)دامرمون Damrémont ولد عـام ١٧٨٣م، تقلـد عـدة مهـام بفرنسا قاد الحمـلـة الأولى عـلى عنابـة ١٨٣٠م قتـل يـوم ١٢ أكتوبر ١٨٣٧م في الحملة الثانية على قسنطينة، انظر:

Narcisse Feucon, le livre d'or de l'Algérie, Tom1, libraire Algérienne et Colonial, Paris, 1889, P176.

(35) Hsen Dardour, op, cit P 223.

(36) Boyac, R, op, cit, P126.

(37) Feraud, Ch. op, cit, P07.

(38) Hsen Dardour, op, cit P 224.

(39) Boyac, R, op, cit, P126.

(٤٠) كانـت الـبلاد المحيطـة بمدينـة عنابـة يسـكنها عـدد كبـير مـن القبائـل، تعـيش في حـروب فـيما بينهـا أهمهـا مـرداس، ولهاصة، وصنهاجة، وقرب عنابة خرازة، وبني ورجـين، وبنـي محمد بإيدوغ.

(41) Féraud, Ch. op, cit, PP ,07-08

(42) De Bonafont, Douze ans en Algérie, 1830-1842, E, Dentu, éditeur, Librairie de la Société Des Gens de lettres, Paris, 1880, P106.

(43) Hsen Dardour, op, cit P 225.

(44) Boyac, R, op, cit, P127.

(45) Ibid, P127.

(46) De Mont-Rond, op, cit, P161.

(47) Boyac, R, op, cit, PP, 130-131.

(48) De Mont-Rond, op, cit, P161.

(49) Boyac, R, op, cit, P132.

(50) Féraud, Ch. op, cit, P10.

(51) Stéphen D'estry, Histoire D'Algér, De Nos Territoire et de ses habitants, A Mame et Ger imprimeurs, librairie, Tours, 1841, P 220.

(52) Boyac, R, op, cit, P133.

(53) De Mont-Rond, op, cit, P163.

(54) Féraud, Ch. op, cit, P10.

(55) Desjobert, A, la question D'Alger, politique, colonialisation, commerce, Imprimerie de Chaplet, Paris, 1837, pp, 206-207.

(56) Berteuil Arsen, Algérie Francaise, histoire, Mœurs, coutumes, industrie, Agriculture,Tome1, Dentu Librairie, Editeur, Paris 1856, P268.

(57) Mairtrot, C, op, cit, P 157.

(58) Boyac, R, op, cit, P138.

(59) Féraud, Ch. op, cit, P13.

(٦٠) برترانـد كلوزيـل Clauzel ولـد يـوم ١٢ ديسـمبر ١٧٧٢م، في ميرابوا Mire poix شغل عدة وظائف في الجيش الفرنسي، حكم عليه بالموت سنة ١٨١٦م، وفر إلى أمريكا ثم عـاد سـنة ١٨٢٠ م ليصبـح نائبـا في البرلمـان، فشـل في الحمـلـة عـلى قسنطينة عام ١٨٣٦م، وعزل عـام ١٨٣٧م، عـن أبـو القاسـم سعد الله، المرجع السابق، ص٣٦.

(٦١) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص٣٥.

(٦٢) بيرتــزين Berthezene: ولــد سـنة ١٧٧٥م شـارك في حـرب نـابليون بونابـارت، وفي الحملـة عـلى الجزائـر ١٨٣٠م، خلـف كلوزيل مطلع ١٨٣١م، فشل في الحملـة الثانيـة عـلى عنابـة ١٨٣١م، غادر الجزائر سنة ١٨٣٢م، عن حمدان خوجة، المصدر السابق، ص٦٠.

(٦٣)هـوديرHouder : قبـل الحملـة عـين منـدوب فرنسا بسـفارة القسـطنطينية، كـما كـلـف مـن طـرف بولينيـاك للتفـاوض مـع محمد عـلي باشـا للقيـام بالحملـة ضـد الجزائـر، قـاد الحملـة الثانية على عنابة وقتل فيها في أواخر سبتمبر ١٨٣١. عن:

G.C Cornulier- lucinier,op,cit,P40.

(٦٤) كانـت فكـرة إنشـاء فـرق الـزواف Zouaves، للماريشـال دي بورمون الذي بادر إلى إنشاء قوات الكشافة المحليـة، وقـد أرسل الأغا سيدي حمدان رسائل إلى مختلف القبائل العربية والبربرية، فتجمـع ٥٠٠ من هؤلاء الكشافة أواخـر أوت ١٨٣٠م ولأن معظم هؤلاء كانوا من قبيلة زواوة، فقـد أطلـق عـلى تشكيلهم اسم الزواف. عن:

Berteuil Arsen, op, cit, P30.

(65) Maitrot, C, Op, cit, P 157.

(66) Boyac, R, op, cit, P140.

(67) Ibid, PP, 140,141.

(68) Féraud, ch.op.cit. , P114.

(٦٩) هو إبراهيم باي بن علي، تركي الأصل شغل قائدا للحراكتـة، ثم باي على قسنطينة لثلاث سـنوات ١٨٢١-١٨٢٤، أثنـاء الغـزو الفرنسي، فر إلى المدية ثم عاد إلى قسنطينة، لمواجهـة

أحمد باي، ولكن هزم وفر إلى تونس وعاد إلى عنابة خلال الثورة بالمدينة، انقلب على هودير في الحملة الثانية ١٨٣١م، ثم استنجد بالفرنسيين دارمندي ويوسف، ولكنه فر مطلع ١٨٣٢م من القصبة وبقي يقاتل الفرنسيين وأحمد باي ومات بالمدية عام ١٨٣٤م.

(70) Maitrot.c.op.cit.P157.

(71) Féraud.ch.op.cit.pp115.116.118.

(72) Boyac.R.op.cit.P.142.

(73) Berteuil Arsen.op.cit.P268.

(74) G.C. De Cornulier-lucinier. La prise de Bône et Bougie.1832-1833.d'apres des documents inédite, P lethie lieux, librairie éditeur, Paris, PP 42.43.

(75) Berteuil Arsen, op.cit.PP.269-270.

(٧٦) دوفيفيي DUVIVIER: جنرال فرنسي وكاتب عسكري، ولد بروان عام١٧٩٤م، ومات في باريس عام ١٨٤٨م، ملازم مدفعية ثم نقيب في الهندسة، شارك في الحملة على الجزائر، قائد لبجاية بين ١٨٣٣م-١٨٣٥م، ثم نائب في الجمعية التأسيسية عام ١٨٤٨ عن.

Narcisse Faucon.op.cit. p. 221 – 223.

(77) Maitrot C.op.cit.pp.158-161.

(78) Féraud.Ch.op.cit.P23.

(٧٩) الدوق دوروفيغو: Duc De Rovigo ولد عام ١٧٧٤م بمنطقة الأردان تقلد عدة مهام، حاكم على الجزائر من أواخر ١٨٣١م إلى ربيع ١٨٣٣م، احتل عنابة خلال الحملة الثالثة عام ١٨٣٢. انظر: الغالي غربي وآخرون، **العدوان الفرنسي على الجزائر: الخلفيات والأبعاد**، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر ٢٠٠٧، ص ٣١٣-٣١٥.

(80) Boyac.R.op.cit.P150.

(81) Boyac.R.op.cit.PP.151-154.

(82) G.C Cornulier-lucinier.op.cit.P.51.

(٨٣) النقيب يوسف Josef أو المملوك يوسف ولد بجزيرة ألب سنة ١٨٠٨م من أم وأب مجهولين. اختطف من قراصنة تونسيين، عاش خادمًا في قصر باردو وبعد فضيحة مع ابنة أميره فر بمساعدة السيد ديسليبس إلى الجزائر أيام الاحتلال، تقلد منصب قائد للشرطة العربية ثم مترجم بالجيش ثم رئيس فرقة الخيالة، ساهم بشكل خطير في احتلال مدينة عنابة تزوج في مارس ١٨٤٢م ومات عام ١٨٦٧م انظر:

Garrot. Henry. Histoire General de l'Algérie. Imprimerie P Crecenzo .Voutes. Bastion Nord.Alger.1910.PP.174-175.

(٨٤) سفينة La Bearnaise: هي سفينة صغيرة صنعها المهندس مارستي Marestier الذي أرسل إلى الولايات المتحدة عام ١٨٢٨م لدراسة طرق بناء عمارات الحرب من نوع إنجليزي Shonen لأن مهندسوا فرنسا لم يكن لهم احتكاك بأمريكا وحتى مع الإنجليز. انظر: G.C.Connulier-Lucinier.op.cit.PP.1-2.

(85) Maitrot C.op.cit.PP.176-177.

(٨٦) فريارت Freart: ولد بباريس عام ١٧٩١م، تخرج من مدرسة تورفيل (Tourville) ملازم سفينة ثم نقيب عام ١٨٢٨م ثم فارس الفرقة الشرفية عام ١٨٣٦م ساهم في احتلال عنابة ببحارته مات في مونبيليه عام ١٨٣٨م. انظر:

Garrot.Henry.op.cit.P.166.

(87) G.C.Cornulier -lucinier.op.cit.70-73-75.

(٨٨) دارمندي، Darmandy: ولد عام ١٧٩٤م تخرج من سانسير عام ١٨٢٢م رقي في الحرس الملكي، قام بعدة جولات إلى الخليج وفارس والهند، وفي عام ١٨٢٦م رقي إلى نائب قنصل، وفي عام ١٨٣١م أرسل إلى الجزائر شارك بفعالية مع يوسف في إخضاع عنابة عام ١٨٣٢م ومات عام ١٨٧٣م. عن: Garrot.Henry.op.cit.P172.

(89) G.C.Cornulier-lucinier.op.cit.PP.79-80.

(90) Maitrot C.op.cit.PP.180-184.

(91) G.C.Cornulier-lucinier.op.cit.P.109.

(92) De Mont-rond.op.cit.P.166.

(93) Maitrot C.op.cit.P192.

(94) Hsen Dardour, op, cit PP 249-250.

(95) G.C.Cornulier-lucinier.op.cit.PP.151-152.

(96) Ibid. PP.118-119-123.

(97) Maitrot C.op.cit.P202.

(98) Féraud.Ch.op.cit.P168.

(99) Maitrot C.op.cit.PP.204-205.

(100) Ibid.P.205.

(101) Féraud.Ch.op.cit.P169.

(102) Maitrot C.op.cit.P206.

(103) Ibid.PP.206-208.

(104) Féraud.Ch.op.cit.PP.209-210.

(105) Ibid.P174.

(١٠٦) الجنرال دوزر D'uzer: قائد فرع قسمة عنابة بين ١٨٣٢م-١٨٣٦م، دخل في صراع مع يوسف، أطلق اسمه على قرية نواحي عنابة Duzerville (الحجار حاليًا) توفي سنة ١٨٤٩م، انظر: Boyac.R.op.cit.P.130.

(107) Maitrot C.op.cit.P228.

(108) Stephen.D'estry.op.cit.P.268.

(109) De Mont-Rond.op.cit.PP.171-173.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

الثورة التحريرية في منطقة تلمسان من الولاية الخامسة التاريخية



إبراهيم الهلالي
المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ
أستاذ مؤقت بقسم الفنون
جامعة تلمسان – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّص

تقودنا هذه الدراسة التاريخية، إلى معرفة الدور الذي قامت به منطقة تلمسان من الولاية الخامسة أثناء الثورة التحريرية الجزائرية، لاسيما وأن هذه المنطقة كانت كجل مناطق الوطن عامة والولاية الخامسة خاصة، التي لقيت فرنسا صعوبات كثيرة للسيطرة عليها، إذ تعتبر من الأسباب التي دفعتنا إلى البحث في هذا الموضوع هو عدم وجود دراسات مستقلة وعميقة، تمكننا من فهم ما جرى من أحداث في المنطقة الأولى، وبالتالي تسليط الضوء على معطيات جديدة بدل تلك المعطيات التي أصبحت معروفة لدى العام والخاص، ونقصد بذلك التاريخ الرّسمي الذي سايرناه منذ الاستقلال في مراحل أطوارنا الدراسية. لقد شهدت المنطقة الأولى من الولاية الخامسة الواقعة ضمن تلمسان نشاطًا ثوريًا كبيرًا تاريخًا يصعب جمعه كاملاً نظرًا لكثرة العمليات العسكرية من معارك واشتباكات وكمائن وهجومات وعمليات فدائية في المدن الكبرى والقرى المجاورة. اعتمدت في هذه الدراسة على المنهج التاريخي، لدراسة فترة من فترات تاريخ الجزائر وتأريخها في الفترة الممتدة بين (١٩٥٤/١٩٦٢)، الغرض سرد ووصف الأرضية الممهدة لاندلاع الثورة الجزائرية، واستقراء أهم المعارك. يمكننا القول إن جل المؤرخين حول المنطقة حاولوا أن يقدموا عملاً جليلاً، يكون في مستوى ثورة شعبهم العظيمة، وتُعَدّ شهاداتهم أيضًا وثيقة صادقة، ومصدرًا لكتابة تاريخ الثورة، كما تُعَدّ أداة للتصوير، تصور لنا جانبًا من المعارك الحامية الوطيس، والتاريخ يبقى الشاهد الأكبر على شدة مقاومة أهالي المنطقة.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١٥	أبريل	٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر:	٢٣	مايو	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

الثورة؛ تلمسان؛ المنطقة الأولى؛ الولاية الخامسة؛ المعارك

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.168236

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

إبراهيم الهلالي، **"**الثورة التحريرية في منطقة تلمسان من الولاية الخامسة التاريخية".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد الثامن والأربعون؛ يونيو ٢٠٢٠. ص ١٤٥ – ١٥٢.

Corresponding author: brahimhelali83@gmail.com

Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

مُقدِّمَةُ

لقد شكلت الثورة التحريرية موقفًا حاسمًا في نفسية الشعب الجزائري، كما كانت أيضًا بمثابة تحول كبير مس كل جوانب التفكير والفهم والتحليل لقضية الاستعمار، من طرف العدو الفرنسي فكانت ثورة الشعب الجزائري واضحة على مختلف المستويات، وبصور وأشكال عديدة تهدف كلها إلى تحرير البلاد من استغلال وبطش ودمار هذا المستعمر فتكاثفت كل الجهود وزالت جل العقبات الجنسية والجغرافية.

ساهمت جميع الولايات الجزائرية بمختلف طبقاتها الاجتماعية في الثورة الجزائرية، بما فيها منطقة تلمسان بالغرب الجزائري، التي تعتبر من بين الفئات الآخذة على عاتقها احتضان الثورة التحريرية منذ بدايتها، والتخلص من ويلات الاستعمار الفرنسي الذي عانت منه مدة طويلة من الزمن، لاسترجاعه أرضه التي سلبت منه، من هذا المنطلق حاولت الإجابة على الإشكالية التالية: إن استكشاف الثورة التحريرية، ولا سيما الثورة بمنطقة تلمسان، كان بالنسبة لي دافعًا أنار لي الطريق لطرح عدة تساؤلات أولية أنتجت إشكالية بحثية وضعت داخل نسق مساءلة الذاكرة الثورية: هل كانت منظومة النصوص التاريخية الصانعة للحظة وثيقة تاريخية يعتمد عليها في التأريخ للصيرورة الزمنية للأحداث الثورية داخل فضاء جغرافية تلمسان (المنطقة الأولى) من الولاية الخامسة؟ واندرجت تحت هذه الإشكالية عدة أسئلة من بينها:

١/ كيف ساهمت المنطقة الأولى (تلمسان) في تفجير الثورة التحريرية؟

٢/ كيف ساير المؤرخون أحداث الثورة، وانعكاساتها على المنطقة؟

حاولت في هذه الدراسة وذلك بالوقوف عند المحطات التالية:

ـــ التعرف على اغلب النواحي الأربعة للمنطقة الأولى من الولاية الخامسة التاريخية.

ـــ العمليات العسكرية وأهم المعارك الكبرى بالمنطقة الأولى من الولاية الخامسة.

ـــ سياسة فرنسا لقمع الثورة بالمنطقة الأولى.

أولاً: الولاية الخامسة التاريخية

تُعَدّ الكتابة التاريخية قيد وشرط، فهي مضبوطة بمقاييس علمية تكون ثرية بثراء المادة العلمية من تنوع مصادرها ومراجعها يقتضي البحث.[١] والحق أن فلسفة التاريخ بمعنى البحث عن العلل والأسباب، فقد أشار إلى ذلك ابن خلدون إشارة لها مغزى دون أن يستخدم المصطلح نفسه، عندما يميز بين الظاهر والباطن في التاريخ فبقوله: "ففي ظاهره لا يزيد عن أخبار الأيام والدول السوابق من القرون وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق وجدير بأن يعد في علومها وخليق".[٢]

وهذا يعني أن فلسفة التاريخ لا تتجاوز السرد والحشد لأخبار لا رابطة بينها، وأنها تقوم على التعليل على أن الغرض من القول: أنه لا تاريخ بدون تعليل، والعقلي والمنطقي هو أن يتجنب الباحث نسبة الواقعة التاريخية إلى الصدفة وحدها، بل عليه أن يبحث في ظروف الواقعة بحثًا علميًا سليمًا، فالمؤرخ يستطيع أن يفسر لنا قيام الحرب أو اغتيال شخصية تاريخية ليس بالصدفة ولكن بأسباب عقلية منطقية مقنعة.[٣]

إن القضية الجزائرية هي دراما سببت الكثير من الدماء، وما أعز تلك الدماء وسببت الكثير من الدموع وما أسخن تلك الدموع، ولقد بدأت هذه الدراما منذ ١٢٧ عامًا، وأن مسرح هذه الدراما بكل نواحيها هو في الجزائر، في مدنها وقراها، في جبالها ووديانها، في صحرائها وشواطئها وفي غاباتها ومروجها، وان أشخاص هذه الدراما ليسوا أفرادًا أو جماعات، ولكنهم شعب بكامله، برجاله ونسائه في الحواضر والبوادي، وليست في هذه الدراما مجازات واستعارات، ولكنها في القاذفات والمقاتلات والدبابات، وهي دراما تقرأ في عيون الأيتام وحسرات الأرامل وزفرات الثكالى، وآلام الأجيال.[٤]

ما جعل توجه الدراسات الحديثة نحو المزيد من الاهتمام بدراسة التاريخ المحلي لمنطقة من مناطق البلاد، بغية إبراز مميزاتها ومساهمتها في الحركية التاريخية الشاملة، لأن تغطية تاريخنا الوطني ودراسته دراسة عميقة، يحتم علينا الرجوع إلى تاريخنا المحلي إنّ البحث في تاريخ المنطقة الأولى من الولاية الخامسة يدخل ضمن هذا السياق لمعرفة مدى مساهمتها في مقاومة الاحتلال الفرنسي مثلها مثل بقية المناطق الأخرى من البلاد، أن هذه الدراسة جديرة بالاهتمام حتى لا يبقى تاريخنا حكرًا على أصحاب المدرسة الفرنسية.

إنّ منهج التاريخ المحلي يُعَدّ من المسالك البحثية الصعبة، نظرًا لندرة الوثائق وقلة المصادر الأرشيفية التي مازالت عرضة للإهمال والتلف والتي تلقى اهتماما من طرف الباحثين.[٥]

إذا كانت المنطقة الخامسة التي ستتحول على ضوء مقررات مؤتمر الصومام عام ١٩٥٦ إلى الولاية الخامسة، وهي أكبر

الولايات في الثورة مساحة، فإن ذلك لم يكن في الواقع ليسمح بالتنظيم والهيكلة اللازمتين أمام الحشد القوي للاستعمار وقبيل اندلاع الثورة تمّ تقسيم المنطقة الخامسة جغرافيا إلى أقسام، مع تداخل كبير فيما بينها، وجاء التقسيم من شهر نوفمبر ١٩٥٤ إلى شهر جويلية ١٩٥٥، كما تمّ تعيين قادة المناطق من خلال التقسيم التالي:

أ) من الحدود المغربية (مرسى بن مهيدي) إلى الرمشي: **محمد فرطاس**، المسؤول العسكري.

ب) من الرمشي إلى حاسي الغلة: **واضح بن عودة**.

ج) من حاسي الغلة إلى وهران: **الحاج بن علا**.

د) ومن سيق إلى المحمدية، سيدي بلعباس: **أحمد زبانة**.

هـ) من مستغانم إلى الظهرة: **ابن عبد المالك رمضان**.[٦]

ومن شهر جويلية ١٩٥٥ إلى ما قبل شهر أوت ١٩٥٦ خضعت المنطقة الأولى إلى تقسيم جديد:

١) الغزوات، مرسى بن مهيدي (بورصاي)، فلاوسن إلى الحدود المغربية.

٢) سيدي وشع، هنين، سوق الأربعاء.

٣) سيدي سفيان، سوق الخميس، عريمة.

٤) الحدود المغربية، بني واسين، بني بوسعيد، بني سنوس، أولاد نهار.

٥) حمام بوغرارة، بني بهدل، الوريط، سيدي العبدلي، بن سكران.

٦) سبدو، أولاد ميمون، سيدي السنوسي إلى شمال سيدي بلعباس.

٧) سعيدة.

٨) المشرية، عين الصفراء، بشار، تندوف، أدرار.[٧]

ومن الناحية التنظيمية قسمت المنطقة الخامسة إلى نواحي وأقسام، وأعراش وفروع وأفواج وخلايا وبعد مؤتمر الصومام المنعقد في ٢٠ أوت ١٩٥٦، أصبحت المنطقة الخامسة ولاية بثمان مناطق جاءت كالتالي:

المنطقة الأولى: تلمسان ومغنية.

المنطقة الثانية: الغزوات، بني صاف.

المنطقة الثالثة: وهران، عين تيموشنت وضواحيها.

المنطقة الرابعة: مستغانم، غليزان.

المنطقة الخامسة: سيدي بلعباس.

المنطقة السادسة: معسكر وسعيدة.

المنطقة السابعة: تيارت، السوقر.

المنطقة الثامنة: عين الصفراء، البيض، بشار، تندوف، أدرار.[٨]

ثانيًا: المنطقة الأولى من الولاية الخامسة

كانت هي نفسها مقسمة إلى أربع نواح، كل واحدة منها يسيرها ملازم ثان، بمساعدة ملازمين أوائل: المحافظ السياسي والمسؤول عن الاستعلامات والاتصالات والمسؤول العسكري، وكانت الناحية الأولى تشتمل على بني سنوس وأولاد نهار وأولاد ورياش مع سبدو، والناحية الثانية لمغنية كانت تشتمل على بني واسين وبني بوسعيد والناحية الثالثة كانت تمتد إلى منطقة صبرة وبوحلو مع أولاد رياح وبني مستار، وأخيرا ناحية تلمسان كانت تمتد من واد الزيتون إلى جسر يسر وأولاد ميمون وتيرني وبني هديل، فالناحية الأولى كانت مسيرة من طرف الهواري[٩] (عبدون المختار)، والناحية الثانية من طرف بركاني محمد (مراد) والناحية الثالثة من طرف ابن زيان (أنقادي) وأخيرًا الناحية الرابعة فكانت مسيرة من طرف المزاري.[١٠]

لقد شهدت المنطقة الأولى من الولاية الخامسة الواقعة ضمن تلمسان ومغنية، نشاطًا ثوريًا كبيرًا تاريخًا يصعب جمعه كاملاً نظرًا لكثرة العمليات العسكرية من معارك واشتباكات وكمائن وهجومات وعمليات فدائية في المدن الكبرى والقرى المجاورة.[١١] التاريخ يرتبط بشكل مباشر بالإنسان والواقعة هنا تعني الأحداث التي من شأنها أن تثبت أمام الزمنية الكاسحة فيكون التاريخ هو هذه الأحداث المترسبة والآتية من أزمنة ماضية. يرتبط التاريخ بالإنسان ارتباط وثيقًا إلا أن هذا الارتباط يختلف من حيث تعبير هذا الأخير عن الشيء وعن العلم بالشيء إذ يمكن أن نقصد بالتاريخ، التاريخ العام أو الحاصل بمعنى الأحداث والوقائع في حدوثها الطبيعي والتاريخ المعلوم كما ينعته عبد الله العروي الذي يمثل إدراك الإنسان لهذه المجريات واستقصائها، ما يعطينا علم التاريخ.[١٢] يختص علم التاريخ بدراسة وتتبع الأحداث التي تميز حركية الإنسان في الزمن، ورصد مجرياتها وكلمة التمييز ترد هنا بشكل مقصود، ذلك أن التاريخ لا يهتم إلا بالأحداث التي تترك حضورًا قويا، قادرًا على البقاء لما له من تأثير على مسار الإنسان ويكون عمل المؤرخ هو" تحقيق وسرد ما جرى فعلاً في الماضي".[١٣]

ثالثًا: الناحية الرابعة من المنطقة الأولى للولاية الخامسة (تلمسان)

عندما أشعلت جبهة التحرير الوطني قبيل الثورة، ليلة الفاتح من نوفمبر سنة أربع وخمسين وتسعمائة وألف فإنما فعلت ذلك لتجسيد إيديولوجية حزب الشعب الجزائري، لأجل ذلك

حددت تحركاتها الأولى في إطار توجهات متعددة، والهدف الأول هو هدف التوجه السياسي ويهدف إلى استرجاع السيادة المغتصبة عن طريق الكفاح المسلح الذي يجب أن يتحول إلى انتفاضة عامة تضعف الجيوش المعتدية، وتخرب الاقتصاد الاستعماري وتفرض جو الحرب الساخنة على فرنسا فتنقاد إلى تفاوض كما حدد نداء الفاتح من نوفمبر سنة ١٩٥٤م.[١٤] أما البحث في تاريخ المنطقة الأولى، يدخل ضمن هذا السياق لمعرفة ما جرى بها من أحدث سياسية عسكرية وكفاح مسلح خلال المرحلة الاستعمارية، ويقودنا هذا البحث حتمًا على معرفة النشاط الثوري الذي عرفته المنطقة الأولى بصفة عامة والناحية الرابعة بصفة خاصة إبان الثورة التحريرية.[١٥]

الناحية الرابعة كانت مسيرة من طرف: المزاري، فناحية تلمسان كانت تمتد من واد الزيتون إلى جسر يسر وأولاد الميمون وتيرني وبني هديل، فهيكلة هذه الناحية كانت بكيفية ذكية من طرف منظمة جبهة التحرير الوطني بتلمسان وضواحيها وذلك بإنشاء خلايا إجرائية، مكلفة بالعمليات العسكرية ضد المعمرين ومصالح الأمن والمعسكرات والعيون، وبعض المنشآت الاستراتيجية كما تم إحداث خلايا العمل السياسي والدعم و التضامن مع أسر ضحايا القمع، وعائلات المجاهدين وخلايا الاتصال والأخبار، وضمت عدد كبير من الشبان والشابات وعلى رأسهم ابن علي المدعو السي إبراهيم وتوجد ضمن هذه الخلايا المدعوة خيرة عزيز، والتي كانت تلعب دور هاما في المنطقة والسي إبراهيم الذي يعاشر المدرسين والثانويين، قد أمر باجتناب إلى أقصى حد بعض العناصر التي يشك فيها، بحكم علاقاتهم بالوسط الأوروبي أو الذين يعيشون في أوساط مشتبه فيها وغير قابلة للمعاشرة.[١٦]

أسست فرق أخرى من الفداء تحت قيادة إبراهيم والكوماندوس الأول، وتنظمت كل المدينة للكفاح ضد المستعمر لتحرير البلاد، فزعزع هذا النهوض بالروح الثورية عزيمة قوات القمع وأحبط معنوياتها، حتى تخالطت وتشابكت عليها الأمور ولم تعرف كيف تخلص منها. من بين الخلايا التي كانت تنشط على نطاق تلمسان، كانت تلك التي يقودها محمد مهتار ثاني المدعو: لزعر، كان من ذي قبل عضو بحزب الشعب الجزائري يبيع جريدة " الجزائر الحرة "، ولما كشفت عن هويته شرطة المخابرات العامة، ألقي عليه القبض عدة مرات وعذب قبل أن يطلق سراحه، دعي سنة ١٩٥٢م تحت الأعلام لمدة سنتين للخدمة العسكرية في الجيش الفرنسي.[١٧]

منذ ١٩٥٥م، بعد نهاية الخدمة العسكرية أنضم دون تردد إلى صفوف الأفلان، فنظم أول خلية فدائية، ورصد له عدد من المحاور بالقنابل منها: رمي قنبلة يدوية ضد العساكر عند المتحف وكذا رمي قنبلة يدوية ضد دورية عسكرية، ورمي أخرى بحانة وسط المدينة، فسجن خلال تفتيش عقب العملية الفدائية الأخيرة، عذب حتى لفظ أنفاسه ورمي في بستان بعين فزة، وبعد أيام أخبر أهل القرية أمه (الحاجة عمارية) باستشهاده، وبالمكان الذي وري فيه مغلف بالحايك الذي وهبته إحدى نساء المنطقة.[١٨]

بعد استشهاده نشأت عن خليته فرق أخرى للفداء فأيقظت نشاطاتها فضول وتحذر الشرطة الفرنسية، أما يوم: ٢٧ أكتوبر ١٩٥٥، لم يمنع بن علي دغين من يد المخابرات العامة التي كانت تبحث لولا حيلة دبّرها أصدقاء حيه، فلما انتبه هؤلاء ومن بينهم سيد أحمد قوار المدعو حمّي إلى وجود شرطيين حول منزل الدغاغنة هرعوا إلى المدرسة حيث كان زميلهم يتابع دراسته، تقدم حمي إلى مدير المدرسة المدعو (janier) واستعمل خدعة، فقال له: أن والدة بن علي توفيت وأنه مدعو إلى المنزل فلما خرج من المدرسة حذّره أصدقائه من الخطر، فبهذه الخطة العجيبة أفلت من يد الشرطة والتحق بالسرية، وأخيرا ملتحقا بصفوف جيش التحرير الوطني، فذهب راجلا من تلمسان إلى بني سنوس حيث وصل ورجلاه تسيلان دماً من جراء هذه المسافة الطويلة فتوقف ليروي عطشه من إحدى الينابيع، فالتقى راع للغنم إلا أنّه في حقيقته عضو في الأفلان، فسأله أين يجد المجاهدين بغية الالتحاق والانضمام إليهم، فتحير الرّاعي من سحنته الأوربية ولباسه المتأنق، فظنّ أنّه جاسوس فرنسي وقاده إلى مجاهدي المنطقة كي يأخذوا قرار في حق مصيره.[١٩] وبعد ذلك وجد نفسه أمام المقدم جابر[٢٠] الذي بعد مكالمة طويلة، ضمّه ككاتب لديه لم تتجاوز شهرين وفي جانفي ١٩٥٦م أوكل إليه مهمة تأسيس كوماندوس بمدينة تلمسان، وقد أخذ اسمه السري "السي إبراهيم" وسنه لم يتجاوز الواحد والعشرين .[٢١]

أما مدينة تلمسان التي طوقت بكاملها من طرف الجيش الفرنسي، منذ مظاهرات السكان والعمليات الفدائية التي نفذت بعد إعدام الدكتور: ابن زرجب في جانفي ١٩٥٦م، أصبحت الحياة فيها لا تطاق وأصبح الدخول إليها صعبًا والتنقل من حي إلى آخر أكثر صعوبة، فلقد أصبحت الأحياء كلها ممتلئة بالأسلاك الشائكة والممرات المتعرّجة، وكان من اللازم التملق للتنقل من حي إلى آخر، وأن علي لخديم المدعو الماجور ببذلته الرسمية

وصاحب درجة في الجيش الفرنسي(رقيبًا أولاً) هو الذي كان بإمكانه أن يمرّ ويمرّر من يريد، فزادت العمليات الفدائية كثافة واستولى الخوف على السكان وأعوان الإدارة المحلية وكانوا أيضًا عرفوا عملية فريدة من نوعها في تاريخ حرب التحرير الوطني، كان من اللازم القيام بضربة كبرى للانتقام من اغتيال الدكتور ابن زرجب.[٢٢]

قد كان النظام الذي ارتكز عليه جيش التحرير الوطني في عمله، يحمل بذور نجاح الثورة المسلحة منذ اليوم الأول لاندلاعها، ومنذ ذلك الوقت تمّ التركيز على مبدأ أساسي وهو السرية المتناهية في التخطيط والتنفيذ التي أعطت الجيش الكثير من الهيبة، لأن قوات الاحتلال كانت تجهل إمكاناته وعدده، وكل ما يتعلق بنظامه وتحركاته، أما الشعب فقد زادت ثقته بقوة جيشه الذي كان يراه في أرض الميدان، يعمل بفعالية وانضباط تام وتضحية مستمرة، وهو مع ذلك لا يعلم الكثير عن عدده ومراكزه أو هياكله، وفق مبادئ سطّرها لنفسه كانت منطلقًا لمسيرته الطويلة الشاقة.[٢٣]

لمقابلة هذه الحالة اتخذ المسؤولون قرارًا، فبعث قيادة الولاية وعلى رأسها: بوصوف، بوزيدي وجابر تعليمة لجميع النّواحي والمناطق تأمرهم بفتح خط مجابهة ثان داخل المدن والقرى، وبالفعل فتح هذا الخط، سيما بعدما رست في يوم: ٢٩ أفريل ١٩٥٥م بساحل الريف المغربي السفينة "دينة"، وعلى متنها الأسلحة والعتاد، ووصلت هذه الشحنة الكبيرة في وقتها لتجهيز وحدات حربية من شأنها التصدي لبأس العدو، أما ذكر جميع العمليات الفدائية وعمليات جيش التحرير ضد قوى العدو الفرنسي، والتي جرت أحداثها بتلمسان وضواحيها فهذا من المستحيل، وعلى الأرجح فلا يكفي لتحريريها آلاف الصفحات.[٢٤] ويكفينا أن نستعرض ما استوقفته أرباب الأنامل من الضياع، ونخص بالذكر: العملية التي دبّرها أدغين بن علي المدعو: السي إبراهيم ثمّ السي لطفي، وأصبح من خلالها منظمًا كبيرًا ذا قدرة فائقة حسب مسؤوليه، كان قد إختار عددا من الشّبان ذوي المظهر الأوروبي البارز، ومن بينهم كان من سبق لهم تأديتهم للخدمة العسكرية ضمن الجيش الفرنسي.[٢٥]

في اليوم المحدد وبخطوات بطيئة موزونة معهودة لدى الشرطة العسكرية، طاف هذا الفوج الذي كان بن علي شخصيا بالمدينة مارًا بنهج سيدي بلعباس، والشارع الذي يحاذي ثكنة المشور ونهج فرنسا وساحة البلدية وعند مروره كان الجنود والضباط الفرنسيون يحيونه تحية عسكرية، وهو يمر دون مانع بالممرات الملتوية عبر المدينة إلى أن وصل أمام نادي الضباط وبالضبط في الجهة اليمنى لساحة الانتصارات، كانت الساعة تشير إلى ما بعد السادسة بقليل وهو الوقت المحدد للإفطار في ذلك الشهر؛ شهر رمضان، حيث كان المدنيون كلهم في منازلهم وفي الوقت الذي كان النادي مكتظًا وكان منهم من يتناول المشروبات، وآخرون يتعاطون الميسر أو البيار توقفت الدورية أمام الباب وبإشارة من لطفي أطلقت النيران من أسلحة الدورية كلها، وهبط رجال الدورية بسرعة في عمق ساحة الانتصارات نحو أزقة المدينة القديمة حيث كانت تنتظرهم ثلاث سيارات سوداء اللّون شبيهة بسيارة المستعمر الفرنسي.[٢٦]

من بين العمليات كذلك بتاريخ: ١٦ مارس ١٩٥٦ م محاولتان في حي الدعارة فبعد اغتيال خمسة عساكر في بوابة عامة رمى عناصر الكوماندوس قنبلتين يدويتين على القوات، التي أسرعت للدعم فقتل من بينهم ١٧ جندي فرنسي وجرح ١٢ آخرين.[٢٧] وتاريخ ٠٧ ماي ١٩٥٦: الدورية المفتعلة واغتيال ١٣ ضابط وجرح ٠٨ آخرين. قرية الفحول: اختطاف عدد من الجنود الفرنسيين، وتهريب ١٨ جندي جزائري مع أسلحتهم وعتادهم قاد هذه العملية العرباوي المدعو: نهرو.[٢٨]

أقيمت عمليات أخرى كثيرة تحت قيادة السّي إبراهيم كما وثقته نشرات الجرائد في تلك الفترة: محاولات بالقذائف اغتيالات، تخريبات من شتى الأنواع، كمائن كان على السي إبراهيم إلا أن يسلم مجموعة من الأسلحة المحصل عليها لمسؤوله المباشر، عقب الليل (مختار بوزيدي)[٢٩] ممثلاً للتعليمات الصادرة من عبد الحفيظ بوصوف والتي تجعل تلمسان تحت المسؤولية المطلقة لقيادة وجدة تجاوزت هذه التعليمات درجة عقب الليل، فمنعته من مداخل باهظة منبثقة من تلمسان وضواحيها فوجهت مباشرة نحو وجدة، تحت مسؤولية السي إبراهيم، أستشاط عقب الليل غضبًا حتى هاجم هذا الأخير وأمر جنديين بحضوره فأبى. ثمّ بسرعة ومتجنبًا المنطقة الأولى التحق بوجدة وقدّم عرضه لبوصوف، فقرر هذا الأخير راعيًا للتوافق وتجنبًا لشقاق في القيادة أن يعين السي إبراهيم (لطفي) في المنطقة الثامنة.[٣٠]

رابعًا: أهم معارك جيش التحرير الوطني بالناحية الرابعة

كانت منطقة تلمسان أيام الثورة التحريرية ضمن القسم الرابع للناحية الرابعة من المنطقة الأولى للولاية الخامسة ومن بين أهم المعارك التي دارت رحاها بالناحية:

٤/١-معركة جبل القادوس:

الذي يقع ضمن سلسلة جبل بلدية تيرني بني هديل، جنوب مدينة تلمسان يحدها من الشرق "بني غزلي" ومن الغرب جبل "الناظور"، الجبل في عمومه متوسط الارتفاع مغطى بالأشجار كما تتخلله أراضي زراعية منبسطة واعتبارًا لهذه المميزات، عمد الجيش التحرير منذ انطلاق الثورة إلى التمركز فيه وإقامة مراكز عبر أطرافه للانطلاق منها إلى الجهات المجاورة ومن أهم هذه المراكز مركز: "دار عبد القادر بن يوسف"[٣١] وحدة جيش التحرير الوطني، والتي قامت بهذه العملية كانت مشكلة من فوجين تعدادهم بين ٣٠/٢٢ مجاهدا، يتولى قيادتهم المجاهد: شواري بومدين، وبمساعدة المجاهد: "ميلود" المدعو "التونسي" أما بالنسبة للأسلحة فكانت بحوزة الفوجين قطعة جماعية من نوع: ٢٩/٢٤ وبنادق فردية آلية من أصناف مختلفة. من ناحية العدو فكانت وحداته مشكلة من القوات البرية، التي كانت تدعمها طائرات حربية ذات المهام المتعددة، وأرتال من المدرعات والعربات العسكرية، ثمّ تجميعها من المراكز العسكرية المنتشرة عبر المنطقة.[٣٢]

أسباب وقوع المعركة يعود للعمليات العسكرية للثوار عبر كامل الناحية، من بينها عملية قطع أسلاك الهاتف تخريب الطرقات، الهجمات المتكررة على مراكز العدو العسكرية بمنصورة والمركز المتواجد بمزرعة أحد المعمرين وبعد هذه العمليات تحركت قوة جيش التحرير الوطني جنوبا، وتمركزت بجبل القادوس للاستراحة وضبط أمورها ويبدوا أن العدو كان يرصد تحركات الثوار، ويستعد لمهاجمتهم بعد انتشار أخبار عملهم العسكري، عبر كامل المنطقة مما أثر سلبيا على معنويات جنوده وخاصة المعمرين الذين سلبوا الأراضي الفلاحية الخصبة وهذه الأسباب التي أدت إلى نشوب هذه المعركة.[٣٣]

تاريخ المعركة يعود إلى صباح يوم ١٩٥٦/١١/٢٤ فرصدت الحراسة تحركات للعدو في نقاط عدة من المناطق المحيطة بالمركز، تبين أن جيش الاحتلال يتوجه نحو الجبل من مسالك مختلفة، الأمر الذي يستدعي الحيطة وأخذ التدابير اللازمة قبل تطور الوضع ويصبح صعبا، فأسفرت المعركة عن خسائر في صفوف جيش التحرير، فاستشهد ١٤ مجاهدًا، أما صفوف العدو فأصيبت بخسائر هامة في صفوف جنوده تتمثل في عدد كبير من القتلى والجرحى، غير أن عدد الطلعات التي قامت بها الطائرات العمودية في اليوم الحوالي للمعركة، أكد على أن عدد القتلى كبير.[٣٤]

٤/٢-معركة سهب اللوزة: (وادي الشولي)[٣٥]

احتضنت منطقة واد الشولي الثورة التحريرية منذ اندلاعها، وكان أبنائها قد تشبعوا بالفكر الثوري عبر مراحل الحركة الوطنية، ودعاتها من حزب الشعب الجزائري، وتتميز هذه المنطقة بجبال حصينة ومسالك صعبة، وسهول منبسطة مع توفرها على كل الشروط الضرورية لحرب العصابات فلقد اتخذتها القيادة الثورية آنذاك قاعدة للمنطقة الخامسة، واعتبرها المجاهدون مركز عبور بين الشرق والغرب.[٣٦]

لقد وقعت المعركة في شهر نوفمبر من سنة ١٩٥٦ ودامت المواجهة من الساعة السابعة صباحًا حتى العاشرة ليلاً استعملت فيها مختلف الأسلحة (المدفعية والطيران) شاركت فيها فصيلتان من جيش التحرير الوطني، وكان على رأس فصيلة منهما الشهيد البطل" بن علال" الذي استشهد مع بقية رفاقه إلا سبعة جنود بقوا على قيد الحياة، بينما تكبد العدو الفرنسي خسائر بشرية ومادية قدرت بـ: (٤٨٠) قتيلاً، حسب إحصائيات العدو نفسه.[٣٧] سميت منطقة "وادي الشولي" اسم "عروس المناطق" عاش فيها أبطال كثيرون منهم العربي بن مهدي، هواري بومدين، عبد الحفيظ بوصوف، وأحمد لواج، المدعو: الرائد فراج، وعبد القوي، وغيرهم من الشهداء والمجاهدين الذين لا يزالون على قيد الحياة.[٣٨]

٤/٣-معركة جبل "نوفي" الأولى "عين غرابة" ١٩٥٦

بعد عملية " تيزغنيت" التي قم بها "سي صالح" قريش قدور مع فصيلته، وعملية "سهب اللوزة" التي قادها "سي نجيب" عمراوي عبد القادر، بأمر من الراحل "هواري بومدين" واللتين كانتا ناجحتين حيث غنم المجاهدون فيها أسلحة وعتاد حربيا، كما أسروا بعض الجنود الفرنسيين، وبعدها عادت الفرقتين إلى المكان المسمى "بوفايلة" أين كان متواجد هواري بومين رفقة "عبد المومن" لواج محمد (الرائد فراج) فيما بعد، وفصيلة "بن علال" قريش قويدر.[٣٩] وبعد الاستراحة وتناول العشاء خطب فيهم "هواري بومدين" الذي كان يعرف آنذاك بالمراقب حيث طلب من المجاهدين عدم الصوم غدا، اليوم الثالث من شهر رمضان، لأنه سيكون عليهم التوجه إلى جبل "نوفي" المواجه لعين غرابة من الجهة الجنوبية الغربية، ولأن الاستعمار سيلاحقهم حتما نتيجة الخسائر التي لحقت به جراء العمليتين السالفتين الذكر.[٤٠]

عند الساعة الثانية صباحًا برواية قريش قدور: خرجنا من الدار نحو جبل "نوفي" الأشم المغطى بأشجار "البلوط" و"الطاقة" الكثيفة، نوفي هو أعظم وأعلى جبل في بني هديل،

حيث يمتد من بني سنوس غربًا إلى مدينة سبدو شرقًا، فجبال أولاد نهار جنوبًا ووادي تافنة شمالاً حيث تمتد على ضفته قرية بوفايلة التي خرجنا منها. لما لاح الفجر وبزغت الشمس من فوق قمم الجبال رأينا مشهدا لم تكن تعرفه قرية بني هديل من قبل، كل الجبال التي تحيط بها كانت مغطاة بالجنود الفرنسيين، من "تزاريفت شمالاً إلى "تيزغنيت" غربا حتى سبدو "قمرشيش" جنوبًا، صاعدًا جبل نوفي، الذي نحن فيه ثمّ جاءت الطائرات B٢٦ الأمريكية، وبدأت تمثل قرية "ورانة" وأحرقت الأكواخ والخيام وشردت السكان من أطفال ونساء ورجال، وبعد طائرات B26 جاءت الطائرات العمودية، التي كانت تحمل الجنود من تلمسان وسبدو والمعسكرات الأخرى المجاورة، وتنزلهم على قمم الجبال حتى يلتحقوا بالجنود الذين سبقوهم ويعززوا قوتهم ثمّ تدفقوا على الدوار فجمعوا سكانه، فقبضوا على الرجال وعذبوهم قبل أن يقتلوا منهم ١٢ فرد من بني هديل واثنين جاءوا من قرية أخرى.[٤١]

نحن ما زلنا في جبل "نوفي" ننظر من أعلاه إلى المآسي التي يتعرض لها الشعب، فكل القرية تغطت بالجيش والشاحنات والدبابات، وطائرات العدو، فأصبحت هذه الجهة كلها نار ودخان فلولا فكرة بومدين لهلكنا جميعًا وتكون أكبر كارثة على الثورة في هذه الجهة. لآن كافة المجاهدين كانوا حاضرين هناك، ونحن هكذا ننظر إلى ما يقوم به الجنود الفرنسيون في أوساط المواطنين العزل، وإذا بأحد الحراس يجري نحونا ليخبرنا عن قدوم الخيالة، السبايس من ناحية العزايل في اتجاهنا، وبسرعة افترقت الفصائل الثلاثة: فصيلة بن علال إلى الشرق وفصيلتي صالح إلى الشمال، ونجيب[٤٢] إلى الجنوب تركناهم يتغلغلون في وسطنا، وذلك للتمكن منهم والقضاء عليهم جميعا، هم هكذا يمشون بدون دراية بما يحاط بهم، يتجبرون ببرانسهم الحمراء وخيولهم السمينة، وإذا بقائدهم الفرنسي، يقف بغتة، و يشير إلى الأرض" أنظروا إنها جزة الفلاقة فلم يكد ينتهي من كلامه، وإذا بأحد الجنود يصيبه للقلب، فيصبح جثة خامدة.[٤٣]

كل الخيالة أرادوا أن يرجعوا إلى الوراء، لكنهم لم يقدروا على ذلك سبيلاً، لأننا كنا قد غلقنا حولهم الدائرة، كل الاتجاهات التي سلكوها تلقيناهم منها بالرصاص، فما كان عليهم إلا أن يسلموا أنفسهم ثمّ القبض على(٢٦) من المجموعة التي كانت تتكون من(٧٥) رجلاً والباقي فقد لقو حذفهم ولم يتمكن من الهروب إلا قليل منهم. غنمنا خلال هذه المعركة المفروضة علينا، كمية من الأسلحة منها ٣٠ بندقية أمريكية "كرابين"، ٠٢ رشاشات فرنسية ومسدسين وكذلك جهازين للإرسال أما الخيول فبقت تائهة بين الجبال وعددها ٧٥ حصانا.[٤٤] في حرب التحرير، كذلك إنّ الفرد التلمساني الذي تطوع قلبًا وقالبًا للكفاح في هذه الأخيرة، لم يتورط أبدًا في التعاون مع العدو، ولم ينخرط في صفوف الحركي إلا قلة قليلة ما إن تظهر هذه الفئة يتم إخمادها، ولقد مكّنها موقعها الجغرافي بالقيام بدور حاسم في هذه المرحلة، وشبانها جميعهم، بما فيهم غير المسيّسين قد لبّوا النداء. فقد قدموا النفس والنفيس، من أجل نيل الحرية والاستقلال والعيش في جزائر العزة والكرامة.

خَاتِمَةٌ

لقد استغل قادة جبهة وجيش التحرير الوطنيين المعطيات الجغرافية والبشرية لرقعة الغرب الجزائري في تنظيمها للكفاح المسلح، فركزت الجبهة على تنظيمها للمواقع الاستراتيجية بمنطقة تلمسان من الولاية الخامسة واتخذت من غاباتها الكثيفة معاقل لجيشها. يمكننا القول إن جلّ المؤرخين حول المنطقة حاولوا أن يقدموا عملاً جليلاً، يكون في مستوى ثورة شعبهم العظيمة، إلا الواقع يظهره أن ما قدمه كان دون مستوى عظمة الثورة، ومهما كان المستوى الذي بلغه هذا التدوين فإنه قد خلص إلى ما يلي:

- الكشف عن صمود الشعب الجزائري في وجه القوة الاستعمارية بصورة رائعة تدعوا إلى الاعتزاز والافتخار.
- أنهم كشفوا عن صورة رائعة لبطولات المجاهدين والفدائيين والمسبلين وكذا أهالي منطقة تلمسان.
- فضح الأساليب القمعية الجهنمية التي استعملها جنود المستعمر في تعذيب المجاهدين وكل من له علاقة بالثورة.
- الكشف كذلك عن مخططات المستعمر، والتي حاول من خلالها إبعاد الشعب الجزائري عن ثورته والمتمثل في ادعائه بأن الثوار هم لصوص وقطاع طرق خارجون عن القانون.
- أنهم كشفوا عما كان يتعرض له الشعب الجزائري من قمع وإبادة وإذلال وإهانة، في السجون وفي القرى والمدن والمحتشدات.

تُعَدّ شهاداتهم أيضًا وثيقة صادقة، ومصدرًا لكتابة تاريخ الثورة، كما تعد أداة للتصوير، تصور لنا جانبا من المعارك الحامية الوطيس، والتاريخ يبقى الشاهد الأكبر على شدة مقاومة أهالي المنطقة.

الهَوامِشُ:

(١) عبد القادر بلوفة، **دور المرأة الجزائرية في الحركة الوطنية**، جامعة وهران: مخبر تاريخ الجزائر وإفريقيا، جوان، ١٩٨٩، ص١٠٤.

(٢) عبد الغاني عبد الله يسري، **هل يمكن فلسفة التاريخ**، مصر: دورية كان التاريخية، دار ناشري للنشر الإلكتروني، العدد:٠٤، ٢٠٠٩. ص ٥٧.

(٣) المرجع نفسه، ص ٥٧.

(٤) أحمد الشقيري، **قصة الثورة الجزائرية**، مدرسة توت شامي التعليمية، لبنان: دار العودة، (د.ت) ص٠٥. الموقع الإلكتروني: www.tootshamy.com

(٥) خالد بلعربي، **تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر**، الجزائر: دار الالمعية للنشر والتوزيع، ط: ١، ٢٠١٠، ص١٠١.

(٦) عبد المجيد بوجلة، **الثورة التحريرية في الولاية الخامسة التاريخية**، (مخطوط) رسالة دكتوراه في التاريخ، جامعة تلمسان: كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠٧/٢٠٠٨، ص٨٥.

(٧) المرجع نفسه، ص٨٦.

(٨) المرجع نفسه، ص٨٦.

(٩) الهواري: عبدون المختار من قرية أولاد موسى بناحية بني سنوس، المنطقة الأولى (تلمسان).

(١٠) محمد لمقامي، **رجال الخفاء، مذكرات ضابط في وزارة التسليح والاتصالات العامة**، الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، ٢٠٠٥. ص ١٤٧.

(١١) عبد المجيد بوجلة، المرجع السابق، ص١٦٥.

(١٢) المرجع نفسه، ص١٦٥.

(١٣) فيصل الدراج، **الرواية وتأويل التاريخ**، المغرب: المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠٠٤، ص ٨١.

(١٤) سليمة عذراوي، **الرواية والتاريخ _ دراسة في العلاقات النصية، رواية العلامة لبن سالم حميش نموذجًا ماجستير في الآدب العربي** (مخطوط) جامعة الجزائر، ٢٠٠٥/٢٠٠٦، ص ١١.

(١٥) محمد العربي زبيري، **تاريخ الجزائر المعاصر (١٩٥٤/١٩٦٢)**، ج:٢، دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٩، ص ٠٩.

(١٦) خالد بلعربي، المرجع السابق، ص١٠١.

(١٧) محمد لمقامي، المرجع السابق، ص١٣٢.

(١٨) بلحسن بالي، **ملحمة شبيبة منهكة (سنوات الجحيم ١٩٠٩/١٩٠٠)**، ترجمة: عبد الرحيم منصور، الجزائر ٢٠١٠، ص ٢٢.

(١٩) بلحسن بالي، المرجع نفسه، ص ٢٣.

(٢٠) **مطعيش**: مطعيش عبد القادر، المدعو: سي جابر أو الرائد جابر، شهيد، من قرية أولاد موسى، ويُعَدّ عضوًا قديمًا في المنطقة الخاصة، وهو أحد الأعضاء البارزين لمرحلة التحضير في الخفاء لاندلاع الثورة.

(٢١) المرجع السابق، ص٢٤.

(٢٢) محمد لمقامي، المرجع السابق، ص١٣٢/١٣٣.

(٢٣) أمال شلبي، **التنظيم العسكري في الثورة التحريرية (١٩٥٤/١٩٦٢)**، (مخطوط)، رسالة ماجستير في التاريخ، جامعة باتنة: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ٢٠٠٥/٢٠٠٦، ص ٠٦.

(٢٤) بلحسن بالي، المرجع السابق، ص ١٦/١٧.

(٢٥) محمد لمقامي، المرجع السابق، ص١٣٣.

(٢٦) المرجع نفسه، ص١٣٣/١٣٤.

(٢٧) بلحسن بالي، المرجع السابق، ص ١٣٣/١٣٤.

(٢٨) المرجع نفسه، ص ٢٥.

(٢٩) **عقب الليل**: واسمه الحقيقي محمد بوزيدي، المدعو مختار، مناضل قديم من منطقة صبرة (تلمسان) وقائد الناحية الخامسة، أعدم من قبل محكمة الثورة بتاريخ: ١٧ سبتمبر ١٩٥٦م، بوجدة المغربية.

(٣٠) المرجع السابق، ص ٢٦/٢٧.

(٣١) المتحف الجهوي للمجاهد (تلمسان)، الجزائر: مجلة تضحيات الولاية التاريخية الخامسة، العدد:٠١، ٢٠١٤، ص ٣٥.

(٣٢) المرجع نفسه، ص ٣٥.

(٣٣) المرجع نفسه، ص ٣٥.

(٣٤) المرجع نفسه، ص ٣٦، انظر: **من معارك المجد في أرض الجزائر**، المنظمة الوطنية للمجاهدين (٥٥/٦١) منشورات مجلة أول نوفمبر الجزائر: دار هومه، ، (د ت) ، ص٨٥.

(٣٥) **وادي الشولي**، تقع منطقة وادي الشولي شمال شرق مدينة تلمسان، على بعد ٢٠ كيلومتر، تحديدا بين بلديتي عين فزة وأولاد ميمون.

(٣٦) غوثي شقرون، **الأغنية البدوية الثورية بين فترتي الثورة والاستقلال(١٩٥٤_١٩٦٢) منطقة واد الشولي نموذجًا** جمع ودراسة (مخطوط)، رسالة ماجستير في الأدب الشعبي، جامعة تلمسان: كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠٤-٢٠٠٥، ص ١٧٣.

(٣٧) المرجع نفسه، ص ١٧٥.

(٣٨) المرجع نفسه، ص ١٧٦.

(٣٩) **بن علال**، واسمه الحقيقي قريش عبد القادر، من مواليد سنة ١٩٢٨م، بضواحي عين غرابة ولاية تلمسان.

(٤٠) مجلة تضحيات الولاية التاريخية الخامسة، المرجع السابق، ص ٣٠.

(٤١) المرجع نفسه، ص ٣٠.

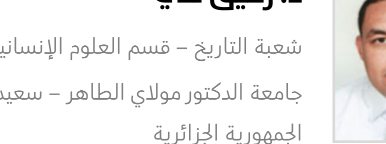
(٤٢) نجيب، شهيد من منطقة سبدو بولاية تلمسان.

(٤٣) المرجع السابق، ص ٣٠.

(٤٤) المرجع نفسه، ص ٣١.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

أحمد بن بلة ودوره في الاتصال بالجبهة الغربية
من أجل دعم الثورة التحريرية

د. رفيق تلي

شعبة التاريخ – قسم العلوم الإنسانية
جامعة الدكتور مولاي الطاهر – سعيدة
الجمهورية الجزائرية

مُلَخّص

يعتبر "أحمد بن بلة" أحد قادة الثورة التحريرية وواحدًا من الوطنيين في المغرب العربي الذين عملوا على تنسيق الكفاح بين الجزائر والمغرب الأقصى ضدّ العدو المشترك الاستعمار الفرنسي، بحيث أنّ الدارس في مساره النضالي سيقف على تلك الاتصالات واللقاءات التي كان يقوم بها على مستوى الجبهة الغربية بهدف كسب التأييد والدعم للثورة التحريرية، وأنّ القاعدة الغربية وبفضل مجهودات "أحمد بن بلة" الذي سمح المغرب الأقصى التّصرف فيها لجيش التحرير الوطني، لعبت دورًا بارزًا في تجاوز الركود التي ميّزت النّشاط الثوري عند الانطلاقة، واستطاعت الحدود الغربية بفضل ذلك فك الخناق على الثورة الجزائرية في مجال السلاح، ولقد كان مصدر هذا السلاح قارة أوروبا عبر مصر التي انطلقت منها العديد من السفن المحملة بالسلاح والتي استأجرتها الثورة أو اشترتها لنقل السلاح إلى الحدود الغربية، وكان يتم تفريغ هذه الأسلحة بالشواطئ الإسبانية أو المغربية وبعد ذلك تتكفل عناصر مغربية مدعومة من قبَل الثوار الجزائريين في نقل هذه الأسلحة والذخائر إلى الداخل من أجل مواصلة الثورة في وجه الاستعمار الفرنسي.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٢٣	أبريل	٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر:	١٩	مايو	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:
أحمد بن بلة؛ الجبهة الغربية؛ الثورة التحريرية؛ السلاح؛ الاستعمار الفرنسي

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.168333

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
رفيق تلي. "أحمد بن بلة ودوره في الاتصال بالجبهة الغربية من أجل دعم الثورة التحريرية".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد الثامن والأربعون؛ يونيو ٢٠٢٠. ص ١٥٣ – ١٦٢.

Corresponding author: rafik.telli87@gmail.com
Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

مُقدِّمَةٌ

يزخر تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر بالعديد من الشخصيات في الساحة السياسية الوطنية، ولعل من أبرزهم رجل امتزجت حياته الشخصية بالنّضال والنشاط السياسي والتخطيط الواعي لتحقيق الاستقلال لوطنه، إنّه "أحمد بن بلة" الذي يعتبر أحد صناع تاريخ الجزائر المعاصر وأحد آباء الثورة الجزائرية التي خلّصت الجزائريين من ربقة الاستعمار الفرنسي، بحيث أنّ الدارس في مساره النضالي سيقف على أنّه عاش حياة حافلة بالكفاح، وواجه مختلف المصاعب والعراقيل بمواقفه الوطنية فقدّم تضحيات كبيرة، فكان مخلصًا لقضايا وطنه، وهذا كله من أجل تحقيق الاستقلال والحرية لبلاده وللشعب الجزائري. ويعتبر "أحمد بن بلة" أحد قادة الثورة التحريرية وواحدًا من الوطنيين في المغرب العربي الذين عملوا على تنسيق الكفاح بين الجزائر والمغرب الأقصى ضدّ العدو المشترك الاستعمار الفرنسي، بحيث أنّ الدارس في مساره النضالي سيقف على تلك الاتصالات واللقاءات التي كان يقوم بها على مستوى الجبهة الغربية بهدف كسب التأييد والدعم للثورة التحريرية، وهذا ما سيتضح لنا من خلال دراستنا.

أولاً: دور أحمد بن بلة واتصاله بعناصر المقاومة المغربية من أجل دعم الثورة التحريرية

عملت جبهة التحرير الوطني عن طريق قيادة الولاية الخامسة على وضع الاستراتيجيات والخطط من أجل الاعتماد على المغرب الأقصى للتزود بالأسلحة والذخيرة، وبذلك بدأت اتصالات "أحمد بن بلة" بالجبهة الغربية وهذا نظرا للحاجة الماسة لجيش التحرير الوطني للحصول على السلاح في بداية الثورة التحريرية خاصة في المنطقة الغربية في ظل أنّ قيادة المنطقة الخامسة كانت تخضع لرقابة فرنسية مشدّدة، الأمر الذي جعل القيادة الثورية تلجأ إلى كل الوسائل واستغلال كل الأساليب لتوفير الأسلحة والذخائر، واستغلال كل الإمكانات الطبيعية من أجل توصيل السلاح إلى الداخل، وقد لعبت المنطقة الغربية دورا بارزًا في مجال التموين بالأسلحة بالرغم من الصعوبات التي واجهتها، واعتمدت بشكل كبير على القواعد الخلفية بالمغرب الأقصى من أجل ضمان تدفق السلاح[١].

وفي هذا السياق نذكر أنّه بعد اندلاع الثورة التحريرية مباشرة اتّصل "محمد بوضياف" باعتباره المنسق الوطني للثورة بقيادة المناطق يسألهم عن الأوضاع العامة، ومن بين الردود نذكر رد "محمد العربي بن مهيدي" قائد المنطقة الخامسة الذي قال: "إن لم يأتينا سلاح في أقرب وقت فسنفنى حتما"[٢]، فسافر "محمد بوضياف" من القاهرة إلى المغرب الأقصى للبحث عن السلاح وخاصة أن المنطقة الخامسة واجهتها مشكلة التسليح وهي مشكلة تعاني منها جميع المناطق، ولكن حدّتها تفاقمت في المنطقة الخامسة، الأمر الذي أدّى إلى تأخر هذه الأخيرة في العمليات العسكرية واللّحاق بركب الثورة[٣].

ومن هذا المنطلق جرت الاتصالات مع عناصر المقاومة المغربية عن إمكانية الاستفادة منهم غير أنّ الاتصالات الأولى التي نشطها "حسين قديري" لم تؤد إلى أي تعاون[٤]، وقد كان هناك اتصالات أخرى بين "محمد بو ضياف" و"العربي بن مهيدي" في كل من تطوان والناظور الخاضعين للسلطة الإسبانية لتكون بذلك قواعد خلفية لدعم الثورة الجزائرية، وقد التقى في العديد من المرات "محمد بوضياف" و"العربي بن مهيدي" مع مجموعات من المجاهدين بالمغرب الأقصى الذين يمثلون القيادة الميدانية المتواجدة في الناظور والمسؤولة عن الحركة التحريرية المسلحة التي يمثلها كل من عباس بن عمر(عباس المسعدي) والسيد عبد الله(عبد الرحمن الصنهاجي)[٥]، ومن بعد ذلك التقى "محمد بوضياف" بكل من "السعيد بونعيلات" والسّيد "الحسين برادة" والسيد "عبد الله الصنهاجي"[٦]،حيث تلخصت هذه الاجتماعات حول كيفية تزويد المنطقة الخامسة بما يحتاجه المجاهدون من سلاح خصوصا بعدما تلقت الثورة الجزائرية وعودا من القاهرة لإمدادها بالسلاح عبر الحدود الغربية، وكان "أحمد بن بلة" قد زار الناظور عدّة مرات وسوف تكون المنطقة الغربية مركز إصدار رئيسي بالسلاح للمنطقة الخامسة[٧].

ولعل أهم إنجاز تحقق سنة ١٩٥٥ هو مبادرة الوفد الخارجي لجبهة التحرير الوطني وقيادة حزب الاستقلال المغربي في القاهرة لتجسيد الكفاح الموحد الذي نادت به لجنة تحرير المغرب العربي، ويبدوا أنّ القيادة المصرية اشترطت من الطرفين الالتزام بالعمل الموحد كشرط لتقديم دعمها المادي، وفي هذا الإطار عقدت في جانفي ١٩٥٥ اجتماعات تنسيقية بمبادرة مصرية ضمت من الجانب الجزائري "أحمد بن بلة" و"محمد بوضياف" و"بن مهيدي"و"آيت أحمد"، وعن الجانب المغربي "علال الفاسي"و"عبد الكبير الفاسي"، وتم استعراض وضعية الكفاح الجزائري والمغربي وظروف تنسيق العمل بين الجبهتين، واتفقوا على أن تقوم مصر بإمداد الثوار الجزائريين والمقاومة المغربية بالسلاح وأن توصله إلى منطقة الريف الشمالية، وأن يلتزم

جيش التحرير الجزائري وعناصر المقاومة المغربية ببدء الكفاح الموحد والتنسيق بينهما ضمن قيادة مشتركة سميت "القيادة العسكرية العليا لشمال إفريقيا" وتم الالتزام باستمرار الكفاح دون توقف أي طرف حتى يتم التحرير الشامل لأقطار المغرب العربي[٨].

وضمن هذا السياق تكونت لجنة تنسيق مغربية جزائرية يوم ١٥ جويلية ١٩٥٥ بمدينة الناظور[٩]، وهذا من أجل بحث إمكانية إقامة مراكز بالناظور وتطوان لتخزين الأسلحة والعتاد ومراكز أخرى لتدريب عناصر جيش التحرير الوطني[١٠]. وفي هذا الإطار تمكّن "أحمد بن بلة" من الحصول على دعم مصري في مجال السلاح لتكون شحنة السلاح الأولى بالنسبة للجبهة الغربية عام ١٩٥٥ عن طريق سفينة "اليخت دينا"[١١]، إلى الحدود الغربية لتموين الولاية الخامسة والثالثة والرابعة وجزء للمقاومة المغربية[١٢]، والتي كانت تحمل ١٦,٥ طن من الأسلحة والذخائر لجبهة وهران، وعن ظروف هذه الشحنة كان "أحمد بن بلة" قد سافر إلى إسبانيا لإبلاغ مسؤول الجبهة الغربية بكافة التفاصيل لضمان تفريغ شحنة أسلحة "اليخت دينا"، و فعلا أبحر اليخت من ميناء بور سعيد إلى منطقة مليلية المغربية المحتلة من طرف الإسبان[١٣]، حيث وجد بانتظارها جزائريين سوف يتولون نقل السلاح إلى مراكز التخزين[١٤]. وبعد عملية اليخت دينا كانت شحنة أخرى على متن "اليخت انتصار"، ففي ٢١ سبتمبر١٩٥٥ كان اليخت قد غادر ميناء برشلونة الإسباني باتجاه السواحل المغربية[١٥]، وعندما تمت العملية تلقى "فتحي الديب" برقية بنجاحها ولعلها هي التي عززت العمل الثوري منذ بداية أكتوبر ١٩٥٥ في المنطقة الخامسة والجبهة المراكشية[١٦].

وعن هذه الاتصالات التنسيقية بين القيادتين يقول "الطيب الثعالبي": "عندما وصلت الناظور بطلب من بوضياف كان العمل هو استقبال السلاح، والبحث عنه، وتنسيق الكفاح المسلح مع الإخوان المغاربة، والاجتماعات تكون في الناظور، وفي بعض الأحيان الأخرى في تطوان، كلما تحين هذه المناسبات كعملية إنزال الأسلحة الآتية من الشرق ومن إسبانيا إلى الناظور[١٧] بين القيادتين في الجزائر والمغرب الأقصى..."[١٨]، واتفق أعضاء اللجنة على تقاسم الأسلحة، ونصت عليه في تعهد مكتوب تضمن ما يلي: "كل ما وصل ويصل إلى أيدينا من السلاح والذخيرة والمال يأخذ منه إخواننا الجزائريين الثلثين ويأخذ منه المغاربة الثلث"، وقد تكفل جيش التحرير المغربي كذلك بإيصال الأسلحة والذخيرة إلى داخل القطر الجزائري[١٩].

وعلى كل فإنّ الثورة الجزائرية كانت قد قطعت أشواطا وعمت كل منطقة المغرب العربي فإنها أربكت المخططات السياسية والعسكرية الفرنسية، التي أصبحت تبحث عن حلول ومناورات لإجهاض هذا المد التحرري الوحدوي المغاربي، ولذا فتحت مفاوضات ومباحثات مع زعماء الحركة الوطنية في تونس بداية بعد تصريح "منديس فرانس"، ثم مع قادة الحركة الوطنية في المغرب الأقصى، وهذا لإيقاف العمل المسلح في البلدين، لتتفرّغ السلطات الفرنسية أخيرا لمواجهة الثورة الجزائرية التي أصبحت تهدد الوجود الفرنسي بكل أشكاله في المغرب العربي.

ووعيا من قادة الثورة الجزائرية بهذه المخططات وأبعادها كان عليهم مواجهتها بما يتطلبه الأمر. وعلى هذا الأساس سيعمل قادة الثورة المتواجدين في القاهرة أو المتنقلين بين القاهرة والناظور وتطوان وسويسرا ومدريد بعد دخول أطراف من قادة الدستور الجديد في مفاوضات مع فرنسا على توطيد الصلات الجهادية وتكوين جبهة جديدة موحدة لمواصلة الكفاح المسلح المشترك في الجهة الغربية من منطقة المغرب العربي[٢٠]. ولتعبّر الثورة الجزائرية عن غضبها من الاستعمار وسياسته وإظهار بعدها المغاربي تأتي الهجومات التاريخية يوم ٢٠ أوت ١٩٥٥ بمنطقة الشمال القسنطيني المخلدة للذكرى الثانية لنفي "محمد الخامس"[٢١]، بقيادة "زيغود يوسف" مؤكدة هذا البعد، كما تشير إلى ذلك كل الشهادات والمصادر الجزائرية[٢٢].

ومهما يكن من أمر فإن جيش تحرير المغرب العربي بالمغرب الأقصى بدأ المقاومة المنسقة مع الثورة الجزائرية في موعدها في ٠٢ أكتوبر ١٩٥٥[٢٣]، وقد قدّمت حصيلة العمليات الأولى بتاريخ ٠٦ أكتوبر التي أكدت على عنصر المفاجأة ومصادرة ٣٨٠ قطعة سلاح وقدمت ضحايا الهجمات المتمثلة في ٧١ قتيلا في أغلبهم من الأوروبيين، وتواصلت المعارك بعد ذلك شمال تازة وفاس بين المقاتلين والجيش الفرنسي في عدة مناطق من المغرب الأقصى حتى شهر أبريل ١٩٥٦[٢٤]. لقد أصدرت جبهة التحرير الوطنية الجزائرية وحركة المقاومة المغربية يوم ٠٤ أكتوبر ١٩٥٥ بلاغا مشتركا ينص على تكوين قيادة موحدة تتولى الإشراف على حركة التحرير القائمة في القطرين والتي سينضوي جميع أفرادها في جيش يسمى جيش تحرير المغرب العربي، وقد صدر البلاغ الأول من هذا الجيش يعلن عن أهدافه كالتالي:

١- الكفاح حتى النهاية في سبيل الاستقلال التام لأقطار المغرب العربي.

٢- اعتبار كل مواطن ينادي بخلاف ما ذكر خارجا على ما اجتمعت عليه البلاد والحركات الوطنية الفدائية ومثل هؤلاء لا يمثلون إلا أنفسهم.

٣- عدم التقيد بأي اتفاقيات أو تعقد مسبقا لا تحقق الهدف الأول كاملا.

واختتم البيان بتوجيه نداء إلى جميع المواطنين للتجنيد، حماية للمجاهدين من أجل القضية الوطنية والحذر من مكائد الخونة والمشككين[٢٥].

وبفضل التنسيق ما بين القيادة المشتركة استطاعت الثورة الجزائرية والمقاومة المغربية أن تجسد شعارات الحركة الوطنية وتوحيد المعركة المسلحة، ويذكر "الطيب الثعالبي" أنّ "جبهة التحرير الوطني كانت قد نسقت العمل مع المقاومة المغربية وفي نية الدول الثلاث فتح جبهة دفاع مشتركة بين "صالح بن يوسف" وجبهة التحرير والمقاومة المغربية، وذلك للتصدي لعدو مشترك، وكان جيش المقاومة المغربية قد بدأ شن المعارك ضد قوات الاحتلال وقد تدرّبت بعض عناصره على يد كل من نذير بوزار والعربي بن مهيدي"[٢٦].

وبعد الأحداث السريعة الخاصة بقضيتي المغرب الأقصى وتونس وفتح مفاوضات مع الحكومة الفرنسية، وعودة "محمد الخامس" إلى عرشه. إن هذه التطورات أفرزت واقعًا جديدًا بالبلدين الشقيقين يوشك أن يضع الثورة الجزائرية في وضع معزول، فوجدت الإدارة الاستعمارية الفرنسية من الضرورة الإسراع في الإعلان على استقلال كل من تونس والمغرب الأقصى خاصة بعد النتائج التي تحقّقت على صعيد تحالف الجبهتين الجزائرية والمغربية في إطار جيش تحرير المغرب العربي[٢٧]، حيث خشيت الإدارة الاستعمارية من تطور الأحداث وانزلاقها وبالتالي يكون من الصعب عليها التحكم فيها وقد تخسر بذلك كل شيء وخاصة الجزائر التي تعدّ أهم مستعمراتها في المغرب العربي[٢٨].

وكان بإمكان هذا التوجه الوحدوي في الكفاح المسلح أن يحقّق انهيارا للنفوذ الفرنسي بالشمال الإفريقي، فاضطرت الحكومة الفرنسية أمام توسع العمليات المسلحة لوضع حد لتعاون جبهة التحرير الوطني مع الأجنحة المتشددة للحركات الوطنية بالمغرب الأقصى وبتونس للتسليم باستقلال المغرب الأقصى في مارس ١٩٥٦ والتخطيط لضرب التنظيم العسكري لحركة المقاومة المغربية وعزلها عن الثوار الجزائريين، إذ أصبح التوجه العام في المغرب الأقصى بعد عودة الملك يدعو إلى إيقاف العمل المسلح[٢٩].

لقد تأثرت جبهة التحرير الوطني عندما قبل المغرب الأقصى المفاوضات مع فرنسا لأنها متأكدة من أنّ استقلال المغرب الأقصى أريد له أن يكون وسيلة لخنق الثورة الجزائرية، لكن وبفضل سياستها قامت بتفويت الفرصة على الاستعمار الفرنسي ومخططاته، وبذلك حرصت على عدم الدخول في أي عمل مغاربي مشترك لوعيها بواقع كل من المغرب الأقصى وتونس، وبالتالي تجنّب دخولها في صراع سياسي مع النظامين المغربي والتونسي، واعتبر قادة الثورة الجزائرية فتح السلطات الفرنسية باب المفاوضات لإنهاء القضية المغربية بهدف إفشال الثورة المغاربية المشتركة التي كان يقودها رجال جيش تحرير المغرب العربي من جهة، ومخططا لعزل الثورة الجزائرية تمهيدًا للقضاء عليها نهائيا من جهة أخرى[٣٠].

ثانيًا: اتصالات أحمد بن بلة بالملك المغربي محمد الخامس من أجل دعم الثورة التحريرية

بعد عودة الملك محمد الخامس إلى عرشه بدأت اتصالات "أحمد بن بلة" به (محمد الخامس) وذلك من خلال اللقاء الذي جرى بينهما في ١٠ أبريل ١٩٥٦ في مدينة إشبيلية التي حل بها للتوقيع على إنهاء الحماية الإسبانية، حيث قال الملك لـ "أحمد بن بلة" "... يا أحمد لدي إطلاع واسع باتفاقكم المغاربي المشترك حتى استقلال دول المغرب العربي، لكن ماذا أفعل؟ هم تفاوضوا معي حول استقلال المغرب الأقصى فهل أرفض ذلك؟ لماذا لا أقبل به؟ وبذلك يصبح المغرب الأقصى عمقا استراتيجيا لكم، وأعاهدكم بأني سأكون معكم في السراء والضراء"[٣١].

وفي هذا الخصوص أدلى "أحمد بن بلّة" بشهادة تعطي تفاصيل حول هذا اللقاء الذي تمّ بينه وبين "محمد الخامس" في مدريد، وممّا جاء في الشهادة: "... كانت قيادة الثّورة الجزائرية قد اجتمعت واتّفقت بعد مداولات طويلة تتضمّن ٢٥ نقطة، وكان بعض الإخوان في قيادة الثورة يعتقدون أنّه من الصّعب بمكان الاستجابة لكلّ النّقاط، لكن المفاجأة كانت استجابة محمد الخامس لجميع النّقاط، بل أضاف إليها أشياء كثيرة لم يكن قادة الثّورة الجزائرية يحلمون بها"[٣٢].

وفعلاً وبفضل مجهودات "أحمد بن بلة" تم وضع النواة الأولى للتنظيم العسكري لجبهة التحرير بالمغرب الأقصى منذ انطلاق الثورة الجزائرية، حيث أضحى المغرب الأقصى بمثابة القاعدة الخلفية للثورة الجزائرية بصفة عامة والمنطقة الشرقية بصفة خاصة[٣٣]، ومن هذا المنطلق اجتهدت قيادة الثورة سواء في الخارج وعلى رأسها "أحمد بن بلة" الذي كان يبحث سبل

الحصول على الأسلحة لصالح الثورة عند الأشقاء العرب أو في الداخل ممثلة في المنطقة الخامسة[٣٤] من أجل ربط علاقات ودية مع المغرب الأقصى وملكها "محمد الخامس" من أجل الحصول على الأسلحة وتهريبها عبر الحدود المغربية، وقد أفضت الجهود المبذولة إلى تكوين قاعدة دعم ومساندة للثورة الجزائرية بإسبانيا برئاسة "أمحمد يوسفي" من أجل الحصول على الأسلحة والذخيرة[٣٥].

وبذلك أدّت هذه الاتصالات بالملك إلى تركيز نشاط الجزائريين بالمغرب الأقصى، فقد كانت الحدود سهلة العبور وحرّية التحرّك مسموحة بعد استقلال المغرب الأقصى، أمّا الدعم العسكري المباشر فقد تكرّس بعد اتصالات "أحمد بن بلة" مع "محمد الخامس" إذ تم الاتفاق خلالها على تقديم مساعدات عسكرية وأموال لشراء الأسلحة بطريقة سرّية وبحضور "عبد الحفيظ بوصوف" شخصيا الذي ارتبط من خلال نشاطه باتصالات وثيقة مع "محمد الخامس" والمسؤولين في المغرب الأقصى، فضلاً عن الاجتهادات التي قامت بها قيادة الثورة في المنطقة الخامسة، وذلك بالتنسيق مع المقاومين المغاربة لترتيب عملية نقل الشاحنات بحرًا إلى غاية الناظور في الأراضي المغربية تمهيدًا لنقلها إلى الجزائر عبر المنطقة الحدودية[٣٦].

ثالثًا: نتائج دور أحمد بن بلة في اتصاله بالجبهة الغربية من أجل دعم الثورة التحريرية

ازداد نشاط "أحمد بن بلة" عام ١٩٥٦، حيث أنّ نجاح تهريب السلاح عبر البحر أقنعت قادة الولاية الخامسة بفاعلية الطريق البحري[٣٧]، وبالتالي وصلت سفينة "ديفاكس" محملة بكمية من الأسلحة لتدخل عبر الحدود المغربية لتصل إلى أفراد جيش التحرير الوطني[٣٨]، إضافة إلى العديد من السفن الأخرى المحملة بالأسلحة والذخيرة.

ونتيجة للاتصالات المكثفة التي قام بها "أحمد بلة" فإنّ الموانئ المغربية شهدت حركة كبيرة في عمليات إفراغ الأسلحة الموجهة إلى الثورة الجزائرية، حيث رست عدّة سفن ومنها: باخرة كوستاريكا بميناء الدار البيضاء سنة ١٩٥٦ وباخرة رستار (Rastare) التي أفرغت حمولتها بالناظور في ٠٧ جويلية ١٩٥٦ وغيرها من السفن المحملة بالأسلحة لصالح الجبهة الغربية[٣٩]، وبالتالي ساهمت شبكات التسليح سواء الأسلحة المصنعة أو المهرّبة في تطور القدرات القتالية لجيش التحرير الوطني على الجبهة الشمالية والغربية إلى منطقة عمليات حربية على الحدود الجزائرية المغربية، بحيث تمكنت كتائب جيش التحرير الوطني من الحصول على كميات كبيرة من الأسلحة الحديثة والذخيرة الحربية، التي ساهمت بشكل كبير في ميلاد فكرة إنشاء الفيالق وظهور تنظيم عسكري حديث لجيش التحرير الوطني، وانعكست عملية دخول الأسلحة بكميات معتبرة على ارتفاع عدد المجندين من الشباب وتدريبهم في مدة زمنية قصيرة لا تتجاوز ٤٥ يومًا.

إضافة إلى ذلك تمكنت قيادة الثورة من تأسيس مراكز تدريب وقواعد حربية بعد أن تحصلت على بعض التسهيلات لتمرير الأسلحة عبر الحدود الغربية إلى الداخل وبذلك أصبح جيش التحرير الوطني خلال سنتي ١٩٥٨ و١٩٥٩ يملك على الحدود الجزائرية المغربية قدرة عسكرية تمثلت في ٧٠٠ مجاهدًا مسلحين سلاحا حربيا وكثير من المجاهدين لم تضبط المصادر عددهم كانوا يتوزعون على مراكز الثورة في الحدود الغربية. كما سجلت المصادر التاريخية أنّ المجاهدين تمكنوا من تهريب الكثير من الأسلحة إلى الولايات الداخلية عبر الحدود الغربية حيث عبرت في الفترة بين فاتح يناير و٢٠ نوفمبر ١٩٥٩، ٤٥٠ قطعة سلاح و٢٥٠٠٠٠ خرطوشة و٢٥٠٠ قنبلة يدوية[٤٠].

والواقع أنّ الوفد الخارجي الذي كان يترأسه "بن بلة" قد لعب دورًا كبيرًا في مجال الحصول على السلاح ونشير فقط هنا أنّه مع بداية ١٩٥٦م كانت ٨٢٠٠ قطعة سلاح قد أرسلت إلى المنطقة الأولى عبر ليبيا ثم تونس بالإضافة إلى ٢٠٠٠ بندقية و٥٠٠ رشاشا كانت موجودة بمخازن الإسكندرية بمصر، وبناء على نشاط الوفد الخارجي أعلن "جمال عبد الناصر" في خطابه عام ١٩٥٦م على ضرورة الدعم السريع بالسلاح للثورة الجزائرية بالاعتماد على مخازن السلاح الموجودة بمصر، وفي هذه الأثناء كان بن بلة قد اشترى ٦٥ مدفع بازوكا إلى جانب ٥٠٠ رشاش و٥٠٠ بازوكا و١٠٠ قذيفة من النوع الإيطالي تم اقتناؤها عن طريق سورية، كما تمكن الوفد الخارجي من شراء ٣٥٠ طن من الأسلحة الخفيفة والثقيلة ونقلها عن طريق سفن شحن أوروبية عبر رحلتين، حيث تمت الرحلة الأولى عبر الجبهة الغربية التي استفادت من ١٥٠٠ قطعة سلاح، والرحلة الثانية إلى طرابلس حيث تم تفريغ ٤٥٠٠ قطعة سلاح ليتم نقلها إلى المنطقة الأولى والثانية والثالثة بالجزائر عبر ليبيا وتونس[٤١].

ويذكر "بوداود منصور" أنّه "...لما تحقّق الاستقلال المغربي اتصلوا (المغربيون) بالأخ بوضياف وأخبروه بوجود باخرة على الحدود الإسبانية، وإذا كنا محتاجين ندفع ونأخذ. حقيقة أدخلنا تلك الباخرة بتاريخ ٢١أكتوبر ١٩٥٦ ليلة اختطاف الطائرة، أدخلنا

٦٠ طنا من حمولة الباخرة، والقليل من حمولتها استعمل هنا في العاصمة الجزائر..."[٤٢]، وتواصلت الإمدادات بالأسلحة بحظوظ متفاوتة في النجاح واستطاع "بوصوف" أن يكسب تعاون السلطات المغربية بقيادة "محمد الخامس" خلال سنة ١٩٥٧، إذ أصبح تفريغ بعض السفن المحملة يتم بتعاون مع قوات الجيش الملكي التي ساهمت في نقلها إلى الحدود الجزائرية، كما سمحت بمرور قوافل الأسلحة القادمة من إسبانيا[٤٣].

ونظرًا للمراقبة الفرنسية المفروضة على الحدود الغربية كانت قيادة الثورة في الجهة الغربية مستعدة لوضع خطة واستراتيجية للخروج من دائرة هذه المراقبة ومواصلة إمداد المنطقة الغربية بالسلاح، حيث تأكّدوا أنّه من الضرورة البحث عن وسائل متطورة من أجل ضمان إيصال السلاح إلى أفراد جيش التحرير الوطني، وكانت هذه الاستراتيجية تتمحور حول ثلاث نقاط رئيسية لخصها عبد الحفيظ بوصوف فيما يلي:

١- تكوين مختصين جزائريين في مجال الاتصالات وفتح تربصات تكوينية في هذا المجال من أجل خدمة جيش التحرير.

٢- ضمان تزويد جيش التحرير الوطني بكل ما يحتاجه من مؤن وأسلحة وذخائر انطلاقا من القواعد الخلفية عبر التراب المغربي وإسبانيا.

٣- التصدي للمخابرات الفرنسية وذلك عن طريق الجوسسة المضادة بهدف رفع معنويات جيش التحرير[٤٤].

وتجدر الإشارة إلى أنّ الموانئ المغربية شهدت حركة كبيرة في عمليات إفراغ الأسلحة الموجهة إلى الثورة الجزائرية، وبناء على التقارير الفرنسية المقدمة في نوفمبر ١٩٥٦ فإنّها تذكر بأنّ الوثائق التي تم العثور عليها لدى الوفد المختطف ١٩٥٦ تشير إلى حجم عمليات التسليح الكبيرة التي كانت تتم مع بعض المتعاملين الأمريكيين، وأنّ قيمة التعامل في هذا الجانب وصل إلى ثلاثة ملايين دولار أمريكي، وتذكر تقارير أخرى بأنّ تزود الثورة الجزائرية بالأسلحة الأمريكية كان يندرج في إطار نشاط بعض الرعايا الأمريكان في تهريب الأسلحة إلى الدول العربية بهدف كسبها لمعاداة المد الشيوعي في هذه المنطقة، وقد أدّى ذلك إلى استفادة الثورة الجزائرية من عمليات التهريب التي كانت تتم بين أمريكا وبعض الدول العربية من خلال بعض المتعاملين[٤٥].

وفي بداية ١٩٥٦ رست الباخرة "كوستاريكا" بميناء الدار البيضاء وكانت مُلكًا مشتركا بين سويسريين وألمان وهولنديين وقد قُدّرت حمولة هذه الشحنة بثلاثمائة قطعة سلاح، وقد تمت العملية باسم مصرف يهودي بدعوى أنّ هذه الأسلحة موجهة إلى إسرائيل، كما استعانت جبهة التحرير في عمليات تهريب بمهربين من مختلف الدول الأوروبية وكذا بعض المعمرين الأوروبيين كالفرنسي "باركن" (Pargan) الذي كان يعتبر أهم المختصين في عمليات تهريب الأسلحة عبر البحر الأبيض المتوسط، وقد كان معدل القطع من الأسلحة المهربة حوالي خمسين قطعة في الشهر، ونتيجة لارتفاع عمليات التهريب عبر هذه المنطقة خاصة في النصف الثاني من سنة ١٩٥٦ فقد شرعت سلطات الاستعمار الفرنسي في مواجهة ذلك وشرعت تقوم بتقارير مفصلة حول عمليات التهريب عبر هذه المنطقة.

لقد استعانت الثورة الجزائرية بنقل الأسلحة من بعض الدول الأوروبية إلى المغرب الأقصى مثل الشركة المغربية للاستيراد والتصدير ومديرها المدعو "إدريس السلاوي" وكان وزير التجارة والصناعة والمناجم في الحكومة المغربية اليسارية ويرأسها "عبد الله إبراهيم" وكان يسيرها "محمد بن حمو الفخري" وقد اعتقل مسيّر هذه الشركة في ٢٣ سبتمبر ١٩٥٧ بتهمة التهريب، كما استعانت الجبهة بشركة (Omnium marocain industriel etchique) المتواجدة بالدار البيضاء وكانت تقوم بشراء الأسلحة الثقيلة كما استعانت الجبهة بالبحرية المغربية في نقل الأسلحة وقد قدّمت البحرية المغربية يد المساعدة للثورة وكانت الموانئ المغربية في خدمة الثورة الجزائرية، وفي هذا الجانب كان ممثل الجبهة بالناظور قد تقدّم في ٢٨ فيفري ١٩٦١ إلى السيد "امحمد بن جيلاني بناني" مدير البحرية التجارية المغربية لنقل الأسلحة إلى الناظور عبر زورق وقد تم تلبية هذا الطلب وتم الاعتماد على الزوارق كونها يمكن أن تفلت من تعقب القوات البحرية الفرنسية[٤٦]، حيث وفي ٢٨ ماي ١٩٥٦ رست باخرة بميناء أركان بالناظور وبعد ذلك بيوم فقط حملت هذه الأسلحة على الشاحنات نحو الحدود الجزائرية، وفي خريف ١٩٥٦ كانت ثلاثة بواخر أفرغت حمولتها بالناظور، وقد تم نقل هذه الأسلحة نحو بعض المراكز العسكرية التابعة للثورة الجزائرية بالمغرب الأقصى خاصة تلك المتواجدة بجبال أفغار بالقرب من منطقة بركان حيث قاربت كمية الأسلحة التي أفرغتها أنها تسلح ما يقارب أربعة آلاف جندي حيث نقلت هذه الأسلحة ليلاً، كما نجد باخرة (Rastare) التي أفرغت حمولتها

بالنــاظور في ٠٧ جويليــة ١٩٥٦، كمــا شــهدت مــوانئ الشــمال المغـربي في شـهر ديسـمبر مـن نفـس السـنة حركـة كبـيرة في عمليـات البـواخر المحملـة بالأسـلحة، ففـي ١٥ ديسـمبر انطلقـت ثلاثة شاحنات من الناظور نحو الحدود الجزائريـة، وفي ٣٠ ديسـمبر ١٩٥٦ رست الباخرة (Jaimee) وحمولتها تقدر بستمائة صندوقا مـن الأسـلحة تـم إنزالهـا ناحيـة (Alchucemas)، وفي١٤ جـانفي ١٩٥٧ رسـت البـاخرة (Jaugeant) والتي قـدّرت حمولتهـا بحـوالي مائتي طـن، وقـد قامـت السلطات المصرية في ٢٣ مارس ١٩٥٧ بشراء شحنة مـن الأسـلحة مـن أوروبا الشرقية باسـم المغـرب الأقصى وحوّلتها بعد ذلك نحو الموانئ المغربية وأفرغت الحمولة المقـدرة بمـائتي رشـاش وخمسـون ألـف خرطـوش و٢٠٠ قذيفـة هون، ومليون خرطوشة من نوع ٩ ملم، وفي شهر ماي من سنة ١٩٥٧م تسـلّم المجاهـد "محمـد الهـادي عرعـار" شـحنات مـن الأسلحة ثم نقلها على متن المركب الإسباني "إخوان إيلوكس" الـذي غـادر ميـناء الإسـكندرية إلى ميـناء سـبتة بالمغــرب الأقصى[٤٧]، وفي شهر سبتمبر ١٩٥٧ أفرغت حمولة من الأسلحة كانت عـلى مـتن البـاخرة (Srudja) وقـدّرت بحـوالي ٧٠ ألـف طـن مـن الأسـلحة والـذخيرة وقسـم كبـير مـن هـذه الأسـلحة نقـل مباشرة نحو الحدود المغربية الجزائرية[٤٨].

ولقـد ازدادت عمليـات شـحن السـفن بالأسـلحة والـذخيرة ورسوها في الموانئ المغربيـة كميناء الدار البيضاء حيث رست في ٢١ نوفمبر ١٩٥٧ الباخرة اليوغسلافية (Sbrija) وكانت محملة بحوالي ثمانية وسبعون طن من الأسلحة والذخيرة، ونشير هنا إلى أنّ عملية التفريغ لهذه الحمولة كانت قد قامت بها الوحدات الخاصة التابعة للجيش المغربي بالدار البيضاء بمساعدة بعض عمال الميناء وقد نقلت هذه الأسلحة بعد ذلك نحـو الحـدود الجزائريــة، وفي ٠٩ ديســمبر ١٩٥٨ رســت باخــرة ألمانيــة (Ravensberg) وكــان عــلى متنهــا ثمانيــة وســتّون طــن مــن الـذخيرة والعتـاد الحـربي وقـام الجـيش الملـكي المغـربي بنقـل الأسلحة وتقديمها للثوار الجزائريين، كما رست سفينة نرويجية في ١٢ ديسمبر ١٩٥٨ ومحملة بسبعين ألف طن من الذخيرة. وفي جانفي ١٩٥٩ تم إفراغ شحنة الباخرة (Monkedem) بميناء الدار البيضـاء حـوالي تسـعمائة طـن مـن العتـاد الحـربي وطنـين مـن السـكر للتمويه، وقـد تـم شراء هـذه الأسـلحة باسـم القـوات المسلحة المغربية وعلى أنها سكر[٤٩].

وهنـا تجـدر الإشـارة إلى أنّـه تـم عقـد العديـد مـن اللقـاءات لقادة جبهة التحرير الوطني مع السلطات المغربية خلال النصف الثـاني مـن سـنة ١٩٥٩م عـن اسـتعداد "محمـد الخـامس" الكامل لـدعم الثـورة الجزائريـة عسـكريًا وسياسـيًا، وتجـاوز الخلافـات الهامشية[٥٠]، واتخاذ كـل الإجراءات المسهلة لوصول الأسلحة والمعـدات العسـكرية عـبر المغـرب الأقصى، وخـلال الـزيارة الرسمية لوفد الحكومة الجزائرية في ماي ١٩٥٩ تقدم "بوصوف" وكريم بلقاسم لمحادثة الملك فيما يخص الوضع العسكري لجيش التحرير الوطني المرابط بالحدود وحاجته للأسلحة والذخيرة مـن أجل مواصلة كفاحه الذي يشرف عـلى نهايتـه، وشرحوا لـه الصـعوبات الـتي تـواجههم في مـرور الأسـلحة متلمسـين تقـديم العـون والتسـهيلات الممكنـة فوعـدهم الملـك بالاسـتفادة مـن مساعدات سيسهر الجيش المغربي على تنفيذها، وأعطى أوامره لـ "الأمير الحسن" بتحويل مخزون أسلحة فرقة عسكرية بالرباط إلى الحـدود وتسـليمها لجيش التحريـر الـوطني الجزائري، كما وعد الملك في لقائه مع قائد أركان الغرب "هـواري بومدين" بتقديم تسهيلات لشراء الأسلحة باسم حكومته، وتـم تقديم ٣ ملايين فرنـك لـوزير الماليـة والاقتصـاد المغـربي "عبـد الـرحيم بوعبيـد" ليتكلـف بـإجراءات إنهـاء عقـد شراء أسـلحة يوغسـلافية لصالح جيش التحرير في نهاية ١٩٥٩.

وعـلى الـرغم مـن الإجـراءات الفرنسية المشـددة اسـتفادت الجبهة الغربية عام ١٩٦١م بشحنة سلاح وذخائر كانت موجهـة إلى ولايـة وهـران كانـت بحاجـة إليهـا وتـم نقـل الشـحنة عـلى مـتن البـاخرة "راوريجـون" في أوائـل شـهر فيفـري وتـم تفريغهـا بأحـد الموانئ المراكشية بالاتفاق مع السلطات المغربية التي تلقت أوامـر مـن "محمـد الخـامس" لتسـهيل مهمـة اسـتقبال وتهريـب السلاح، وقد كان مندوب جبهة التحرير بالقاهرة "محمد القادري" هـو المسـؤول عـلى التنسيق مع الحكومة المصرية فيما يتعلق بهذه الصفقة التي تحتوي على ٥٠٠٠ رشاش عيار ٠٧,٦٢ ملم، و٤٠٠٠ رشـاش قصـير عيـار ٧,٨ ملم و ٣٠٠٠ رشـاش خفيـف مـن عيـار ٧,٦ ملـم، و ٢,٦ مليـون طلقـة عيـار ٧,٦ ملـم للرشـاش القصـير، ٤,٨ مليون طلقة عيار ٧,٦ للرشاش الخفيف، وكان إجمالي الشحنة ما يقارب ٢٤٤ طن[٥١].

وفي شـهر جـانفي ١٩٦١م طلبـت قيـادة جبهـة التحريـر الـوطني تغطيـة لتـأمين وصـول شـحنة مهمـة مـن الأسـلحة إلى ميـناء حـر بالمغــرب الأقصى، وهــذه الأســلحة كانــت موجهــة للولايــة الخامسة، وقـد تـم الاتفـاق عـلى نقـل الشـحنة مـن مصر بحضور ممثل الحكومة المؤقتة "محمد قاديري" وقد حملت الأسلحة على متن المركب "أورغـان Ourgan" وكـان وزن الشحنة يقـدر بـــ٢٦٤ طـن مـن الأسـلحة والـذخائر وقـد وصـل المركـب إلى السـواحل المغربيـة يوم ٠٤ فيفري١٩٦١[٥٢].

لقد تزايدت المساعدات العسكرية المغربية فأصبح المغرب الأقصى بمثابة قاعدة مهمة في تزويد الثورة الجزائرية بمختلف الأسلحة والذخيرة القادمة من الخارج، الأمر الذي أعطى دفعا قويا وعزيمة من أجل مواصلة الثورة ضدّ الاستعمار الفرنسي، وخلال اجتماع الوفد الجزائري بـ "محمد الخامس" خلال مارس ١٩٦٠ بالسماح بمرور المعدات العسكرية من أسلحة وذخيرة وتنقل المتطوعين الأجانب(٥٣)، كما تم التوقيع على اتفاقية ما بين الطرفين تقضي بتوسط السلطات المغربية لاقتناء الأسلحة لصالح جيش التّحرير الجزائري بشرط إعلام السلطات المغربية واحترام السيادة المغربية وهذا ما نستشفه من الحوار الذي دار ما بين الدكتور "شوقي مصطفاوي" و"عبد الكريم الخطيب" الذي يقول:"...أنّ الحكومة المغربية تقترح ما يلي: أن تتعهد الحكومة المؤقتة باحترام السيادة المغربية على المناطق الحدودية (التابعة للمغرب الأقصى)، مقابل التكفل باقتناء الأسلحة اللازمة لفائدة جيش التحرير الجزائري"(٥٤).

خاتمةٌ

عند هذا المقام يمكن القول أنّ القاعدة الغربية وبفضل مجهودات "أحمد بن بلة" الذي سمح المغرب الأقصى التّصرف فيها لجيش التحرير الوطني، لعبت دورًا بارزًا في تجاوز الركود التي ميّزت النّشاط الثوري عند الانطلاقة، فعرفت الجبهة الغربية نشاطا ثوريّا عقب هجومات أوت ١٩٥٥، واستطاعت الحدود الغربية بفضل ذلك فك الخناق على الثورة الجزائرية في مجال السلاح، لاسيما وأنّ الدبلوماسية الجزائرية كانت تنشط بالمغرب الأقصى وحتى إسبانيا من أجل تسهيل تمرير الأسلحة وتهريبها إلى الداخل، لقد كانت شبكات الأسلحة تقوم بنشاط بارز تعزّز بصفة أكبر بعد أن تولّى "عبد الحفيظ بوصوف" قيادة الولاية الخامسة، ولقد كان مصدر هذا السلاح قارة أوروبا عبر مصر التي انطلقت منها العديد من السفن المحملة بالسلاح والتي استأجرتها الثورة أو اشترتها لنقل السلاح إلى الحدود الغربية، وكان يتم تفريغ هذه الأسلحة بالشواطئ الإسبانية أو المغربية وبعد ذلك تتكفل عناصر مغربية مدعومة من قبَل الثوار الجزائريين بالتنسيق مع شبكة التهريب الجزائرية في نقل هذه الأسلحة والذخائر إلى الداخل من أجل مواصلة الثورة في وجه الاستعمار الفرنسي.

الهَوامِشُ:

(١) بوبكر حفظ الله، **التموين والتسليح إبان ثورة التحرير الجزائرية ١٩٥٤ -١٩٦٢**، طاكسيج كوم للدراسات والنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠١١، ص٢٦٤.

(٢) زكي مبارك، **المغرب والثورة الجزائرية دعم شعبي غير محدود ومؤازرة حكومية صريحة**، مجلة الذاكرة الوطنية، عدد خاص، إصدارات (المندوبية السامية لقدماء المقاوين وجيش التحرير، منشورات كوثر، الرباط، المغرب، ٢٠٠٦، ص٢٦.

(٣) الطاهر جبلي، **الإمداد بالسلاح خلال الثورة الجزائرية ١٩٥٤-١٩٦٢**، دار الأمة، الجزائر، ٢٠١٣، ص ص٢٦٠-٢٦٤.

(٤) عبد الإله بلقريز وآخرون، **الحركة الوطنية المغربية والمسألة القومية ١٩٤٨-١٩٨٦**، محاولة في التاريخ، ط١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٢، ص٢٦١.

(٥) الغالي العراقي، **ذاكرة نضال وجهاد**، ط١، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠٢، ص١٤٤.

(٦) شهادة السعيد بونعيلات، مقابلة ببيته، الدار البيضاء، بتاريخ ٣٠ مايو ٢٠١٥.

(٧) شهادة أحمد بن بلة "التسليح أثناء الثورة"، تسجيل صوتي منقول، تاريخ الجزائر (١٨٣٠-١٩٦٢)، قرص مضغوط، الصادر عن المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة نوفمبر ١٩٥٤، وزارة المجاهدين، الجزائر، ٢٠٠٣.

(٨) فتحي الديب، **عبد الناصر وثورة الجزائر**، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٨٤، ص ص٧٣-٧٤.

(٩) انتخب "عباس المسعدي" كاتبا للجنة ومحمد بوضياف أمينا لها، وبدأت عملها التنسيقي الذي شمل ميادين الاتصالات والدعاية والتدريب وإنشاء المراكز العسكرية، ووضع خطط مشتركة ومنسقة في داخل القطرين الشقيقين. انظر: عبد الله الصنهاجي، **مذكرات في تاريخ حركة المقاومة المغربية وجيش التحرير**، مطبعة فضالة، المحمدية،١٩٨٧، ص٢٨٩.

(١٠) نفسه، ص٢٨٩.

(١١) يخت دينا في الأصل ملك الملكة دينا الأردنية وهو يحمل اسمها، وقدّمته في شكل إعارة غير أنّها لم تكن تعلم بإيجاره اتجاه السواحل المغربية إلّا بعدما تلقت خبر توقيفه من طرف السلطات الأمنية الإسبانية وإخضاعه للحجز، ووقفت بذلك موقفًا مشرفًا عندما أبلغت سلطات مدريد بأنّ اليخت كان يبحر بإيجار منها، انظر:

Mohamed Teguia, l'Algérie en guerre, offices des publication universitaires, Alger, 1988., pp102-103.

(12) Monier Gilbert, Histoire Intérieure du FLN 1954-1962, Editions Casbah, Alger, 2003.,2003, p168

(١٣) كانت حمولة اليخت أسلحة متنوعة وذخيرة ما بين البنادق ورشاشات وكميات من الرصاص وقنابل وفتيل وغيرها، وهي أسلحة خفيفة، يمكن استخدامها في حرب العصابات، كما رافق الشحنة ضباط جزائريون الذي جرى تدريبهم وإعدادهم في مصر ليتولوا مهمات عسكرية في الثورة وهم: محمد صالح عرفاوي وعلي مجاوي ومحمد بوخروبة (الرئيس هواري بومدين) عبد العزيز مشري ومحمد عبد الرحمن ومحمد حسين أحمد شنّوت. انظر: عزيز الساطوري، **السعيد بونعيلات مسار مقاوم**، حوار سيرة ذاتية، ط١، منشورات مؤسّسة محمد الزرقوطي

للثقافة والأبحاث، مطبعة دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠٥، ص٥٤.

(١٤) بعد الانتهاء من إفراغ السفينة من الأسلحة وحملها إلى البر، لم تكن الظروف المناخية يومها ملائمة بيد أن الرياح القوية كانت تقذف السفينة حتى أنّها ارتطمت بصخرة الأمر الذي ألحق بها أضرارا، وفرضت الظروف أن ينهي الجزائريون والمغاربة عملية التفريغ طيلة الليل كله، وعند طلوع النّهار اختفى المغاربة والتجأ الجزائريون إلى بيت "حمدون شوارق" في حين توجه قائد دينا اليوغسلافي إلى مركز المراقبة الإسبانية للبحث عن مختصين لإصلاح عطب السفينة، وعند مجيء الشرطة ضربت الرقابة على السفينة وطاقمها، فعند تشغيل محرك اليخت وقعت أنظار أحد العوامين الإسبان على قطعة سلاح، كما تسببت الرياح في تعرية قطعة من نفس النوع كانت مغطاة بالرمال، الأمر الذي أدّى إلى إحكام الرقابة على السفينة، حيث علمت الملكة بأمر اليخت المحتجز، وتدخلت على الفور لدى السلطات الإسبانية التي أخلت سبيله، وبالتالي أفلتت حمولات الأسلحة من الإسبان والفرنسيين، وكان نصيب المغاربة من هذه الأسلحة الثلث فيما أخذ الجزائريون الثلثيْن، وهذا هو الاتفاق الذي كان بين المغاربة وأحمد بن بلة. انظر شهادة حمدون شوارق، ذكريات السيد حمدون شوارق عن إنزال السلاح سنة ١٩٥٥ وإخفائه وتوزيعه بين المغاربة والجزائريين، **مجلة الذاكرة الوطنية**، عدد خاص، إصدارات (م.س.ق.م.ج.ت)، منشورات كوثر، الرباط، المغرب، ٢٠٠٦، ص٢٣٩-٢٤١. وانظر بالي بلحسن، **ملحمة اليخت دينا القصة الكاملة لواحدة من عمليات إمداد ثورة التحرير بالسلاح**، منشورات تالة، الجزائر،٢٠١٣. ص ٢٦-٣٢. وانظر أيضًا: محمد الهادي حمادو، أضواء على حادثة اليخت دينا ومركب أتوس، منشورات جسور للنشر، الجزائر، ٢٠١٤، ص٥٣-٥٤.

(١٥) أخبر الجزائريون المغاربة بأنّ شحنه باخرة ثانية ستحلّ بالمنطقة محملة بالسلاح، فعُقد اجتماع حضر من الجانب المغربي حمدون شوارق وعباس المسعيدي ومن الجانب الجزائري محمد بوضياف، حيث درسوا خطة إنزال السلاح وتفادي الأخطاء التي وقعوا فيها في العملية الأولى مع الباخرة دينا، كما أن تكون الأسلحة من بنادق ورشاشات ومسدسات وقنابل مرتبة ومصنعة في أكياس ملفوفة بحبال موثقة حتى يسهل نقلها عوض الصناديق الخشبية، واستبدل مكان استقبال الباخرة بموقع يقال له "حاسي الضرو"، حيث كان في انتظارها كل من محمد بوضياف وشوارق حمدون في هذا المكان رفقة مجموعة من الرجال، ولم يتم الانتهاء من إخفاء الأسلحة التي استغرقت الليل كله بينما غادرت السفينة في صباح يوم ٢٢ سبتمبر ١٩٥٥ والعودة إلى الإسكندرية. انظر شهادة حمدون شوارق، المرجع السابق، ص ٢٤٤-٢٤٥.

(١٦) فتحي الديب، المصدر السابق، ص١٢٢ وانظر أيضًا: مراد صديقي، **الثورة الجزائرية، عمليات التّسليح السرية**، تر: أحمد الخطيب، مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت)، ص ص٣٠-٣٣.

(١٧) تجدر الإشارة إلى أنّ محمد بوضياف" أرسل رسالة إلى حمدون شوارق ويتحدث فيها عن الدور المغربي في إنزال الأسلحة بالموانئ المغربية ومما جاء فيها"...وهكذا تمت الأمنية، وتقوى الصف وتكاتفت المقاومتان، وابتدأ العمل المشترك في فاتح أكتوبر ١٩٥٥ في جبال الريف وعمالة وهران... أما فيما يخص الأسلحة، فقد تمت على ثلاث عمليات أولها دينا... وثانيها عملية فخر البحار... ثم الثالثة" انظر: رسالة محمد بوضياف إلى حمدون شوارق عن دور المقاومة المغربية في إنزال الأسلحة والعمل المشترك ضدّ الاستعمار والموجودة برصيد أرشيف المتحف الوطني للجهاد بالرباط.

(١٨) شهادة الطيب الثعالبي، **مراحل التضامن المغربي مع الكفاح المسلّح بالجزائر ضمن ملتقى جيش التحرير المغاربي ١٩٤٨ – ١٩٥٥ أيام ١١-١٢ ماي ٢٠١١**، منشورات مؤسسة محمد بوضياف، الجزائر، ٢٠٠٤، ص١٨٤.

(١٩) عبد الله الصنهاجي، المصدر السابق، ص٢٩٢.

(٢٠) الجدير بالذكر أنّ لقاءات عقدت بالقاهرة ومدريد وتطوان والناظور وجمعت بين القياديين وخلالها ظهرت الحاجة لمناقشة آفاق الكفاح المشترك داخل الأقطار الثلاثة: الجزائر، المغرب، تونس، وجاءت المبادرة من طرف الجزائريين حيث كان جدول الأعمال يدور حول:١- تنظيم قوات جيش التحرير تحت قيادة مشتركة. ٢- المستقبل السياسي للمغرب العربي، وفي هذا يذكر الغالي العراقي: "المسألة كانت مطروحة من مدّة من طرف إخواننا الجزائريين فيما يتعلق بتحرير المغرب العربي ككل، فلقد كان هذا الموضوع حساسا بالنّسبة للإخوة المسؤولين في الجبهة الذين كانوا يعبّرون عن تخوّفهم من البقاء وحدهم في مواجهة الاستعمار الفرنسي مثلما حصل على الجبهة التونسية كما يقولون فاقترحوا إعلان وحدة المغرب العربي وتأسيس جيش التحرير له لكي يتفادوا الانعزال في المواجهة". انظر الغالي العراقي، المصدر السابق، ص١٤١.

(٢١) لقد تم اجتماع خماسي في مدريد بين عبد الكبير الفاسي وعبد الكبير الخطيب وعبد الرحمن اليوسفي عن الجانب المغربي وأحمد بن بلة ومحمد بوضياف عن الجانب الجزائري وتم الاتفاق على أن تكون ٢٠ أوت١٩٥٥ تاريخ هذه الهجومات وهذا لإعطائها دلالة مغاربية وهي ذكرى خلع السلطان محمد الخامس. انظر روني غـاليسو، مشروع جيش التحرير المغاربي والتخلي عنه، تر: محسن عيساني، **جيش التحرير المغاربي ١٩٤٨-١٩٥٥**، أعمال ملتقى مؤسسة محمد بوضياف المنعقد بالجزائر ١١-١٢ ماي ٢٠٠١، مؤسسة محمد بوضياف، ٢٠٠٤، ص٧٣.

(٢٢) محمد بلقاسم، **وحدة المغرب العربي فكرة وواقعًا ١٩٥٤-١٩٧٥**، المرجع السابق، ص١٥٦-١٥٧.

(٢٣) **محمد الخامس وابن عبد الكريم الخطابي وإشكالية استقلال المغرب**، ط١، منشورات فديبرانت، الرباط، المغرب، ٢٠٠٣، ص١٨١.

(٢٤) محمد بلقاسم، المرجع السابق، ص١٥٣-١٥٤.

(٢٥) انظر: **بيان لجنة تحرير المغرب العربي وبلاغها الأول في علال الفاسي**، نداء القاهرة، المصدر السابق، ص ص١١٥-١١٦.

(٢٦) شهادة الطيب الثعالبي لمجلة أول نوفمبر، العدد ٩٠-٩١، المنظمة الوطنية للمجاهدين، ١٩٨٨، ص٢٧.

(٢٧) تشير المصادر التاريخية أنّ اجتماعات هامة قد عُقدت بين ممثلي قادة جيش التحرير المغرب العربي بعد التطورات التي حدثت في المغرب وتونس فأسرعت القيادة المصرية وقيادة جبهة التحرير الوطني إلى عقد اجتماع بالقاهرة في ٢٥ جانفي١٩٥٦، وتم التأكيد من خلال مذكرة وقعها الحاضرون باسم جيش التحرير المغرب العربي ورفعوها إلى الرئيس جمال عبد الناصر على ضرورة مواصلة الكفاح المشترك وتعزيز جبهاته حتى يتم الاستقلال التام لأقطار

المغرب العربي، كما أكدوا عدم تقيدهم بأية اتفاقيات عقدت أو ستعقد مستقبلا ولا تحقق أماني شعوبهم الاستقلال، كما عقد ممثلي جيش تحرير المغرب العربي اجتماعا هاما آخر في القاهرة في ٢٥ فيفري ١٩٥٦،حيث تعرضوا إلى العديد من المسائل المرتبطة بقضية الكفاح المسلح سياسيا وعسكريًا، كما ناقشوا الحالة الراهنة للمقاومة المغربية وكيفية العمل لدعمها وهذا بتوفير الإمكانيات المادية والبشرية لها وضرورة الحفاظ على وحدة جيش تحرير المغرب وانتهى الاجتماع بالمصادقة على العديد من القرارات ومنها العمل على توحيد الكفاح المسلح في المغرب العربي تحت قيادة موحدة تضم قيادة جيوش تحرير المغرب العربي على أن تكون مهمة هذه القيادة وضع الخطوط العامة للعمليات المشتركة بالبلدان الثلاثة، وتقوم كل قيادة جيش بإدارة خطط عملياتها القتالية على أرض بلدها وذلك بالتنسيق مع قيادات الأقطار الأخرى وذلك لإضعاف قدرات القوات الاستعمارية الفرنسية. انظر: فتحي الديب، المصدر السابق، ص١٤٩-١٧٤.

(٢٨) محمد الميلي، **المغرب العربي بين حسابات الدول ومطامح الشعوب**، ط١، دار الكلمة للنشر، بيروت، لبنان، ١٩٨٣، ص٢٧.

(٢٩) عبد الله مقلاتي، **دور المغرب العربي وأفريقيا في دعم الثورة الجزائرية**، ط١، ج١، دار السبيل للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠٩، ص٣١٤.

(٣٠) محمد الميلي، **مواقف جزائرية**، ط١، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤، ص٧٢-٧٣.

(٣١) أحمد منصور، **الرئيس أحمد بن بلّة يكشف عن أسرار ثورة الجزائر**، ط١، الدار العربية للعلوم ناشرون، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ٢٠٠٧، ص ص١١١-١١٢.

(٣٢) **شهادة أحمد بن بلّة** في الجلسة الافتتاحية للنّدوة المغاربية بعنوان وحدة المغرب العربي في ذاكرة حركات المقاومة وجيش التحرير في ٢٤-٢٦ يناير٢٠٠٢، **مجلة الذاكرة الوطنية**، عدد خاص، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وجيش التحرير، الرباط، المغرب، ٢٠٠٢، ص٣٤.

(٣٣) لقد جاء في وثيقة النظام الأساسي لجبهة التحرير الوطني على أنّ تنظيمها في المغرب الأقصى ستكون له الدوائر التالية: كل القطر المغربي. – المقاطعة الغربية والمقاطعة الشرقية. – المقاطعة الغربية مقسمة إلى ٠٦ مناطق: الرباط، الدار البيضاء، مراكش، مكناس، فاس، طنجة. - المقاطعة الشرقية مقسمة إلى ٠٤ مناطق منها: وجدة، بركان، وكل منطقة مقسمة إلى جهة أو أكثر بنواحيها. انظر: جبران لعرج، **المغرب الأقصى والثورة الجزائرية ١٩٥٤-١٩٦٢**، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجيستر في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة بلعباس، الجزائر، ٢٠٠٩-٢٠١٠، ص١٧١.

(34) Menier Gilbert, Op, Cit. P.169.

(35) M'hamed yousfi,les otages de la liberté, imprimerie de sonagraphe, Alger, 1993, pp30-31.

(36) Menier Gilbert, op.cit., P.168.

(٣٧) Abdelmadjid Bouzbid, la logistique durant la libération, Ed casbah, Alger, ٢٠٠٨.

(٣٨) فتحي الديب، المصدر السابق، ص ١٦٩.

(٣٩) محمد ودوع، **مواقف المغرب الأقصى اتجاه الثورة الجزائرية ١٩٥٤-١٩٦٢**، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة الجزائر،٢٠١٢، ص١٩٩-٢٠٠.

(٤٠) الطاهر جبلي، **عمليات الإمداد بالسلاح على الحدود الجزائرية والمغربية خلال الثورة التحريرية (١٩٥٤-١٩٦٢)**، مجلة الذاكرة الـــوطنية، العدد (٢١)، إصدارات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وجيش التحرير، دار أبي رقـــراق للطبـــاعة والنشر، الربـــاط، المغرب،٢٠١٣، ص١٥٧.

(٤١) بوبكر حفظ الله، المرجع السابق، ص ٢٧٩.

(٤٢) شهادة منصور بوداود، المرجع السابق، ص ١٩٠.

(٤٣) شهادة محمد يوسفي، المرجع السابق، ص٢١.

(٤٤) عبد الكريم حساني، المصدر السابق، ص٢٩. وانظر بوبكر حفظ الله، المرجع السابق، ص٢٨٠.

(٤٥) من بين المتعاملين الأمريكيين الذين كان لهم نشاطًا في تهريب الأسلحة وبيعها للثورة الجزائرية نذكر John Keesing وهو وكيل شركة المحاماة وشركات أخرى متواجدة بنيويورك والتي كانت تتعامل مع السلطات المصرية في عمليات بيع الأسلحة وكذا Oswald Schlegel وهو يهودي من أصل ألماني والذي قضى جزء كبير من حياته في مصر وقد كان يهرب أسلحته باسم شركة (Ficlive) وكانت هذه الشركة مختصة في تهريب الأسلحة إلى إسرائيل وقد أصبح في الخمسينيات يهرب الأسلحة لمصلحة مصر والتي كانت توجه بعد ذلك إلى الثورة الجزائرية. انظر محمد ودوع، المرجع السابق، ص١٩٨-١٩٩.

(٤٦) محمد ودوع، المرجع السابق، ص١٩٩-٢٠٠.

(٤٧) فتحي الديب، المصدر السابق، ص٣٣٢.

(٤٨) محمد ودوع، المرجع السابق، ص ٢٠٠-٢٠١.

(٤٩) نفسه، ص٢٠٤-٢٠٥.

(٥٠) رفيق تلي، **محمد الخامس والثورة التحريرية الجزائرية**، المرجع السابق، ص ص٢٠٢-٢٠٨.

(٥١) فتحي الديب، المصدر السابق، ص٤٩٢.

(٥٢) بوبكر حفظ الله، المرجع السابق، ص٣٥٦.

(٥٣) محمد حربي، **جبهة التحرير الوطني الأسطورة والواقع، الجزائر (١٩٥٤ – ١٩٦٢)**، تر: كميل قيصر داغر، ط١، دار الكلمة للنشر، بيروت، ١٩٨٣، ص٢٢٠-٢٢٢.

(٥٤) شهادة شوقي مصطفاوي رئيس بعثة الحكومة الجزائرية المؤقتة بالمغرب وهي مدونة في كتاب محمد عباس، رواد الوطنية، شهادات٢٨ شخصية وطنية، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر، ٢٠٠٩، ص٣١٣.

الإسلام والغرب
من إيديولوجيا الصدام إلى جدلية النزاع




محمد مزيان
أستاذ التعليم العالي مؤهل
تخصص تاريخ معاصر – جامعة ابن طفيل
القنيطرة – المملكة المغربية

بيانات الكتاب

عنوان الكتاب الأصلي: (Islamicités)
المؤلفة: جوسلين داخلية
المترجم: خالد بن الصغير

مكان النشر: الدار البيضاء
الناشر: منشورات مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود
تاريخ النشر: ٢٠١٩ – عدد الصفحات: ٣٣٠ صفحة

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.168359

كلمات مفتاحية:
الإسلام؛ الغرب؛ التعايش؛ الاندماج؛ النزاع؛ التماثل التاريخي

مُقَدِّمَةُ

بداية أشير إلى أن كتاب **الإسلام والغرب: من إيديولوجيا الصدام إلى جدلية النزاع**، تتقاطع فيه تخصصات متعددة، رغم انتماء صاحبته لحقل التاريخ فهي مؤرخة ومديرة دراسات بمدرسة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية (EHESS) (باريس). الكاتبة متخصصة في التاريخ المغاربي والمتوسطي، وهي أيضًا عضو في اللجنة العلمية لمجلتي "Annales" و"Hespéris-Tamuda". تغطّي أعمالها مجالات متعددة من تاريخ العالم الإسلامي والمتوسّطي، من العصور الوسطى حتّى زمننا الراهن. يتجلى ذلك في إصداراتها المتنوعة التي زاوجت بين الدراسة البحثية الوثائقية وبين البحث الميداني، كما شاركت وأشرفت على إنجاز عدد من الكتب الجماعية.

والواقع، أن ترجمة هذا العمل منحه حياة جديدة وسلط الضوء على أفكاره ومواقفه وقربه من عموم القراء. خاصة وأن الموضوع يستمد راهنيته وتجدده مما يعيشه الإسلام من تنازع وصراع على عدة أصعدة فتزايد الرغبة في فهم رهانات الإسلام في فرنسا المعاصرة ومن تم في الغرب. كان أحد الدوافع الأساسية لإنجاز هذا العمل. يسلط العمل، الذي بين أيدينا، الضوء على النقاش الدائر حول الصورة العامة للإسلام كديانة سماوية وكثقافة. فكان المدخل الثقافي وسيلة لمحاولة خلخلة الوضع العلائقي للإسلام وإبراز صورته في الذهنية الأوروبية عامة والفرنسية على وجه التحديد. تنضبط هذه القراءة إلى تقسيم منهجي يجمع بين تفكيك بنية الكتاب ومضامينه، ومناقشة القضايا المنهجية والمعرفية المطروحة، على الرغم من أن قضاياه متعددة متشعبة تحتاج إلى عُدة معرفية ومنهجية لتناولها.

١-البنية والمضامين

جاء العمل في طبعة أنيقة من الحجم المتوسط عدد صفحاته ٣٣٠ صفحة مقسم إلى ستة فصول مسبوقة بمقدمة خاصة بالترجمة العربية ثم تمهيد،

ومذيل بخاتمة وسمتها الكاتبة باستنتاجات. نشير إلى أنه لا يمكن فهم أطروحة الكتاب بالاقتصار على فصل أو جزء منه فهو بناء متكامل الأركان لا يستقيم الجزء إلا بالكل ولا الكل إلا بالجزء.

بنية الكتاب مقسمة إلى ٦ فصول على الشكل التالي:

الفصل الأول: التخلي عن فكرة العصر الذهبي

الفصل الثاني: مجتمعات مترابطة

الفصل الثالث: الحديث بصوت واحد عن الانحطاط

الفصل الرابع: حقائق جوهرية

الفصل الخامس: خيبة الأمل والحنين إلى الماضي

الفصل السادس: مسألة الحجاب

استنتاجات.

خصت الكاتبة مقدمة الترجمة العربية لإبراز دوافع تأليفها هذا العمل بقولها: **"كان منطلق تحرير هذا الكتاب وخلفيته العامة، بغاية الوضوح، هو السياق السياسي الذي جاء في أعقاب أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١"**؛ إذ كان همّها الأساس، كباحثة، إشباع فضول طلبتها لفهم حجم العنف والدمار وطبيعة الصورة التي تقدمها وسائل الإعلام والكتابات إلى القارئ الفرنسي عن الإسلام، لهذا سعت إلى "تحليل مضامين المنشورات الجديدة المتعلّقة بالإسلام، التي تكاثر صدورها بشكل غير مسبوق في تلك الآونة". فيما نطالع في مقدمة الكتاب التي امتدت على ٣٣ صفحة ربط اعتبار الإسلام ثقافة وافدة على المجتمع الفرنسي لدرجة اعتبرها أحد الكتاب الفرنسيين أراضي الجمهورية المفقودة كنموذج الخسارة المتعلق بالثقافة، وتلاحظ أن النقاش العام صارت أصداؤه تكتسي على نحو متزايد صبغة جغرافية ومرجعيات ترابية إقليمية غير دقيقة ويعوزها الوضوح مثل أحياء الضاحية المساكن الشعبية... فهل يمكن تحميل الإسلام كل تبعات تفعيل الشغب الذي يفترض بطريقة متسرعة أنه يكتسي طابعا طائفيا؟

كان الدافع وراء هذا التأليف هو رغبة الباحثة في تحديد شروط النقاش حول الإسلام بعد أحداث ١١ شتنبر ٢٠٠١، وما خلفته من نتائج، وتبديد سوء الفهم الناجم عن تزايد الكتابات التي تتحدث عن الإسلام. سواء من طرف متخصصين وأكاديميين وكذا من طرف صحفيين، بُغية تحميل الإسلام كل تبعات التطرف ونشاط الجماعات الإسلامية المسلحة، أو من أجل معرفة كيف يفكر المسلمون. لكن الكاتبة توضح أن أغلب هذه الكتابات سقطت في العموميات مثل (أن وهابية القرن الثامن عشر هي الحاضنة التي أفرزت تنظيم القاعدة، واعتبار ابن تيمية المؤسس الأيديولوجي للإسلام السياسي)[١] والتخمينات المختلفة بشأن خطر الإسلام على الديموقراطية والعلمانية[٢] زيادة على طفحها بالأحكام العامة والسطحية بحق الإسلام. والواقع أن صعود المد الأصولي زاد من إقبال القارئ الأوروبي على هذه الإصدارات رغم هناتها وخواؤها المعرفي، وبالمقابل نلحظ ضعفا في إنتاجات عربية أكاديمية موجهة للقارئ الغربي يمكن أن تساهم في استجلاء خصائص الإسلام كثقافة وحضارة بعيدا عن التمجيد أو التضخيم، على غرار ما فعله مثلا كل من روجي جارودي ومحمد أركون، فالأول اعتبر أن الأصولية الجزائرية مثلا هي نتيجة لعاملين أولا تجاوزت المستعمر الفرنسي خلال لفترة الاستعمارية ويتمثل العامل الثاني في الرغبة في انغلاق على الماضي بعيدا عن قضايا الدولة ما بعد استعمارية.[٣] أما أركون فاعتبر أن الإسلام وأوروبا والغرب هي مصطلحات تعرّضت إلى التوظيف الإيديولوجيّ بطريقة مُبالغ فيها. لهذا السبب، وجد أنّه لابدّ من إعادة التفكير فيها ومراجعة صورتها التاريخية أو الواقعيّة لتحلّ محلّ الصورة الأيديولوجية الطاغية، وفي سبيل ذلك يشترط أركون إعادة تفكيك هذه الصورة من جديد والنظر إليها من خلال منظور نقدي يضمن تعريتها من ألبستها الأيديولوجية السميكة وفحصها من خلال زوايا جديدة، لتقديم صورة أخرى مُخالفة للصورة السائدة عن الإسلام وأوروبا والغرب.[٤] وهو ما يتماشى مع أطروحة الكتاب الراغبة في تبديد سوء الفهم وتوضيح أسباب مقاومة البنية الفكرية الفرنسية في عمومها لهذا الدين وعن قدرة العقلية الأوروبية في تقبل وفهم الدين على الرغم من تزايد عدد الكتابات الأكاديمية التي جعلت من موضوع الإسلام قطب الرحى، غير أن أغلبها ينطلق من فهم خاطئ للإسلام. أو من نقص معرفي ومنهجي وإبستمولوجي.

والواضح، أن العلاقة بين طرفي المعادلة رغم قدمها تبقى خاضعة للمتغيرات الوطنية والدولية في المشرق وفي العالم، إذ خرجت العلاقة الأوروبية الإسلامية من منظومتها التقليدية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وبدأت تتخذ لنفسها مقاييس وأقنية "جديدة" من ضمن أعراف الدولة القادرة على تدبير اختلافاتها، ثم جاءت مرحلة الاستعمار فعرفت العلاقة بين الطرفين انزياحات متواصلة في التصورات والمواقف لا تخلو من مفارقة ذات دلالة. إذ لاحت في الأفق حركات إصلاحية وثورية نادت باعتماد الخلافة في

مواجهة الإمبريالية الأوروبية واللعب على حبل الإمبراطورية العثمانية وتوظيفها ضد الهيمنة الفرنسية. مع العلم أن مسألة الخلافة لم تشكل نموذجًا موحدا ولم تتمكن التجارب الإسلامية من تطبيقه وإقامة دول مركزية. بل تم توظيف فكرة الخلافة للحصول على الشرعية أو من أجل حشد الأتباع. ومن المفارقات التي تبرزها الباحثة هو أن تجسيد الخلافة بشكل كامل لمركزية العالم الإسلامي، قد تحقق بالفعل عند اللحظات التي أعلن فيها كمال أتاتورك عن إلغائها سنة ١٩٢٤[٥].

نلامس من خلال فصول الكتاب قلقًا معرفيًا وثقافيًا وهوياتيا وأيضًا مجتمعيًا، عاشه الشباب الفرنسي من طلاب الجامعة، دفع بالباحثة إلى طرح هذا الموضوع على بساط المناقشة معهم باعتبارها مؤرخة أولاً ثم منشغلة ومنفتحة على القضايا الراهنة ثانيًا. زيادة على كونها ذات أصول مزدوجة تونسية وفرنسية. لهذا سعت إلى تفكيك إشكالية علاقة الإسلام بالغرب أو بشكل أكثر دقة تفسير صورة الإسلام والموقف منه داخل المجتمعات الأوروبية عمومًا والفرنسية على وجه التحديد، انطلاقا من خاصية الغيرية بين طرفي هذه العلاقة.

برز صعود ما يمكن أن نسميه بالقلق الهوياتي لدى المسلمين في فرنسا وعند الفرنسيين أنفسهم. فاشتد النقاش حول الهوية والتأكيد عليها والدفاع عنها، من كلا الطرفين. هذه الهوية التي تشكلت عبر تفاعل عدة مؤثرات وتشابك عدة عناصر تأسيسية، وفق تراتبية معينة منها التاريخي والأخلاقي، دون أن نغفل الهويات الجمعية التي تتشكل عبر روافد متعددة. وما زاد من تفاقم الأزمة الهوياتية تلك القناعات التي تكونت جراء العولمة، فنظرت إلى نفسها بعين الضحية المهددة، التي ستضيع كينونتها بعد حين، خاصةً وأن العالم فاجأها بأشكال من التواصلات والتشابكات، ضيقت من هيمنة الحدود التقليدية، سياسية كانت أم عقائدية. فتشكل الرُهاب من الآخر، والنظر إليه كمهدد دائم وكمصدر خطر، خاصة إذا وضعنا في الاعتبار تلك المحاولات التي تصدت لها بعض المؤسسات الدولية، الثقافية والتعليمية، ثم الاقتصادية والسياسية، إعادة تعريف الانتماء، وتكوين مسطرة تصنيف تتأسس على قيم تبدو في الظاهر إنسانية حقاً، لكنها تستبطن عمليات. فتتشكل الحدود الدامية على حد تعبير صمويل هنتنغتون، وتندفع الأحداث تلقاء التجييش والتجييش المضاد، وتتنادى الثقافات لتكريس التعبئة الشاملة، والتربص ضد الجميع، بما هم أعداء حاليون أو مقبلون.[٦]

عمومًا، شكل الإسلام بالنسبة للفرنسيين شاشة عرض كبيرة لقلقهم وصراعاتهم وهواجسهم، كما كان مشجابا حُمل كل مآسي العلمانية.

٢-إشباع الهوية بعيدًا عن الهوية الدينية

فرضت الظروف السابقة الذكر على فرنسا اللجوء إلى ممثلين عن الجماعة الإسلامية ومحاورين مسلمين تقدم الكاتبة نموذج طارق رمضان الذي اكتسح الساحة الإعلامية بسرعة فائقة وسقط بشكل مذوي[٧]. من أجل توضيح مبادئ الإسلام وعلاقاته وروابطه دون التنكر للمشترك وتقديم قراءة للإسلام التاريخي الذي عرف دينامية ممتدة ومفتوحة. كما تم الرجوع إلى أدبيات التاريخ الإسلامي.

فهل تكفي القيام بقراءة شاملة لعالم الإسلام التاريخي ومراكزه المدينية وعلائق نخبه في العصور المتأخرة (بين القرنين الرابع عشر والثامن عشر)؟ لاستيعاب التحولات التاريخية الكبرى والجوانب المادية والجغرافية واللغوية والإثنية بين طرفي العلاقة. تؤكد الباحثة على أن حضور الإسلام على الأراضي الفرنسية بعدة قرون خلت من الوجود الخفي غير المعلن، ومن الحضور الرهيب في كنف تغمره معالم الطمس والنسيان.[٨] ومن المفارقات التي يتم إغفالها أن المكون الإسلامي المتواري ظل في أعماق التاريخ الفرنسي والأوروبي وهو ما يفرض إعادة الاعتبار لإحياء الحركة التاريخية المتواصلة والرابطة بين المجتمعات دون توقف أو انقطاع[٩]، فهناك تماثل تاريخي بين الطرفين منذ العصور الوسطى تمظهر في عدة لحظات تم فيها نسج تاريخ تفاعلي رغم وجود بعض البقع المخفية نتيجة عدم اهتمام الأسرى أو التجار المسلمين بالتأريخ لتجاربهم بأروبا على العكس من ذلك أنتج أمثالهم من المسيحيين أدبيات غزيرة من السير الشخصية التي تناولوا فيها بإسهاب الحديث عن مغامراتهم في البلدان المغاربية[١٠]

في واقع الأمر، كتاب سجالي قائم على الحوار وتوجيه سهام النقد لعدد من الكتاب يتجلى ذلك في مناقشة الكاتبة وانتقادها لعدة نظريات أو مواقف منها نظرة المستشرق برنارد لويس للإسلام خاصة عمله الموسوم "**بما الذي حدث**؟" حين اعتبر أن الصراع بين حضارة الغرب والحضارة الإسلامية صراع ممتد في الزمن، كما أن هناك كراهية شديدة ضد الغرب بكل تجلياته وأبعاده الحضارية. انتقدت أيضا مجموعة من المؤلفين المنحدرين من مجتمعات إسلامية الذين

نهجوا أسلوب **جلد الذات** وممارسة النقد الذاتي والجماعي من أجل التقرب إلى المتلقي الفرنسي وتسوق نموذجا لذلك من خلال عمل عبد الوهاب المؤدب في كتابه "**مرض الإسلام**"(١١).

يرى فوكوياما أن المسلمين لا يشكلون خطرًا داهمًا على العالم لا لأنهم أخيار مسالمون؛ بل لأن الغرب وحضارته الديموقراطية قادرة على استعابهم. فيرد عليه هنتنجتون بأنه لا ينبغي الاستخفاف بخطرنا وخطورتنا. فنحن ما نزال حضارة قائمة وعدوانية، والصراعات القادمة صراعات بين حضارات وليس بين أيديولوجيات أو أسواق اقتصادية.(١٢) كما دشن البحث عن الذات والعمل على فرضها مرحلة جديدة في تاريخ البشرية، فعصر صراع الحضارات هو بالأساس رغبة كل حضارة في إبراز قيمتها الذاتية وبلورة قيمها. كما أنه اعتبر أن الحضارة الإسلامية ستشكل في العقود المقبلة أهم تهديد للحضارة الغربية(١٣). ويفسر إدوارد سعيد نظرة الغرب للإسلام بقوله: "ينظر الجمهور في أمريكا وأروبا اليوم للإسلام على اعتباره أنباء من نوع لا يسر على الإطلاق. ويسوق التناغم بين أجهزة الإعلام وبين الحكومة وبين خبراء الجغرافيا السياسية إلى جانب الأكاديميين من ذوي الخبرة في الإسلام... في اعتبار أن الإسلام يشكل تهديدًا للحضارة الغربية."(١٤)

لا يتعلق الأمر في هذا العمل بمساهمة الإسلام في الحضارة الأوروبية وإنما في إحياء النقاش حول الحركية الدائمة عبر حدود المتوسط حركية الرجال والأفكار والمؤثرات والممارسات، لشدة الترابطات التاريخية لقرون طويلة.

تسعى الكاتبة إلى إقامة توازن بين تاريخ الإسلام وتاريخ فرنسا عن طريق الإجابة عن سؤال مركزي في ثنايا هذا العمل هو لماذا تنظر أوروبا إلى الإسلام ككتلة وكصورة واحدة وتتجاهل تنوعه الداخلي؟ ولماذا يتم تجاهل الفرق بين الإسلام كديانة والإسلام كثقافة وفق المفهوم الأنثروبولوجي؟ لهذا سعت الكاتبة لكسر المفاهيم الثقافية الجاهزة والحد من تضخم الخطاب العلائقي حول الأنا والآخر، وإظهار كيف ولماذا تكونت معالم هذا الخطاب وما عوامل استفحاله. تشير الكاتبة إلى وجود مفارقة على مستوى الخطاب والتمثل فهناك خطاب التفوق والقوة والهيمنة وخطاب الهوية من جهة وخطاب المظلومية والضعف والتأخر من جهة ثالثة. فتفكيك العناصر المؤسسة لتاريخ الإسلام مثل عصر الإسلام الذهبي، وعصر الأندلس، والأمة يسمح للقاري بفهم لماذا لم يتمكن هذا التاريخ من الصمود في وجه المتغيرات العالمية إذ سرعان ما لاحت بوادر الأزمة والاستقطاب الثقافي وخلال العصر الحديث خاصة بعد الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨-١٨٠١م) ثم احتلال الجزائر سنة ١٨٣٠.

نستخلص من ثنايا الكتاب وجود مجموعة من الثنائيات أو التقاطبات مثل شرق غرب، إسلام مسيحية، تقدم ركود/ عنصرية تعايش، ماضي حاضر، رغم أنها لم تفصح عن نيتها في توظيف المنهج المقارن، لأن الهدف كان هو رصد معالم التغير في العلاقة بين الإسلام والغرب وتوظيف صورة ونظرة الفرنسيين إلى الإسلام والمسلمين بين ظهرانيهم.

نستشف من بين صفحات العمل دعوة محفزة لخلق نقاش فكري هادئ لموضوع ساخن ومتوتر، بغية تصحيح صورة الثقافة والحضارة الإسلامية، في بعدها التاريخي، خاصة للنخب المثقفة الفرنسية المتوجسة من "صدمة الإسلام" والتي أقامت الحداد على "الأراضي المفقودة للجمهورية". توضح المؤلفة أهمية تحديث البناء التاريخي للإسلام لإبراز تنوعه الداخلي، واستحضار الحقائق الاجتماعية التي ينتجها. لكن هناك منطق أخلاقي يحكم الأشياء.

أما على مستوى التحليل فقد استندت الكاتبة إلى البنية لتفسير الحدث إذ اعتمدت على التاريخ الطويل المدى لتفسير حضور الإسلام في المجال المتوسطي منذ الفتح الإسلامي وكيف أثر على ثقافة شعوب عديدة حيث سجل حضور فعلي وقوي للإسلام في الأندلس اعتبره البعض نموذجا فترة للتعايش وللحوار لكن لا يجب الاعتماد كثيرا على مثل هذه الأفكار، بيد أنها تتفق مع مارشال هودجسون حين يشير أن المجتمع الإسلامي وثقافته أوجدا وضعا متسما بالإبداع والنمو الدائمين، وإن كانت بعض الفترات قد شهدت إبداعا أهم مما كان لدى البعض الآخر، وذلك حتى وقت متقدم من الأزمنة الحديثة. هناك تشابك الحضارتين إذ نجد مسلمون في أوربا كما أن هناك مسيحيون في بلاد الإسلام.

تنوع الحساسيات وتنوع الأشكال الثقافية هناك تسييس لهذه الأشكال، تستعرض الكاتبة مجموعة من المفاهيم التي تحتاج إلى عدة منهجية ومعرفية لتفكيك حمولتها والإلمام بسياقاتها المختلفة، من قبيل "الانحطاط" و"التدهور" و "الإصلاح" و"الادماج" و"التكامل" وهي مفاهيم ذات بعد بنيوي في الثقافة الإسلامية وفي أدبياتها التقليدية، كما أنها حاضرة في الثقافة المسيحية وفي الواقع الغربي. ويتخلف تطبيقها بين المجموعات البشرية والتنظيمات السياسية.

طرحت الباحثة مسألة انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوربي بتعقيداتها الجيوسياسية والهوياتية لكنها لم تُبرز بشكل كاف انهيار جدار برلين وانضمام دول أوروبا الشرقية التي شكلت دليلا على التكامل الأوروبي في حين شكل الإسلام حاجزا أمام هذا التكامل.

هناك جرأة في الطرح فيما يتعلق بالحجج التي أثيرت حول مسألة العصر الذهبي للإسلام، فإن الفصل الثالث يؤكد على ضرورة الانفصال عن الأنماط التوضيحية التقليدية، على الرغم من تحول مسألة التأخر، في القرن التاسع عشر، إلى موضوع شائع في الدراسات وتحليل سياسات الدول. إذ انكبت الأبحاث العربية على البحث في أسباب التخلف والتراجع فبرزت مواقف مختلفة من الحداثة والتحديث والتنوير. كما طرحت مسألة الحجاب وكيف تحول من دلالاته الثقافية التقليدية باعتباره نتاجا لتطور تاريخي ودينامية مجتمعية وثقافية، إلى مطية سياسية منذ نهاية القرن التاسع عشر إبان الاصطدام بالاستعمار وانطلاق بوادر اليقظة الفكرية للعالم الإسلامي (ظهور تيارين سلفي وعلماني)[١٥] ، واستمر الجدال إلى يومنا هذا، مما أفضى إلى إحداث صدمة، كما تسبب بطريقة تكون متوازية في إثارة حركتين تنشد إحداهما التقليد، بينما تتعامل الأخرى بالرفض.[١٦]

- رد فعل تنظيمات متشددة على ضد الهيمنة الغربية أعطت الانطباع أن الإسلام حاضن للإرهاب.
- انهيار الاتحاد السوفياتي نهاية الخطر الشيوعي نظرية صراع الحضارات.
- ظهور مشاكل جديدة مثل المشاكل البيئية والاحتباس الحراري.

وبالتالي فإن السياق الحالي يحتم على "أصوات الشتات" "الدياسبورا"، أكثر من أي وقت مضى، شرح مكونات الدين الإسلامي وثقافته والتغلب على المطبات والاغراءات. زيادة على خلق حوار عابر للثقافات والاختلافات الماهوية وتجاوز القوالب النمطية المتحيزة المدفوعة بالايديولوجيا. ومحو الواقع الذي مفاده أن "الحدود" بين الثقافات هي تراكيب انسانية تنبع أصول معالمها من تباينات مختلفة. والتأكيد على أن هناك هوية جمعية تدبر الهويات المختلفة دون التأكيد المفرط على هوية واحدة وكبت الهويات الأخرى أو محو كل الهويات بدعوى العولمة والإنسانية.

إجمالا نجد أن الباحثة جوسلين داخلية قد تفاعلت مع النقاش الدائر حول الهوية الفرنسية وحول حضور المسلمين والإسلام داخل المجتمع الفرنسي وهو حضور ممتد في الزمن لا يمكن تجاوزه. مما يوضح انخراط الباحث الاكاديمي في قضايا وإشكالات عصره وفق منظور معرفي محدد، لهذا فقد حان الوقت للنضال من أجل بناء نظرة جديدة للإسلام في فرنسا العلمانية، فهناك أصوات متعددة داخل المجتمع الفرنسي، (يمين متطرف، يسار وسط مهاجرون مغاربيون أروبيون...) تسعى للتعبير عن ذواتها بعيدا عن التنميط والتضليل والمفاهيم المغلوطة، فتوظيف مفهوم إسلام معتدل يشير تلقائيا إلى وجود آخر متطرف وهناك محاولات للبحث عن طريق ثالث يجمع بين إقرار الديموقراطية على النمط الغربي وبين خيارات التطرف الإسلامي وهي فكرة تحتاج إلى مزيد من المناقشة والتأصيل النظري لها لتنسجم مع الواقع الفرنسي الذي كان منطلق هذا البحث.

خلاصة

تأسيسًا على ما سبق يمكن أن نخلص إلى عدة خلاصات:

نرى أن الباحثة تحمل قلق مفكري ما بعد الحداثة وإقرارها بفشل دولة الحداثة في تدبير الاختلاف والتنوع ومن تم تلمس ضعف البعد القيمي والأخلاقي.

إهمال سبب صعود التيارات الإسلامية المتشددة وتنوعها واختلاف مساراتها إلى درجة كبيرة من التعقيد والهلامية. وبالتالي لا يمكن النظر إلى الإسلام السياسي على أنه إسلام واحد بل هو متعدد، يصعب الإمساك بتلابيبه.

هناك قلق هواياتي في المجتمعات المعاصرة أدى إلى في كثير من الأحيان إلى الانغلاق على الذات بغية تحصينها، أو الرجوع إلى الدين لكونه يمنح للناس أجوبة عن حاجاتهم إلى المثالية أو يهدئ من نفوسهم القلقة المتطلعة إلى اللانهائي (دوركهايم) كما شكل الرجوع إلى المقدس شكلا من أشكال المقاومة ورد الفعل ضد الوصاية أو الرقابة الممارسة من طرف الآخر.

الحاجة ماسة اليوم إلى تعزيز العلوم الاجتماعية والإنسانية وأنسنة المعرفة من أجل خلق فكر نقدي خلاق بعيدا عن الأسطرة وتحطيم الأوهام، والنزوع كذلك نحو تدبير الاختلاف وقبول الآخر ليس فقط باعتباره ذاتا فاعلة بل أيضا ذاتا قادرة على الفعل.

خاصة وأننا نواجه نوع من الاتّساق الثقافي المختلف الروابط أي بين الثقافة المحلّية والثقافة العالمة العابرة للقوميّات. بحيث لم تتمكن فرنسا من طرد المسلمين ولا من دمجهم بشكل كلي داخل منظومتها وضمن سياساتها العمومية، كما فشلت في الحد من عدد المجندين (فرنسيو المولد والنشأة) من الانخراط في صفوف ما يعرف بـ "داعش" وبالمقابل نجد فرنسيون من أصول مغاربية ضمن الهيئات السياسية اليمينية المتطرفة.

ضرورة فتح آفاق جديدة للفهم والتأمل والمراجعة وبلوة رؤية مغايرة لهذا الواقع "المأزوم" مستحضرين الوعي التاريخي، ومتجاوزين المركزية الأروبية؟ مع وجوب استيعاب التحولات القيمية والمعرفية التي بات يعرفها العالم، وتطبيق فكرة فضاء مشترك للعيش بشكل سليم.

المسألة ملقاة على عاتق الطرفين لتجاوز حالة الجهل المزدوج الذي يعيشانه.

كلها أمور في اعتقادي يمكن أن تؤدي إلى الخروج من هذا النفق وتجاوز حالة القلق والانعزال إلى حالة الإقرار بالأمر الممكن.

الهَوامِشُ:

(١) جوسلين داخلية، **الإسلام والغرب: من إيديولوجيا الصدام إلى جدلية النزاع**، ترجمة خالد بن الصغير، منشورات مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود (الدار البيضاء ٢٠١٩) ص ٥١.

(٢) المرجع نفسه، ص ٥٢.

(٣) روجي جارودي، **الأصوليات المعاصرة أسبابها ومظاهرها**، (دار عام ألفين باريس ٢٠٠٠) ص ٦٠.

(٤) عبد المنعم شيحة، **قراءة في كتاب "الإسلام أوروبا الغرب، رهانات المعنى وإرادات الهيمنة"** للمفكّر محمد أركون" على الرابط https://www.mominoun.com/articles/ تاريخ الاطلاع ٢١-١١-٢٠١٩

(٥) جوسلين داخلية، م س ص ٣٠٩.

(٦) الحاج دواق، "**الدين والهوية بين ضيق الانتماء وسعة الإبداع**"، (إشراف وتقديم) على الرابط https://mominoun.com/pdf1/2016-02/diine.pdf تاريخ الاطلاع ١٢-١١-٢٠١٩

(٧) جوسلين داخلية، م س، ص ٦٣.

(٨) نفسه، ص ٧٠.

(٩) نفسه، ص ٧١.

(١٠) نفسه، ص ١٣٧.

(١١) جوسلين داخلية، م س، ٦٤.

(١٢) التحرير، "لماذا هذا العدد في التاريخ الشامل"، **مجلة الاجتهاد**، عدد ٢٦-٢٧ السنة السابعة (بيروت ١٩٩٥) ص٨.

(١٣) نشر صامويل هنتنجتون نظريته حول صدام الحضارة بداية الأمر في مقال نشرته مجلة Foreign Affaires في صيف ١٩٩٣ وهو المقال الذي أثار نقاشًا أكاديميًا واسعًا وسجالاً حادًا بين مؤيد ومعارض ومنتقد للأفكار التي تضمنتها المقال، مما دفع هنتنجتون إلى إصدار كتاب يتطرق فيه بالتفصيل إلى جزئيات نظريته ليبرهن على صحة أفكاره.

(١٤) على الرابط https://annabaa.org/nbanews/62/246.htm تاريخ الاطلاع، ١٢-١١-٢٠١٩

(١٥) جوسلين داخلية، م س، ص٢٦٢.

(١٦) نفسه، ص٢٦٥.

رأسمالية الكوارث

كيف تجني الحكومات والشركات العالمية أرباحًا طائلة من ويلات الحروب ومصائب البشرية





د. محمد حدوي
أستاذ علم الاجتماع
جامعة السلطان مولاي سليمان
بني ملال - المملكة المغربية

بيانات الكتاب

رأسمالية الكوارث: كيف تجني الحكومات والشركات العالمية
أرباحًا طائلة من ويلات الحروب ومصائب البشرية
المؤلف: أنتوني لوينشتاين
ترجمة: أحمد عبد الحميد

كتاب سلسلة المعرفة - عدد ٤٧٨
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، نوفمبر ٢٠١٩.
الكتاب من ٤٢٩ صفحة

كلمات مفتاحية:
الباكستان؛ أفغانستان؛ اليونان؛ بابواغينيا الجديدة؛ الولايات المتحدة

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.168383

مُقَدِّمَة

موضوع الكتاب الموسوم بعنوان: «رأسمالية الكوارث: كيف تجني الحكومات والشركات العالمية أرباحًا طائلة من ويلات الحروب ومصائب البشرية» يُعَدّ نتاج لبيئة ما بعد هجمات١١ سبتمبر. الكتاب من تأليف أنتوني لوينشتاين؛ ترجمه من الانجليزية إلى العربية أحمد عبد الحميد، كتاب سلسلة المعرفة، عدد ٤٧٨، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، نوفمبر٢٠١٩. الكتاب من ٤٢٩ صفحة صدرت طبعته الانجليزية في عام٢٠١٠.

يتناول المؤلف بعيون صحافي حاذق ومتمرس أحداث واقع الرأسمالية المفترسة والخصخصة والسعي نحو تطبيق مبادئ منطقية للسوق في مناطق الكوارث العالمية، والأمم الفقيرة، والدول التي تتدفق عليها أعداد كبيرة من اللاجئين. ويروم الكاتب خلف تحقيقاته الميدانية إلى إثبات فرضية جادل البعض فيها وهي: أن الرأسمالية مفترسة بطبيعتها. ويتناول كيف ظهرت شركات متعددة الجنسيات التي تسعى إلى الاستثمار في أماكن الأزمات والكوارث بخلقية الربح السريع ضاربة حقوق الإنسان والبيئة عرض الحائط. وتكمن أهمية الكتاب في كونه يسعى إلى كشف اللاعبين السريين ويفضح أساليبهم، ويتعرف على الجماعات المالية والاجتماعية

والسياسية التي خلقت هذه الفوضى، ومن ثَمَّ يطرح القضية من أجل التغيير. والهدف هو إيجاد نظام اقتصادي أكثر مساواة وديمقراطية تمثلنا جميعًا تمثيلاً حقيقيًا.

يصف الكاتب كيف أنه في العشر السنوات الماضية قبل تأليف كتابه وجد نفسه، في بعض الأماكن الأكثر تحديًا على كوكب الأرض، وأقنعته الأدلة التي رآها بأم عينيه بأن يزور مجموعة من الدول التي قد كانت مواقع للخصخصة الجامحة والتمييز الصارخ. وغايته في ذلك تقصي ميدانيًا حقيقة نظام اقتصادي ينتعش ويزدهر على فوضى منظمة وأوتوقراطية. وفي مهمته الشاقة هذه، يصرح أن هناك قليل من الصحفيين الذين يطالبون الشفافية أو يتصدون للرأسمالية، مفضلين بذلك العمل بشكل مريح في إطار منظومتها وهي ممارسة يعارضها. وإذا كانت وسائل الإعلام لا تهتم إلا بأخبار الزعماء، فإن هذا الكتاب يتناول وجهة النظر من الأسفل، حياة الناس العاديين غير المرئيين الذين غالبًا ما تتجاهلها نشرات الأخبار. والكتاب هو مساهمة في معركة الصمت المستمرة ضد الصمت والتواطؤ في عالم مابعد ١١ سبتمبر. فما من دولة زارها حسب تعبيره إلا وترك إرث الامبريالية ندوبا في مشهدها الطبيعي وفي شعبها، وهي جروح يمكن أن تضاف إليها إهانة التجاهل في تقارير الإعلام الغربي. ومؤلف هذا الكتاب فدائي متميز نذر نفسه في هذه الملحمة المعاصرة من أجل تقديم الحقيقة بما يخدم ترقية الإنسان.

ولعرض أفكاره، قسم المؤلف كتابه إلى جزأين؛ إذ يعرض في الجزء الأول بفصوله الأربعة أكثر الأمثلة فضحا للاستغلال: باكستان، اليونان، وهايتي، وبابوا غينيا الجديدة. هذه الدول قد تحملت صعاب جمة بسبب إصرار فصائل معينة على فرض سياسات تهدف إلى إثراء نخبة محلية وكيانات أجنبية. أما الجزء الثاني من هذا الكتاب فيركز بفصوله الثلاثة على الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا واستراليا، هذه الدول الغربية الغنية الثلاث تملي شروطها الاقتصادية التي خلقتها بنفسها على العالم، وتعارض الأنظمة الاقتصادية لهذه الدول. ويكشف الكاتب بأمثلة وأدلة دامغة كيف أن الحرب على الإرهاب جلب ثروات طائلة لشركات سعت إلى الاستفادة من الخوف والإختلالات التي يشهدها العالم المعاصر في ظل الرأسمالية المتوحشة.

١-الباكستان وأفغانستان

في الفصل الأول من الكتاب، يتناول المؤلف حالة باكستان وأفغانستان ولعبة البحث عن الحرب الجديدة. منذ هجمات ١١ سبتمبر، كان القلب الجغرافي «للحرب على الإرهاب» التي شنها الغرب يتمركز في باكستان وأفغانستان. ولفهم أوضاع هاتين الدولتين شد الرحال إليهما. والواقع أن الدور الذي تضطلع به المؤسسات العسكرية والأجهزة الاستخباراتية المخصخصة في هاتين الدولتين، الأجنبية والمحلية على حد سواء، هو الذي شجع الكاتب على زيارتهما، واكتشف أن هذا عالم مظلم أبعد ما يكون عن البيانات البلاغية الحذقة المستخدمة في لندن وواشنطن وكانبيرا، حيث التقى الكاتب مقاولين مفتولي العضلات يعكفون على جمع رزم من النقود، في السعي وراء حافز للربح لا علاقة له بالديمقراطية أو الحرية. هذه القوى تفسر بشكل جزئي حركات التمرد والعصيان الناجحة ضد الغربيين في هاتين الدولتين وفي العراق.

يتحدث الكاتب عن رحلته إلى أفغانستان وفي الطريق من المطار إلى العاصمة مناظر بؤس واضحة للعيان ومباني شركات أجنبية. في الطريق لابد من الوقوف في حاجز خرساني ليظهر اثنان من الحراس المسلحين المحليين لسؤاله ومرافقه عما كانوا يفعلونه هنا، وكان كل واحد منهم يحمل بندقية AK-47. وكل حارس يعتمر غطاء رأس يحمل اسم الشركة الأمنية. لابد من التوقف من أجل تفتيش حقيبته. وعلم من حديث رجل الأمن أنه أمام أول شركة عسكرية تصل إلى أفغانستان بعد الغزو الذي قادته أمريكا في أكتوبر٢٠٠١، قبل قدوم مزيدًا من الشركات العسكرية الأخرى التي منها (٧٥٪) مدارة من قبل أفغان بسبب الحاجة الملحة للأمن مما غير نظرة الناس في البلد تجاه الشركات العسكرية الخاصة بمرور السنين. واستنتج في حديثه مع جاك صاحب شركة الأمن الخاصة الذي فتشه رجاله أن أفغانستان باتت بعد الغزو المكان المثالي لازدهار اقتصاد الحرب.

ما قدمه الكاتب مع هذه الشركة، ما هو إلا مثال من بين العشرات من الشركات التي تلعب في ساحة الحرب بأفغانستان التي تعمل ضمن التعاقدات الخارجية. وهناك مقاولات تشرف على استيراد الخضروات والفواكه والمشروبات الغازية واللحوم، والمقاولين المشرفين عليها جمعوا ثراث هائلة ينعمون بها في أوطانهم. وحتى المخدرات كانت جانبًا رئيسًا من اقتصاد الحرب.

وبهذه الطريقة أحدث الاحتلال الغربي لأفغانستان تغيرًا كبيرًا في الاقتصاد والأمن والسياسة وكان في «معظمه تغيرًا إلى الأسوأ» (ص٤٧). وكان العمل خارج نطاق السيطرة الفعالة للدولة هو الهدف الأمثل لهذه الشركات. وهي تجمع الثروة وسط البؤس والمعاناة ليس في كابول بل كذلك في المدن والقرى. ورأسمالية الكوارث ازدهرت أيضًا في باكستان، جارة أفغانستان. وقد سافر الكاتب إلى العاصمة بيشاور وزار كراتشي ليعاين بأم عينيه الكوارث في الميدان.

٢-اليونان

سافر الكاتب إلى اليونان بمعية مترجم اسمه شامان chaman الذي هو لاجئ أفغاني ضرير، كان بحوزة المترجم قائمة بأسماء المحتجزين، وكان الكاتب يأمل زيارتهم وفهم محنتهم رغم ما يقال عن صعوبة الدخول إلى منشآت احتجاز المعتقلين. وشاهد الكاتب كيف أن البنية التحتية الخاصة اليونانية هشة لا تستطيع استقبال كل اللاجئين الهاربين من مناطق النزاعات والتوتر. وعاشت اليونان تحت قساوة التقشف. لم يكن المهاجرون واللاجئون وحدهم مَنْ يعاني، بل حتى شعب كامل طبقت عليه التجربة الاقتصادية الفاشلة التي صممها الاتحاد الأوروبي وباتت حلول الشركات والخصخصة هي الدواء الوحيد للتخفيف من الأزمة. لقد عاشت اليونان تحت وطأة سياسات اقتصادية قاسية أكثر من معظم الدول الغربية. وهكذا «وجدت الدولة اليونانية أفضل الأعذار لتهدئة مخاوف أقصى اليمين، واسترضاء النجاح الذي حققه حزب الفجر الذهبي» (ص٩٤). وذلك من خلال شن حملات قمع ودهم استهدفت الهجرة غير الشرعية. وتواطأ الاتحاد الأوروبي في الأزمة. غير أن رياح التغيير هبت في هواء اليونان، هذه المرة كانت في صالح حزب «سيريزا» Syriza من تيار اليسار في انتخابات ٢٠١٥، والحزب كان مناهضًا للتقشف. وفي اليونان وجد الكاتب أن الكثير من الحكومات قد ارتبطت بعلاقات وثيقة مع شركات إلى درجة يستحيل معها وجود سياسة تتم بالشفافية. وكانت الهجرة ساحة معركة رئيسة في اليونان. وكل المهاجرين الفارين من بلدانهم عيونهم على أوروبا وأعمال المراقبة والتوثيق للهجرة قد ولت صناعة كبيرة تجني الأرباح الهائلة للمقاولين ومختلف السماسرة.

٣-هايتي

شد الكاتب الرحال إلى هايتي ليكون شاهد عيان على ما يجري في هذه الدولة التي تُعَدّ أفقر دولة في النصف الغربي من الكرة الأرضية، ويذكر الكاتب أنها ما تزال تتعافى من آثار الزلزال المدمر الذي ضربها في يناير من العام ٢٠١٠. ويقول: «لم أر قط شيء كهذا. فقد بقيت أجزاء كبيرة من عاصمة هايتي، بورت، أو برنس «Port-au Price» قطعًا ممزقة سنوات بعد زلزال هائل. وجعل الدمار الكامل الذي خلفه الزلزال المدينة كأنها منطقة حرب، في حين بدت الحياة على مستوى الشارع أكثر قتامة مما شاهدت بعيني في أفغانستان، غير أنه لم يكن صراع مفتوح هنا» (ص١٣٣). وجه الكاتب غير المألوف والمختلف جعل السكان المحليين ينظرون إليه بريبة وهو يسير عبر المدينة المدمرة. وكانت الصحة العامة مهترئة، ودخلت الكوليرا إلى البلاد. وكان وضع هايتي ميئوس منه. ولسوء الحظ كما يقول الكاتب، فإن هايتي شأن غيرها من الأمم الفقيرة، قد تعرضت كثيرًا لمخاطر الاستغلال، وجاءت كارثة الزلزال لتوفر فرصة كبيرة لحدوث هذا، كما كشفت ذلك بوضوح برقيات سربها موقع «ويكيليكس» في العام ٢٠١١. وفي رحلته رصد الكاتب التآمر بين الشركات متعددة الجنسيات، والمنظمات غير الحكومية، وكلها تعتبر التعاقدات الخارجية مع شركات ربحية لتنفيذ المهام الضرورية. ويقول الكاتب: «إن الاستغلال الاقتصادي فرض بالقوة في هايتي» (ص١٦٦). والمشكلة الأخرى أن الحكومات السابقة منيت بالفشل في إعداد البلاد بنحو كاف لمستقبل مستدام. وهناك محاولات تبذل لتنمية السكان المحليين لكن كل هذه المحاولات أسفرت عن نتائج مختلطة.

٤-بابواغينيا الجديدة

يواصل الكاتب رحلته إلى بابوا غينيا الجديدة التي تُعَدّ إحدى أكبر الدول المتلقية للمساعدات من أستراليا. وقد حصلت هذه الدولة على استقلالها من استراليا عام ١٩٧٥، وعندما حصلت على استقلالها، كان التشغيل في المنجم هو أكبر مكسب في البلاد لا يعتمد على المساعدات. والدولة من الدول التي حباها الله بموارد طبيعية غنية. والسفر إلى هذه الدولة من أجل تقصي حول ما إذا كانت طفرة الازدهار في قطاع التعدين قد ساعدت البلاد أو أنها أعاقتها، لاسيما في إقليم بوغيفيل (Bougainvaille). ويذكر الكاتب أنه «بداية من إغلاق منجم بانجونا وحتى بضع سنوات مضت، كان من المستحيل تقريبًا لرجل أبيض الدخول إلى

حفرة المنجم بسبب إرث طويل من عدم الثقة» (ص١٩٠). هذه الدولة اجتاحتها شركات متعددة الجنسيات عملت هناك طوال عقود من الزمن، واستثمرت مليارات الدولارات في استغلال الثروات الطبيعية الكامنة تحت الأرض، في حين يحصل السكان على النزر اليسير من الفوائد الملموسة. ويرون تحسناً قليلاً في مستوياتهم المعيشية. في الوقت نفسه كانت التكاليف البيئية هائلة، والفساد متفشيًا. لم يتمتع عمال بابوا غينيا الجديدة بفرص عمل متساوية في المنجم. ويرى الكاتب أن هذا الوضع هو وضع مشترك وشائع في مناجم أخرى عبر البلاد. وكان هذا شكل أخر من أشكال رأسمالية الكوارث الذي تتحمل استراليا مسؤولية كبيرة عنه.

٥-الولايات المتحدة

في هذا الفصل الموسوم بعنوان: الولايات المتحدة «أرض الأحرار صارت دولة السجون» يشرح الكاتب كيف تحبس أمريكا نسبة من سكانها في سجن كبير،تعد الأعلى بالمقارنة مع أي دولة أخرى في العالم. وهذه الاعتقالات تتم بسبب المخدرات والحرب على الإرهاب والمشاكل العرقية والهجرة. وأشارت منظمة «هيومان رايتش ووتش» في العام ٢٠١٤ إلى أن: «أرض الأحرار قد صارت دولة السجون» وذلك من خلال تقرير أصدرته أوجز العدد اللامعقول من الأمريكيين ممن يواجهون عقوبة السجن بسبب ارتكابهم جرائم صغيرة وجرائم غير عنيفة» (ص٢٣٧). وجدير بالذكر أن هذا النظام قد أثرى شركات السجون الخاصة، هذه الشركات التي ترى في ذلك كله فرصة فريدة لجني أرباح مالية هائلة. وحتى إمكانية مراجعة الأحكام والبحث عن أسباب الاعتقالات بعيدة المنال، لأن «مقاولي السجون يمارسون ضغطا على مشرعين لحملهم على إصدار أحكام قضائية أكثر صرامة، وهو ما يؤدي إلى تحسين عائداتهم» (ص٢٣٩). وهذا ما يجعل من إصلاح أحكام عقوبات تستند إلى أدلة من أجل خلق نظامًا عادلاً وذكيًا بعيد المنال بسبب هؤلاء المقولين الجشعين. وبات الوضع خارج نطاق السيطرة إلى درجة أنه أصبح يشكل أزمة قومية. والأفدح من ذلك أن «بعض الولايات، مثل جورجيا، أبرمت تعاقدات خارجية حتى لعمليات قتل السجناء» (ص٢٤١). وهكذا ظل جمع المال من السجون خيارًا جذابًا بالنسبة للرأسماليين المغامرين. والمشكلة الأعوص في هذه الرأسمالية المتوحشة، إن وجود نظام أكثر إنسانية للسجناء يُعَدّ سيئًا لهامش أرباح الشركات، ومن ثَمَّ فهي تحارب دائمًا بنحو مرير هذا النظام إلى ما لانهاية. ولا غرابة أن تجد تزييف السجلات من الأمور الشائعة. كانت الأغلبية من هؤلاء المقاولين الجشعين من أصول اسبانية، وأمريكيون أفارقة هم حراس سجون، ومقاولي سجون، وموظفين في إدارات مديري الشرطة، وخبراء العلاقات العامة في مجال السياسة، وجيوشًا من مدققي الحسابات من سجون الولايات المتحدة الأمريكية وأخرى حول العالم. وهؤلاء حريصون دائمًا على حضور كل مؤتمر يعقده اتحاد «أيه سي أيه» الذي يعقد دائمًا مرتين سنويًا في مدينتين مختلفتين، للمشاركة في الأفكار ولقاء زملاء المهنة الذين يتنافسون معهم في السواق. كانت هندوراس مصدرًا رئيسًا للمهاجرين وهي دولة عانت بسبب انقلاب دعمته الولايات المتحدة الأمريكية في العام ٢٠٠٩، ولديها الآن وضع مريب باعتبارها إحدى عواصم القتل في العالم. وكان عشرات الأطفال غير المصحوبين بذويهم قد تدفقوا عبر حدود الولايات المتحدة فرارًا من نظام ديكتاتوري مدعوم من واشنطن. وهكذا يتبين أن دولاً أخرى تعرف الممارسات الوحشية التي تقف خلفها واشنطن ليغتني خلفاء مقاولين خواص جشعين.

٦-المملكة المتحدة

في الفصل السادس تطرق الكاتب إلى كيف تستعين المملكة المتحدة بمصادر خارجية للعنف، وكيف التحقت إلى صف الدول الرائدة في العالم في صناعات خصخصة السجون ومراكز الاعتقال إلى جانب الولايات المتحدة الأمريكية. في المملكة المتحدة توجه الكاتب أولاً إلى ضاحية فقيرة شمال مدينة شيفيلد Sheffield في جنوب يوركشير Yorkshire لمعاينة بعض طالبي اللجوء الذي قال عنهم بأنهم يسكنون في بيوت غير صحية وعفنة. «وقد تعمقت حالة العفن هذه منذ العام ٢٠١٢ فصاعدًا، حيث بدأت بريطانيا في خصخصة مساكن طالبي اللجوء، وأعطت وزارة الداخلية معظم العقود لشركة «جي فور إس» و«سيكو»(ص٢٨٣). وكانت شركة «جي فور إس» شركة عملاقة، حيث تعمل في ١٢٥ دولة ولديها أكثر من٦٥٧ ألف موظف، والتي تضمن حراسة السجناء في سجون تديرها إسرائيل في فلسطين. وفي العام ٢٠١٤ فازت شركة «جي فور إس» بعقد قيمته ١١٨ مليون دولار لتقديم خدمات أساسية في القاعدة الأمريكية في خليج غوانتنامو في كوبا. أما «سيكو» منذ تأسيسها في العام ١٩٢٩، حققت انتشارًا واسعًا، وصارت متغلغة في جميع مناحي الحياة في بريطانيا، حيث تدير عبارات، وشركة دوكلاند للسكك الحديدة الخفيفة في

لندن، والمختبر الفيزيائي الوطني، والسجون، وعقود الدفاع، والسلطات التعليمية، وإدارة النفايات، وتدير سجونًا في استراليا ونيوزيلاندا وألمانيا، ومجموعة من العمليات الأخرى. وجادلت تاتشير بسذاجة، أو بخبث بأن «الخصخصة كانت علاجًا ناجعًا لمجتمع محطم، وأن المديرين سيصبحون منارات مضيئة» (ص٢٨٧). بيد أن النتائج كانت مخيبة للآمال حتى بالنسبة للشروط التي دفع بها مؤيدو الخصخصة، وهو ما أدى إلى زيادة انعدام المساواة والفقر.

ليست هذه الشركات هي الوحيدة التي تعمل في مثل هذه الأسواق، فهناك شركات أخرى بأسماء مختلفة كلها تبحث عن الفرص لجمع المال من الكوارث. إن ثقافة شيطنة اللاجئين ظلت متفشية في بريطانيا. والجدير بالذكر أن الديمقراطيين الأحرار حاولوا إظهار معارضة شديدة للاتجاه المتنامي لرأسمالية الكوارث وذلك بالوقوف ضد الخصخصة لبعض القطاعات. وإذا كانت شركة «جي فور إس» قد برعت في تأمين عقود في مجموعة من المجالات المتنوعة، وهو ما يؤدي إلى زادة العائدات وتقليل المتاعب المالية في جزء آخر من نطاق العمل لو أنها خسرت عقدًا واحدًا، مثل عقد الترحيل. فقد أجرت صحيفة «غرديان» تحقيقًا حول البرنامج الذي تديره شركة «جي فور إس» في العام ٢٠١٢، واكتشفت أن أعدادا ضخمة من المقاولين قد أداروا المبادرة بقدر قليل من الشفافية. واضطر عاطلون وآخرون معرضون للخطر إلى قبول عمل غير مدفوع الأجر. معلوم أن رأسمالية الكوارث تزدهر في بريطانيا لأن القوى المعارضة لها ضعيفة للغاية. وهذا يساهم في ارتفاع وثيرة عدم المساواة والفقر بسبب رؤساء الشركات الخاصة وأصدقائهم السياسيين.

٧-أستراليا

هذا الفصل جاء تحت عنوان مثير على شكل إشهار: أستراليا «إذا كان قلبك ينبض فلديك وظيفة في سيركو». أما السبب، فيرجع إلى أن «استراليا حركت الأوتار، وجمعت الشركات متعددة الجنسيات المال، وألقيت هذه المشاكل على عاتق المواقع البعيدة المستعمرة سابقًا» (ص٣٢٣). في هذا الفصل، سافر الكاتب متجها إلى جزيرة كريسماس، لأن هذه الجزيرة المعزولة هي المكان الذي احتجزت فيه أستراليا طالبي اللجوء تحت أنظار شركة «سيركو» متعددة الجنسيات البريطانية المترقبة لتحقيق الربح. كما يوجد على الجزيرة العاملين لدى «الإدارة الأسترالية للهجرة وحماية الحدود». ويذكر الكاتب أن «لدى شبكة أستراليا الحديثة لطالبي اللجوء تاريخ دنيء. إذ عن وضعها بوصفها دولة استعمارية ارتكبت أعمال إبادة ضد سكانها الأصليين يفسر جزئيا المخاوف من الغرباء غير البريطانيين» (ص٣٣١).

وفي غضون أكثر من عقدين، زادت كمية الأموال التي جمعها المقاولون بنحو كبير. فقد كانت هذه هي الظروف التي المثالية لازدهار رأسمالية الكوارث. ومما يزيد الطين بلة أن الشركات الدولية «سيركو» و«جي فور إس» ليست لديها مساءلة فعليا في البرلمان الاسترالي. وما كان يعد أمر محوريا بالنسبة لسياسة الهجرة الأسترالية هو ارتباطها بالشركات التي تنفذ هذه السياسة. كما أن الحزبين الرئيسيين في البلاد، حزب العمال والحزب الليبرالي كانا يؤيدان وجود مراكز الاحتجاز القائمة على التعاقد الخارجي. شركة «سيركو» أدارت بعض المرافق في جزر كوكوس، في حين حصلت شركة «جي فور إس» عن عقد لإدارة موقع جزيرة مانوس. وكانت هذه الشركة تجني أرباح هائلة، «حيث تتقاضى ٧٤٧٩٢ دولار عن كل محتجز كل سنة» (ص٣٣٩). إذ كان من الأرخص كما يقول الكاتب وضع طلب لجوء في غرفة بفندق شيراتون Sheraton في سيدني عن قضائه ليلة في جزيرة مانوس تحت سيطرة «جي فور إس». وكل هذا يتم في إطار السرية التامة للنظام. ويُعزى ذلك كما يقول الكاتب إلى أن التعاقد الخارجي لإدارة السجون ومركز الاحتجاز في استراليا قد تأثر أيضًا بعلاقاتها مع الولايات المتحدة. لقد كانت قائمة المشاكل طويلة، سواء ما يتعلق منها بإدارة الهجرة الخرقاء أو ما يخص شركة «جي فور إس» آو شركة «سيركو». مقاولو هذه الشركات يتلاعبون بالنظام بنحو كبير إلى درجة أنهم باتوا قادرين على استغلال سوء إدارة الحكومة الاتحادية لأعمال احتجاز المهاجرين بما يخدم أرباحهم.

أما الانتقادات التي توجه إلى مثل هذه السلوكيات، فتتمثل في كون استراليا من دول العالم الأول ما كان لها أن تتعامى عن واقع الاحتجاز بمثل هذه القساوة. كما أنه لم يكن هناك ثمة دليل على أن الخصخصة قد أدت إلى تحسين الشفافية أو توفير المال للدولة. لقد ظلت العنصرية متفشية داخل نظام اقتصادي أنتج انعدام الإنسانية والتجرد من صفات البشر بينما يقمع الشفافية.

خاتمة

وأخيرًا، في خاتمة الكتاب، قام الكاتب بفك التعويذة وذلك بكشف كيف إن السلوك المفترس للتنفيذيين في الشركات المتعددة الجنسيات، ومسئولي الحكومة، والعاملين المتواطئين في المنظمات غير الحكومية، يُعَدّ السمة المميزة والحاسمة لما تم تلخيصه في: «تحقيق الربح بأي ثمن». وما ذكره الكاتب فيما سلف هو أمثلة صارخة على نظام رأسمالي خرج عن مساره الصحيح، ولكنها غير قابلة للتعميم. وهكذا أثبت الكاتب بأمثلة واضحة لا مجال للشك فيها فرضية أن الرأسمالية مفترسة بطبيعتها. فالاستغلال يستفحل والجشع الغربي يتقوى وتنعكس آثاره على دول والأشخاص والبيئة في ظل تجاهل تام مفزع لحقوق الإنسان. وما يجمع كل الدول التي زارها الكاتب هو أنها خاضعة لإيديولوجية مدمرة لشركات تستهدف جني المال على نطاق عالمي. والحقيقة الأخرى هي أن الرأسمالية المفترسة تواجه مقاومة في جميع أنحاء العالم، وهي مقاومة في نظر الكاتب مشروعة تقرها مجتمعات تضررت منها هايتي، وبابوا غينيا الجديدة، ونشطاء يدافعون عن اللاجئين في استراليا، ومنظمات غير حكومية في أفغانستان والفوز الانتخابي الذي حققه حزب سيريزا في اليونان. هناك معارضة متزايدة لحقيقة أن الغرب قد أصبح أكثر قليلاً من كونه مجتمعا مسورا محصنا بشدة، يستغل الموارد والناس في سعيه لزيادة أرباحه وتحقيق مفهوم سلام يخدم مصالح الذاتية. وبهذه الطريقة صرنا نعيش في عالم يفتقد إلى المساواة، عالم محكوم بأسواق لا تخضع للمساءلة.

وهكذا، يتبين للجميع أن الرأسمالية الغربية تضم بين طياتها مجموعة من التناقضات الحادة؛ فبينما ساهمت في استثمار مهارة الكثير من عباقرة البشر، وقدمت كثيرًا من الإنجازات المادية المبهرة للعالم، فإنها – في الوقت نفسه– وصلت إلى مرحلة من الدمار الأخلاقي. ويندهش المرء حين يعلم أن التقدم الأخلاقي مع الرأسمالية المتوحشة لم يعد يساير التقدم المادي، وأصبحت هذه الحضارة تهدر ما أنجزته من رخاء ورفاهية للإنسان حتى أن بعض المفكرين يخشون أن تكون هذه التناقضات تحمل في رحمها بداية انهيار هذه الحضارة العالمية العملاقة. وسوف يكشف ضمير العالم مستقبلاً نضال المؤلف ومَنْ معه في مواجهة الأخطاء الكبرى للرأسمالية الاستغلالية المتوحشة.

المجال وآليات تدبير النشاط الرعوي عند قبائل زيان خلال القرنين التاسع عشر والعشرين

١٨٧٣-١٩٥٦

إسهام في دراسة التراث والذاكرة التاريخية

المعطي بريان
باحث دكتوراه مختبر التراث الثقافي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة ابن طفيل -المملكة المغربية

بيانات الأطروحة

الباحث: المعطي بريان
إشراف: أ. د. محمد العاملي
جامعة السلطان مولاي سليمان
المملكة المغربية ٢٠١٧

أطروحة مقدّمة لنيل شهادة الماجستير
تخصّص التاريخ والتراث والتنمية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بني ملال
(٣١٠) صفحة

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.168407

كلمات مفتاحية:
قبائل زيان؛ الدورة الرعوية؛ تربية الماشية؛ الاستعمار الفرنسي؛ التراث؛ التنمية الجهوية

مُقَدِّمَةُ

تُعَدّ دراسة النشاط الرعوي بمجال زيان، من المواضيع التي لم تحظ بعد باهتمام الباحثين في مختلف التخصصات العلمية. سواء في التاريخ والجغرافيا، والاقتصاد، والأنثربولوجيا، والإثنوغرافيا، والسوسيولوجيا وغيرها من الحقول المعرفية. إذا أخذنا بعين الاعتبار ظاهرة التنقل الرعوي بين السهول والجبال كمكون أساسي من مكونات التراث المادي واللامادي، ومن الذاكرة الجماعية في مناطق الأطلس المتوسط عمومًا، ومجال زيان على وجه الخصوص. والظاهر، أن العلاقة بين الإنسان والمجال بالأطلس المتوسط الأوسط. تحكمت فيها خصوصيات الظروف المناخية، ذلك أن الرعي والانتجاع أضحى حاجة ملحة ونشاط مألوف لدى ساكنة الجبال وغيرها من المجالات. ففي الصيف، يستقر الزيانيون بالجبال المحيطة لمجالهم. وفي الشتاء، تكون الوجهة نحو الأزغار. كما ارتبط تنقل البشر في تاريخ المجتمع المغربي عامة، والزياني خاصة، بحاجة القطيع للتنقل لأجل الرعي، فحسب تعبير المؤرخ الفرنسي فيرناند بروديل، في حديثه عن الاقتصاد الرعوي في الحوض المتوسط: "كانت الحياة اليومية تجري وراء العشب الهارب". على هذا الأساس، شكل الرعي نشاطًا اقتصاديًا رئيسًا لدى كثير من قبائل الأطلس المتوسط، إذ عاشت باستمرار وخلال أوقات معينة من السنة، وهي تتحرك وراء مواشيها باتجاه المراعي. ويمكن مقاربة حركة التنقلات، عند زيان من خلال نمطين رئيسيين: حركة تردد

عرض أطروحة

يومية "العزيب"، ثم حركة انتجاع أو ما يسمى بـ "النجوع أو تنجاعت" باللسان الأمازيغي للمنطقة.

أهداف الدراسة

تروم هذه الدراسة إلى تحقيق مجموعة من الأهداف من خلال:

مواصلة البحث في التاريخ والتراث الجهوي لجهة بني ملال خنيفرة، بنفس المسار وبكيفية أكثر عمقا واتساعا للأهداف والغايات التي يتبنها الإطار البيداغوجي لماستر المجال والتراث والتنمية الجهوية، بغية تحقيق المزيد من التراكم والشمول تنقيبا ومسحا. وبالأخص في منطقة زيان التي تعد موضوع دراستنا، لأن ما أنجز لحد الآن في ميدان البحوث الخاصة بالرعي والانتجاع، دراسات قليلة، لا تتعدى بعض المقالات وبعض الإشارات الخجولة، الواردة في مختلف المظان المصدرية، والتي لم تؤطر الموضوع من جوانب عديدة، لا زالت تحتاج للدرس والتحليل والمقاربة كجزء من تراث المنطقة، ونموذج لنمط عيش لازال حاضرا إلى الآن.

إبراز غنى وتنوع التراث الرعوي بمجال زيان، باعتبار المراعي تراثًا طبيعيًا جبليًا، يرتبط فيه المادي والروحي، ليشكل أحد المصادر التاريخية للذاكرة الجماعية، ولذاكرة المكان وروحه. والتي تتحكم فيه جملة من الضوابط المنظمة للعلاقات والروابط الاجتماعية، تمشيا مع خصوصية العرف المحلي كجزء لا يجزأ من الهوية السوسيو ثقافية للقبائل الزيانية. مع رصد مختلف إشكالية التغيرات المناخية والتحولات السوسيو-مجالية والاقتصادية، التي لاحقت هذه الأوساط الرعوية مرورًا بفترتي الاستعمار والاستقلال إلى الفترة الراهنة.

بلورة تصورات إجرائية والتركيز على ضرورة إعادة الاعتبار لمراعي مجال زيان لما يحتضنه من مكونات تراثية مهمة، وكذا تأهيل هذه المناطق الجبلية، في إطار برامج تنموية وتشاركية للمناصفة المجالية بمقدورها أن تسهم في رفع بعض تحديات التنمية المحلية والجهوية.

إشكالية الدراسة

إن هذا البحث يعالج إشكالية مركزية تتمثل في دراسة، العلاقة التفاعلية بين الإنسان والمجال من خلال آليات تدبير النشاط الرعوي الذي كان وما يزال ضمن أولويات المعيش اليومي لقبائل زيان، التي حرصت على تنظيمه بتدابير مختلفة تخضع للثقافة المشتركة وأعراف القبيلة، القائمة على آليات الدورة الرعوية لتحقيق التوازن لمجالها الرعوي، وانتظام تنقلاتها بين الجبل والأزغار. مما حدا بقبائل زيان إلى بناء علاقات تعاقدية مع القبائل المجاورة لتبادل حق استغلال المراعي، درءًا للنقص في الكلأ.

ورغم التحولات التي مست مختلف المجالات الرعوية خلال فترتي الاستعمار والاستقلال، التي أدت إلى خلخلة البنيات والمؤسسات الاجتماعية، مما نتج عن ذلك من صراعات ونزاعات قبلية على مستوى المجال الخاص بالنشاط الرعوي، وأدى ذلك أيضًا إلى الصدامات الدموية أحيانًا كثيرة، مما ألزم على هذه القبائل إعادة النظر في استراتيجيات الرعي، خاصة مع بداية الاستقلال. ومن ثَمَّ، ما يبرر أهمية تحديد العلاقة التفاعلية بين الإنسان والمجال من خلال آليات تدبير النشاط الرعوي بمنطقة زيان، عبر جملة من الأسئلة المحورية:

- كيف أثر المجال، من حيث طبيعته الجغرافية بمنطقة زيان، على النشاط الاقتصادي القائم على الرعي والانتجاع؟ ثم كيف أثرت الحياة الرعوية على تاريخ المنطقة وتراثها وذاكرتها الثقافية؟
- ما هي أشكال وآليات تدبير المراعي التي عرفتها زيان؟ وإلى أي حد استطاعت أشكال وأليات تدبير المراعي أن تحقق التوازن على مستوى وسطها الطبيعي؟
- ماهي حدود ممارسة العرف، كمعطى تشريعي، في أوساط القبائل الزيانية؟ وما هي إسهامات العرف في تشكيل التراتب الاجتماعي القبلي بالمنطقة، في تدبير مجالات نفوذ الرعي وطبيعة الصراعات والتحالفات؟
- ما هي طبيعة التحولات التي عرفتها المراعي إبان فترتي الاستعمار والاستقلال، وأثرها على المجال والإنسان؟
- ماهي أسس تثمين المراعي كتراث ماديًا وروحيًا، من أجل صيانته وحمايته وجعله أداة استراتيجية في التنمية المحلية والجهوية؟

مصادر وراجع الدراسة

اعتمدنا في دراسة موضوع البحث على مصادر ومراجع اختلفت فائدتها وتفاوتت أهميتها بحسب نوعية المعلومات وقيمة الإفادات التي يقدمها كل مصدر على حدة حول مختلف الجوانب التي تطرحها مشكلة الرعي والانتجاع بقبائل زيان. ويمكن النظر إلى المادة المصدرية التي اقتحمت هذا الموضوع من خلال ثلاث أصناف من المساهمات:

أولاً: المصادر الإخبارية التي أشارت إلى الرعي والانتجاع، وهي قليلة، خاصة في مرحلة ما قبل الاستعمار، وبالضبط ما بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر. ونذكر منها أبو القاسم الزياني الذي تحدث عن مجال الأزغار، كمنتجع رعوي شتوي تأوي إليه قطعان قبائل اتحادية أيت أمالو التي تنتمي إليه قبائل زيان. وأعطى أبو العباس الناصري صورة واضحة عن العلاقة المتشنجة بين القبائل والمخزن، لكونها تجد دوما في الأراضي الواطئة أو السهلية عند قدم الجبل خلال فصل الشتاء مراعي ومراتع خصبة لا بديل عنها. أما المنصوري أحمد، فهو يقدم أخبارا على جانب كبير من الأهمية حول واقع النشاط الرعوي بزيان قبل الحماية، بأنهم يكسبون رؤوسًا من الماشية بكثرة، تتمثل في الأغنام والماعز.

ثانيًا: الكتابات الكولونيالية التي تناولت المجال الرعوي في إطار دراسات متباينة الخلفيات والأهداف، في هذا السياق قدم لنا شارل دفوكو إفادات إحصائية حول عدد خيام المنتجعين وأعداد رؤوس الماشية التي تملكها الأسر الزيانية. وانفردت دراسة ريمون بيروني عن غيرها من الدراسات الكولونيالية بمعلومات جد مهمة تمثل، البنية المرفولوجية التي تتشكل منها قبائل زيان. ومختلف أصناف الماشية التي تعد الثروة الرئيسية لزيان، بالإضافة إلى تنقلات الموسيمية للمنتجعين والرعاة بين الجبل والأزغار، مبرزا كذلك، جودة المواشي الزيانية والرواج الاقتصادي الذي تعرفه الأسواق. كما أشار سعيد كنون، إلى المؤسسات التقليدية التي تسهر على تسيير كل ما يتعلق بشؤون القبيلة، كالعرف وأمغار القبيلة. بالإضافة شكل وحجم ومكونات خيمة المنتجعين، كمآوى لهم. في حين خصص روبير أسبينيون، مؤلفه لتوثيق الأعراف المنظمة للقبائل الزيانية، رغم إشاراته الخجولة فيما يخص الأعراف التي تنظم الرعي والانتجاع، ومع ذلك يبقى من الدراسات التي لا محيد عنها في عملية كتابة تاريخ المجال الزياني. وتضمنت تقارير ضباط الشؤون الأهلية التي تقدم معلومات غنية ومفيدة حول الموضوع، تتمثل في الأرقام للإحصائية للمواشي، وكذلك المسافة الفاصلة بين بعض المراعي. وهذا لا يعفينا من وضعها تحت مجهر التحقيق والتعامل معها بتأني وحذر. لما تحتوي عليه من أحكام سلبية مبنية على مفاهيم جاهزة مسبقة.

ثالثًا: اعتمدنا في إعداد بحثنا على جملة من المقالات والدراسات التي قاربت الموضوع من زوايا مختلفة، منها مقال الجغرافي جون سيليريي، في دراسته حول "الانتجاع بجبال الأطلس المتوسط"، الذي يحدد الانتجاع في تنقل القطيع بشكل دوري، بالنسبة لقبيلتي بني مكليد وزيان وبالتناوب بين مجالين جغرافيين مختلفين من حيث المؤهلات الطبيعية. وتطرق إميل لاوست، إلى التنقلات الفصلية، بين الجبل وأزغار والتي تدفع قبائل الأطلس المتوسط إلى الانتجاع، وألقي الضوء أيضا على الخيمة ومكوناتها كنمط سكن المنتجعين.

تبعًا لما سلف يمكننا القول، إن الكتب الأخرى التي اعتمدنا عليها في إنجاز هذا البحث كانت مجرد وسائل مساعدة على الفهم وتحليل المعطيات. في ظل ندرة المادة المكتوبة تبقى الرواية الشفهية مادة أولية غطت هذا النقص بشكل كبير ومكنت من خلق أرضية خصبة للشروع في هذه الدراسة، رغم أنها هي الأخرى تطرح عدة مشاكل حيث تكثر إفادتها في مجال وتقل في مجال أخر. وعلى العموم فإنها استطاعت أن تملأ وترمم الفراغات التي خلفتها ندرة المادة المصدرية المكتوبة. لكن من الصعوبة بمكان صياغة وسبك خطاطة بيبليوغرافية متكاملة الجوانب عن تاريخ منطقة زيان، وتفسر إلى حد بعيد الحصيلة الخجولة المحتشمة التي تعتمل دفتي المادة المصدرية حيث يحضر تاريخ المنطقة بشكل عرضي، وفي سياق الأحداث العامة والغريب في الأمر والأنكى أن الكتابات بشقيها الإخبارية التقليدية والاستعمارية لم تفرد هي الأخرى سوى حصادا متواضعا أقل ما يمكن أن يقال عنه أنه مجرد خدوش باهتة على سطح ذاكرة المنطقة. ما يفسر الاعتماد على الرواية الشفهية والبحث الميداني لنسج اللحمة مع الإطارات النظرية التي وفرتها المادة المصدرية البيبليوغرافية.

منهج الدراسة

لقد تمت معالجة هذا الموضوع وفق منهجية ارتكزت في البداية، على المسح البيبليوغرافي والنظري قصد جمع المعطيات، وبعد الوقوف عن ضعف الدراسات التي تناولت إشكالية تنظيم الرعي والانتجاع بمنطقة زيان، مما فرض علينا اعتماد مناهج متعددة بتعدد المادة المرجعية وزوايا النظر للموضوع المدروس، لكننا حاولنا جعل المنهج التاريخي المبني على الوصف والتحليل والتركيب، هو المنهج المركزي الذي يتحكم في المناهج الأخرى التي انفتحنا عليها، وهي المنهج الأنتروبولوجي القائم على التحريات الميدانية والمقابلات الشفاهية، لدراسة علاقة الإنسان بالمجال، لإماطة اللثام عن بعض جوانب من سلوكيات،

وتمثلات، ومعتقدات، وأنماط ذهنية، ساهمت في بناء معرفة تاريخية متكاملة عن الحياة الرعوية والمعيش اليومي للأهالي بالمنطقة. بالإضافة إلى المنهج الإثنوغرافي محاولين من خلاله مقاربة الإشكال المطروح بوصف عادات وتقاليد المنتجعين بقبائل زيان بعد معاينة ميدانية، وذلك بهدف ترميم، أو إعادة بناء الذاكرة الجماعية للرعاة، كمخزون ثقافي وتراثي، وتاريخي محلي. أما المنهج السوسيولوجي، فقد تمت الاستعانة به لدراسة المجتمع القبلي لفهم أنماط تدبير المراعي الجبلية والسهلية والتحولات التي لاحقتها، خلال فترتي الحماية والاستقلال. وكذلك المنهج الإحصائي الذي ساعدنا على استثمار المعطيات الرقمية وتوظيف اللغة الإحصائية التي تم جمعها من الميدان.

فصول الدراسة

وانسجامًا مع قضايا البحث المتعددة، والمناهج المعتمدة، تم تقسيم الموضوع إلى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة. تناولنا في **الفصل الأول**، الخصائص الطبيعية والمعطيات التاريخية والبشرية بمجال زيان، سعيا منا إلى مقاربة هذه المراعي في إطارها الطبيعي، وفي سياقها التاريخي. أما **الفصل الثاني**، فقد خصصناه للحديث عن أشكال تنظيم الرعي ونمط المعيش اليومي، التي تحددها فصول السنة وحاجات القطعان من الكلأ، وظروف المراعي والمنتجعات. بينما أفردنا **الفصل الثالث**، للحديث عن أهم التحولات التي عرفتها مراعي زيان، خلال فترتي الاستعمار والاستقلال. التي أدت إلى الحد، من تنقلات القبائل واستقرارها مما سينتج عنه ظهور أنماط عيش جديدة. أما **الفصل الرابع**، فقد خصصناه، في مقاربة مراعي زيان كمواقع تراثي طبيعي، ويمكن أن يساهم، في التنمية المحلية المستديمة، إذا تمت المحافظة عليه وتأهيلها، من أجل التغلب على المعيقات والإكراهات، التي تحد من كسب الرهانات التنموية. فقد خصصناه أما الخاتمة فقد حاولنا فيها بيان أهم ما انتهت إليه هذه الدراسة من نتائج وخلاصات.

نتائج الدراسة

رصدنا في مستهل هذا البحث، دراسة النشاط الرعوي وآليات تدبير المجال عند قبائل زيان من بداية القرن التاسع عشر إلى ١٩٥٦م، كمساهمة في مقاربة الذاكرة، وتثمين التراث، والذي سمح لنا بالكشف على أن مجال زيان يزخر بمقومات طبيعية تؤهله للنشاط الرعوي أكثر من غيره من الأنشطة الاقتصادية الأخرى، من حيث البنية والتضاريس يعني تكاملهما من منظور رعوي.

مما لا شك فيه، أن تنوع الشبكة المائية بوجود شبكة سطحية وسهولة استغلال الفرشة المائية الباطنية يسمح بتوفير نقط الماء للماشية بوسائل مختلفة. كما أن تدرج المنطقة من الطبقة المناخية الشبه الجافة إلى الشبه الرطبة ساهم في تنوع الغطاء النباتي الذي يسمح بوجود الكلأ للقطعان طيلة السنة نظرا لأهمية المجال الغابوي. مما جعل مجال زيان يصنف ضمن المناطق التي تشتهر بالنشاط الرعوي، ولا غرو في ذلك، فقد تحكمت هذه المقومات الطبيعية في استقرار قبائل زيان بالمنطقة، والتي سمحت لها بالانتقال من ممارسة الرعي في إطار الترحال من جنوب المغرب إلى ممارسته في إطار الانتجاع في موطنهم الحالي.

وبناءً على ذلك يمكن القول مجملا، أن أصل قبائل زيان ينحدر من اتحادية آيت أومالو الصنهاجية، وفي نفس الوقت تم الحديث بإشارة دالة ومفصلة عن البطون القبلية مرفولوجيتها الاجتماعية التي كونت قوام الخريطة القبلية للمنطقة عبر تدرجات الزمن التاريخي. عن البنية القبلية للقبائل زيان، وعن مواطنهم السابقة والتي عاشت متنقلة بين عدة مناطق قبل استقرارها بمنطقة تافيلالت وعبورها الأطلس المتوسط الغربي منذ القرن الرابع عشر الميلادي لتخوض صراعا ضد السلطة المركزية التي كانت ترغب في الحد من زحف القبائل الجبلية، وضد القبائل المستقرة بأزغار حتى تتمكن من ممارسة الانتجاع الشيء الذي حققته مع بداية القرن التاسع عشر الميلادي. انطلاقا مما تجمع لدينا من إشارات مصدرية متفاوتة الأهمية، فإن التشكيلة القبلية لبلاد زيان، لم تأخذ – فيما يبدو-وضعًا مستقرًا وثابتًا طيلة العصر الوسيط وبداية الحديث. لأن أغلب القبائل ظلت في الأغلب الأعم جماعات رحل تعيش باستمرار على إيقاع الإنتجاع والتنقل بحثا عن الكلأ، إذ لم يكن ارتباطها بالأرض والأنشطة الزراعية سوى ارتباط محدود في غالب الأحيان. ومن أجل رسم صورة تقريبية عن النشاط الفلاحي، من جهة الذي يعتمد على زراعة القمح والشعير والذرة، وهي زراعات تستجيب للخصوصيات المناخية بالقسم الأوسط المركزي من الأطلس المتوسط، تماشيا مع هذه الحياة البسيطة والهادئة، ومن جهة أخرى، بعض الحرف التقليدية التي عرفت انتعاشًا ملموسًا داخل هذه الأوسط القبلية، تتمثل في صناعة الخزف والنسيج والدباغة والحرف اليدوية

المحلية كإنتاج الحصائر الحلفاء، والجلابيب والزرابي التقليدية من الصوف، يتم رواج هذا المنتوج الفلاحي والحرفي في إطار المعاملات التجارية داخل الأسواق الأسبوعية بالمنطقة. ومع ذلك تمكنا من وضع اليد على جوانب كثيرة من تاريخها الطويل. لإعادة بناء حيثيات المعيش اليومي لرعاة زيان داخل مجال جغرافي متعدد الأبعاد، السيوسيو-اقتصادية والسياسية والثقافية، ويتجلى ذلك في سلوكات وتمثلات الأفراد، والجماعات على حد سواء، وهو أيضًا ما يشكل ذهنية فترة محددة. سواء على مستوى السكن واللباس والغذاء، وعلى مستوى التقاليد والطقوس الموروثة.

والجدير بالذكر، أن قبائل زيان اجتهدت في تحديد تدابير متعددة لتنظيم مجالها الرعوي، وهو الانشغال الذي شكل القسم الهام من اهتمامات المؤسسات التقليدية بناء على ترسانة العرف التي انتظم حولها الزيانيون وتنظموا بها وانطلاقًا من هذه الترسانة يمكن التعرف على البعد الثقافي للتنظيم الاجتماعي، والتي كانت أنشطتها مركزة حول حماية المجال الرعوي، وتنظيم استغلاله، علما أن هذا التنظيم برز جليا في تحقيق دورة رعوية مما يعبر عن دراية بعواقب تدهور الموارد الطبيعية. باتباع أسلوب "أكدال"، وتنظيم التنقل بين الجبل والأزغار في إطار الانتجاع، والدخول في علاقات قرابة اصطناعية قصد الاستفادة من أكبر مجال رعوي ممكن، والدخول في علاقات تعاقدية وظهر في التحالفات بين "إغصان" والفخذات، وفي العقود التي أبرمتها مع القبائل المجاورة قصد تبادل الاعتراف بحق الرعي مما جعلها تسخر كل الوسائل للحفاظ على التوازن مجالها من جهة، وتأمين الكلأ لقطعانها من جهة ثانية. ويضاف إلى هذا وذاك، ظاهرة الصراعات القبلية التي تتسع دائرتها نتيجة النزاعات التي كانت تنشب بين السكان المحليين حول المجالات الرعوية ومصادر المياه، وهي ظاهر كانت تكتسي أبعادًا خطيرة ومروعة، خلال السنوات العجاف حين يقل رصيد المنطقة من الماء وتتراجع إمكانيات الرعي داخل المجال الطبيعي.

والظاهر، أنه أثناء دخول السلطات الاستعمارية إلى المنطقة تمت مراقبة محاور التنقل، وتسلط قواد الاستعمار على أخصب المراعي الشتوية، وتم خلق وضع قانوني للغابات والأراضي الجماعية مما جرد القبائل من مجال حيوي وأرغمها على التوجه نحو الاستقرار. حيث حرصت سلطات الحماية أيضا على خلق قطعية بين الجبل وأزغار لإرغام السكان على الاستقرار والتخلي عن النشاط الرعوي، حيث أصبح العديد من مربي الماشية أمام اختيارين: فالأول هو المكوث في الجبل طيلة السنة، وهو الصعب حيث إن قساوة المناخ الشتوي يؤدي إلى هلاك القطيع. أما الثاني هو الاستقرار في أزغار الشيء الذي اختارته أغلبية الأسر للجمع بين الرعي والزراعة مما ساهم في تركز الماشية في القسم الهضبي.

وفي السياق ذاته، عرف النشاط الرعوي بمجال زيان تحولات سوسيو-اقتصادية ومجالية كبيرة خلال فترتي الحماية والاستقلال، بمنطقة زيان، مما أدى إلى تراجع في استغلال مجالها الرعوي عن طريق الانتجاع الذي أصبح يمارس من طرف عدد محدود من محدود من الأسر، والتي اتجهت غالبيته إلى الاستقرار وإلى مزاولة أنشطة ومهن جديدة. ومما يسترعي الانتباه، حاولت هذه الدراسة الكشف عن الأبعاد التراثية والتاريخية للرعي، باعتباره نشاط لم يكن معزولا عن ذهنية ومعتقدات الأفراد داخل مكوناته القبلية، أي عن الذاكرة الجماعية المشتركة. لذا، أصبحت المحافظة على التراث الرعوي بمنطقة زيان، وتأهيله وصيانته يقتضي الحد من التفاوت الجهوي بين المجالات الجغرافية (الجبل، الأزغار)، من أجل التفكير في استراتيجية ذات نظرة شمولية تهدف إلى نهج تنمية مجالية مستدامة بالنسبة للمجالات الجبلية الرعوية.

من هذا الفرش القصير لموضوع النشاط الرعوي بمنطقة زيان، ندرك أن الموضوع لازال الغموض والإبهام يلف بعض جوانبه، مما يجعله حلقة من الحلقات الدفينة في تاريخ المغرب. ولازال يحتاج إلى دراسة معمقة تبين أهمية المنطقة بتراثها الزاخر، وهذا لن يتأتى إلا بتظافر الجهود، وتكريس تقاليد الحوار بين مختلف الطاقات والفعاليات، ومن مختلف التخصصات، لأن كتابة التاريخ مشروع تركيبي يستوعب حقول معرفية متباينة، أو بتعبير أكثر إجرائية، فإعادة كتابة التاريخ المحلي أو الشروع فيه يعتبر أولى الأولويات قبل انبثاق أي عمل أخر، وهذه مسؤولية ملقاة على عاتق الباحثين في تاريخ جهة بني ملال خنيفرة.

محمد الخامس ودوره في الحركة الوطنيـة المغربيـة
١٩٢٧ – ١٩٦١



سمير صبري عبد العزيز ناجى
ماجستيرفي التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب - جامعة المنوفية
جمهورية مصر العربية

بيانات الأطروحة

أطروحة مقدّمة لنيل شهادة الماجستير
تخصّص التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب
(٤٢٠) صفحة

الباحث: سمير صبري عبد العزيز ناجى
إشراف: أ. د. حلمي شلبي
جامعة المنوفية
جمهورية مصر العربية ٢٠١٨

كلمات مفتاحية:
المغرب؛ مراكش؛ محمد الخامس؛ الحركة الوطنية المغربية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.168411

مُقَدِّمَةُ

عاش المغرب لمدة طويلة متمتعًا باستقلاله الذاتي قبل أن تُفرض عليه الحماية الفرنسية، حيث عرف أزهى فتراته مع دولتي المرابطين والموحدين، حيث شهدت الرقعة الجغرافية المغربية أقصى توسع لها حيث امتدت نحو تونس والجزائر من جهة الشرق ونحو الأندلس من جهة الشمال وموريتانيا والسنغال من جهة الجنوب، إلا أنه مع بداية القرن التاسع عشر ساءت الأمور وأصبح المغرب فريسة سهلة تسابقت الدول الأوروبية الاستعمارية لاصطيادها، وفي مطلع القرن العشرين استطاعت فرنسا بعد عدة تسويات واتفاقات أجرتها مع الدول الأوروبية الأخرى الطامعة في احتلال المغرب أن تفرض عليه ما عُرف بنظام الحماية وذلك في ٣٠ مارس ١٩١٢م.

وبمجرد أن وطأة الجيوش الفرنسية الأراضي المغربية هب الشعب المغربي الرافض للسيطرة الأجنبية إلى الدفاع عن أرضه، قائمًا إلى الجهاد في سبيل الوطن، فركزت المقاومة في البداية على محاولة وقف عمليات الاحتلال وضمان بقاء الدولة، لكن باءت بالفشل نظرًا لعدم توازن القوى العسكرية، وبالرغم من ذلك استمر صمود المغاربة، فلم يرض الشعب المغربي بالوجود الاستعماري معبرًا عن رفضه بأساليب شتى اختلفت باختلاف الظروف ومستوى الوعي طيلة فترة الاحتلال.

وفي ظل السيطرة الاستعمارية كانت العناية الإلهية تفيض للأمة المغربية شخصيات من أبنائها مُنقذة لها تمد لها يدها، حين تكون قاب قوسين أو أدنى من الانهيار، وتركت ورائها تاريخًا تذكر به من بعد حياتها، وأثروا على مجرى الأحداث في زمنهم وتميزوا عن غيرهم بأعمالهم الخالدة. فولعًا وشغفًا بحب التاريخ، وإعجابًا وتقديرًا لعظماء المغرب، ولأن نسيان الذاكرة هو انتقاص من شأن الأمة، وجدنا أنه من الضرورة بما كان البحث في سير هؤلاء العظماء، خصوصًا ممن لم ينالوا حقهم من الكتابة التاريخية.

ومن هذه الشخصيات التي برزت في تاريخ المغرب الحديث والمعاصر، وأبلت البلاء الحسن في مسيرة الكفاح التحرري "الملك محمد الخامس"، الذى سعت فرنسا الاستعمارية لتوليته العرش لصغر سنه وعدم إلمامه بالشؤون السياسية، ولكنه استطاع أن يقود سفينة الكفاح في وسط الأمواج المتلاطمة ليصل بها إلى بر الأمان وينتزع استقلال بلاده على الرغم من المؤامرات التي حيكت ضده، فوعيًا منا لحجم هذه الشخصية وقع عليها الاختيار كموضوع للدراسة، محاولين بذلك إبراز ثقلها وأهميتها ومدى تأثيرها على مجرى الأحداث خلال سنوات النضال السياسي والكفاح التحريري.

الدراسات السابقة

وقد سبقت دراسة ذلك الموضوع عدة أُطروحات للماجستير والدكتوراه دون التعرض بشكل مُفصل لدور محمد الخامس الكامل في تعزيز دور الحركة الوطنية المغربية لاستقلال المغرب، حيث أن معظم هذه الدراسات قد تعرضت للاحتلال الأجنبي للمغرب وحركات المقاومة المغربية كأُطروحة الماجستير التي قام بها الدكتور حسن محمد حسن البدوي بعنوان **"الأمير عبدالكريم الخطابي حياة كفاح ضد الاستعمار الفرنسي (١٩٤٧-١٩٦٣م)"**، وكذلك أُطروحة الماجستير للباحثة رحاب محمد مصطفى بعنوان **" حزب الاستقلال المغربي "دراسة في توجهاته الفكرية ودوره الوطني ١٩٤٤-١٩٥٦"**، وكذلك أُطروحة الماجستير للدكتور محمد أحمد البرعى الشرقاوي بعنوان: **"التدخل الأوروبي في مراكش وأثره على الوعى القومي المراكشي ١٨١٤-١٩٥٦م"**، وكذلك أُطروحة الماجستير للدكتورة سلوى إبراهيم العطار، **المقاومة ونشأة الحركة الوطنية في المغرب من الحماية حتى سقوط دولة الخطابى١٩١٢-١٩٢٦**، وأُطروحة الماجستير للدكتور ماهر عطية شعبان بعنوان: **"مصر والحركة الوطنية في مراكش من الحماية إلى الاستقلال ١٩١٢-١٩٥٦م"**، وكذلك أُطروحة الدكتوراه للدكتور رضا عبد الفتاح أحمد على بعنوان **"الوفد والقضايا العربية ١٩١٩ – ١٩٥٢"**.

دواعي اختيار الموضوع

أما عن الأسباب التي دفعتني إلى اختيار هذه الشخصية دون غيرها لتكون موضوعًا دراستي فهي أسباب عدة منها:

أولاً: إن أغلب ما كُتب في هذه المرحلة من تاريخ المغرب يكتنفه الغموض ويحتاج إلى إعادة كتابته بأقلام وطنية لاسيما وأن أغلب الدراسات الخاصة بتاريخ الكفاح المغربي كتبت بأيدي فرنسية غير بريئة وتحوي الكثير من المُغالطات التاريخية التي تسئ إلى رموز الثورة وقادتها في محاولة لتقزيم أدوارهم وتشويه تاريخ الثورة على العموم، بينما الكتابات المغربية مجدت وعظمت من دوره الوطني، ولذلك وجدنا من الضروري أن نقف بموضوعية على تاريخ الحركة الوطنية المغربية ودور محمد الخامس فيها كمحاولة لإجلاء الحقيقة وإظهار الدور الحقيقي له.

ثانيًا: التجاهل الذي لاقته تلك الشخصية على صعيد الدراسات الأكاديمية التي خُصت للبحث في حياة الكثير من الشخصيات السياسية والاجتماعية، فلذلك سوف يتم التركيز على دور محمد الخامس في الحركة الوطنية المغربية وما يتعلق بذلك من أدوار وجوانب مختلفة من حياته الشخصية وعلاقاته بالقوى السياسية في الداخل المغربي، وكذلك علاقات المغرب الدولية في عهده، وانعكاسات الموقف الدولي والعربي من القضية المغربية على علاقاته بالحركة الوطنية وهو مالم يتم تغطيته بشكل مباشر في الدراسات السابقة.

ثالثًا: إن معظم الباحثين اتجهوا إلى دراسة الحركة الوطنية المغربية ككل وانصب اهتمامهم وتركيزهم على إنجازاتها، وهذه الشخصية لم تحظ بعناية الباحثين العرب بقدر كاف، كما أن افتقار المكتبة العربية لمثل هذه الدراسات، أمرٌ له مسوغاته الموضوعية في تكريس رسالة علمية لدراسة الدور الوطني الذي قام به الملك محمد الخامس في خدمة القضية الوطنية المغربية في تلك الفترة المليئة بالأحداث، والتي تجعل منه موضوعًا حيويًا في تاريخ العرب الحديث والمعاصر.

رابعًا: أردت من خلال هذه الدراسة المساهمة ولو بتواضع في إثراء مواضيع تاريخ رجالات الكفاح الوطني الذين نعرف عنهم القليل بالنظر إلى الدور الكبير الذي لعبوه من أجل الوطن.

منهج البحث

أما منهج البحث فقد خضعت الدراسة لمنهج البحث التاريخي الذي يقوم على جمع الأصول والمصادر وإثبات صحتها وتحري الأصول وتحديد العلاقة عليها ونقدها وإثبات الحقائق التاريخية وتنظيمها وتحليلها ثم عرضها عرضًا تاريخيًا مقبولاً هذا من جهة، وربط النتائج بالمقدمات من جهة أخرى.

الصعوبات

أما بالنسبة للصعوبات التي واجهتنى فقد تمثلت في صعوبة الحصول على الوثائق المغربية، وصعوبة إيجاد بعض المصادر العربية لعدم وجودها أو فقدانها وصعوبة التوفيق بين الاختلاف في وجهات النظر في بعض المصادر العربية والأجنبية واختلاف الرأي في تقديم الأحداث التاريخية، الشيء الذي جعلني اختار منها ما اعتقده أكثر موضوعية وعلمية.

مصادر البحث

أما عن أهم مصادر الدراسة، فقد استندت هذه الدراسة بالدرجة الأولى على الوثائق المودعة بدار الوثائق القومية مثل: وثائق الخارجية المصرية، وأرشيف البلدان، ووثائق عابدين، ومجلس النظار والوزراء، ووثائق البلاط الملكي العراقي، والوثائق البريطانية (*Foreign Office*)، والوثائق الأمريكية *Foreign relation of the United States (1927-1961)*، إضافةً إلى الكتاب السنوي للأمم المتحدة *Year book of the united nation*، والذى يتضمن التقارير الصادرة عن الجمعية العامة للأمم المتحدة والتي تحتوى على معالجات لموقف المنظمة الدولية من أبرز القضايا المرتبطة بالبحث، وكذلك الاستعانة ببعض محاضر والقرارات الخاصة بجامعة الدول العربية وتقارير الأمين العام للجامعة، ومحاضر جلسات مجلس الشيوخ والنواب المصري.

كما اعتمدت الدراسة على المصادر والمراجع المتصلة اتصالاً وثيقًا بموضوع البحث، وترجع أهمية هذه المصادر والمراجع أنها قد كتبها باحثون متخصصون من مختلف الاتجاهات لاعتمادهم على مصادر ربما لم يكن في استطاعتي الحصول عليها، إلى جانب أرائهم ذات الأهمية في التعليق على الأحداث وتحليلها، ومن هذه المراجع: الغالي العراقي، محمد الخامس (سياسة التحرير بين فن الممكن والمستحيل)، روم لاندو، أنا عائد من مراكش، عبدالكريم غلاب، تاريخ الحركة الوطنية المغربية، علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، هذا إلى جانب العديد من المراجع الأجنبية، والأبحاث المنشورة وكذلك المقالات المنشورة على المواقع الإلكترونية التي لا تقل أهميتها عن المراجع التي ذكرتها.

أما الصحافة المصرية والعربية، فقد كانت أحد الروافد المهمة لتغطية ومتابعة الكثير من الأحداث والقضايا التي تضمنتها هذه الرسالة وشكلت سنداً قويًا في إلقاء أضواء جديدة على بعض الثغرات، وتزويد الباحث بالمزيد من المعلومات لدراسة بعض الزوايا المظلمة في بعض جوانب الرسالة، ونذكر على وجه الخصوص صحيفة الأهرام التي تضمنت العديد من المعلومات والحقائق، كما استفاد الباحث من الدوريات ولا سيما مجلة المُصور والنداء والأساس، وجريدة المنار الجزائرية وغيرها.

كما إنني استفدت استفادة كبرى من مجموعة الرسائل العلمية، وهي تمثل جهد الباحثين القائمين عليها، وبالتالي تعطى معلومات مركزة إلى حد كبير تخدم في كثير من الأحيان مادة البحث، والتي تعد من الروافد المهمة التي زودت الرسالة بالمعلومات عن الكثير من الأحداث التي شهدتها المملكة المغربية في ذلك الوقت.

محتويات الأطروحة

أما طبيعة الدراسة قد اقتضت تقسيمها إلى مقدمة وتمهيد وستة فصول رئيسية وخاتمة:

أما عن **التمهيد** فقد تناولت فيه التنافس الاستعماري بين القوى الاستعمارية الكبرى منذ أواخر القرن التاسع عشر وصولاً إلى توقيع معاهدة الحماية ١٩١٢م، وكذلك السياسة الاقتصادية والعسكرية والإدارية التي اتبعتها القوى الاستعمارية في المغرب ودورها في إيقاظ واندلاع حركة المقاومة المغربية بقيادة الأمير محمد عبد الكريم الخطابي الذي خاض معارك متعددة مثل معركة انوال ١٩٢١م والتي حقق فيها انتصارًا عظيمًا الأمر الذي جعل القوى الاستعمارية (فرنسا – إسبانيا) تتحالف للقضاء عليه مما أدى إلى استسلامه عام ١٩٢٦م.

وفى **الفصل الأول** وخصصته عن " **المرحلة المبكرة من قيام محمد الخامس بدوره الوطنى١٩٢٧-١٩٣٠**" تناولت فيه ميلاد ونشأة الملك محمد الخامس في أحضان الدولة العلوية، وأهم العوامل المؤثرة عليه مثل نشأته في القصر الذى شهد العديد من الأحداث الجسام، وتنطق جدرانه وأركانه بقصص ومواقف ملوك الدولة العلوية، فبعد ولادته غادر أحد أعمامه ذلك القصر واعتكف بمدينة طنجة، إنه المولى عبدالعزيز، واعتلى العرش بعده العم الثاني المولى عبدالحفيظ، ثم ودع هذا القصر والعرش ليؤول المُلك إلى والده المولى يوسف، كل هذه الأحداث وقعت والأمير محمد يشهد ويرى ويسمع ويلاحظ ما تكتوي به ضلوع من حوله، وما تفيض به عيونهم من لوعة وحزن، ما حدث أمام عينيه لم يكن صراعًا بين إخوة أو أبناء، سباقاً إلى الحكم أو رغبة في الاستئثار به، ولكنه كان زلزالاً ضرب

المغرب كله ومن بين العوامل التي كان لها أثرٌ واضح في تكوينه الحالة التي وصل إليها الشعب المغربي في ظل نظام الحماية البغيض وما يعانونه من فقر وجهل وتفشي للأمراض والأوبئة، الأمر الذى جعله ينتقد سلطات الحماية في داخله، وكانت مظاهر البؤس والفقر التي شاهدها تلازمه وتشوش كثيرًا على سلوكه وهدوء طبعه، كما تناولت دور فرنسا في تربع محمد الخامس على العرش عام ١٩٢٧، واستهلال قيادته للعمل الوطني بموقفه من السياسة البربرية، وكذلك صدى الكفاح المغربي في العالم العربي.

أما **الفصل الثاني**: وهو بعنوان "**دور محمد الخامس والقوى السياسة المغربية ١٩٣٠-١٩٣٩م**"، فقد تناولت فيه إرهاصات العمل الوطني والعوامل التي أدت إلى ظهوره والتي تتمثل في تردي الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتعليمية، وكذلك المقاومة المسلحة التي اندلعت في مختلف أنحاء البلاد ضد المحتلين الفرنسيين والإسبان بقيادة الأمير محمد بن عبدالكريم الخطابي الذي شن غاراته على القوات الإسبانية وكبَّدهم خسائر كبيرة، وحرر مساحات شاسعة من الأراضي المغربية على الرغم من قلة إمكانياته العسكرية، والحركة السلفية التي انتشرت في المغرب، كما تناولت بداية ظهور الأحزاب الوطنية، وكذلك موقف الملك من مختلف القوى السياسية والحزبية التي ظهرت في المنطقتين الشمالية والجنوبية في محاولة منه للم شمل أطياف الحركات والأحزاب السياسية للعمل في سبيل الحصول على استقلال الوطن، ثم موقفه من انتفاضة بوفكران الدامية عام ١٩٣٧م.

أما **الفصل الثالث** فقد خصصته للحديث عن: "**موقف محمد الخامس من تطور أحداث الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ – ١٩٤٥**: حيث تناولت فيه بالشرح والتفصيل الموقف الذى اتخذه الملك محمد الخامس من الحرب العالمية الثانية وتحديدًا في عام ١٩٣٩م فما كان من الملك إلا أن أصدر أمرًا بمشاركة الجنود المغاربة في الحرب إلى جانب فرنسا، فلما استسلمت للألمان عام ١٩٤٠م أبدى تأثره وحزنه الشديد، واستمر على ولائه لها، مضيعًا على نفسه وشعبه فرصة التخلص من سيطرتها، وتفاصيل مؤتمر أنفا الذى أكد فيه الرئيس الأمريكي للعاهل المغربي على تأييده لحصول المغرب على الاستقلال، وما إن حلت السنة الموالية لانعقاد المؤتمر حتى هيأت نخبة من الوطنيين عريضة ضمنوها المطالب الأساسية المتمثلة في استقلال البلاد، ولكن فرنسا رفضت عريضة حزب الاستقلال، وردت عليها بأن أعلنت عزمها على إدخال بعض الإصلاحات، وزجت فرنسا بالوطنيين في السجون، واتهمت الوطنيين بالتواطؤ مع عدوها اللدود ألمانيا الهتلرية، ولم يشفع لهم أن المغرب وضع تحت تصرف الدول الحليفة جميع موارده الطبيعية وقواعده العسكرية، وأن أبناءه قاتلوا في صفوف الحلفاء لتحرير فرنسا وإيطاليا من النازية. كما لجأت الإقامة العامة الفرنسية إلى تعميق هوة الخلاف وشق الصف الوطني، فتارة كانت تلجأ إلى إذاعة أخبار كاذبة عن مملائة الملك للفرنسيين، وتارة أخرى عن معارضته لهم، هذا فضلاً عن أن رأس السلطة في الدولة الفرنسية لم يخرج عن هذه السياسة حينما دعا الملك لزيارة العاصمة الفرنسية باريس ملوحًا له بآمال ووعود بالاستقلال أفرغها ديجول من محتواها حينما عاد الملك من تلك الزيارة خالي الوفاض اللهم إلا باستثناء ذلك الوشاح الذى قلده إياه ديجول مُكافأة له منه من قيادة الحلفاء على دور المغرب في الحرب ما انعكس على صورة الملك في نظر بعض القوى السياسية التي رأت أن الملك ربما لم يستغل إمكانياته في الحصول على مكاسب سياسية أثناء ذلك اللقاء.

وتناولت في **الفصل الرابع**: وهو بعنوان "**علاقة القصر والأحزاب بالاحتلال ١٩٤٧-١٩٥١**" حيث تناولت فيه ارتفاع مد تيار الحركة الوطنية بعد الحرب العالمية الثانية في المغرب والإصلاحات التي لجأت إليها فرنسا لامتصاص الحماسة الملتهبة في قلوب المغاربة وصرف أنظارهم عن المطالبة بالاستقلال، ثم زيارة الملك محمد الخامس لطنجة عام ١٩٤٧م وخطابه فيها والذى كان بمثابة نقطة فارقة على درب العمل الوطني حيث أعلن فيه بأن الحركة الوطنية المغربية في بلاده إنما هي جزء من الحركة الإسلامية والعربية للتخلص من المستعمر الأجنبي، وكذلك تصاعد الصراع بين العرش وسلطات الاحتلال الفرنسي، ومحادثات العاهل المغربي مع الحكومة الفرنسية في باريس ١٩٥٠م، ومحاولة خلع محمد الخامس ١٩٥١م، والموقف العربي من هذه المحاولة سواء على مستوى جامعة الدول العربية أو على المستوى الرسمي والشعبي، ثم دخول القضية المغربية في أروقة الأمم المتحدة عام ١٩٥١م.

وخصص **الفصل الخامس**: وهو بعنوان "**عزل محمد الخامس عن العرش وردود الأفعال المحلية والعربية والدولية" ١٩٠٣-١٩٠٠م**، حيث تناولت فيه تدهور العلاقات بين القصر وسلطات الاحتلال الفرنسي خاصة خلال السنوات الأولى من خمسينيات القرن العشرين

والتي وصلت إلى حد المواجهة المباشرة وتبادل الانتقادات خاصة حينما اختار الملك الامتناع عن توقيع الظهائر(المراسيم) والمصادقة على القرارات التي قدمتها إليه سلطات الاحتلال، ورفضه للإصلاحات المزعومة التي باشرتها، وعلى إثر فشل المفاوضات التي أجراها مع المسؤولين الفرنسيين، لم يبق أمامه إلا العمل على اتخاذ سياسة علنية لمساندة حزب الاستقلال، وذلك بهدف تعزيز موقفه الوطني الرافض لإملاءات سلطات الاحتلال الفرنسي ؛ إذ كان يتصرف بحكمة وبكثير من التأني في حقل ملئ بالأشواك والمصاعب من أجل تحقيق الاستقلال للمغرب، وكذلك تناولت أهم الملابسات والدسائس والمؤامرات الاستعمارية التي ساهمت في عزل الملك محمد الخامس وأسبابها، وتأثير عزله على الحركة الوطنية المغربية، وموقف جامعة الدول العربية إزاء هذه التطورات، وكذلك الموقف العربي والدولي منه.

أما **الفصل السادس**: وهو بعنوان "**محمد الخامس واستقلال البلاد وسياستها الداخلية والخارجية١٩٥٦-١٩٦١**"، حيث تناولت فيه الظروف والملابسات التي أجبرت وأرغمت الحكومة الفرنسية على فتح مفاوضات مع مختلف القوى الوطنية المغربية والتي عرفت باسم مفاوضات "أيكس – ليبان"، وكذلك ظروف عودة الملك محمد الخامس إلى بلاده، ثم جهوده الوطنية لتصفية الوجود الأجنبي (الإسباني – الفرنسي – الأمريكي) في المغرب، ثم إصلاحاته الداخلية في المجالات الاقتصادية والإدارية والتعليمية والعسكرية والنيابية، وجهود بلاده المتواصلة لدعم القضايا العربية وخاصة العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦م، والقضية الجزائرية حتى وفاته عام ١٩٦١م.

نتائج الدراسة

أما الخاتمة فقد أظهر فيها الباحث أهم النتائج التي توصل إليها من خلال دراسته لدور الملك محمد الخامس في الحركة الوطنية المغربية وهي:

١- سيبقى محمد الخامس من أهم رموز المقاومة المغربية في تاريخ المغرب الحديث والمعاصر بفضل معاركه التي خاضها ضد الفرنسيين الذين حاولوا تسخير المغرب لصالحهم واستغلال ثرواته طمعًا وجشعًا، وطمس الهوية البربرية بمسخها وتشويهها، والإساءة إلى حرمات الأمازيغيين وأعراضهم، والمس بشخصيتهم الدينية المبنية على حب الإسلام، وزعزعة ثقتهم عن طريق خلق الفتن بمحاولة فصلهم عن إخوانهم العرب بيد أن أمازيغ جبال الأطلس المتوسط، استطاعوا أن يصدوا المحتل وأن يلقنوه درسا في الصمود والتحدي وخاصة في المعركة الشهيرة التي كانت بمثابة نقطة سوداء في تاريخ فرنسا بالمغرب وهي عزل محمد الخامس عام ١٩٥٣م.

٢-كان لموقع بلاد المغرب الاستراتيجي على خريطة السياسة العالمية أكبر الأثر في زيادة الأطماع الأجنبية، ولذلك تسابقت القوى الاستعمارية للسيطرة عليها. فبعد احتلال إنجلترا لمصر في عام ١٨٨٢ وإشرافها على الطرق الموصلة إلى الهند، شعرت فرنسا بتخلخل التوازن الدولي وبدأت في إثارة العراقيل ضد إنجلترا، ونتيجة لعدم تمكنها من إجبار إنجلترا على الجلاء عن مصر، رأت مساومة الحكومة البريطانية على حل وسط وهو أن تتغاضى فرنسا عن احتلالها لمصر في مقابل أن تترك إنجلترا لفرنسا حرية الحركة حتى تتمكن من الاستيلاء على المغرب الذي كانت تتطلع إلى احتلاله، خاصة بعد ظهور ألمانيا على مسرح الأحداث كقوَّةً عظمى، ورغبتها في التنافس على المستعمرات.

٣- كانت معاهدة الحماية مؤشرًا خطيرًا على تنازل المملكة المغربية عن كل مظاهر السيادة الداخلية والخارجية وما ترتب عليها من تشريعات استعمارية تضمنت حرمان الشعب من أبسط الحقوق الديمقراطية، وكانت النتيجة المباشرة لذلك انطلاقة ثورة الريف بقيادة محمد بن عبد الكريم الخطابي الذي أنشأ جمعية وطنية أخذت على عاتقها مسؤولية تنظيم الكفاح والمقاومة وإدارة شؤون الحكم في المناطق المحررة، ولكن التحالف الأمبريالي (الفرنسي – الإسباني)، واستخدام الغازات السامة وضع حدًا لطموح الخطابي في إرساء مشروعه الجمهوري وأنهى ما أبدعه من طريقة جديدة في مواجهة الاستعمار، وهي حرب العصابات التي أخذت عنها كثير من الشعوب التي كانت تحت الاحتلال . وكانت انطلاقة تلك الثورة بمثابة المسمار الأول الذي دُق في نعش الوجود الفرنسي في المغرب، فمنذ انطلاقها بدأت السيطرة الفرنسية بالزعزعة لتمهد الطريق أمام القوى الوطنية الداخلية للدفاع عن المغرب.

٤-في ظل المؤامرات الدولية لإخضاع المغرب، كان القصر الملكي بفاس قد استقبل مولد محمد الخامس الذي سعت فرنسا الاستعمارية لتوليته العرش لعدم إلمامه بالشؤون السياسية، فحرصت ومن يسير في ركابها من رجال المخزن على إحاطته بكل مظاهر التسلية، وإبعاده عن الشعب وعن الحركة الوطنية في محاولة منها لإبعاده عن التفكير في مشاكل المملكة أو التطلع إلى ممارسة سلطاته التي خولها له عقد

البيعة، ولكن انقلب السحر على الساحر لأنه كان دائماً منشغلاً بهموم الأمانة الملقاة على عاتقه.

٥- عمدت فرنسا منذ احتلالها للمغرب إلى قطع الصلة بين المغرب وبين الوطن العربي والإسلامي كجزء من سياستها الاستعمارية الهادفة إلى الاحتفاظ بهذا القطر، والقضاء على مقومات شعبه الدينية والفكرية والحضارية، فكان إصدار الظهير البربري لعزل المناطق البربرية عن بقية مملكة المغرب ؛ إلا أن سياستها هذه قد أدت إلى نتائج عكسية، وشكلت فرصة ملائمة لانطلاق الحركة الوطنية، وبروز الوجوه السياسية المثقفة القادرة على مقارعة الاستعمار بأساليب سياسية، والتي تبنت التنظيم السياسي والعمل الوطني، ولو نجحت الآمال الفرنسية لانقسم المغرب إلى دويلتين ضعيفتين سياسًا، هزيلتين اقتصاديًا، خاضعتين ذليلتين للمستعمر الفرنسي وسطوته العسكرية.

٦- إن الملك محمد الخامس قد أدرك وبوعي منذ وقت مبكر أن الارتقاء بالمسؤولية الوطنية وتحقيق أهدافها العظيمة يتطلب العمل الجاد المستمر، ولذلك أجرى تنسيقًا مع الحركة الوطنية المغربية التي اعتبرت هذه المبادرة والالتفاتة تعزيز وقوة لنضالها في مواجهة المحتل الفرنسي، وكلل هذا الجهد الوطني والتنسيق لاحقًا بإقرار وثيقة المطالبة بالاستقلال التي تقدم بها حزب الاستقلال المغربي، والحرب العالمية الثانية كانت في أوجها والتي حظيت بمباركة الملك وتأييده لما تضمنته من مطالب، الأمر الذى كان بمثابة الصاعقة لفرنسا وسياستها في شمال أفريقيا، ويعكس نضجًا ووعيًا مبكرًا لدى الملك مما عجل بعرض قضية استقلال المغرب في الأمم المتحدة.

٧- شهدت الفترة التي أعقبت نهاية الحرب العالمية الثانية الكثير من التطورات على الساحة العربية والدولية التي انعكست على تطور الحركة الوطنية المغربية، فلم تعد الحركة الوطنية تكتفى بالتعاون مع بعضها البعض بل ظلت تبحث عن دعم خارجي، يذكى مجهوداتها النضالية للحصول على الاستقلال، فربطت علاقاتها مع الشرق العربي لأجل كسب التأييد العربي لها ضد فرنسا وخاصة في أعقاب إنشاء الجامعة العربية حيث وفرت باعتبارها منظمة إقليمية عربية إطارًا مناسبًا أضفى الشرعية على تدخل أعضائها من أجل استقلال الدول الأخرى وجعله حقًا لها وواجبًا عليها، ثم منظمة الأمم المتحدة في العام نفسه، وقد وجدت الحركة الوطنية فيها من خلال مبادئها المناخ المناسب للمطالبة باستقلال الشعوب التي ما زالت تحت السيطرة الاستعمارية، وهو الأمر الذى صاحبه انهيار الإمبراطوريات القديمة، وظهور قوى جديدة تمثلت في الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي، مما أعطى الفرصة وساعد على ظهور حركة الاستقلال التي اجتاحت العالم الثالث.

٨-كانت حادثة حصار القوات الفرنسية للقصر الملكي للضغط على الملك محمد الخامس لتنفيذ مطالبها بإدانة أعمال حزب الاستقلال واعتقال عناصره مؤذنة بانفجار الشعور العربي والإسلامي في بلاد المشرق العربي تضامنًا مع المغرب، وفى الوقت نفسه كانت تلك الحادثة إيذانًا بتعظيم دور مصر في مساندة الحركة الوطنية المغربية وقد تجلى ذلك في رفض حكومة مصطفى النحاس لصفقة الأسلحة التي عرضتها فرنسا عليها من أجل غض طرفها عن مساندة القضية المغربية.

٩-كانت حادثة محاصرة القوات الفرنسية للقصر الملكي في المغرب عام ١٩٥١م بدعوى تطهيره من العناصر الشيوعية المتمثلة في أعضاء حزب الاستقلال تتشابه إلى حد كبير حادثة ٤ فبراير ١٩٤٢م في مصر والتي ادعت فيها بريطانيا رغبتها في تطهير القصر من العناصر المحورية التي يستعين بها الملك فاروق في قصره، ويكمن التشابه أيضًا في التصرف الذي لجأ إليه الملكين بتمرير الأزمة وذلك بمهادنة المستعمر في مطالبه رغبة في حقن الدماء وعدم تعريض مستقبل الوطن لخطر لا يعلم مداه إلا الله.

١٠- لقد اعتقد المستعمر أنه بنفي السلطان الشرعي، والزج بزعماء الحركة الوطنية في السجون سيحكم قبضته على البلاد وإخماد جذوة المقاومة وزرع اليأس والخوف في صفوف الشعب، غير أن هذه الجريمة النكراء بقدر ما خلقت استياء عميقًا في النفوس بقدر ما ألهبت نفوس المغاربة وأذكت مشاعر تشبثهم بوطنيتهم وهويتهم، فهبوا جميعًا للدفاع عن مقدساتهم وثوابتهم، فبمجرد شيوع خبر المؤامرة المشؤومة اجتاحت المظاهرات الصاخبة والانتفاضات العارمة جميع أنحاء المملكة، وكان ذلك إيذانًا باندلاع ثورة الملك والشعب التي جسدت أروع مظاهر التلاحم والتمازج بين القمة والقاعدة في مواجهة الاستعمار مما اضطر الإقامة العامة لفتح مفاوضات مع المغرب انتهت بحصوله على الاستقلال.

١١- إن السياسة الاستعمارية التي اتبعتها فرنسا في المغرب خاصة بعد عزلها محمد الخامس قد أدت إلى استياء العديد من الدول العربية، حيث كانت هذه

المواقف في معظمها تعبير صادق وشجاع عن هذا الموقف التاريخي من عدوان ليس على المغرب أو الأمة العربية والإسلامية، ولكنه اعتداء على البشرية جمعاء وعلى القيم الإنسانية التي تتشدق بها فرنسا، ففي مصر لعبت إذاعة صوت العرب دورًا كبير في نقل صورة تفصيلية عن الكفاح المسلح الذى كان يخوضه المجاهدون المغاربة في المدن المغربية ضد أعتى قوة استعمارية في النصف الثاني من القرن العشرين، وهو ما جعل الرأي العام العالمي يدرك صمود الشعب المغربي وثباته أمام أساليب التعذيب، وحملات الإبادة الجماعية، التي كانت تمارسها فرنسا في المغرب والتي أدعت أنها جاءت لتمدين المغرب وإيجاد مبادئ العدل والأخوة والمساواة.

١٢-كانت الزيارة التاريخية التي قام بها محمد الخامس لمدينة طنجة١٩٤٧م من أبرز المحطات التاريخية على صعيد علاقة محمد الخامس بالحركة الوطنية المغربية حيث جاءت تأكيدًا على تشبث المغرب ملكًا وشعبًا بحرية الوطن ووحدته الترابية وتمسكه بمقوماته وهويته. وقد كان لهذه الزيارة الأثر العميق على علاقة الإقامة العامة بالقصر الملكي، حيث اشتد الصراع خاصة وأن الملك لم يخضع لضغوط سلطات الحماية المتمثلة أساسًا في مناهضة الحركة الوطنية والمد التحرري، فكانت مواقفه الرافضة لكل مساومة سببًا في تأزم الوضع وشروع المستعمر في تدبير مؤامرة لنفيه إلى الخارج عام ١٩٥٣م وهو الخطأ الذي عجل بالاستقلال في النهاية. ولهذا يمكن اعتبار زيارة العاهل المغربي لهذه المدينة بمثابة بداية النهاية للاستعمار والتدخل الأجنبي في شؤون المغرب، والانطلاقة الحقيقية التي أدت إلى الاستقلال.

١٣-أدرك محمد الخامس أهمية وضع حجر أساس لبلاده بعد الاستقلال وذلك من خلال قيامه وضعه البنية التحتية لمؤسسات الدولة في المجالات السياسية والتشريعية والاقتصادية والتعليمية والثقافية والعسكرية من أجل الدفاع عن البلاد مواجهة الأخطار الداخلية والخارجية، فشهدت البلاد خلال السنوات القليلة بعد الاستقلال حركة كبيرة في سبيل تحقيق ذلك بمساندة الدول العربية وعلى رأسها مصر.

١٤-على الرغم من عدم توافر القوة الكاملة للمغرب للقيام بمساندة جيرانه ضد مستعمر مشترك وهو فرنسا إلا أن التزام محمد الخامس بفكرة العروبة قد دفعه دون إبطاء لمساندة الثورة الجزائرية ودعمها بالتنسيق مع أبرز زعماء البلاد العربية وهما جمال عبد الناصر والحبيب بورقيبة، وقد أسهمت عملية التنسيق المبكر بين المغرب وتونس ومصر من أجل القضية الجزائرية في تأصيل البعد العربي في سياسات المغرب الخارجية ومناصرتها لقضايا التحرر الوطني في بلاد العالم العربي.

١٥-ما من أحد إلا ويتبادر إلى ذهنه ما أنجزه محمد الخامس الملك المستقل من يوم ١٦ نوفمبر ١٩٥٥ يوم عاد مظفرًا من منفاه إلى يوم ٢٦ فبراير ١٩٦١ يوم لحق بجوار ربه، إن إنجازاته هي التي حشدت الشعب يوم فاجعته مخلوب اللب منهار القوى يوشك أن يفقد كل صواب، بل إنه قد بدا وكأنما استحال إلى سيل من العبرات المفجوعة المجزوعة تنسكب من مختلف الجهات لتتجمع في الرباط آية من أصدق آيات الولاء والاعتراف بالجميل.

وفى الختام أرجو أن أكون قد أسهمت بتواضع في إلقاء بعض الضوء على صفحة مهمة من تاريخ المغرب الحديث والمعاصر، مُعتمدًا على أسس البحث العلمي والنظر للأحداث بمقياس الموضوعية والمنطق متبعدًا كل البعد عن الإسهاب الممل أو الإيجاز المخل.

ملف العدد
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

الحرب الفرنسية الألـمانية ١٨٧٠ - ١٨٧١
من منظور جُولْ مِيشْلِيه (Jules Michelet)



د. ياسين زينون
أستاذ متعاقد للتاريخ
كلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق
جامعة الحسن الثاني – المملكة المغربية

مُلَخَّصْ

كانت الحرب الفرنسية البروسية لعام ١٨٧٠ – ١٨٧١ صِرَاعًا بين الإمبراطورية الفرنسية الثانية وولايات الاتحاد الألماني الشمالي بقيادة مملكة بروسيا. نَشَبَ النِّزَاعُ بسبب طموحات بروسيا لتوحيد ألمانيا ومخاوف فرنسا من نجاح بروسيا في ذلك وما يَتَّصِلُ به من تَغَيُّرٍ في ميزان القوى الأوربي. في ١٦ يوليوز ١٨٧٠ صَوَّتَ البرلمان الفرنسي لإعلان الحرب على بروسيا والدّويلات الألمانية حَلِيفَتِهَا، وبدأتِ الأعمال العدائية بعد ثلاثة أيام. بعد حَشْدِ قواته، غَزَا التّحالف البروسي الألماني شمال شرق فرنسا بشكل خاطف؛ كانت قواتُ التّحالف متفوقة من حيث العدد وحَاذِقَةَ القيادة وعالية الكفاءة، واستفادت أكثر من التكنولوجيا الحديثة، لاسيما على مستوى السِّكَكِ الحديدية والمدفعية، ما مَكَّنَهَا من إحراز سلسلة من الانتصارات السّريعة في شرق فرنسا يبقى أهمها ذاك الذي حققته بتاريخ ١ شتنبر ١٨٧٠ في معركة سيدان التي أُسِرَ فيها نابليون الثالث بعد هزيمة ساحقة للجيش الفرنسي. في ٤ شتنبر ١٨٧٠ أَعْلَنَتْ حكومة الدّفاع الوطني قيام الجمهورية الفرنسية الثالثة، واستمرت الحرب لخمسة أشهر أخرى مُنيت خلالها القوات الفرنسية بهزائم جديدة في شمال فرنسا. في ١٨ يناير ١٨٧١ ومن قاعة المرايا بقصر فرساي أعلنتِ الدّويلات الألمانية عن اتحادها كإمبراطورية ألمانية يَتَرَبَّعَ على عَرْشِهَا ملك بروسيا ڭيوم الأول. وبعد حصارها لأربعة أشهر ونَيِّفٍ سقطت باريس بِيَدِ الألمان في ٢٨ يناير ١٨٧١، عقب ذلك استولت فيها "كومونة باريس" على السّلطة لشهرين، وهي حكومة ثورية لم يَتَوَانَ الجيش الفرنسي النّظامي في قَمْعِهَا بشكل دموي أواخر مايو ١٨٧١. وفي ١٠ مايو ١٨٧١ حصلت ألمانيا بموجب معاهدة فرانكفورت على معظم الألزاس وأجزاء من اللّورين. غيّرت الحرب السّبعينية الخريطة السّياسية الأوربية التي رسمها ساسة أوربا في مؤتمر ڤيينا عام ١٨١٥؛ وهو ما أدّى إلى جانب تصميم فرنسا على استعادة الألزاس واللّورين والخوف من حرب فرنسية ألمانية جديدة إلى اندلاع الحرب العالمية الأولى. كان للمؤرخ جول ميشليه Jules Michelet موقف واضح من الحرب السّبعينية، وهو ما سنقوم بتحليله في هذه الدّراسة التي اتبعتُ فيها المنهج التّاريخي مُعْتَمِدًا أَهَمَّ المصادر والمراجع في الموضوع.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٢٠	فبراير	٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر:	١٣	مايو	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

الحرب الفرنسية الألـمانية؛ جول ميشليه؛ تاريخ فرنسا؛ ثورة الكومون؛ الحرب السبعينية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.168428

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

ياسين زينون. "الحرب الفرنسية الألـمانية (١٨٧٠ -١٨٧١) من منظور جُولْ مِيشْلِيه".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد الثامن والأربعون؛ يونيو ٢٠٢٠. ص ١٨٧ – ٢٠١.

Corresponding author: zainoune.yassine@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org
Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقَدِّمَةُ

الحرب الفرنسية الألمانية لـ ١٨٧٠-١٨٧١ أو الحرب الفرنسية البروسية، حرب قصيرة الأمد، يُشار إليها أحيانًا باسم الحرب السّبعينية[١]، نَشَبَتْ بين القوة المسيطرة في أوربا آنذاك وهي فرنسا الإمبراطورية الثانية (١٨٥١-١٨٧٠) بقيادة نابليون الثالث Napoléon III(١٨٠٨ - ١٨٧٣) والولايات الألمانية للاتحاد الألماني الشمالي[٢] التي تتزعمها مملكة بروسيا[٣] القوة الفَتِيَّةُ الصّاعدة بقوة حينها والمنتشية بهزيمة النمسا في حرب الأسابيع السبعة[٤]. شَكَّلتْ الحرب السّبعينية الحدث البارز الأخـير الذي عاصره ميشليه[٥] قَيدَ حياته، وقد تناوله بـالدّرس والتـحليل في مؤلــفه: "فرنســـا فــي مـــواجهة أوربــا" "La France devant l'Europe " الذي أَلّفَهُ إبّان هذا النّزاع المسلح[٦]. تروم مساهمتنا توضيح رؤية هذا المؤرخ للحرب السّبعينية، فكيف رأى ميشليه هذه الحرب؟

أولاً: أسباب الحرب

١/١-السبب المباشر

في الفترة ما بين ١٩ و٢٧ شتنبر ١٨٦٨ قاد خوان بريـم Juan Prim (١٨١٤- ١٨٧٠) وفرانسيسكو سيـرانو Francisco Serrano (١٨١٠-١٨٨٥) تَمَرُّدًا ضد التاج الإسباني عُرِفَ بـ"الثورة المجيدة"؛ أطاح بالملكة إيزابيل الثانية Isabelle II (١٨٣٠-١٩٠٤) عن عرش إسبانيا[٧]. منذئذ وحتى عام ١٨٧٤ - وهي الفترة التي تُعرف في التاريخ السياسي لإسبانيا بـ"ديمقراطية السنوات الست"- لم يَألُ سيرانو الوَصِيُّ على العرش جُهْدًا في إيجاد ملك لإسبانيا. في الواقع كانت أمام سيرانو خيارات كثـيرة؛ أحدها: بالدوميرو إسبارتيرو Baldomero Espartero (١٧٩٣- ١٨٧٩) الزّاهد في الأمر لِكِبَرِ سِنِّهِ. اقتُرِحَ أيضًا اسم ابن الملكة إيزابيل الثانية ألفونسو الثاني عشر Alfonso XII (١٨٥٧- ١٨٨٥)؛ لكن الخوف من سهولة التأثير عليه ومن مغبة تكرار أخطاء النظام السياسي المنهار جعل الجميع يصرف النظر عنه. من بين الخيارات أيضا، كان ملك البرتغال فرديناند الثاني Ferdinand II (١٨١٦- ١٨٨٥)، وأخيرا انتَخَبَ مجلس الكورتيس الإسباني في ١٦ نونبر ١٨٧٠ مَلِكًا على إسبانيا الملك الإيطالي أماديو الأول Amédée I[er] (١٨٤٥-١٨٩٠)[٨].

كان من بين المترشحين لاعتلاء عرش إسبانيا ابن عم ملك بروسيا گيوم الأول Guillaume1[er] (١٧٩٧ - ١٨٨٨) الأمير ليوبولد دوهوهونزولورن سيگمارينگن Léopold de Hohenzollern Sigmaringen (١٨٣٥- ١٩٠٥) الذي قَدَّمَ ترشيحه في ٣ يوليوز ١٨٧٠، وهو ما رأت فيه فرنسا تطويقا لها من طرف آل الهوهونزولورن حُكَّامِ بروسيا والسّاعين إلى اعتلاء العرش الإسباني[٩]. لِذا هَدَّدَت الحكومة الفرنسية على لسان رئيسها إيميل أوليڤي Émile Ollivier (١٨٢٥- ١٩١٣) بالدّخول في حرب ضد بروسيا، إن لم يتراجع عن ترشّح الأمير ليوبولد، ما اضطر والده شـارل أنطــوان Charles Antoine (١٨١١-١٨٨٥) إلى سحب ترشيح ابنه.[١٠] بَيْدَ أن هذا التّراجع لم يُشْفِ غليل النّظام الإمبراطوري الفرنسي الرّاغب في حرب بروسيا، أو في إهانتها على الأقل عبر هَزْمِهَا دِبلوماسيًا حتى إن كَلَّفَهُ ذلك الزج بفرنسا في حرب ضدها[١١]. في غضون ذلك حَلَّ بإيمس Ems في ١٣ يوليوز بينيديتي Benedetti (١٨١٧ -١٩٠٠) سفير فرنسا لدى بروسيا حيث التقى گيوم الأول وطالبه بالالتزام بأن لا يترشح الأمير ليوبولد مجدّدا لاعتلاء عرش إسبانيا، لكن ملك بروسيا رفض أخذ هذا الالتزام على نفسه[١٢].

بِسْمَارْك المتحمسُ بدوره لدخول بروسيا والولايات الألمانية حليفتِها الحرب ضد فرنسا وفَوْرَ علمه في 13 يوليوز بفحوى المقابلة أَعْلَمَ جميع سفراء بروسيا بمضمون هذا اللقاء الدبلوماسي ببرقية رسمية استقاها من مقال نُشِرَ يوما قبل ذلك "بمجلة ألمانيا الشمالية" " Gazette de l'Allemagne du Nord" ضَمَّنها عبارات مُشَجِّعَةٍ على حرب فرنسا، مُحَوِّلا بالتالي الأسلوب اللَّبِقَ الذي رَفَضَ به گيوم الأول الطلب الفرنسي إلى استفزاز مهين[١٣]؛ فما كان من النظام الإمبراطوري الفرنسي إلاّ أن تَذَرَّعَ بذلك لإعلان الحرب على بروسيا؛ في تلك الأثناء َقَدَّمَت الحكومة الفرنسية للبرلمان مشروع قرار لإعلان الحرب على بروسيا، تمت المصادقة عليه في ١٩ يوليوز ١٨٧٠، فأعلنت فرنسا الحرب على بروسيا مساء نفس اليوم.[١٤]

٢/١-الأسباب البعيدة

ثَمَّةَ أسباب عميقة وراء نشوب هذه الحرب، تَتَّصَلُ أساسا بتنامي الدور الرّوسي بأوربا خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر؛ فبسبب تهديدها المصالح الرّوسية في البحر الأسود ورَّط قيصر روسيا Nicolas1 نيكولا الأول[er](١٧٩٦-١٨٥٥) فرنسا في حرب القِرم[١٥]، وأشعل فتيل الحرب بين بروسيا والنمسا عام ١٨٦٦ في ما سُمِّيَ بحرب الأسابيع السّبعة التي انتهت بهزيمة النمساويين، وهو ما يوضحه ميشليه بقوله: "الذّوبان الذي حَلَّ الآن بفرنسا التي تورطت في حرب القِرم، والانحلال الذي تعرضت له النمسا [أي بعد هزيمتها ضد بروسيا في حرب عام ١٨٦٦]، كل ذلك خَطَّطَتْ له روسيا."[١٦]

فَقَبْلَ اندلاع حرب الأسابيع السّبعة كان عاهل بروسيا ڤيوم الأول قد وَعَدَ الإمبراطور نابليون الثالث بسيادة فرنسا على كولون Cologne [غرب ألمانيا] وكوبلينتز Coblentz [غرب ألمانيا] إن هي التزمت بعدم التدخل في هذا النّزاع المسلح، و هو ما التزمت به فرنسا فِعْلاً[١٧]، فَأَمَّنَتْ بالتالي ظهر بروسيا وأتاحت لها حشد كل قواتها في منطقة بوهيم Bohème [١٨] التي دارت بها في 3 يوليوز 1866 رحى معركة سادوا Sadowa الحاسمة، ويتحدث هذا المؤرخ عن ذلك قائلاً: "لقد ساعَدْناَ دون وعي منّا بشكل فظيع في هذه الحرب، وقُمْنَا بالشيء الكثير من خلال عَدَمِ قيامنا بأي شيء".[١٩]

لكن بعد انتصارها في الحرب، لم تمنح بروسيا السّيادة على كولون وكوبلينتز لفرنسا، بل أخضعتهما لحكمها، مرغمة دويلات وسط وشرق ألمانيا على توقيع اتفاقيات عسكرية وضعت تحت إمرة القيادة العسكرية البروسية مُجَنِّدِي هذه الدويلات، وفي ذلك كتب ميشليه يقول: نَعْرِفُ كيف تَمَّ الالتزام بهذه الوعود بعد سادوا، وعَقِبَ الخدمة الجَبَانة التي قَدَّمَهَا الإمبراطور لبروسيا، بِتَخَلِّيهِ عن مساعدة النمسا وقبوله ابتلاع بروسيا لهانوفر Hanovre [شمال ألمانيا] وهيس ناسو la Hesse Nasseau [غرب ألمانيا] وفرانكفورت Francfort [غرب ألمانيا] وشليزويج Schleswig [شمال ألمانيا]، وهي الدّويلات التي أجبرتها بروسيا في نفس اليوم الذي وَعَدَتْ فيه الإمبراطور[أي نابليون الثالث] باحترام الوسط ولاباڤييرla Bavière [الجنوب الشرقي لألمانيا] ووورتيميرگ Wurtemberg [الجنوب الغربي لألمانيا] على توقيع معاهدات عسكرية سَلَّمَت بموجبها جيوشها للبروسيين"[٢٠].

بعد انتصارهم في سادوا ازداد حقد البروسيين على فرنسا، وراودهم الحنين للثأر لهزيمتهم في معركة يينا Iéna [٢١]؛ وهي رغبة لم تكن لديهم من قبل، وحول هذه النقطة أَكَّدَ هذا المؤرخ أنه: "قَبْلَ سادوا، بَدَا خامدا الحقد على الحروب القديمة لنابليون لدى أُنَاسٍ اجتاح آباؤهم فرنسا مرتين [أي سنتي ١٨١٤ و١٨١٥][٢٢]، كان من المفروض أن يُنْهِيَ هذا كُلَّ شيء على ما يبدو، فَهَا هُمْ قد نَسُوا عامي ١٨١٤ و ١٨١٥ بعد سادوا، وأصبحوا لا يُفَكِّرُونَ إلاّ في الانتقام لهزيمتهم بيينا."[٢٣]، ويضيف: "في أحد خطاباته الرّسمية انطلق بِسمارك من هذه الفكرة: يجب أن يسود بين الأُمَّتَيْنِ [أي بين بروسيا وفرنسا]: حِقْدٌ خالد (...)"[٢٤]. من جهتهم كان الأطفال الألمان يَتَرَبَّوْنَ على كُرْهِ كُلِّ ماهو فرنسي، وهي القناعة التي يختزلها هذا المؤرخ في:" إنّهم يَتَلَقَّوْنَ في أحضان المُرضعة تربية سابقة لأوانها، ويتنفسون ويمتصون الغضب والحقد (...) فمُقَرّرَاتُ المؤسسات الثانوية تتضمن كل ما يَبْعَثُ على الغضب من فرنسا، وَتُعَلِّمُ الأطفال الصغار، أن يحقدوا ويلعنوا ما لا يعرفونه جيدا، [أي فرنسا]. "[٢٥].

لم يُقابل الفرنسيون هذا الحقد بالمثل، بدليل ترحابهم وحفاوتهم بزوار المعرض العالمي لسنة ١٨٦٧[٢٦]، ويوضح ميشليه في هذا الصدد: "لم يَبلغْ هذا العطف العالمي مداه إلاّ بعد سادوا، (...) وذلك خلال المعرض الكبير لسنة ١٨٦٧، هذا الاحتفال الرّفيع الذي أعطته باريس للعالم، فَعَادَةً ما كان ربُّ المنزل يكتفي بمكان مُظْلِمٍ، ويعطي أجمل غُرَفِهِ لزوار الأقاليم وللأصدقاء الأوربيين (...) وهو ما عَلَّقَ عليه آنذاك أحد الكُتَّابِ الكبارُ بالقول: " أيّها الناس! لا وجود لمدينة هنا (...) أُدْخُلُوا! هذه المدينة مدينتكم"[٢٧]. بدوره لم يكن الشعب الفرنسي مستعدا لدخول هذه الحرب، وهو ما يفصح عنه هذا المؤرخ بقوله: " كانت جموع الأُمّة[٢٨] وفئة الفلاحين بالأساس أبعدَ ما تكون عن تَمَنِّي الحرب؛ فَلَمَّا أرادت الحكومة تشكيل دوريات للحرس (...) تَعَذَّرَ ذلك بسبب المزايدة على اليد العاملة، إذ لم يكن بمقدور القروي الاستغناء عن مساعده الطبيعي [أي ابنه]، لاستئجار عامل."[٢٩].

يعزو ميشليه ذلك لسببين، أوّلهما: انخراط البروليتاريا الفرنسية في خمسينات وبخاصة في ستينات القرن التاسع عشر في مشاريع إنشاء الطرق ومَدِّ خطوط السكة الحديد[٣٠]، يقول هذا المؤرخ: "إننا نَعْرِفُ أن الأُمّة الفرنسية [أي العمّال والبورجوازيون والقرويون] في هذه اللحظة كانت لا تريد الحرب فقط ، بل كانت في قناة اقتصادية مناقضة لها تماما، كُنْتُ أول من احْتَجَّ ضد هذه المكيدة (...) فالقروي الذي كان في حقله بالأمس (...) سيصبح اليوم أَسَدًا (...)"[٣١]، ثانيهما: مستفيدًا من تطوّر شبكة المواصلات الفرنسية آنذاك، وبعد أن كان مثقلاً بأداء فوائد الدّيون إبّان ملكية يوليوز، تَمَلُّكُ الفلاّح الفرنسي أرضه في عهد الإمبراطورية الثانية وتزايدت عائدات بيع منتجاته داخل فرنسا وخارجها فتحسّنتْ بالتّالي أحواله المعيشية، وهو المعطى الذي يوضحه ميشليه بقوله: "بعد أن ظل ملزما بأداء ديون الرّهن خلال عهد لويس فيليب (...) تَمَكَّنَ مُزَارِعُ الوسط والغرب من التحرر ومن أن يضرب برجله على الأرض ويقول: "إنّها لي،"[٣٢]، مضيفًا: "نتيجة تأثير هذه الظروف؛ وَجَدَ هذا الرّجل نَفسَهُ يَأْكُلُ، بعد أن جاع لمدة طويلة."[٣٣].

يُعْطَى أيضًا كسبب بعيد للحرب السّبعينية رغبة نابليون الثالث دخول حرب تعيد للإمبراطورية الثانية بَعْضًا من كبريائها؛

فبعد الضربات التي تَلَقَّتْهَا فرنسا في ستينات القرن التاسع عشر؛ من قَبِيلِ: انتصار بروسيا على النمسا في حرب الأسابيع السّبعة عام 1866، وما رافق ذلك من شعور الفرنسيين بأن الخطر بات يتهددهم بشكل قوي، وإدراكهم أن كل نصر تحرزه بروسيا يمثل ضربة قوية لفرنسا، وكذا مشروع بِسمارك لتوحيد ألمانيا(٣٤)، لم يجد نابليون الثالث بُدًّا من دخول حرب "كبرياء" ضد بروسيا تعيد بعض الهيبة للإمبراطورية الثانية، وهي الغاية ذاتها التي من أجلها زَجَّ بفرنسا في حروب القِرم وإيطاليا (١٨٥٩)(٣٥) والمِكسيك (١٨٦١-١٨٦٧) (٣٦).

دَعْمًا لموقفه الرّامي لإعلان الحرب على بروسيا، وبعد تصويت الفرنسيين في استفتاء ٨ ماي ١٨٧٠ لصالح الإصلاحات التي اتخذتها الإمبراطورية الثانية منذ عام ١٨٦٠، اعتبر نابليون الثالث ذلك موافقة من شعبه على دخول الحرب، وهوما عَبَّرَ عنه ميشليه بقوله: "إذا كانت الحرب تثير سخطنا، فلأن حكومتنا ألقت بنا في الحرب بعد أن استَغَلَّتْ بخِدَاعٍ التصويت الذي تم إجراؤه من أجل السلام"؛(٣٧) فقُبَيْلَ الاستفتاء ما فتئت الإعلانات الرّسمية والجرائد البونابرتية والبرامج الانتخابية تؤكد للفرنسيين على أن تصويتهم بـ "لا"، سَيُتيحُ للحمر Les Rouges(٣٨) ليس فقط إشعال فتيل حرب اجتماعية بين البورجوازية وعامّة الشعب الفرنسِيَيْنِ(٣٩)، بل أيضا توريط فرنسا في حرب ضد بروسيا. على هذا الأساس، ضمت ورقة الاستفتاء خانتين: فخانة "نعم" [أي تأييد الإصلاحات المُنْجَزَة في فرنسا منذ سنة 1860]، رافقتها صور تُعَبِّرُ عن مظاهر السّلام الذي وعد به نابليون الثالث الفرنسيين، جَسَّدَت أعمال الجَنْي والسَّنَادِرِ والأَقْبِيَةَ الملأى بالمحاصيل، أما خانة "لا" [أي معارضة هذه الإصلاحات]، فَصَاحَبَتْهَا صور الحُمْرِ وهم يُخَرِّبون ويَحرقون(٤٠).

من جانبها لم تكنِ الدّويلات الألمانية ترغب في دخول هذه الحرب، بل قادها إليها بِسمارك عُنْوَةً لِشغل تلك المناوئة منها لمشروعه لتوحيد ألمانيا ؟ويرتيميرگ ولاباڤير، وهو ما يوضحه ميشليه بقوله: "أَعَدَّ بِسمارك لهذه الحرب منذ ثلاث سنوات، بعد أن أدْرَكَ أنه ودون فَوَرَانِهَا الأعمى، فلن يكون بإمكانه إخراس ألمانيا"(٤١). ولإقناعهم بدخول الحرب، قدّمت بروسيا للألمان تبريرات وحوافزعدّة؛ من قبيل أن الفرنسيين عرق لاتيني والألمان عرق جرماني، وأن من شأن انتصار الألمان في هذه الحرب أن يرقى بالعنصر الجرماني في أوربا، وأنهم شباب، في حين تغلب الشيخوخة على المجتمع الفرنسي(٤٢)، وأن اجتياحهم لفرنسا سيُمكنهم من الحصول على غنائم وفيرة، يقول هذا المؤرخ: "ماذا قالت: بروسيا؟ (...) لقد قالت: "هنا [أي في فرنسا] لا وجود لعائق يَحُولُ دون الأخذ، يَتَعَيَّنُ عليكم فقط أن تَنْحَنُوا لتأخذوا ما تريدونه".(٤٣)

ثانيًا: الأطوار والنتائج

١/٢-في الطريق إلى سيدان

لما اندلعت الحرب، وبعد هزيمته في ٢ غشت ١٨٧٠ بويسيمبورغ Wissembourg، هاجم الجيش البروسي في ٤ غشت قوات ماكماهون المتمركزة بالألزاس، وألحق بها هزيمة ثانية بفروشويلر Frochwiller في السّادس من نفس الشهر، فأحكم البروسيون سيطرتهم على الألزاس، و دحروا في اليوم ذاته قوات فروسار Frossard (١٨٠٧-١٨٧٥) باللّورين(٤٤). عقب هذه الهزائم تراجع ماكماهون بجيشه إلى شالون Châlons وحَلَّت الإمبراطورة أوجيني Eugénie (1826-1900) حكومة أوليڤيي، وشَكَّلَتْ حكومة يمينية ترأسها دوباليكاو De Palikao (١٧٩٦-١٨٧٨). وحِرصًا منه على عدم وقوع ميتز Metz المحاصَرة في يد البروسيين عَيَّنَ نابليون الثالث في ١٢ غشت ١٨٧٠ قائدا للقوات الفرنسية بازين Bazaine (1811-1888) الذي تَحَصَّنَ بالمدينة. ولتأمين الدّفاع عن باريس، أشار ماكماهون على الإمبراطورة بأن تتراجع القوات الفرنسية من مواقعها القتالية؛ لكن أوجيني عارضت مقترحه هذا، رافضة عودة الإمبراطور المهزوم إلى العاصمة الفرنسية. أثناء ذلك هبَّ كل من نابليون الثالث على رأس جيش قوامه ٨٣ ألف جندي ودوباليكاو وهو يقود ١٣٠ ألف جندي لنجدة بازين المحاصر بميتز، واللذان هُزِمَا بمعركة سيدان Sedan في ١ شتنبر ١٨٧٠ وأُسِرَا في اليوم التالي، مما كان إيذانا بنهاية الإمبراطورية الثانية وتلاشي حلم نابليون الثالث بهيمنته على أوربا(٤٥).

٢/٢-حكومة الدّفاع الوطني

في ٤ شتنبر ١٨٧٠ تشَكَّلَتْ بباريس حكومة دفاع وطني برئاسة لويس جول طروشي Louis Jules Trochu (١٨١٥-١٨٩٦) ضمّت مجموعة من القادة الجمهوريين، من بينهم: ليون گامبيتا Léon Gambetta (١٨٣٨-١٨٨٢) وجول فاڤر Jules Favre (١٨٠٩ -١٨٨٠) وجول سيمون Jules Simon (١٨١٤-١٨٩٦) وجول فيري Jules Ferry (١٨٣٢-١٨٩٣) وهنري روشفور Henri Rechefort (١٨٣١ -١٩١٣)، قررت في لقاء فِرييرFerrières (٤٦) على لسان وزير خارجيتها جول فاڤر مواصلة الحرب ضد بروسيا بعد أن وضع بِسْمَارْك شرطا لوقف القتال ضَمُّ ألمانيا للألزاس واللّورين(٤٧)، وقد عَلَّقَ ميشليه على ذلك قائلا: "مَنْ أَجْبَرَ هذا البروتاني الحازم [أي جول فاڤر]، وهو في

نهاية مشواره المِهْنِيّ، وبعد أن اقترب من سن التقاعد، على أن ينام على عتبة باريس، وأن يوقف الجيوش [أي الجيوش البروسية]، وأن يخاطبها قائلا: " لن تَمُرُّوا إلاّ على جثتي؟" "[٤٨].

استنكر ميشليه المؤرخ الشوڤيني[٤٩] شَرْطَ بِسمارك لوقف القتال، موضحًا خطورة انتزاع الألزاس واللّورين من فرنسا اللتان تنعمان فيها بالحرية وترتبطان بها ارتباطًا عضويًا[٥٠]؛ أمّا ضمُّهما إلى ألمانيا فسيؤدي لا محالة إلى استعباد فرنسيي هذين الإقليمين من طرف بروسيا حليفة روسيا والمدافع الأول عن المصالح الروسية بأوربا الغربية، ويبدو هذا التصور واضحًا لدى هذا المؤرخ وهو يقول: "إنها لجراحة غريبة أن تُنْتَزَعَ الألزاس واللّورين من جسم حي، ومن الوحدة العضوية التي لم يسبق لها أن كانت بهذه القوة كاليوم، وأن تُسْتَخْلَصَ مِنَّا بِسِكِّين هذه الأحشاء، لِتَدخُلَ في جسم ألمانيا التي هي الآن في طورالتشكل: أيها الشّقيان [كُيوم الأول وبِسْمَارْك] لماذا تريدان نشر العبودية، بإعطاء عبيد لبروسيا حليفة روسيا، وحارسِها المتقدم؟ أُتْرُكَا لفرنسا هؤلاء الناس، فستحتاجونهما أنتما أيضًا"[٥١]. مُبَيِّنًا في هذا الصدد، أن النّشيد الوطني الفرنسي "لامارسييز" "La Marseillaise"[٥٢] الذي نُظِمَ في مدينة ستراسبورغ لَهُوَ دليل دامغ على فرنسية منطقة الألزاس، وهي القناعة التي يختزلها ميشليه في: "إنّ الدّليل الأكثر قوة وحسمًا على انتماء منطقة الألزاس إلى فرنسا هوالنشيد الوطني الفرنسي الذي انبثق من هذا الجَيْبِ الوطني الحارق والمتوهج على الحدود مع العدو ونُظِمَ في ستراسبورغ"[٥٣].

ساند ميشليه حكومة الدفاع الوطني التي واصلت الحرب، وفي ذلك كتب يقول: "فلنفتحِ الذّاكرة الذهبية لِنَكْتُبَ فيها أسماء حكومة الدّفاع الوطني الوفية والنزيهة والمضحية. فمن أَرْغَمَ بعض أعضائها رغم سِنِّهِم المتقدمة والأغنياء والمُثقلين بالأمجاد الرّفيعة على تَحَمُّلِ هذه المسؤولية الجسيمة (...)؟"[٥٤]؛ مستحضرا في هذا الإطار، اقتدارها في إدارة شؤون فرنسا إبّان الحرب، عبر توفيرها الأمن للفرنسيين وسَهَرِهَا على التزامهم بتطبيق القانون[٥٥]، وكذا تشكيل كَامبيتا حَرَسًا وطنيا تألف من فتيان كانوا حتى عهد قريب مزارعين وطلبة وعمّالا أعاقوا تقدم الجيش البروسي داخل فرنسا، يقول هذا المؤرخ: "بِفِرَقِهَا الشابّة والمبتدئة عَرْقَلَتْ فرنسا تَقَدُّمَ جيوش كبيرة مُتَمَرِّسَةٍ على الحرب، بعد أن صَدَّتْ هذا السَّيْلَ المليوني من البشر الذي ألقتنا به بروسيا. لقد سار جنودنا الذين تركوا المحراث والمصنع والمتجر والدّراسة ضد عالم الحرب هذا، ووجَّهوا ضربات مضادّة للعدو، وهذا أمر يستحق التنويه (...). نعم فأوربا (...) رَقَّ قلبُها لهذا الصّراع اللاّمتكافئ، ولهؤلاء الأطفال النبلاء الذين انتعشت بدمهم الأرض وأزهرت، بعد أن مشوا ضد جنود يكبرونهم سنّا وضد آلات الموت الفائقة الدقة."[٥٦]، مشيدا في ذات الصّدد باتجاه وزير الدّاخلية هذا في ٧ أكتوبر 1870 على متن منطاد صوب مدينة توزToursا[٥٧] التي عَبَّأَ بها جيوشا جديدة بغية فك الحصار عن باريس[٥٨]، وبهذا الخصوص تساءل ميشليه قائلاً: "من أقنع هذا الرّجل الشجاع [أي كَامبيتا] باتخاذ هذا الدَّوْرِ الغريب والرّائع والمخيف، بعد أن حمل معه وهو يغادر باريس بمنطاده كل شُعْلَةِ قلبِه غير المُرَوَّضِ، ونَظَّمَ الحرب التي لا يَعْرِفُهَا إلاّ بِحَدْسِه العبقري؟"[٥٩].

نَوَّهَ ميشليه أيضًا بمقاومة الباريسيين لحصار مدينتهم في الفترة ما بين ١٩ شتنبر ١٨٧٠ و ٢٨ يناير ١٨٧١[٦٠] والذي تَغَيَّتْ منه القيادة العسكرية البروسية قطع الاتصال بين حكومة الدفاع الوطني والألْوِية الفرنسية التي شكلها في باقي أرجاء فرنسا كُلٌّ من شانزي Chanzy (١٨٢٣- ١٨٨٩) وفيدهيرب Faidherbe (١٨١٨- ١٨٨٩) وبورباكي Bourbaki (١٨١٦-١٨٩٧)[٦١]، وهو ما يفصح عنه هذا المؤرخ بقوله: "إن أفئدة الباريسيين لَهِيَ أصلب من الحجارة، (...)"[٦٢]، ويضيف : "عن بُعْدٍ و بهدوء وَحَذَر أحاطوا بها [أي باريس] بعمل خارق لِرَكْمِ الأتربة أغلق كل الطّرق، وأرجعوا حتى السّاعة من هذه الجبال المصطنعة والمُحَمَّلَةِ والمُثقَلَةِ بالمدافع، أولئك [أي الفرنسيين] الذين لم يَجْرُؤُوا على الاصطدام بهم وَجْهًا لوجه، ولم يُهَاجِمُوهُمْ إلاّ لاحقًا."[٦٣]

ازداد حقد الباريسيين على الألمان بعد تنصيب كُيوم الأول في 18 يناير ١٨٧١ بقاعة المرايا بقصر ڤرساي إمبراطورا على الرايخ الثاني الألماني[٦٤]، رَدًّا من الألمان على أعمال النهب التي تمت سنتي 1674 و1689[٦٥] في منطقة البلاتينا Palatinat[٦٦] الألمانية بأمر من لويس 14 Louis XIV (١٦٣٨ - ١٧١٥)، ويتحدث ميشليه عن ذلك قائلاً: "يَضْعُفُ الأسود نتيجة نقص التغذية والسَّهَرِ والاضطراب المحموم. فهل أطْفَأَ الإنهاك المتوالي غضب هذه المدينة؟ إذن، في ١٩ يناير، زحف نحو قصر ڤرساي نَفْسِهِ هذا الشعب [أي الباريسيون] المُؤَلَّفُ من رِجَالٍ رفيعي المستوى خُلِقُوْا لفنون السلم؛ فمن الجهة المحاطة جيدا والمحمية اندفعت فَيَالِقهُ المبتدئة وفنّانوه ومُثَقَّفُوهُ وعُمّاله لِيَرَوْا عن قرب هذا الإمبراطور [أي الإمبراطور كُيوم الأول]، وليخترقوا المِتراس الضَّخْمَ المُشَكَّلَ من الحجر والحديد والنار. فسيطروا في اندفاعهم هذا على سان كلو Saint Cloud ومدافعها القوية، وَصَمَدُوا في مواقعهم تسع ساعات تحت

القصف (...) تَعَلَّمِي أيتها الأمم معنى المَجْدِ من مشهد كهذا، وقَدِّرِي فرنسا".[٦٧]

غير أن البطولة التي أبانت عنها حكومة الدّفاع الوطني والباريسيون خلال الحرب، لم تَحُلْ دون هزيمة فرنسا؛ فأمام سيطرة البروسيين على أجزاء مهمة من شرق فرنسا وحصارهم لمدينة باريس وتشديد بِسْمَارك على توقيع اتفاقية سلام مع حكومة فرنسية منتخبة، وَقَّعَتْ حكومة الدّفاع الوطني في ٢٦ يناير ١٨٧١ هُدْنَةً مع الألمان من أربعة أسابيع انْتُخِبَتْ خلالها في ٨ فبراير جمعية وطنية جديدة أَعْلَنَتْ في ١٧ من نفس الشهر أدولف تيير رئيسًا للسلطة التنفيذية للجمهورية الفرنسية[٦٨] مُنْهِيَةً عهد حكومة الدفاع الوطني[٦٩]. وفي فاتح مارس من السنة ذاتها وأمام ذهول الباريسيين قامت تشكيلات من الجيش الألماني بِعَرْضِ النّصر العسكري في العاصمة الفرنسية[٧٠].

في 26 فبراير بدأت المفاوضات بين بِسمارك مستشار ألمانيا والسياسي العجوز أدولف تيير (Adolphe Thiers) (1797-1877) رئيس السّلطة التنفيذية للجمهورية الفرنسية، إلاّ أنها طالت كثيرًا وتعثرت أكثر من مرة بسبب صلابة بِسمارك وإصراره على فرض شروط للصّلح على درجة كبيرة من الشدّة والقسوة. وعلى الرغم مما أظهره أدولف تيير من عناد ودبلوماسية فقد فشل في تغيير موقف مستشار الرايخ الثاني الألماني[٧١] بشكل جذري. وأخيرًا وافق الفرنسيون على شروط مُذلة للصّلح فرضها الألمان بقوة وعناد، فتم التوقيع على معاهدة فرانكفورت في 10 ماي 1871، وأبرز شروطها ما يلي:

(١) تحتل بروسيا مقاطعتي الألزاس واللّورين وكذلك مدينة ميتز، وقد استمر احتلال المقاطعتين حتى الحرب العالمية الأولى.

(٢) تدفع فرنسا غرامة حربية مقدارها خمسة مليارات فرنك ذهبي في غضون خمس سنوات.

(٣) تحتل الجيوش الألمانية أراضي فرنسا الشمالية حتى استيفاء الغرامة المالية[٧٢]، وبعد سدَادِهَا غادر فرنسا آخر جندي ألماني في ١٦ شتنبر١٨٧٣[٧٣].

نعتقد جازمين أن شعور الفرنسيين الحاد بفداحة خسارة مقاطعتي الألزاس واللّورين قد كبح جماح التوجه المسالم في فرنسا وأَجَّجَ بها تيّارا ثأريًا، مما يجعل الحرب السّبعينية أحد الأسباب المستترة للحرب العالمية الأولى[٧٤].

٣/٢-ثورة الكومون أو الثورة على الهزيمة

بعد توقيع معاهدة فرانكفورت كان على أدولف تيير رئيس الدّولة الجديد مواجهة فتنة كبيرة قامت في باريس كادت تُهَدِّدُ كل المؤسسات الفرنسية بالزوال. كانت غالبية الباريسيين ميّالة لقيام نظام جمهوري ثوري في فرنسا، لِذَا ساءها أن تنتقل السّلطة في البلاد في ١٠ مارس ١٨٧١ من بوردو إلى ڤرساي[٧٥] إلى أيدي جمعية وطنية أكثرية أعضائها من الملكيين المحافظين. ثم إنّ الجمعية التي انْتُخِبَتْ في الأصل لعقد الصّلح مع الألمان فقط استمرت في العمل بعد معاهدة فرانكفورت، وأخذت تبحث في نوع من الحكومة الجديدة. ولَمَّا كانت أغلبية أعضائها من الملكيين فقد اعتقد الباريسيون أنها ستعيد النظام القديم إلى فرنسا بكل تجلياته. ثم إن الباريسيين كانوا يعتقدون أن الجمعية الوطنية وحكومتَها المؤقتة قد خانتا قضية البلاد بتوقيع معاهدة فرانكفورت المُشينة، لِذا أرادوا شَنَّ حرب ثورية تحريرية ضد الألمان لاسيما وأن منظر جنودهم في شوارع باريس قد ساءهم كثيرًا[٧٦].

في غضون ذلك أرسلت حكومة ڤرساي في 18 مارس ١٨٧١ فرقة من الجيش إلى باريس لاسترداد المَدَافِع والأسلحة التي استولت عليها العناصر الثورية قبل دخول الألمان للمدينة، إلاّ أن قوات الحرس الوطني والعناصر الثورية رفضت الانصياع وقاومت ببسالة وأَسَرَتْ اثنين من قادة الفرقة أعدمتهما رَمْيًا بالرّصاص. في أعقاب ذلك انبثقت عن بلدية باريس المنتخَبَةِ من الشعب حكومة ثورية غالبيتها من العناصر الثورية والجمهورية والاشتراكية.[٧٧]

سرعان ما أدرك تيير رئيس حكومة ڤرساي أبعاد هذه الحركة ومدى خطورتها، فحشد في أوائل شهر ماي ١٣٠ ألف جندي نظامي. وقد تَوَلَّتْ هذه القوة العسكرية بقيادة ماكماهون Mac Mahon (١٨٠٨- 1893) قمع الحركة بقسوة ووحشية، مما خلف مقتل ٢٠ ألف قتيل في صفوف الثوار في الفترة ما بين 21 و 28 ماي 1871المعروفة في التاريخ الفرنسي بأسبوع الدّم الذي احترقت خلاله أجزاء مهمة من باريس من بينها قصر التويلري ودار البلدية [٧٨].

٤/٢-الموقف الأوربي من الحرب

تباين الموقف الدّولي من الحرب السّبعينية بين مؤيد ومعارض؛ فلقد رفضت بولونيا المشاركة فيها، وعارضتها سويسرا رغم إغراء بِسمارك لها بتوسّعها على حساب فرنسا إن هي دعّمته في حربه ضد الفرنسيين، وحَذَتْ إيطاليا حَذوَ الدّولتين السّالفتي الذكر، على الرغم من اغتياظ الطّليان من

احتلال كتائب الجيش الكبير[٧٩] لروما في الفترة ما بين ١٠ يونيو ١٨٠٩ و١٩ يناير ١٨١٤[٨٠].

بالمقابل تَبَنَّتْ الولايات المتحدة الأمريكية موقفا داعما لبروسيا في هذه الحرب، واضعة مستشاريها العسكريين رهن إشارة القيادة العسكرية البروسية[٨١]، إذ لم يَغْفِرِ الأمريكان لنابليون الثالث دَعْمَهُ للجنوبيين[٨٢] إبّان الحرب الأهلية الأمريكية[٨٣]. ذات الموقف تَبَنَّتْهُ إنجلترا تقودها فيه مَلَكِيَتُهَا وأرستقراطيتها اللّتان لم تنسيا الضّربة التي وجهتها الثورة الفرنسية[٨٤] للفكر الديني المسيحي ولملكية الحق المقدس، يقول هذا المؤرخ: " أثناء النّكبة [يقصد خلال الحرب السّبعينية] أعطت إنجلترا مشهدًا غريبًا، فقد كان وزراؤها يختبئون ويهربون حتى لا يعلموا أي شيء، مُتَأَسِّينَ في ذلك بمَلِكَتِهِمْ ڤِكتوريا Victoria (1819 -١٩٠١) أَشَدِّ المؤيدات لبروسيا. فالمَلِكتان: ڤِكتوريا وأوغيستا Augusta (١٨١١-١٨٩٠) مسيحيتان متعصّبتان. ففي مجلّة "بال مال ڠازيت" " Pall Mall Gazette" الصّادرة بتاريخ ١٥ دجنبر ١٨٧٠عَبّرَ بشكل تَقِيّ أحد اللّوردات عن مشاعر هاتين الملكتين (...) وعن المرارة الوَرِعَةِ التي تَتَجَرَّعُهَا الأرستقراطية الإنجليزية كُلّماَ ذكِرَت فرنسا الڤولتيرية، قائلاً: "إنّه لمشهد شنيع رؤية مجرمين مهزومين [أي الفرنسيين] وهم يرفضون التكفير عن جريمتهم؟"، فهم لا يَشْكُرُونَ بروسيا التي تقودهم إلى التَّوْبَةِ وتعمل على خلاصهم، إنهم قُسَاةٌ جدا وشَرِسُونَ (...)، فهؤلاء البروسيون المساكين سَيُقْتَلُونَ إذا ما دخلوا باريس"[٨٥].

ثالثًا: أسباب الهزيمة

عزا ميشليه هزيمة فرنسا في الحرب السّبعينية إلى عوامل عِدَّةٍ، هي: التفوق التقني للبروسيين، ومعرفتهم الدّقيقة بفرنسا، وضعف القيادة العسكرية الفرنسية، وخيانة النظام الإمبراطوري، وقصف البروسيين للأحياء السّكنية وسلبهم الممنهج للمناطق المفتوحة، وفي ذلك كتب هذا المؤرخ يقول: "على بروسيا أن تشكر الآلة أَوَّلاً، وثانيا، معرفتها الدقيقة بفرنسا، وثالثا، مدراءَنا العسكريين الذين لم يُغَذُّوا الجيش، وأوصلوه جائعا إلى ساحات القتال ومهزوما منذ البداية"[٨٦]، ويضيف: "وَجَدَتْ بروسيا في الإمبراطور رَجُلاً تآخى معها بتسليم جيوشه لها (...). لقد تَمَّ سَنُّ قانون جديد في هذه الحرب استباح قصف المدن المفتوحة؛ فلإخافة الجندي وإضعافه وإرغامه على الاستسلام تَعَدّى القصف أسوار المدن ومدافعها ليَسْحَقَ الفَرْدَ والأُسَرَ والأطفال والنساء."[٨٧].

١/٣-التفوق التقني البروسي

ارتبط التفوق التقني البروسي في هذه الحرب بِتَطَوُّرِ الآلة في أوربا القرن التاسع عشر[٨٨]؛ فبعد أن خدمت الإنسان في أغراضه السِّلمية خلال النصف الأول من هذا القرن، وُجِّهَتِ الآلة منذ منتصف القرن التاسع عشر لخدمة الحرب، فتطورت بشكل متسارع شَتَّى أنواع الأسلحة، واستُخدِمَت أسلحة جديدة حَلَّتْ محل أخرى كانت حتى عهد قريب شائعة الاستعمال، ويُعَبِّرُ ميشليه عن ذلك بقوله: "يُشَكِّلُ تَطَوُّرُ الآلة ميزة كبرى للقرن التاسع عشر تُمَيِّزُهُ عن كل القرون السّابقة (...) لقد خَلَقَ هذا القرن عَامِلَ الحديد وجندي الحديد والآلة. فبعد أن عَمِلَتْ خلال الخمسين سنة الأولى من هذا القرن في مجال الصّناعة وفنون السِّلْمِ، خَدَمَتِ الآلة الحرب منذ حوالي ثلاثين سنة، فَغَيَّرَت شكلها، فأصبحت الفنون المتعددة والمنتظمة داخل الآلة مُسَخَّرَة لخدمة الدّمار."[٨٩]، ويضيف: " في مصانع الموت وفي آلات الحرب نلاحظ نفس التوارث القاتل، فقد رأينا البندقية التي تَسْلُبُ الأنظار وهي تُدَمَّرُ ببندقية أخرى، فبندقية "ديلڤين" "Delvigne " قتَلَتْها بندقية "دريس" "Dreysse" التي أعدمها "شاسبو" "Chassepot" ، الأمر ذاته ينطبق على سلاح المدفعية، فمدفع "بيكسهانس" "Paixhans " تجاوزه مدفع "أرمسترونغ""Armstrong" الذي تَخَطَّاهُ مدفع "كروب" "Krupp" بطل حرب ١٨٧٠."[٩٠].

لم تُساير الصّناعة العسكرية الفرنسية تطور نظيرتها البروسية، لِذا عجزت عن تجهيز الجيش الفرنسي بأسلحة نوعية؛ فالرشاش الآلي الذي عَدَّهُ الفرنسيون أحد أسرارهم العسكرية كان شائع الاستعمال لدى الجيش البروسي، كما يشير إلى ذلك ميشليه بقوله: " الرشاش الآلي الذي كان يوليه الإمبراطور [أي نابليون الثالث] اهتماما خاصًّا، ولا يظهره إلاّ وهو مغطّىً (...)، كان شائع الاستعمال لدى البروسيين، وتمت صناعته لديهم بأعداد كبيرة، ولكنه ظَلَّ سلاحًا ثانويًا، لا يستخدم في كل المعارك، وقد يكون عديم الجدوى"[٩١]؛ مما أعطى الأفضلية للجيوش البروسية على نظيرتها الفرنسية في هذه الحرب، ففي وصفه لمعركة سيدان كتب أحد الضباط الفرنسيين يقول: "كان أعداؤنا بعيدين عَنَّا، وَفَاقَ مدى قذائفهم مدى قذائفنا بخمس مائة أو ألف متر (...)، بينما عَجَزْنَا نحن عن إطلاق النّار بشكل فعّالٍ (...)"[٩٢].

مثلت المدفعية الثقيلة أحد تجليات التفوق التقني البروسي في هذه الحرب، وهو ما عبّر عنه ميشليه بقوله: "لا يمكننا التشكيك في شجاعة البروسيين (...) وفي حذاقة قيادتهم العليا.

لكن الثّابت أن المدفع البعيد المدى كان له دور كبير في انتصاراتهم. "[٩٣]. قَلَّلَ هذا السّلاح من أهمية العنصر البشري لدى البروسيين؛ ففي معركة سيدان مَثَلاً تألفّت نواة جيشهم من "اللوندووهر الباڤارية" " La landwehr Bavaroise [٩٤] فقط؛ وحَدَّ من حجم الخسائر البشرية في صفوفهم، لاسيما بعد أن أصبح القتال يتم عن بعد، مُمَكِّنًا القيادة العسكرية من التحكم في مدّة الحرب و تفادي الدخول في حرب طويلة الأمد تستنزف الموارد البشرية والاقتصادية، ففي حديثهم عن معركة سيدان ذَكَرَ الجرحى البروسيون ما يلي: " لم نَكُنْ بحاجة لرؤية وجوه أعدائنا. لقد أُعِدَّ كل شيء مُسْبَقًا، كنّا سننتهي في فاتح السنة، كانت المسألة محسوبة."[٩٥]

٢/٣- معرفة البروسيين الدّقيقة بفرنسا

تمهيدًا لحربها معها بدأت بروسيا تجسُّسَها على فرنسا منذ انتصارها على النمسا عام ١٨٦٦ في حرب الأسابيع السّبعة، فخلال استضافتها المعرض العالمي سنة ١٨٦٧ اطَّلَعَ البروسيون على باريس، ووضعوا رسومات لتحصيناتها الدّفاعية وحدّدوا نقط ضعفها، مستغلين في ذلك قلة حرص الفرنسيين، ويوضح ميشليه في هذا الصدد : "إنه لأمر شنيع، ولكنه أكيد، أن هؤلاء المُتَجَوِّلِينَ الفضوليين الذين كُنَّا نقودهم إلى أي مكان، قد شاهدوا ورسموا جدارننا وتحصيناتنا والنقط الضعيفة في دفاعات باريس. ففي دجنبر ١٨٦٧، نشر ضُيُوفُناَ بعد عودتهم إلى برلين كتابًا عسكريًا حّدَد بدِقة كبيرة طبوغرافية وضواحي المدينة، والطريقة السّهلة والمحقّقة لقصفها والاستيلاء عليها. "[٩٦]. وقد واصل البروسيون تجسُّسهم على فرنسا حتى الأسابيع الأخيرة التي سبقت اندلاع الحرب، يقول هذا المؤرخ : " إنّه لأمر ثابت (...) أنّ جواسيس بروسيا أتوا خلال ثلاث أو أربع سنوات (1867 - ١٨٧٠) لمراقبة فرنسا غير الحذرة والكريمة التي استقبلتهم بِشَكْلٍ حَسَنٍ والتقتهم ولم تُخْفِ شيئا، من يقول هذا؟ إنّهم البروسيون. "[٩٧].

لم تكن الاستخبارات البروسية لتتوفق في مسعاها، لو لم تستعن في ذلك بصنّاع الجعة والخياطين وغيرهم من الألمان المقيمين بفرنسا، وهو ما يوضحه ميشليه بقوله: " لولا إخباره من قِبَلِ الجاسوس المستقر [أي الألماني] الذي يَعْرِفُ خبايا الأمور ما كان للجاسوس المُتنقل جمعُ هذا القدر من المعلومات الدّقيقة (...). فلكي يحصل [أي الجاسوس] على أجوبة مُرضية لأسئلته، فالأمر المحقق أن يَتَوَجَّهَ بها إلى مواطنيه المستقرين بفرنسا؛ إلى صانع الجعة الذي يقصده الناس للشرب (...) وإلى الخياط الذي يمارس مهنته وهو جالس أمام طاولته، وينتظر فقط سؤالا للإجابة عنه."[٩٨].

٣/٣-ضعف القيادة العسكرية الفرنسية

يُعْزَا إلى حَدٍّ ما تَخَبُّطُ القيادة العسكرية الفرنسية إبّان الحرب السّبعينية إلى عدم إلمام بالشؤون العسكرية من نابليون الثالث القائد الأعلى للجيش الفرنسي منذ اندلاع الحرب حتى ١٢ غشت ١٨٧٠ وهو التاريخ الذي عَهِدَ فيه بهذه المهمة لبازين[٩٩]، كما يشير إلى ذلك لويس فولتز Louis Foltz [١٠٠] المشرف العسكري على الإمبراطور الفرنسي بقوله: " كان لايَفْهَمُ [أي نابليون الثالث] أبسط مناورات المدفعية"[١٠١]. وحتى لَمَّا أصبح بازين على رأس القيادة العليا للقوات الفرنسية، أبانت رئاسة الأركان الفرنسية عن ضعف واضح، واتخذت قراراتٍ خاطئة عَجَّلَتْ بهزيمة الجيش الفرنسي؛ فبعد أن سيطر البروسيون في ٤ غشت ١٨٧٠ على الألزاس وأخضعوا جزءا من اللّورين، تلقّى ماكماهون قائدُ القوات الفرنسية بالألزاس الأمر بالانسحاب إلى شالون، في غضون ذلك أُمِرَ بازين بالثّبات بجيشه شرق ميتز؛ اقتناعا من القيادة العسكرية الفرنسية بضرورة الاحتفاظ بالمدينة مَهْمَا كَلَّفَ الأمر[١٠٢]، لكن هذه الاستراتيجية شطرت الجيش الفرنسي نِصْفَيْنِ وأفقدته وَحْدَتَهُ وقدرته على المناورة مَعَرِّضَة جيش بازين للتطويق بميتز[١٠٣]؛ ولفك الحصار عنه، أرسلتِ القيادة العسكرية الفرنسية ماكماهون على رأس فُلُولَ قوات الألزاس المؤلَّفَةِ من ١٣٠ ألف جندي، فصَحِبَهُ في ذلك نابليون الثالث وهو يقود جيشا من ٨٣ ألف رجل، واللذين هُزِمَا وأُسِراَ معا في معركة سيدان[١٠٤].

٤/٣-خيانة النظام الإمبراطوري

بعد أن رأى استمراره على رأس الإمبراطورية الثانية رهينا بهزيمة فرنسا لا بانتصارها، قاد نابليون الثالث فرنسا عن قصد نحو الهزيمة في هذه الحرب، يقول ميشليه : "حتى قبل سيدان، يبدو أنّه رأى [أي الإمبراطور] أُفُقَهُ الإمبراطوري، فقرأ ما يتعين عليه فعله. وأحس بأن ما سيشكل غرقًا كبيرًا بالنسبة للآخر، يمثل بالنسبة له بداية الخلاص. فَأَيُّ استعجال لَدَيْهِ ليستسلم ويَخْضَعَ."[١٠٥] لِذَا اتخذ خلال الحرب ذاك الذي "استقبله كَّيوم الثالث كَالكَلْبِ غداة معركة سيدان"[١٠٦] ثلاثة إجراءات سَهَّلَتْ مأمورية الجيش البروسي وأَزَّمَتْ بالمقابل موقف القوات الفرنسية، أوّلها: عدم إصداره الأوامر بحماية ممرات منطقة ڤوزج Vosges[١٠٧]، وحرمانه الألزاسيين من السّلاح الجيد، لخشيته من أن تنتهي أسلحة الكتائب الشعبية في أيدي المعارضة الفرنسية، وهو ما برهن عليه هذا المؤرخ بقوله: "سُلِّمَتْ

بندقية شاسبو لأهالي منطقة الألزاس مفككة وغير مكتملة، إذ نقصتها قطعة غيار ضرورية. "[١٠٨]. ثانيهما: تكليفه بالدّفاع عن باريس دوباليكاو السّاعد الأيمن للإمبراطورة أوجيني، الذي أوقف تحضيرات الدّفاع عن العاصمة الفرنسية، وحول هذه النقطة أَكّدَ ميشليه أنه : "من أجل ربح الوقت وشغل الرّأي العام في باريس، تم قبول تروشي الذي انتدبه الباريسيون لقيادة تحضيرات الدّفاع عن العاصمة. لكنه كان تحت إمرة رجل مُقَرَّبٍ من الإمبراطورة هو: دوباليكاو سَلاَّبُ الصين الشهير[١٠٩] وروح هذه المؤامرة، الذي عرقل وأوقف تحضيرات الدفاع عن باريس (...)،"لن يتم الدّفاع عن باريس، لا يريدون الدفاع عنها. "عبارة رَدَّدَهَا العديد من المهندسين"[١١٠]. ثالثها: تجويعه للجيش، مما أَوْصَلَهُ مهزومًا مسبقًا إلى ساحات القتال، وفي ذلك كتب ميشليه يقول : " ثَبَتَ أن فرساننا المنْذِرُونَ بِبَدءِ المعارك لم يأكلوا منذ ثلاثين ساعة، وتَأَكَّدَ في سيدان، أن كل جندي في جيشنا (...) حظي بقطعة من الخبز في اليوم."[١١١].

٥/٣-قَصْفُ المدنيين وتبني التقليد الروسي في الحروب

لترهيب المدنيين الفرنسيين خلال الحرب قَصَفَ البروسيون بالمدفعية الثقيلة الأحياء الآهلة بالسكان، وفي وصفه قصف مدينة ستراسبورغ كتب ميشليه يقول : "استمر القصف الذي استهدف الأحياء الآهلة بالسكان أكثر مما استهدف الجدران والقلاع. فكل الناس حَزِنوا لفقدان مكتبة المدينة التي لم يعد ترميمها مُمْكِنًا (...). استقبلت الأقبية الرّطبة لستراسبورغ عَالَمًا من النساء البئيسات والمرتعشات من تساقط هذا الوابل من الحديد والنّار، اللّذَيْنِ كان يتزايد سقوطهما خلال الليل، لِيُفَجِّرَا أسقف المنازل بِصَخَبٍ مريع. وبَلغ الرُّعْبُ مدَاهُ عندما انهار سقف الكاتدرائية؛ إذ أحدث سقوط هذه الكتلة الهائلة من الزنك السائل دَوِيًا هائلا، أَوْهَجَ للحظة المدينة بكاملها."[١١٢].

وبخصوص قصف باريس إبّان حصارها يوضح هذا المؤرخ قائلاً : "لكن كيف تم قصفها؟ عن طريق الفن الإرهابي المُتَّبَعِ في هذه الحرب؛ بتفادي الجدران، وقصف السكان (...). لقد تساقطت العديد من القذائف على حي المدارس وحي الإعداديات وحي المستشفيات. فباريس الوديعة، حيث الأطفال والأساتذة والعلماء وحديقة النباتات والمعهد، تبدو كَعَالَمٍ معزول غير قادر على الحركة."[١١٣]. وحتى يصعب إخماد حرائق الأهداف المقصوفة لم يتردد العسكر البروسي في إلقاء البترول على الأهداف المراد قصفها، ويوضح ميشليه في هذا الصدد: "كان يتم إيقاد الحرائق وجعلها صعبة الإخماد بإلقاء البترول على الأبواب والنوافذ ودَعَامَاتِ الأسقف، (...)"[١١٤].

بموازاة ذلك، تَبَنَّى البروسيون في هذه الحرب تقليد الرّوس في الحروب القائم على التدمير الشّامل لبنى العدو التحتية والسلب الممنهج لممتلكاته، وهو ما عَبَّرَ عنه هذا المؤرخ بقوله : " هنا لا يتعلق الأمر بالحرب فقط، ولكن بالدّمار (...) فالجندي الألماني لم يكن قادرا لوحده على القيام بهذه الأعمال التامّة وبهذا السلب المُتْقَنِ دون أن يَتْرُكَ أي أثر على أفعاله (...) ولكن الأوامر كانت تقضي بذلك، لقد عَلَّمَتِ القيادة العسكرية البروسية اتباع منهجية الرّوس أساتذة الدّمار المُبَرَّزِين، فكل شيء كان يوضع بانتظام في أكياس وحقائب وخزائن، قبل أن يُشحَنَ في هذه العربة أو تلك."[١١٥].

رابعًا: الواقع في فرنسا وأوربا غداة الحرب

٤/١-هزيمة بطعم الانتصار

يُجزم ميشليه بأن هزيمة فرنسا في الحرب السّبعينية كانت عسكرية صِرفة، ولا تَرْقَى إلى درجة الهزيمة المعنوية، مادامت لم تُفَرِّقْ جمهوريي حكومة الدفاع الوطني، حتى وإن كان بعضهم مُؤَيِّدًا للهدنة، وبعضهم الآخر راغبا في مواصلة القتال[١١٦]؛ فهم يظلون جميعهم مُوَحَّدِينَ حول القيم والمبادئ الجمهورية وتفانيهم في الدّفاع عن فرنساهم المخيفة والقوية والعظيمة، وهي القناعة التي يختزلها هذا المؤرخ في : " فإذا كان بعض المُتَحَمِّسِينَ من الجمهوريين يريدون ضد المنطق أن يواصلوا القتال، فهذا لا يُشكل اختلافا في المبادئ. فطرفا حكومة الدّفاع الوطني: سواء أولئك الذين يريدون مواصلة الحرب، أو المنادين بوقفها، يَظَلاَّنِ من الجمهوريين الأكثر ثباتًا [...] فالعدو يعي جيدا أن الانتصار المعنوي ينقصه. إن فرنسا المثخنة والمُشَوَّهَةِ تظل غير مهزومة، إذ تبقى فرنسا المخيفة والقوية والعظيمة [...]"[١١٧].

بتماسكها هذا اكتسبت حكومة الدّفاع الوطني احترام وتقدير دول أوربية عِدَّة، واقتنعت البروليتاريا الأوربية بأن النظام الجمهوري هو نظام حكم أوربا الأمثل ، وتَنَبَّهَت أيضا إلى أن المَلَكِيَاتْ الأوربية وبحكم قرابات النّسب التي تربطها لا تسعى إلاّ لِتَأْمِينِ مصالحها الخاصة، غير آبهة بمعاناة شعوبها، وهو المعطى الذي يوضحه ميشليه بقوله : "ما كانت تَفْقِدُهُ فرنسا على المستوى المادي [أي الهزائم العسكرية]، كانت تربحه على المستوى المعنوي [أي انتصار القضية الجمهورية والفكر الجمهوري]؛ بعد أن تَحَوْلَقَتْ حَوْلَهاَ شعوب أوربا وجمهوريوها (...) لاسيما لَمَّا أصبح الشعب الفرنسي بالنسبة للجميع (...) هو حامل لواء التقدم . "[١١٨]، مضيفا : " كُلُّ هذا سيجعل الجميع بأوربا يُفَكِّرُ وهو يضع أمامه الخِدَاعَ المرئي

للملكية [أي الإمبراطورية الثانية] التي سَلَّمَتْ الجيش في فرنسا وتَخَلَّتْ في لندن عن شرف وأمن البلاد. لقد جعلت روابط القرابة ملوك ومَلِكَاتِ أوربا عائلة مشؤومة، لها مصالحها الخاصة (...)؛ فلقد رأينا كيف رفض الخائن الكبير شارل الأول Charles1[er] (1600 -١٦٤٩) التَدَخُّلَ في بداية حرب المائة سنة، ونَسِيَ الشّرف الإنجليزي ورأى ببرودة موت مليوني إنسان (...) "[١١٩].

يُجزم ميشليه بأن الحرب السّبعينية لم تُوَحِّدْ أعضاء حكومة الدفاع الوطني والجمهوريين الفرنسيين فحسب، بل الأمّة الفرنسية جمعاء، بعد أن عَبَّأتِ الفرنسيين لمواجهة خصومهم ونَبَّهَتهُم إلى تقاعسهم وتباطئهم في تنظيم صفوفهم، مستنهضة فيهم مزايا البطولة والشجاعة والتضحية، وهو التصور الذي يبدو واضحا لدى هذا المؤرخ وهو يقول : " تَوَحَّدَتْ هذه الأمة ووقفت، بعد أن كانت ذائبة (...) يتعين علينا إذن، أن نَضُمَّ عَدُوَّناَ إلى صَدْرِناَ، وأن لا نُعِدَّ له العلاج الذي اقترحه بِسْمَارْك: الحديد والنّار. الحديد؟ نعم، يظل الحديد مُفِيدًا، فأي انتعاش قوي يشعر به المرء وهو يحس في جِلْدِهِ بِوَخْزَاتٍ مُرْوِعَةٍ للإبر! (...) إنّه علاج فَعَّالٌ لحالات التقاعس والتَلَكُّؤ في التنظيم. "[١٢٠].

فبعد أن أسقطت الإمبراطورية الثانية، ولا سيما بعد أن قاربت بين البورجوازية وعامّة الشعب الفرنسيين، وَفَّرَتْ الحرب السّبعينية أرضية ملائمة لتوحيد الفرنسيين، وهو ما يفصح عنه ميشليه بقوله : " من يتحدث عن انقساماتنا؟ أين هي؟ (...) أي خطأ هذا! (...) فها نحن متحررون وطاهرون بعد أن تخلّصْناَ من بونابرت [أي نابليون الثالث] وجنرالاته (...)" [١٢١]؛ تقاربٌ ما كان ليتحقق لولا امتلاك فرنسا وحدة عضوية دون غيرها من أمم أوربا ذات الوحدة الشكلية أو المصطنعة، يقول هذا المؤرخ : "حاوِلُوا [أي باقي الأوربيين] أن تُدْرِكُوا معنى الوحدة العضوية ولو لِمَرَّةٍ واحدة، فَوَحْدَةُ الشعب الفرنسي يَمْلِكُهَا، فهو الشّعب الأقل تفككا (...) إننا نتوفر على كل ما لا تتوفرون عليه في هذا الشأن. "[١٢٢]، ويضيف : "كم أنتم [أي الأوربيون] بعيدون عن بلوغ هذا المستوى الرّاقي من الوحدة! فكم من قرن يتطلّبه استبدال الوحدة المصطنعة التي تم تلفيقها لكم، بوحدة حقيقية؟ أجيبوني، متى سيكون البروسي مَحْبُوبًا من طرف الباڤاري؟ سأجيبكم: أَبَدًا (...) هذه هي وحدتنا القوية، فَلْنُلْقِ نَظْرَةً على وحدة الآخرين، ولْنَفْتَرِضْ أن الفينيانيين Fénians [١٢٣] قد انْتَزَعُوا إيرلندا من إنجلترا، فمن سيقول إنّهم خرقوا الوحدة البريطانية؟ ولنعتبر أن كاطالونيا قد انفصلت عن إسبانيا، فالأمر سيكون فَكًّا لحزمة، أكثر منه سحقًا لوحدة. "[١٢٤].

وحدة عضوية تَمْتَحُ من عناصر ثلاثة رئيسة، أوّلها : انصهار الأعراق الوافدة على فرنسا في الهُوِيّة الفرنسية، وحول هذه النقطة أكد ميشليه أن : "فرنسا ليست عِرقًا كألمانيا، إنَّها أُمَّةٌ، فأصلها هو المَزْجُ بين الأعراق. [١٢٥] ثانيها : التاريخ والذّاكرة المرتبطان بالحروب النابليونية، وهو ما عَبَّرَ عنه هذا المؤرخ بقوله : " توطَّدَتْ روابطنا بفعل ذكريات الماضي القوية والمآخاة العسكرية".[١٢٦] ثالثها : تطور شبكة المواصلات الفرنسية في عهد الإمبراطورية الثانية، مما فَكَّ العزلة عن المدن الصّغرى والبوادي وسَهَّلَ الاتصال بين الفرنسيين، وجَعَلَهُمْ جسما واحدا يستعصي الفصل بين أعضائه، كما يشيرإلى ذلك ميشليه بقوله : "أصبح دم لونڭدوك يَتَدَفَّقُ في الألزاس، إنّها شرايين وأوردة، في قطعها قَتْلٌ للجميع"[١٢٧].

٢/٤-الزّعامة البروسية الروسية

(٢/٤) ١-بروسيا :

أعادت الحرب السّبعينية رسم خريطة أوربا السّياسية الموروثة عن مؤتمر ڤيينا لعام ١٨١٥؛ فبعد اتحادها كإمبراطورية تحت حكم ملك بروسيا ڭيوم الأول، تَعَزَّزَ موقع ألمانيا كقوة في أوربا على حساب كل من إمبراطورية النّمسا المجر (1918-1867) وفرنسا التي كانت حتى عشية الحرب إحدى القوى المهيمنة بالقارة وحليفا تقليديا لإنجلترا، وقد عَلَّقَ ميشليه على ذلك قائلاً : "أين هي فرنسا؟ أين هو السّيف الذي أنقذ الإنجليز ثلاث مرات في حرب القِرِمِ؟ اليوم إنجلترا وحيدة."[١٢٨]، فسيطرت بالتالي ألمانيا على أوربا لما يقارب ثلاثين سنة، وأصبحت تدريجيا أول قوّة صناعية أوربية؛ في غضون ذلك حافظ بِسمارك على سلطة كبيرة في الشؤون الدولية، متبنيا سياسة عزل فرنسا دبلوماسيا لوعيه بأن التيار الانتقامي الفرنسي المُتَوَلِّدُ عن ضم الألزاس واللّورين سيؤدي لامحالة إلى حرب فرنسية ألمانية جديدة. ولِعَدَمِ تمكين فرنسا من أي حليف خلال الحرب المرتقبة، حاكى المستشار الألماني استراتيجيته لعام 1870 ببراعة؛ فبموازاة حفاظه على علاقات جيّدة مع إنجلترا، أَسَّسَ سنة ١٨٨٢ تحالفًا دفاعيًا ضَمَّ كُلاً من ألمانيا وإمبراطورية النّمسا المجر وإيطاليا، ووَقَّعَ مع روسيا في ١٨ يونيو١٨٨٧ معاهدة "إعادة التأمين" بموجبها تدعم ألمانيا روسيا في قضية المضايق، مقابل التزام روسيا الحياد في حال قيام الحرب بين ألمانيا وفرنسا.[١٢٩]

(٢/٤) ٢-روسيا :

باضمحلال فرنسا، زالت آخر عقبة تَحُولُ بين الرّوس وأوربا الغربية، وهو المعطى الذي يوضحه هذا المؤرخ بقوله : " تُفني

ألمانيا نفسها في القضاء على فرنسا لتفتح صَحْرَاءً جميلة، ولِتُمَهِّدَ طريقا جَيِّدَةَ التعبيد أمام الشّعوب التتارية الرّوسية."[١٣٠]؛ وَاعِيَةً بذلك، باشرت روسيا استعداداتها للتوسع في غرب أوربا؛ فبعد إعلانه أنه في حِلّ من اتفاقية باريس الموقعة في ٣٠ مارس ١٨٥٦ أصدر ألكسندر الثاني نيكولايفيتش Alexandre II Nikolaïevitch(١٨١٨-١٨٨١) منذ يناير ١٨٧١ أوامره باستدعاء جيش الاحتياط، وحول هذه النقطة أكد ميشليه أنه : "في يناير ١٨٧١ عَبَّأَتْ روسيا ٥٠٠ ألف رجل شاب، لتُضيفهم إلى ٧٠٠ ألف جندي يُشكلون جيشها في فترة السلم، ليصبح الرّقم هو اثنا عشر أو ثلاثة عشر ألف ألف جندي. لقد تم الإعلان عن هذا العدد في جريدة رسمية روسية، لكن طالما أن هذه الصّحيفة دأبت على مغالطة أوربا، فإنّني أثق كثيرا في الرّسائل الخاصّة التي تَتَحَدَّثُ عن حركة كبيرة لروسيا وهي مسلحة ومستعدة للانطلاق، لتَذْهَبَ إلى أين؟ من يدري؟ إلى تركيا الضّعيفة؟ أم إلى بلاد البلقان الصغيرة؟ من سَيُصَدِّقُ ذلك؟ استأنفت روسيا زحفها من جديد نحو الغرب."[١٣١]

في ظِلِّ تسلح بروسيا وروسيا وتزايد أطماعهما في أوربا الغربية، دعا ميشليه شعوب دول أوربا الغربية إلى الاتحاد لمواجهة مَدِّ الحرب هذا، قائلاً: "أمام الخطر الذي يَضَعُنَا أمامه التسلّح البروسي والروسي، يجب على الأمم المُجِدَةِ والمصنعة والمنتجة، أن تتسلح، ليس من أجل فرنسا، ولكن من أجلِها هي، كأُمَمٍ منتجة ضد حزب الموت [أي بروسيا وروسيا]. لْنحَلّقْ لِنَرَى من أعلى أوربا الدّامية هاته، فماذا سنشاهد؟ سنرى في الغرب، المَعَامل والمصانع والصّناعات الفلاحية ورجال الإنتاج وخالقي ثراء الجنس البشري، وسنرى في الشرق سَيْرَ رجال الدّمار."[١٣٢]

خَاتِمَةٌ

قصارى القول؛ ضِدًّا على رغبة شعبيهما ولتحقيق أهدافهما الخاصّة سعى النظامان السياسيان الفرنسي والبروسي إلى الحرب الفرنسية البروسية لـ ١٨٧٠-١٨٧١؛ فنابليون الثالث تَوَخَّى منها تمكين الإمبراطورية الثانية من بعض كبريائها، وإخماد المعارضة الجمهورية لحكمه. بينما أراد بها بِسْمَارْك شَغلَ الإمارات الألمانية المناوئة لمشروع الوحدة الألمانية، من خلال الزج بها في هذه الحرب التي يعزو صاحب كتاب: "فرنسا في مواجهة أوربا" انتصار البروسيين فيها إلى عوامل عِدّة، تتمثل في: تفوقهم التقني ومعرفتهم الدّقيقة بفرنسا وقصفهم الأحياء الفرنسية الآهلة بالسكان وتَبَنِّيهِمْ التقليد الروسي في الحروب وضعف القيادة العسكرية الفرنسية وخيانة النظام الإمبراطوري الفرنسي.

رغم أحداث ثورة الكومون، يُجزم هذا المؤرخ الشوفيني بأن هزيمة فرنسا تبقى عسكرية صِرفة في الحرب السّبعينية التي غَدَتْ بعيدها الأمة الفرنسية موحَّدَةَ الصّفوف، مستفيدة في ذلك من وحدة عضوية تميزها عن غيرها من أمم أوربا. أمام أفول نجم فرنسا المهزومة وما أعقبه من اختلال في موازين القوى بأوربا دعا ميشليه شعوب أوربا الغربية إلى الاتحاد لإبقاء بلدانها في منأى عن الأطماع البروسية والروسية والتي تظل بامتياز إلى جانب اتقاد الشعور القومي بكل من فرنسا وألمانيا أحد أسباب الحرب العالمية الأولى.

الهَوامِشُ:

(١) مجلة **المؤرخ العربي** تصدر عن الأمانة العامة للمؤرخين العرب، بغداد - العدد الأول، ص. ٧٣.

(٢) **الاتحاد الألماني الشمالي**: هو اتحاد من ٢٢ دولة مستقلة تقع شمال نهر الماين تم تشكيلها من قبل المستشار الأول أوتو ڤون بِسمارك Otto Von Bismarck (١٨١٥ - ١٨٩٨) في أعقاب انتصار بروسيا على النمسا وحل الكنفدرالية الجرمانية (1815-1866) سنة 1866. وقد استمر هذا الاتحاد ما بين 1 يوليوز 1867 و18 يناير 1871 تاريخ قيام الإمبراطورية الألمانية. (التعاريف مستقاة من موسوعة Encyclopédie Universalis 2004).

(٣) مملكة بروسيا: مملكة ألمانية قامت في مقاطعة بروسيا بين عامي ١٧٠١ و١٩١٨، كانت القوة الدّافعة الرئيسة في الوحدة الألمانية والدولة الرائدة في ألمانيا القيصرية حتى إعلان قيام الجمهورية بألمانيا في 9 نونبر ١٩١٨.

(٤) **الحرب النمساوية البروسية**: كما تُعرف أيضا بحرب التوحيد وحرب الأسابيع السّبعة والحرب الأهلية الألمانية وحرب ١٨٦٦. نشبت هذه الحرب صيف عام 1866 وتواجهت فيها كل من الإمبراطورية النّمساوية وحلفاؤها الألمان من جهة، ومملكة بروسيا والدويلات الألمانية حليفتها ومملكة إيطاليا من جهة أخرى. وأسفرت عن انتقال الهيمنة على الدّويلات الألمانية من النّمسا إلى بروسيا، والدفع باتجاه توحيد كل الدّويلات الألمانية الشمالية في ألمانيا الصغرى، وإلغاء الاتحاد الألماني القديم الذي حل محله جزئياً الاتحاد الألماني الشمالي مستبعدا النمسا والدويلات الألمانية الجنوبية.

(٥) **جول ميشليه**: (١٧٩٨– ١٨٧٤)، مؤرخ فرنسي، من بين أهم مؤلفاته: "تاريخ فرنسا" "Histoire de France" الـذي أصدره في سبعة عشر جزءا خلال الفترة الممتدة بين سنتي ١٨٣٣ و١٨٦٩. انظر: أطروحتنا لنيل الدّكتوراه في التاريخ، "**منطق الكتابة التاريخية عند المـؤرخ جـول ميشليه Jules Michelet**"، الموسـم الجـامعي: ٢٠١٣ - 2014، جامعة محمد الخامـس أكْدال، كليـة الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط.

(٦) لما اندلعت الحرب غادر ميشليه إلى إيطاليا، فاستقر بفلورانسا Florance ابتداء من ٢٩ أكتوبر ١٨٧٠، وبها أصدر كتابه: "فرنسا في مواجهة أوربا" " La France devant l'Europe " في ٢٧ يناير ١٨٧١ قبل أن يعود إلى بلده في يونيو من نفس السنة.

(7) Andrien Dansette, " Second Empire 1852-1870, 5-L'empire libéral, la guerre de 1870", Encyclopédie Universalis 2004.

(8) Espagne: histoire, 8- l'Espagne entre libéralisme et traditionalisme (1814-1923) ,8.1, L'ère des pronunciamientos (1814-1875), tentative de révolution et de république, Encyclopédie Larousse en ligne, http://www.larousse.fr/encyclopédie/divers/Espagne_histoire/185450.
Vu le :21-01-2020.

(9) A. Dansette, " Second Empire, 1852-1870, 5-L'empire libéral, ", op.cit.

(10) Ibid.

(11) Ibid.

(12) Ibid.

(13) Ibid.

(14) Paul Viallaneix, Michelet, les travaux et les jours :1798-1874, Paris, Gallimard, 1998, p.518.

(١٥) **حرب القرم أو الحرب الشرقية**: حرب قامت في 4أكتوبر1853 بين الإمبراطورية الرّوسية من جهة والدولة العثمانية وحلفائها **مصر** وتونس وبريطانيا وفرنسا ومملكة سردينيا من جهة أخرى. وكان الباعث وراءها الأطماع الإقليمية لروسيا في شبه جزيرة القرم التي كانت مسرح المعارك والمواجهات خلال هذه الحرب التي انتهت بهزيمة الروس وتوقيع اتفاقية باريس في 30 مارس 1856 التي نصت على أهمية الدّور الفرنسي في أوربا وإغلاق المضايق في وجه روسيا وجعل منطقة البحر الأسود منزوعة السلاح ومنع السفن الروسية من الملاحة في البحر الأبيض المتوسط.

(16) Jules Michelet, La France devant l'Europe, Florance, Successeurs le Monnier, seconde édition, 1871, p. ١٠٥.

(17) Ibid., p. 3.

(١٨) **بوهيم**: منطقة تاريخية في أوربا الوسطى، تحتل الأجزاء الغربية ومعظم الأجزاء الوسطى من جمهورية التشيك الحالية.

(19) J. Michelet, La France devant l'Europe, op.cit., p. 8.

(20) Ibid., p. 6.

(٢١) جرت هذه المعركة في ١٤ أكتوبر ١٨٠٦ على الهضبة الواقعة غرب نهر زاله Saale بمنطقة التيرانج Thuringe في الوسط الشرقي لألمانيا، ودارت رحاها بين القوات الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت Napoléon Bonaparte (-1769 1821) من جهة والقوات البروسية وحلفائها من إمارة ساكس Électorat de Saxe بقيادة ملك بروسيا فرديريك كْيوم الثالث Frédéric-Guillaume III (1770-1840) من جهة أخرى، وانتهت بانتصار الطرف الأول.- في أعقاب إعلان قيام الإمبراطورية الألمانية في ١٨ يناير١٨٧١ عَلَّقَ بِسمارك قائلاً: "ما كانت لتكُون ڤرساي لولا يينا".

- Cf. Andrien Jaulmes, «Sur les traces de Napoléon : Iéna, tournant franco-allemand», Le Figaro, 8-9 aout 2015, lefigaro.fr Vu le :21-01-2020.

(٢٢) كان الدخول الأول في31 مارس 1814 وأعقبه في 6 أبريل التنازل الأول لنابليون الذي نُفِيَ إلى جزيرة إلب، وكذا توقيع معاهدة باريس في 30 ماي 1814 التي وضعت الحدود الجديدة لفرنسا.

- كان الدخول الثاني في ٩ يوليوز ١٨١٥ وتلاه في ٢٢ يونيو ١٨١٥ التنازل الثاني لنابليون وتوقيع اتفاقية باريس الثانية في ٢٠ نونبر ١٨١٥ التي أعادت فرنسا إلى حدودها لعام ١٧٩٠.

(23) J. Michelet, La France devant l'Europe, op.cit., p. 11.

(24) Ibid., p. 11.

(25) Ibid., pp. 11-12.

(٢٦) **المعرض العالمي** لسنة 1867: يُدعى أيضا بالمعرض العالمي للفن والصناعة، بعد أن نَظَّمَتْ دورته الخامسة سنة ١٨٥٥ احتضنت باريس دورته السّابعة التي شاركت فيها إحدى وأربعون دولة في الفترة ما بين ١ أبريل و٣ نونبر ١٨٦٧.

(27) J. Michelet, La France devant l'Europe, op.cit., p. ١٣.

(٢٨) انظر: ياسين زينون، "**الأمة الحداثية الفرنسية من منظور ميشليه**"، دورية كان التاريخية، السنة الحادية عشرة، العدد التاسع والثلاثين، مارس ٢٠١٨- جمادى ثاني ١٤٣٩، ص. ١٠ - ١٧.

(29) J. Michelet, La France devant l'Europe, op.cit., p. 25.

(30) Ibid., p. ٢١.

(31) Ibid., pp. XXII-XXIII.

(32) Ibid., p. ٢٣.

(33) Ibid., p. ٢٤.

(34) A.Dansette, " Second Empire, 1852-1870, 5- L'empire Libéral, la question de l'unité allemande, échec de la diplomatie française ", op.cit.

جاء بِسمارك إلى الحكم وهو يحمل برنامجًا واسعًا يسعى لتحقيقه بطريقة مدروسة علمية. كان المستشار الألماني يرى أن هدف كل حكومة بروسية هو تحقيق الوحدة الألمانية؛ مقتنعا بأن زعامة بروسيا في ألمانيا تفرض عليها القيام بأعباء الوحدة، وإذا لم تقم بروسيا بذلك فإن هذا يعني أن الوحدة لن تتحقق. وكان بِسمارك يرى أن ثمة خصمان للوحدة يجب قهرهما كخطوة أولى هما: النّمسا وفرنسا، لِذَا أخذ يُعِدُّ بروسيا لخوض حربين متتابعتين الأولى ضد النمسا والثانية ضد فرنسا.

(٣٥) حرب الاستقلال الإيطالية الثانية أو الحرب الفرنسية النّمساوية أو الحرب النّمساوية السردينية أو الحرب النّمساوية البييمونتية: تمثل هذه الحرب إحدى محطات الوحدة الإيطالية، وقد استمرت في الفترة ما بين 26 أبريل و 12 يوليوز ١٨٥٩ وتواجهت فيها كل من فرنسا و مملكة سردينيا بيدمونت من جهة والإمبراطورية النّمساوية من جهة ثانية، وانتهت بانتصار الطرف الأول. في أعقاب ذلك، تم توقيع معاهدة زوريخ ما بين 10 و 11 نونبر 1859وبموجبها ضمت مملكة سردينيا لامبارديا، بينما تخلت النّمسا لفرنسا عن سافوا ونيس.

(36) P.Viallaneix, Michelet, les travaux ..., op.cit., p. 516.

الحرب الفرنسية المكسيكية وتعرف أيضا بـالتدخل الفرنسي في المكسيك: حملة عسكرية فرنسية استمرت ما بين 1861 و١٨٦٧ بغية تنصيب نظام يرعى المصالح الفرنسية بالمكسيك. من جانبهم كان المحافظون المكسيكون بأوربا يرغبون في تنصيب عاهل أوربي كاثوليكي محافظ ببلدهم الأم يحقق نوعًا من التوازن أمام الولايات المتحدة الأمريكية البروتستانتية اليافعة؛ في هذا الإطار تمكن الدّبلوماسي خوسي مانويل هيدالـڭو إي إيسنوريزار Manuel Hidalgo y Esnaurrizzar (1826- 1896) ذو التوجه الملكي المحافظ من إقناع الإمبراطورة أوجيني بقضيته. بتأثير من الإمبراطورة، وعَمَلاً بمشورة الدوق دو مــورني duc de Morny (1811- 1865) رَشَّحَ نابليون الثالث إمبراطورا على المكسيك الأرشيدوق ماكسيميليان دو هابسبورغ Maximilien de Habsbourg (1832- 1867) الذي سبق ورفض اعتلاء عرش اليونان. وبعد تردد، وبتشجيع من زوجته شارلوت Charlotte (1840- 1927) ابنة ملك البلجيك ليوبولد الأول Léopold I(er) de Bélgique (1790- 1865) قَبِلَ ماكسيميليان اعتلاء عرش المكسيك.

(37) J.Michelet, La France devant l'Europe, op.cit. pp. XXII-XXIII.

(٣٨) **الحمر**: هم الجمهوريون الفرنسيون ذوو التوجه الاشتراكي، أمثال: ليدرو رولان Ledru- Rollin (١٨٠٧ -1874) وجول فيري Jules Ferry (١٨٣٢-١٨٩٣) وجون جوريس Jean Jaurès (١٨٥٩- ١٩١٤) الذين تبنوا أسلوب الثورة والعنف لتحقيق مطالبهم واهتموا بتحسين أوضاع المزارعين والعمّال في فرنسا وأطّرُوا الحركة العمالية الفرنسية واعتمدوها كفاعل في التغيير السياسي بهذا البلد.

(٣١) انقسم المجتمع الفرنسي خلال القرن التاسع عشر إلى فريقين غير متجانستين هما: بورجوازية مثقفة وشعب أمّي، للمزيد حول هذا الموضوع راجع:

- Jules Michelet, Le Peuple, Paris, Marcel Didier, 1946, pp. 220-229. Jules Michelet, Cours professé au Collège de France par Jules Michelet 1847-1848, Paris, Chamerot ,1848, première leçon, (16 décembre 1847), pp. 9-31, et, deuxième leçon, (23 décembre 1847), pp. 35-64.

(40) J. Michelet, La France devant l'Europe, op.cit., p. 25.

(41) Ibid., p. ٥٧.

(42) Ibid., p. ٩٤.

(43) Ibid.

(44) A.Dansette, " Second Empire 1852- 1870, 5-L'empire libéral,...", op.cit.

(45) Ibid.

(٤٦) دار هذا اللّقاء يومي 19 و ٢٠ شتنبر ١٨٧٠ بين بِسمارك وجول فافْر بقصر فِريـير أون بـري Le château de Ferrières en Brie الذي اتخذه بِسمارك مقرا لقيادته إبّان حصار العاصمة الفرنسية، وينتمي هذا القصر حاليا لمحافظة السين والمارن Seine-Marne الواقعة بضواحي العاصمة الفرنسية.

(47) J.Bouillon, F.Brunel, AM.Sohn, F.Autrand, M.Bordet, Le XIX (ème) siècle et ses racines, Paris, Bordas, 1981, p. 266.

(48) J. Michelet, La France devant l'Europe, op.cit., p. 71.

(٤٩) للمزيد حول شوفينية ميشليه، راجع:

- Jules Michelet, Introduction à l'histoire universelle, Paris, Ernest Flammarion, 1897, pp. 446-471.

- J. Michelet, La France devant l'Europe, op.cit., pp. 67-74.

-J. Michelet, Le Peuple, op.cit., pp. 230-249.

(٥٠) يعتبرميشليه فرنسا كائنًا حيًا لا يمكن الفصل بين أعضائه، للمزيد حول هذا الموضوع، راجع:

- J. Michelet, La France devant l'Europe, op.cit., pp. 112-115.

(51) J. Michelet, La France devant l'Europe, op.cit., p. ١١٠.

(٥٢) لامارسييز: هو النشيد الوطني للجمهورية الفرنسية، وقد كتب روجيه دو ليسل Rouget de Lisle (1760 - 1836) الآيات أو الأسطر الستة الأولى منه بعد إعلان فرنسا الحرب على النّمسا عام ١٧٩٢. لذا فالنشيد به كلمات تدعو للحرب، من قبيل: "من أجل جيش الراين في ستراسبورغ"، لأنه كُتِبَ في فترة دقيقة من تاريخ فرنسا؛ تتصل أساسًا بالثورة الداخلية من أجل الحرية والعلمانية، والقتال ضد استبداد الكنيسة والملكية المطلقة من أجل تأسيس الجمهورية، وكذا محاربة الأعداء والغزو الخارجي لاسيما بريطانيا التي كانت ترى أن نجاح الثورة الفرنسية في إسقاط الملكية سَيُلْحِقُ بالملكية البريطانية أضرارًا قد تهدد مستقبلها، بالتالي لم تَأْلُ جهدا في إفشال الثورة الفرنسية، لكن محاولاتها باءت بالفشل. اعتمدت الجمعية الوطنية للمرة الأولى المارسيلية نشيدا لفرنسا في الفترة مابين ١٤ يوليوز ١٧٩٥ و 18ماي

١٨٠٤، وللمرة الثانية سنة 1879 زمن الجمهورية الفرنسية الثالثة، حيث تم ترسيمه بشكل دائم.
(53) J. Michelet, La France devant l'Europe, op.cit., p. 86.
(54) Ibid., p. 70.
(55) Ibid., p. 123.
(56) Ibid., p. 124.
(57) Ibid., p. 71.
(58) Henri Lerner, " Léon Gambetta (1838- 1882) ", Encyclopédie Universalis 2004.
(59) Ibid., pp. 70-71.
(60) J. Michelet, La France devant l'Europe, op.cit., p. 72.
- للمزيد حول هذا الحصار، راجع:
- J. Michelet, La France devant l'Europe, op.cit., pp. 72-74.
(61) A. Dansette, " Second Empire 1852- 1870, 5-L'empire libéral,...", op.cit.
(62) J. Michelet, La France devant l'Europe, op.cit., Préface, p.VIII.
(63) Ibid., p.7٣.
(64) Léon Strauss, " Guillaume 1(er) (1797-1888), roi de Prusse (1861-1888) et empereur d'Allemagne (1871-1888)", Encyclopédie Universalis 2004.
(65) Cf. Claire Bonotte, « Le Soleil éclipsé », Paris, Vendémiaire, 2018, p. 25, L'auteure cite M.Konïng,"Comprendre la formation de l'Allemagne..", catalogue d'exposition, Paris, musée de l'armée, 2017, 26.
(٦٦) بالاتينات الراين ولاحقاً بالاتينات الانتخابية: أراضي تاريخية في الإمبراطورية الرّومانية المقدّسة (٩٦٢ - ١٨٠٦)، حُكمت من قبل كونت بالاتينات، تمتع حكّامها منذ عام 1356 بامتياز "الأمير الناخب" في الإمبراطورية الرومانية المقدّسة. كانت أراضي بالاتينات الانتخابية أكبر بكثير من ما بات يعرف فيما بعد على الضفة الغربية لنهر الراين ببالاتينات الراينية Platinat rhénan وتشمل أيضًا أراضي تقع على الضفة الشرقية للراين بما في ذلك مدن هايدلبيرغ Heidelbrg ومانهايم Mannheim . وتقع منطقة البالاتينات الحالية بالولاية الاتحادية الألمانية راينلاند بالاتينات Rhénanie- Platinat، شرق ألمانيا.
(67)J. Michelet, La France devant l'Europe, op.cit., pp. VII-VIII.
(٦٨) استمر تيير في هذا المنصب في الفترة ما بين ١٧ فبراير و٣١ غشت وهو التاريخ الذي انتخب فيه رئيسا للجمهورية الفرنسية حتى 24 مايو ١٨٧٣.
(69) J. Bouillon,..., Le XIX(ème) siècle et ses racines, op.cit., p. 268.
(70) André Larané, La guerre franco-prussienne en bref, 1870-1871, ▪ D'humiliation en humuliation, hérodote. net, Le media de l'histoire.
www.herodote.net
Vu le :21-01-2020.
(٧١) **الرّايخ الثاني** هو الاسم الثاني للإمبراطورية الألمانية (١٨٧١-١٩١٨)، وتسمى الإمبراطورية الرّومانية الجرمانية المقدّسة (٩٦٢-١٨٠٦) بالرّايخ الأول، فيما تسمى ألمانيا النازية (١٩٣٣-١٩٤٥) بالرّايخ الثالث.
(٧٢) عبد العزيز سليمان نوار وعبد المجيد نعنعي، **التاريخ المعاصر أوربا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية**، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٣، ص. 286.
(73) «10 mai 1871, Traité de Francfort, ▪ Pénibles sacrifices», hérodote. net Le media de l'histoire.
www.herodote.net
Vu le :21-01-2020.
(74) Lazare Bonchamp, Guerre de 1870 (France-Allemagne), Conséquence de la guerre de 1870, HPT, Histoire pour tous de France et du monde.
De histoire-pour-tous.fr,proposé par
Vu le :21-01-2020.
(٧٥) بعد انتخابها في ٨ فبراير١٨٧١ اجتمعت الجمعية الوطنية في ١٢ من الشهر ذاته في مدينة بوردو التي أصبحت مقر حكومة فرنسا المؤقتة التي قامت عقب سقوط النظام الإمبراطوري.
(٧٦) نوار و نعنعي، **التاريخ المعاصر ...**، م.س، ص ص. 287 - 288.
(٧٧) نفسه، ص. 288.
(٧٨) نفسه. للمزيد حول ثورة الكومون، راجع، زينون،"**منطق الكتابة التاريخية...**"، م. س، ص. 77-78.
(٧٩) **الجيش الكبير**: هو الجيش الذي شارك في الحروب النابليونية من ١٨٠٤ إلى ١٨١٥ تحت قيادة الإمبراطور الفرنسي نابليون الأول، وقد احتوى على ١٤ فيلق مشاة وفيلق فرسان، وكان بقيادة المشير يواكيم مورات Joachim Murat (١٧٦٧ -١٨١٥) أغلب الوقت.
(80) Louis Madelin, "La domination française de Rome de 1809 à 1814", Revue des Deux Mondes, LXXV ° année, cinquième période, T.28, juillet-aout, Paris, Bureau de la Revue des Deux Mondes, 1905, p. 614.
(81) J. Michelet, La France devant l'Europe, op.cit., p. ١١٧.
(٨٢) **حرب استقلال الولايات المتحدة**، أو حرب الاستقلال الأمريكية، أو حرب الاستقلال، وتسمى أيضا الحرب الأنجلو أمريكية الأولى: حرب كان طرفاها ولايات أمريكا الشمالية الثلاثة عشر وبريطانيا العظمى، استمرت بين عامي ١٧٧٥ و1783. منذ ١٧٧٧ دخلت الحرب قوى أوربية أخرى، من ضمنها فرنسا بتوجيه من لافاييت La Fayette (1757- 1834) والتي انخرطت في الحرب في البداية بتوفير الإمدادات والمساعدات لصالح الثوار الذين أطلق البريطانيون عليهم لقب "المتمردين" أو أيضًا "الوطنيين" قبل أن تدخلها بشكل رسمي منذ سنة 1778. ساهم في الانتصار الأمريكي الدعم البحري والبري ومساعدة الحلفاء، لاسيما في معركة يوركتاون Yorktown التي استمرت ما بين 28 شتنبر و 19أكتوبر1781، وأعقبها توقيع اتفاقية باريس في 3 شتنبر1783 التي اعترفت باستقلال الولايات المتحدة الأمريكية وهو ما زكاه الكونغرس القاري في 4 يوليوز 1776.
(٨٣) **الولايات الكونفدرالية الأمريكية** وتعرف اختصارًا بالكنفدرالية: هي كنفدرالية للدّول التي أعلنت نفسها مستقلة في أعقاب انفصال دول جنوب الولايات المتحدة عن الولايات المتحدة المسماة بـ"الاتحاد" " l'Union". استمرت الكنفدرالية في الفترة مابين 1861 و1865 قبل أن

تندمج بعد نهاية الحرب الأهلية الأمريكية في الولايات المتحدة الأمريكية، وامتدت أراضيها على معظم جنوب الولايات المتحدة. بسبب الحرب بين ولايات الكنفدرالية والاتحاد، لم يتم تحديد نهائي للحدود الشمالية للكنفدرالية، بينما شكلت المكسيك حدودها الجنوبية.

(٨٤) ينعَتُ ميشليه الثورة الفرنسية "بالمؤسّسة" لأنها مَثّلَتْ بمبادئها وتوصياتها قطيعة مع النظام القديم، للمزيد حول هذا الموضوع، راجع:

- Paul Viallaneix, Cours au Collège de France par Jules Michelet, Paris, Gallimard, 1995, tome. II, (1845-1851), cours de 1845, L'esprit et la portée de la Révolution, premier semestre : Non pas la Révolution mais la Fondation, pp.17-47.

(85) J. Michelet, La France devant l'Europe, op.cit., pp. -١١٨ ١١٧.

(86) Ibid., p. 49.

(87) Ibid., pp. 69-79.

(٨٨) للمزيد حول تطور الآلة بأوربا القرن التاسع عشر، راجع:

- J. Michelet, La France devant l'Europe, op.cit.," Triomphe de la machine", pp. 41-48.

(89) J. Michelet, La France devant l'Europe, op.cit., p. 4٣.

(90) Ibid., pp. 44-45.

(91) Ibid., pp. ٤٥ -٤٦.

(92) Ibid., p. 42 .

(93) Ibid., p. 41.

(٩٤) **اللوندووهر الباڤارية**: "لوندووهر" "Landwehr" أو "لوندسووهر" "Landeswehr" كلمة ألمانية تعني الدّفاع عن البلد. خلال القرن التاسع عشر وبداية العشرين أطْلِقَ هذا الاسم في أوربا عذلى بعض الجيوش الوطنية والميليشيات. في بروسيا تشكلت وحدات اللونووهر بمقتضى المرسوم الملكي لـ ١٧ مارس ١٨١٣ الذي استدعى إلى الخدمة العسكرية الرجال القادرين على حمل السلاح المتراوحة أعمارهم بين ١٨ و٤٥ سنة. وبعد مؤتمر ڤيينا تم إدماج هذه القوة في الجيش البروسي؛ فكل سَرِيَّة في الجيش كانت تتألف من طابور وكتيبة من اللوَنووهر، لكن ذلك أضعف القدرة القتالية لطلائع الجيش البروسي، لِذا تم إلحاق وحدات اللونووهر بالصّف الثاني خلال التنظيم الذي خضع له الجيش سنة ١٨٥٩.

(95) J. Michelet, La France devant l'Europe, op.cit., p. ٤٢.

(96) Ibid., p. 14.

(97) Ibid., p. 27.

(98) Ibid., p. 37.

(99) A.Dansette, " Second Empire, 1852-1870, 5-L'empire libéral,…", op.cit.

(١٠٠) **لويس فولتز**: (١٧٩٢- ١٨٦٥) ، عقيد في الجيش السويسري. للمزيد حول هذه الشخصية العسكرية، راجع:

-Burnand, René, La jeunesse du colonel Louis Foltz, Revue historique vaudoise, année,1947, série,55, heft,3, pp. 124-139.

(101) J. Michelet, La France devant l'Europe, op.cit., p. 51.

(102) A. Dansette, " Second Empire ,1852-1870, 5- L'empire libéral… ", op.cit.

(81) Ibid.

(104) J. Bouillon, …, Le XIX ème siècle…, op.cit., p. 266.

(105) Michelet, La France devant l'Europe, op.cit. p. ٦٢.

(106) Ibid., p.٦٣.

(107) Ibid., p. 60.

- **فوج**: إقليم فرنسي تابع لمنطقة اللورين، وقد أخذ اسمه من هضاب فوج.

(108) Michelet, La France devant l'Europe, op.cit., p. 60.

(١٠٩) سنة ١٨٦٠ أُسنِدت إلى الجنرال دوباليكاو قيادة القوات الفرنسية إبّان حرب الأفيون الثانية (1856-1860) التي شنتها فرنسا وإنجلترا على الصّين تدعمهما كل من الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا. في ٢١ شتنبر من نفس السنة ألحقت جيوش التحالف الفرنسي البريطاني الهزيمة بالقوات الصّينية بالقرب من قنطرة باليكاو Palikao وغزت بعيد ذلك حديقة يوانمينغيوان parc Yuanming بضواحي بكين، فدمرت هذه الحديقة وهدمت ونهبت كنوزها حتى أصبحت الحديقة أطلالا إلى اليوم وسيطرت على بكين، مما كان إيذانا بهزيمة سلالة تشينغ Qing، في أعقاب ذلك تم توشيح دوباليكاو في ٢٦ دجنبر ١٨٦٠ بالصّليب الأكبر لجوقة الشرف.

(110) Michelet, La France devant l'Europe, op.cit. p. 61.

(111) Ibid., p. 49.

(112) Ibid., pp. 87-88.

(113) Ibid., p. VI.

(114) Ibid., p. 79.

(115) Ibid., p. 80.

(116) J. Bouillon, …, Le XIX ème siècle…, op.cit., p. 268.

(117) J.Michelet, La France devant l'Europe, op.cit., pp. IV-VIII.

(118) Ibid., p. 121.

(119) Ibid., p. ١٢٣.

(120) Ibid., p. 70.

(121) Ibid., pp. 124-125.

(122) Ibid., pp. 112-113.

(١٢٣) **الفينيانيون**: هم القوميون الإيرلنديون الذين تبنّوا أسلوب العنف في مقاومة الاحتلال البريطاني لإيرلندا خلال القرن التاسع عشر.

(124) J. Michelet, La France devant l'Europe, op.cit., pp. 113-114.

(125) Jules Michelet, Introduction à l'histoire universelle, Paris, Ernest Flammarion, 1897, pp. 460-461.

(126) J. Michelet, La France devant l'Europe, op.cit., p. 113.

(127) Ibid.

(128) Ibid., p. XV.

(129) Sylvain Zuber, « L'Europe Bismarckienne (1871-1890), ou la paix par l'équilibre des puissances »,
https : // les- yeux- du monde. fr/ histoires/ 8361-1٪E2٪80٪99europe-bismarckienne
Vu le :21-01-2020.

(130) J. Michelet, La France devant l'Europe, op.cit., p. XII.

(131) Ibid., p. XIV.

(132) Ibid., p. XIX.



Historical Kan Periodical
ISSN: 2090 – 0449 (Online).
Peer-reviewed, open-access journal, indexed and abstracted in several international databases.

info@kanhistorique.org